

٩١

خروج النصارى من بلادهم

والعلماء الكرام

غريباً فيهم

قبل الانتصار وأثارة الحصار

تأليف

الدكتور محمد رشيد رزق الله

الطبعة الأولى

١٩٨٨ م ١٤١٠ هـ

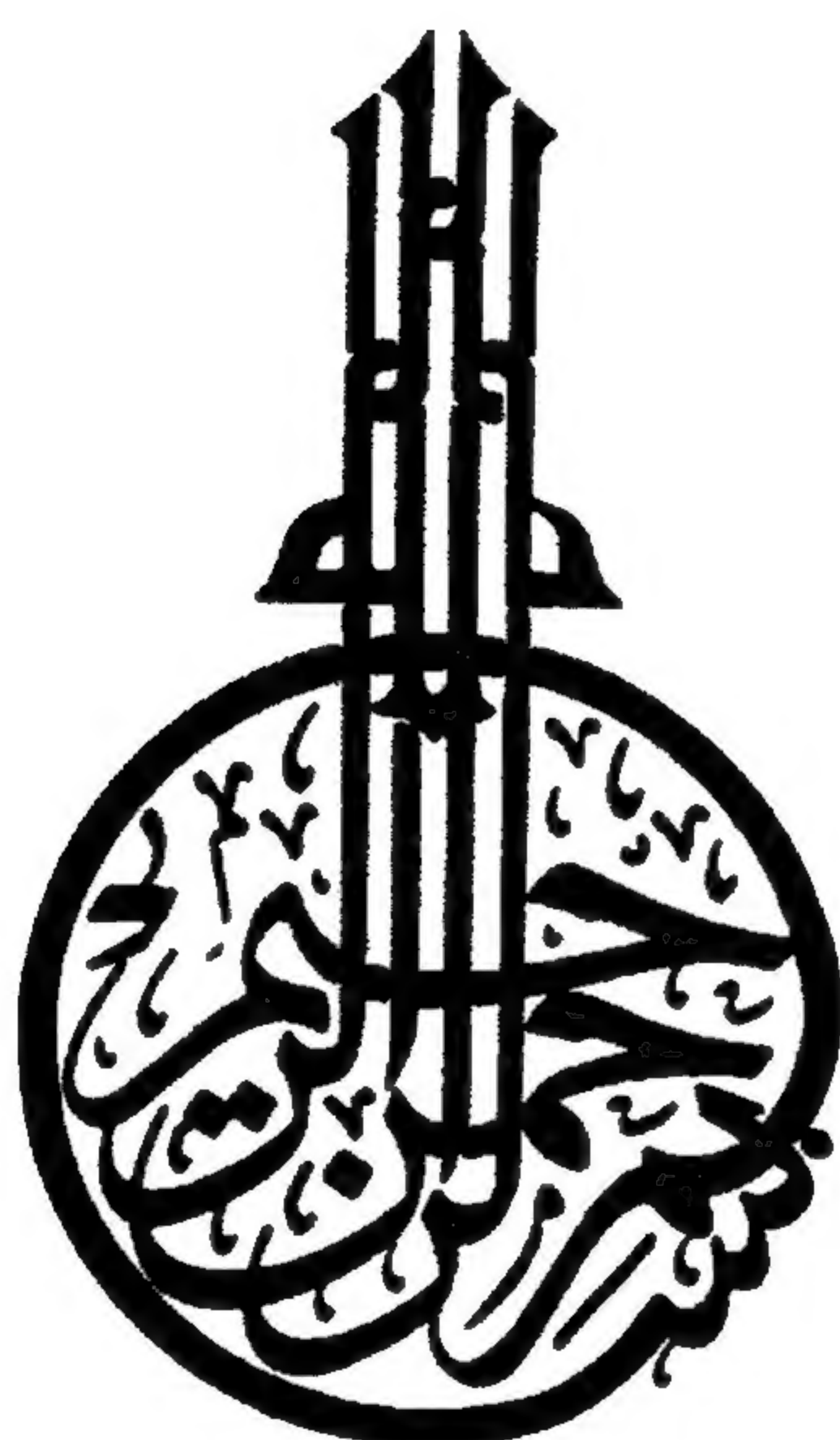




















مَرْكَزُ الْمَعْلَمَةِ لِلتَّحْقِيقِ وَالْبَحْثِ فِي الْأَسْئَلَةِ الْأَمِينَةِ

٩١

# حركة التجارة والهدنة

والتعليم الإسلامي

في غربي إفريقيا قبل الاستعمار

وأنا لها المضاربة

الدكتور محمد بن رزق الله أحمد

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

ص. ب (٥١٠٤٩) الرياض ١١٥٤٣

③ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤١٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

أحمد، مهدي رزق الله

حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقيا .- الرياض .

٨٥٢ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك ٩٩٦٠-٧٢٦-٣٢-٠

١ - إفريقيا الغربية - تاريخ إسلامي ٢ - التجارة أ - العنوان

١٩/١٧٧٩

ديوي ٩٥٣،٠٧٢

رقم الإيداع: ١٩/١٧٧٩

ردمك: ٩٩٦٠-٧٢٦-٣٢-٠



مطبعة

مركز الملك فيصل

للبحوث والدراسات الإسلامية



## مقدمة المؤلف

### (١) بواحث وأهمية موضوع الكتاب

إن أصل هذا الكتاب هو بحث نلت به درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بمرتبة الشرف الأولى من جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية - قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، عام ١٩٧٧م، تحت عنوان «تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي إفريقية قبل الاستعمار». وعندما هيا الله لنا إعادة طبعه ثم نشره على نطاق واسع لتعم الفائدة، أضفت إليه جزءاً من بحثي التكميلي لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير من الجامعة والقسم نفسيهما، عام ١٩٧٤م، تحت عنوان «دور العلاقات التجارية في دخول الإسلام إلى غربي إفريقية». كما أضفت معظم المبحث الرابع من الفصل الثالث، بعنوان: «دولة الفولاني الإسلامية»، والمطالب الآتية: الخامس: «حركة الشيخ صالح جتتا»، والسادس: «حركة الشيخ حمد»، والسابع: «حركة الشيخ عمر الفوتي»، والثامن: «حركة الشيخ ماباجاخو»، والتاسع: «حركة الشيخ فودي كبا»، والعاشر: «حركة الشيخ محمد الأمين درامي»، والحادي عشر: «حركة الشيخ أحمد بامبا»، وهذه المطالب السبعة من المبحث الخامس للفصل التاسع. وأضفت المبحث السادس من الفصل التاسع: «الأثر الحضاري الإسلامي للحركات الإصلاحية الإسلامية»، وبعض الزيادات إلى المبحث الخامس من الفصل التاسع: حركة الشيخ عثمان بن فودي، ومعظم الخرائط.

إن مما حفزني إلى اختيار هذين الموضوعين عدة اعتبارات، أولها: أن بعض المثقفين في المشرق الإسلامي يجهلون تاريخ وحضارة الإسلام في إفريقية بصفة عامة وغربي إفريقية بصفة خاصة، فكان لابد من إلقاء الضوء على تاريخ وحضارة الإسلام في غربي إفريقية، بداية لدراسات تالية - إن شاء الله -



تشمل أجزاء أخرى من القارة الإفريقية، ليقف أبناء المشرق الإسلامي على تاريخ وحضارة دينهم الإسلامي في إفريقيا.

ويتمثل الاعتبار الثاني في أنني وجدت في جامعة الأزهر عزوفاً من طلاب الدراسات العليا عن دراسة التاريخ الإسلامي الإفريقي، وخاصة جنوبي الصحراء، فوددت أن أكون حافزاً لهم إلى ولوج هذا المضمار، لاسيما وأن للأزهر دوره المشهود في التاريخ الثقافي الإسلامي الإفريقي، منذ أن عرفت إفريقيا الإسلام، أيام أصحمة النجاشي، وأولى بطلاب الأزهر أن يتقدموا غيرهم في هذا الميدان.

أما الاعتبار الثالث فهو أنني أردت أن يعرف المسلمون العرب في المشرق الإسلامي أن العرب المسلمين، إبان ازدهار حضارتهم، كانوا أكثر من جابوا القارة الإفريقية وكتبوا عنها، وأسهموا مساهمة أصيلة في استجلاء تاريخها، وأضحوا فرسان هذه الحلقة، الذين لا يمكن إغفال الإشارة إلى كتاباتهم في أي بحث عن تاريخ إفريقيا، وخاصة غربيها.

والاعتبار الرابع هو أن هذا العصر هو عصر البحث في التاريخ الإفريقي والاهتمام به، وأصبحت معظم الجامعات العالمية، وعلى رأسها الجامعات الغربية، تخصص له الكراسي العلمية، وتجذب إليها شباب المسلمين للتخصص في هذا الحقل، ولعل الأجدر بنا نحن أبناء إفريقيا المسلمين أن نكون أول من يهتم بتاريخ إفريقيا الإسلامي.

والاعتبار الخامس هو أن الدوائر الاستعمارية اهتمت بإفريقية اهتماماً بالغاً منذ مطلع العصر الحديث، وذلك لما تزخر به هذه القارة من ثروات متنوعة تحتاج إليها الصناعة الغربية، مثل النفط واليورانيوم والذهب والألماس والنحاس والمحاصيل الزراعية المتنوعة. وازداد الاهتمام بهذه القارة في عالم



اليوم لما تمثله من أهمية استراتيجية في السياسة الدولية والإقليمية. وتتعاون الصليبية الدولية والدوائر الاستعمارية والصهيونية العالمية في محاولة لفك الارتباط بين إفريقية والعالم الإسلامي بشتى الوسائل والأساليب. وكان لابد للباحثين المسلمين العرب أن يبرزوا لأمته الإسلامية علاقة إفريقية بالعروبة والإسلام، وأنه لابد من تقوية هذه العلاقة، لأن هذا من الواجبات الدينية والقومية.

والاعتبار السادس هو أن المنظمات الكنسية التنصيرية اهتمت اهتماماً بالغاً بالكشف عن تاريخ إفريقية ودراسته دراسة واعية تعينهم في تحقيق أهدافهم التنصيرية، وليس أدل على ذلك من كثرة كتابات المنصرين الأوروبيين عن تاريخ إفريقية، وبخاصة البريطانيون والفرنسيون، ومن أشهر الأسماء في هذا الميدان، القس المستشرق البريطاني جون اسبنسر ترمينجهام. الذي من كتبه:

تاريخ الإسلام في غربي إفريقية - الإسلام في غربي إفريقية - الإسلام في شمالي إفريقية. الإسلام في السودان - الإسلام في شرقي إفريقية - الإسلام في الحبشة - أثر الإسلام على إفريقية - المفهوم النصراني للإسلام في السودان - الكنيسة النصرانية في السودان مابعد الحرب العالمية الثانية - الكنيسة والبعثات التنصيرية في اثيوبيا - الكنيسة النصرانية والإسلام في غربي إفريقية.

والمفترض أن يكون المسلمون العرب فرسان هذا الميدان، لأن تاريخ إفريقية امتداد لتاريخ العرب المسلمين في المشرق الإسلامي، ولانستطيع القيام بواجبنا تجاه إخواننا في إفريقية إلا إذا تعرفنا تاريخهم لمعرفة احتياجاتهم الفعلية، في هذا الزمان الذي تتكالب فيه الأمم علينا كما تتكالب الأكلة على قصعتها.

وفي ضوء هذه الاعتبارات وغيرها، حددت حقل دراستي العليا،



واخترت الموضوعين المشار إليهما في صدر هذه المقدمة، لأنني لم أجد باحثاً قبلي - حسب علمي - قد طرق هذين الموضوعين في بحثين متكاملين، بل وجدت، إشارات إلى هذين الموضوعين تأتي في ثنايا الكتابات التي تعالج قضايا عامة في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية في غربي إفريقيا.

ولا أزمع أن بحثي في موضوع «تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي إفريقيا قبل الاستعمار»، أو بحثي في موضوع «دور العلاقات التجارية في دخول الإسلام إلى غربي إفريقيا» سيتعدى أكثر من مجرد الإسهام في الدخول بأبحاث التاريخ الإفريقي إلى مرحلة الشروع في محاولات التعمق الكفيل بإخصاب ميدانها، فإن جاء عملي متناسباً وهذا الحد، فذلك هو قصدي منذ البداية، وحسبي أنني اجتهدت، والله أسأل أجري المصيب أو أجر المخطئ.

ثم أولاً وأخيراً أحمد الله سبحانه وتعالى الذي وفقني لإعادة طبع هذا الكتاب، الذي ظل حبيس مكتبة كلية اللغة العربية بالأزهر ومكتبة جامعة الأزهر ومكتبتي الخاصة منذ عام ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م. كما أشكر كل القائمين على أمر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الذين رحبوا بنشر هذا الكتاب عندما تسلموه مني في عام ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، وحكموه. ولولا كثرة أعباء المركز في مجالي الطباعة والنشر وحرصهم على خروج الكتاب بصورة جيدة لكان الكتاب بين أيدي كل الراغبين من القراء والباحثين قبل مدة. والله أسأل أن يوفق الجميع إلى ما فيه الخير.



## (ب) دراسة عن أهم مصادر البحث

### أولاً - المصادر العربية والإسلامية:

#### (أ) ماكتبه المسلمون من خارج غربي إفريقيا :

إن من حسن حظي أن تكون هذه الفئة من الكتاب كبيرة بحيث مكنتنا من إلقاء الضوء الساطع على تاريخ هذه المنطقة الحية من العالم الإسلامي، ومنهم: ابن الفقيه (ت بعد ٢٩٠هـ / ٩٠٣م) مؤلف «كتاب البلدان»، وابن خرداذبه (ت حوالي ٣٠٠هـ / ٩٢٢م) مؤلف كتاب «المسالك والممالك»، والإصطخري (ت في النصف الأول من القرن ٤هـ / ١٠م) صاحب كتاب «المسالك والممالك» وابن حوقل (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) مؤلف «المسالك والممالك» أو «صورة الأرض»، وأبو عبيد البكري (ت ٤٩٦هـ / ١١٠٢م) مؤلف كتاب «المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب»، وهو جزء من كتابه «المسالك والممالك» والإدرسي (ت ٥٦٣هـ / ١١٦٦م) صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وياقوت الحموي (ت ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م) صاحب كتاب «معجم البلدان»، وزكريا بن محمد القزويني (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) صاحب كتاب «آثار البلاد»، وعلي بن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) مؤلف «بسط الأرض في الطول والعرض»، وابن أبي زرع (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٦هـ) صاحب «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس»، وأبوالفداء (ت ٧٢٣هـ / ١٣٣٢م) صاحب «تقويم البلدان» وابن الوردي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) صاحب «تتمة المختصر في أخبار البشر»، وأحمد بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) مؤلف «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» و«التعريف بالمصطلح الشريف» وابن بطوطة (ت ٧٨٠هـ / ١٢٧٨م) صاحب الرحلة المعروفة بـ: «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب



الأسفار»، وابن خلدون (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) صاحب كتاب «العبر...»  
والقلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) مصنف كتاب «صبح الأعشى في صناعة  
الإنشاء»، والمقرئزي (ت ٨٤٦هـ / ١٤٤٢م) مصنف المؤلفات العديدة منها  
«الذهب المسبوك» و«الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام»  
و«السلوك»، و«اليقوبي» (ت ٨٩٧هـ / ١٤٩١م) صاحب «البلدان»، وحسن  
الوزان - ليو الإفريقي (ت ٩٥٩هـ / ١٥٥٢م) مصنف كتاب «تاريخ ووصف  
إفريقية».

أما أهم هؤلاء الذين ذكرناهم فهم: -

(١) البكري (ت ٤٩٦هـ / ١١٠٢م)<sup>(١)</sup>

«المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» وهو جزء من كتاب «المسالك  
والممالك»

هو أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد البكري القرطبي. ولد  
بقرطبة بعد سنة ٤١٣هـ / ١٠٢٠م<sup>(٢)</sup>، وتوفي بها، ونشأ في أسرة وبيئة  
علمية، ويتنسب إلى قبيلة بكر بن وائل العربية. شارك بعض أفراد أسرته في  
الحياة السياسية.

لم يغادر البكري في حياته أرض الأندلس، ولذلك فإن مؤلفاته العلمية  
لا تعدو أن تكون جمعاً لجهود من سبقوه من المؤرخين والجغرافيين. وكذلك أفاد  
من مؤلفات لاتينية معربة. ويعد كتاب «المسالك والممالك» أعظم ما صنفه من  
توالمف جغرافية وتاريخية، إلا أنه لم يصلنا منه سوى أجزاء، منها الجزء

---

(١) هذا التاريخ يخالف فيه غيره لأول مرة الباحث عبدالله الغنيم في بحثه: مصادر البكري ومنهجه  
الجغرافي. ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت ١٩٧٤م. ص ٢٠. أما من سبقه من الباحثين  
فكانوا يقولون بأن وفاته سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩، ويرى من سبق غنيم من الباحثين أن مولده كان سنة ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م.

الخاص بوصف المغرب، الذي قام بنشره لأول مرة بالفرنسية «كاترمير»، ثم نشر المستشرق دي سلان النص العربي لهذا الجزء في الجزائر سنة ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧م، ثم أعاد نشره للمرة الثانية سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م، ونشر الترجمة الفرنسية له سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م. وهذا الجزء المنشور يحدد بلاد إفريقية والمغرب بأنها المنطقة الممتدة من برقة شرقا إلى طنجة غربا. ويسمى فيه غربي إفريقية بالسودان الغربي. والجزء الثاني يتصل بالجزيرة العربية، قام بدراسته وتحقيقه ونشره عبدالله يوسف الغنيم<sup>(١)</sup> ويتضمن هذا القسم الكلام عن حدود الجزيرة العربية وما خصت به من المعادن والصناعات، وما كان يحمل إليها من المنتجات. وجزء ثالث نشره عبدالرحمن علي الحجي، يختص بجغرافية الأندلس وأوربة، وقطعة رابعة عن الروس والصقالبة، قام بنشرها فون روزن وكونك في بطرسبرج سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م، كما نشر كوفالسكي قطعة من الكتاب عن الصقالبة سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م.

أما الجزء الخاص بغربي إفريقية فقد قام بتحقيقه ودرسته حيدر خوجلي محمد حسن<sup>(٢)</sup> معتمدا على عدة نسخ مخطوطة محفوظة في مكتبات العالم المختلفة. وهذا الجزء هو الذي يهمننا مباشرة، وهو ضمن الجزء المنشور بالجزائر بعنوان «المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب»<sup>(٣)</sup> وقد أفرد له عنوانا جانبيا، وهو «ذكر بلاد السودان ومدنها المشهورة واتصال بعضها ببعض، والمسافات بينها، وما فيها من الغرائب وسير أهلها»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) المرجع نفسه، الجزء الثاني.

(٢) أبو عبيد البكري - حياته وآثاره العلمية التاريخية (٤١٣ - ٤٩٦هـ / ١٠٢٢ - ١١٠٢م). رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٤م.

(٣) انظر، ص ١٧٢ وما بعدها من «المغرب».

(٤) المغرب، ص ١٧٢.



وتنقسم مادة البكري في هذا الجزء قسمين، قسم يمثل دراسة أوفت الموضوع حقه، وكثيرا ما تفردت بحقائق أصيلة عن دولة غانة. أما القسم الثاني فهو نصوص وإشارات مقتضبة عن بعض المدن والدول التي قامت في غربي إفريقيا، وهي من أقدم المعلومات التي حفظت عن تاريخ هذه المنطقة، ولا غنى عنها لكل دارس.

يبدأ البكري وصفه لغربي إفريقيا بالحدود الشمالية المتاخمة لمناطق قبائل البربر من جهة الجنوب. وأول ما ذكره من البلاد هي صنغانة، على الضفة اليسرى لنهر النيجر، الذي يسميه البكري بالنيل. ويشير البكري إلى قرب قبيلة جدالة البربرية المسلمة من بلاد السودان. وهذا القرب والجوار جعل من هذه القبيلة عنصرا مهماً في نشر الإسلام بغربي إفريقيا منذ زمن قديم. فقد كانت تسيطر على الطرق التجارية بين المغرب وغربي إفريقيا كما سيجيء ذكره.

ويمدنا البكري بمعلومات مفيدة عن مدينة تكرر وقدم الإسلام فيها، وأول من أسلم من ملوكها، ودوره في إقامة الشريعة الإسلامية في تلك الأصقاع، ونشر الإسلام فيما جاوره من مناطق مثل مدينة سلى. ثم يقف قليلا عند مدينة سلى، ويذكر أنها مدينتان على النيجر. ثم يقفز بعد ذلك إلى ذكر غانة، ويحدد المسافة بينها وبين سلى بعشرين يوما، ويقطن في هذا البون الشاسع قبائل عدة في عمائر متصلة. ويذكر الصراع بين ملك سلى المسلم وكفار هذه المناطق، وأقربهم إليه أهل مدينة قلنبو.

ويمدنا البكري بمعلومات هامة عن غانة، من حيث ثنائية تكوينها - مدينة للمسلمين وأخرى للكافرين - ويذكر عدد مساجد غانة المسلمة وعلماءها، وتجارها في الذهب، وعاداتها الاجتماعية، وبعض أمورها السياسية.

أما كتابته عن دولة مالي فقد كانت أقل كما وكيفا، وعلى الرغم من

ذلك فقد أثبت الدارسون للبكري الفضل في أنه قد سبق غيره من المؤرخين إلى استعمال الاسم «مالي» ورسمه «ملل»، وذكر اسم أول من أسلم من ملوك هذه الدولة التي كانت في زمانه مستقلة.

ولم تحظ دولة سنغي إلا باليسير من اهتمام البكري، لأن ازدهارها كان ما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر الميلاديين، ولكنه تعرض لبداية دخول الإسلام إلى أهم مدن هذه الدولة، وهي مدينة كوكو، التي أصبحت فيما بعد إحدى عواصم دولة سنغي.

أما دولة الكانم، فإن نصوص البكري عنها تعد من أقدم النصوص التي وصلتنا، ولكنها قليلة وربما يرجع ذلك إلى عدم إسلامها في ذلك الوقت. وقد كان البكري معاصرا لأحداثه التي ذكرها، ومن أدلة ذلك قوله «وأمر المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة تنكامين، وولي سنة خمس وخمسين»<sup>(١)</sup>.

وأهم الشخصيات التي اعتمد عليها البكري كمصادر عن غربي إفريقية، شخصية الفقيه أبي محمد بن عبد الملك<sup>(٢)</sup> وشخصية أبي عبدالله المكي<sup>(٣)</sup>. ولم تخل كتاباته من روح النقد للروايات وترجيح بعضها على بعض<sup>(٤)</sup>. أما منهجه في التأليف فهو طبقا للمكان لتأثره بالجغرافية، وبذلك حاد عن منهج مدرسة التقسيم طبقا للسنين كالطبري، أو حسب الموضوعات مثل ابن الأثير.

---

(١) المغرب، ص ١٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٤) انظر مثلا المصدر نفسه، ص ١٤٩.



(٢) الإدريسي (ت ٥٦٤ / ١١٦٦ م)<sup>(١)</sup>

### «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، ونسبته إلى الأشراف الأدارسة. يرى الكثيرون أنه ولد بسبته سنة (٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م). تلقى علومه الأولى في المغرب، ثم انتقل إلى قرطبة مواصلاً دراساته. ثم قام برحلات في الأندلس والمغرب ومصر وآسيا الصغرى، ويذكر أنه زار فرنسا وإنجلترا<sup>(٢)</sup>. وزار صقلية، واتصل بملكها رُجار «Roger» الثاني، فنزل في بلاطه، فأكرم وفادته: لأنه رأى فيه العالم الذي يشبع نهمه في الاستزادة من معرفة علوم الفلك والجغرافية، وطلب منه تصنيف كتاب في صفة الأرض من واقع مشاهداته، فعكف الإدريسي على هذا العمل حتى أتمه في سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م وأضاف إليه قسماً سماه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، استغرق تصنيفه خمسة عشر عاماً<sup>(٣)</sup>. وظل الكتاب ينسب إلى الملك، فيقال «كتاب رجار»<sup>(٤)</sup>، أو «الكتاب الرجاري».

والكتاب يزخر بالمعلومات القيمة عن بلاد المغرب والأندلس، ومعظمها معلومات شخصية استقاها من مشاهداته في رحلاته وأسفاره، ومن مصادر أخرى. وقد ترجم بعض الكتاب إلى اللاتينية. وقد نشر المستشرقان دوزي ودي غويه الجزء الخاص بإفريقية والأندلس من «نزهة المشتاق» في ليدن سنة ١٢٨١ هـ / ١٨٦٤ م بعنوان: «وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس». وقد أعاد سافورا نشر هذا الكتاب مصححاً في مدريد سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨١ م.

---

(١) يذكر جورجى زيدان أن وفاة الإدريسي كانت عام ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م، والمعروف أن هذا التاريخ هو تاريخ الفراغ من مؤلفه «نزهة المشتاق».

(٢) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، ١٩٦٥. الناشر: دار السلمى، ص ٢٤٨.

(٣) المرجع والمكان نفسهما.

(٤) انظر مثلاً: ابن خلدون: العبر، ج ٦، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦، ص ٤١٢.

وطبع روزن ملر وصف الشام وفلسطين في ليسك سنة ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م،  
وطبع ماري وغيره القسم الخاص بايطاليا سنة ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م في رومية،  
وفي كل طبعة شروح وتعليق. واشتغل غيرهم في ترجمة أقسام منها إلى  
ألسنتهم، وطبعت الترجمات وحدها أو مع أصلها العربي. ويوجد جزء من  
نزهة المشتاق «برسومها وصورها بدار الكتب المصرية»<sup>(١)</sup> وتقع في خمس  
وثلاثمائة صفحة من الحجم الكبير. وفي خرائطه التي رسمها أظهر أنه أول من  
عرف حقيقة منابع النيل، فصورها بحيرات عند خط الاستواء كالتي اكتشفها  
علماء القرن الماضي (١٢٧٥هـ / ١٨٥٨م)، وهما: بحيرتا فكتوريا وألبرت.<sup>(٢)</sup>  
وقد أمدنا الإدريسي بمعلومات قيمة وأصيلة - في كتابه المذكور - عن بلاد  
غربي إفريقية. فقد تكلم عن مدينة أوليل حيث مصدر الملح الذي يجلب منه  
إلى غربي إفريقية منذ القدم ويستبدل به الذهب. وتكلم عن مدينة سلى التي  
كانت تحت حكم ملك التكرور، وعن مملكة التكرور المستقلة، ووصف التجارة  
بينها وبين المدن الأخرى وبين المغرب، وعن المسافات بين المدن المختلفة في  
المغرب وغربي إفريقية. وتكلم عن العلاقات بين سلى وتكرور، وغانه،  
وبريسي من ناحية، وعن أرض للم التي تقع جنوباً من ناحية أخرى، وهي  
علاقات غير ودية في الغالب. ونراه يذكر معلومة هامة عندما قال «والنيل  
يجري في هذه الأرض من المشرق إلى المغرب»<sup>(٣)</sup>، وهو يعني بذلك نهر

---

(١) انظر الفهارس، رمز «جغرافية»، رقم: ١٥٠، أما الخرائط الجزئية التي تضمنها هذا الكتاب فقام  
بجمعها مستشرق ألماني من مكاتب مختلفة وألف منها خريطة كاملة ملونة، كتبت باللاتينية سنة  
١٩٣٣م. ثم أخرجها المجمع العلمي العراقي بالعربية سنة ١٠٥١. انظر: المغرب عبر التاريخ، مرجع  
سبق ذكره، ص ٢٤٨.

(٢) انظر الإدريسي، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص ١٩ - ٢٠، المغرب عبر التاريخ، المصدر  
السابق، ص ٢٤٨.

(٣) نزهة المشتاق، ص ٣٠.



النيجر، وبذلك كان له السبق في تحديد مجرى هذا النهر وليس «منجوبارك» في نهاية القرن الثامن عشر.

وأمدنا بمعلومات فريدة عن بلدة «ونغارا» المشهورة، حيث الذهب وتجارته. وعول الباحثون كثيرا على وصفه لهذه المنطقة.

أما مالي في زمانه فكانت صغيرة غير ذات شأن، بل كان الشأن لغانة التي أطنب في وصفها أكثر مما فعل البكري، وكذلك سنغي لم يرد لها ذكر عنده لتأخرها في الظهور، ولكنه، مثل البكري، تعرض لكوكو واستقلالها، وناقش من سبقه حول موقعها، هل هي على الخليج أم على النيجر،؟ ونراه لأول مرة يفرق بين لفظي كوغه وكوكو. ويرى كوغه تابعة لونغارا. ويذكر أن من الناس من يجعلها من كانم. أما كوكو فهي عنده مملكة مستقلة.

ويذكر لأول مرة مدينة أنجيمي الكائمية، وكانت في زمانه صغيرة. وعموما فقد أمدنا بمعلومات لاغنى عنها لكل من يتعرض لتاريخ هذه المنطقة، وأفاد معظم العالم بمعلوماته الفريدة ونظرياته الجديدة في علم الجغرافية.

(٣) العمري (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م)

«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»

هو أبو العباس، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن يحيى ابن وعجان. ويتصل نسبه بعمر بن الخطاب، ولذلك عرف بالعمري. ولد في دمشق سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م، وتعلم فيها وفي القاهرة والإسكندرية والحجاز. وتولى خطة القضاء وغيرها بالقاهرة. ومات بدمشق. وهو مؤرخ حجة في معرفة الممالك والمسالك والبلدان، وإمام في الترسل والإنشاد، عارف برجال عصره، غزير المعرفة بالتاريخ، وأجل آثاره العلمية كتابه «مسالك الأبصار»، وهو موسوعة في بضعة وعشرين مجلداً، منه نسخة مخطوطة

مصورة بالفوتغراف بدار الكتب المصرية. وهو من المؤلفات المهمة في الأدب والتاريخ والجغرافية، وهو أكثر شبيهاً بـ«نهاية الأرب» للنويري. ويقسم قسمين: الأول في الأرض - الجغرافية - وملحقاتها، والثاني في سكان الأرض من إنسان وحيوان. بحث في الأجزاء الأولى منه في التاريخ الطبيعي والجغرافية وما يتبع ذلك من مسالك الممالك والرياح وعجائب البر والبحر، ومواقع البلدان، خاصة ممالك مصر والشام والحجاز، وأفاض في وصف سكان الأرض. وفرغ من تأليفه سنة ٧٤٤هـ / ١٣٤٤م. وقد طبعت دار الكتب المصرية الجزء الأول من هذا الكتاب.

لقد حظيت دولة مالي الإسلامية عند العمري بوصف مهم ودقيق، وذلك من حيث أقاليمها ومدنها، وقبائلها وبناء دورها، وأقواتها وثمارها، وحيواناتها وعاداتها، وتقاليدها وأزيائها وعساكرها ومعادنها، وعلمائها الذين عرفوا آنذاك في مالي بـ«المرابطين»، ومن حيث صلات ملوكها بمن يجاورهم، وساق طرفاً من سير ملوكها. وما يزال هذا الكتاب مخطوطاً.

استقى العمري مادته من أشخاص عاشوا في تلك البلاد وعرفوا أخبارها، ومن أهل مالي أنفسهم أو من ملوكهم الذين زاروا القاهرة مثل السلطان منسا موسى<sup>(١)</sup>، ومن آخرين صحبوا هؤلاء الملوك ونقلوا ما حدثوه به وما عرفه هو أثناء وجوده في ديوان السلطان بالقاهرة. ومن الشخصيات المهمة التي استقى منها معلوماته عن مالي: الأمير أبو الحسن بن علي بن أمير حاجب<sup>(٢)</sup> وهو أهمهم، وسعيد الدكالي<sup>(٣)</sup> والمهمندار<sup>(٤)</sup>

---

(١) انظر: مسالك الأبصار، ص ٥٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٠١.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٠٥.



والزاوي<sup>(١)</sup> ومهنا<sup>(٢)</sup>.

وتعدّ كتابة العمري عن رحلة منسا موسى سلطان مالي إلى الحج من أهم المصادر التاريخية حول هذا الموضوع، وهي كتابة جديرة بالثقة والاحترام. عقد العمري في كتابه فصلاً عن مملكة الكانم، وصف ملكها بأنه مسلم مستقل. وتحدث عن عاصمتها، وعن المسافات بين أقاليمها وما جاورها شرقاً وغرباً وشمالاً، وألم بجزء وافر من حياة كانم الاجتماعية. ومن أهم مذكره عن هذه المملكة أن أهلها بنوا مدرسة للمالكية بفسطاط مصر، لتكون مكاناً يتلقون فيه الدراسة بمصر، وملاذاً لو فودهم القادمة إلى مصر للعلم أو الحج أو التجارة. وللعمري كتاب آخر هو «التعريف بالمصطلح الشريف» وهو مجموعة من الرسائل في مراسم الملك وما يتعلق به، قسمه سبعة أقسام، وهو مفيد في بابيه، ويشبه «صبح الأعشى» للقلقشندي، ولكنه أوسع منه كثيراً، ومنه نسخة في دار الكتب المصرية، وطبع بمصر سنة ١٣١٢هـ / ١٨٩٥م.

وفي الكتاب جانب يهمننا كثيراً، وهو نماذج المكاتبات السلطانية التي جرت العادة أن تقوم بين السلطان المصري والبلاد الإسلامية؛ فهناك رسم للمكاتبة إلى صاحب البرنو والكانم وملك التكرور.

(٤) ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

«تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي. ولد ونشأ ببلدة طنجة من أسرة وصل الكثير من أفرادها إلى منصب القضاء، ونبغ بعضهم في العلوم الإسلامية.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٠٦.

غادر وطنه حاجا سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م، ولكنه عشق الأسفار فظل على تلك الحال ثمانية وعشرين عاماً. فوصل شرقاً إلى الصين، وفي أوربة حتى أسبانيا، وفي إفريقية حتى مالي. وكانت المغرب هي قاعدة انطلاقه في هذه المراحل الثلاث من رحلته. وعندما ألقى عصا التسيار بمدينة فاس، اتصل بسلطانها أبي عنان المريني، الذي أعجب به وبأخبار رحلاته، فأمر كاتبه محمد ابن جزى الكلبي أن يدون ما يمليه عليه هذا الرحالة، فتولى ابن جزى رواية الرحلة وتلخيصها وترتيبها، وإضافة بعض الأشعار، وتحقيق بعض الأجزاء، مستعينا بكتب الرحلات المعروفة، ثم سماه «تحفة النظار...» وفرغ من ذلك سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م. وختم ابن جزى الرواية بعبارة أجزل فيها الثناء على ابن بطوطة ولم ينس مولاه السلطان، فافتخر بأن ذاك الرحالة اختار الاستقرار في دياره دون غيرها.

والجزء الذي يهمننا في هذه الدراسة هو الرحلة التي قام بها ابن بطوطة إلى غربي إفريقية، قيل إن السلطان المريني هو الذي أوفده إلى تلك البلاد.<sup>(١)</sup> وقد اصطحب في هذه الرحلة قافلة من التجار، بدأت رحلتها عبر الصحراء الكبرى في أول سنة ٧٥٣هـ / شباط - فبراير ١٣٥٢م. ووصلت بعد خمسة وعشرين يوماً إلى مدينة تغازي من مصادر الملح الصحراوي، وتحدث عن عجائبها وسكانها ومبانيها ومعاملة أهلها بالملح كما يتعامل غيرهم بالذهب والفضة. وعندما وصلت القافلة إلى «تاسر هلا» بعثوا دليلاً إلى إيولاتن (والاتا) يسمونه «التكشيف»، وهو اسم لكل رجل من قبيلة مسوفة البربرية يكتريه أهل القافلة ليبلغ أصحابهم في والاتا بقدمهم ليستأجروا لهم دوراً. وتكلم على هذا التكشيف ومهمته وأحوال الصحراء ومخاطرها وعجائبها.

---

(١) انظر: عبدالله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط ٢ بيروت ١٩٦١م، ج ١، ص ٢١٣.



مكث ابن بطوطة خمسين يوما في والاتا، وهي أول بلاد غربي إفريقية، وقص كل ما حدث له فيها، لاسيما مع أميرها وملكها، وتكلم على سكانها من مسوفة، ثم واصل الرحلة إلى مدينة «كارسخو» على النيجر، الذي يسميه بالنيل، وبين انحداره من كارسخو إلى كابرة، ثم إلى زاغة فتنبكت، ثم إلى كوكو ومولي، ثم ينحدر إلى بلاد النوبة كما يظن. وقد أخطأ في هذا الربط بين النيل المصري ونهر النيجر.

ويذكر أن لكابرة وزاغة سلطانين يؤديان الطاعة لملك مالي، ولاحظ أن أهل زاغة قدماء في الإسلام متمسكون بالدين، ولهم همة في طلب العلم. وعندما اجتاز النهر إلى مدينة مالي وجد أن أحد أصحابه، وهو محمد ابن الفقيه الجزولي قد اكترى له دارا. وأثناء إقامته بمالي التقى بقاضيها عبدالرحمن من أهل البلاد فأكرمه. والتقى بآخرين من الوافدين فأشاد بهم جميعا، وفي ذكره لهذه الشخصيات الوافدة دليل واضح على تطور العلاقات بين مالي والبلاد الإسلامية الأخرى، ومنها مصر. فقد التقى بطبيب مصري عالجه من وعكة ألمت به نتيجة لتناوله وجبة غذائية محلية لم تناسب معدته. وذكر السلطان المالي منسا سليمان، وضيافته التافهة في البداية، ثم إحسانه إليه بعد ذلك فشكره، وذكر مجلسه، ووصف تذلل الناس إليه بذر التراب على رؤوسهم، وغير ذلك من أحوالهم، وذكر العدل المتفشي فيهم. ومن الأمور التي أعجبه كثيرا عناية أهل مالي بالتعليم وحفظ القرآن الكريم، فيقول: «وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلاتفك عنهم حتى يحفظوه»<sup>(١)</sup> وشاهد مثالا لذلك عند القاضي عبدالرحمن عندما زاره في

---

(١) تحفة النظار، طبعة التحرير، ص ٤٥٠.

العيد فوجد أولاده في القيود، والتقى بشاب مقيد لهذا السبب. ولم يغفل ذكر مساوئ أهل مالي.

ومن مدينة مالي توجه إلى مدينة كوكو وأقام بها شهرا، وقفل راجعا إلى بلاده مارا بتكدا مصدر النحاس، ووصفها، وأعطى إشارات إلى بلاد برنو، مما يدل على أنه لم يزرها. ثم غادر تكدا إلى سجنماسة.

والمعلومات التي أوردها ابن بطوطة في هذه الرحلة معلومات أصيلة أصبحت على مدى العصور مصدراً أساسياً للباحثين في تاريخ هذه المنطقة من غربي إفريقية، خاصة دولة مالي الإسلامية، لأنه أول رحالة يجوب الآفاق المجهولة في الصحراء الكبرى، ويكتب عن مشاهداته مباشرة، وليس الخبر كالعيان كما يقولون.

وقد تُرجمت هذه الرحلة إلى الإنجليزية، وطبعت في لندن سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م، وطبعت في باريس مع ترجمة فرنسية سنة ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م، ثم سنة ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م و١٣١١هـ / ١٨٩٣م، وطبعت بمصر سنة ١٢٧٨هـ / ١٨٦١م، ولخصها «جب» بالإنجليزية سنة ١٩٢٩م، وقامت مؤسسة الطباعة لدار التحرير بطباعتها في الأعداد من ١٦٦ إلى ١٦٧ لسنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، وعملت في مجلد واحد كان اعتمادنا عليه في هذه الدراسة. وتوالت ترجمات أجزائها إلى عدة لغات. والجزء الخاص بغربي إفريقية ترجم إلى الفرنسية.

(٥) ابن خلدون (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٥م)

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

هو عبدالرحمن بن أبي محمد بن الحسن بن خلدون. ونسبته إلى بني خلدون من عرب اليمن الذين استقروا بمدينة إشبيلية عند فتح الأندلس، وكانت



لهم الرياسة إبان عصر الاضمحلال الأول. وظلوا بأشيلية إلى أن كانت ثورة ابن الأحمر بحصن أرجونة، وقيام الفتنة التي انتهت بسقوط قرطبة في أيدي النصاري سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م، فانتقلوا إلى سبتة. وكان جده محمد يعمل في خدمة بني حفص بتونس، فنشأ ابنه أبوبكر في بلاطهم، وكان «مقدما في صناعة العربية وله بصر بالشعر وفنونه»<sup>(١)</sup> فنشأ ابنه عبدالرحمن في بيئة علمية، وتعلم لكبار مشايخها، ولازم مشاهير علمائها<sup>(٢)</sup>، ثم اتصل بالسلطان المريني أبي عنان فأستخذه في خطة الكتابة سنة ٧٥٥ / ١٣٥٤م، مما أتاح له فرصة الظهور على مسرح السياسة والاهتمام بمشكلات المجتمعات.

وانتقل عبدالرحمن إلى مصر سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، وعمل مدرسا بالجامع الأزهر، ثم اتصل بالسلطان الظاهر، «فأبر اللقاء وأنس الغربية ووفر الجراية من صدقاته، شأنه مع أهل العلم»<sup>(٣)</sup>، ونصب في سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م قاضيا للمالكية، وظل يمارس القضاء والتعليم، وتقلبت به الأحوال كثيرا.

وألّف كتابه «العبر» قبل قدومه مصر ما بين عامي ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م و ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م وربما يكون قد عدّل وأضاف فيه أثناء إقامته بمصر في ضوء ما جدّ عنده من معلومات.

ويهمنا في هذا المؤلف الجزء السادس من طبعة لبنان لسنة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م، ففي هذا الجزء تكلم ابن خلدون على ممالك غربي إفريقية التي كانت قائمة في زمانه. وقد اعتمد في معلوماته على من سبقه من الكتاب العرب أمثال ابن سعود

---

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة ١٩٥١، الناشر: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص ١٤.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص ١٥ - ٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

المغربي والبكري والإدريسي، وعلى من التقى بهم من التجار والمسافرين الذين كانوا يترددون على هذه المناطق وعلى بعض العلماء المغاربة الذين تولوا القضاء في بعض مدنها، أمثال القاضي ابن وانسول السجلماسي، ومن الذين التقوا بعاهل مالي منسا موسى في مصر، أمثال الحاج يونس، الذي قام بدور المترجم بين السلطات المصرية وفوج الحجيج المالي، ومن الحجاج الذين التقى بهم في مصر، أمثال الشيخ عثمان، الذي يقول عنه «فقيه أهل غانية»<sup>(١)</sup> وكبيرهم علما ودينا وشهرة، قدم مصر سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م حاجا بأهله وولده»<sup>(٢)</sup>

وترجع أهمية هذا الجزء عن مالي إلى أن معظم كتابات ابن خلدون عن مالي وغانه أصيلة. وهو أول من ذكر ترتيب سلاطين مالي من قبل ومن بعد السلطان منسا موسى، وذكر أحوالهم وعلاقاتهم الودية مع ملوك بني مرين بالمغرب، لاسيما السلطان أبي الحسن، وذكر السفارات والهدايا التي كانت بينهم، ولابن خلدون في ذلك قصيدة. وذكر تغلب المرابطين والصووصو على دولة غانا وإسلامها وأول من أسلم من ملوكها.

وعموما فمؤلفه عظيم الفائدة، تناوله الدارسون كل من وجهة نظر تخصصه، لأن صاحبه كان ذا رأي في الاجتماع والفلسفة والاقتصاد والتاريخ والدين والأدب، واهتمت معظم دور النشر بطبعه ونشره. والكتاب عامة أشهر من أن يعرف به.

(٦) القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)<sup>(٣)</sup>

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء

في الجزء الخامس والسادس من هذا الكتاب المطبوع معلومات مفيدة عن

---

(١) يعني غانة.

(٢) العبر، ج٦، ص ٤١٣.

(٣) هو أحمد بن علي الغزاوي. ولد في قلقشندة من قرى القليوبية سنة ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م. تولى كتابة الإنشاء سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨ في دولة المماليك المصرية.



بلاد غربي إفريقية في تلك الفترة. وقد اعتمد القلقشندي كثيرا في معلوماته عن هذه المنطقة على كتابي العمري «مسالك الأبصار» و «التعريف»، فهو كثيرا مايقول مقتبسا: «قال في مسالك الأبصار» أو «وذكر في مسالك الأبصار» أو «وقد حكى في مسالك الأبصار»، ويستخدم العبارات نفسها عندما يقتبس من «التعريف» أو يستقي منه معلوماته. وبجانب هذا نلاحظ أن معظم معلوماته مستقاة من مؤلفات من سبقوه. ففي الجزء الخامس من مؤلفه المذكور تكلم كثيرا عن ممالك البرنو والكاتم والتكرور ومالي، وسار في ذلك على النهج نفسه الذي سلكه العمري من قبله. وفي الجزء الثامن أيضا تتبع خطى العمري بأن أورد نماذج للمكاتبات الرسمية التي كانت تدور بين سلاطين مصر وحكام غربي إفريقية الذين تحدث عنهم في الجزء الخامس.

وكتابات القلقشندي عظيمة الفائدة لمن يؤرخون لتاريخ العلاقات الثقافية بين مصر وغربي إفريقية، وتلقي ضوءاً على الحياة العامة في غربي إفريقية، خاصة في دولة مالي. وترجع قيمة نصوصه إلى أنه جمع الكثير من نصوص الجغرافيين والمؤرخين الذين لم تصل إلينا مؤلفاتهم كالمهليبي. فالنصوص الأساسية لمعرفة أخبار بلاد غانه وغربي إفريقية عامة نجدها في المصادر التي كتبت قبل القرن السابع الهجري (١٣م). أما النصوص التي عن مالي فنجدها عند العمري وابن بطوطة ثم عند القلقشندي.

(٧) حسن الوزان (ت ٩٥٩هـ / ١٥٥٢م)<sup>(١)</sup>

### تاريخ ووصف إفريقية وأشهر ما فيها من عجائب

“History and Description of Africa”، هو حسن بن محمد الوزان، المشهور

---

(١) اعتمدنا في دراسة هذا المؤلف بالدرجة الأولى على المقدمة التي كتبها «جون بوري» لهذه الطبعة الإنجليزية، مستخلصا تاريخ حياة الوزان من ثنايا كتابه المذكور «وصف إفريقية».

بـ«ليو الإفريقي». ولد حوالي سنة ٩٠٠-٩٠١هـ / ١٤٩٤-١٤٩٥م بغرناطة، لم نخط بشيء عن حياة والده ماعدا أنه كان يملك أرضاً، ولكن من المؤكد أنه كان من أصحاب الثروات والمراتب العليا في غرناطة ثم في فاس، وذلك في ضوء المكانة المرموقة التي نالها أقاربه عندما هاجروا من إسبانيا إلى مراكش بعد سقوط غرناطة سنة ١٩٨هـ / ١٤٩٢م ويبدو أيضاً أن عم حسن كان ذا شأن، فقد أرسل سفيرا من قبل السلطان الفاسي إلى ملك تنبكت، واكتسب شهرة عريضة كخطيب مفوه وشاعر فحل، ويبدو أن ليو قريباً آخر في فاس، كرس جهده لدراسة الكيمياء القديمة، وماعدا ذلك فلا نعرف شيئاً عن أسرته.

كان يوجد بفاس الكثير من علماء العربية والعلوم الإسلامية في القرن السادس عشر الذي شب فيه الوزان. وكانوا متضلعين من فنونهم، بالإضافة إلى قيامهم بترجمات إفريقية ورومانية. وعلى يد هذا الجيل من العلماء تلقى الوزان دراساته في العلوم العربية والإسلامية.

عمل الوزان في شبابه كاتباً في المارستان بفاس، وكان يعمل خلال أسفاره في مهنة القضاء في المدن التي يحل بها، أو كاتباً في القافلة التي يصطحبها. ومارس بعض مهام السفارة. فقد أوفده ملك فاس سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م إلى الملك المراكشي طالبا نجده ضد البرتغاليين. وصحب سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م ملك فاس في رحلة داخلية، وأرسله مرة سفيرا إلى مراكش في مهمة رسمية، وفي رحلاته الداخلية وذهابه إلى الحج مع والده ألف الكثير عن الحياة في المناطق التي رآها.

ومن أسفاره المشهورة التي قام بها رحلة مع عمه إلى تنبكت وإلى أجزاء أخرى من غربي إفريقية، وهو إذ ذلك في حوالي السابعة عشرة من عمره. فقد بدأت رحلته سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م، وعاد منها حوالي سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م، وقام بعد ذلك برحلة



إلى القسطنطينية في حوالي سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م، وزار مصر بعد سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، لأنه يخبرنا بزيارته لمصر ثلاث مرات بعد أن استولى عليها السلطان سليم. وزار الجزيرة العربية وأجزاء من البحر الأحمر. وفي إحدى سفراته في البحر الأبيض المتوسط وقع الوزان أسيراً في أيدي القراصنة المسيحيين بالقرب من جزيرة جربة، وعندما وجد القراصنة أنفسهم أمام عالم، أخذوه إلى روما، وأهدوه إلى البابا ليو العاشر، حوالي سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م. واحتفى البابا بالوزان لعلمه. وحرره وأغدق عليه الأموال حتى لا يغادره. ويقال بأن البابا قد نصره ثم أطلق عليه اسمه "Giovani Leoni" فأصبح يعرف في التاريخ بـ«ليو الإفريقي». وفي كنف هذا البابا أكمل الوزان كتابه المشهور: «وصف إفريقية». وترجمه كله إلى الإيطالية. وحتى الآن لا توجد غير النسخة الإيطالية التي ترجمها جون بوري إلى الإنجليزية في سنة ١٠٠٩هـ / ١٦٠٠م في ثلاثة أجزاء كبيرة. ولكتاب ليو ترجمات أخرى باللاتينية والفرنسية، كما أن له عدة طبعات بالإيطالية. (١) بعد موت الباب ليو العاشر غادر الوزان روما إلى وطنه فاس، حيث مات هناك مسلماً.

ويبدو أن الوزان قد جمع كل معلوماته الخاصة بغربي إفريقية أثناء رحلته الطويلة مع عمه، ففي ذلك الوقت كانت تنبكت في قمة مجدها. وفي هذه المرحلة مر الوزان على خمس عشرة مملكة من المغرب إلى الشرق ثم الجنوب وهي: والاتا، جني، ومالي وتنبكت وجاجو وغويرا وأجاديس وكانو وكاتسينا

---

Leo Africanus: The History and Description of Africa (John Pory ed.), Vol, I,I, (London, (١) 1600), PP. 52-58.

- محمد المهدي الحجوي: حياة الوزان الفاسي وآثاره، الرباط ١٩٣٥، الناشر: المطبعة الاقتصادية، ص ص ٤٠-٤٢.

- كتاب وصف إفريقية وتاريخها للحسن بن محمد الوزان، مقال للدكتور جمال زكريا قاسم بمجلة كلية آداب جامعة عين شمس: المجلد الحادي عشر، (سنة ١٩٦٨م)، ص ص ٢٧٩-٣٠٨.

وزجرج وزانفرا ووانغارا وبرنو وجاغو ونوبي، وأشار إلى معظم هذه البلاد باستفاضة، وجاءت معلوماته عن الكثير منها صحيحة. ومن خلال إشارته يمكننا ملاحظة التغيير الذي حدث في هذه المنطقة منذ الإدريسي. فلم تعد كانو تلك المدينة ذات السيادة والهيمنة، إذ أصبحت مستقلة بينما لم يعد لبرنو أو كاتسينا الشأن الذي اكتسبته فيما بعد. وقفزت تنبكت من بلدة صغيرة إلى مركز ثقافي وتجاري مزدهر، بسبب فتوحات آسكيا الحاج محمد سلطان سنغي. وأخذ على الوزان تكراره بعض الأخطاء التي وقع فيها الإدريسي حول مواقع بعض البلاد على نهر النيجر. ويبدو لنا أنه اعتمد في بعض معلوماته على السماع، على الرغم من وجوده في نفس المنطقة، وكان صغيراً في سنه ليصل إلى درجة العلماء المحققين فيما يكتبون، أو لعله بدأ في الكتاب بعد فترة طويلة من زيارته لتلك المناطق: لأن هناك بعض الأحداث المذكورة في كتاباته وقعت بعد الوقت الذي زار فيه المنطقة.

وعموماً فقد حفلت كتابته عن هذه المنطقة بمعلومات مفيدة في تاريخ هذه المنطقة وجغرافيتها، ومبانيها وعاداتها وتقاليدها، وتجاريتها وملوكها، ومراسيمها وعلاقاتها فيما بينها، إن سلباً أو حرباً. وقام بتعريف العالم الخارجي بهذه الحضارة، ويذكر بعض الأسماء الواقعة في المنطقة ما بين غانة وبرنو، لم يذكرها البكري أو الإدريسي من قبله. وكلامه عن حالة التعليم الإسلامي في مدينة فاس في ذلك العصر يرسم لنا صورة حية لذلك التعليم الذي كان يعد أنموذجاً لما كان عليه حال التعليم في غربي إفريقية، وقد وقف الحجوي<sup>(١)</sup> عند هذه الصورة كثيراً.

---

(١) حياة الوزان الفاسي وآثاره، مرجع سبق ذكره، ص ٨٨٧٥.

(١) ما كتبه علماء غربي إفريقية

(٨) أحمد بابا التنبكتي (ت ١٠٣٦هـ / ١٦٢٧م) (١)

«نيل الابتهاج بتطريز الديباج»

يعد هذا الكتاب أضخم إسهام لأحمد بابا في تاريخ التعليم الإسلامي في عصره، وقد استدرك به على ديباج ابن فرحون. فهو قاموس تراجم للعلماء الكبار، لاسيما المؤلفين في كل من المغرب والأندلس وغربي إفريقية ومصر في الفترة التي عاش فيها، والتي سبقت به بقليل، ومعظم هؤلاء العلماء الذين ترجم لهم من المالكية. ولم يترجم لعائلة من النساء سوى واحدة هي أم هاني بنت محمد العبدوس، المتوفاة سنة ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م. وقد بلغ مجموع الشخصيات التي ترجم لها نيفا وثلاثين وستمئة عالماً. (٢)

تقع النسخة المخطوطة والموجودة بدار الكتب المصرية (١٩٧١ تاريخ) في إحدى وأربعين وثلاثمائة صحيفة، وهو ما يعادل ثمانين وستمئة صفحة. وقد فرغ من تأليفه في عام ١٠٠٥هـ / ١٥٩٥م بمدينة مراكش، عندما كان في الأسر. وهو مرتب كترتيب القواميس، حسب الحروف الأبجدية.

وهذا الكتاب هو عمدة في معرفة حالة التعليم الإسلامي في غربي إفريقية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد قام بوضع كتاب آخر أسماه: «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج». وعن هذا يقول: «هذا جزء اختصرته من الذيل الذي ذيلت به كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب للإمام برهان الدين بن فرحون، المسمى نيل الابتهاج بتطريز الديباج. اشتمل على جماعة لم يذكرها من أهل عصره وغيرهم، ومن بعده،

(١) انظر: ترجمته ومؤلفاته في الفصل الخاص بعلماء تنبكت، وفي النص الكامل لترجمته.

(٢) انظر: أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مخطوط بدار الكتب المصرية، ١٣٩١هـ /

١٩٧١م، تاريخ. ورقة ٣٤١.



مع زيادات في تراجم جماعة ذكرهم، فجاء في نحو ثمانية عشر كتاباً من  
القلب الكبير، وتم في عام خمسة وألف، ونفرد منه نسخاً، أما النسخة  
معظمه في هذا الجزء، مقتصره فيه على مشاهير الأئمة وأولي الصلوات  
غيرهم غالباً. ليتيسر تحصيله ويقرب تناوله، وسميته كفاية المحتاج إلى  
ليس في الديباج» (١).

والمخطوط الذي اعتمدنا عليه هو نسخة دار الكتب المصرية، فهو مكتوب  
بخط مغربي واضح بحبر أسود. أما الأسماء فمكتوبة وحرفها في بعض  
قراءته ميسورة. وقد قام بنظره عباس بن عبدالسلام بن مسعود بن  
١٣٥١هـ / ١٩٣٢م، على هامش الديباج المذهب لابن فرحون، وأظهر  
الباحث ناطق صالح مطلوب بتحقيقه لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي  
من جامعة عين شمس سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، ولم ينشر هذا التحقيق بعد.  
أما تكملته المعروفة بـ «كفاية المحتاج» فلم تنشر أو تحقق حتى الآن.  
اعتمد السعدي في كتابه «تاريخ السودان» على كتاب النبل، ومنه  
فقرات عديدة دون إغفال الإشارة إلى مصدره، واعتمد أيضاً عليه الإمام  
بلو في كتابه «إنفاق المسور» وغيرهما ممن جاء بعده من المؤرخين ونقلوا  
كثيراً ابن مخلوف (٢)، ولم يشر إليه.

(٩) السعدي (ت بعد سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٥م) (٣)

### «تاريخ السودان»

ينتمي السعدي (أو السعيد) إلى أسرة من الفقهاء في تنبكت،

---

(١) أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج، مخطوط مصور بالميكروفلوم في معهد المخطوطات بحامية الدول  
العربية، ٧٥٦ تاريخ، الصحيفة الأولى.

(٢) محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، القاهرة ١٣٤٩هـ الناشر، الطبعة  
السلفية، صفحات: ٢٤٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٦ و ٢٨٧، الخ...

(٣) انظر ترجمته في الفصل الخاص بعلماء تنبكت.

وقد حدث الاحتلال المراكشي لدولته قبل مولده بحوالي خمس سنوات. وقد انعكست الروح المعادية للاحتلال في كتاباته. وتلقى العلم في شبابه على يد الفقيه أحمد بابا وغيره من علماء المنطقة مثل القاضي محمود ابن أبي بكر بغيغ.

قضى السعدي شطرا من حياته في مدينة جني حيث عمل بها محررا للعقود. وفي أثناء وجوده في تنبكت تولى منصب إمام مسجد سنكري الشهير في عام ١٠٣٩هـ / ١٦٢٩م. وتقلب في عدة وظائف إدارية. وكان يعتزل أحيانا كل عمل ماعدا التأليف. وقام برحلات داخلية أهمها رحلته إلى مملكة ماسنة الفولانية شمالي جني على الضفة اليسرى لنهر النيجر، بدعوة من قاضيه. واستقبل في ماسنة بحفاوة من السلطان وأعيان مملكته، مما حجب إليه تكرار الزيارة والقيام بصلح بين السلطان وتابع له كان بينهما ثار قديم. ولم تكن هذه هي المرة الأولى أو الأخيرة التي يفعل فيها مثل هذا العمل للوفاق بين أمراء المنطقة، وأكسبته هذه الوساطات والرحلات معرفة واسعة بأحوال البلاد وتقويم أحداثها وتدوينها، وساعده على ذلك مكانته العلمية والاجتماعية، وتقلده منصب كاتب - سكرتير - الباشا التنبكتي محمد الخرجي سنة ١٠٥٦هـ / ١٦٤٦م. وقد أتاح له هذا المنصب بالذات أن يتجول مع الباشا في مناطق لم يكن يعرفها من قبل، فاختمرت في ذهنه الكتابة عن تاريخ هذه المنطقة، فكتب جزءاً وقف فيه عند أحداث ذي الحجة سنة ١٠٦٣هـ / ١٦٥٢م،<sup>(١)</sup> واستأنف الكتابة بعد توقف دام ثلاث سنين، فأضاف إليه أحداثا تنتهي في جمادى الأولى سنة ١٠٦٥هـ / مارس ١٦٥٥م،<sup>(٢)</sup> وهي آخر مادون من أحداث.

---

(١) السعدي/ تاريخ السودان، باريس ١٨٩٨م، طبعة هو داس، ص ٣١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٢، ٣٢٣.

وتاريخ السودان على الرغم من عنوانه العريض إلا أنه يركز على تاريخ دولة سنغي وفترة الاحتلال المراكشي لها. ولم تحظ مالي عنده إلا بالقليل. وينصب اهتمامه الأكبر على مدينة تنبكت مسقط رأسه، فهو يؤرخ لها منذ أن كانت محطة صغيرة للقوافل، حتى أصبحت العاصمة الثقافية الأولى في غربي إفريقيا على مدى ثلاثة قرون، من القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر. والمدينة الثانية التي حظيت باهتمامه أيضا هي جني.

إن الجزء الأول من «تاريخ السودان» والذي يتجاوز نصف الكتاب تقريبا، يشمل المعلومات التي جمعها المؤلف من مصادر شفوية أو مكتوبة، أهمل الإشارة إلى مصادرها. ولعل المخطوطات الآلف التي اكتشفت أخيراً في النيجر، تلقي لنا الضوء على تلك المصادر التي اعتمد عليها ولم يذكرها.<sup>(١)</sup>

وفيما يتعلق بتاريخ السودان يشير فقط إلى كتابين هما «نيل الابتهاج» و«الحبر»، الذي لم يذكر مؤلفه أو يُعرّفه. أما بالنسبة لتاريخ المغرب فلا يذكر سوى كتاب الحلل الموشية في تاريخ وأخبار الدول المراكشية.

أما الجزء الثاني فيختلف عن الأول لأنه كان يسجل فيه الأحداث عن قرب، ويستنطق من حوله ممن كان شاهد عيان، ويدون تجربته الشخصية، فجاءت معلوماته فيه حية أصيلة، فحددت لنا المراحل الرئيسة للحياة القومية والسياسية والثقافية والاجتماعية.

والكتاب زاخر بسير العلماء، ولكن العيب فيه اقتصاره على أسماء العلماء فقط ومشايخهم والكتب التي درسوها، وتواريخ وفاتهم ومكان دفنهم، وإهمال الإشارة إلى حياتهم الخاصة، والأحداث العامة التي ارتبطوا بها. وقد

---

(١) عن هذا الخبر المهم انظر: صحيفة الأخبار المصرية، الأعداد ٧٣٤٧ و٧٣٤٩ بتاريخ: ١٩٧٦/١/٥، و١٩٧٦/١/٧ على التوالي، السنة الرابعة والعشرين.



اتبع نفس الطريقة في ترجمته لباشوات سنغي . وكان متأثراً بالبيئة التي عاش وسطها عندما أخذ يعدد كرامات وخوارق بعض العلماء الذين ترجم لهم . وهذا يدلنا على أن الشعوذة كانت تختلط بأفكار الناس ، ولم يكن العلماء يختلفون عن غيرهم من العامة ، ولا شك في أن هذا فهم منحرف لبعض جزئيات مقاصد الشريعة ، ونذهب مع زبادية<sup>(١)</sup> بأن هذا يعدّ فهما سطحيا للشريعة الإسلامية على الرغم من أننا نلاحظ حتى اليوم علماء يتسبون إلى التصوف ولهم حظ وافر من علوم الشريعة ولكنهم يؤمنون بأشياء ، ويروجون لها ، ويصعب على العقل تصديقها .

وقد اتبع السعدي في كتابه طريقة الحوليات مثل الطبري وغيره ، فرتب أحداثه ترتيباً زمنياً . ولغة الكتابة عنده سهلة عموماً ، وإن لم تخل من بعض الأساليب الركيكة ، وقد تخللتها كثير من العبارات الرصينة ، والتي تدل على مقدرته وتمكنه من اللغة العربية ، لاسيما الخطابات الرسمية التي كان يكتبها . وكان السعدي وطنياً في شعوره وإن حاول أحياناً أن يكبت مرارته ضد الاحتلال المراكشي ، ويشيد ببعض رجال هذا العهد . ويتجلى شعوره الوطني عندما اضطلع بتصنيف هذا المؤلف المهم وشرح دوافعه في الصفحة الأولى .

وقد نال هذا الكتاب اهتمام المستشرقين منذ أن عثر بارت على نسخته المخطوطة في جوندو بغربي إفريقيا سنة ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م ، فقام بنشره وتحقيقه - دون تغيير نصه - المستشرق هوداس وتلميذه بنوة سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م بباريس ، وقسماه إلى ثمانية وثلاثين باباً من دون عناوين ، اكتفاء بكتابة أرقام الأبواب . وأصدر ترجمة فرنسية مع نصه العربي في مجلدين في العام نفسه ،

---

(١) عبدالقادر زبادية: ملكة سنغاي في عهد الاسيقين، الجزائر، لم تذكر السنة، الناشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص ١٥٩ .

ومعها ذيل اسمه «تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان». ألفه أحد أبناء الأمير محمد بن صود، من قبيلة في سنغي في تنبكت سنة ١١٦٤هـ / ١٧٥٠م. ويتضمن تاريخ ثلاثة من باشوات مراكش تولوا الباشوية في تنبكت، وطبع في باريس سنة ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م. وفي نهايته مقالة عن تاريخ سوكونتو الفولانية وحروب الشيخ عثمان دان فودي وابنه السلطان بلو، سلطان سوكونتو.

وهذا الكتاب مازال تحت الدراسة والتقييم لاسيما بعد أن اكتشفت مخطوطات أخرى منه حديثا لم تر النور بعد، مما يجعل من الممكن إصدار طبعة أخرى جديدة تعيد النظر في بعض نقاطه التي تحتاج إلى بحث.<sup>(١)</sup>

(١٠) ابن المختار (ت بعد سنة ١٠٧٥هـ / ١٦٦٤م)

«تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار»

إن مؤلف هذا السفر العظيم مازال مثار جدل ونقاش بين العلماء منذ أن ظهر في طبعته الأولى سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٣م. فالمشهور حتى اليوم، أن مؤلف «الفتاش» هو القاضي محمود بن الحاج المتوكل كعت، وعلى هذا الأساس ظهرت طبعته الأولى باسم كعت هذا. ولكن ظهر أخيرا رأي يقول بأن المؤلف هو شخص آخر يعرف فقط بابن المختار. وصاحب هذا الرأي هو لفتريون<sup>(٢)</sup> وسبقه آخرون شكوا في أن يكون المؤلف هو القاضي محمود كعت، وذهبوا إلى أن هناك عالما آخر غير محمود كعت يعرف بهذا الاسم، ومن أولئك الأب جوزيف برن سنة ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م وبعده جون هنوك<sup>(٣)</sup> وآخرون<sup>(٤)</sup> وقد

---

See: J. Hunwick, Source Materials for the History of Songhai, Bornu and Hausaland in (١) the 15th. C., J.H.S.N., VII, 3 (Dec. 1974), 9. 579.

N. Levzion: "A Seventeenth Century Chronicle by Ibn Al-Mukhar: A Critical Study of (٢) Tarikh Al-Fattash".

Source Materials, op.cit, P. 579.; Ibid, PP. 575-76. (٣)

S.J. Hogben and A.N.M.kirk- Green: An Introduction to the History of the Islamic States (٤) of Northern Nigeria, (Oxford 1967), p. 21.

اعتمد لفتزيون في دراسته عن «الفتاش» ومؤلفه على مخطوطة غير التي اعتمد عليها هوداس ودلافوس اللذان قاما بنشر هذا الكتاب، ورمزا إليها بالمخطوطة «ألف A» وسمى مخطوطة هوداس بـ«سي C» وفي الحجج التي يستند إليها لفتزيون قوله أن محمود كعت لم يولد سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م كما يذكر هوداس، بل ولد في عهد أسكيا الحاج محمد (١٤٩٣-١٥٢٨م) لأن هناك إشارة في المخطوط «ألف A» تذكر أنه ولد مع أربعة علماء آخرين في عهد أسكيا محمد، وهم:

١ - أحمد بن محمد سعيد ابن ابنه محمود بن عمر أقيت، وتوفي أحمد هذا سنة ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م وعمره ٤٢ عاما كما جاء في «تاريخ السودان»، لذا فقد ولد في سنة ٩٣٣هـ / ١٥٢٦م.

٢ - محمد بن محمود بغيغ، ولد سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م ومات سنة ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م كما جاء في «تاريخ السودان».

٣ - أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت، والد أحمد بابا، ولد سنة ٩٢٩هـ / ١٥٢٢م ومات سنة ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م كما ذكر ابنه في حولياته.

٤ - أبوبكر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت، ولد والده محمود سنة ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م أما الإبن أبوبكر فمن المحتمل أن يكون قد ولد بعد تولي أسكيا محمد العرش سنة ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م. وفي ضوء هذا وفي ضوء بيانات أخرى يرى الباحث أن علاقة محمود كعت كانت مع أسكيا داود (١٥٤٩-١٥٨٣م) ومع العلماء المذكورين آنفا وهو في عمر دون الثمانين بكثير، لإشارات تدل على ذلك، وأن الغرض من وراء ذكر المخطوط (C) بأن محمود كعت صاحب أسكيا محمد الحاج ١٥٩٤-٦م) هو غرض سياسي، الهدف من ورائه أن يحمل تاريخ الفتاش «بينة عن أن الخليفة الثاني عشر المتوقع وهو «شيخو أحمد» وريث عرش الخليفة الحادي عشر



## آسكيا الحاج محمد. (١)

ويخلص لفتزيون من هذا كله إلى أن هوداس ودلافوس نفسيهما قد توصلا إلى أن كعت لا يمكن أن يكون قد كتب كل الحولية، إذ إن الحوادث تنتهي بسنة ١٠٠٨هـ / ١٥٩٩م، أي بعد ست سنوات من وفاة محمود كعت. وهناك عدة إشارات إلى تواريخ حتى سنة ١٦٦٤-٦٥م أي بعد وفاته بفترة طويلة. ولكن هناك حقيقة لا تنكر، هي أنه قد حرر جزءا يسيرا من الكتاب، لاسيما الفصول الست الأولى والتي هي أيضا لاتخلو من فقرات لم يحررها كعت مباشرة. بل تركها كمذكرات قام بتحريرها أحد أحفاده بعد أن ضمها إلى مذكرات أخرى لبعض أبناء محمود كعت. وهذا الحفيد هو أحد أبناء بنات محمود كعت كما يشير هو إلى ذلك. (٢) فقد استخدم الوثائق الأسرية التي بدأها جده محمود كعت وأبناؤه، ليخرج لنا «الفتاش».

ومهما كان الأمر فإنه من الواضح أن محمود كعت كان له اهتمام بالغ بالتاريخ الذي ورثه أبناؤه، أحدهم القاضي يوسف بن محمود كعت (٣)، الذي استعان بمذكراته ابن المختار خاصة في تاريخ الحرب الأهلية بين آسكيا إسحاق وبالما صادق سنة ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م، والثاني القاضي إسماعيل بن محمود كعت (٤) الذي أطلع ابن المختار على مخطوطته الخاصة بالميثاق الذي منحه

(١) See: Hunwick, Source Materials, op.cit., pp.579-90.

(٢) انظر هذه الإشارات في: تاريخ الفتاش، باريس ١٣٣٢هـ / ١٩١٣م. الناشر: هوداس ص ١٠٨، حيث يقول: «ومن ذلك ما رويت عن خالي (يقصد يوسف كعت) عن ابيه ألقع كعت أنه أتاه...» وفي ص ١٤٢ يقول: «ورأيت بخط خالنا الفقيه يوسف كعت بن ألقع محمود كعب رحمه الله أنه جاءه مرسول الأمير... وهكذا.

(٣) انظر: الفتاش، ص ١٢٩، ١٤٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٥، ١١٦.

آسكيا محمد إلى أحفاد «مودي هو قارو»، والثالث هو القاضي محمد الأمين ابن محمود كعت، الذي مات سنة ١٠٥٥هـ / ١٦٤٦م، ولكنه يسجل أحداثاً وقعت في جني سنة ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م، مما يدل على أنه سجلها من والده محمود كعت. ومن أحد هؤلاء الأقارب (الأخوال) حصل المؤلف على معلومات حول علاقات محمود كعت الوثيقة بآسكيا داود.

إن المؤلف قد سجل روايات عن سني علي وآسكيا محمد من والده المختار، وبسبب هذه الإشارات سماه لفتزيون بـ «ابن المختار» لأنه لم يعط إشارة لاسمه الأول، وإن الحولية كتبت في تاريخ مابعد سنة ١٠٧٥هـ / ١٦٦٤م لأن ابن المختار يشير إلى حادثة معينة بقوله: «رأيتها بنفسي، في سنة ١٠٧٥هـ / ١٦٦٤م<sup>(١)</sup>، وبهذا يكون «تاريخ الفتاش» قد كتب في حوالي الزمن نفسه الذي كتب فيه «تاريخ السودان» - ١٠٧٦هـ / ١٦٦٥م).

وقد اعتمد ابن المختار في تصنيفه لهذا الكتاب على مصادر أخرى غير ماتركه أقاربه من أسرة كعت. ومن أهم هذه المصادر «درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان» تأليف باب كور بن الحاج الأمين كأنوا<sup>(٢)</sup>، وهذا الكتاب مفقود حتى الآن. ويذكر الدكتور زكي<sup>(٣)</sup> أنه من مهاجري كانو، ومصدره في ذلك «الفتاش»، ولعل هذا الاسم الأخير - كأنوا - قد أوحى إليه بذلك، ولانظمئن لذلك، وقد اعتمد على مصدر ثان هو ماكتبه شيخ ابن المختار المدعو محمد بن المختار، والمشهور بـ «محمد ولد كُرتُم»، ويلاحظ أنه دائماً مايقول:

---

(١) الفتاش، ٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤، ٥٢، ٩٣، ١٢٦. الخ ويسمى أحياناً «جواهر الحسان»، انظر الفتاش ص ١٨٢.

(٣) المراجع العربية للتاريخ الإسلامي في غربي إفريقيا. بحث للدكتور عبدالرحمن زكي، نشر بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية: المحاضرات العامة: الموسم الثقافي ١٩٦٨/٦٧م، ص ١٩.

«وحدثني شيخنا ولد كرتم»<sup>(١)</sup>، أو «هكذا نقلت من شيخنا محمد ولد كرتم»<sup>(٢)</sup>، مما يدل أنه كان يأخذ من ابن كرتم ثم يسجل أو ينقل مما كتبه ابن كرتم عن بعض الأحداث. أما الرواة الذين كان يسجل عنهم بعض الأحداث التي شاهدوها، نذكر منهم: أحمد بن إبراهيم بن يعقوب<sup>(٣)</sup>، والشيخ محمد زغيث<sup>(٤)</sup>.

أما الأسلوب، فلا يخلو من الأخطاء اللغوية أو الأساليب الركيكة، ولعل مرد ذلك أن المؤلف لم يقصد أن تكون كتابته قطعة أدبية رائعة، ولو أراد ذلك لفعل، خاصة والكتاب قد تخللته بعض العبارات القوية والتراكيب والأساليب السليمة، وقد لاحظت أن «ود ضيف الله» صاحب «الطبقات» المشهورة في علماء دولة سنار» يشبه ابن المختار في أسلوبه، علما بأنه من أصل عربي، ولعل تأثير البيئة هو الذي جعلهما يكتبان بأسلوب يفهمه العامة.

وترجع أهمية «الفتاش» إلى كونه مصدراً أساسياً في تاريخ دولة سنغي السياسي والثقافي والاجتماعي وطرفاً من تاريخ الدول الإسلامية الأخرى، مثل مالي. وقد وقفت الأحداث التي تناولها محمود كعت راوية الجزء الأول من الفتاش عند السنوات الأولى للغزو المراكشي لدولة سنغي سنة ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م. وقد تكلم في بداية هذا الجزء عما يمكن أن نسميه النقد العلمي في البحث التاريخي، عندما قال: «لما رأيت إهمال الناس للتاريخ، على ماله من فائدة جلية في معرفة البلاد، والوقوف على أخبار أبطالها، التمس من الله جلت قدرته، أن يساعدي على كتابة هذا التاريخ الذي يسحث في سلاطين

---

(١) تاريخ الفتاش، مثلاً ص: ١٧٣.

(٢) المصدر نفسه، مثلاً ص ١٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٤) نفسه، ص ١٥١.



السودان». وماخرجنا به منه في ثنايا البحث يكفي للدلالة على أهميته في تاريخ التعليم الإسلامي في غربي إفريقيا.

وقد اهتم المستشرقون به، فترجمه هوداس ودلافوس إلى الفرنسية سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٣م بفرنسا، ثم أصدرنا النسخة العربية محققة في العام نفسه، في حوالي ست وثمانين ومئة صفحة من الحجم الكبير، وعليها كان اعتمادنا.

#### (١١) تاريخ [أو حولية] كانو KANO CHRONICLE

لم يعرف حتى الآن مؤلف هذه الحولية. أما تاريخ كتابتها فلا بد أن يكون قد تم في أواخر الحقبة التاريخية ١٣٠١-١٤٠٤هـ / ١٨٨٣-١٩٨٣م كما يوحى بذلك مضمونها وأسلوبها، ولكن ربما كانت تمثل بعض التواريخ القديمة التي اندثرت في الحروب التي دارت رحاها في هذه المنطقة، وآخرها حرب الفولاني<sup>(١)</sup>. وقد وجد أول نسخة منها الدكتور بارث، عندما قام برحلته إلى غربي إفريقية في أول النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ومن أشار إلى هذه النسخة «لوجارد»، ولكن لم تكن النسخة المشار إليها مكتملة، بل جاء فيها ذكر اثنين وأربعين ملكا. أما النسخة التي قام بترجمتها إلى الإنجليزية «هنري رتشموند بالمر» فقد وجدت في بلدة سابونجاري بالقرب من كاتسينا، وهي تمتد إلى زمن الملك الثامن والأربعين من ملوك كانو، وهو محمد بلو بن السلطان دابو.

لقد ترجم بالمر المخطوط كما هو، مع إضافة بعض الحواشي في حوالي الأربعين صفحة، على صفحات مجلة معهد الانثروبولوجيا الملكي<sup>(٢)</sup>، ووضع تواريخ تقريبية لفترة حكم كل ملك من خلال الأحداث الأخرى التي يعرفها عن تاريخ هذه المنطقة، ابتداء من دخول الفولاني إلى كانو في سنة ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م.

(١) See: H. Palmer, "Kano Chronicle" Translated in J. R. A. S., (1908), P. 58.

(٢) Ibid, pp. 58-98.

ومن الأحداث التي اعتمد عليها، رسالة السيوطي إلى بعض أمراء غربي إفريقيا، وزيارة المغيلي إلى المنطقة<sup>(١)</sup>. ويرى بالمر أن تواريخه التي وضعها تكاد تكون صحيحة باستثناء تواريخ الملوك الأوائل. وعلى كل حال فهي لا تزال في بعض جوانبها مثار جدل بين المختصين، ولكل وجهة نظره في ضوء ما لديه من معلومات إضافية عن بعض الأحداث.

والمخطوط يلقي ضوءاً على التاريخ القديم لبلاد الهوسا والبرنو عامة، ومدينة كانو خاصة منذ نهاية القرن الرابع الهجري (١٠م) حتى عهد السلطان محمد بلّو بن السلطان دابو في مطلع القرن الرابع عشر الهجري (نهاية القرن التاسع عشر الميلادي). وهو تراجم مقتضبة جداً لبعض جوانب الحياة السياسية للسلطين الذين تعاقبوا على عرش كانو. وقد درج المؤلف علي أن يذكر الاسم أولاً، ثم ترتيب السلطان في سلسلة السلطين، ثم بعد ذلك يذكر اسم والدته، ثم بطانته، ثم يدخل بعد ذلك في أحداث عصره. ومن خلال دراسة هذه التراجم يستطيع الدارس أن يخرج بصورة عامة عن بعض جوانب الحياة الثقافية الإسلامية منذ بداية وصول الوفود الإسلامية القادمة من دولة مالي. ويشير كثيراً إلى العلاقات السياسية والثقافية بين بلدان الهوسا بعضها ببعض، وبلدان الهوسا مع البلدان الأخرى المجاورة محلياً وخارجياً.

ما زال هذا المصدر هو المصدر الرئيس في تاريخ الهوسا القديم حتى ظهور شعب الفولاني على مسرح الأحداث في نهاية القرن الثامن عشر. وقد كان عمدتنا في تتبع التاريخ التعليمي والثقافي لبلاد الهوسا، ولولاه لعانينا الكثير.

---

Ibid, p. 59. (١)





## تمهيد

### شمالي وغربي إفريقية

#### أ- شمالي إفريقية : مكانياً

نعني بشمالي إفريقية هنا مصر وليبيا وتونس والجزائر والمملكة المغربية، ولكن لهذه المنطقة تسميات غير هذه المذكورة لبعض أقاليمها، كانت تستعمل من قبل ذلك. فجزء كبير من شمالي إفريقية كان يعرف بالمغرب عامة، وهو كل مايلي مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي. فبلاد الجزائر الحالية كانت تعرف بالمغرب الأوسط، وبلاد تونس تعرف بالمغرب الأدنى أو إفريقية<sup>(١)</sup>، والمملكة المغربية الحالية كانت تعرف بالمغرب الأقصى<sup>(٢)</sup>. وهناك من يطلق كلمة المغرب على هذه الأقاليم مجتمعة، بالإضافة إلى الأندلس<sup>(٣)</sup>.

إن إفريقية (تونس) تمتد من خليج سرت الكبير شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وسماها العرب بالمغرب الأدنى، لقربها من بلاد العرب ومقر الخلافة بالحجاز أو الشام. وتمتد من طرابلس شرقاً حتى بجاية أو تاهرت غرباً وقاعدتها مدينة القيروان<sup>(٤)</sup>.

---

(١) انظر: إسماعيل رأفت بك: التبيان في تخطيط البلدان، ج١ ص ٢٠.

(٢) الدكتور إبراهيم العدوي: المجتمع المغربي - مقوماته الإسلامية والعربية، ص ٢٤٩.

الدكتور السيد عبدالعزيز سالم: المغرب الكبير، ج٢، ص ١٢٥ (ونلاحظ هنا أن المغرب ينقسم إلى ثلاثة أقاليم، إلا أن الدكتور سالم يضيف إقليمًا رابعًا، وهو إقليم برقة في طرابلس، وهي أول كورة المغرب في جهة الشرق، ويذكر أن بعض المؤرخين يدمج هذه الكورة إلى إفريقية، وبعضهم يفصلها عن المغرب، ويرى أنه في الغالب كانت برقة وطرابلس جزءاً لا يتجزأ من المغرب الإسلامي).

انظر: أيضاً: الدكتور عثمان الكعاك: مراكز الثقافة في المغرب، ص ٥ (ونلاحظ هنا أن الكعاك يضيف بلاد غربي إفريقية حتى نهر النيجر إلى إفريقية الشمالية، ويضيف الأندلس إلى المغرب الإسلامي، وبهذا نراه ينظر إلى الموضوع من زاوية الوحدة الثقافية).

(٣) الأصبخري: مسالك الممالك، ص ٣٩.

(٤) المغرب الكبير، ج٢، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٧.

أما المغرب الأوسط. فامتد من تاهرت حتى وادي ملوية وجبال تازة غرباً، وقاعدته مدينة تلمسان وجزائر بني قرعنة. (١)

والمغرب الأقصى يمتد من وادي ملوية شرقاً حتى مدينة آسفي على المحيط الأطلسي غرباً وجبال درن جنوباً (٢). وسمي كذلك لأنه أبعد أقسام المغرب عن مقر الخلافة.

ولقد عرفت بلاد المغرب منذ غابر الأزمان بأسماء متباينة، فقد أطلق الاغريق إسم ليو أو لييا على القسم الشمالي الذي كان يقطنه العنصر الأبيض، بينما كانوا يطلقون على الصحراء اسم بلاد الأحباش السود. (٣)

أما لفظة إفريقية «Africa» فقد أطلقه الرومان على الإقليم الذي يقابل اليوم الجزء الشمالي الشرقي من الجمهورية التونسية، ويشمل قرطاجنة وماحولها حتى نوميديا غرباً، وكان يعرف باسم ولاية إفريقية القنصلية (٤)، وهو الاسم الذي عُرِبَ فيما بعد إلى «إفريقية»، وأطلقه العرب في البداية على كل ما يلي إقليم طرابلس غرباً. ثم تحدد مدلول لفظ «إفريقية» فاقصر على مايلي إقليم طرابلس غرباً حتى بجاية. (٥)

---

(١) المكان نفسه.

(٢) الدكتور حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ١٣.

(٣) المغرب الكبير، المرجع السابق، ص ١٢٥، نقلاً عن: Andre Tulian: Histoire de L'Afrique du Nord, Paris, 1921; p. 9.

(٤) انظر: المكان نفسه، د. حسين مؤنس. فتح العرب للمغرب، ص ٢.

(٥) المغرب الكبير، ص ١٢٥، وعن أصل كلمة إفريقية ومعناها انظر: شارل اندريه جوليان: تاريخ إفريقية - ترجمة طلعت عوض أباطة - ص ٥، وما يذكر أن الكتاب اللاتينيون أطلقوا في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد اسم الأرض الإفريقية African Terra على القسم الذي خضع للنموذ الفينيقي من تونس الشمالية، وهو الجزء الذي كانت تقطنه قبائل تعرف باسم إفري من أبناء البلاد، ويقصد به الجزء الذي جعلت منه روما ولاية إفريقية بعد تدمير قرطاجنة عام ١٤٦ ق.م. ويذكر أنه لما كان أصل كلمة إفري اللغوي غير معروف، فقد اتجه البحث إلى محاولة معرفة أصل كلمة إفريكوس المشتقة منها، وأن هذه المحاولة ذهبت هباء. وفوق ما ذكرنا فإن للعلماء آراء في الاسم «إفريقية» منها

وبناء على ذلك فإن كلمة إفريقية في حدود العرف الإداري الروماني كانت تعني الولايات الشمالية التي يسكنها البيض، بمقابلة المنطقة التي يقطنها السود، ثم أطلقت التسمية عنها - إفريقية - على كل جزء كان يتم كشفه إلى أن عمت القارة كلها بعد ذلك. <sup>(١)</sup> واليوم تطلق كلمة إفريقية على القارة المعروفة بهذا الاسم، وهي خزانة الجنس الحامي والزنجي.

ويعتبر شمال إفريقية المدخل الأول لدراستنا التي تختص بحركة الإسلام وبحركة التعليم الإسلامي في غربي إفريقية، فهي مدخل لطبيعة الدعوة الإسلامية في هذا الجزء من إفريقية، وهذه المنطقة الشمالية من إفريقية تمثل أحد طرفي الموضوع، لذا نود أن نلقي نظرة تاريخية أيضاً على هذه المنطقة قبل ظهور الإسلام، وعلاقة ذلك بالروابط الاقتصادية والثقافية، وأثر هذه العلاقات في بث الدعوة الإسلامية في إفريقية الغربية، ووجود مراكز إسلامية فيها معاهد تعليمية ذات صلة وثيقة بمعاهد شمالي إفريقية.

#### ب - غربي إفريقية : مكانيا

إن غربي إفريقية جزء مما كان يعرف قديماً ببلاد السودان. وبلاد السودان اسم أطلقه العرب على البلاد الواقعة جنوبي الصحراء، مقابل «بلاد البيضان» - أي شمالي إفريقية والصحراء. <sup>(٢)</sup> وفي الاستعمال العادي فهي محددة بالمنطقة العريضة

---

أن لفظ إفريقية جاء من اللغة اليونانية، وذلك أن لفظ آخر يفيد النفي وفريكا معناها البرد، أي البلاد التي لا برد فيها. وقال الطبري في تاريخه بأنها سميت إفريقية لتزول إفريقش من ولد حام بن نوح بها. انظر: إسماعيل رافت، التبيان، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠.

(١) جوليان، تاريخ إفريقية، المكان نفسه.

(٢) انظر: القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٤. من حيث المقصود بكلمة «السودان» في نظر الرحالة والمؤرخين المسلمين في العصور الوسطى فإننا نجد أن الباحث سر الحتم عثمان قد عالج هذا الموضوع علاجاً شافياً وعميقاً لأول مرة حين تطرق إلى آراء أولئك الرحالة والجغرافيين حول مدلول الكلمة. وقد درس هذا الأمر زمنياً، ونعرض للحدود الجغرافية والقبائل ورأي هؤلاء كلهم فيها.



جنوب الصحراء الممتدة عبر الصحراء من المحيط الأطلنطي في الغرب إلى هضبة الحبشة في الشرق<sup>(١)</sup>، ومن الصحراء في الشمال إلى الغابات الاستوائية في الجنوب. وأن شرقي إفريقية، على الرغم من أنها أرض السود، وقد عرفت باسم «أرض الزنج». (٢)

وبلاد السودان تنقسم إلى ثلاثة أقاليم رئيسة: السودان الغربي، وهو يشمل منطقة حوض النيجر والسنغال، والسودان الأوسط، وهو فيما يقع ممتدا شرقي نهر النيجر حتى الحدود الغربية للسودان الشرقي<sup>(٣)</sup>، والسودان الشرقي، وهو السودان وادي النيل العربي.

ودراستنا مختصة بمنطقة السودان الغربي والأوسط، أي المنطقة الواقعة ما بين بحيرة تشاد شرقا والمحيط الأطلسي غربا، ويحدها من الجنوب المناطق الاستوائية، ومن الشمال المناطق الجنوبية للصحراء الكبرى، وتقع بين خطي عرض ٩ و ١٧ درجة شمالا، وهي المنطقة المصطلح على تسميتها حاليا بغربي إفريقية.

ويُعبّر عن غربي إفريقية أيضا بالاسم «نجرتيا» Nigritia. وقد أطلق القدماء من المؤرخين والجغرافيين والرحالة هذه التسمية عليها نسبة إلى نهر النيجر، وأول من أشار إليها المؤرخ الروماني القديم بليني الكبير Plinius (ت حوالي سنة ١١٥ م)، فهو الذي أطلق على نهر النيجر اسمه الذي اشتهر به Nigris، أي نيل الأجناس السود،

---

فانظر: سر الختم عثمان: العلاقات بين مصر والسودان في العصور الوسطى، رسالة ماجستير غير منشورة بآداب جامعة القاهرة ١٩٦٩م. ص ١١-٢٨. ويجانب هذا انظر: الدكتور سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي - رسالة دكتوراه منشورة، ص ٥٤-٥٥.

(١) D.P. Barrows: Berbers and Blacks, p.9.

(٢) J.S. Trimiagh: Islam in West Africa, p.1.

(٣) توطن العناصر الإفريقية الغربية بالسودان، بحث للدكتور شريف محمد شريف، نشر بمجلة كلية آداب القاهرة: المجلد الرابع والعشرون، (١٩٦٢) ص ٧٠.

ثم أخذ كتاب العصور الوسطى بغربي أوربة هذا المصطلح ونسبوا جميع المنطقة المحيطة بهذا النهر إليه، فعرفوا سكانها بالنيجرتين Nigrite<sup>(١)</sup>.

ومن الوجهة الجغرافية يغطي نهر النيجر وروافده هذه المنطقة. فمن الشرق يصل رافده الكبير نهر بنوى Benue إلى قرب بحيرة تشاد، بل تتصل أعاليه بنهر شاري الذي يصب في تشاد، وكذلك تقترب أعالي روافده الغربية مثل سنكاراني Sankarani وتنكسو Tinkisso ودوليبا Doliba من ساحل المحيط الأطلسي، وحوض النيجر. (٢)

وقد سماه العرب بأسماء مختلفة، فالعمري<sup>(٣)</sup> والإدريسي<sup>(٤)</sup> وابن سعيد<sup>(٥)</sup> وغيرهم من الجغرافيين العرب يسمونه بالنيل، وعمم معظمهم تسمية النيل على نهر السنغال أو النيجر أو روافدهما<sup>(٦)</sup> ولا وجود في الحقيقة لتسمية تشملها بأجمعه في لغة الأمم النازلة على شواطئه.

وقد زادت معرفة الجغرافيين بأحوال هذا النهر زيادة كبيرة منذ أن استتب للفرنسيين الاستيلاء على جهاته، أي منذ سنة ١٨٨٧م، فقد علم مجراه وكذلك النهيرات التي تصب فيه، ودرست دراسة دقيقة في كل جهاتها العليا. ومن الذين

---

(١) الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقية، بحث للدكتور إبراهيم علي طرخان، نشر في مجلة كلية آداب القاهرة: المجلد السابع والعشرون (سنة ١٩٦٥م)، ص ٥٢-٥٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٣. يلاحظ أن الأستاذ إسماعيل رأفت في مرجعه الذي سبق ذكره، ص ٣٩ يسمى نهر النيجر نفسه بـ«ديوليبا» والصحيح أن ديوليبا فرع من النيجر.

(٣) مسالك الأبصار، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠١.

(٤) المغرب وأرض السودان، مصدر سبق ذكره، ٣، نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦، ٣٠، ٣٩، وأحيانا يسمى النيل بالبحر الحلو، المصدر نفسه ص ٤٦.

(٥) بسط الأرض في الطول والعرض، ص ٢٣، وأحيانا يسميه نيل غانة، ص ٢٦، ٢٧ ويذكر نيل السودان العربي بنيل مصر، ص ٢٧، ٤٨ أو نيل النوبة، ص ٢٩، وأحيانا يذكر نيل الجزيرة، ولعله يعني باختلاف هذه التسميات فروع نهر النيجر الغربية.

(٦) انظر: الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٢١٧؛ البكري، مصدر سبق ذكره، ١٧٢، ١٧٧.

اكتشفوه اكتشافاً جيداً ضابط بحري فرنسي عُرف باسم كلوييه R. Gloubie - ١٢١٤-١٢٥٤هـ / ١٧٩٩-١٨٣٨م) سار فيه من بلدة باماكو إلى تنبكت، فكان أول من اكتشف هذا القسم، وقد ذهب إلى بلاد السنغال وادعى أنه مسلم مصري من مدينة الإسكندرية (١٨٢٧م)، ثم توغل في البلاد حتى وصل إلى نهر النيجر ومدينة تنبكت، ومن هناك انضم إلى قافلة واخترق بلاد الصحراء ثم عاد إلى أوروبا من مراكش، وقد طبعت سياحته سنة ١٢٦٤هـ / ١٨٣٠م في ثلاثة أجزاء. واقتفى أثره غيره من بعده، وكلهم أتموا دراسة مناطقه المائية، كما عينوا خلجانه وبحيراته. (١)

وأقدم من حاول اكتشاف نهر النيجر من الأوروبيين الطبيب الأسكتلندي منجوبارك، وكان ذلك بين ستي ١٢١٠ و ١٢١٣هـ / ١٧٩٥ و ١٧٩٨م، ومات وهو يؤدي هذه المهمة (٢). وسعى من بعده كثيرون لهذا الهدف فلم ينجحوا، ثم قام رينيه كلوييه وتمكن من إنجاز مهمة الكشف سنة ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م كما سبق ذكره.

ويبلغ طول مجرى هذا النهر نحو أربعة آلاف كيلو متر، ولكن المسافة بين مصبه ومنبعه لاتزيد على عشر وثمانمئة ألف كيلومتر، وذلك بسبب تعاريجه. (٣)

أما من حيث الجغرافية فإنه من الواضح أن غربي إفريقية إقليم مناخي واحد، إذ لا يوجد هناك أي حاجز طبيعي يفصله عن الصحراء في الشمال، وعن المناطق الاستوائية في الجنوب. إن مناطق المناخ والحشائش تعتمد على كثافة الأمطار وطول موسمها. ففي الشتاء تهب الرياح الحارة الشمالية الشرقية الجافة المعروفة باسم الهرمتان، وتتجه في هبوبها نحو الشمال، أما المعاكسة لها والمعروفة بالمونسون الجنوبية الغربية الدافئة الرطبة فهي تهب من المحيط. (٤)

(١) التبيان، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤١.

(٤) Trimingham: Islam in W.A., op.cit., p.1.



يبدأ فصل الخريف في المناطق الساحلية في نيسان/ أبريل ويستمر إلى منتصف تموز/ يوليو، ثم تبدأ الأمطار في النقصان تدريجيا، يتبع ذلك في تشرين الأول/ أكتوبر فصل ممطر آخر قصير. ولننطقنا هذه فصلان فقط: الممطر والجاف<sup>(١)</sup>، وتعرف بمنطقة السافانا حيث صلاحية الزراعة، وتزداد حشائش السافانا غزارة وارتفاعا إلى أن تنتقل فجأة إلى الحد الذي تبدأ عنده الغابات المطيرة.<sup>(٢)</sup>

أما من ناحية التضاريس، فإننا لانجد فروقا ضخمة كالتى نجدها في اثيوبيا، حيث ترتفع الجبال مكونة بيئة متميزة عما حولها، بيئة دار حولها الإسلام وتسلق بعض أجزائها، ولكنه لم يستطع أن يغمر كل أجزائها غمرا كاملا، أو أن يحيط بها إحاطة كاملة. مثل هذه العقبة الطبيعية لانجدها في غربي إفريقيا<sup>(٣)</sup>. فالسلاسل الجبلية الموجودة لم تكن ضخمة، وإنما متناثرة، وتمثلها كتل فوتا جالون والكامرون، ولم تكن مرتفعات تبمتي والأحجار عقبة أمام تقدم الإسلام إلى غربي إفريقيا.<sup>(٤)</sup>

#### ج - شمالي إفريقيا قبل الإسلام :

عقب انتهاء الصراع القرطاجني اليوناني، حدث مايمائله بين قرطاجنة وروما حول السيادة السياسية والاقتصادية في منطقة غربي البحر الأبيض المتوسط، نتج عنه احتلال روماني للشمال الأفريقي، واكتملت السيادة الرومانية في المغرب الكبير بعد إحكام قبضتهم على مدينة قرطاجنة وتدميرها عام ١٤٦ ق.م. بعد السيطرة على كل أقاليم حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقية والغربية.<sup>(٥)</sup>

ولتأكيد بسط نفوذهم على هذه المنطقة أنشؤوا المعسكرات الدائمة المجهزة،

---

(١) Loc. cit.

(٢) دونالد ودنر: تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء - ترجمة راشد البراوي ص ١٣.

(٣) د. عبدالعزيز كامل: جغرافية الإسلام في إفريقيا، ص ٨٠.

(٤) المكان نفسه.

(٥) الدكتور يسري عبدالفتاح الجوهري. شمال إفريقيا - دراسة في الجغرافية التاريخية، ص ١٥٨-١٥٩.

فعدت بمنزلة مدن عسكرية ارتبط تشييدها بإنشاء الطرق اللازمة للمتحركات العسكرية والمدنية، ومن ثم فقد خلف الرومان شبكة طويلة من الطرق، تعدّ من أهم مخلفاتهم في شمالي إفريقيا<sup>(١)</sup>، إذ أعطت للبلدان المغربية صفة الحضرية أكثر من الصفة البدوية، واجتذبت إليها الكثير من البربر، خاصة أولئك الذين كانوا يعملون في المزارع الرومانية التي كان يمتلكها أثرياء الرومان.<sup>(٢)</sup>

وقد حاول البربر في ظل الوجود الروماني جمع شمل القبائل، ولكنهم فشلوا، للفروق التي نشأت حين أصبحوا يضمون عناصر بربرية تحضرت وأخرى لا تزال بدوية على حافة الصحراء، تحاول الاقتراب من المجتمعات الحضرية، ولكنها لم تألف بعد حياة المدن والخضوع السياسي لدولة بربرية متحدة.

وللظروف الجغرافية دورها في هذا الوضع الانعزالي، إذ إن طبيعة البلاد ليست من اليسر والتجانس بحيث تكفل تحقيق مثل هذه الوحدة حيثئذ، لأن كثرة المناطق الجبلية، وعدم توافر الطرق الموصلة بينها، باعد بين المجتمعات البشرية المختلفة، لذلك فقد أعطى الرومان أهمية خاصة للمواصلات لكي تحقق التحكم الروماني على المناطق التي تقع تحت سيطرتها كافة.<sup>(٣)</sup>

وقد أخذت سيطرة الرومان في شمالي إفريقية تنهار خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين، وساعد على سرعة هذا الانهيار دخول الجمل من آسيا إلى شمال إفريقيا<sup>(٤)</sup> ففي المناطق الصحراوية المتاخمة لتونس وطرابلس ظهرت عناصر بدوية جديدة ممثلة في قبائل زناتة التي قدمت من مناطق «أستبس» الصحراوية

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٦١، ١٦٣، كوابونج: إفريقية الشمالية في العصر القرطاجني واليوناني والروماني (مترجم)، ص ص ٨ - ١٠.

(٢) الجوهري، المرجع نفسه، ص ١٦٥.

(٣) المكان نفسه.

(٤) رولاند أوليفروجون فيج: موجز تاريخ إفريقية (ترجمة دولت صادق)، ص ٦٥.

الكبرى على ظهور الجمال، لتهاجم وتسلب وتنهب الجماعات المستقرة في الأقاليم الرومانية، الأمر الذي أدى إلى إضعاف سلطة الرومان على هذه المناطق، لاسيما بعد أن بدأت عناصر البدو الرعاة في التوسع والانتشار على حساب المدينيات الزراعية المستقرة. وقد عجلت عمليات السلب هذه بغزو الأسبان لشمال إفريقيا على أيدي قبائل الوندال في القرن الخامس الميلادي، وتبع ذلك إعادة إخضاع هذه المناطق بواسطة العناصر البيزنطية في خلال القرن السادس الميلادي. (١)

أما فيما يتعلق بسكان هذه المناطق وتسمياتهم، فمما يذكره بوفل (٢) بأنه قبل الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي كانت المناطق الداخلية للمنطقة يقطنها نوعان من البشر: زنوج وغير زنوج، وأن الأخيرين والذين كانوا من الحاميين الشماليين، أطلق الرومان عليهم اسم «الليبيين» ويسميه العرب بـ «البربر» والاسم الأخير أخذ من اللاتينية «Barbari». ومن ضمن الليبيين أو البربر كانت هناك أجناس صحراوية يسميها الرومان بـ «Gaetuli» في الجزء الشمالي الغربي، وبـ «Goramantes» في إقليم فزان، وبـ «Nobate» في وادي النيل. ويرى بوفل أن من المعتقد انتماءهم إلى فرع من الكوشيين القدماء الذين طردوا من زمن سحيق قبل الفترة المسيحية من موطنهم في جنوب الجزيرة العربية عبر مضيق باب المندب إلى إفريقيا، ويعرفون بـ «Gara» في فزان ومايزال حطام جاراما «Garama» إحدى مدنها، ويبدو منه جليا أنهم لم يكونوا بربرين «Barbarous» مئة في المئة. وأن الاثيوبيين الذين ذكرهم هيرودتس، والذين يتمثلون اليوم في قبائل التيدا أو التبس يتمون إلى النوع نفسه، وأن قبائل جارا «Gara» هذه والذين عرفوا أخيرا لدى العرب باسم «Su» أو «Sa» ذابوا في الزنوج، أو أصبحوا أجدادا للشعوب السودانية مثل قبائل الماندنحو

---

(١) الجوهري، المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٢) B. W. Bovill: Garavans of the Old Sahara, p. 23.



أو السوننكي والوانغارا في غربي إفريقيا والـ«Garawan» و«Guraan» في إفريقية الوسطى. وليس بدو الصحراء اللييون الذين نسميهم اليوم بالطوارق أقل أهمية من الجارا. فقد عرفوا عند الكتاب العرب باسم «الملثمين».

ويعقد بوفل<sup>(١)</sup> فصلا كاملا عن أجناس الصحراء لاسيما الطوارق، وكيفية وصولهم إلى مناطقهم الحالية، واختلاف الآراء حول أصلهم وزمان قدومهم وعاداتهم وتقاليدهم وأثر المسيحية فيهم، والأجناس الأخرى، وإلى أي مدى كان انتشارهم في غربي إفريقيا، خاصة في منطقة بحيرة تشاد، ونعلم أن لهم فروعاً في السودان النيلي، خاصة في دارفور.

#### د - الإسلام في شمالي إفريقيا :

فتح العرب المسلمون منطقة شمالي إفريقية مرتين: أولاً في القرن السابع الميلادي، والثانية في القرن الحادي عشر، وكانت كل منهما تختلف عن الأخرى من حيث الظروف التي مهدت لها، والنتائج الطويلة الأمد التي حققتها. واستطاع العرب خلال الفترة التي امتدت بين هذين الحدثين أن يحولوا إفريقية الشمالية إلى دولة إسلامية يتحدث شعبها اللغة العربية، كما استطاعوا كذلك أن يمهّدوا الطريق أمام حركة انتشار الإسلام نحو الجنوب إلى الصحراء، وإلى أبعد من هذا، إلى أعماق إفريقية الاستوائية، أحياناً عن طريق التجارة، وأحياناً أخرى عن طريق الدعاة. ومن هنا يتضح لنا أهمية ذلك الإشعاع الحضاري الذي انبعث من قلب الجزيرة العربية، ليعم معظم أجزاء العالم، وكان لإفريقية نصيب الأسد من تلك الثروة. ولنلق ضوءاً على تلك الحركة:—

لم يحل عام ٢١هـ / ٦٤١م حتى كان المسلمون العرب قد استولوا على مصر من أيدي البيزنطيين، وتم توقيع معاهدة اندمجت مصر بمقتضاها في الدولة

---

B. W. Bovill: Garavans of the Old Sahara, p. 23. ff (١)

الإسلامية، ثم عبرت الجيوش الإسلامية الأولى الصحراء الغربية من مصر إلى داخل شمالي إفريقية في عام ٢٧هـ / ٦٤٧م. وبعد أن ضعفت قوة مقاومة البيزنطيين أمام الفتح الإسلامي أخذ المسلمون يتوسعون في تنفيذ خططهم التي كانت تتسم بشيء كبير من العزم لاستئصال البيزنطيين.<sup>(١)</sup>

وبعد أن تم القضاء على المقاومة البيزنطية في القطر المصري، أصبحت مصر القاعدة الأمامية العسكرية التي انطلقت منها الفتوح إلى برقة وليبيا وتونس وبلاد المغرب<sup>(٢)</sup>، ولقد قاوم البربر - وهم غالبية<sup>(٣)</sup> سكان شمالي إفريقية وسكانها الأصليون<sup>(٤)</sup> - المسلمين الفاتحين مدة طويلة، واشتبك الجانبان في معارك كثيرة، كان من أهمها سيطرة سنة ٣٠هـ / ٦٥٠م. ثم توغل القائد المسلم حينذاك عقبة بن نافع الفهري، على رأس جنده<sup>(٥)</sup> وفيما بين ٥٠هـ / ٦٧٠م - ٩٠هـ / ٧٠٨م انتهت مقاومة البربر أمام الجيوش الإسلامية بقيادة حسان بن النعمان<sup>(٦)</sup>، وألحق المغرب سياسيا بدولة الخلفاء الشرقية الأموية والعباسية، وتولى موسى بن نصير زمام

---

(١) انظر: برنادر لويس: العرب المسلمون في إفريقية، ص ٢١.

(٢) انظر: عبدالرحمن بن عبدالحكم: فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق الطباع ص ٣٤-٥٠: البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٣٤.

(٣) د. عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، ص ٥.

(٤) لويس، العرب المسلمون، مرجع سبق ذكره ص ٢٢.

(٥) انظر: ابن عبدالحكم، مرجع سبق ذكره، ص ٥٠، كان ذلك سنة ٤٦هـ / ٦٦٦م.

الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٣٩ وما بعدها.

محمد الواقدي: فتوح إفريقية، ص ٢ وما بعدها، وهذا الكتاب فيه تفاصيل دقيقة جدا عن سير حروب عقبة في هذه الناحية، وسرد جميل ومشوق يصور فيه خلجات النفوس المؤمنة وجهادها في سبيل إعلاء راية الإسلام.

(٦) انظر: ابن عبدالحكم، المصدر نفسه، ص ٦٥. وحسان هذا أمره عبدالملك بن مروان في سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م، وكانت له صولات وجولات مع الكاهنة البربرية وظفر بها أخيرا وقتلها وكسب الإسلام إلى جانبه ولديها. انظر المصدر نفسه، ص ٦٣ وما بعدها والرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص ٦٤-٥٥.

المغرب<sup>(١)</sup>. وفي عام ٩٣هـ / ٧١١م حشد جيش إسلامي - عربي بربري - بقيادة طارق بن زياد<sup>(٢)</sup>، واجتاز المضيق وتوغل في الأندلس، وفي سنوات قليلة ضمت أسبانيا إلى الدولة الإسلامية الكبرى<sup>(٣)</sup>.

وكان فتح بلاد الأندلس فتحاً للإسلام في المغرب والأندلس معاً، ذلك أن معظم الجيوش التي فتحت هذه البلاد كانت من البربر. وشعر المغاربة البربر لأول مرة بمساواتهم بالعرب، وبدأت شخصية المغرب الإسلامي تدخل في دورها الفعال إذ شعر البربر بعد فتح الأندلس بأنهم أصبحوا حماة الإسلام في هذه البلاد، وعليهم مهمة نشر الدين ومناهضة المسيحية عند الاعتداء<sup>(٤)</sup>.

وبدأ المسلمون بعد ذلك يتدفقون من الشرق. وكان هؤلاء القادمون الجدد يستقرون في القيروان التي أسسها عقبة بن نافع عام ٥٠هـ / ٦٧٠م في تونس<sup>(٥)</sup>، والتي ظلت العاصمة الإدارية والعسكرية للعرب المسلمين في شمالي إفريقيا خلال فترة الفتوحات، ومنها تمكن المسلمون من السيطرة على تونس، ثم مدوا نفوذهم ناحية الغرب إلى الجزائر ومراكش، وإلى غيرها من المدن الأخرى التي أصبح العرب المسلمون يمثلون فيها معظم السكان، والتي أصبحت تشغل مراكز صبغ أبناء شمالي

---

(١) ابن عبدالحكم، المصدر نفسه، ص ٦٨. وابن نصير هذا هو خليفة حسان بن النعمان من قبل عبدالمالك بن مروان سنة ٧٨هـ / ٦٩٧م، ويوفاة عبدالمالك استخلف الوليد بن عبدالمالك، فتواترت فتوح المغرب في عهده على يد ابن نصير حتى عظمت منزلته جداً. انظر المصدر نفسه، ص ٧٠ والرقيق القيرواني، المصدر السابق، ٦٨ وما بعدها.

(٢) ابن عبدالحكم، المصدر نفسه، ص ٧١، ويذكر أن جنده كانوا سبعمائة وألف، وتذكر رواية أخرى لآخرين بأنهم كانوا اثني عشر ألفاً من البربر، وستة عشر رجلاً من العرب، ويقول بخطأ هذه الرواية، وقد ذكر القيرواني هذه الرواية، انظر، ص ٧٤.

(٣) لويس، مرجع سبق ذكره، ص ٥.

(٤) د. حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص ١٦.

(٥) انظر: ابن عبدالحكم، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤.



إفريقية بالصبغة الإسلامية العربية<sup>(١)</sup> تلك الصبغة التي لم يسبق أن صبغ بمثلها هذا الإقليم، وذلك كله للدلالة على العلاقة الوثيقة العرقية التي تربط بين العرب والبربر، يؤكد هذا الصفة العربية الخالصة لهذا الإقليم الإسلامي العربي، الذي ظهرت فيه شعوب في التاريخ القديم بأسماء مختلفة - كما رأينا - وغشيته الحضارة الفينيقية، وهي ذات الصلة القوية بالثقافة السامية فترة من الزمن، ولكن جل تأثيرها كان مجاورا للشاطئ<sup>(٢)</sup>. وكذلك ألت به الثقافة الرومانية، وحلت به جماعات الوندال، ولم تترك هذه التجارب كلها أثرا في حضارة الإقليم إلى أن جاءت الفتوحات الإسلامية في القرنين السابع والثامن، فإذا العربية تزدهر، والحضارة الإسلامية تنتشر، وتثبت قواعدها كأحسن ما نجده في أقطار الشرق الإسلامي<sup>(٣)</sup>. وأصبحت فيه مراكز للثقافة والعلوم الإسلامية في مدن مثل القيروان وفاس<sup>(٤)</sup>. ويرى كثير من المؤرخين أن هذا الانتعاش الثقافي في العهد الإسلامي ربما كان من بين أسبابه قرابة في السلالات أو نوع من القرابة الروحية، فإن الكتاب العرب، يتحدثون عن القبائل العربية في جزيرة العرب ومايلها من الأقطار، كثيرا مايشير بعضهم إلى أن البربر من سكان شمالي إفريقية لهم صلة نسب قديمة بالعرب<sup>(٥)</sup>. ويرى الدكتور عبدالحميد بخيت<sup>(٦)</sup> وبعض الكتاب الآخرين<sup>(٧)</sup> أن في تاريخ العرب أربعة انقلابات عنيفة تجمعت عنها تلك الهجرات، وأولها كان في سنة

---

(١) برناردو لويس: مرجع سبق ذكره، ص ٢٢.

(٢) الدكتور محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ٣٣٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٣٨.

(٤) المكان نفسه، عثمان الكعاك: مراكز الثقافة في المغرب، ص ٤٥ وما بعدها.

(٥) الشعوب والسلالات الإفريقية، المرجع السابق، ص ٣٣٨.

(٦) المجتمع العربي والإسلامي، ج ١، ص ٧٠-٧١.

(٧) انظر المكان نفسه، ويذكر الدكتور بخيت من هؤلاء البعض: سيد مظفر الدين السندوي: التاريخ

الجغرافي للقرآن، ص ١٤٧، انظر أيضا: بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٢.

٣٠٠٠ ق.م حيث هاجرت أعداد كبيرة من القبائل من الجزيرة العربية وانتشروا في بابل وآشور ومصر وفينيقية. والهجرة الثانية كانت سنة ١٥٠٠ ق.م حيث خرج المؤابيون والمدينيون - المعروفون باسم الماويين - والادوميين من بلادهم إلى الأراضي المجاورة. أما الهجرة الثالثة فهي عندما هاجر السبثيون واليمنيون إلى بلاد أخرى. أما الهجرة الرابعة فقد كانت في القرن السابع الميلادي حين انتشر العرب تحت راية الإسلام في البلاد الأجنبية طولا وعرضا.

ولاشك أن هناك جمهرة كبيرة من مؤرخي العرب وغيرهم يكادون يجمعون على أن العرب في الأزمان السحيقة، قد استوطنوا وادي النيل كما استوطنوا شمالي إفريقية ومن قبلها العراق والشام، بل سكنوا كذلك شرقي إفريقية كالحبشة وزنجبار وجزر المحيط الهندي.<sup>(١)</sup>

وبعد طرح كل الآراء التي تؤيد أن وطن الساميين هو جزيرة العرب يقول الدكتور جواد علي<sup>(٢)</sup> مناقشا بعض الآراء الأخرى: «... ومن هؤلاء من أبصر الوطن السامي الأول في إفريقية، ومن هؤلاء «بلكريف»، وقد بنى نظريته هذه على وجود تشابه في الملامح وفي الخصائص العرقية، وصلات لغوية بين الأحباش والبربر والعرب، مجمل هذا التشابه الذي رآه يدلّ على افتراضه وجود الوطن السامي الأول في قارة إفريقية، وذهب إلى هذه النظرية جيرلانـد Gerland واستحسنها وأيدها علماء آخرون من أمثال (برتن) و(نولدكه) و(موريس جاسترو) و(ريللي) وآخرون...» ويقول الدكتور محمد عوض<sup>(٣)</sup>: «ولئن كان من الصعب أن ندرك صلة

---

(١) فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ، ص ١٠ وما بعدها.

غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٦٦٤ وما بعدها.

الدكتور محمود طه أبوالعلا: المؤثرات العربية في شرق إفريقية، ص ١١٩ وما بعدها.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٧، ص ١٦١٥.

(٣) الشعوب والسلالات الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٨.

النسب القديمة بين العرب القدماء والبربر فإنه ليس من الصعب أن نتابع الأستاذ جرينبرج<sup>(١)</sup> فيما ذهب إليه من أن لغة البربر واللغات السامية تمت كلها إلى أصل واحد، وقد سماها المجموعة الأفروآسيوية، ولن تكون القرابة اللغوية قائمة دون أن تستند إلى شيء من القرابة الروحية بين العرب وسكان إفريقيا، وكان لهذا الفضل في استجابة سكان إفريقيا الشمالية للمؤثرات الإسلامية والعربية.<sup>(٢)</sup>

ونتيجة لتلك العلاقة وطبيعة الإسلام وخصائصه العالمية، نجحت الحضارة الإسلامية حيث أخفقت الحضارات الأخرى التي سبقتها، نجحت في ربط القارة الإفريقية بعضها ببعض وفي إقامة روح واحدة لشعوبها، تلك الروح التي كانت سرا من أسرار سرعة انتشار الإسلام وحمله بحماس عبر الصحراء إلى غربي إفريقيا، مما سنعرض له بالتفصيل في الفصول القادمة.

---

(١) واسم كتابه: الثقافات الإفريقية، وهو من أقدر علماء اللغات في العصر الحاضر كما يقول الدكتور محمد عوض، انظر المرجع السابق، هامش ص ٣٣٨.

(٢) لمعرفة تشعب الآراء حول هذا الموضوع انظر:

ابن خرداذبه: المسالك والممالك، مصدر سبق ذكره، ص ٩١.

ابن خلدون: العبر، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ١٨١ - ١٩٣ م.

البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٥.

المجتمع العربي والإسلامي، ج ١، مرجع سبق ذكره، ص ٧٢.





## الفصل الأول

عوامل تغلغل الإسلام في غربي إفريقيا



## المبحث الأول





## التجارة والتجار

إن من بين العناصر المهمة التي قدمت إلى إفريقية في الفترة الإسلامية، وكانت تألف هذه المنطقة منذ القدم، هم التجار، ولقد وفد هذا العنصر من سوريا والعراق، وفي بعض الأحيان كان يفد أيضا من فارس ومنطقة آسيا الوسطى، ووصلت قوافلهم إلى إفريقية الغربية عبر شمالي إفريقية. ومنذ القرن التاسع الميلادي أصبح الغرب من الغنى والتقدم بحيث استطاع أن ينبذ سلطة المشرق عليه، وأن يقيم دولا إسلامية مستقلة، وظهرت الأمة العربية والبربرية الحاكمة في كل من مراكش وتونس، وهي الأسر التي ظلت تعترف فقط بالسيادة الاسمية للخلافة المشرقية، في الوقت الذي كانت تتمتع فيه باستقلال بلادها استقلالاً كاملاً. ومن تلك الدويلات: دولة الأغالبة<sup>(١)</sup> والدولة الرستمية<sup>(٢)</sup> والمدارية<sup>(٣)</sup> وغيرها مما هو معروف.<sup>(٤)</sup>

---

(١) نسبة إلى إبراهيم بن الأغلب، أحد ولاة العباسيين بالمغرب (القيروان). والذي تمرد على الخلافة واستقل بالمغرب وأسس دولة عرفت بالأغالبة في نهاية القرن الثاني الهجري (١٨٤هـ) إلى نهاية القرن الثالث الهجري، (٢٩٦هـ) انظر: الدكتور السيد عبدالعزيز: المغرب الكبير، ج٢ مرجع سبق ذكره ص ص ٤٠٦-٤٠٧.

(٢) نسبة إلى عبدالرحمن بن رستم، وهو من الخوارج الإباضية الذين أفلحوا في إقامة دولة بتاهرت بالمغرب (١٦٠هـ / ٧٧٦م - ٢٩٦هـ / ٩٠٨م). انظر: المرجع نفسه، ص ص ٥٦٦-٥٦٧.

(٣) نسبة إلى اليسع بن أبي القاسم بن المدرار، وتعرف بدولة بني واسول (١٧٤هـ / ٧٩٠م - ٣٤٧هـ / ٩٥٨م) وقاعدتها سجلماسة. انظر: المرجع نفسه ص ص ٥٨٣ - ٥٨٩.

(٤) مثل الأدارسة (٢٧٢هـ / ٨٨٥م - ٣٥٩هـ / ٩٦٨م) انظر: المرجع نفسه ص ص ٤٨٦-٤٨٧. والفاطمية (٢٩٦هـ / ٩٠٨م - ٣٥٨هـ / ٩٦٨م) انظر المرجع نفسه، ص ص ٥٩٣ - ٦٣٧ ومن بعد الفاطميين جاء بنو زيزي وبنو حماد الصنهاجيون ثم المرابطون والموحدون: انظر المرجع نفسه، ص ص ٦٤١-٨٣١، والحفصيون وبني ريان (عبدالواد) والمرينيون والسعديون والعلويون. انظر: محمد ابن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي، ص ص ٤٣-٣٠، لويس، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣، إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ١٧.

ومما تجدر الإشارة إليه أن تأسيس مدينة فاس في عهد الأدارسة كان فاتحة عهد جديد في تاريخ تطور التجارة، إذ أضحت قبلة العلماء والتجار من كل حذب وصبوب. وما مدينة فاس إلا واحدة من عدة مدن أوجدها المسلمون العرب في الشمال الإفريقي، وذلك في نطاق ما أوجده الإسلام من التعمير في محيط المناطق التي تحد البحر الأبيض المتوسط، وسادت فترة رائعة تميزت بالمساواة والابتكار، وفاقت فيها المدن الإسلامية المغربية غيرها من المدن الإسلامية من حيث الاستقرار والنظام والإدارة وفن المعمار... وكلما فقد الناس الاستقرار نجد أن من بين العوامل وراء ذلك عامل التجارة، لأن فقدان الاهتمام بالتجارة كان مدعاة للانحيار في جميع المجالات الحيوية، لأن التجارة تنشأ قبل نشأة المدن، أي إن حركة استراتيجية التجارة هي التي تجذب الأنظار نحو موقع ما ليكون مدينة تنمو بمرور الزمن نسبة لموقعها التجاري الذي خصها الله به، وإذا تحولت التجارة عن المدن تصبح مشلولة كما حدث في مطلع هذا القرن، عندما تغيرت استراتيجية التجارة عن بعض المدن في إيطاليا والشرق الأوسط، وهذا الأمر من البدايات في علم التجارة التقليدية وتخطيط المدن.<sup>(١)</sup>

ولقد كان وجود المسلمين العرب في شمالي إفريقية يمثل عهدا جديدا في مجال ازدهار التجارة،<sup>(٢)</sup> لأن من أكبر الخدمات التي قدمها حكام شمالي إفريقية هو الإسهام الكبير في تعمير الطرق مما أتاح للتجار الفرصة في حمل الإسلام إلى جنوب الصحراء. فقد عمل عبدالرحمن بن حبيب الفهري - حفيد عقبة بن نافع - (١٢٧-١٣٢ هـ / ٧٤٤-٧٤٩ م) على حفر سلسلة من

---

(١) انظر مثلا: W.E.F. Ward: A History of Africa, P. 37. رولاند أوليفر وجون فيج، موجز تاريخ إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦ وقد تمثلا هنا بمدن العصر القرطاجني الروماني مثل مدينة لتبس ماجنا وليكوس التي كانت تقع على المحيط الأطلسي عند نهاية طرق التجارة عبر صحراء موريتانيا.

(٢) عن تجارة قرطاجنة والجمهورية الرومانية مع غربي إفريقية انظر: ويلنر، مرجع سبق ذكره ص ٣٧. وما بعدها.

الآبار تصل بين واحات إفريقية ومدينة أودغست بصحراء المغرب الأقصى<sup>(١)</sup>، واستطاع جنوده بفضل الله ثم بفضل هذه السياسة أن يعبروا الصحراء، وأن ينشروا الإسلام بين القبائل الضاربة فيها، كما استطاع التجار أن يتصلوا ببلاد الملثمين وبلاد غربي إفريقية عن طريقين<sup>(٢)</sup>: طريق ساحل المحيط أو طريق الصحراء الذي أصلحه عبدالرحمن بن حبيب الفهري، وأصبحت القوافل أكثر استعدادا لارتداد الطرق إلى غربي إفريقية. وقد تمخضت هذه الجهود عن نتائج طيبة، إذ أدت إلى دخول الإسلام إلى غربي إفريقية عن طريق آخر غير الطرق التي كانت مألوفة من قبل. وقد استطاع ابن حبيب أن يقر الأمن والسكينة في بلاد الغرب، فانتشر الإسلام في ربوعه، وبدأت الحياة الثقافية والاقتصادية تنمو وتزدهر على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي من فتن بعد سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية.

وتجدر الإشارة إلى أن مما قَرَّب الصلة والاحتكاك بين البربر والزنوج، أن القائمين الجدد (العرب المسلمين) لم يكونوا كالرومان يعيشون في المدن ويؤثرون الساحل على الداخل، بل كان بين هؤلاء الفاتحين من ترك الساحل وفضل الآفاق الفسيحة بالداخل، ومن ثم أخلى كثير من البربر مكانهم للعرب واندفعوا للجنوب، ثم جاءت غارات بني سليم وبني هلال في عهد المستنصر الفاطمي في القرن الخامس الهجري، تلك التي اندفعت كالسيل يزحف على شمالي إفريقية<sup>(٣)</sup>، فاتجه مزيد من القبائل البربرية نحو الجنوب، واقتحموا أرض الزنوج، حيث نزلوا بلاد السنغال، ثم اتجهوا شرقا إلى نهر النيجر،

---

(١) إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ٩١-٩٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٢.

(٣) الدكتور أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج٦، ص ١٦٨.



وكانم برنو. (١)

وعن طريق هذا الاحتكاك وجدت الصلات الروحية بين سكان القارة  
الافريقية شمالي الصحراء وجنوبها، وقد تأكدت هذه الصلات الروحية عن  
طريق التجارة الصحراوية ونشاط القوافل التي كانت تجوب هذه الصحاري  
حاملة معها المنسوجات وغيرها من منتجات الشمال الإفريقي وحضارة الشمال  
الإفريقي. وفي الطريق كانت القوافل تعطف على واحة «تغازة» حيث يكثر  
الملح، وهو أهم ما كان يطلبه سكان غربي إفريقيا<sup>(٢)</sup>، ويتقاضون بالملح  
والذهب، ثم تعود القوافل حاملة منتجات غربي إفريقيا الوفيرة. وكان  
للمسلمين والعرب دور بارز في هذه التجارة المهمة التي سارت في طرق  
معروفة، نجمل وصفها.

تذكر كتب الجغرافية الحديثة أن طرق القوافل الحالية لم تتغير تقريباً عما  
كانت عليه قديماً، وأنها لاتزال قائمة بين المغرب وبين السنغال والنيجر، وقد  
ذكر الدكتور شعيرة<sup>(٣)</sup> ثلاثة طرق مهمة مع وصف للمدن التجارية التي تتحكم  
فيها، وهي: -

١ - الطريق الأول: يمر عبر موريتانيا، ويبدأ من أغادير الواقعة على مصب نهر  
السوس ويسير جنوباً إلى أن يصل إلى عاصمة موريتانيا «نواكشوط»، ثم  
يستمر في سيره حتى يصل إلى مصب نهر السنغال، ويقابل هذا الطريق  
قديماً طريق يبدأ من «تارودانت» شرقي أغادير على نهر السوس، ويسير إلى

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٦٩.

(٢) ويلنر، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧.

(٣) المرباطون وتاريخهم السياسي، ص ١٦-٢٣، بتصرف، وعن هذه الطرق انظر أيضاً: محمد  
عبدالفتاح إبراهيم: إفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا، ص ٧١-٧٢.

نول التي خلفتها تندوق اليوم، ثم يسير إلى مدينة أوليل، ويقابلها اليوم مدينة «سانت اتين»، وهذه المحطات القديمة كانت مراكز مهمة جداً.

أما تارودانت فهي التي كانت تستقبل القوافل الآتية من الجنوب، والتي كانت تزود القوافل المتجهة نحو الجنوب، بل كانت هذه المدينة مركز العمران الذي تحول إلى مراكز عندما انشئت في صدر الدولة المرابطية، ونتصورها لذلك مدينة كبيرة أشبه ماتكون بعاصمة الجنوب وبنهايات الخطوط التجارية. . وكانت تقع في إقليم خصب صالح للزراعة وتربية الماشية.

فإذا عادت القوافل من الجنوب وجدت في المدينة من الخصب ومن الصناعات ومن أنماط الحضارة ما ينسبها مشقة الرحلة.

والمحطة الثانية على هذا الطريق هي مدينة نول، وهي مدينة داخلية تقع على نهر صحراوي يحمل الاسم نفسه. وتأتي أهميتها من أنها مركز الدروق اللمطية الشهيرة. ويضاف إلى هذه الصناعة صناعة السروج ولُجم الخيل، وهي صناعة يجب أن تقاس بمقدار الحركة التجارية المارة بهذا الخط على الأقل، وصناعة ثالثة هي صناعة الأكسية التي تباع بثمان غال.

ثم تكون أوليل نهاية المطاف، وهي عبارة عن جزيرة في البحر، قريبة جداً من الساحل، وفيها معدن الملح الذي يحمل منها إلى جميع بلاد غربي إفريقيا، حيث كانت صاحبة الاحتكار في هذه التجارة المهمة في ذلك العصر.<sup>(١)</sup>

وقد اشتهر هذا الطريق بأهميته رغم بعده ووقوعه في «أقصى

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٩١، الإدريسي: نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٦؛ المغرب وأرض السودان، مصدر سبق ذكره ص ٣؛ المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٧١، ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٣؛ الاستبصار، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٤؛ ابن سعيد المغربي: بسط الأرض، مصدر سبق ذكره ص ٢٤.

الغرب»<sup>(١)</sup>.

٢ - الطريق الثاني : طريق مالي وغانا، وهو الطريق الأوسط الممتد بين سجلماسة ثم درعة من ناحية أودغست، ثم النيجر من ناحية أخرى. ورأس هذا الطريق عند سجلماسة، وهي من أقدم رؤوس طرق القوافل في المغرب وأكثرها شهرة وحيوية وتعبيرا عن الشخصية المغربية التجارية، وهي مركز إقليم يعرف باسم «تافيللت». وقد بادت هذه المدينة التي تعدّ من أقدم المدن المغربية الإسلامية التي رحبت بالإسلام على مذهب الخوارج الصفرية، الذين أقاموا فيها دولة ذات تجارة واسعة، وكانت تقع على نهر كثير المياه، وفيها تنبت الزراعات الثمينة، ذات القيمة التجارية، مثل الكراوية والحناء والقطن، وهي مدينة داخلية في مناطق الصحراء، يوجد فيها الرطب، وتكتسب المدينة من القوافل ما تجري به العادة من انصباب البضائع إليها وشغل اليد العاملة ووفرة الثروات، فلا غرو فقد كانت «باب الصحراء إلى أرض السودان»<sup>(٢)</sup>، ويجمع الجغرافيون والكتاب المسلمون

(١) W.D. Cooley: The Negro land of the Arabs, p. 2.

M.A.H. Sharkawy: "Egyptian and Foreign Elements in the Evolution of West African Cultures" C.U.D.A. Vol.1, (1933), p. 190.

ويذكر الشرقاوي أن الطريق الشرقي كان متعبا لوجود قبائل غير مسلمة عليه. د. عبدالعزيز كامل: جغرافية الإسلام في إفريقيا، ص ٤٠.

(٢) مسالك الأبصار، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٣، ولمعرفة أهمية هذه الثروة يقول العمري: «... ولقد رأيت صكا فيه حق على رجل من سجلماسة لآخر من أهلها باثنين وأربعين ألف دينار»، ويقول: «... من أكبر مدن المغرب وأشهرها ذكرا في الآفاق... وأهلها مياسير ولهم متاجر إلى بلاد السودان»؛ البكري: المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٨-١٤٩، إذ يقول: «ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانا...»؛ الأصبخري: مسالك الممالك، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩، وعنها يقول: «وسجلماسة مدينة وسط من حد تاهرت، إلا أنها منطقة لا يسلك إليها إلا من القفار والرمال، وهي قريبة من معدن الذهب، بينها وبين أرض السودان وأرض زويلة، ويقال إنه لا يعرف معدن للذهب أوسع ذهباً ولا أصفى منه إلا أن المسلك إليه صعب والاستعداد شاق جدا...».

## والعرب على أهميتها التجارية. (١)

ثم تكون درعة إلى الجنوب، وهي تشبه في الوصف سجلماسة من حيث وقوعها على نهر، واستمداد رزقها من القوافل. (٢) ويصفها الإدريسي (٣) بأنها مدينة كبيرة آمنة غير مسورة ولا محاطة بحفير، وإنما هي قرى متصلة ومزارع، وهي تشارك سجلماسة في زراعة الحناء ذات القيمة المادية في ذلك الوقت، وتتميز درعة عن سجلماسة بأنها هي المحطة التي لا بد منها في طرق المواصلات الصحراوية، وأهم من ذلك الأمن، فإن درعة وسجلماسة استغنتا عن الأسوار التي تكون ضرورية في مدن الشمال، والأمن عامل أساسي لرواج التجارة.

ثم تكون المحطة الثالثة على هذا الطريق هي «أزقي» أو «أزكي»، وهي المركز الحقيقي لأهل الصحراء، وفيه يكون اجتماعهم، وهي الباب الشمالي إلى السودان كله كما كانت سجلماسة بابه الجنوبي، ولا اتصال بين المغرب وبين جميع بلاد غربي إفريقية إلا عن طريقها. (٤)

٣ - والطريق الثالث هو طريق الصحراء من أرض السودان إلى جبل نفوسة

---

(١) من هؤلاء: الإدريسي: المغرب وأرض السودان، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠؛ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣١، ويقول عن أهلها: «أهل سنة وقوم جيد، بها علماء عقلاء...»، الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ٢٣٨-٣٩؛ ابن الوردي: المختصر في أخبار البشر، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤؛ ابن حوقل: صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥، ٩١، وعنهما يقول: «وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق»؛ ابن رسته: الأعلام النفيسة، ص ٣٥٩.

(٢) وعن أهمية هذه المدينة انظر: أبو الفداء: تقويم البلدان، مصدر سبق ذكره، ص ١٣١؛ ابن خرداذبه: المسالك والممالك، مصدر سبق ذكره، ص ٨٨؛ الإدريسي، المغرب، سبق ذكره، ص ٦١؛ الإستبصار، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦؛ البكري، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥.

(٣) المغرب وأرض السودان، المصدر السابق، ص ٦١.

(٤) انظر: الإدريسي، المصدر نفسه، ص ٥٩-٦٠. قال عنها: «وهي أول مراقي الصحراء».



وطرابلس<sup>(١)</sup>. وعلى هذه الطرق والمسالك قامت مدن تجارية أخرى غير التي ذكرنا<sup>(٢)</sup>، أدت دوراً هاماً في خدمة الدعوة الإسلامية والتعليم الإسلامي، مما يدل على صلة انتشار الإسلام وعلومه عن طريق التجارة ومدنها، فإذا ما برزت مدينة تجارية يؤمها البائع والمشتري، سرعان ما تصبح مركزاً ثقافياً يؤمه المعلم والمريد، حتى أصبح من الشائع أن مراكز الاحتكاك تبودلت فيها السلع والأفكار، وقد يغلب الجانب الاقتصادي على بعض المراكز التي نشأت في غربي إفريقيا نتيجة لتلك العلاقات التجارية المستمرة، ويغلب الجانب العلمي على مراكز أخرى مثل كانو، واشتهرت تنبكت بالأميرين معا تقريباً.<sup>(٣)</sup>

وللطرق التي ذكرنا دلالة كبرى على ما كان عليه الحال قديماً من صلات بين الشمال الإفريقي والإقليم العريض الذي عرف قديماً لدى الرحالة العرب بـ«بلاد السودان». وقد ظلت هذه الصلة تجارية صرفاً حتى كان أول العهد المسيحي، حين دفعت التقلبات السياسية في الشمال شعوباً عدة وقبائل مختلفة للتزوح عبر الصحاري للجنوب هرباً من الحروب، وتوالت هذه الأفواج حتى القرن الثالث عشر الميلادي، ونشأت معها منازل من

---

(١) وعلى هذا الطريق أدى الخوارج خدمة كبيرة عندما ساهموا في نشر الإسلام في غربي إفريقيا، وسرى ذلك فيما بعد.

(٢) مثال ذلك: أودغست (انظر ص ١٧١ من هذا الكتاب)، وأغمات، وتلمسان وتاهرت، وزويلة، وزالة، وسبتة، وطنجة، وطرابلس، وهران. انظر: الإدريسي، المغرب، مصدر سبق ذكره، صفحات ٣٢، ٦٦، ٨٠، ٨٤، ٨٧، ١٢١، ١٢٢، ١٦٨؛ دائرة المعارف الإسلامية: مادة تلمسان وأودغست؛ البكري، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٨-١٥٩ عن أودغست، وص ٧٦ عن مدينة تلمسان، وص ١٥٣ عن أغمات، يقول البكري عن يوم سوقها: «يذهب فيها أكثر من مائة ثور وألف شاة ويتقد في ذلك اليوم جميع ذلك، وهذا دليل على أهميتها في القرن الخامس الهجري (١١م). وعن تاهرت انظر: الأصبهاني: مسالك الممالك، ص ٣٩، والنفوسي الأزهاري الرياضية، ص ٩ وما بعدها، وفي هذا المصدر جزء خاص عن تاهرت وأهمتها من الرسمية.

(٣) الدكتور شليبي، الموسوعة، ج٦، مرجع سبق ذكره ص ١٩٤.

المهاجرين العرب والبربر المتهودين،<sup>(١)</sup> تعيش آمنة وسط الزنوج، يتنافسون ويتقاسمون العيش ويتبادلون ما عندهم من ثقافات.<sup>(٢)</sup>

أما في العصر الإسلامي، وفضلا عن تلك الظروف الخاصة، فقد كان للبربر، وخاصة تجارهم، الفضل الأكبر والقدر المعلن في مجال الدعوة الإسلامية والتعليم الديني بين القبائل الزنجية التي تقطن الصحراء وفيما وراء الصحراء، فالفضل يرجع إلى مراكز تجارتهم الموجودة في السهول التي تلي الصحراء، فتجذب إليها العناصر المسلمة النشطة لتقوم بدور بارز في خدمة الإسلام وتربيته. وأبرز تلك الأدوار أنه عندما اعتنقت قبائل صنهاجة<sup>(٣)</sup> البربرية الإسلام في القرن العاشر الميلادي تسرب الدين الحنيف عبر الصحراء، وبدأت المراكز التجارية في الصحراء، ومنها أودغست، المركز الأمامي لتجارة غانا من الجهة الشمالية، بدأت تتسم بالطابع الإسلامي، وتصبح مركزا للدعوة الإسلامية.<sup>(٤)</sup>

ولا يخفى أن الأخذ والعطاء مما يصحبه دائما تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات، ولولا طرق القوافل التي كانت تربط السودان المغرب ببلاد البحر الأبيض المتوسط أو وادي النيل، لما ازدهرت في وقت من الأوقات تلك الحضارة الإسلامية التي لم تعرف غربي إفريقية مثلها من

---

(١) R.J. Harrison Church: West Africa, op. cit., pp.163 ff.

وقد تكلم عن دور اليهود في هذه التجارة.

(٢) بازل ديفدسون: إفريقية تحت أضواء جديدة - ترجمة جمال محمد أحمد، ص ١٩ من المقدمة لجمال. G.P. Murdock: Africa, Its peoples and their Culture, pp. 125-29.

(٣) مستكلم عن دور هذه القبائل فيما بعد.

(٤) الدكتور عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، ص ٦؛ قدام: إفريقية الغربية في ظل الإسلام، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩ الإدريسي: المغرب، ص ٣٢، ولكن في زمان الإدريسي لم تكن عامرة، لأن تسرب الإسلام كان بطيئا، لذلك نراه يقول عنها: «وهي مدينة صغيرة في صحراء ماؤها قليل... وعامرها قليل... وليس بها كبير تجارة؛ ابن سعيد: بسط الأرض، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧-٤٨؛ دائرة المعارف الإسلامية: مادة أودغست، بقلم أيفر.

الحضارات السابقة: إفريقية أو رومانية أو بيزنطية<sup>(١)</sup>.

ولقد تعلم أهل غربي إفريقية عن طريق اتصالهم بالحضارة الإسلامية التي وفدت إليهم، بوساطة الاحتكاك التجاري في المقام الأول، أشياء كثيرة لم تكن لديهم من قبل، وكان للعرب في هذا دور مركزي، لأنهم عرفوا التجارة مع إفريقية عامة منذ أمد بعيد، حتى قيل إن كل عربي تاجر. ولما جاء الإسلام وأصبح التاجر مسلماً، زاد النشاط التجاري بين شمالي الصحراء وجنوبيها، كما زاد النشاط التجاري الذي يقوم به العرب. فقد عني حكام المسلمين بالطرق والأمن<sup>(٢)</sup>، وحددوا المكاييل والمقاييس السليمة، وأشاع التاجر حوله جوا من الثقة، فلقى ترحاباً أنى حل، وأصبح بيته منارة للفكر الإسلامي بما يحمله من مدنية وحضارة، واختار مساعديه من الجنوب، ومن خيرة الناس، فهيأ للإسلام فرصة الانتشار والذيع مع التجارة والتجار<sup>(٣)</sup>.

والتقى العرب في تجوالهم بالقارة الإفريقية مع جماعة تماثلهم في النشاط

---

(١) الدكتور زكي: الإسلام والمسلمون، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٠.

(٢) انظر: عبدالله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج ٢، ص ١٠٦ - ١٠٧، وأوضح دليل أورده كنون هو تلك الرسالة الموجهة من أحد أمراء الموحدين - سليمان - إلى ملك من ملوك غربي إفريقية لم يسمه. وفي هذه الرسالة ينكر الأمير الموحدي على الملك السوداني تعويق التجار من أداء عملهم، ومما جاء فيها: «نحن نتجاوز بالإحسان، وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية ونتألف على الرفق بالرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور لا تمارسه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدد وتردد الجلالة (يعني التجار ويعرف هذا عندنا في السودان النيلي العربي) إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكين من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهتنا من أهل تلك الناحية، لكننا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي أن ننهي عن خلق ونأتي بمثله، والسلام». ولم يفتن فقط مسلمو شمالي إفريقية إلى أهمية العناية بالطرق التجارية، بل إن حكام غربي إفريقية على مر العصور كانوا يفعلون ذلك، ويحضرنا هنا مثال قريب وهو اهتمام السلطان بللو بهذا. انظر:

Dunham and Clapperton: Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa, p.179.

(٣) د. شلبي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٣.

التجاري من أبناء غربي إفريقيا، وعلى رأسهم تجار الفولاني، والهوسا، والديولا، والماندنجو، وغيرهم من تجار التكرور<sup>(١)</sup>، وبذلك أخذت التجارة مكانة مرموقة، فنمت في ظل الإسلام، فخدمها الإسلام وخدمته إلى الحد الذي يقرر فيه ترمنجهام أن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى درجة كبيرة.<sup>(٢)</sup>

لقد اندفع العرب بعد الإسلام نحو شمالي إفريقيا، وترعرع سلطانهم، وامتد فيما بعد القرن الخامس الهجري (١١م)، وهي الفترة التي شهدت قيام الدول الإسلامية الكبرى في غربي إفريقيا وازدياد هجرات سكان شمالي إفريقيا إلى غربيها، واتساع نطاق التجارة، مما جعل أثر الوافدين عميقا في حياة سكان غربي إفريقيا.<sup>(٣)</sup>

ويذكر ديفدسون<sup>(٤)</sup> بأن مجيء العرب إلى هذه المناطق لم يكن من أجل الإغارة كما فعل البربر من قبلهم (أحيانا) ولا للإقامة الهاربة من الاضطهاد<sup>(٥)</sup> كما فعل اليهود والبربر المتهودون حين شق عليهم العيش مع الروم، بل كان التجار والمهاجرون العرب يحملون رسالة، ويتحدثون لغة، وكانوا بعد هذا

---

(١) ستكلم عن هذه الجماعات فيما بعد.

(٢) J.S. Trimingham: A History of Islam in West Africa, p. 31.

(٣) ديفدسون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠ من المقدمة للمترجم.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢١ - ٢٢.

(٥) إن تاريخ الأسر التي كونت دولا في شرقي وشمالي إفريقيا والأندلس يرجع إلى الاضطهاد السياسي، خاصة في الدولتين الأموية والعباسية كما هو معروف. وقد ذكر ذلك كل المؤرخين، ومنهم الدكتور شلبي: الموسوعة، ج ٦ ص ١٨١، ويبدو أن الاضطهاد السياسي وقيام دولة الأدارسة بالمغرب أدى إلى هروب أعداد هائلة من أنصار الأمويين إلى داخل إفريقيا، حيث لا يوجد حاكم يساند العباسيين يخشى من غدره، ولجأ البعض إلى الأندلس والبعض الآخر من أنصار الأمويين وجد الأمان المطلوب في غربي إفريقيا وبذلك سارت بهم القوافل إلى هذه المنطقة، فوجدت الطبيعة ملائمة لحياتها البدوية، فعاشت في سلام، لم يقلل من عددها عدو أو حرب سياسية، فتكاثر أعدادها بمرور السنين. . في ضوء هذا يمكننا ألا نقبل بما أورده ديفدسون.



يبحثون عن مجال أوسع للتجارة. واتخذت صلاتهم العرقية مظاهرها البارزة إلى اليوم في سحنة الكثيرين، وفي التكوين الجسدي، لاسيما في الشعوب التي تعيش شمالي غربي الصحراء، فالدم الغالب شمالي السنغال والنيجر، هو الدم الخليط من الزنوج والبربر والعرب، والدين الغالب هو الإسلام، ولم تكن اللغة العربية غريبة على الكثيرين منهم. ثم يغلب الدم الزنجي جنوب هذين النهرين، وإن كنت ترى حتى اليوم هذا الأثر الذي تركته تجارة القادمين ودينهم وعاداتهم رغم القرون التي مضت على تلك الصلة<sup>(١)</sup>. وكانت مدن غربي إفريقية الرئيسة، ابتداء من القرن الخامس الهجري (١١م) فصاعدا، تمثل المراكز المهمة التي تنتقل إليها تعاليم الإسلام عبر الصحراء، ثم تأخذ في الانتشار إلى مختلف أنحاء غربي إفريقية، ولاشك أن انتشار الإسلام كان يعني شيئا كثيرا بالنسبة لهذه المنطقة، فمن بين مايعنيه وجود ارتباط أكثر تدعيما بين العالمين العربي والزنجي عبر الصحراء، ونمو التعاليم الإسلامية والعلوم.<sup>(٢)</sup>

وليس هناك أدل على أهمية التجارة الإفريقية من المثل الذي يقول: «إن جرب جملك فعليك بالقطران، وإن افتقرت فسافر إلى السودان».<sup>(٣)</sup>

وسوف نستعرض في الصفحات التالية دور كل من تجار الصحراء وشمالي إفريقية عامة وتجار غربي إفريقية في تغلغل الإسلام وعلومه في مساحة واسعة بغربي إفريقية.

---

(١) ديفدسون، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢١-٢٢.

(٢) توماس هودكير: ممالك السودان الغربي - فجر التاريخ الإفريقي، ص ٢٦.

(٣) نعيم قداح، مرجع سبق ذكره، ص ١٣١؛ جوليان، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥، وقد ترجم المترجم هذا المثل بقوله: «إذا أردت علاج جرب الجمال فاستعمل القار، وإذا أردت علاج البؤس فاذهب إلى السودان، وقد ذهبت الترجمة بروعة السجع، ولكنه أعطى المعنى».

## أ - تجار قبائل الصحراء الكبرى

لقد أخذت بعض القبائل العربية والبربرية في الصحراء بالاستقرار بعد دخول الإسلام، وكان لهذا الاستقرار إسهامه الفعال في نشر الإسلام في غربي إفريقيا، إذ كانوا هم الوسطاء في حركة التجارة بين بلاد غربي إفريقيا والبلاد الأخرى. ومن هذه القبائل البربرية ذات الشأن في هذا المجال قبيلة هواة وقبائل الطوارق المثلثين، وعلى رأسها لتونة وجدالة<sup>(١)</sup>. وهواة من البربر المتبربرين بالمجاورة<sup>(٢)</sup>، وقد كانوا تجارا مياسير يدخلون إلى بلاد غربي إفريقيا وعلى ظهور جمالهم القناطير المقنطرة من السلع، منها النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر، وصنوف من الزجاج والأصداف والأحجار الثمينة، وضروب من العطر وآلات الحديد المصنوع، وعنهم يقول الإدريسي<sup>(٣)</sup>: «وما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المئة جمل والسبعون والثمانون جملا... ولم يكن في دولة المثلثين أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا، وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم...» وقد تكلمنا عن ثراء بعض مدنها في الصفحات السابقة.

وكان من تجار البربر من يطيب له المقام في بلاد غربي إفريقيا فيظل هناك

---

(١) انظر: د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٧؛ المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين، بحث للدكتور حسن محمود، نشر بالمجلة التاريخية المصرية: المجلد الثاني عشر (١٩٩٤-١٩٩٥م)، ص ١١٢، Caravans of the Old Sahara, op. cit, p.25

G.P. Murdock, op. cit, p.129.

الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣.

(٢) الإدريسي، المغرب وأرض السودان، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦.

(٣) نفس المكان.

بصفة نهائية أو إلى مدد متفاوتة، وفي رواية البكري<sup>(١)</sup>، عندما تكلم عن غانا، ما يشير إلى ذلك. ففي المدينة الإسلامية كان يسكن التجار، مما يدل على الإقامة الدائمة. وهناك رواية يذكرها الدباغ<sup>(٢)</sup> ربما تحمل هذا المعنى. فقد ذكر أن أحد المغاربة من أصحاب مالك سأله قائلاً: «يا أبا عبدالله، إن لي أبا ببلاد السودان ولي أم أنا معها، فأبي يكتب لي بالنهوض إليه وأمي تنهاني عن الخروج، فقال له مالك: «أطع أباك ولا تعص أمك. فقال له الرجل: يا أبا عبدالله فما ترى؟ فانتهره مالك وقال: أتريد أن أمرك أن تعصيهما جميعاً. قال الرجل: ثم سألت الليث بن سعد فقال: أطع أمك، فإن البر لها ثلاثاً». ومن الأدلة الواضحة على إقامة التجار في بلدان غربي إفريقية ما يرويه حسن الوزان (ليو الإفريقي)<sup>(٣)</sup> من أن ملك تنبكت قد زوج ابنتيه إلى تاجرين من أغنياء الغرباء، ويبدو لي أنه يعني بهؤلاء تجار المغاربة.

وليس أدل على نشاط تجار البربر المغاربة من وجود بعضهم حتى في الصين كما يروي ابن سعيد<sup>(٤)</sup> وابن بطوطة<sup>(٥)</sup>، بل إن أحد التجار العلماء المغاربة كان سببا في إدخال ملك جزر المالديف<sup>(٦)</sup> في الإسلام في منتصف القرن السادس الهجري (١٢م)، وهي اليوم دولة إسلامية مئة في المئة.

---

(١) المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٥.

(٢) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ص ٤٢ والدلالة العميقة لهذه الرواية هي قدم استيطان مسلمي شمالي إفريقية في وسط البيئات الوثنية في غربي إفريقية منذ القرن الثاني الهجري (٨م)، وربما قبله بكثير. وعن البربر في غربي إفريقية انظر: الكعك: البربر، ص ٩٦-٩٧، وص ص ٨٢-٨٣.

(٣) The History and Description of Africa, Vol. II, p. 824.

(٤) بسط الأرض، مصدر سبق ذكره، ص ٤١.

(٥) الرحلة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٥.

(٦) انظر: جزر المالديف - الجزر الآسيوية المسلمة، مقال للأستاذ محمد الأزهرى، نشر بمجلة دعوة الحق: الأعداد ٦٥ و٦٦ (مايو ١٩٧٠م)، ص ص ٢٣٣-٢٣٤، واسم هذا الشيخ البربري «أبو البركات».

## ب - تجار الخوارج<sup>(١)</sup>

اتصلت الدولة الرستمية من عاصمتها تاهرت<sup>(٢)</sup> بغربي إفريقيا عن طريق القوافل التجارية التي كانت تخرج من ورجلان (ورجلة) قاعدة الرستميين التجارية في الصحراء إلى غربي إفريقيا. وساعد الامتداد العريض للدولة الرستمية على تعدد الطرق والمسالك إلى غربي إفريقيا، وأن درجة الاستثمار التجاري للخوارج والتغلغل في بلدان غربي إفريقيا كان مدهشا، ويشهد بذلك ثراؤهم الكبير<sup>(٣)</sup>. ولقد سافروا حتى غانا القديمة، وتاجروا على طول النيجر<sup>(٤)</sup>. ومن المؤكد أنهم حملوا متاجرهم حول بحيرة تشاد، وعبر طرقهم التجارية تسربت آراؤهم الدينية<sup>(٥)</sup>. وبعد تحطيم تاهرت على يد الفاطميين سنة

---

(١) عن دولتي الرستميين والمدرايين الخارجيتين بتاهرت وسلجماسة في المغربين الأدنى والأوسط انظر: الدكتور محمود إسماعيل: أثر الخوارج في الحياة السياسية في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه غير منشورة بآداب جامعة القاهرة، ١٩٧٠م.

الدكتور السيد عبدالعزيز سالم، مرجع سبق ذكره، ص ٥٣٣ - ٥٨٩.

(٢) انظر: الأصبخري: مسالك الممالك، مصدر سبق ذكره، ٣٩.

النفوسي: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، القسم الثاني، مصدر سبق ذكره ص ١٣؛ البكري، المغرب ص ٦٧.

(٣) كان بيت بن زلقين المزاتي يملك من الإبل ثلاثمئة ألف، ومن الغنم ثلاثمئة ألف، ومن الحمير اثني عشر ألفا. انظر: الأزهار الرياضية، المصدر السابق، ص ١٣٧؛ الدكتور السيد سالم، المغرب الكبير، المرجع السابق، ص ٥٧٧ - ٥٧٩؛ ياقوت: معجم البلدان، مصدر سبق ذكره، ص ١٨؛ الاستبصار، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨؛ أحسن التقاسيم، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٨؛ صورة الأرض، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦.

(٤) الوسياني: السيرة، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩١١٣ ح، ص ٥١، أورد رواية عن امرأة سافر زوجها إلى غانا ثم عاد من سفره، ومنهم من ولد في كوكو من مدن سنغي، أمثال مخلد بن كيداد الخارجي، انظر في هذا: العبر، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص.

B.G. Martin: "Kanem, Bornu, and the Fazzan;" J.A.H. X, 1 (1969), p. 17.

د. سعد زغلول عبد الحميد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٨ وما بعدها.

Martin, Loc. cit. (٥)



٢٩٧هـ / ٩٠٩م نجعت موجة أخرى من الخوارج جنوباً في الصحارى، وكانوا دائماً حريصين على بناء مدنهم ومواصلة تجارتهم جنوباً من فزان وجبل نفوسة ومن المراكز التجارية جنوب الجزائر.

وقد كانت مدينة زويلة من مراكز الخوارج الرئيسية، لذا عانت من العباسيين حين أرسلوا إليها جيشاً بقيادة ابن الأشعث، فهزم قوات أبي الخطاب (عبدالله بن السمع المعافري) الخارجي، إمام الإباضية في شمالي إفريقية سنة ١٤٤هـ / ٧٦١م، ثم هاجم ابن الأشعث زويلة وذبح سكانها الإباضية<sup>(١)</sup>. وعلى الرغم من هذه الضربة ظلت زويلة لعدة قرون مدينة إباضية ذات أهمية، وإحدى النقاط الرئيسية لانتقال القوافل الذاهبة إلى غربي إفريقية<sup>(٢)</sup>. فكانت بمثابة شريان يسري فيه الدم الإسلامي على المذهب الخارجي.

لقد كانت العلاقات التجارية بين جبل نفوسة<sup>(٣)</sup> وكانم بالذات عريقة، فحاكم جبل نفوسة الإباضي أبو عبيد عبد الحميد الجناوني (١٨٤ - ٢٣٦هـ / ٨٠٠ - ٨٥٠م) استطاع أن يتكلم لغة كانم بالإضافة إلى العربية والبربرية،

---

(١) بعد هذه المعركة أسست دولة تاهرت الخارجية، وبعد تأسيسها مباشرة أضحت مركزاً تجارياً مهماً للتجارة مع غربي إفريقية. وحاكمها أفلح بن عبد الوهاب (٨٢٣ / ٢٤ - ٨٧٢ / ٧٢م)، أرسل مبعوثاً غنياً إلى غربي إفريقية، وتبع ذلك نشوء علاقات دبلوماسية. ويبدو أن صلات تاهرت الرئيسية كانت مع جاو - عاصمة سنغي - عن طريق وارجلان وتادمكة - ولكن بعض تجارتها وصلت غربي إفريقية عن طريق سجلماسة وأودغست، وفي سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م غزا الفاطميون تاهرت، ولجأ آخر إمام تاهرتي إلى وارجلان في الجنوب الشرقي، والتي خلفت تاهرت كمركز للإباضية، ومركزاً تجارياً مع مدن غربي إفريقية، ومنها تاكيدا. فأبو يزيد بن كداد الذي قاد الثورة على الفاطميين سنة ٩٤٣-٩٤٧م، ولد في تادمكة، ووالده من توزير (Tozeur) جنوب تونس، وقام بالتجارة مع غربي إفريقية. انظر: N. Levzion: Ancient Ghana and Mali, pp. 136-37.

(٢) Ibid. p.18. في بداية القرن العاشر الميلادي مازالت زويلة مدينة إباضية هامة. فهي الملتقى، حيث طريق فرعي للتجارة والحج يجري شرقاً وغرباً عبر الطريق الرئيس، شمال - جنوب، وهذا الطريق الشرقي - غربي يصل الآن القاهرة، حيث يدخل المدينة الفاطمية عن طريق باب زويلة (أو زويلة).

(٣) يقع جبل نفوسة شمال زويلة، في الطريق إلى طرابلس.

واسمه نفسه يمكن أن يرجع إلى غربي إفريقية، إلى مدينة جني.<sup>(١)</sup>

وكان المسلمون من أهل جبل نفوسة أكثر الناس حركة، خاصة إلى الحج، حتى إنهم يحجون بالنساء والذرية، ويذكر الوسياني<sup>(٢)</sup> أنه قد علم بأنه ولد في قافلة واحدة ثلاثمئة من الصبية الذكور. ويبدو أن هذا من المبالغات.

أما منزلة الرستميين العلمية فيقول عنها الدرجيني<sup>(٣)</sup>: «وكان بيت الرستميين بيت العلوم. جامعا لفنونها من علوم التفسير والحديث والفرائض والأصول والفروع وعلم الفلك وعلم النجوم<sup>(٤)</sup>. وقد حكى بعضهم أنه قال: «معاذ الله أن تكون عندنا أمة لاتعرف منزلة القمر - يعني الإمام عبدالوهاب -» ويذكر الدرجيني<sup>(٥)</sup> أن الامام أفلح لم يصل الإمامة إلا بعد أن جلس لثلاث حلق، هي ثلاثة أنواع من العلوم - وأن ولده محمد بن أفلح عندما أراد السفر إلى غربي إفريقية للتجارة امتحنه والده في مسائل الربا، فتوقف في واحدة ولم يجب عنها أو لم يعرفها، فأمره أبوه بالرجوع عن السفر خشية أن يدخل أموالهم شيء من الربا أو المحظور. وهذه الرواية تدلنا على مدى حرص الإباضية الخوارج على الفقه، مما يجعلنا نتصور كيف أن مثل

(١) Levzion: Ancient Gh. op. cit., p.18.

(٢) مصدر سبق ذكره، ص ٥، وانظر: ابن رسته، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٥، حيث يقول عن أهل رويلة بأنهم «قوم مسلمون إباضية كلهم يحجون البيت الحرام وأكثرهم رواية».

(٣) طبقات الإباضية، ج ١، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٢٥٦١ تاريخ (٢٦١٢ تاريخ)، صحيفة ٢٥ وعن علمهم انظر أيضا: الشماخي: كتاب السير، ص ١٩٣.

(٤) اشتهرت مدينة تاهرت الرستمية بالاهتمام بعلوم الفلك، ذلك أن العلاقات التجارية الواسعة التي قامت بين هذه المدينة وبلاد غربي إفريقية، وكذلك مع المسلمين في الأندلس جعلت علم الفلك جزءاً من الثقافة العامة، حيث رأى الناس في معرفة مبادئ علم الفلك السبيل لاشتراكهم في القوافل التجارية. انظر: الدكتور إبراهيم العدوي: المجتمع المغربي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٨. ومن تجارة هذه المدينة مع غربي إفريقية، انظر: الإدريسي، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧.

(٥) طبقات الإباضية، جزء ٢، المصدر السابق، صحيفة ١٣٦.

هؤلاء التجار الخوارج يمكنهم أن يقوموا ببيت الدعوة الإسلامية ويحبون الناس في الإسلام بسلوكهم الإسلامي الصارم في اتباع أصول المعاملات التجارية في الإسلام. وللرواية السالفة أيضا دلالة أعمق وهي أن الأئمة الرستميين أنفسهم كانوا يشاركون في تجارة القوافل عبر الصحراء إلى مناطق غربي إفريقية. وقد جمعوا ثروات طائلة من هذه التجارة مع مراعاة حق الله فيها. (١)

وحتى نساء الخوارج كن يتقنن إلى المشاركة في الحركة التعليمية والصبر على المكارِه في سبيل الله، فهناك رواية للوسيانى (٢) تفصح عن هذا المعنى بجلاء عندما قال: «وذكر الشيوخ عن ثلاث نسوة في جبل نفوسة اجتمعن، فقالت إحداهن: تمنيت لو أن الله ساقني إلى قوم جهلة فأعلمهم فيرحمني ربي بما أعلمهم بعض العلم والتعليم. . . وتقول الرواية إن الثانية تمت خدمة مسلمين في يوم قاس مطير، وتمت الثالثة الصبر على رجل داعر فاجر. والرواية أوضح من أن نعلق عليها.

والتصفح لكتبهم، يرى أن أئمة الرستمية كانوا من العلماء الذين كرسوا حياتهم للعلوم ونشرها في كل طبقات المجتمع، وقد شارك هؤلاء الأئمة العلماء مشاركة فعالة في الحركة العلمية بجامعة تاهرت وجامع جبل نفوسة بمدينة شروش.

وكان عبدالرحمن بن رستم من كبار العلماء في عصره. كان بارعا في علوم الدين واللغة والفلك، وكان محبا للعلم، فأقبل على التأليف على قلة

---

(١) الوسيانى، مصدر سبق ذكره، صحيفة ٨٣.

(٢) المصدر نفسه، صحيفة ١٥١، ومن نبغ منهم في العلوم أخت الإمام أفلح، التي برعت في الحساب والفلك والتنجيم. انظر: الدكتور سالم: المغرب الكبير، مرجع سبق ذكره، ص ٥٧٥.

ماكان يجد من الوقت. ويذكر له الشماخي<sup>(١)</sup> تفسيراً للقرآن. وقد اطلع الشماخي<sup>(٢)</sup> على أجوبة في الفقه والأحكام وأصول الدين للإمام عبدالوهاب، وكذلك كان الإمام أفلح من العلماء المؤلفين، لاسيما في علوم التنجيم.<sup>(٣)</sup> وكان الإمام أفلح أديباً شاعراً، ومن شعره - مثلاً - قصيدة يشجع فيها على العلم، ويحث على طلبه، منها:<sup>(٤)</sup>

العلم أبقى لأهل العلم آثارا	يريك أشخاصهم روحا وأبكارا
حي، وإن مات، ذو علم وذو ورع	ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة	كَمَيْتٍ قد ثوى في الرس أعصارا
لله عصابة أهل العلم إن لهم	فضلا على الناس غيابا وحضارا
العلم علم، كفى بالعلم مكرمة	والجهل جهل، كفى بالجهل أوبارا
فاطلب من العلم ما تُقضى الفروض به	واعمل بعلمك مضطرا ومختارا
واطلبه ماعشت في الدنيا ومدتها	لموقف العرض أن لاتورد النارا
واجعله لله لاتجعله مفخرة	ولا ترائي به بدوا وأحضارا

وقال في الحث على العلم أيضا: -

اشدد إلى العلم رحلاً فهي راحلة وصل إلى العلم في الآفاق أسفارا

(١) السير، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٣، ولم يصل إلينا هذا التفسير كما تحقق من ذلك الدكتور سالم، انظر: سالم، المغرب الكبير، المرجع السابق، ص ٥٧٤.

(٢) المصدر السابق، المكان نفسه. ولعله يعني كتاب «نوازل نفوسة»، وهو مجموع الفتاوى التي كان علماء نفوسة يستفتونه فيها، ولا يزال هذا الكتاب في مدن وادي ميزاب، بجنوبي الجزائر وفي جبل نفوسة وجربة. انظر: محمد علي دبوز: المغرب الكبير ج ٣، ص ٣٨٢ - ٧٣. وعن اهتمام أفلح بالعلم انظر: النفوسي: الأزهار الرياضية. مصدر سبق ذكره، ص ١٦٤.

(٣) انظر: الشماخي، ص ١٩٣.

(٤) عن هذه الأبيات انظر: دبوز، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧٦-٣٧٧، الدكتور سالم، المغرب، مرجع سبق ذكره، ص ٥٧٥.



واصبر على ولج الأغساق معتسفا      مهامه الأرض أحزاناً<sup>(١)</sup> وأقطارا  
حتى تزور رجالا في رحا لهم      فضلا فأكرم بأهل العلم زوارا  
والطف بمن أنت منه العلم مقتبس      جدد له كل يوم منك إبرارا

وبجانب هؤلاء الأعلام البارزين من بيت أئمة الرستمية العلماء نذكر  
ميمون بن محمد أبوعمر وأبوالفضل سهل «وكلاهما في الفضل والتوفيق فائق،  
وفي ميدان الرضا والعدل سابق وبالحكمة وفنون العلم ناطق...»<sup>(٢)</sup>  
ولشهرة الأول في العلم يذكر الشماخي<sup>(٣)</sup> أنه قدم عليه ركب من  
التكرور من بلاد غربي إفريقية، وكانوا في تجارة، فاستمعوا إلى علمه وأعجبوا  
به أيما إعجاب، وقدموا إليه هدية عبارة عن مبلغ من المال قدره أربعمئة دينار،  
فأبى قبولها تورعا.

وهذا الذي يذكره الشماخي دليل على وجود علاقات وثيقة بين بلاد  
التكرور في غربي إفريقية ومناطق جنوبي الصحراء الكبرى، علاقات ثقافية  
تعليمية، وعلاقات تجارية، وهو دليل قاطع على أهمية التجارة في نشر الإسلام  
والتعليم الإسلامي بين هاتين المنطقتين.

ومما لا شك فيه أن أئمة الرستمية كانوا يسرون لتجار غربي إفريقية  
مهامهم التجارية والتعليمية، فكان من الرستمية من يعنى بهم كأضياف عليه،  
ومن أمثال أولئك أبوهارون الجلالي، إذ كان: «واسع الدنيا تاجرا سفارا، جمع  
مالاً أنفقه في الطاعة»<sup>(٤)</sup>.

ويلاحظ أن هذه الصفات الكريمة في الخوارج الإباضية عامة وتجارهم

---

(١) أحزاناً: ماغلظ من الأرض، جمع حزن.

(٢) الشماخي، السير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٨.

خاصة، جعلتهم من حملة مشاعل النور والإيمان إلى غربي إفريقيا في وقت مبكر عن طريق أسفارهم إلى تلك البلاد. ومما يمكن ذكره هنا لهذه الدلالة أن أبا يحيى الفرسطائي سافر إلى تلك الأصقاع فألقى ملكا لهم ناحل الجسم ضعيف القوى، فقال له: «مابك» قال: خوف الموت. قال: فأخبرته عن الله وصفاته سبحانه والجنة والنار والحساب وما أعد الله للمطيع والعاصي، فكذبني. وقال: لو صح عندك ما تقول لما بلغت إلينا لطلب الدنيا. قال: فمازلت أذكر نعم الله وآلاءه حتى أسلم وحسن إسلامه»<sup>(١)</sup>.

ومن العلماء التجار أيضا أبونوح سعيد بن يخلف المزاتي، الذي يقول عنه الشماخي<sup>(٢)</sup>: «كان في العلم آية وفي العبادة غاية، «فقد سافر إلى «تادمكة» من بلدان شمالي غربي إفريقيا. ومنهم علي<sup>(٣)</sup> بن يخلف الذي سافر إلى دواخل غانا تاجرا، فقام بها، وله مكان عند ملكها<sup>(٤)</sup>». وعندما وقع

(١) المصدر نفسه، ص ٣١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧٤.

(٣) لاحظ أنه من الخوارج واسمه علي. وذكر أن والده سئل عن كيفية تسمية ابنه باسم عدوه، فأبى قدوة الخوارج في هذا وسماه عليا. وهذا دليل على تسامح بعض الإباضية. مما جعل بعض المؤرخين يعددهم من أهل السنة، أو أقرب إليهم. انظر: العدوي، المجتمع العربي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٢، إلا أن الدكتور حسن محمود يحمل عليهم كثيرا لمواقفهم من المالكية، لا سيما في عهد الدولة الفاطمية. انظر: قيام دولة المرابطين، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٥.

(٤) الشماخي، السير، ص ٤٥٧. وقد لاحظت أن هذه الرواية نفسها يذكرها البكري، ولكنه لم يذكر اسم الشخص، بل قال: «وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة؛ ولكنه ذكر اسم المكان الذي كان فيه هذا المسلم وهو ملل، يعني به مالي. وذكر اسم ملكهم المسلماني، وأن سبب التسمية هو الرواية المذكورة. ويلاحظ من رواية البكري أن مالي كانت مملكة قائمة بذاتها، أما في زمن الشماخي في القرن الثالث الهجري فلم تكن معروفة بالتحديد، ولم يسبق أحد من المسلمين الشماخي في ذكر هذه المناطق، مما يجعلنا نرجح صحة رواية الشماخي بأن الذي أسلم هو ملك غانا، ولا يستبعد أن يكون البكري قد أخذ هذه الرواية من الشماخي مع شيء من التحريف، وتتفق رواية دولا رونسير مع الشماخي في أن أول من أسلم من ملوك غانا كان حوالي سنة ٢٢٣هـ / ٨٣٧م وهو الملك تلوتان أو بولاتان بن تكلان، انظر: البكري، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨؛ د. طرخان، غانا، مرجع سبق ذكره، ص ٤٦، نقلا عن Dela Ronciere, 1.p. 103.

وفي هذه الرواية دليل ناصع على دور التجار عامة والإباضية خاصة في حمل الإسلام إلى غربي إفريقيا، إذ كانوا تجارا وعلماء ودعاة. (٣)

(۲) المكان نفسه .

- VA -

ويشهد للإباضية بالباع الطويل في مجال التعليم والحضارة الإسلامية كثرة العلماء الذين كانوا يستشرون في مدنهم المهمة، مثل تاهرت وشروش وجادوا وأجناون وجربة وورجلان<sup>(١)</sup>. واشتهرت قاعدتهم تاهرت بمكتبتها الكبيرة التي كانت تضم نحواً من ثلاثمئة ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم والفنون، وقد خربها الفاطميون بعد أخذ ما يهمهم من كتب الرياضيات والفلك والهندسة والطب.<sup>(٢)</sup>

ومن دورهم في تاريخ الإسلام بغربي إفريقية نتبين أهمية العلاقات التجارية.

---

(١) انظر الشماخي، ص ٢٧٣، دبور، المرجع نفسه، ج ١ ص ٣٤٧، ٣٧١.

السيد سالم، المغرب الكبير، ج ٢، سبق ذكره، ص ص ٥٧٤ - ٥٧٥.

(٢) السيد سالم، المرجع نفسه، ص ٥٧٦.



## ج - تجار الديولا المانديين

إن هذه المجموعات من التجار المسلمين يعرفون بأسماء مختلفة<sup>(١)</sup> وسط مختلف القبائل، فعند مالنكي النيجر العلوي يعرفون بـ«الديولا»، وعند البمبارا في إقليم سيغو أو سيجو وجني باسم «ماركا»، وباسم «داقنج» في منحنى نهر فولتا الأسود العلوي، وباسم «يارسي» عند متكلمي لغات المول - داجين. وفي المصادر العربية يسمى تجار الماندي هؤلاء بـ«الوانغارا». وبهذا الاسم عرفوا عند الفولاني والهوسا. وعلى أثر الهوسا فإن الاسم وانغارا أطلق على نطاق واسع، في منتصف حوض الفولتا، على كل من شعوب الماندي المختلفة على بلادهم. ويذكر مكوان<sup>(٢)</sup> أن فرعا من الديولا يسمى بوسا، أقاموا على الطريق الجنوبي الغربي من كاتسينا في بلاد الهوسا إلى الأشانتي، فقد أقاموا على معبر فوق النيجر.

بعد أن دخل الإسلام إلى غربي إفريقيا عن طريق التجارة في المقام الأول، وبعد أن رسخت قدمه هناك تسلم تجار غربي إفريقيا أصحاب الأرض الراية من إخوانهم المسلمين من العرب والبربر، وبدؤوا يمارسون الدعوة إلى الإسلام عبر منظماتهم التجارية من خلال حركة التجارة الداخلية بين مناطق

---

(١) See: N. Levtzion: Muslim Chiefs in West Africa, p.3, 6.

P.I. N. Moewon: Africa from Early Times to 1800, p. 36.

M.A.AL Hajj: "A Seventeenth Century Chronicle on the Origins and Missionary Activities of Wangarawa" K.S.

ولب كتاب مكوان الآنف الذكر حول أثر الماندي في مناطق غربي إفريقيا لاسيما من حيث نشر الإسلام شرقا وغربا وجنوبا، ويشير الكاتب إلى أن هذا النفوذ الماندي يكون أحيانا سياسيا ومرة تجارية وأحيانا أخرى يجمع بين الاثنين.

Ibid, R. 36. (٢)

غربي إفريقية المختلفة. ومن هذه المجموعات التجارية التي أدت دورا بارزا في مجال الدعوة الإسلامية والتعليم الإسلامي تجار الديولا.

وعلى الرغم من معرفة تفاصيل قليلة عن منظماتهم المبكرة ودورهم في انتشار التعليم على فترات مختلفة كما يقرر ذلك لويس<sup>(١)</sup>، إلا أن هذا القليل يمكن أن يعطي صورة حقيقية لطبيعة تغلغل الإسلام داخل غربي إفريقية وعلى أيدي أهل المنطقة.

إن الاسم «ديولا» الذي يعني في لغة المالنكي كلمة «تاجر» اصطلاح يستعمل اليوم إشارة إلى عدد من متكلمي لغة المالنكي المسلمين. مثل واتارا وتوري وكيولبالي وبامبا. إلخ. وهذه الفروع من شعب المالنكي متخصصة في التجارة<sup>(٢)</sup>. ويمكن اكتساب عضوية هذه الجماعة عامة بالمولد، فالابن يتبع الآباء، ويرجعون أصولهم اليوم إلى مركز نشاطهم الأول، إلى دولة مالي في العصور الوسطى.<sup>(٣)</sup>

وعن طريق تأسيسهم مستعمرات تجارية وأحيانا دولا<sup>(٤)</sup>، فقد تمكن هؤلاء التجار من تكوين شبكة تجارية ذات مستوى عال.<sup>(٥)</sup> وعن طريق منظماتهم المختلفة وتعاونياتهم المتفرقة أو نقاباتهم تمكنوا من اكتساب نفوذ اقتصادي داخل مختلف الدول والمجتمعات التي مارسوا فيها أعمالهم. وهكذا

---

(١) Islam in Tropical Africa, p. 24.

(٢) Loc-cit.

(٣) Ibid, p. 25.

(٤) من هذه الدويلات: دولة «كونج» في نهاية القرن السابع عشر بعد أن غادروا مركز بيغو الإسلامي في حوض الفولتا. انظر: N. Levtzion: Muslim and Chiefs, op. cit, p. 12.

(٥) loc. cit. وعن دويلاتهم الصغيرة الأخرى وسط الشعوب الوثنية انظر: Trimingham. A History of Islam, op. cit., p.31.

Trimingham and Others: Islam in Africa, p. 17 Mewan, op. cit. p. 30.

نجد تاجرا في القرن الثامن عشر من هؤلاء الديولا في مدينة تنبكت يمكنه أن يستخدم عملاء يشترون له الذهب من منطقة الأشانتي بالجنوب، والبعض الآخر يبيعونه في فزان ومنطقة بحيرة تشاد، حيث يلتقون هنا بشبكة تجارية أخرى هي شبكة تجار الهوسا<sup>(١)</sup>، إذ إن الأخيرين أيضا يتمتعون كما سنرى باحتكار التجارة إلى الشرق. ويعملون فيما يعرف اليوم بدول نيجيريا وداهومي وتوجو وغانا الحديثة.

وبانتشار هذه الجماعة التجارية المسلمة تغلغل الإسلام على نطاق واسع مما لفت أنظار الكتاب إلى أهميتهم في مجال الدعوة الإسلامية والتجارة، إلا أن البعض أخذ في الافتراء والقول بأن اهتمام التجار عامة بالهداية إلى الدين قليل. ولا يستغرب مثل هذا القول من منصر كترمنجهام<sup>(٢)</sup>، يريد أن يقلل من الدور السلمي في نشر الإسلام.

لقد حمل هؤلاء التجار الإسلام إلى الداخل عندما مدت الطرق التجارية جنوبا في البحث عن مصادر جديدة وغنية بالذهب الذي كانت تسيطر عليه دولة غانا، وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر وصل التجار إلى حقول الذهب في مدينة بيور على النيجر العلوي، وأقاموا مستعمرات تجارية أصبحت إحداها نواة لدولة مالي التي ازدهرت في القرن الرابع عشر، وسيطرت على بقية الممالك الأخرى.<sup>(٣)</sup>

---

(١) Loc. cit.، وعن هذه التجارة الداخلية لتجار الهوسا وغيرهم انظر: Leo Africanus, op. cit., p.829.

وعن المنطقة الواسعة التي يتحركون فيها انظر: N. Levtzion: Muslims and Chiefs, op. cit., p.3. ; P.M. Holt and Others: The Cambridge History of Islam, pp. 363-64.

(٢) History of Islam, op. cit., p.28.

(٣) Muslim and Chiefs, op. cit. p.4.

ويمكن أن يكون تطور مالي إلى دولة كبرى له علاقة بسيطرة حكامها على تجارة الذهب لبيور «Bure»<sup>(١)</sup> ففي القرن التاسع الهجري (٨٧٦هـ) الخامس عشر الميلادي (١٤٧١م) تمكن البرتغاليون من تأسيس ميناء «المينا» على ساحل الذهب، فكسروا بذلك احتكار تجارة الذهب التي كانت كلها في أيدي المسلمين، والتي كانت تأتي من حقول غابة الأكان في الأراضي الواقعة خلف ألمينا، وإن هذا التدفق في تجارة الذهب إلى الساحل يشير إلى أن هذه الحقول قد سبق أن استُغلت في تجارة الذهب<sup>(٢)</sup>. ، وإن البرتغاليين كما هو واضح، غيروا من اتجاه سير جزء من تجارة الذهب الذي كان في السابق يصدر إلى الشمال، وفتحوا مجالا آخر لتجار الديولا الماندين ليدخلوا في هذه التجارة، فوصلوا بذلك مباشرة حتى ألمينا بعد تأسيسها على أيدي البرتغاليين.<sup>(٣)</sup>

إن فتح التجارة بين الساحل وحقول الذهب في الغابة يمكن أن يربط بتطور جني كمركز تجاري لوقوعها في النهاية الجنوبية الشرقية لدلتا النيجر الداخلية، فهي نقطة الانطلاق لعدة طرق إلى حوض الفولتا. والسعدي<sup>(٤)</sup> يشير إلى هذه التجارة. إذ يقول بقاء تجار الملح من تغازا بتجار الذهب من بيط قرب جني، ومن هذا يفهم أن الملح يصدر جنوبا قادما من مناطق الصحراوية الشمالية.

إن الطريق البحري بين تنبكت وجني يربط طريقين بريين: من تغازا إلى تنبكت، ومن جني إلى الغابة. فقد وصف ليون<sup>(٥)</sup> الأفريقي (الوزان) فيما بين

(١) Loc. cit. (0) L.

(٢) Loc. cit.

(٣) وللتوسع في هذا الموضوع انظر: JVO Wilke: The Northern Factor in A Shanti History: Be-gho and the Mande "J. A. H., Vol. 11,1 (1901), p.32.

(٤) تاريخ السودان، ص ١١-١٢.

(٥) Description of Africa, op.cit, 11, p. 465.



سني ٩١٨-٩٢٠هـ / ١٥١٢-١٥١٤م التجار التبتكيين الذين يحملون بضائعهم في قوارب صغيرة، إلى جني. ومن المحتمل جدا أن يكون مركزا جني وتبتك قد تطورا في وقت واحد.

إن نهايات الطرق الصحراوية القديمة في غانا وأودغست ووالاتا كان لها مسالك برية فقط، أما تبتك فقد كان الوصول إليها يتم عن طريق الماء، ونتيجة لهذه الميزة نمت تبتك على حساب والاتا. وفي قول السعدي<sup>(١)</sup>: «فكانت عمارة تبتك خراب بير» مايوصلنا إلى هذه النتيجة.

وفي سنة ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م رافق ابن بطوطة<sup>(٢)</sup> قافلة أخذت الطريق القديم، سجلماسة - تغازا - والاتا. ثم بعد ربع قرن من الزمن نجد على خريطة برسم كرسكو «A. Gresques» مؤرخة في سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م أن الطريق الصحراوي الذي رسمه هو سجلماسة - تغازا - تبتك، وحول نهاية القرن الرابع عشر حلت تبتك محل والاتا كنهاية رئيسة لتجارة القوافل، وقد أخذ الوزان<sup>(٣)</sup> هذا الطريق الأخير في مطلع القرن السادس عشر.

وعلى مر الزمان، وفي حوالي القرن (١٠هـ / ١٦م) شهدت هذه المناطق تطورا سياسيا مهما في حوض الفولتا، إذ تطورت دول موسي - داجومبا وبونو - مانسو، أقدم دول شعوب الأكان الإفريقية. وكانت كل هذه الدول متعلقة بطرق التجارة من النيجر إلى الغابة الاستوائية.<sup>(٤)</sup> ولايفوتنا أن نذكر أن الدول عادة ما تمنح الأمن لحركة التجارة، وأن المكسب الذي يحصل عليه حكامها من السيطرة على الطرق التجارية قد ساعدهم في تقوية سلطتهم.

(١) المصدر السابق، ٢١.

(٢) الرحلة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٠-٤١.

(٣) Description of Af., op. cit., 11, p. 797 FF.

(٤) Levzion, Muslim Chiefs, op. cit. pp. 5-6.

إن أول مجموعة لتجار الماندي، وبالذات الفرع المسمى هنا بـ«اليارسي»، أقاموا في دولة موسي حول بداية القرن السادس عشر، وارتادوا سوق بونو - مانسو، وتركوا أثرهم هنا بإدخال بعض شعب الأكان في بونو.<sup>(١)</sup> والمركز المهم لتغلغل الإسلام في هذا الجزء من إفريقيا الغربية كان في مدينة بيو Be'o التي نافست بونو في تجارة الذهب<sup>(٢)</sup>. وقد تطور سوق Be'o بوصول مجموعتين عامتين من تجار الماندي، هما: اللجي والديولا، وصلوا إلى هنا في القرن الخامس عشر والتقوا في Be'o، وكان ذلك سببا في ازدهار هذه المدينة، ولكنهم كانوا غرباء، فعادروها عند اضمحلالها<sup>(٣)</sup>، وتفرقوا في مناطق غربي إفريقيا، مثل باندا. وأقاموا مراكز أخرى تجارية في حوض النيجر الأوسط. ولا يكاد يوجد مجتمع مسلم مهم دون أن تجد بيتا واحدا على الأقل من تجار اللجي. أما الفرع الآخر وهم الديولا فقد خرجوا في البحث عن مكان آخر للرزق غرب نهر الفولتا الأسود بعد أن انطفأ نوريو<sup>(٤)</sup>، حاملين معهم نور الله الذي لا ينطفئ: الإسلام.

فهر الفولتا الأسود لا تظهر فيه فقط بصمات تجارة الماندي إلى جهة الغرب، بل كان أيضا منطقة نفوذ إسلامية متميزة إلى الشرق من ذلك النهر. وهنا أسهم المسلمون من هذا الأصل الماندي في نشر الإسلام إلى القرن السابع عشر حينما عاصدهم في هذا المجال المقدس تجار الهوسا منذ بداية القرن الثامن عشر.<sup>(٥)</sup>

---

(١) Ibid, p. 8.

(٢) Loc. cit.

(٣) Ibid, p.11. وعن أسباب تدهور هذه المدينة انظر: Loc. cit. والمهم أن خلاصة سبب تدهورها هو

تحول طرق التجارة عنها وتبدل أنماط التجارة في منتصف القرن السابع عشر. انظر: Ivor, Loc. cit..

(٤) Ibid, p. 12 . cit. p. 32.

(٥) Ibid, pp. 12-13.

إن الدراسة التفصيلية للإسلام في دول الفولتا الوسطى أظهرت أنماطا لعمليات وجود الكيانات الإسلامية وتغلغلها في نظام الحياة الاجتماعية والسياسية، وتسرب العناصر الإسلامية في الثقافة المحلية. ثم أخيرا دخول الكثيرين من السكان المحليين في الدين الإسلامي. وهذه الظاهرة متشابهة في كل الدول التي تغلغت فيها الجماعات التجارية، والاختلاف فقط في الدرجة والكثافة طبقا للظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية للدول المختلفة.

إن العداء بين قبائل الموسي والدول الإسلامية التي قامت في الشمال من منطقتهم، مثل غانا ومالي وسنغي، واستمراره طوال فترة هذه الدول، يدل دلالة واضحة على عناد وصلابة هذه العناصر، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصموا آذانهم عن دعوة الحق عندما جاءت اليهم مع التجار الوافدين من الشمال من الماندي على اختلاف مشاربهم. فنجد أخيرا أن هذا الشعب الشديد المراس، تقبل الدين الإسلامي الذي جاءه عن طريق التجار وليس عن طريق الحرب التي كانت تتجدد دائما بينهم وبين الدول الإسلامية الإفريقية في غربي إفريقيا. وهكذا فتحت أراضي الموسي للإسلام حينما عجزت هذه الدول عن هذا العمل.

إن أول مجموعة من تجار اليارسي قدمت إلى أرض الموسي في عهد ملكها ناباكندومي، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد تم في القرن السادس عشر<sup>(١)</sup> ويقال إن أول مسلم كان يسمى بوكاري ساكاندي، أقام في مدينة زوغنة، وهي الحي القديم لليارسي في إقليم الموسي، ثم انضم إليه فاماري كوندا، الذي أقام في مدينة غونسن بالقرب من زوغنة، ثم أخذ عدد اليارسي

---

(١) Ibid, pp. 163-64، انظر: إفريقية القارة المسلمة، مقال للأستاذ زين العابدين الكتاني، نشر بمجلة دعوة الحق: العدد السابع (يونية ١٩٧٠م) ص ١٠٦. في هذا المقال يذكر الكاتب أن الديولا في غربي إفريقية أسلموا منذ سنوات قليلة. وهذا ليس بصحيح كما رأينا، أما إذا كان يعني أن النسبة أضحت مئة في المئة تقريبا، فهذا ربما يتمشى مع نسبة تغلغل الإسلام في هذه المناطق.

في ازدياد حتى إنه كانت هناك بنهاية القرن الماضي جاليات يارسية في كل قرية تقريبا، وسوق كبيرة في المقام الأول على طول طرق القوافل.<sup>(١)</sup> وكانوا أحيانا يقيمون في أحياء أو قرى خاصة بهم. ولشدة تغلغلهم في المجتمع الموسي تبناوا لغة الموسي، ورويدا رويدا أضحي في منطقة الموسي زعماء مسلمون.<sup>(٢)</sup>

ولا مندوحة من أن نذكر دور تجار الماندي في إدخال الإسلام إلى منطقة الأشانتي، وما ترتب على ذلك من قيام مملكة الأشانتي في أواخر القرن السابع عشر، وبذلك ربطوا هذه الدولة بالدول الإسلامية في الشمال.<sup>(٣)</sup> واشتهر في هذه المنطقة مركز تجاري مهم، هو بيغو كما ذكرنا، في الزاوية الشمالية الغربية للأشانتي الحالية<sup>(٤)</sup>. ومن الواضح أن انتشار شعوب الماندي، وتجارهم خاصة، كان في المرتبة الأولى نتيجة لتطور وتنظيم تجارة الذهب من مناطق الغابات التي يكثر فيها الذهب، وحوافها الواقعة في منطقة السافانا وإلى مدن منحنى النيجر التي كانت بمثابة نهايات لطرق القوافل الصحراوية.<sup>(٥)</sup> وهكذا فالعامل الشمالي في قيام دولة الأشانتي يظهر بوضوح إلى جانب العامل الجنوبي الخاص بالمعاملة التجارية مع أوربة عن طريق البحر، وهذه الناحية كما يذكر ايفور<sup>(٦)</sup> قد أهملها الكتاب والمؤرخون من قبل.

وهكذا نرى بوضوح دور هذه الجماعات التجارية في نشر الحضارة الإسلامية بغربي إفريقيا.

---

(١) Ibid., pp. 164-65.

(٢) Ibid, p. 165، وعن وجود أحياء للتجار في مدن غربي إفريقيا انظر: K.M. Paniker, op. cit, p. 262.

(٣) Ivor Wilks, op. cit, P. 25, 33.

(٤) Ibid, pp. 26-7، في هذه الصفحات روايات حول مكان المدينة وموضعها.

(٥) Loc. cit.

(٦) Ibid, p. 33.



## د - تجار الهوسا

لقد وجد الإسلام طريقه إلى غربي إفريقيا منذ القرون الأولى للهجرة النبوية، وذلك بالوسائل السلمية التي رأيناها، مثل التجارة والمصاهرة. وظفر الإسلام بالقبائل القوية الكبيرة الشجاعة، مثل قبائل الماندي كما رأينا، وقبائل الهوسا والفولاني كما سنرى. ثم نما الإسلام وترعرع في المدن الكبرى التي أقامها المسلمون واستقروا فيها، فنمت وكبرت واشتهرت وقامت فيها الدول الإسلامية الكبرى.

بعد أن أشرقت هذه القبائل بنور ربها أخذت تؤدي دورها الطبيعي في حمل مشعل الهداية والحضارة الإسلامية إلى مختلف أنحاء غربي إفريقيا التي يمكن لتجارتها وهجراتها أن تصل إليها. وهناك مثال لذلك يذكره بعض المؤرخين، وهو أن معظم المراكز التجارية في منطقة حوض الفولتا مثل مافان، وكافابا، وغيرهما قد سبقت مدينة سلقا<sup>(١)</sup> الشهيرة كأسواق على الضفة الشمالية للفولتا، كما هو الحال في مدينة سلقا في القرن (١٣هـ / ١٩م)، وأن ازدهار هذه المراكز يرجع إلى أن التجار القادمين من الشمال فضلوا أن يسوقوا بضائعهم في هذه المراكز ليتجنبوا الرحلة جنوبا في الغابة، حيث المناخ أقل ملاءمة لأهل السافنا، وحيث الحيوانات التي تحمل الأمتعة لا تستطيع العيش. والذي يهمنا هنا أكثر هو أن المجموعات المسلمة في هذه المراكز تدعي أنها قد أتت إلى حوض الفولتا من بلاد الهوسا ويرنو قبل القرن (١٠هـ / ١٦م)<sup>(٢)</sup>.

---

(١) Muslims and Chiefs, op. cit, pp. 26-7. يرى لفتزيون أنه من المحتمل أن سلقا كانت سوقا ذات

أهمية قبل نهاية القرن السادس عشر حسبما عرفه من روايات حول هذا الموضوع.

Loc. cit. (٢)

ويبدو لنا أن هذه المجموعات كان مبدؤها تجاريا، فكانت سببا في إدخال الإسلام إلى هنا، لأن القبائل الشمالية في إفريقيا الغربية قبلت الإسلام أولا من الشمال الإفريقي، لتنتقل بدورها إلى أخواتها من المجموعات القبلية التي تقطن في المناطق الجنوبية بغربي إفريقيا. ولقد كان دور تجار الهوسا في هذه المنطقة مثل دور تجار الماندي - الديولا. (١)

ومن مجالات تجارة هذه المجموعات من التجار المسلمين دولة الأشانتي، إذ إنه منذ بداية القرن الثامن عشر أخذت دولة الأشانتي تتجر رأسا مع بلاد الهوسا إلى الشمال الشرقي منها، بالإضافة إلى علاقاتها التجارية مع المراكز الأوروبية في الساحل جنوبا<sup>(٢)</sup>، وما لاشك فيه أن هذه الصلة التجارية لا بد أنها كانت ذات أثر عميق في نشر الإسلام عبر هذه الطرق التجارية كما كان الحال بالنسبة لتجار الديولا، فترك هؤلاء التجار الهوسا أثرهم - منذ بداية القرن الثامن عشر - في حوض الفولتا الأسود الأوسط، في مجراه من الشمال إلى الجنوب. (٣)

إن سقوط دولة سنغي على يد المراكشيين في نهاية القرن السادس عشر وماتبع ذلك من فوضى في حوض النيجر الأوسط، وتدهور حالة الأمن في الصحراء الغربية، أسهم في تحويل المركز السياسي والتجاري من تنبكت وجاو إلى بلاد الهوسا والبرنو، فتحركت الطرق الصحراوية شرقا، وتحول التيار الرئيس للتجارة من حوض الفولتا الأوسط إلى الشمال الشرقي. (٤)

لقد برزت كاتسينا، البوابة الشمالية لبلاد الهوسا، كواحدة من أهم

---

(١) Ibid, pp. 6-7.

(٢) Ibid, p. 12.

(٣) Ibid, p. 89. وهنا نجد اختلاف الآراء حول مدى أثرهم في داجومبا.

(٤) R. Oliver: The Dawn of African History, p. 65; Ibid, p. 18. K.M. Paniker, op. cit, p. 261.

المراكز التجارية في غربي إفريقيا في القرن الثامن عشر بجانب كانوا. ومن هذه المدن التجارية انطلقت جحافل قوافلهم المسلمة إلى داجومبا في حوض الفولتا، إلى الجنوب الغربي، متحدين مع تجار الديولا في هدف التجارة ونشر الإسلام، ثم أضحت مجموعة تجار الهوسا تقوم بدور أبرز عندما تقهر الداجومبا إلى الشرق تحت ضغط الكونجا المعادية، مما أفسح المجال لزيادة في حركة المواصلات على الطريق في بلاد الهوسا وتنشيط تجارتها<sup>(١)</sup>. وقبل ذلك كانت عاصمة داجومبا القديمة في يندي - داباري، على طريق تجاري مزدهر يطره تجار الماندي إلى جنبي، وفيها أحياء للتجار.<sup>(٢)</sup>

أما وقد حدث هذا التدهور الذي ذكرناه، فقد تسلمت قبائل الهوسا التجارية الراية، وواصلت الدعوة السلمية للإسلام في هذه المناطق، فقد كانوا من أكثر الشعوب تحملاً لمشاق السفر وركوب الأخطار، وأصبحوا يسيطرون على تجارة طويلة في كل المنطقة الشرقية لإفريقيا الغربية، ونمت مستعمرات هوسية في كل المراكز التجارية المهمة، وأصبحت لغتهم هي لغة التخاطب المشتركة في الأسواق.<sup>(٣)</sup>

---

Muslim and Chiefs, p. 103. (١)

Loc. Cit. (٢)

R.Oliver: The Dawn, op. cit, P.65. (٣)

## هـ - شركة المقرى إخوان: نموذج للبيوتات التجارية

في وقت ما من القرن (٦هـ / ١٠م) بدأ نجم أسرة تجارية يسطع في سماء التجارة بين غربي إفريقية وشمالى إفريقية وأوربة، وتعرف هذه الأسرة بأسرة المقرى - ولعل النسبة إلى شهاب الدين محمد بن التلمسانى المقرى صاحب كتاب نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب - ومن هذه التجارة نمت ثروتهم.<sup>(١)</sup>

تبدأ قصة تكوين أحفاد هذا المؤرخ لشركة تجارية عندما مات أحد أفراد هذه الأسرة ويسمى عبدالرحمن<sup>(٢)</sup>، وترك خمسة أبناء، اتفقوا على تكوين شركة تجارية. وكان الاتفاق أن يبقى اثنان منهم في تلمسان<sup>(٣)</sup>، وهي في ذلك الوقت ميناء رئيس على البحر الأبيض لتجارة أوربة، ويبقى واحد في سجلماسة<sup>(٤)</sup>، ويذهب اثنان إلى والاتا<sup>(٥)</sup> في الصحراء.<sup>(٦)</sup>

(١) See. Lugard, op. cit., pp. 100-104.

والذي يحكي تاريخ هذه الشركة أحد أحفاد هذه الأسرة في القرن الرابع عشر (١٣٥٦م)، إذ كان قاضيا لمحكمة عليا بفاس، كما يذكر المرجع نفسه، ص ١٠٣.

(٢) Loc. cit. والقاضي الذي كتب وصفا لهذه الشركة هو السادس في سلسلة أحفاد عبدالرحمن مؤسس الشركة، وإذا جعلنا مدة ثلاثين عاما لكل جيل فهذا سيرجعنا إلى سنة ١١٠٠م، وهذا التاريخ يدل على أن هذه الشركة قد قامت بدور مهم في إنعاش التجارة بعد الركود الذي انتابها بعد سقوط دولة غانة وقيام دولة مالي وهيمنتها على هذه المنطقة. See: Ibid, p. 103

(٣) عن وصف هذه المدينة انظر: الإدريسي، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ص ٨٠ - ٨١؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة «تلمسان».

(٤) كانت هذه المدينة هي مركز الشركة، وفيها تحدد الأسعار ومتطلبات السوق الأوربية والإفريقية. انظر: paniker, op. cit., p. 265؛ الدكتور زاهر رياض: الممالك الإسلامية في غرب إفريقية، ص ١٢٩.

(٥) ابن بطوطة يسميها (إيولاتن).

(٦) L ugard, op. cit, p. 101, Paniker, op. cit. p. 265.



وفعلوا حسب الاتفاق. وكان الذي في سجل ماسة يمثل قطب الرحي الذي يمد الآخرين بمعلومات خاصة بظروف التجارة كلها وما يحيط بذلك من ظروف سياسية أيضا، ونجحوا بهذه الطريقة.

ومثل تجار اليوم حاول أحد هؤلاء الإخوة التوغل جنوبا فوصل إلى عاصمة الماندنغو - مالي. ولم تكن لهم مشكلة في هذه العاصمة، إذ كانت شركتهم معروفة هناك<sup>(١)</sup>. وكانت الجالية العربية التجارية في ذات العاصمة منسجمة بعضها مع بعض ولهم نقابتهم. وفي عهد السلطان سليمان كان رئيس الجالية العربية بمالي هو محمد بن فقيه الجزولي، وهو مراكشي، ووصل الأمر إلى أن تزوج هذا المراكشي بنت عم السلطان سليمان<sup>(٢)</sup>.

وكانت منظمات التجار قوية في والاتا، وهذا يظهر من وصف لحادث وقع فيها عندما هاجم الملك التكروري المجاور للمدينة واستولى عليها ووضع أرواح التجار العرب وأملاكهم في خطر، ومن بينهم شركة المقري. وكما يحكي عبدالرحمن، فإن التجار اجتمعوا وقرروا الدفاع عن أنفسهم في مخازنهم، وقرروا الحرب إذا دعت الضرورة. وأخيرا وبعد محادثة الشريك الرئيس في هذه الشركة مع الملك الغازي وافق الملك على بسط حمايته على الشركة وعاملهم من ذلك الحين باحترام زائد. وكان يكتب مرارا للشركاء الذين بتلمسان يطلب مباشرة بضائع يظن أنها مناسبة لبلادهم<sup>(٣)</sup>.

---

(١) Paniker Loc. Cit. يرى بانكر أن هذا الشريك المقري وصل إلى مالي سنة ١٣٥٢م، ولا يتفق هذا مع رأي لوجارد الذي يقول إن زمان قيام هذه الشركة هو القرن الثاني عشر، مع ذكر ما يدعم هذا الرأي، وقد ذكرناه سابقا.

(٢) Loc. Cit.؛ ابن بطوطة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٤.

(٣) Lugard, op. cit. p. 102.

ويبدو أن هذا التطور السياسي قد وسع كثيراً من نطاق المعاملات التجارية لمؤسسة المقرري، إذ إن عواقب الطريق أصبحت آمنة لأنها في حماية الملوك، مما جلب الفائدة لهم ولل سكان في غربي إفريقيا<sup>(١)</sup>. ولا بد أن نفهم أن التجارة الصحراوية كانت في الغالب يرثى لها قبل شركة المقرري إخوان. فلم يكن التجار كلياً يعرفون الاحتياجات الحقيقية للسكان في غربي إفريقيا، فلربما يجلبون بضائع لا تستعمل هنا، أو لا قيمة لها عندهم. أما شركة المقرري فقد أمدتهم بسلع لم يروها من قبل، وحصلوا على فوائد كبيرة في المقابل<sup>(٢)</sup>. إن هذه الطريقة في إدارة التجارة تحمل دلالة عميقة بأن العرب الأوائل من التجار، ومن خلال شركاتهم ومنظمتهم وجدوا أنه من المهم - مثل الشركات الأوروبية فيما بعد - أن يكتسبوا نفوذاً سياسياً بجانب النفوذ التجاري، وأن الطبقة الممتازة من التجار مارسوا طريقة حكيمة فيما يختص بدرجات ونوعية السلع التي يدخلونها إلى بلدان غربي إفريقيا<sup>(٣)</sup>، وهذا بعينه ماتقوم عليه التجارة في عصرنا الحاضر.

وفي رواية عبدالرحمن عن تاريخ أسرته التجارية، نرى بوضوح قدم إقامة الجاليات التجارية في مملكة غانا، وأن ذكر غزوة ذلك الملك الذي لم يذكر اسمه لدولة غانا، يجعلنا نطمئن إلى قدم هذه العلاقة، لأن غانا هاجمها الصوصو أولاً ثم مالي، وقد حدث الهجوم الأول في القرن (٦هـ / ١٢م) والثاني في القرن (٧هـ / ١٣م)<sup>(٤)</sup>. وإن قدم العلاقات التجارية المنظمة مع دولة

---

(١) Loc. cit.

(٢) Ibid, pp. 102 - 103.

(٣) See: Ibid, p. 103.

(٤) See: Loc, cit.

غانا يعني مانرمي إليه من التطرق لهذه الأسيرة التجارية وغيرها<sup>(١)</sup>، بأنه عن طريق القوافل التجارية عبرت الأفكار والمبادئ إلى بلدان غربي إفريقيا حتى يظهر في يوم من الأيام إنتاج علمي نتيجة لقيام مجتمع إسلامي وتعليم ديني.

---

(١) انظر: الدكتور زاهر رياض، الممالك الإسلامية، مرجع سبق ذكره ص ١٢٩. وفي هذا المرجع يقول «بوفل» بأنه لا بد أنه كان هناك آخرون مثل إخوان المقرري إلى حد أن أبا هشام ملك تلمسان تذكرهم حين قال في بداية القرن الخامس عشر إنه يسره أن ينفي جميع التجار إلا هؤلاء الذين يتاجرون مع غربي إفريقيا، لأنهم سبب ثروة مملكته، بينما الآخرون يفقرونها.

## المبحث الثاني





## العلماء الدعاة المعلمون<sup>(١)</sup>

ستكلم هنا على العلماء الدعاة المعلمين الذين كانت لهم صلة بالتجارة والتجارة، أو أوفدتهم بعض دول شمالي إفريقيا إلى غربي إفريقيا للدعوة الإسلامية، وساترك دور العلماء الذين أقاموا في المراكز الإسلامية وقاموا بالتدريس في غربي إفريقيا إلى الفصول التالية، فلقد كان مثل هؤلاء الدعاة الذين سأتكلم عنهم دورهم البارز في إسلام هذه المنطقة منذ زمن مبكر، وكان الداعية والتاجر أحيانا يمثلان شخصا واحدا ويصعب التفريق بينهما<sup>(٢)</sup>، لذا ربطناهم هنا بالتجارة.

لقد لوحظ أن بعض القوافل التجارية كانت تضم بعض أفراد من الدعاة، وكان يتفاوت عددهم، فيكون أحيانا واحدا فقط<sup>(٣)</sup>، ولأنه متعلم فهو الذي يقوم بحفظ السجلات التجارية، ولأنه رجل علم بالدين فهو الذي يتبرك به في اختيار اليوم المناسب لتحرك القافلة، وهو الذي يضفي جوا روحيا وسط القافلة بدعواته ومواعظه وحكمه حتى تقوى النفوس على مخاطر الطريق<sup>(٤)</sup>. ومن خلال هؤلاء المعلمين، وبجانب التجار، ترك الإسلام آثارا واضحة على طول

---

(١) انظر: توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام (مترجم)، ص ٤٤٩-٤٥٤، فهو يتكلم هنا عن وجود الدعاة المسلمين دون أن تضمهم هيئة كما عند المسيحيين، وأن مسؤولية الدعوة فردية يقوم بها الرجل والمرأة. وأورد نماذجاً للدعاة وأثرهم في آسيا وإفريقية، ولم يغفل ربط التاجر المسلم بقضية الدعوة إلى الإسلام.

(٢) See: I. M. Lewis: Islam in Tropical Africa, op. cit, p. 20; E.W. Blyden: Christianity, Islam and the Negro Race, p.11.

الشمالي، مصدر سبق ذكره، الصفحات ٢٧٨، ٢٧٩، ٣١٢، ٤٥٧، ٥٤٩.

J.S. Trimingham: Islam in W.A., op. cit. p. 32.

J.S. Trimingham: The Influence of Islam Upon Africa p. 39. (٣)

Levtzion: Muslim Ghiefs, op. cit. p. 23. (٤)

الطرق التجارية . ومادام ليس هناك غرض مباشر لهؤلاء المعلمين في التجارة نفسها فإنهم أحيانا يتركون القافلة في طريقها عندما يجدون زعيما محليا يمكنهم أن يقدموا له الخدمات الدينية، فيعطى المعلم زوجة، وغالبا ماتكون بنت الزعيم العشائري، فينشأ مجتمع إسلامي صغير حيث لم يكن قد عاش مسلمون هنا من قبل<sup>(١)</sup>. وهذا دليل قوي على الجهد المثمر للمعلمين والدعاة المسلمين في بلاد غربي إفريقية.

ولعل من أبرز خصائص انتشار الإسلام في بلاد غربي إفريقية أنه لم يكن يبدأ دائما بالطبقة العليا والأسر الحاكمة ثم ينتشر، ولا نذهب مع من يرى عكس ذلك.<sup>(٢)</sup>

وعن طريق هؤلاء الدعاة والتجار انتشر الإسلام في زمان مبكر كما قلنا، والشاهد على ذلك وجود شواهد قبور كشف النقاب عنها بمنطقة النيجر،

Loc. cit. (١)

See. Trimingham: The Influence, op. cit. p. 39.

Muslim Chiefs, op. cit. p. 23; Islam in W.A. op. cit. p. 32.

البكري، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨.

(٢) انظر: عصمت عبداللطيف دندش. دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية، رسالة ماجستير غير منشورة بمعهد الدراسات الإفريقية بالقاهرة سنة ١٩٧٥م، ص ١٦٧، ومرجعها في هذا:

Chailley: Marcel, Histoire de l'Africa Occidental Francaise, p. 33.

والدليل على ذلك أن البكري يروي أن غانة مدينتان إحداهما للمسلمين والثانية للكفار، وأن الملك ويطائته من هؤلاء الكفار.

انظر: البكري، المغرب، ص ١٧٥ و ١٧٦، ودليل آخر من البكري هو أن ملك مالي أسلم على يد ضيف من المسلمين وكان عنده يقرئ القرآن ويعلم السنة. فقد كان يعلم السنة ويقرئ القرآن لشعب مَلِكُهُ غير مسلم ولا يملك غير المسلمين، وأن كوكو أيضا مدينتان إحداهما للمسلمين والملك والآخرى لغير المسلمين. وفي هذا دليل على أن الملك أو الطبقة العليا يمكن أن تكون مع جزء من الشعب والعكس صحيح كما رأينا. ويذكر السعدي أن ملك جني أسلم في القرن السادس الهجري (١٢م) على الرغم من وجود علماء كثيرين في دولته ووجود مجتمع مسلم.

انظر: تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص ١٢. لذا لا نذهب مع الباحثة دندش في التعميم. انظر: البكري ص ١٨٣.

وتحمل تاريخ سنة ٤٩٤هـ / ١١٠٠م<sup>(١)</sup>. كما عثر على شواهد قبور منذ عهد المرابطين أيضا في منطقة النيجر الأوسط، منقوشة بالعربية والإسبانية.<sup>(٢)</sup> وعندما سقطت مدينة أودغست<sup>(٣)</sup> في يد المرابطين انطلقت موجات من دعاة المرابطين إلى بلاد غربي إفريقية<sup>(٤)</sup>. ولم يتوقف سيل الدعاة على مر العصور إلى زماننا هذا، ولقبائل موريتانيا ذات الأصل البربري دورها الفعال في مجال الدعوة والتجارة لاسيما قبائل الزوايا<sup>(٥)</sup>، بل إن شهرة هذه المنطقة عامة وأودغست خاصة يرجع إلى أنها كانت آهلة بالمعلمين للقرآن حتى قبل قيام المرابطين.<sup>(٦)</sup>

وكان الدعاة يتدفقون من كل حذب وصبوب. وهناك روايات ترجع الفضل في تأسيس جالية إسلامية بمدينة سلقا التجارية إلى معلم عربي أبيض جاء من بلاد الهوسا، وأن أحفاده في سلقا يعرفون بـ«ماقاجي - ن - باتور»، أي وارثي العربي أو الرجل الأبيض. ويقال إن باتور هذا بنى منازل له

---

(١) Trimingham: A History of Islam in W.A., op. cit. P. 160.

(٢) Davidson: The Lost Cities of Africa, pp. 98-90.

يذكر ديفيدسون هنا بأن ذلك وجد سنة ١٩٣٩م في مدينة Sane على بعد أربعة أميال من منتصف مدينة جاو الحالية، وعليها تاريخ الجزء الأول من القرن الثاني عشر، والنص المنقوش هو: «هنا قبة الملك الذي حمى دين جاو والذي سكن إلى الله، أبو عبدالله محمد».

(٣) انظر: نعيم قذاح، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠، دائرة المعارف، الإديسي المغرب، ص ٣٢، أبو الفداء، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.

(٤) انظر: د. حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٥) See: Philip D. Curtin: "Jihad in W. A.", J.A.H. (1971), pp. 12-13, 14.

(٦) وحسبما جاء في الروايات أن مملكة أودغست دخلها الإسلام قبل المرابطين بقرن من الزمان، ومعنى هذا أن هذه الدولة قد أسهمت بنصيب ما في نشر الإسلام والتعريف به في بلاد غربي إفريقية، فإسلام الملك الخامس من سلسلة ملوك سنغي، وهو السلطان زاكاسي، أسلم حوالي عام ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م، وهذا قبل مجيء المرابطين. انظر: البكري، مصدر سبق ذكره، ١٥٨. د. طرخان: الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٥.



ولأولاده، وسوقاً صغيرة بالإضافة إلى مكان لضيوفه. (١)

وجاء المعلم جدياً إثر باتور قادماً من قريته بالقرب من كاتسينا، وله الفضل في بناء المسجد الجامع لأداء صلاة الجمعة في سلقا، وتلا قدوم هذين المعلمين وفود جماعات من مسلمي البرنو إلى منطقة سلقا. (٢)

وكان الداعية المسلم يتصف بسمت وأخلاق تدعو للإعجاب، وتجذب إليه الناس، ملابس فضفاضة وأخلاق سامية، وشخصية مؤثرة جذابة، وفيه كرم وإيثار، يباشر دعوته مع تجارة يزاولها، وأحياناً يتفرغ للدعوة والتعليم، فإن كان تاجراً كان الصدق دينه والأمانة دستوره، وإن كان معلماً جمع حوله مجموعة من الصبية والشباب سرعان ما يظهر امتيازهم عن رفاقهم ممن لا يتبعونه، وهذا يجذب إليه نفراً جديداً كل يوم للانضمام إلى حلقة، وعندما يجن الليل ويتوقف التاجر عن البيع والشراء، وينصرف عن المعلم مريدوه وتلاميذه، نجد حول المعلم والتاجر جموعاً جديدة من الرفاق فيما يمكن أن يسمى «صالونا أدبياً» يتسع يوماً بعد يوم، وتنشق عنه صالونات جديدة تزيد انتشار الدعوة الإسلامية. (٣)

وعندما تكون القرية الصغيرة خالية من المساجد التي يمكن أن تكون مقراً للدراسة، أو تنعدم فيها المدارس القرآنية المعروفة بالكتاب، نجد أن أطفالاً مثل هذه القرى الصغيرة يتلقون تعليمهم على يد أحد الدعاة في ساحة صغيرة في الحي. (٤)

---

(١) Levzion: Muslim & Chiefs, op. cit. p. 27.

(٢) Ibid, p. 28.

(٣) الدكتور شليبي، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٤.

(٤) قدام، مرجع سبق ذكره، ص ١٤١.

وختلاصة القول: إن الداعية والتاجر تبادلان مهمة نشر الدعوة الإسلامية وقاما بدورهما الفعال في تأصيل الإسلام وعلومه، والمساعدة على إنماء مراكز إسلامية ثقافية في غربي إفريقيا، وكانوا بحق المشاعل التي أضاءت أرجاء هذا الجزء البعيد من العالم الإسلامي.



## المبحث الثالث





## المرابطون

لم يكن نفوذ البربر – أصل دولة المرابطين – مقصورا على الأقاليم التي تمتد على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فالمعروف أن أول من ملك منهم الصحراء زعيم اسمه تيولثان، ت ٢٢٢هـ / ٨٣٦م، كما تذكر المصادر.<sup>(١)</sup> وملك بعده حفيده «بلثان» ت ٢٨٧هـ / ٩٠٠م<sup>(٢)</sup>، ثم ابنه نضيم بن الأثير عام ٣٠٦هـ / ٩١٨م. ثم ظلوا في تفكك مئة وعشرين عاما إلى أن قام فيهم أبو عبد الله محمد بن ثيفات، وحج ثم توفي بعد ثلاثة أعوام من رياسته في جهاده من غربي إفريقية (السودان). وقام بأمرهم من بعده صهره يحيى بن إبراهيم.<sup>(٣)</sup>

وكان لهؤلاء البربر، وخاصة تجارهم ودعاتهم، الفضل في إسلام غربي إفريقية كما رأينا. ولم يقف هذا الدور على الرغم من قيام حركة اصلاحية منظمة عرفت بـ«المرابطين»، أعطت للإسلام دفعة قوية في غربي إفريقية،

---

(١) صبح الأعشى، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٩، ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص ١٠١ نصه: (أول من تملك منهم بالصحراء تيولثان بن تيكلان، ملك الصحراء بأسرها، ودانت له ملوك السودان وأدوا له الجزية. وكان يركب في مئة ألف نجيب، وكان في أيام عبدالرحمن الداخل (ت ٢٢٢هـ)، انظر، البكري، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٩، ولكن البكري لا يقول بأن أول من ملك الصحراء هو فلان كما ذكر القلقشندي وابن أبي دينار ولكنه يقول: «وكان صاحب أودغست في عشر الخمسين وثلاثمئة تين يروتان بن وينو بن نزار رجل من صنهاجة وكان قد دان له أريد من عشرين ملكا من ملوك السودان. كلهم يؤدي إليه الجزية، وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها عمارة يعتد في مئة ألف نجيب» ولعل هذا الملك المذكور في نفس الأسرة، خاصة وأنه حكم في القرن الرابع الهجري، وحكم بتلوتان في القرن الثالث الهجري.

(٢) المؤنس، المصدر نفسه، ص ١٠١.

(٣) صبح الأعشى، المصدر السابق، ص ١٨٩، محمد عبدالفتاح إبراهيم: إفريقية من السنغال إلى نهر جوبا، مرجع سبق ذكره، ص ٩٩-١٠٠، المؤنس المصدر السابق، ص ١٠١.

عندما أزالـت كثيراً من المعوقات، وخلاصتها: أنه في القرن التاسع الميلادي، اتحدت قبائل صنهاجة وملتونة ومسوفة وجدالة البربرية. وكان هدف هذا الاتحاد هو العمل على تنظيم تجارة القوافل عبر الصحراء، فيما بين أقصى الشمال حيث منطقة والاتا، وأقصى الجنوب حيث كانت تقع مملكة غانا. ولم يكتب لهذا الاتحاد عمر طويل، فوهن أثره، ثم تلاشى، فانتهزت غانا تلك الفرصة فازدهرت وتسلطت على بعض أجزاء الصحراء التي يؤمها تجار القوافل من البربر والعرب. (١)

ومما سبق يظهر لنا جلياً مدى أهمية السيطرة على طرق القوافل التجارية، إذ إنها كانت الدعامة الأولى التي يجب ضمانها لقيام أي كيان بربري في شمال منطقة السافانا، وبذلك كانت هذه التجارة مصدر القوة لكل الدول التي قامت سواء جنوب الصحراء الكبرى أو شمالها. فكانت الضرائب تفرض على القوافل المارة بمنطقة البربر (٢). ويبدو أنه في سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م حدثت خلافات داخلية بين صنهاجة أدت إلى اضطراب المسالك التجارية، مما أفسح المجال للسونكة في غانا أن يسيطروا على مدينة أودغست، وعينوا حاكماً زنجياً عليها، مما استوجب بعد ذلك على صنهاجة أن يستعيدوا هذه المدينة لأهميتها كنقطة لطرق القوافل التجارية. (٣)

وفي سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م واجه زعماء ملتونة وجدالة ومسوفة الصنهاجية قوة غانا النامية، فعادوا ثانية لتوحيد صفوفهم لصد هذا الخطر، يقودهم تارسينا الصنهاجي المسلم والذي تشبع بروح الإسلام والإصلاح والجهاد

---

(١) د. ركي، الإسلام والمسلمون، مرجع سبق ذكره، ص ٦.

(٢) Trimingham, Islam in W.A, op. cit, p.52.

بعد حجته إلى مكة. حارب البربر دولة غانا في معارك دامية راح ضحيتها تارسينا نفسه سنة ٤١٤هـ / ١٠٢٣م<sup>(١)</sup>. وكان تارسينا أول من بذر بذور الجهاد في غربي إفريقيا وتبعه الرجل الثاني، يحيى بن إبراهيم، شيخ جدالة، وزوج ابنته، ليكمل رسالته.<sup>(٢)</sup>

وبعد تمحيص وبحث عمّن يشاركه حمل أعباء الدعوة وقع الاختيار على عبدالله بن ياسين الجذلي، الذي لجأ إلى رباط في السنغال بعد فشله في الدعوة بين أهله المثلثين المنتشرين في الصحراء، وأخيرا قويت شوكته وتكونت أول نواة لدولة المرابطين التي اتسعت فيما بعد حتى الأندلس. وقضت على غانا سياسيا.<sup>(٣)</sup>

ونتيجة لقيام الدولة القوية، ولوحدة قبائل الصحراء الصنهاجية في وجه الأعداء، تمكن المرابطون من فتح مدينة أودغست عام ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م، وعاقبوها بدفع الجزية على خضوعها لإمبراطورية غانا واستسلامها لها، وبعد ذلك اتجهوا إلى كومبي صالح عاصمة غانا، واقتحموها سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م، فاقاموا عليها حاكما مسلما، ومنذ ذلك الوقت أضحى ملوك غانا من المسلمين، حتى عندما انفصلوا عن دولة المرابطين سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م،

---

(٣) الإسلام والمسلمون، المرجع السابق، المكان نفسه.

(١) المكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦-٧.

(٣) عن ظروف وتطورات هذا التمحيص والبحث انظر: ابن أبي دينار، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١-

١٠٤. وعن قيام هذه الدولة انظر: د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين، مصدر سبق ذكره. وهو

أطروحتة للدكتوراه، صبح الأعشى، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٩، البكري، المغرب، مصدر

سبق ذكره، ص ١٦٥-١٦٨.

يلاحظ أن الكعك في كتابه «مراكز الثقافة» يسمي عبدالله بن ياسين بـ«محمد بن ياسين»، ولعله

يقصد «أبامحمد عبدالله بن ياسين»، كما جاء في المصادر والمراجع كلها.



ولكنهم أعلنوا تبعيتهم للخليفة العباسي في بغداد مباشرة.<sup>(١)</sup>  
وبعد سقوط غانا نشطت الدعوة أكثر مما كان في السابق. وبهذا كان دور  
المرابطين دورا تكميليا لما سبقهم به التجار والدعاة منذ زمن طويل.

---

(١) انظر: ابن خلدون - العبر، ج٦، مصدر سبق ذكره، ص٤١٣، ٤٣٧.

## المبحث الرابع



## الفرقة السنوسية

تنسب السنوسية إلى السنوسي بن العربي جد مؤسسها محمد بن علي ابن السنوسي، ويتتبع بنسبه إلى الأدارسة. وقد ولد مؤسس السنوسية سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م في بلدة مستغانم بالجزائر، وتلقى بها مبادئ الدراسة، ثم رحل إلى فاس حيث التحق بجامعة القرويين، ورحل بعد ذلك إلى الأزهر فتعلم به وعلم، ثم سافر إلى الحجاز حيث التقى بكبار المشايخ واستفاد من علمهم وأعجب الكثيرين منهم، وأدرك السنوسي حاجة الدعوة الإسلامية إلى الإصلاح، فراح يعمل لذلك بحزم وإصرار.<sup>(١)</sup>

وفي سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م أسس السنوسي فرقة دينية تسعى إلى الإصلاح الديني. ولم يمض سنة ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م حتى كان قد نجح في تأسيس دولة دينية دون إراقة دماء، انتقل مركزها أخيراً إلى واحة جغبوب، في الصحراء الليبية، بين مصر وطرابلس، ومع أنها كانت في البداية حركة إصلاح داخلية في الإسلام نفسه، أصبحت إلى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة إلى الإسلام، وأصبحت عدة قبائل إفريقية كانت من قبل وثنية أو مسلمة اسمياً من أتباع الإسلام المتحمسين منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية<sup>(٢)</sup>، وتغير أسلوب حياتهم وأصبحوا أكثر رقياً وتحضراً من غيرهم ممن يحيطون بهم، وليس أدل على ذلك مما يقرره رحالة حديث هو (جوزيف تومسون) من أنه عندما دخل السودان الأوسط (يعني منطقة بحيرة تشاد الحالية) وجد نفسه في دولة أحسن

---

(١) الدكتور شلبي: مرجع سبق ذكره، ص ٢١٦.

(٢) آرنولد، مرجع سابق، ص ٣٧١-٣٧٢. بتصرف.



نسبياً من غيرها في طريقة حكمها، غاصة بجماعة نشطة من التجار الأذكاء، وأناس مهرة في صناعة المنسوجات والنحاس والجلد، وقال إنهم في الواقع شعب تقدم تقدماً عظيماً في مراقبي الحضارة والمدنية<sup>(١)</sup>، وكل هذا يرجع الفضل فيه إلى الطريقة السنوسية، حيث إن هذه المنطقة تقع في مركز نفوذها المباشر جنوباً، في منطقة كانم وبيرنو ووادي وياجرمي ودارفور، وأنه على العموم كانت السنوسية تنتشر في المنطقة المحصورة بين ساحل البحر وحوض النيجر، وينشرون زواياهم في واحات هذه الأجزاء.<sup>(٢)</sup>

ومما لا شك فيه أن قدرة الإدارة المنظمة لهذه الطريقة في السيطرة على الطرق التجارية في هذه المنطقة، وبسط سيادتها ونفوذها على هذا الشريان المهم، جعل من الميسور على هذه الطريقة أن تمارس رسالتها. وفي ضوء هذا المفهوم يذكر الدكتور شكري<sup>(٣)</sup>، من أنه ليس هناك أدل على مقدار ما بلغه سلطان السنوسية من الطريقة التي توصل لها هؤلاء الشيوخ أو الزعماء إلى تأمين طرق القوافل في قلب الصحراء الكبرى في إفريقية... فلم تكن قافلة تأمين على متاجرها وأموالها ورجالها إلا إذا أخذت قبل قيامها وتوغلها في الصحراء أذونات أو جوازات مرور حتى تتمكن من اجتياز أرض قبائل الطوارق وغيرها بأمن وسلام، لأن هذه القبائل كانت تحترم أذونات شيوخ السنوسية وتعمل بمقتضاها. ومن المعروف أنه لم يسبق أن انضوت هذه القبائل تحت لواء أي سلطان آخر قبل ذلك، وعلى هذا فقد أصبحت السبل آمنة فيما بين إفريقية

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٧٣. بتصرف.

(٢) الدكتور زاهر رياض: استعمار إفريقية.

(٣) الدكتور محمد فؤاد شكري: السنوسية دين ودولة. القاهرة ١٩٤٨. الناشر: دار الفكر العربي، ص ٥١ - ٥٢.

الوسطى والشمالية، بل أصبحت القبائل التي كانت صاحبة الجسارة الكبرى على النهب وقطع الطريق هي القوة المحافظة على الأمن بتلك المفاوز والصحاري.

وإذا أخذنا مثالا للمقارنة بين الدولة السنوسية ودولة أخرى لها ظروفها نفسها، أمكننا أن نقول إن دولة الدامر أيام مملكة الفونج الإسلامية كانت أشبه جدا بدولة السنوسية، ففيها يبدو لنا جلجا أهمية التجارة في عناصرها الحضارية، إذ إن شؤون دويلة الدامر كان على رأسها الفكي الكبير، وهو زعيم روحي ينال احترام أهل دويلته وجيرانها، فلا يتعرضون لتجارته، خوفا من سطوته وخوارقه، وكانت تسيطر على طرق تجارية مهمة تخدم اقتصاديات السودان وادي النيل الأوسط.<sup>(١)</sup>

وفوق ما ذكرنا، فقد عمد السنوسي إلى وسيلة مباشرة في بسط نفوذه فيما وراء الصحراء، وخاصة في وادي<sup>(٢)</sup>. فقد اشترى قافلة من عبيد البرقو، كان البدو قد استولوا عليها عند حدود مصر، وجاء بأفرادها إلى «جغبوب» حيث تشربوا تعاليم السنوسية، ثم أعتقوا فعادوا إلى بلادهم دعاة مبشرين، وراح أهل وادي منذ ذلك الحين يفدون إلى جغبوب ثم «الكفرة» لطلب العلم، كما أقبلوا على الخدمة في الزوايا السنوسية.<sup>(٣)</sup>

وكان السنوسي الأكبر قد التقى أثناء إقامته بمكة الأمير محمد شريف، الذي أصبح سلطانا على وادي في سنة ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م، فصادقه زمنا ثم

---

(١) انظر: Grawford, O.G.S.: The Fung Kingdom of Sennar (Gloucester 1951) pp. 56-57.  
(٢) موسى المبارك الحسن: تاريخ دارفور السياسي (رسالة ماجستير مطبوعة) الخرطوم، لم تذكر سنة الطبع. الناشر: قسم التأليف والنشر بجامعة الخرطوم، ص ١٠-١١، ومرجعه:  
The Encyclopedias of Islam, (London 1934) Vol. IV. p. 1075.  
(٣) محمد فؤاد شكري، مرجع سابق، ص ٣٩.

بإيعه مریدا من مریدیه، فلم یأل السلطان محمد شریف جهدا فی تأیید السنوسیه بین رعیتہ<sup>(۱)</sup>، وازداد نشاط السنوسیین فی سلطنات إفريقية المسلمة فی عهد السنوسی المهدي، الذي انتدب اثنين من كبار أعوانه إلى کانم وباجرمي، فاتخذ منهما مركزین لنشر الدعوة فی كل اتجاه، حتی بلغت دارفور شرقاً<sup>(۲)</sup>؛ وكذلك قوي نفوذ السنوسیه فی واداي حتی إن السنوسی المهدي تدخل تدخله فعلاً فی نزاع نشب حول عرشها سنة ۱۲۹۳هـ / ۱۸۷۶م، وفرض مرشحه السلطان محمد یوسف بن محمد شریف الذي أصبح تابعاً وفياً للسنوسی.<sup>(۳)</sup>

---

(۱) المرجع نفسه، ص ۳۹.

(۲) موسى المبارك الحسن: مرجع سبق ذكره، ص ۱۱، ومرجه: برتشار، ص ۲۲.

(۳) المرجع نفسه، ص ۱۰۹.

## المبحث الخامس





## الهجرات الإسلامية

يلحظ القارئ لهذا الكتاب، وخاصة فيما يتعلق بنشأة المراكز التجارية الثقافية في غربي إفريقيا، وجود جاليات من المسلمين العرب والبربر كانوا سبباً في نشأة تلك المراكز، ونواة أساسية في غرس الحضارة الإسلامية العربية فيها. وقد تعددت أسباب هجرة أفراد هذه الجاليات إلى هذه المناطق، منها الأسباب الاقتصادية والدينية والسياسية. وأشار بعض المؤرخين إلى تاريخ بعض هذه الهجرات، ومثال ذلك ما ذكره البكري<sup>(١)</sup> من أن بيلاد غانا قوماً يسمون بالهنيهن، من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانا في صدر الإسلام، وأن بمدينة (سلى) قوماً منهم يعرفون بالغامان.

وماجر جماعة من العرب وأهل شمالي إفريقيا من قبائل زناتة وبرفجانة ونفوسة ولواتة، ونفزاوة وغيرهم من سائر الأمصار، هاجروا إلى مدينة أودغست، وأصبحوا يشكلون جزءاً كبيراً من مواطنيها.<sup>(٢)</sup>

وماجرت مجموعات من بطون قبائل صنهاجة الملثمين المسلمين إلى بلدان غربي إفريقيا التي حول نهري السنغال والنيجر، وكانت عاملاً مهماً في نشر الإسلام في هذه المناطق.<sup>(٣)</sup>

وماجرت فروع من قبيلة مسوفة الصنهاجية، إلى غربي إفريقيا، واستقر بعضهم بمدينة والاتا (أو أيوالاتن)، وشكلوا غالبية قاطنيها<sup>(٤)</sup>، واستقر بعضهم

---

(١) المغرب: مصدر سبق ذكره، ص ١٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٨، ١٦٨. تكلمنا على هذه المدينة عند الكلام عن المرابطين وإمبراطورية غانة.

(٣) انظر: ابن خلدون: العبر، مصدر سبق ذكره، ١٨١/٦.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٦٧٧، ٦٨٤.

بمدينة مالي<sup>(١)</sup>، وأسس بعضهم مدينة تنبكت<sup>(٢)</sup>.

وهاجر بعض المسلمين البربر والعرب إلى مدينة (جني)، واستقروا بها<sup>(٣)</sup>.

وهاجر جماعات كبيرة من المسلمين العرب والبربر إلى مدينة مالي،

وعرفوا هناك بالبيضان، واتخذوا لأنفسهم حياً خاصاً بهم في هذه المدينة.

وذكر ابن بطوطة<sup>(٤)</sup> أنه كتب إلى نفر منهم ليستأجروا له منزلاً نزل فيه مدة

إقامته بالعاصمة المالية. وعندما وصل إليهم وأقام بينهم لاحظ أن ملك البلاد -

منسا موسى - كان يحب البيضان ويحسن معاملتهم<sup>(٥)</sup>.

وهاجر بعض المسلمين البربر والعرب إلى مدينة (كوكو) بغربي إفريقيا،

واستقروا بها، وبنوا مسجداً في حيهم، يصلون فيه، وينطلقون منه إلى نشر

الإسلام وتعاليمه<sup>(٦)</sup>.

وهاجر بعض بني وارث المسلمين الصنهاجين إلى مدينة (بانكلاين)

وأقاموا بها<sup>(٧)</sup>.

وذكر البكري<sup>(٨)</sup> أن بني مداسة الصنهاجين المسلمين قد وصلوا في

هجرتهم إلى شاطئ نهر النيجر واستقروا عليه، وأن بني سفمارة البربر

المسلمين، وصلوا في هجرتهم حتى جنوبي منحني النيجر بثلاث مراحل،

وأقاموا هناك.

---

(١) المصدر والمكان نفسهما.

(٢) السعدي: تاريخ السودان، ص ٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٤) الرحلة: ص ص ٦٨٠ - ٦٨١، ص ٦٨٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٧٧.

(٦) البكري: المغرب، ص ١٦٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٨٠، ١٨٣.

(٨) انظر في هذا، ابن بطوطة: الرحلة، ص ٦٨١.

واختلط هؤلاء المسلمون من البربر والعرب بأهل البلاد الأصليين،  
وتزاوجوا معهم، ومثال ذلك أن أحدهم تزوج بنت عم منسا سليمان، حاكم  
مالي، كما سبق ذكره، ونشروا الإسلام وحضارته بين سكان هذه البلاد  
وتحاكموا بشرع الإسلام.<sup>(١)</sup>

---

(١) انظر: السعدي: تاريخ السودان، ص ١٨.





## الفصل الثاني

أسباب نجاح تغلغل الإسلام وتعاليمه  
في غربي إفريقيا



## المبحث الأول



## الدوافع

إن التجار والدعاة والعلماء المسلمين من كل مذهب وفرقة هم أفراد من المجتمع الإسلامي، منوط بهم حمل رسالة الإسلام إلى من يلتقون بهم أنى حلوا، لأنه، كما نعلم، ليس في الإسلام طبقة متخصصة في الدعوة إلى الإسلام مثل طبقة الكهنوت في الديانات الأخرى السماوية<sup>(١)</sup>، بل إن المسؤولية ملقاة على عاتق الأفراد من كل الفئات والطبقات، فهم مكلفون بأمر الدعوة من الله سبحانه وتعالى سلمياً. وفي هذا يقول الله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وهناك حقيقة واقعية وهي أن الإسلام، منذ بدء ظهوره، دين دعوة من الناحيتين النظرية والتطبيقية. وقد كانت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام تمثل هذه التعاليم ذاتها. وكان النبي ﷺ نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين، الذين وفقوا إلى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار، وسارت المسيرة إلى يومنا هذا. وللدعوة جنودها المخلصون الذين ضحوا وضحون بالنفس والنفيس في سبيل إعلاء كلمة الله وتنكيس راية الشيطان في كل صقع من أصقاع الأرض، وذلك بالطرق السلمية التي اتبعها التجار والدعاة والعلماء من قبل، وجاء القرآن

---

(١) انظر: ليس في الإسلام رجال دين، بل علماء، مقال للشيخ طه الولي، نشر بمجلة دعوة الحق: العدد الثاني (يناير ١٩٧٠م). ص ٤٠ وما بعدها. وفي هذا المقال يقارن الشيخ طه بين تطور المسيحية والإسلام ومهمة رجال المسيحية ورجال الإسلام وتنظيماتهم. وخلص إلى أنه ليس في الإسلام كهنوت كالمسيحية، بل علماء.



مشددا في الحُض على هذه الطرق السلمية في كثير من آياته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]

وهكذا، ومن واقع القرآن الكريم يكون الدافع إلى الدعوة ابتداء بالرسول عليه السلام، كل من موقعه الذي هو فيه، ومن جميع المهن والحرف، وكل على قدر طاقته ووسائله سواء بالنفس أو بالمال أو بالكلمة. وهناك حالات كثيرة يحفل بها تاريخ الدعوة إلى الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها تظهر لنا جلياً دور الأفراد في هداية الناس إلى الدخول في الإسلام أكثر ما فعلته الفتوح وأعمق منها.

## المبحث الثاني



## بساطة العقيدة الإسلامية وسماحتها

مما هو ظاهر ملموس أن انتشار الإسلام بالطرق السلمية في إفريقية وآسيا يعدّ مفخرة للإسلام، ودليلاً ناطقاً على روحه التي تلائم الطبائع البشرية الفطرية، وأن الحروب التي نشبت في بعض هذه البقاع، وفي فترات معينة من تاريخ الإسلام في هذه المناطق، لاتعدو أن تكون مجرد ومضة من ذلك الإشعاع المستمر، الذي أضاء لهذه البقاع وبدد ظلمتها بنور الإيمان. ولو تتبعنا أيضاً أسباب تلك الانتفاضات الحربية مثل حركة المرابطين بالذات نجد أن الأصل فيها رد العدوان الذي وقع عليها من البيئة المحلية. ولا يخفى أن أمر الجهاد في الإسلام جاء لأمر منها الدفاع عن النفس، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠] وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ لِلَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ انتهوا فلا عدواناً إلا على الظالمين﴾ [البقرة: ١٩٣]. ومنها تأمين الدعوة الإسلامية أمام من يقف في سبيلها حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام الفتنة عن دينه. والمتتبع التزيه للملابسات الحروب التي خاضها الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدون من بعده، لا يجد أي انتهاك لتلك المبادئ التي من أجلها شرع الجهاد والقتال. وليس الأمر كما يدعيه البعض، لاسيما بعض المستشرقين، من أن الإسلام قد انتشر بحد السيف. (١)

---

(١) مثال ذلك انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة جهاد، بقلم المستشرق ساكدونالد، حيث يقول عن الجهاد: «نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافة، وكاد الجهاد أن يكون ركناً سادساً من أركان الدين أو فرض عين، ولا شك أنه ما زال كذلك عند الخوارج...» وفي مادة جهاد بقلم «طيان» جاء ما يلي «الجهاد أساساً ذو طبيعة هجومية...» ويستطرد ليسد الطريق لمن يفندون هذه الفرية، فيقول: «ونقول أخيراً إنه تقوم في هذه الأيام نظرية طابعها دفاعي محض، تقول إن الإسلام يعتمد في نشره على مجرد الإقناع أو الوسائل السلمية، وإن الجهاد لا يصرح به إلا في حالات الدفاع عن النفس والعون الواجب بذله لحليف أو أخ أعزل. وهذه النظرية، إذ تستبعد كلية المبدأ السابق والرواية

إن المسلمين لم يقيموا وزناً لحاجز اللون، إذ إن لون الزنجي لا يحمل إخوانه في الإسلام على أن يتعصبوا عليه، أو يعاملوه على أنه من طبقة دنيا، كما هي الحال في كثير من الأحيان في العالم المسيحي<sup>(١)</sup>، خاصة في أمريكا

---

التاريخية كما تستبعد الآيات القرآنية والسنة التي قام الجهاد على أساسها، لا تأخذ في اعتبارها إلا تلك النصوص الأولى التي تقول بعكس ذلك وإن كانت تزعم - مع هذا - بأنها لا تزال داخلة في نطاق السنة الصحيحة وعن فريتهم انظر أيضاً: فان فلوطن: السيادة العربية (مترجم) طبعة القاهرة ١٩٦٥م، ص ٥-١٨، وهناك ردود كثيرة قام بها المخلصون في كل زمان ومكان: ومن المحدثين الدكتوران مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت ١٩٧٠م، الناشر المكتبة المصرية بصيدا، ص ٤١. أحمد محمد جمال: مفتريات على الإسلام، نشر دار الشعب، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٥٢ وما بعدها. . وخلاصة القول في مشروعية الجهاد كما بسطها أحمد محمد جمال: -

(١) تأمين الدعوة الإسلامية من عدوان المتريصين بها سواء من العرب أو الفرس أو الروم، كما حدث في محاولة كسرى الفتك بمبعوث الرسول عليه الصلاة والسلام إليه ومحاولة قتل النبي نفسه، وكما حدث عندما أمر هرقل الروم بقتل كل من أسلم من أهل الشام، وكانت موقعة ذات السلاسل نتيجة لاعتداء جماعة من الروم كانت ترصد بعثة نبوية أخرى للدعوة إلى الإسلام يرأسها عمرو بن العاص. ولم تكن موقعة مؤتة إلا بسبب ما علمه الرسول عليه الصلاة والسلام من تجمعات الروم وعرب الشمال وعزمهم الزحف على المدينة والقضاء على الدعوة في مهدها، فبادرهم الرسول بإرسال الجيش الذي عرف بـ «جيش أربعة القواد». وكذلك كانت غزوة تبوك نتيجة لما علمه النبي أيضاً من نية العدو الزحف على المدينة وكان غرض جيش أسامة الذي جهزه الرسول ﷺ وأنفذه أبوبكر هو تأمين حدود الجزيرة العربية من خطر الروم المتكرر وخطر أعوانهم من أمراء الغساسنة. أما عرب قريش فقد اعتدى منهم الحارث بن عمرو الأزدي على مبعوث الرسول ﷺ (شجاع بن وهب الأسدي) وقتله، مع أن الرسل لا تقتل، وكان أول اعتداء، ثم أعقبه اعتداء ثانٍ عندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام خمسة عشر داعية إلى ذات الطلح على حدود الشام، فقتلوا إلا رئيسهم.

(٢) نقض الأعداء للمواثيق المبرمة بينهم وبين المسلمين، والمبادرة بالاعتداء، وقد حدث هذا مع مشركي مكة في نقضهم لصلح الحديبية، ومع يهود بني قريظة في المدينة حين غدروا بالرسول ﷺ في غزوة الخندق - الأحزاب. قال تعالى ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدُوكُمْ أَوْلَٰى مَرَّةً اتَّخَشْتُمْهُمْ فَأَلَّلَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ سورة التوبة: آية ١٣.

(١) آرنولد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٤.



وجنوبي إفريقية وروديسيا، كما نراه اليوم، وفي تاريخ الاستعمار للقارة الإفريقية كما رأينا بالأمس ونراه اليوم. وهذا العامل اللوني كان له أثره في الحركات القومية التي قامت ضد الاستعمار في إفريقية، وأصبح المصطلح «استعمار» «امبريالية» يعني بلاشك حكم البيض للملونين.<sup>(١)</sup>

ففي الإسلام سرعان ما يصبح الأسود المتحول إلى الإسلام مع المؤمنين على قدم المساواة، ولا يحول دون ذلك لونه أو جنسه أو أي ملابس من ملابس الماضي.<sup>(٢)</sup>

ولعل من أبرز خصائص سرعة انتشار الإسلام في إفريقية أن البلاد الأولى التي انبثق منها الإسلام، وهي الحجاز، ومصر، والمغرب، لم يكن لها أي نوع من الإشراف أو السيادة أو الحماية أو السيطرة، فالإسلام في إفريقية قد ترك الوطنيين سادة على أنفسهم وبلادهم، وهو عكس ما فعلته المسيحية، وفي هذا يقول بليدن «BLYDEN»<sup>(٣)</sup>: إن المسيحية قد جاءت إلى الإفريقي معتبرة إياه عبداً أو على الأقل بوصفه خاضعاً مملوكاً في بلاد أجنبية، فتعلم الزنجي

---

(١) Horakovits, op. cit. p. 181.

(٢) آرنولد، المرجع السابق، ص ٣٩٤.

(٣) E.M. Blyden: Christianity, Islam and the Negro Race, pp. 12 - 13.

إن بليدن من مواطني دولة ليبيريا المثقفين. وكتابه المذكور عبارة عن مجموعة مقالات طبعت لأول مرة بلندن سنة ١٨٨٨م، ثم للمرة الثانية سنة ١٩٦٧م. فالمؤلف من عنصر إفريقي ولد سنة ١٨٣٢م بجزر الهند الغربية. وعندما شب أعجب أحد رجال الدين الأمريكان بملكاته العقلية. فأرسله إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن لونه منعه من أن يتعلم تعليماً عالياً كان يتوق إليه، لذا هاجر في سنة ١٨٥١م إلى ليبيريا. وتفاصيل المناصب التي تولاها حتى سنة ١٨٨٧م ذكرها صديقه سامويل لويس في ترجمته لسيرة بليدن عندما قدم لهذا الكتاب. ومن مناصبه الهامة الخطيرة منصب وزير التعليم الإسلامي في ليبيريا. مات سنة ١٩١٢م، وكان ممن يحاولون التوفيق بين المسيحية والإسلام، وقام برحلة إلى الشرق لدراسة اللغة العربية وجمع المخطوطات العربية (سنة ١٨٦٩م)، زار في رحلته مصر وسوريا، وكتب عدة مقالات عن الإسلام والمسيحية وهي حصيلته كتابه الأنف الذكر.

وأولاده من بعده من خلال تعاليم المسيحية دروسا تشعرهم بأنهم على الدوام عنصر منحط يعتمد على مرشديه من البيض. وغرست فيهم أن المسيحية هي التي منحتهم كل شيء، وأخرجتهم من الظلمات إلى النور، ومن التخلف إلى الرقي.

وبينما يشعر الإفريقي المسلم أن الإسلام لم يقطعه عن ماضيه ومجتمعه، نجد أن الاستعمار الأوروبي قد جعل المسيحي الإفريقي حائرا، فلا هو قريب من مجتمعه، ولا هو مقبول عند المستعمر الأوروبي لكي ينتسب إلى الحضارة الأوروبية، فحرمة المستعمر الثقافة المعقولة والحقوق الإنسانية المتاحة للمسيحي الأبيض، وذلك على عكس الإسلام الذي اعترف منذ فجر ظهوره في إفريقية بالمساواة التامة، وكفل للمسلمين جميع حقوقهم دون نظر إلى لون أو جنس.<sup>(١)</sup> ولا شك أن ما كان يلقاه السود الوثنيون من ترحيب المسلمين بدخولهم في الإسلام هو الذي كان يرغبهم في الانضمام إلى مجتمع ديني تتطلب حضارته التي تفوق حضارتهم أن يؤثروا التخلي عن كثير من عاداتهم وطبائعهم البربرية. وما يساعد على تفسير نجاح هذا الدين، أن مجرد الدخول في الإسلام يدل ضمنا على الترقى في الحضارة، وأنه خطوة متميزة في تقدم القبيلة الزنجية عقليا وماديا.<sup>(٢)</sup>

وما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أيضا أنه بينما نجد المبشرين المسيحيين لا يتزوجون من الزنجيات حتى لا يثيروا شعور أبناء جنسهم عليهم<sup>(٣)</sup>

---

(١) آرنولد، ص ٣٩٨، لوبون، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠٥، د. أحمد مختار: النشاط الثقافي في ليبيا منذ الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، ص ٥٠.

(٢) آرنولد، المكان نفسه.

(٣) ويذكر شلبي أنه قد حدث وأن تزوج منصر مسيحي كان يباشر عمله في إفريقية من إحدى الإفريقيات، ولكن هذا الزواج جعل المسيحيين البيض يفسطهدونه ولا يتعاملون معه، فاضطر إلى

نجد أن الدعاة المسلمين ينفذون إلى قلب إفريقية بسهولة إلى الوثنية، ويحولونها إلى الإسلام، ويتزوجون من الزنوجيات<sup>(١)</sup>، ويسرون مع أهل هذه البلاد على المبادئ القائمة على الإخاء والمساواة، لهذا لانعجب إذا نظر الزنوج إلى الإسلام على أنه دين السود وأن المسيحية دين البيض، كما مثل لذلك الدكتور بخيت. (٢)

وللإسلام موقفه المشهود في مجال الرق والتمييز العنصري مهما كانت الدعاوى المفرضة التي يروج لها أعداء الإسلام وينخدع لها السذج من أبناء المسلمين، من أن الإسلام يدعو للرق<sup>(٣)</sup>، وما ينبغي ذكره أن الاتجاهات الفكرية نحو الرق، كانت من أهم ما حجب أهل إفريقية في الإسلام، فإن البيض عندما اقتحموا إفريقية كانت تجارة الرقيق من أهم أهدافهم، فراحوا يختطفون الأطفال والشبان دون رحمة أو شفقة أو إنسانية، ويحشرونهم حشراً على ظهور البواخر ويتجهون بهم إلى أمريكا وأوروبا. ومن المعروف كذلك أن هؤلاء الإفريقيين

---

مغادرة إفريقية، وأغلب الظن أنه ترك زوجته هناك، وخوفاً من أن يتكرر عمل هذا القسيس لجأ البيض إلى اختيار القساوسة الذي يعملون بأفريقية من أتباع المذاهب التي لا تبيع الزواج للقساوسة، د. شليبي: مرجع سبق ذكره، ص ١٦، وانظر: أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ، ص ٤٥٢.

(١) انظر مثلاً: ص... من الكتاب، Blyden, op. cit. p. 20.

(٢) المجتمع العربي والإسلامي، ج ١، مرجع سبق ذكره، ص ٧٢، حيث يقول: «كتب ماركوس جارفي الذي كان يطلق على نفسه «رئيس جمهورية الزنوج»، وهو من فئة زنوج أمريكا الذين استعبدتهم الأمريكيون، فأرادوا نشر شعورهم في القارة الأفريقية بأكملها. ودعا جارفي إلى التحرر من المسيحية قائلاً: «إن دين البيض لم يوضع للزنوج. لا يمكن إكراه الإفريقيين على الاعتقاد بأنه أبيض ومسيح أبيض وملائكة بيض».

(٣) انظر مثلاً: محمد قطب: شبهات حول الإسلام، موضوع الإسلام والرق، الدكتور شليبي، سلسلة مقارنة الأديان، عن الإسلام، موضوع الرق في الإسلام، جون جيتز: داخل إفريقية، ص ٩٥، عبد الحميد الصاوي: الإسلام والمشكلات العنصرية، الدكتور فؤاد محمد الصقار: التفرقة العنصرية في إفريقية.

التعساء لم توجه إليهم أية عناية إنسانية أو صحية، مما جعل الكثيرين منهم يسقطون موتى في الطريق، وتلقى جثثهم طعاماً للأسماك، أما الذين وصلوا منهم إلى القارة الأمريكية فقد عرضوا في سوق النخاسة وبيعوا كما تباع الدواب.

أما الأفراد الذين أدت الظروف إلى أن يكونوا رقيقاً في أيدي المسلمين، فإن حياتهم تختلف عن حياة الذين وقعوا في أيدي الغرب. ويرجع الفرق إلى التربية الإسلامية التي تربي عليها المسلمون، فالسنة تحت منذ البداية بالآي يسمى العبد عبداً، بل يسمى فتى، والأنثى تسمى فتاة، وفي القرن الرابع الهجري (١٠م) اتخذ بعض الناس من قوله تعالى: «إنما المؤمنون إخوة» نقداً يوجهونه لمن يضرب عبده، وكذلك قال الشاعر:

إن كنت تطلب فضلاً      إذا ذكرت ومجداً  
فكن لعبدك خلاً      وكن لخلق عبداً<sup>(١)</sup>

وهذه هي الروح الإسلامية التي حيرت الكثيرين والمتصدين لظاهرة ذلك الانتشار السريع، تلك الروح الجديدة، التي قال عنها الدكتور بخيت<sup>(٢)</sup>:  
«... على أن هذا الانتشار لم يكن قاصراً على الدين الإسلامي أو اللسان العربي فقط، وإنما كان انتشاراً لروح جديدة، روح موقظة منبهة، في وقت كان العالم في حاجة للإيقاظ والتنبيه، وهذه الروح كان يحملها أول الأمر قوم دينهم الإسلام ولسانهم عربي، ثم ظاهروهم قوم آخرون من شتى الأجناس والألسنة... إنه من المستحيل أن نجد علة نفس بها هذه السرعة على وجه

---

(١) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص ٢٧٤.

(٢) المجتمع العربي والإسلامي، ج ٢ مرجع سبق ذكره، ص ١٧.



يرضي العقل المفكر الهادئ، إن لم نضع في حسابنا تلك المبادئ الحضارية التي قررتها شريعة الإسلام وطبقها في المجتمع من تصدوا للتبشير بعدلها وديمقراطيتها. تلك الروح التي عبر عنها الألوري<sup>(١)</sup> بقوله : «ولقد كان الإسلام ينتشر في ربوع إفريقيا الغربية بقوة الروحية، لا بالقوة المادية. وكانت النفوس تنجذب إليه بمغناطيسه الطبيعي، لا بدعاية الأموال والأسلحة، ولكل ذلك شواهد ناطقة تحت سماء هذه البلاد إلى يومنا هذا».

والإسلام كما ذكرنا دين فطرة ولهذا أثره في ذبوعه، ولم تخف هذه الحقيقة على من أخذوا يبحثون حتى من بين الغربيين، فجون جيتز<sup>(٢)</sup> يقرر أن الإسلام دين فطرة بطبيعته، سهل التناول، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، وسهل التكيف والتطبيق على مختلف الظروف، وأن وسائل الانتساب إليه أيسر، إذ لا يتطلب من المرء أكثر من النطق بالشهادتين لإعلان إسلامه. ويقرر الحقيقة نفسها لوبون<sup>(٣)</sup> وترمنجهام<sup>(٤)</sup> وآرنولد<sup>(٥)</sup>.

وقد تميز دخول العرب المسلمين إلى الأقاليم الإفريقية المختلفة في مستوياتها الحضارية بقيامه على أسس تتمشى مع أسس واجبات السلوك الإنساني، وكانوا في ذلك صورة مناقضة لما جاءت به المدنية الغربية، ومرجع ذلك إلى اختلاف الهدفين: فالعربي والمسلم كان يهدف لتحقيق مصلحته مع المحافظة على حق الإفريقي. أما الغربي فكان يريد تحقيق مصلحة ذاتية، يستخدم فيها الإفريقيين دون أن يعترف بحقوق لاتزيد على المحافظة على

---

(١) موجز تاريخ نيجيريا، ص ٣٦.

(٢) داخل إفريقيا، ج ١، مرجع سبق ذكره، ص ٩٤-٩٥.

(٣) حضارة العرب، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠٥.

(٤) The Influenc of Islam, op. cit, p. 42.

(٥) الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٥٢.



بقائهم على حياتهم البدائية. (١)

إن سرعة هذا النمو نتيجة طبيعية للفرق الواضح الذي لمسه الزنجي في حضارة الإسلام وروحها، وفي حضارة الغرب وروحها تلك الحضارة التي تحمل في طياتها العنصرية والاستعلاء ألى حلت، وتجعل من الإنسان الغربي سيد العالم، وأن كل ماعداء من الأجناس الأخرى في الدرجة الثانية، وأن الزنجي بالذات في درجة الحيوان.

هذه النظرة جعلت أحد أبناء القارة (٢) يصرخ في وجهها - وليت ذلك كان في القرون الوسطى، ولكنه في العصور الحديثة - معبرا عن استيائه قائلا: «إن التبرير النظري للإمبريالية يقوم على إنكار أية قدرة إنسانية للإفريقي الزنجي الذي تعتبر معاشرته مهينة، ولكي يبرهن المستعمر الأبيض على عرقته البشعة، فقد أوجد لدى الأمم الاستعمارية نوعا من الخوف من الزنوج، ولم يبرأ منه حتى الآن كثير من البيض، ولم يعرف التاريخ حتى أيامنا احتقارا مذهبيا للإنسان كهذا. إن هذه الأيدلوجية العرقية المعادية للزنوج، هذا المرض الذي لا يعجز الاستعماريون عن معالجته لشفاء مواطنيهم منه، هذا الاحتقار الدنيء للعلم الذي ولد مع المتاجرة في السود، وانتشر مع الاستعمار... إن الدول الاستعمارية والإمبريالية قد أخضعت كل شيء لإرادتها الرأسمالية الاستغلالية بغية جمع الثروات وتكديسها، فلم تكفهم الحصون التجارية، فأصبحوا بحاجة إلى «الزنوج التجاريين». وهكذا لم يكن عليهم إلا أن يقرروا بأن الزنجي ليس إنسانا ليتمكنوا من إقناع الناس بأن الاستعمار ليس استغلال الإنسان للإنسان، بل هو استغلال الإنسان للزنجي.

(١) الشاطر بصيلي عبد الجليل: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، ص ٣٠.

(٢) أحمد سيكوتوري: إفريقية والثورة (مترجم)، ص ص ١٨٩-١٩١، ٢٠٤.

«إن الزنجي مستعمر لأنه أهل لذلك. فهو لا يتمي إلى النوع الذي يتمي إليه البيض، ومن الراجح أنه لو كانت بنية الشعر عند الرجل الأسود أكثر نموا مما هي عند الرجل الأبيض بعكس ماهي عليه الحال، لقامت النظريات البيولوجية الطنانة لتثبت بصورة قاطعة أن الرجل الأسود مكانه عالم الحيوان بين الشمبانزي والجيون».

كما أن هناك علماء يتمون إلى الدول الاستعمارية ينفقون حياتهم العلمية وفي أيديهم مساطر طولها عشرون سنتيمترا ليقسوا بها جماجم السود والقردة، آمليين أن يثبتوا أن الزنوج والقردة هم أولاد عمومة.. (١)

ومن النصوص السابقة نرى كيف يسخر أبناء إفريقية من روح الحضارة الغربية، كما تعطينا تلك النصوص صورة صادقة لعلاقة الرجل الغربي المسيحي بالافريقيين.

وحتى في مجالات التعليم والثقافة والدين نجد الغربي يحاول تربية الإفريقي ليكون له عبدا، فاتخذ من هذه المجالات وسيلة وسلاحا من أسلحة الاستعمار التي لا تقتصر فقط على الاضطهاد والاستغلال المادي. ومن ذلك

---

(١) المكان نفسه.

في يوم الأربعاء ٢٠/٢/١٩٧٤م، وفي برنامج «هذا الصباح» الذي يقدمه سامي حداد من إذاعة لندن، الساعة السابعة والربع صباحاً بتوقيت القاهرة، استمعت إلى كلام حول آراء جنسن الأمريكي الذي يرى أن هناك تبليدا عقليا عند السود، أما السيدة «باراتوزان» إحدى العاملات في معهد لندن للتعليم، فقد أجرت اختبارات للأطفال البيض والسود في دار حضانة واحدة، وتوصلت إلى نتيجة هامة وهي أنهم يتساوون في الفرص لتنمية قدراتهم العقلية. وثبت أن البيئة هي التي تجعل الطفل ذكيا أو أقل ذكاء، وليس للون البشرة في ذلك أي أثر.

وهكذا فلو لم تكن هذه الفكرة - فكرة الفروق الذهنية بين السود والبيض - سائدة، لما كان هناك تجارب ومؤيدون ومعارضون، فالاستعمار كان يجد من يبرر له حكم السود لأنهم قاصرون ومتخلفو العقلية.

يذكر سيكوتوري<sup>(١)</sup> أنه في كتاب لمنصر مسيحي وضعه للسود، جاء فيه تحت عنوان (صلاة الصباح من أجل الأسياذ: «من كل قلبي يا إلهي أصلي من أجل سيدي، تفضل واقبل صلاتي، أتضرع إليك بأن تضيفي خيراتك على سيدي، وعلى جميع أفراد عائلته، وبارك كل ما يملك».

تلك كانت روح حضارتهم، قصدنا إبراز جزء منها لمعرفة الفروق بين الذي جاءت به الحضارة الإسلامية إلى أفريقية، وبين الذي جاءت به حضارة الغرب المسيحية.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٠٦، وعن النظام التعليمي الاستعماري وأغراضه، انظر المصدر نفسه، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

## المبحث الثالث





## ريادة المسلمين التجارية والجغرافية

لقد أتيح للمسلمين إبان عزتهم أن يحوزوا قصب السبق في ميدان الرحلات والكشوف والدراسات الجغرافية، فأفادت منهم أوربة في العصور الوسطى<sup>(١)</sup>. وقد اتسع نطاق تجارتهم اتساعاً لم يبلغه عند شعب آخر قبل كشف أمريكا، فانتشرت قوافلهم في الجزء الأعظم من العالم المعروف في ذلك الوقت، ومخرت سفنهم عباب البحار والمحيطات متجشمة كل الأخطار والأهوال، وأدى ذلك إلى أن تزدهر على أيديهم الطرق التجارية بين بحار الصين وآسيا الوسطى، وسواحل بحر البلطيق والأندلس. وشواطئ المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وساحل إفريقيا الشرقية، وجزر المحيط الهندي، وصحاري إفريقيا، حاملين السلع بين الأسواق المختلفة في العالم المتمدين وغير المتمدين. وحسبنا في هذا أن نشير إلى الكنوز الوافرة من النقود الإسلامية التي عثر عليها في روسيا والسويد وفنلندة والنرويج، بل وفي سويسرة وجزيرة أيسلندة وبريطانية. وعلى الرغم من أن المصادر تشير إلى وصولهم إلى جنوبي روسيا وأوربا الوسطى فقط، إلا أن وجود عملاتهم في المناطق الأخرى يدل على اتساع نفوذ عملاتهم<sup>(٢)</sup>.

وفي رحلة ابن بطوطة مثال يدل على اتساع مجال حركة التجار المسلمين. فبينما كان يقيم في سجلماسة، اكتشف أن مضيفه أخ لرجل التقى به

---

(١) د. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، مرجع سبق ذكره، المقدمة.

(٢) المرجع والمكان نفسهما.

من قبل سنين في الصين<sup>(١)</sup>. والتقى ابن بطوطة بعده شخصيات إسلامية في الصين وفي غربي إفريقيا<sup>(٢)</sup>.

وكان التجار المسلمون الذين يجوبون العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا مصدراً أساسيا وأصيلا للرحالة والجغرافيين الذين تعرضوا لتاريخ البلدان والشعوب المختلفة خلال تجولهم. فالإدريسي<sup>(٣)</sup> اعتمد في معلوماته على التجار والمسافرين. وفي هذا يقول: «ولقد أخبر بعض السفار الثقات، وكان قد تجول في بلاد السودان نحو من ٤٠ سنة..»، ويقول في موضع آخر: «وأخبر بعض الثقات من متجولي التجار في بلاد السودان أن بمدينة أودغشت..»<sup>(٤)</sup> واعتمد ابن سعيد<sup>(٥)</sup> أيضا على التجار في معلوماته، ونراه يذكر دائما عبارة «قال بعض الثقات من المسافرين» أو ما يشابهها. والمراكشي<sup>(٦)</sup> أيضا استقى معلوماته عن غربي إفريقيا من التجار، إذ يقول: «حدث بذلك من دخل بلادهم من التجار والثقات»، أو يقول: «حدث رجل ثقة ممن دخل تلك المدينة أنه رأى..»<sup>(٧)</sup> أو: «حدث رجل ثقة من المسافرين في ذلك الطريق أن قوما...»<sup>(٨)</sup> وهكذا.. وحتى الرحالة الذين وصلوا مثلا إلى غربي إفريقيا كانوا يستعينون بالتجار المقيمين هناك، لأن معرفة هؤلاء بالبلاد تكون أصيلة

---

(١) رحلة ابن بطوطة، مصدر سبق ذكره، ص ٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٤.

(٣) المغرب وأرض السودان، مصدر سبق ذكره، ص ١٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٥) بسط الأرض، مصدر سبق ذكره، ص ٤١.

(٦) الإمتصار، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢١.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٣.

وبالممارسة والمعايشة، وخير مثال لذلك أن ليو الإفريقي<sup>(١)</sup> عندما زار برنو التقى ببعض التجار هناك، وأفادوه في بعض المعلومات عن عادات البلاد وتقاليدها. وهكذا تتضح أهمية التجار حتى ولو كان الرحالة في نفس المنطقة التي هم فيها.

ومما يشجع على تلك الأسفار أن الإسلام يحث على السفر بتخفيف بعض الواجبات الدينية على المسافرين مثل قصر الصلاة وترك الصوم وإباحة تعدد الزوجات. فكان بعضهم يتزوج في البلاد التي يحل بها أو يتردد عليها في أسفاره.<sup>(٢)</sup>

ويلقى المسافر ترحابا ومساعدة أينما حل عبر طول العالم الإسلامي وعرضه، ويتنظره طيب المعشر والترحاب في وسط المجتمعات الإسلامية على أرض الكفار.<sup>(٣)</sup>

ويوجه لوبون النصيح إلى السياح المعاصرين الذين يرغبون في دراسة شؤون إفريقية درسا مفصلا من غير أن يرهقوا ميزانية دولهم بأن يحذوا حذو العرب في ارتيادهم، ويذكرهم بأن العرب بلغوا في ارتيادهم إفريقية بقاعا مهمة، منها مدن لم يوفق الأوروبيون المعاصرون لزيارتها كمدينة تنبكت. لقد جذبت التجارة الكثير من المسلمين والعرب إلى السفر، فوصلوا حتى غربي إفريقية، وقبل وصول المسلمين والعرب لم يكن يعرف شيء عن إفريقية جنوبي الصحراء، وفي ذلك يقول بوفل<sup>(٤)</sup>: ونحن بالفعل مدينون بكل

---

(١) The History and Description of Af. Vol. 111, p. 833.

(٢) انظر مثلا: رحلة ابن بطوطة، ص ٣٨٣.

(٣) مثلا: المصدر نفسه، ص ١٦٩، ١٤٥، ٦٥١، إلخ.

(٤) The Caravans of the Old Sahara, op. cit, p. 33.

معلوماتنا عن التاريخ المبكر للداخل إفريقية لمجموعة صغيرة من الكتاب العرب.. وأن مديونيتنا لهؤلاء العلماء عظيمة للدرجة التي لا يمكن إغفال الإشارة إليهم..».

وفي ميدان الجغرافية كان إسهام العرب والمسلمين عظيماً.<sup>(١)</sup> فالجغرافية علم موروث منذ الجاهلية، إذ كانوا أعرف الناس ببلادهم، وانعكس ذلك على أدبهم وثقافتهم. فقد تكلموا على طبيعة البلاد وصفاتها والعديد من حيواناتها ونباتها وطرقها ومسالك الماء ومواضعه فيها، ومضارب قبائلها وعمائرها وخرابها ومدنها وقراها، إلى غير ذلك من المظاهر. وكانت لهم إلى جانب ذلك كله معتقداتهم الخاصة في الخلق والخليقة والعالم والأرض والسماء، تكللها ماتواتر إليهم من معتقدات دينية جاءت في التوراة والإنجيل، وما نقله التجار والحكماء منهم عن بلاد غير بلادهم، وما تسرب إليهم من أقوال الإغريق والرومان والفرس والهنود في الفلك والجغرافية والنبهات منهم كانوا يطلبون العلم والثروة خارج بلادهم. فنحن نسمع عن عرب قدماء تعلموا في مدارس رومانية وفارسية وهندية، فحارث بن كلدة الذي ولد بالطائف قبل مولد الرسول عليه السلام ببضع سنين درس الطب في مدرسة «جنديسابور»، ومنها سافر إلى الهند، ومن ثم انتقل إلى صنعاء، حيث قام بتدريس الطب في مدرستها المعروفة في ذلك الحين.<sup>(٢)</sup>

وبيزوغ فجر الإسلام وقوة شوكته تحولت شبه الجزيرة العربية إلى ميدان حركة، فانتسعت رقعة الإسلام في مدى ثمانين عاماً بعد وفاة الرسول عليه

---

(١) Ibid. p. 33، انظر: م. م. شريف: الفكر الإسلامي منابعه وآثاره، ترجمة وتعليق الدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص ٦٢ - ٦٤.

(٢) الدكتور عبدالفتاح وهبة: جغرافية العرب في العصور الوسطى، ص ٤٣.

السلام كما لم تتسع دولة من قبل.<sup>(١)</sup> وعظم في ظل هذه الدولة مكان التجار المسلمين، فامتد نشاطهم التجاري إلى مناطق بعيدة، فحملوا الأخبار عن البلاد الأجنبية، ومنهم من دَوّن مشاهداته، ولم تخل مشاهداتهم من التأمل العلمي والطرائف المفيدة.

وكان الحج من أكبر بواعث السفر ومن ثم لدراسة الجغرافية. فالحجاج المسلمون يأتون من كل فج عميق، ويلتقون في الأراضي المقدسة، فيتبادلون المعلومات عن بلادهم، ويعد ذلك مصدرا هاما من مصادر الجغرافية والتاريخ. والخلاصة، أن ارتياد المسلمين والعرب أماكن بعيدة عن الجزيرة العربية أدى خدمة كبرى في حَمَلِ الإسلام إلى هذه الأماكن البعيدة.

---

(١) انظر: وهبة، المرجع نفسه، ص ٤٣ - ٤٤.





## المبحث الرابع



## المعتقدات الروحية في إفريقية

إن الاعتقاد بوجود قوة غيبية عليا لم يكن غريبا عن الإفريقي. وقد زاد هذا الاعتقاد من تيسير جهود الداعية المسلم في الوصول إلى قلوبهم. فالاعتقاد بوجود الله مع إنكار الوحي والأديان، هو أساس الشعور الديني عند كثير من عبدة الأوثان، ولكن يمكن أن يتحول هذا بسهولة إلى عقيدة التوحيد الإسلامية، لإيمانهم بجزء من الرسالة، وكذلك الحال في بعض نواح أخرى من فلسفتهم الدينية، وهكذا نجد أن نظرتهم العامة إلى الحياة وكثيرا من طقوسهم الروحية يمكن أن تصبح شعائر إسلامية، وأن تتحول إلى نظام الدين الجديد دون إجراء تغيير كبير. (١)

والظاهرة التي يلحظها الباحثون في تاريخ إنتشار الإسلام في هذه القارة هي استعانة الوثنيين بالتعاون الإسلامي مع تعاويذهم الوثنية، والالتجاء إلى شيوخ المسلمين وزيارتهم، بالإضافة إلى كهنتهم الوثنيين. (٢)

والظاهرة الثانية تتمثل، لافي مجرد تقليد الرقى الإسلامية، وإنما في تقليد الصلوات الإسلامية وحضور الجنائز الإسلامية والاحتفال بالأعياد الإسلامية. (٣)

---

(١) انظر: البيانات في إفريقية السوداء، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٨.  
Trimingham, Islam in w. A., op. cit. p.6.

محمد عبدالفتاح إبراهيم: إفريقية حديث في الطوايع الثقافية الإفريقية، ص ١٦٠، إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ص ٥٣-٥٤ الدكتور عبدالعزيز كامل: العروبة والحضارات الإفريقية في منظور جديد، ص ١٠.

(٢) انظر، الدكتور عبدالعزيز كامل، المرجع نفسه، ص ص ٩-١١، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، المرجع السابق، ص ٥٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٥.

وليس غريباً أيضاً أن نجد الزوج المسلمين يحلون تقديس القرآن محل تقديس وثنهم القديم، كما نجد أيضاً تشابهاً في الاعتقاد بأثر السحر في معاقبة الحائث يمينه وشاهد الزور. وكذلك نجد لصلاة الاستسقاء عند المسلمين نظيراً عند الوثنيين، فهم يصلون من أجل إلههم الكبير الذي يعلو على أوثانهم. ولا زال بعض المسلمين هناك يعتقدون في قدرة الكهنة الوثنيين على التحكم في المطر وتغيير بعض الظواهر الطبيعية. (١)

كل هذه العوامل مجتمعة حول طبيعة تغلغل الإسلام في غربي إفريقيا، مهدت لقيام دول إسلامية سادت غربي إفريقيا منذ فجر الإسلام في إفريقيا إلى يومنا هذا.

وفيما يلي نبذة عن هذه الدول الإسلامية الكبرى التي قامت بغربي إفريقيا. ويلي ذلك دراسة للحركة التعليمية في ظل هذه الدول.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥٦.



## الفصل الثالث

الآثار الحضارية لتغلغل الإسلام

في غربي إفريقيا



## المبحث الأول



## قيام دولة غانا الإسلامية

### تمهيد عن المنطقة عامة :

لقد كانت النتيجة الحتمية لتلك العلاقات التجارية وتعدد وسائل الدعوة الإسلامية وطرقها في شمالي وغربي إفريقيا أن دخلت الحضارة الإسلامية بكامل مقوماتها في هذا الجزء من العالم، مرتبطة بالتجارة وما يصحبها من أمور في المقام الأول.

وسنعرض هنا للنتائج السياسية والدينية التي ترتبت عليها تلك العلاقة، وهي قيام دول إسلامية جنوب الصحراء الكبرى فيما عرف عند الكتاب العرب بـ«بلاد السودان». وقد وصلت تلك الدول في مرحلة من مراحل تطورها إلى درجة أقامها البوطيون الإفريقيون، وكان عمادها - زمن ازدهارها وقوتها - الدين الإسلامي عقيدة، واللغة العربية أدواتها في الإدارة والثقافة والتجارة. وتنطبق أوصاف العرب لبلاد السودان على بلاد غربي إفريقيا بصفة خاصة، وهي الممتدة جغرافيا من المحيط الأطلسي غربا إلى بحيرة تشاد شرقا، والتي اصطلح كتاب أوربا في العصور الوسطى على نعتها باسم بلاد نيجرتيا Nigritia، نسبة إلى نهر النيجر، كما سبق أن ذكرنا.

ولهذه الدول أصول وثنية، غير أنها بلغت الذروة والقوة في عهدها الإسلامي، وقامت علاقات قوية ومتنوعة بين هذه الدول والبلاد الإسلامية الأخرى المعاصرة لها في المشرق والمغرب الإسلاميين، وهي علاقات، كما رأينا، قديمة، لكنها ازدادت بانتشار الإسلام في غربي إفريقيا، بحيث سادت التقاليد والعادات الشرقية الإسلامية، كما استقر عدد كبير من العرب والبربر المسلمين بتلك الجهات واختلطوا بالوطنين.



وكانت غانا أقدم الدول التي قامت بغربي إفريقيا، ثم تلتها مالي ومن بعدها سنغي، كما وجدت دولة التكاررة في العصور الوسطى، وبعثت مرة أخرى في العصور الحديثة - القرن التاسع عشر - وكان لها دور كبير في كفاح الاستعمار الفرنسي، كما بعثت مالي أيضا في القرن نفسه ممثلة بمملكة ساموري التوري، جد أحمد سيكوتوري، كذلك قامت دولة بورنو التي قامت أولا في كانم، دولة الفولانيين أو الفلاتا في العصور الحديثة ببلاد الهوسا، وزالت على يد الاستعمار الأوربي، ثم ظهرت حاليا باسم نيجيريا، وكان للفولانيين دولة في العصور الوسطى نواتها ماسنة عند النيجر الأوسط. (١)

ويرجح باسيل دافيدسون (٢) أهمية الحديد والتجارة في قيام هذه الدول وقوتها لاسيما غانا، فيذكر أن الحديد قد أثبت في كل مكان من العالم القديم أنه قد كان له تأثير قوي مكن من بناء مجتمعات جديدة أكثر تعقيدا. . والأمر في هذا الصدد لم يكن مختلفا بالنسبة لإفريقية، فمنذ عرفت صناعة الحديد في إفريقيا، أمكن الحصول عليه بسهولة أكثر من النحاس أو البرونز، وكان أكثر قيمة من ناحية استخدامه وتصنيعه. . ولهذا السبب قامت شعوب «غانا» كما يشير الزهري بحملات ضد جيرانها في وقت ما بعد سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م، ذلك أن الشعوب الأخرى لم تكن تعرف صناعة الحديد. وكانت تحارب بقضبان من الأبنوس، على حين كان أبناء «غانا» يحاربون بسيف ورمح

---

(١) انظر: الدكتور إبراهيم علي طرخان: دولة غانة الإسلامية القاهرة ١٩٧٠م. الناشر: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص ٧ - ٨.

(٢) باسيل دافيدسون: إفريقيا القديمة تكتشف من جديد (ترجمة نبيل بدر وسعد زغلول) القاهرة، لم تذكر سنة الطبع، الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر، ص ٤١-٤٢.

حديدية، وبهذا يعد قيام الدول بالسودان الغربي نتيجة للتفوق في استخدام الحديد. وإذا كانت هذه الدول بصورتها المنظمة لم تبرز إلى الوجود حتى القرن (٢هـ / ٨م)، فإن بدايتها ولاشك كانت بداية انتشار الحديد وصناعته في هذه المناطق قبل ظهور المسيح عليه الصلاة والسلام لثلاثمئة سنة على الأقل. . . وقد صاحب هذه التطورات تأثير آخر لا يقل أهمية عن انتشار صناعة الحديد. . . ألا وهو تأثير التجارة على نطاق عالمي بين هذه المناطق وأجزاء كثيرة من العالم المعروف آنذاك. . . وذلك لأن امتلاك هذه الدول للحديد قد مكنها من الغزو والانتصار. . . أما التجارة فقد أتاح لها بناء مجتمع غني. . . حيث إن هذه الدول كانت تسيطر على طرق تجارة الذهب من قلب إفريقيا إلى الأجزاء الشمالية منها. . . وقد ازدهرت في هذه المدن التجارية التي كانت تتجر في كثير من السلع مع وسطاء في الصحراء. . . كانوا يبيعونها بدورهم إلى دول البحر الأبيض المتوسط وأوروبا. . . وكان أبناء هذه الدول الإفريقية يشترون من هذه الدول بضائع أوروبا والبحر الأبيض المتوسط. وكانت تجارة الذهب هذه هي التي شيدت قوة غانا ودولة الماندينجو.

ترجع المعلومات الأساسية عن تاريخ دولة غانا وغيرها من الدول التي قامت في السودان الغربي والأوسط إلى ما كتبه العرب المسلمون من الرحالة والجغرافيين والمؤرخين، ومن هؤلاء من زار بلاد السودان مثل ابن حوقل في القرن العاشر الميلادي، وابن بطوطة في القرن الرابع عشر، ومنهم من سمع عنها وبحث واستقصى ودون، مثل البكري في القرن الحادي عشر، وابن خلدون في القرن (٤هـ / ١٠م)، وربما كان ما كتبه البكري عن غانا بصفة خاصة، من أدق وأحسن ما كتب عنها وعن أصولها، مع أنه لم يزر بلاد السودان، بل دون كتابه «المسالك والممالك» في قرطبة، حيث كانت وثائق وسجلات حكام

الأندلس من بني أمية تحت تصرفه، وهذا فضلا عن الروايات والأخبار المتواترة المشهورة، وهي التي أذاعها التجار والرحالة والمغامرون والحجاج.<sup>(١)</sup>

ومن أمهات المصادر العربية عن تاريخ بلاد السودان، ماكتبه حسن بن محمد الوزان المتوفى حوالي سنة ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م، وهو الذي اشتهر باسم ليو الإفريقي، وما كتبه القاضي الفع محمود كعت، أو كما قلنا ابن المختار في القرن (١٠هـ / ١٦م)، والسعدي، وابن صود في القرن (١١هـ / ١٧م)، والثلاثة الآخرون من أبناء بلاد السودان، كتبوا تواريخهم باللغة العربية، لغة الثقافة والدين والحكومة والتجارة إبان تلك الحقيقة القومية من تاريخ هذه البلاد. وهناك ماكتبه أحمد بابا التنبكتي، وكان مصدراً للسعدي وغيره ممن نقل عنه من الكتاب المسلمين وغير المسلمين.

ولقد كانت عناصر الارتباط بين الشمال الإفريقي وبلاد السودان، هي التي أمدت هؤلاء الكتاب المسلمين بالمعارف الأصيلة عن تلك البلاد، وجعلتهم المصدر الأول للحديث والكتابة في تاريخ بلاد السودان، مما جعل الأوربيين يستقون معارفهم من هذا التراث العربي الإسلامي، الذي كان الينوع الرئيس لمدرسة الخرائط التي قامت بجزيرة ميورقة في العصور الوسطى<sup>(٢)</sup>، فقد اعتمد علماء تلك المدرسة على المعلومات والأوصاف التي دونها كتاب العرب عن بلاد السودان، أمثال البيروتي والبكري وابن سعيد والإدريسي وغيرهم، وذلك

---

(١) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص ٩.

(٢) الدكتور طرخان، المرجع نفسه، جاء في ص ١١ أن هذه المدرسة التي قامت في جزيرة ميورقة كان ذلك بعد أن أطاح المسيحيون في مطلع القرن الثالث عشر بالسيادة الإسلامية التي أقامها المرابطون في تلك الجزيرة وغيرها، والفضل في إقامتها يرجع بعد الله ثم إلى إبراهيم كرسك، الذي كان يعمل منجما أو فلكيا في بلاط أراغونة، وبرز في هذه المدرسة عدد من العلماء من آل كرسك وغيرهم، مثل يافودا كرسك وفيلادست وجبرائيل نالسكا، وسوليري روسيلي وأوليفيا وغيرهم.

فيما أصدره من خرائط عن العالم. (١)

أما الكشف الأثرية الحديثة، فقد ألفت الكثير من الضوء على التاريخ القومي لتلك الدول، ومما يؤكد أصالة المصادر العربية ودقة معلوماتها أن الآثار التي تم الكشف عنها في غانا مثلا، جاءت مطابقة لأوصاف المؤرخين العرب مما أدهش المكتشفين أنفسهم. (٢)

### المطلب الأول : التطور التاريخي لقيام دولة غانا

إن تاريخ دولة غانا هو أول حلقات التاريخ القومي لغربي إفريقيا، فهي أول دولة قامت بالسودان الغربي، ولعلها أول تجربة أو أقدم ما عرف من تجارب الحكم الوطني الناجح بتلك البلاد، وقد دل ازدهارها وبقاؤها إلى القرن الثالث عشر الميلادي على قدرة الإفريقيين على تدبير شؤونهم بأنفسهم، وهذا ما حمل القلة من الكتاب الغربيين المنصفين على أن تقرر بأن حضارة هذه البلاد في العصور الوسطى لم تكن دون حضارة البيض، بل فاقت حضارة بعض البلاد الأوروبية. (٣)

وفضلا عن أهمية قيام دولة «غانا» في السودان الغربي بالنسبة للتاريخ القومي الإفريقي، فإن سقوطها لم يقل أهمية في تاريخ غربي إفريقيا، من حيث ازدياد إنتشار الإسلام وحضارته، وقيام نظم أقوى وأعظم بتلك الأرجاء بفضل الإسلام الذي لم يقف عند حد غانا بل تعداه إلى فرع آخر من العرق الذي أسس دولة غانا، وهي مالي، وذلك حين ضعفت الوثنية أمام الحماس الديني الغاني مما أفسح المجال لقيام دولة مالي لتؤدي دورها في تاريخ الحضارة

---

(١) المرجع نفسه، ص ١١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣.

الإسلامية، وتكون امتداداً لدولة غانا الإسلامية.<sup>(١)</sup>

بلغت دولة غانا ذروة مجدها وعظمتها من حوالي القرن التاسع الميلادي إلى منتصف القرن الحادي عشر، وهي أقدم دولة عرفت في غربي إفريقيا كما قلنا. ومعنى كلمة غانا في لغة السوننكي: «القيادة العسكرية»، ومن هنا أطلقت هذه الكلمة على المدينة التي كانت بها هذه القيادة<sup>(٢)</sup>. ويرى البكري<sup>(٣)</sup> أن كلمة غانا كانت سمة للوكنهم، ربما لأنها تحمل معنى «القائد العسكري» ثم اتسع مدلول الكلمة فأطلقت على العاصمة التي يعيش فيها الملوك، ثم الدولة. واتسع مدلولها مرة أخرى فصارت علماً على المملكة كلها مع بقائها علماً على العاصمة.

ويقول جولي Gouilly عن مدينة «والاتا» - الواردة في رحلة ابن بطوطة باسم «إبولاتن» - أنها ليست سوى تحريف لكلمة «غانا» كما ينطقها السود<sup>(٤)</sup>. والمعروف أن مدينة «والاتا» أنشأها المسلمون الجافلون من أهل غانا، على أثر هجوم الصوصو عليهم سنة (١٢٠٣ م).<sup>(٥)</sup> والملاحظ أن هذه التسمية ليست لها أصول عربية. يقول البكري<sup>(٦)</sup>: «وغانا سمة للوكنهم واسم البلد أوكار» ويقول ياقوت<sup>(٧)</sup>: «كلمة أعجمية لا أعرف لها مشاركا في العربية».

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٤.

(٢) الدكتور أحمد شلبي: مرجع سبق ذكره، ص ١٢، ومرجعه نعيم قداح: «إفريقية الغربية في ظل الإسلام»، ص ٢٢٨.

(٣) أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب - وهو جزء من كتاب المسالك والممالك. ص ١٧٤.

(٤) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص ١٦.

(٥) Bovill: The Golden Trade; op. cit., p.85.

(٦) البكري، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٤.

(٧) ياقوت الحموي: كتاب معجم البلدان، المجلد السادس، القاهرة ١٩٠٦ م الناشر: مطبعة السعادة، ص ٢٦٢.



وتقع غانا القديمة جنوبي موريتانيا الحالية، وكانت عاصمتها تسمى «كومبي» وقد عثر الفرنسيون على أطلال مدينة بالقرب من كومبي صالح، يعتقد أنها (كومبي) عاصمة غانا القديمة، وتقع كومبي صالح على بعد حوالي مائتي ميل شمال باماكو، ويبدو أن الأساطير المحلية تربط ما بين كومبي صالح وغانا، والخرائب التي عثر عليها في كومبي ذات أهمية كبيرة، وتعبّر عن فن معماري على جانب كبير من الإتقان، وكل هذا يجعلنا نعتقد في أن هذا بالعواصم أشبه. (١)

وقد بدأ ظهور دولة غانا في القرن الأول الميلادي، وكان ظهورها على يد جماعة من البيض وفدوا من الشمال، كانوا أكثر ثقافة من المواطنين الأصليين الذين ينتمون إلى قبائل السوننكي، ولكن الفقيه ابن المختار لا يقطع في ذلك برأي كما يقول الدكتور شلبي (٢)، ولكنه يرجح أنهم من الصنهاجة، وحدد السعدي أنهم من البيضان، مع عدم الاستطاعة على الرجوع بنسبهم إلى أي طائفة من البيض. وتعددت الآراء في نسبتهم (٣)، ونحن نميل مع الدكتور شلبي (٤) إلى

---

(١) الدكتور شلبي، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٣.

(٣) انظر طرخان: دولة غانا الإسلامية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢-٢٣ حيث يقول: (والمحقق أن حكام غانا الأول من البيض، يقول السعدي: «وهم بيضان في الأصل» غير أن الشك يدور حول أصولهم الغامضة، هل هم من اليهود أم من البربر، ويقول السعدي: ص ٩ «ولا نعلم أصلهم... والراجع أنهم من البربر، الذين اختلطوا بالزنوج، وصلة قبائل البربر ببلاد السودان قديمة، ثم إن أهل غانا أنفسهم يقولون إن أسرة بربرية كانت تحكم في بلادهم منذ زمن بعيد، ويقول «بومان» بأن مؤسس حكومة غانا الأول هم: البيض الأفريقيون من الفولانيين أو من البربر الليبيين، ويقول ابن المختار: واختلف أي قبيلة هم كانوا منها، قيل من الصنهاجة وهو أقرب عندي لأنهم يقولون في نسبهم أسكع «وهو حم في اصطلاح سودان لقبا... والخلاصة أن حكومة غانا الأولى من البيض، والراجع أنها من البربر، ولها أصول شرقية).

(٤) الدكتور شلبي: مرجع سبق ذكره، ص ١٠٣، انظر الدكتور حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص ٩٤-٩٧.

ماقاله «فيج» في كتابه تاريخ إفريقيا - ص ١٤ - من أن هذه الدولة قامت امتدادا لقوى مجاورة، وأن الذين وفدوا إليها وأعانوا على قيامها سرعان ما امتزجوا بالسكان الأصليين، واتضح ظهور هذه الدولة للتاريخ في القرن الثالث الميلادي، فقد نشطت التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها، أو كما ذكرنا بين البربر وسكان الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط من جهة والزنوج الذين يعيشون جنوب الصحراء من جهة أخرى.

ويذكر الدكتور حسن إبراهيم حسن<sup>(١)</sup> في سياق حديثه عن الدول الإسلامية التي قامت في غربي إفريقيا: أن هذه الدول هي قبائل غازية جاءت من الشمال، أو شعوب زنجية أو شبه زنجية أخذت عن هذه القبائل أسلحتها ونظمها الحربية عن طريق اتصال مستمر خلال الطرق الصحراوية، وأنه إلى الغرب من انحناء نهر النيجر جاءت التأثيرات البيضاء حتى ساعدت على قيام هذه الدول من المغرب والجزائر، على حين أن التأثيرات التي جاءت إلى المنطقة الواقعة بين النيجر وبحيرة تشاد جاءت من برقة ومصر، وأن القبائل الإفريقية التي كانت تقيم على حافة الصحراء وتشتغل بالتجارة أو الرعي استطاعت أن تظهر باستقلالها الذاتي، وتضع لنفسها أسسا اجتماعية وعسكرية سليمة، وكانت إدارة هذه الدول الواسعة تتوقف على بقاء القوة الحربية، إذ يستطيع الزعيم أن يتغلب على صعوبة المواصلات، وأن يكسب دولته لونا من ألوان الوحدة السياسية والاجتماعية، وأن أكبر هذه الدول كانت غانا، التي تختلف كثيرا عن غيرها من الدول السودانية، لأن السبب في تكوينها لم يكن سببا عسكريا، ولذلك بقيت زمنا طويلا، ويرجع السبب في قيامها إلى أنه

---

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ٩٤-٩٧، بتصرف.

حول القرن الثاني الميلادي خرجت جماعة من سكان إفريقية واستقر بها المقام بين شعوب الماندي الزنجية، وخصوصا بين شعوب السوننكي.

والدكتور حسن إبراهيم لا يختلف مع الدكتور شلبي وغيره ممن نقل عنهم هؤلاء، وهو أنه لا يعرف أصل هؤلاء المغاربة على التحقيق، ولكن يبدو أنهم تسربوا إلى هذه البلاد تسربا سلميا، ولم يغزوها غزوا، وفي القرن الرابع الميلادي حكم هؤلاء المهاجرون زنوج هذه المناطق وكونوا أسرة حاكمة ظلت تحكم في مدينة «أوكور» حتى نهاية القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي). وقد سقطت هذه الأسرة سنة ١٥٤هـ / ٧٧٠م حين ثار عليهم حكام السوننكي، وظلوا يحكمون غانا حتى سقطت دولتهم في سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م، وأنه سواء أكان لتلك الأسرة البيضاء وجود أم لم يكن، فالواضح تماما أن شكلا من التنظيم الحكومي والمركزية التجارية أصبح لازما حين بدأ فلاحو الماندي يتجرون مع قوافل الإبل، فيتبادلون بالملح الذهب. وبين القرنين الثاني والخامس، وبمرور الزمن، ومع حركة القوافل دخلت المبادئ الإسلامية والحضارة الإسلامية حتى صبغت هذه الدولة بالسمة الإسلامية البارزة التي كتب عنها البكري في حديثه عن مدينة المسلمين في غانا.

ويبدو أن الأسباب الحقيقية وراء تسرب البيضان حتى كثر عددهم وكونوا دولة هو أنهم كانوا يعرفون مافي هذه المنطقة من ثراء، وكانوا أوعى من سكان الجنوب<sup>(١)</sup>، كما كانوا يحملون أسلحة لم يعرفها السكان الأصليون، فاستطاعوا

---

(١) انظر: المقرئزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة ١٨٩٥م الناشر: مطبعة التأليف بمصر، ص ٢١، فيه يوضح المقرئزي الحالة التي كان عليها أهل البلاد في قوله: «قال ابن سعيد مامعناه: إننا إذا ابتدأنا في بلاد السودان من الغرب فأول ما نجد فيه من المدن التي للسودان العراة المهملين الذين هم كالبهائم...».

فرض أنفسهم عن طريق الامتزاج، حتى جاء اليوم الذي ذابت فيه الأقلية البربرية في الأكثرية الزنجية، ونشأ جيل يتسب إلى السوننكي، وله دربة البربر ومهارتهم، بل لونهم أو شيء منه في كثير من الأحيان، وكما ذكرنا فقد استطاع هذا الجيل أن يستولى على زمام الحكم في غانا سنة ١٥٤هـ / ٧٧٠م.<sup>(١)</sup> ويبدو أن سلطة ملوك غانا من السوننكي كانت أقوى من سلطة من سبقهم، فقد أخذوا يوسعون رقعة بلادهم حتى بلغت أوج عزها في مستهل القرن الحادي عشر الميلادي، حتى صار يشمل المساحات الممتدة بين أعالي نهر السنغال وأعالي نهر النيجر.

وقد جاءت عظمة غانا عن طريق استغلالها واشتغالها بالتجارة وموقعها عند أطراف الصحراء الكبرى، وكان التجار البيض المستقرون يستطيعون التحكم في التجارة السودانية من الذهب والرقيق، وأن يستبدلوا السلع التي تحملها القوافل من المغرب الأقصى<sup>(٢)</sup>، وأن ملوكها قد بلغوا من القوة والثراء بحيث صاروا يلقبون بملوك الذهب، كما صارت بلادهم تعرف بأرض الذهب، وماتزال حتى اليوم تحتل الصدارة في إنتاج الذهب.<sup>(٣)</sup>

وربما كانت تجارة الذهب مع غانا قد استقرت تماما قبل مجيء العرب إلى حد أن حاستهم التجارية الحادة التي عملت كثيرا على تطويرها لا يمكن الشك فيها أكثر مما تستطيعه الرغبة القوية الكامنة في صدورهم، ففي وقت ما بين سنتي (١١٦ و ١٣٣هـ / ٧٣٤ و ٧٥٠م)، في مدى بضعة عقود من احتلالهم لمراكش، أرسلوا حملة عبر الصحراء لمهاجمة غانا، وكانت محاولة أكثر خطورة

(١) الدكتور شلبي: مرجع سبق ذكره، ص ١٠٥.

(٢) Fage, J.D.: An Introduction To the History of West Africa (Cambridge 1959) p. 143.

(٣) Harisson Church, R.J.: West Africa: op. cit.,



من الحملة التي قادها سبتيموس فلاكوس ويوليوس ماترنوس عن طريق فزان، الذي هو أكثر سهولة من الطريق الآخر، وكان كشف الذهب الذي يسيل إلى مراكش والاستيلاء على مصدره الهدف الذي لاشك فيه لمثل هذه المحاولة الطامعة. (١)

كنّا ذكرنا في الفصل السابق أشياء كثيرة عن أسرار التجارة، وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن نقول: إن طبيعة الحياة العربية والبربرية قد مكنتهم من أن يكونوا سادة هذه التجارة عبر الصحراء، وبذلك نراهم يتفردون بهذه الميزة، ويتكاثرون لوجود الربح في مثل هذه التجارة الشاقة، والنظرية الاقتصادية عند ابن خلدون<sup>(٢)</sup> تؤيد ذلك حين يقول: «... وكذلك نقل السلع من البلد البعيد لمسافة أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحا وأكفل بحوالة الأسواق، لأن السلعة المنقولة حيثئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الضرر في طريقها، فيقل حاملوها ويعز وجودها، وإذا قلت وعزت غلت أثمانها، وأما إذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالأمن فانه حيثئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص أثمانها...».

وكانت صلات غانا التجارية مع العالم الخارجي من الأهمية بمكان، ويرجع ذلك إلى توسط موقعها، فقد كانت تشغل رقعة الأرض التي تقع عند الطرف الجنوبي لطريق القوافل الغربية عبر الصحراء الكبرى التي امتدت بين سجلماسة في بلاد المغرب مارة بتغازة التي اشتهرت بمناجم الملح كما ذكرنا.

---

(١) الدكتور زاهر رياض: الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء، القاهرة ١٩٦٨م الناشر: مكتبة الانجلو المصرية، ص ٩٣.

(٢) ابن خلدون: العبر، المجلد الأول، القسم الثالث، بيروت ١٩٥٦م، الناشر: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ص ٧١٥ - ٧١٦.



وكانت غانا تستورد القماش والمنسوجات الحريرية والنحاس والملح،  
وتصدر تراب الذهب وربما الجلود أيضا، وفي هذا يقول ابن الوردي<sup>(١)</sup>:  
«... في أقصى جنوب المغرب يسافر التجار من سجلماسة إلى غانا...  
ويحملون في سفرهم الماء في مفازة اثني عشر يوما، ويجلبون إليها التين والملح  
والنحاس والودع، ولا يجلبون منها إلا الذهب العين».

ولم يكن معظم ذهب غانا يعثر عليه فيها، لكن كانت منطقة بلاد  
«ونغارا» أهم المصادر التي أمدتها به، وكان شعب الونغارا يقطن بقعة فسيحة  
امتدت ثلاثمئة ميل طولا وخمسين عرضا في جنوب منطقة نهر السنغال،  
وليس من اليسير أن تعرف بالدقة موقع الذهب في ديار ونغارا<sup>(٢)</sup> ولا يفهم من  
عبارة ابن الفقيه<sup>(٣)</sup>: «وبلاد غانا ينبت فيها الذهب نباتا في الرمل كما ينبت الجزر،  
ويقطف عند بزوغ الشمس» إلا على ضوء ما أثبتته الدراسات بأن هذا المكان  
لا يدخل في نطاق دولة غانا السياسي، بل لها السيطرة في التنظيم والمعاملة.

إذن فقد كان السبب في ازدهار هذه الدولة وبقائها أكبر مدة ممكنة دون  
غيرها من تلك الدول الإفريقية التي كانت تلمع ثم تنطفئ... أنها قامت على  
أسس اقتصادية سليمة، فقد وضعت يدها على شبكة تجارية كبيرة، وعرفت  
استخدام الحديد، والاستفادة منه، وعرفت كيف تتحكم في مصادر الملح  
وتصريفه إلى الجنوب، كما عرفت كيف تصدر الذهب من الجنوب إلى الشمال  
بالتحكم والتفاهم مع مستخرجي الذهب من بلاد الونغارا، بالإضافة إلى

---

(١) ابن الوردي: تنمة المختصر في أخبار البشر، طبعة المطبعة الوهيبية بالقاهرة سنة ١٢٨٥هـ. ص ٨٤،  
المقريزي: الإلمام، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.

(٢) عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا، مرجع سبق ذكره ص ١٨.

(٣) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، طبعة مطبعة بريل بليدن سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م، ص ٨٧.

التحكم في تجارة النحاس وطرق توزيعه.

وكانت غانا حريصة كل الحرص على استتباب الأمن ووضع الخطة السليمة لضمان استمرار التجارة وعدم تعرضها للفوضى، كل ذلك عن طريق سياسة حكيمة. وفصل التجارة عن السياسة أمر شاذ، ولكنه كان شيئاً مميزاً لشمال إفريقيا وغربها؛ فليو الإفريقي يروي كيف كانت بعض قبائل أطلس التي كانت في حالة حرب دائمة بعضها مع بعض تعقد الهدنات المنتظمة من أجل ضمان استمرار أسواقها الداخلية، كما لم تتوقف التجارة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط خلال القرون الطويلة من الصراع بين أوروبا المسيحية والولايات البربرية، إذ لم تتأثر بها إلا قليلاً، إلى حد أن كلاً من المسيحيين والمسلمين ظلوا يترددون على أسواق بعضهم البعض دون خوف.<sup>(١)</sup>

ولقد كان لشعب غانا طريقة غريبة في عملية التبادل التجاري، وذلك لأن التجار كانوا يقدمون على البلد الذي يريدون الاتجار معه، ثم يعرضون سلعهم على شواطئ الأنهار، ثم يتوارون عن الأعين فترة من الزمن ليتيحوا للوطنين فرصة رؤية السلع، وماهي إلا فترة حتى يظهر الوطنيون، فإذا ما أرادوا شراء شيء وضعوا بجانبه قيمته ذهباً، ثم ينسحبون بدورهم ليظهر الغانيون، فإذا رضوا عن كميات الذهب المقدمة حملوها معهم وإذا لم يرضوا عن مقدار الذهب اختفوا مرة أخرى حتى تزداد الكمية، وهكذا يظهرون ويختفون حتى يرضوا تماماً عما يقدم لهم، ثم يعودون إلى بلادهم بهذه القوة الاقتصادية الكبيرة من الذهب، الذي كان يُوجد في تلك المنطقة التي تسمى «غينيا» الآن.<sup>(٢)</sup>

---

(١) الدكتور زاهر رياض: مرجع سبق ذكره، ص ١٠٧.

(٢) الدكتور عبده بدوي: مع حركة الإسلام في إفريقيا، القاهرة ١٩٧٠م، الناشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص ١٥٠.

ولا يعرف أحد اللغة التي كانت تستعمل في هذه الدولة السودانية في مراحلها الأولى، ولكن علماء الآثار كشفوا عن مدن كانت تعتمد على تجارة واسعة النطاق، كما يشهد الرحالة بوجود ملكية قديمة، ونظام ضرايبي وإداري مستقر الدعائم، ومحلات لإقامة التجار البربر والرعايا الزنوج.<sup>(١)</sup>

وكما قلنا لم تكن غانا تسيطر على مناجم الذهب التي كان يعتمد عليها ثراؤها، وكذلك لم يسيطر عليها المرابطون أو دولة مالي. ففي الحالات الثلاث جميعا تمثلت الثروة في التجارة التي جعل منها المنظم عملا مجزيا، غير أن هذا الموقف ذاته كان يجتذب أي فاتح يستطيع أن يوفر تنظيما أفضل، أو طريقا مباشرا إلى المناجم، والشاهد القوي على معرفة الغانيين لفنون التجارة تنظيمهم للجمارك تنظيما لا يختلف في مبادئه العامة عن تنظيم الدول الحديثة لهذه الأداة التي تؤثر كثيرا في التجارة؛ يحدثنا البكري<sup>(٢)</sup> عن خدمة الملك ومهارة مرشديه لهذه الفنون فيقول: إن غانا كانت تفرض دينارا من الذهب تجبيه على كل حمار من الملح يدخل المدينة، ودينارين على كل حمل يخرج منها، لعلمه أن الملح والذهب يحفظان قيمتهما دائما، على أن السلع الأخرى كانت مهمة أيضا، فقد كان كل حمل من النحاس القادم لغانا من مناجم في الصحراء الجنوبية يدفع للملك خمسة متشالات (عملة ذهبية كانت تساوي ثمن أوقية) بينما كانت السلع الأخرى يُدفع عنها ضعف هذا المقدار. فهذه أمور تدل كلها على أن غانا استمدت ثراءها من التجارة والضرائب، وأنها استتمعت بفترة طويلة من الاستقرار والحكم المركزي القادر<sup>(٣)</sup>.

---

(١) دونالد ويدنر: مرجع سبق ذكره، ص ٤٧.

(٢) البكري، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦.

(٣) بازل دافيد سون: مرجع سبق ذكره، ص ١٤٢.

وكانت تجارة الذهب تلعب دورا هاما في اقتصاديات العصور الوسطى بصفة عامة، فكانت تصدر إلى بلاد المغرب وإلى غربي أوربا، وفي الوقت الحاضر يستخرج الافريقيون من هذه المناجم ٠٠٠ ر. ١٤٠ أوقية في السنة.<sup>(١)</sup> وقد تمتعت غانا في ظل ملوكها من السوننكي بحكومة مستقرة وأمن مستتب مدة قرنين من الزمان، وازدهرت تجارة الذهب، وطبقت شهرة غانا الآفاق، وجاءها كثيرون من مسلمي إفريقيا، فاستقروا فيها وزاولوا التجارة أو الاشتغال في الوظائف، وبنوا لأنفسهم مدينة من الحجر بعيدة عن المدينة الوطنية المبنية من الطين والقش.<sup>(٢)</sup>

وكان في المدينة الإسلامية اثنا عشر مسجدا، وقد عاش فيها كثير من المعلمين وعلماء الدين والأدب والطلاب، وكانت اللغة العربية لغة التدريس، ليس عند المسلمين فحسب، بل في جميع أنحاء الدولة، وكان في المدينة الوثنية مسجد واحد يؤدي فيه ضيوف الملك من المسلمين الصلاة، ويقع إلى جوار دار القضاء.<sup>(٣)</sup>

وقد شغل مناصب الدولة المسلمون والوثنيون على السواء. ويذكر البكري<sup>(٤)</sup> أن غالبية الوزراء كانوا من المسلمين، وأن القائم بشؤون الترجمة في بلاط الملك ووزير الخزانة كانا من المسلمين أيضا.

وقد استمد البكري وصف كومي حاضرة غانا من المعلومات التي كان يحصل عليها من تجار البربر الذين عرفوا المدينة جيدا، وتتحدث معظم هذه المعلومات عن رخاء كومي ونشاطها التجاري وروعة القصر الملكي.<sup>(٥)</sup>

---

(١) انظر: Harisson Church, R.J.: op. cit., p. 143.

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في إفريقيا، مرجع سبق ذكره ص ٩٨-٩٩.

(٣) البكري، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٥) البكري، المصدر نفسه، ص ١٧٦.



وجود طائفة إسلامية في غانا منذ زمان مبكر يدل على قدم الإسلام في هذه الدولة التي ظلت تنمو بالتدريج، وأن الإسلام قديم في السودان الغربي والأوسط، ولم يكن المرابطون الذين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي، هم الذين أدخلوا الإسلام في تلك البلاد لأول مرة، بل إن حركتهم أدت إلى ازدياد عدد الداخلين في الإسلام، وما ذكره بعض المؤرخين يثبت ذلك، فمما أورده صاحب الإلمام<sup>(١)</sup> عن ابن سعيد قوله: «وغانا مدينتان إحداهما يسكنها المسلمون، والأخرى الكفار». بل إن ملك غانا يدعي أنه من نسل الحسين بن علي رضي الله عنهما.<sup>(٢)</sup>

ويذكر البكري<sup>(٣)</sup> أنه كان بمدينة (غيارو) - التي تبعد عن النيجر اثني عشر ميلاً - كثير من المسلمين، وأن بغريها على نهر النيجر مدينة (يرسني) التي يسكنها مسلمون<sup>(٤)</sup>، وأن أهل مدينة (كوغة) مسلمون<sup>(٥)</sup>. وهناك مدينة (الوكن)، يقال إن حاكمها مسلم يخفي إسلامه<sup>(٦)</sup>. وأقام بنو مداسة البربر المسلمون على منحى نهر النيجر منذ بداية القرن الخامس الهجري<sup>(٧)</sup>، وأقام بنو سفمارة المسلمون البربر جنوبى منحى النيجر بثلاث مراحل.<sup>(٨)</sup>

---

(١) المقرئى: الإلمام، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣.

انظر: ابن خلدون: العبر ج٢، بيروت ١٩٥٧م، الناشر دار الكتاب اللبنانى، ص ٤١٢. انظر أبو الفداء: تقويم البلدان، باريس ١٨٥٠م الناشر: دار الطباعة السلطانية، ص ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٧، انظر، القلقشندي: صبح الأعشى ج٥، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٤.

(٣) المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٧.

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٨٠.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٨١، ١٨٢.



فالعلاقة التجارية والثقافية قديمة منذ الأزمنة السحيقة ما بين بلاد السودان وبلاد البحر المتوسط، وقد كثرت هجرة المسلمين بعد ظهور الإسلام من العرب والبربر إلى بلاد السودان، واحتكر المسلمون الاتصال ببلاد السودان لأسباب دينية وتجارية، واستقرت أعداد كبيرة منهم في تلك البلاد.

وهناك جهود أودغست الإسلامية، وتفااني ملوكها في نشر الإسلام بين الزنوج بغربي إفريقية بصفة عامة، وقد بلغت هذه ذروة قوتها وعظمتها خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وقامت بدور كبير في الدعوة إلى الإسلام قبل حركة المرابطين.<sup>(١)</sup>

وذكر الحموي<sup>(٢)</sup> أن أهل أودغست قد أسلموا على يد المهدي عبيدالله (٢٩٧-٣٢٢هـ / ٨٨٤-٩٣٣م) وقال البكري<sup>(٣)</sup>: «وكان صاحب أودغست في عشر الخمسين وثلاثمائة (تين يروتان بن ويسنو بن نزار) رجل من صنهاجة وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان، كلهم يؤدي إليه الجزية. وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها في عمارة يعتد في مئة ألف نجيب...» ويذكر القلقشندي<sup>(٤)</sup>... وابن أبي دينار<sup>(٥)</sup>: أول من تملك منهم الصحراء (بربر صنهاجة) تيولثان بن تيكلان، ملك الصحراء بأسرها، ودانت له ملوك السودان، وأدوا له الجزية، وكان يركب في مئة ألف نجيب، وكان في أيام عبدالرحمن الداخل (ت ٢٢٢هـ / ٨٣٦م).

---

(١) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، سبق ذكره، ج ٥ / ١٨٩، البكري: المغرب، سبق ذكره، ص ١٥٩؛ ابن أبي دينار: المؤنس، سبق ذكره، ص ١٠١؛ الدكتور إبراهيم علي طرخان، مرجع سبق ذكره، ص ٤١-٤٢.

(٢) معجم البلدان: ج ١، ص ٣٧٠.

(٣) المغرب، ص ١٥٩.

(٤) صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٨٩.

(٥) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص ١٠١.

والمعروف أن أودغست مدينة سوننكية الأصل، ولو أن حكامها من البربر البيض من قبيلة لتونة، جاهدت هذه الدولة في نشر الإسلام، جنباً إلى جنب مع تنشيط حركة التجارة بين بلاد السودان وشمال إفريقيا، عبر الطرق الصحراوية. فلا غرو فقد كانت أيضاً في منطقة تجارية مهمة، كانت تجاور غانا كما هو واضح من وصف المؤرخين وعلى رأسهم ابن حوقل<sup>(١)</sup>، الذي قال في ذلك: «وملك أودغست هذا يخالط ملك غانا».

كان لكل تلك الجهود والصلات المباشرة بين المسلمين بشمال إفريقيا وبلاد السودان، أثرها بلاشك في دخول أعداد كبيرة في الإسلام قبل القرن الحادي عشر الميلادي. ولما كانت غانا جزءاً من بلاد السودان، فلا ريب أن الإسلام دخلها وانتشر بين بنيتها بدرجات متفاوتة، لكن لا نستطيع أن نقول إن البلاد كلها، حكومة وشعباً، أو حكاماً ومحكومين، قد اعتنقت الإسلام، أو إن الإسلام صار الدين الرسمي لدولة غانا، ولكن نقول إن حركة المرابطين كانت عاملاً تنشيطياً وتوسيعياً لحركة الدعوة الإسلامية في أفريقيا الغربية في ذلك الزمان كما ذكرنا من قبل.

واشتهر أهل غانا، وأغلبهم كما ذكرنا من السوننكة، بحماسة شديدة للإسلام، واشتهروا بالدور الكبير الذي نهضوا به في الدعوة إلى الإسلام، إذ كانت هذه العقيدة ذات أثر عميق في حياتهم الاجتماعية، حتى إن بعض عشائر السوننكة تكاد تختص بالعمل في الدعوة إلى الإسلام فقط، بل إن كلمة «سوننك» في أعالي نهر غمبيا، استخدمها الماندنكا الوثنيون مرادفاً لكلمة

---

(١) صورة الأرض، بيروت، لم يذكر سنة الطبع الناشر: دار الحياة بيروت: ص ٩٨. وابن حوقل هذا تاجر ورحالة عاش في القرن العاشر الميلادي، وقد اتخذ من التجارة وسيلة لفهم خصائص الأقاليم.

«داعية»، مما يدل على الدور الكبير الذي لعبه السوننك في نشر الإسلام.<sup>(١)</sup> لقد كانت التجارة كما رأينا عاملاً حاسماً في قيام دولة غانا قبل الإسلام، واستمرارها بعد ذلك في ظل الإسلام لفترة طويلة، وأن التجارة كانت العامل الأساسي الذي أوجد جماعة إسلامية وحضارة إسلامية في غانا في العصور الوسطى، ولا تعجب إذا كانت التجارة نفسها عاملاً حاسماً في ضعف غانا الإسلامية وسقوطها، وذلك لما جلبته المنافسة التجارية والسيطرة على الطرق التجارية من صراع طويل بين قبائل البربر قبل الإسلام وبعده، وبين ملوك هذه الدولة التجارية الغنية.. ولمعرفة هذا فستعرض في المطلب التالي إلى نتيجة هذا الصراع.

### المطلب الثاني : المرابطون ودولة غانا

لقد تطرقنا في أول هذه الدراسة إلى إسلام البربر حتى أصبحوا جزءاً مهماً في الحركة الإسلامية في الشمال الإفريقي، وجنداً لطارق بن زياد - الذي نبغ منهم - في فتح الأندلس سنة ٩٣هـ / ٧١١م. منذ ذلك الحين أصبح المغرب القاعدة الأمامية لنشر اللغة العربية والإسلام في غربي أفريقية، وفي الأجزاء الجنوبية من الصحراء الكبرى. ولم يكن نفوذ البربر مقصوراً على الأقاليم التي تمتد على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فالمعروف أن أول من ملك منهم الصحراء زعيم اسمه (تيولثان)، (ت ٢٢٢هـ / ٨٣٦م) كما جاء في صبح الأعشى<sup>(٢)</sup> وملك بعده حفيده، «بلثان» (ت ٢٨٧هـ / ٩٠٠م) ثم ابنه تميم إلى عام ٣٠٦هـ / ٩١٨م. ثم افترق أمرهم

(١) Trimingham: Islam in W.A, op. cit, pp. 13-14. الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص ٤٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٩ وعبارته «إن أول من ملك الصحراء من لتونة (بتلوثان)، وقد اعتمدنا رسم ابن أبي دينار «تيولثان».

مئة وعشرين عاما إلى أن قام فيهم أبو عبدالله، وحج ثم توفي بعد ثلاثة أعوام من رياسته، وقام بأمرهم من بعده صهره يحيى بن إبراهيم.<sup>(١)</sup>

وكان لهؤلاء البربر، وبخاصة تجارهم، الفضل في الدعوة إلى الإسلام بين القبائل الزنجية التي تقطن الصحراء، كما يرجع الفضل أيضا إلى مركز تجارتهم الموجودة في السهول التي تلي تخوم الصحراء، وأول ما يقابلنا من القبائل البربرية التي عملت في سبيل نشر الدعوة: صنهاجة، وقد سكن أفرادها ديار الصحراء الممتدة بين موريتانيا (شنقيط) إلى جبال حجار، وإلى الجنوب إلى حدود السودان الغربي - أي غربي إفريقية.

وفي القرن التاسع اتحدت صنهاجة من قبائل لتونة ومسوفة وجدالة، وكان هدف هذا الاتحاد العمل على تنظيم تجارة القوافل عبر الصحراء، فيما بين أقصى الشمال حيث تنزل قبيلة ولاتة، وأقصى الجنوب حيث كانت تقع مملكة غانا، لم يكتب لهذا الاتحاد العمر الطويل، فوهن أثره وتفرقت كلمة القبائل، وانتهزت غانا تلك الفرصة فازدهرت وتسلطت على بعض أجزاء الصحراء التي يؤمها تجار القوافل من البربر والعرب<sup>(٢)</sup>. وقد ذكرنا هذا من قبل.

وما سبق يظهر لنا جليا مدى أهمية السيطرة على طرق القوافل التجارية، إذ إنها كانت الدعامة الأولى التي يجب ضمانها لقيام أي دولة بربرية في شمال منطقة السافانا السودانية، وبذلك كانت هذه التجارة هي مصدر القوة لكل الدول التي قامت جنوب الصحراء الكبرى أو شمالها على السواء، وفي هذا المعنى الذي نؤكد، يقول ترمينجهام<sup>(٣)</sup> إن صنهاجة أخذت قوتها من سيطرتها

---

(١) المصدر نفسه، ونفس الصفحة، انظر محمد عبدالفتاح إبراهيم: إفريقية من السنغال إلى نهر جوبا، مرجع سبق ذكره، ص ٩٩-١٠٠.

(٢) الدكتور عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، مرجع سبق ذكره ص ٦.

(٣) Trimingham: Islam In West Africa, op. cit., p. 52.



على المسالك التجارية، إذ إنها فرضت ضرائب على كل القوافل المارة بمناطقهم، ولكنه في سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م يبدو أنه من المحتمل أن خلافات داخلية بين قبائل صنهاجة أدى إلى اضطراب المسالك التجارية، مما أتاح الفرصة للسوننكة في غانا أن يسيطروا على مدينة أودغست، وعينوا عليها حاكما زنجيا. مما استوجب بعد ذلك على صنهاجة أن يستعيدوا هذه المدينة لأهميتها كنقطة لطرق القوافل التجارية. (١)

ولما اعتنقت صنهاجة الإسلام في القرن العاشر، تسرب الدين الحنيف - كما رأينا - عبر الصحراء، وبدأت المراكز التجارية في الصحراء (٢) ومنها أودغست - المركز الأمامي لتجارة غانا على حافتها الشمالية - تتسم بالطابع الإسلامي، ولعل أبرز دور لهذه المراكز التجارية هو أن تسربَ عبرها الإسلام إلى غانا خاصة، وغربي افريقية عامة، للمرة الأولى، وذلك بفضل ماخلفته العلاقات التجارية بين بربر الشمال وزنوج الجنوب.

وفي عام ٤١١هـ / ١٠٢٠م واجه زعماء لمتونة وجدالة ومسوفة، وهي قبائل صنهاجة، واجهت قوة غانا النامية، ولذلك عادوا ثانية إلى توحيد كلمة القبائل أمام الخطر المحدق، وكان تارسينا، زعيم لمتونة، أول زعيم صنهاجي مسلم أدى فريضة الحج، وفي مكة امتلأت جوانحه بفكرة الجهاد ضد الزنوج الوثنيين ودعوتهم للإسلام، وقد استشهد وهو يقاتلهم سنة ٤١٤هـ / ١٠٢٣م (٣).

---

(١) الدكتور عبدالرحمن زكي، المرجع السابق، ص ٦.

انظر: أبو الفداء، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٥ عن وصف أودغست.

الدكتور عبدالهادي شعيرة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢.

(٢) للوقوف على مواقع هذه المراكز التجارية وصفها انظر: الدكتور عبدالهادي شعيرة، مرجع سبق ذكره، ص ١٦-٢٣.

(٣) الدكتور عبدالرحمن زكي، مرجع سبق ذكره، ص ٦.



ويمكن القول بأنه كان الرجل الذي غرس بذرة الكفاح الإسلامي في غربي إفريقيا وتبعه الرجل الثاني، وهو يحيى بن إبراهيم، زوج ابنته، ليكمل رسالته، وكان يحيى شيخ قبيلة جدالة.<sup>(١)</sup>

وبعد تمحيص ويحث فيمن يحمل معه أعباء الدعوة وقع الاختيار على عبدالله بن ياسين الجذلي، الذي لجأ إلى رباط في السنغال بعد فشله في الدعوة إلى الإسلام بين أهله الملتزمين في الصحراء، وأخيراً قويت شوكته وتكونت أول نواة لدولة المرابطين التي اتسعت فيما بعد حتى الأندلس وقضت على غانا سياسياً.<sup>(٢)</sup>

ويذكر رولاند أوليفر وجون فيج<sup>(٣)</sup> بأن المسؤولية الأساسية لمهمة ابن ياسين إنما جاءت كرد فعل للتطورات الضارة بمصالح الصنهاجة سواء في مراكش أو في غربي إفريقيا. ويعنى بذلك الظروف السياسية والاقتصادية الصعبة التي أحاطت بالمنطقة الغربية من الصحراء الكبرى آنذاك. فمراكش كانت من قبل مملكة تدب فيها الفوضى والاضطراب، فعلى الرغم من نجاح غزوات الفاطميين عسكرياً إلا أنها لم تلحق بالبلاد هزيمة حقيقية، ومن أسباب ذلك العداء الفطري للقبائل الرحل ضد أي حكم أجنبي، ومن الأسباب الأخرى أيضاً أنهم استعدوا الأمويين في أسبانيا، ولم يكن النصر الحقيقي للفاطميين أو الأمويين، وإنما كان لقبائل زناتة في الغرب، وقد كان لتفوق زناتة وتغلغلهم نتيجتان مهمتان: الأولى أن معظم امتدادها كان يشمل مناطق مشيخات الصنهاجة في جنوب مراكش. ومن هنا استعانوا بأقربائهم الطوارق

---

(١) المرجع نفسه، ص ٦-٧.

(٢) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٩.

(٣) رولاند أوليفر وجون فيج، مرجع سبق ذكره، ٩٢-٩٣.

في الصحراء الكبرى. والثانية أن مجيء زناتة قد زعزع اقتصاديات نهاية الطرق الصحراوية التجارية المراكشية التي كانت تجوبها الصنهاجة الطوارق، وفي الوقت نفسه كانت الصنهاجة في الصحراء الكبرى قد بدأت تعاني من نمو غانا التي نجحت في نهاية القرن العاشر كما قلنا في فرض الجزية على أودغست التي تمثل مركزهم التجاري الرئيس في الجنوب، لذا لانخطئ إن قلنا إن من أهداف هذا الحلف الجديد الهجوم على ملك غانا، والسيطرة على طرق التجارة واسترداد ما فقدته الحلف من مصالح تجارية.<sup>(١)</sup>

وقد أشار إلى وجود العامل الاقتصادي في حركة المرابطين كثير ممن كتب في هذا الموضوع، فقال ديفدسون<sup>(٢)</sup>: إنه في سنة ١٠٥٤م اتجه المرابطون جنوبا لنشر الدعوة الإسلامية في هذه المناطق بين الوثنيين.. ولكنهم كانوا يشدون أيضا المغانم التي قد تعود من وراء هذا الغزو.. كانت مصادر الملح تحت سيطرتهم في ذلك الوقت.. فسعوا إلى السيطرة أيضا على مصادر الذهب، وكان قدومهم سريعا، وأدى إلى انهيار دولة غانا. وللوقوف على الأسباب السياسية والدينية والاقتصادية في تحركات المرابطين جنوبا وشمالا من الصحراء الكبرى، فإننا نجد ذلك مبسوطاً في كتاب للدكتور عبدالهادي شعيرة<sup>(٣)</sup>. وما يهمنا هنا أن مما ذكره حول الدافع الاقتصادي في هذه الحركة هو قوله: إن الأسباب المباشرة إنما تؤثر بفعل أسباب أخرى مهيئة للعمل دافعة إليه، ومن هذا النوع من الأسباب - يقول شعيرة - السبب الاقتصادي.<sup>(٤)</sup>

---

(١) الدكتور عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢.

(٢) بازل ديفدسون: مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٤-٤٥.

(٣) مرجع سبق ذكره، ص ص ٥٦-٥٨..

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٨.

لقد فتح المرابطون مدينة أودغست عام ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م وعاقبوها على خضوعها للدولة غانا واستسلامها لها بدفع الجزية، وقبول سيادة السوننك فترة من الزمن، وبعد أن فرغ المرابطون من أودغست اتجهوا إلى كومي صالحو عاصمة غانا نفسها، واقتحموها عام ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م، وأقاموا عليها حاكما مسلما، ومنذ ذلك الوقت صار ملوك غانا مسلمين، سواء كانوا تابعين للمرابطين حتى عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م، أو أنهم انفصلوا عنهم بعد ذلك العام، وهو سنة وفاة أبي بكر زعيم المرابطين، وأعلنوا تبعيتهم للخليفة العباسي في بغداد مباشرة كما ذكرنا. (١)

وقد كان سقوط غانا نهائيا على يد قبائل الصوصو سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م، وفر مسلمو غانا إلى والاتا حيث أقاموا بها مركزا تجاريا لهم، سرعان ما ازدهر حتى صارت من أعظم المراكز التجارية في السودان الغربي. (٢) وذكرنا للجانب الاقتصادي في حركة المرابطين ليعني إغفال الجانب الديني في الحركة، لأن أساسها الأول ديني، وكان العامل الاقتصادي عامل تهيئة على حد قول الدكتور شعيرة الأنف الذكر - وذلك ليكسروا شوكة العناصر الإسلامية المتعصبة في المغرب من جهة، ومحاربة البدع والخرافات وكل ما لصق بالدين من شوائب، ولتحويل الزوج عن عبادة الأوثان في السودان من جهة أخرى، وهنا يجب أن نقف قليلا لنقرر حقيقة تاريخية مهمة، وهي أن بعض المؤرخين بالغوا في وصف الجهد الذي اضطلع به المرابطون في نشر الإسلام بين

---

(١) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص ٥٣، انظر: ابن خلدون: العبر، ج ٦، بيروت ١٩٥٧. الناشر: دار الكتاب اللبناني، ص ٤١٣ حيث يذكر سقوط «غانية» كما يسميها على يد الملتهم والصوصو، وفي ص ٣٧٣ يتكلم عن المرابطين وجهادهم.

(٢) الدكتور طرخان، المرجع السابق، ص ٥٣.

أهل السودان الغربي، وقالوا إنه بفضلهم وحدهم تم دخول الإسلام، وفاتهم أن الإسلام قد تسرب في هدوء بصحبة تجار قوافل الصحراء من الشمال إلى الجنوب قبل أيام حركة المرابطين في أثناء القرنين التاسع والعاشر. وكان هؤلاء التجار يمنحون كامل الحرية في مزاولة تجارتهم وتأدية واجباتهم الدينية، بل والدعوة إلى دينهم أيضاً في حرية مطلقة.<sup>(١)</sup>

ومما يؤيد هذا وجود مدن إسلامية وأحياء يسكنها المسلمون في المدن الوثنية كما أثبتناه في مكانه من هذا الكتاب. والواقع أن المرابطين عملوا على الإسراع في مهمة تحويل الزنوج إلى الإسلام بدلا من سيرها ببطء تدريجي. وبعد زوال غانا تسلمت راية الإسلام دولة مالي الإسلامية التي سرعان ما أصبحت أعظم الدول الزنجية الإسلامية في غربي إفريقيا.

وبعد أن فرغنا من طبيعة التسرب الإسلامي إلى دولة غانا وظروف سقوط هذه الدولة، علينا أن نلقي نظرة في السطور التالية على الأثر الحضاري للإسلام في دولة غانا، والذي كان نتيجة للعلاقات السلمية التجارية بين الشمال الإفريقي ودولة غانا خاصة.

### **المطلب الثالث : الأثر الحضاري للإسلام في غانا**

#### **أولاً - الناحية الثقافية :**

لقد كان انتشار الإسلام في دولة غانا يعني من بين ما يعني انتشار الثقافة العربية الإسلامية، ومن ذلك اللغة العربية كلغة للحديث والمخاطبة والكتابة، فما لبثت هذه اللغة أن نافست اللغات السائدة في العالم القديم، نافست الفارسية في إيران والإغريقية في بلاد الشام والقبطية في مصر والقوطية في

---

(١) الدكتور عبدالرحمن زكي، مرجع سبق ذكره، ص ١١.

بلاد الأندلس ولغات أفريقية أخرى.

ولكن اللغة العربية خرجت على مر الأجيال من هذا الصراع ظافرة متغلبة، حيث غلبت تلك اللغات التي ذكرناها. ويتساءل الدكتور حسن محمود<sup>(١)</sup> عن العوامل التي ساعدت على تغلب لغة العرب على هذه اللغات كلها. ويجد الرد في الدراسة التي قام بها وولنر WOOLNER، فيقول: «درس وولنر هذه الظاهرة في كتابه «Language in History and Politics» وردها إلى عوامل منها:

العامل الأول، الديني: . . . فحيثما انتشر الإسلام واستقرت قواعده، انتشرت اللغة العربية.

ولعل مما ساعد على انتشار اللغة العربية على هذا النحو ما أجمع عليه أغلب الأئمة المسلمين من عدم جواز ترجمة القرآن، فعلى من يريد معرفة أسرارهِ أن يقبل على تعلم اللغة العربية، وكذلك عدم جواز كتابته بغير العربية، وعدم جواز القراءة بغير العربية في الصلاة على الرغم من أن الإمام أبا حنيفة قد أجاز في بعض الحالات القراءة في الصلاة بالفارسية، إلا أن كل الفقهاء تقريباً قد نهوا عن ذلك.<sup>(٢)</sup>

فكان كل داخل في الإسلام يتعلم حفظ ما يستطيع أن يقيم به صلاته، ثم يمضي في تعلم اللغة العربية ليزداد تفقهاً في الدين، ولعل الإحجام عن ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية من أهم الأسباب التي أبقت على اللسان العربي وصانت التراث العربي.

---

(١) الدكتور حسن أحمد محمود، مرجع سبق ذكره، ص ٥١ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥١ .



**العامل الثاني، القرابة السامية :** لأن الدين وحده ليس كافياً في تعليل سرعة هذا الانتشار، لأن انتشار الإسلام كان أسبق من تعلم العربية بعدة قرون، بل يعلل انتشار العربية بالقرابة بينها وبين أخواتها السامية في كثير من المظاهر الصوتية واللفظية والنحوية.

**العامل الثالث، القرابة الحامية :** فعلماء اللغات يجمعون على التشابه بين اللغات السامية والحامية، مثل ذلك التشابه بين اللغات السامية والقبطية مثلاً في الضمائر وأسماء العدد والثنية وقواعد الصرف والأصوات الساكنة، مما دفع بعض الباحثين وعلى رأسهم أرمان، الذي يعد حجة في الدراسات المصرية، إلى القول بأنها لغة الغزاة من الساميين.

**العامل الرابع، العامل الحضاري :** فعلماء اللغة يقولون بأنه إذا التقت لغة ذات تراث حضاري متفوق مع لغة أخرى حظها من التراث الحضاري قليل، ينتهي الأمر بتغلب اللغة ذات التراث الحضاري المتفوق.

وعندي أن العامل الأول هو أقوى العوامل، فقد لمست ذلك بنفسني عندما التقيت ببعض زملائنا في الدراسة بمصر وهم بخاصة من السنغال وغانا ونيجيريا وداهومي، يحفظون القرآن ويتلونه تلاوة صحيحة على الرغم من أن بعضهم وخاصة الغانيين لا يستطيع التعبير عن نفسه باللغة العربية، ومنهم من يحفظ القرآن ولا يفهمه مما كان موضع دهشتي وعندما أتيت لي فرصة زيارة السنغال وجامبيا عامي ١٣٩٧ و ١٣٩٨هـ / ١٩٧٧ و ١٩٧٨م وقفت أيضاً على هذه الظاهرة. وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على قوة العامل الديني في نشر اللغة العربية، لا سيما حفظ القرآن والحديث، وكانت هناك بعض العقوبات للأبناء الذين لا يحفظون القرآن كما رأينا، وذلك من واقع رحلة ابن بطوطة.

وقد ضمت غانا منذ فجر تاريخها وحتى قبل أن تتحول حكومتها إلى الإسلام، نحو اثني عشر مسجداً، ألحق بكل مسجد مدرسة لتعليم القرآن وقواعد الدين واللغة العربية، كما أن القسم الإسلامي من العاصمة كان مملوءاً بالعلماء والفقهاء والأئمة، وكذلك كانت والاتا ونيمة وأودغشت مراكز ثقافية عربية إسلامية، كما كانت مراكز لنشر الدعوة الإسلامية، وإن كانت أصلاً مراكز تجارية<sup>(١)</sup>.

كانت اللغة العربية هي لغة العبادة والثقافة الوحيدة في البلاد، وهذا بجانب كونها لغة التجارة المستعملة في التبادل التجاري والمكاتبات، واحتلت هذه اللغة في غانا وفي غيرها من بلاد السودان الغربي والأوسط المكانة التي احتلتها اللغة اللاتينية في العصور الوسطى، بل زادت عليها، إذ بقيت اللغة العربية بتلك البلاد لغة للدين والثقافة في العهد الاستعماري، بينما زالت اللغة اللاتينية تدريجياً أمام زحف اللغات الجرمانية القومية بأوروبا في العصور الوسطى، وقد بلغت العربية حداً يفوق كل وصف من الغنى والجمال. وإذا ما تعلموا هذه اللغة أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة وتستخدم كمقدمة لدراسة الأدب بل هي أدب في ذاتها. وهي إلى ذلك لغة شريعة وقانون مكتوبة، وهذا تغيير يعتبر في ذاته تقدماً هائلاً في الحضارة.<sup>(٢)</sup>

وفيما يختص بانتشار حضارة الإسلام يقول الدكتور حسن محمود<sup>(٣)</sup> بأن كل الحضارات الإنسانية عموماً تلتقي وتختلط وتتبادل التأثيرات، وذكر أن هذه الظاهرة قد درسها الدارسون وعرض لها فلاسفة التاريخ ووضعوا لها

---

(١) انظر: الدكتور طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، مرجع سبق ذكره، ص ٨٢ .

(٢) السير توماس آرنولد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٨ .

(٣) الدكتور حسن أحمد محمود، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٢-١٣ .

القواعد والأصول، وأن ممن عرض لهذا الموضوع المؤرخ توينبي، الذي انتهى لقوانين معينة لهذا الالتقاء الثقافي، وهي:

أولاً: الخصائص الفردية للثقافة الأجنبية أكثر قبولاً من الثقافة في مجموعها ومعنى هذا القول أن الثقافة قد لا تقبل ككل، إنما قد تقبل بعض أجزائها.

ثانياً: قوة النفاذ لأي إشعاع ثقافي تكون على نسبة عكسية للقيمة الثقافية لذلك الإشعاع، معنى ذلك أن أتفه الجوانب الثقافية أعظمها نفاذاً، وأعمقها أقلها نفاذاً.

ثالثاً: قبول عنصر من ثقافة أجنبية سيجر وراءها سائرهما.

رابعاً: هذا العنصر المفرد أكثر إزعاجاً للمدنية المستعيرة مما لو تبنت الثقافة الأجنبية كلها؛ بمعنى أن أخذ عنصر من عناصر أي ثقافة دون فهم كنه الثقافة كلها قد لا يستطاع هضمه، ومن ثم يصبح عامل إزعاج.

ويذكر الدكتور حسن محمود<sup>(١)</sup> بأن الوطن الزنجي الصميم شهد هذه الظاهرة حينما دخل إليه الإسلام وفي ركابه الثقافة العربية الإسلامية، فأهل البلاد حينما أسلموا وتشربوا الثقافة لم يهملوا تقاليدهم القديمة، إنما قاموا بنوع من الملاءمة بين تقاليدهم المحلية الموروثة وثقافتهم الإسلامية المكتسبة<sup>(٢)</sup>، كما شهد بذلك الرحالة والمؤرخون العرب الذين زاروا هذه المنطقة مثل البكري وابن بطوطة.<sup>(٣)</sup>

---

(١) الدكتور حسن أحمد محمود، مرجع سبق ذكره، ص ١٣ .

(٢) انظر: الدكتور حسن إبراهيم: انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨ .

(٣) انظر، ابن بطوطة، تحفة النظار، مصدر سبق ذكره، مطبعة التحرير ص ص ٤٤٧ - ٤٤٨ .

## ثانياً - الناحية الاجتماعية :

لقد اتضح ما تقدمه حضارة إفريقية إسلامية إلى الزنجي الذي تحول إلى الإسلام اتضحاً يبعث على الإعجاب في العبارات الآتية: «إن أقبح الرذائل وهي أكل لحوم البشر، وتقديم الإنسان قرباناً، وواد الأطفال أحياء، تلك الرذيلة التي نجد ما يبرر الاعتقاد بأنها كانت في وقت ما متشرة في كل أفريقية، ولا تزال في بقاع كثير منها، حتى تلك الجهات التي لا تبعد عن ساحل الذهب وعن مواطننا، قد اختفت فجأة وإلى الأبد. والساكنون الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة بدؤوا يرتدون الملابس، بل يتأنقون في ملابسهم، والساكنون الذين لم يغتسلوا قط من قبل، بدؤوا يغتسلون، بل يكثر من الاغتسال، لأن الشريعة الإسلامية المقدسة تأمر بالطهارة، وهو فرض لا ينطوي على تأثير قوي جداً في غرائزهم التي جبلوا عليها. ويميل النظام القبلي إلى فتح المجال لأساس أوسع نطاقاً، وبعبارة أخرى إلى اندماج القبائل بعضها في بعض لتصير أمماً، وبازدياد النشاط والمعرفة تصير الأمم إمبراطوريات». (١)

لقد قام البناء الاجتماعي في غانا على النظام القبلي شأن غيرها من الدول التي قامت بالسودان الغربي الأوسط، غير أن قيام حكومة مركزية مهيمنة، ساعد على إضعاف التناحر بين القبائل، كما أن الإسلام وتعاليمه كانت أكبر عامل في إضعاف العصبية القبلية وإن لم تمحها، وبفضل الإسلام والثقافة العربية الإسلامية، اتصل الغانيون بأرقى الحضارات الإنسانية المعاصرة،

---

(١) السير توماس آرنولد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٧ .

وهي الحضارة الإسلامية. (١)

ومن عادات الدفن في العهد الوثني، دفن الملك ومعه خدمه والمقربون إليه، فضلاً عن طعامه وشرابه وحليه، وقد أفاض البكري<sup>(٢)</sup> في وصف هذا التقليد، قائلاً: «يؤدون ديانتهم المجوسية وعبادة الدكاكير - أي الأصنام - إذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش، فأدخلوه في تلك القبة، ووضعوا معه حليه وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب، فأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة، وأدخلوا معه رجالاً ممن كانوا يخدمون طعامه وشرابه وأغلقوا عليه باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة، ثم اجتمع الناس فردموا فوقها التراب حتى تأتي كالجبل الضخم، ثم يخندقون حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد، وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمر».

ويظهر وضوح الأثر الشرقي القديم في هذا التقليد، فقد وجد عند ملوك كاتسنا من دول الهوسا وذلك قبل اعتناقهم الإسلام.<sup>(٣)</sup> غير أنه عندما صارت الحكومة الغانية إسلامية منذ نهاية القرن الحادي عشر، اختفى هذا التقليد وحلت التقاليد الإسلامية، وعثر على شواهد لقبور عليها بعض آيات القرآن الكريم، فضلاً عن دعوات لصاحب القبر، وذلك باللغة العربية.<sup>(٤)</sup>

أما فيما يتعلق بالفرد: فمن المسلم به من كل الوجوه أن الإسلام يمد السود الذين تحولوا إليه بالنشاط والعزة، والاعتماد على النفس واحترام الذات،

---

(١) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص ٧٥ .

(٢) البكري، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٦ .

(٣) الدكتور طرخان، المرجع السابق، ص ٨١ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٨١ .



وهذه كلها صفات يندر جداً أن نجدها في مواطنهم الوثنيين أو المسيحيين. (١)  
ولما كان الحج ركناً من أركان الإسلام الخمسة، فقد مارس الغانيون المسلمون كل هذه الأركان، فكانوا يأتون الحج في قوافل على الطرق التجارية التي تتجه عبر السودان الحالي، أو عبر الطرق التجارية المتجهة إلى مصر عن طريق الشمال الأفريقي الشرقي، وفي أثناء مرورهم يمكثون أوقاتاً طويلة في البلدان التي يمرون عليها، ومنهم من يكسب زاد بقية رحلته من عمل يده خلال هذا المكث... وعن طريق هذه الرحلة يكتسب الحاج بعض عادات الشعوب الإسلامية التي يحط رحاله فيها، ونتيجة لهذا الاحتكاك الروحي مع إخوانهم في العقيدة على طول الطريق من غانا عبر الصحراء ثم إلى مصر ثم إلى الحجاز، اكتسب الغانيون خبرة عن العالم الإسلامي وبعض العادات الإسلامية الاجتماعية، وهذه نتيجة لاشك فيها في علم الاجتماع.

### ثالثاً - الناحية الاقتصادية :

من هذه الناحية فقد ظهرت صناعات وتجارة، لا كالتجارة الصامتة التي تقوم بالإشارات فيها مقام اللغة في التفاهم، ولا كالمبادلة البدائية في الخامات، تلك المبادلة التي نعرف من المؤرخ هيرودوت أنها وجدت في إفريقية منذ أقدم العصور، ولا كالمقايضة بالودع، أو البارود أو الطباق أو الخمر، تلك المقايضة التي لا تزال تستخدم على طول الساحل وسيلة أساسية في التبادل، ولكنها صناعات تنطوي على مهارة فائقة، وتجارة منظمة نظاماً محكماً، وظهرت هذه المدن الكبيرة في أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعات والتجارة، وتأثير الحكومات الأكثر استقراراً، التي جاء بها الإسلام، وهي مدن نجد أن الرحالة الأوروبيين

---

(١) السير توماس آرنولد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٩ .

حين وصفوها أول الأمر لم يستطيعوا إلا أن يهملوا مجرد وجودها. (١)  
لقد أضحت مدينة كومبي صالح، أكبر سوق للتجارة في بلاد السودان،  
زمن ازدهار غانا، وقد استقر فيها عدد كبير من التجار البيض وتحكموا في  
التجارة السودانية، وأهمها الذهب، وكان من بين التجار عدد كبير من التجار  
المصريين، ويقال إن أحد التجار المصريين هو الذي اشترى كتلة الذهب الكبرى  
التي كان ملوك غانا يحتفظون بها في قصورهم. (٢)

حصلت غانا على ثروة طائلة من الضرائب التي فرضتها على السلع  
الداخلية إلى بلادها والخارجة منها كما ذكرناه في محله، وقد أقامت نظاماً  
دقيقاً للجمارك، وكان للمسلمين في غانا خبرة واسعة بالشؤون المالية، ولذلك  
استعان بهم ملوك غانا منذ العهد الوثني، حتى كان منهم من أشرف على  
الشؤون المالية الحكومية. (٣)

وقد كانت العلاقة التجارية أبرز ما ربط غانا ببلاد البحر الأبيض  
المتوسط؛ فقد كان ذهب غانا ووارثتها مالي عنصراً أساسياً في اقتصاديات  
شمالي إفريقية بصفة خاصة، وكذلك بالنسبة لأوربة، وعلى الأقل قبل كشف  
أمريكا. وبفضل هذه العلاقة تسرب الإسلام لغانا أول مرة كما ذكرنا. ومن  
البيوت التجارية التي ساهمت في تنشيط هذه العلاقة على نحو منظم، شركة  
المقري، جد الكاتب المعروف أحمد بن محمد المقري المتوفي سنة ١٠٤١هـ/  
١٦٢٣م، صاحب كتاب «نفح الطيب» كما سبق أن ذكرنا. ويحتمل أن هذه

---

(١) السير توماس آرنولد، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٥،

(٢) Bovill: The Golden Trade; op. cit., p.82.

(٣) انظر البكري، المغرب، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٧٥ - ١٧٦ .

الأسرة بدأت أعمالها التجارية منذ القرن الثاني عشر، أي قبل نهاية دولة غانا بما يقرب من قرن، وكان لها ممثلون في والاتا عند نهاية دولة غانا على يد الصوصو عام ١٧٨٨هـ / ١٢٠٣م، كما شهدوا هجرة العلماء والتجار المسلمين من كومي صالحو إلى والاتا، بعد دخول الصوصو.<sup>(١)</sup>

#### رابعاً - الناحية السياسية :

كان نظام الحكم في دولة غانا ملكياً استبدادياً شأن جميع النظم القائمة في الدول والممالك التي ظهرت في السودان الغربي والأوسط، سواء أكانت في عهدها الوثني أم في عهدها الإسلامي.

والنظام السائد في وراثة العرش في دولة غانا هو توريث ابن الأخت. يقول البكري<sup>(٢)</sup>: «وستانهم أن الملك لا يكون إلا في ابن أخت الملك، لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته، وهو يشك في ابنه، ولا يقطع على صحة اتصاله به». ويذكر البكري في مكان آخر: «ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولي عهده، وهو ابن أخته».<sup>(٣)</sup>

وعلل البكري هذه الظاهرة، بتوفر اليقين في أن الوليد هو ابن أمه، وهذا صحيح، لكن من المعروف أيضاً، أن لهذه الظاهرة أصولاً ترجع إلى التقاليد الوثنية القديمة، وهي التي تعلي من شأن المرأة عند أغلب القبائل الإفريقية الوثنية.<sup>(٤)</sup>

---

(١) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص ٨٣، انظر:

Bovill: The Golden Trade; op. cit., pp. 98-99.

(٢) البكري، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٤) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره، ص ٥٨.

وظهرت عند السوننك - فرع من الماندنجو - والتقليد عام عند الأصول والفروع، كذلك وجدت هذه الظاهرة عند قبائل البربر خاصة الطوارق، وصلة هؤلاء ببلاد السودان قديمة جداً كما سبق أن ذكرنا. (١)

وقد أضعف الإسلام ظاهرة التوريث لابن الأخت، وشيبه ابن البنت، ولكنه لم يقض عليها قضاء تاماً في جميع الدول والممالك الإسلامية التي قامت بالسودان الغربي والأوسط، بدليل بقائها في بعض الممالك الإسلامية التي قامت بالسودان الغربي والأوسط، وقد شهدها ابن بطوطة في القرن الرابع عشر في مدينة تكدة فلم تعجبه وعلق عليها بقوله: «وذلك ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد الملبار من الهنود، وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون». (٢)

والذي حدث في دولة غانا في عهدها الإسلامي، أي منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي إلى نهايته في مطلع القرن الثالث عشر، أن ظاهرة توريث العرش لابن الأخت قد اختفت وصار الملوك يورثون الحكم لأبنائهم الذكور. (٣)

أما كبار الموظفين في البلاط الملكي ومستشاروه ووزراؤه فقد كانوا من المسلمين حتى في العهد الوثني، إذ كان المسلمون أكبر طبقة مثقفة، وينطبق هذا على المسلمين من الوطنيين السوننك، وعلى من هاجر من العرب والبربر واستقر في غانا، وشجع على ذلك نشاط التجارة وازدهارها، وتوفر فرص العمل في دولة غانا، فضلاً عن توفر الأمن لمدة تقرب من قرنين، فقد كان

---

(١) انظر السعدي: تاريخ السودان، طبعة انجي سنة ١٨٩٨م، ص ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) ابن بطوطة، مرجع سبق ذكره، طبعة التحرير، ص ٤٥٢ .

(٣) نقيم قدام: إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص ٤ .

لدولة غانا فرق من الحرس تجوب الصحراء، ولهذا أكبر الأثر في نمو المدينة الإسلامية وازدهارها بالصفوة من العلماء والمثقفين، وقيام المدارس العربية الإسلامية فيها. (١)

ونتيجة لوجود المسلمين في المناصب الإدارية وفي الجيش والحرس، أصبحت القوة الإسلامية تسير قدماً نحو السيطرة على السلطة، وقد كان من جلال الإسلام أن ترفع باتباعه عن الركوع أمام الملك، وهو ما كان يفعله غير المسلمين، وفي هذا يقول البكري: «إن أهل دين الملك كانوا إذا دنوا منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم، فتلک تحتهم له، وأما المسلمون فإنما كان سلامهم عليه تصفيقاً باليدين». (٢) «ولعل ذلك قد دفع بالكثير من صفوف الوثنيين إلى صفوف المسلمين، لينعموا بهذه المكانة في قصور الملك، إلى أن كان الدفّع الإسلامي يسير بقوة ليجعل من الملك نفسه مسلماً، فيتخلى عن هذه العادة.

---

(١) الدكتور طرخان، مرجع سبق ذكره.

(٢) البكري، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٦.



## المبحث الثاني



## دولة مالي الإسلامية

### المطلب الأول : التطور التاريخي لقيام دولة مالي

مالي، هي المعروفة عند العامة ببلاد «التكرور»<sup>(١)</sup>، تعد أقوى وأغنى الدول الإفريقية التي ظهرت في إفريقيا الغربية، ويميزها عن غيرها ذلك الدور الكبير الذي نهضت به من أجل توحيد القبائل الزنجية داخل ولايات أو وحدات أو ممالك. وكذلك الدور البارز في نشر الإسلام والدعوة له في بلاد غربي إفريقيا. ولا نريد هنا أن نعرض للحروب والغزوات التي قام بها سلاطين مالي، ولا أن نتبع تاريخ الملوك الذين تعاقبوا على دست الحكم في هذه الدولة، ولكننا سنعرض لما يهمننا في موضوع هذا البحث، وهو دور التجارة والطرق التجارية والتجار في قيام هذه الدولة الإسلامية.

إن مؤسسي دولة مالي هم قبائل الماندنغو التي سادت لبضعة قرون في المنطقة الفسيحة الممتدة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسي، أي في الوديان العليا لنهر السنغال، وامتدت نحو الجنوب إلى حوالي خط عرض ٥٩° شمالاً، ولا توجد منها جماعات مبعثرة في مناطق أخرى بحوض النيجر وما حوله.<sup>(٢)</sup> ولقد أشار الكتاب العرب من المؤرخين والجغرافيين إلى دولة مالي باسم مل أو مالي أو ملي ونحوها، ومن هؤلاء الكتاب: البكري، الإدريسي، ابن سعيد، أبو الفداء، العمري، ابن بطوطة، ابن خلدون، القلقشندي، ليو الإفريقي، ابن إياس، السعدي وصاحب الفتاش،<sup>(٣)</sup> ابن المختار.

---

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٥، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٢ .

(٢) الدكتور طرخان: دولة مالي الإسلامية، القاهرة ١٩٧٣م. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

ص ٢٧٢

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٠ .

أما ظهور قبائل الماندنغو السياسي على مسرح التاريخ الإفريقي لأول مرة فهذا يرجع إلى زمن بعيد، ومعلوماتنا قليلة عن التاريخ القديم لدولة الماندنغو، وذلك بسبب ندرة المصادر واختلاط الروايات الشفوية بالأساطير، ثم إن السجلات والوثائق الخاصة بدولة الماندنغو لم تدون إلا بعد مرور نحو سبعة قرون أو ثمانية قرون من ظهورها، علماً بأن هذه الوثائق والسجلات لم تكن إلا بأخبار الأسر الحاكمة دون الرعايا، مع نقص أيضاً في هذه الأخبار.<sup>(١)</sup>

هناك رواية تقول إن ظهور هذه الدولة يرد إلى الفترة التي تكونت خلالها دولة غانا، وذلك قبل البعثة النبوية بزمان طويل، وأنه خلال تلك الفترة التي يقدر مداها الزمني بعهود حوالي اثنين وعشرين ملكاً في غانا<sup>(٢)</sup>، حيث كانت دولة الماندنغو تنمو وتتسع تدريجياً في إقليم كانجابا بأعالي نهر النيجر، وكان ذلك الإقليم تابعاً لدولة غانا<sup>(٣)</sup>. وقد بدأ المعروف عن تاريخ هذه الدولة يتضح منذ القرن السابع الميلادي، على أنها بلغت ذروة مجدها خلال القرن (٨هـ/ ١٤م).<sup>(٤)</sup>

ولهذه الدولة منذ فجر ظهورها ما لا يقل عن ثماني أسر حاكمة، لا يعرف عنها إلا القليل، مثل أسرة كوروما وأسرة ديارا وأسرة مركو وأسرة كامارا وأسرة باكابوكو وأسرة الترورين وأسرة الكونانتين وأسرة كيتا... إلخ.<sup>(٥)</sup>

---

(١) الدكتور طرخان، دولة مالي الإسلامية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢، ناقلاً عن مراجع أجنبية.

(٢) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص ٩.

(٣) انظر، الدكتور شلبي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤١، انظر أيضاً الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٠.

(٤) Harisson Church, R.J.: op.cit., P. 238.

(٥) انظر، طرخان، دولة مالي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣، ٣٥.

بعد مهاجمة المرابطين لدولة غانا سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م كما ذكرنا، وجعلها جزءاً من دولتهم، وإعطائهم دفعة قوية للإسلام في ربوعها، وبعد موت القائد المرابطي أبي بكر سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م اختلف أتباعه في هذه البقاع، ففتح هذا الخلاف الباب للسوننكي، حكام غانا السابقين، ليستعيدوا نفوذهم، ولكن صراعاً دب بين المقاطعات التي كانت خاضعة لدولة غانا، وكان النصر في هذا الصراع لقبائل الماندنغو المسلمة، الذين كانوا سادة مقاطعة كانجابا، وكان يقودهم ملكهم سندياتا، وقد أتاح لهم ذلك النصر أن يستولوا على أكثر الأجزاء التي كانت تابعة لدولة غانا، وأن يقيموا على أنقاض غانا دولة جديدة إسلامية عرفت بدولة ملي، أو مالي، وكان ذلك سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م<sup>(١)</sup> ولعل التسمية مالي جاءت من اسم أقدم مدينة في هذه المنطقة.<sup>(٢)</sup>

وكان توسع هذه الدولة يستجيب للأحداث السياسية المعاصرة لها ولنصيب الدول المحيطة بها من القوة أو الضعف. ذلك أن توسعها واستهلالها لحركة دافعة من الفتح أو التوسع وقع في القرن (٧هـ / ١٣م)، في الوقت الذي تفكك فيه ملك غانا بعد صراعها مع المرابطين، وبعد أن تسرب الإسلام إلى صفوفها على نطاق واسع، وفي الوقت نفسه الذي كانت دولة المغرب الإسلامي قد شغلت بشؤونها الخاصة وبأحداثها المحلية، ودولة الموحدين كان قد دهمها الانحلال والتفكك، وانقسمت إلى دويلات صغرى متصارعة من أجل القوة والنفوذ.<sup>(٣)</sup>

وفيما يذكر القلقشندي<sup>(٤)</sup>، يتبين لنا كيف أصبحت مالي وارثة لدولة

(١) الدكتور شلبي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤١ .

(٢) Trimingham, J.S.: The History Of Islam In W.A., op. cit., 62 .

(٣) الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٠ .

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥ مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٦ .



غانا، حين قال: «وذكر في مسالك الأبصار: أن هذه المملكة تشتمل على أربعة عشر إقليماً، وهي غانا، وزفاون وترنكا وتكرور، وسنغانا، وبانيغو، وزرنطابا، وبيترا، ودمورا وزاغا، وكابرا، وبراغودي، وكوكو، ومالي». ومن هنا نلاحظ أن ما يتداوله العامة من أن مالي هي تكرور ما هو إلا جزء من الحقيقة التاريخية؛ أما الحقيقة الكاملة فهي أن التكرور جزء من مالي، ومما يذكره المؤرخون العرب أن مالي يأنف أن يدعى بصاحب التكرور، بل يجب أن يقال له: «صاحب مالي»، لأن التكرور كما رأينا جزء من مملكته.<sup>(١)</sup> وتأكيداً لهذا القول ما يورده العمري<sup>(٢)</sup> في أن مالي عبارة عن اسم إقليم والتكرور مدينة من مدنها، ولكن عندما تكلم عن مالي كان عنوان كلامه «ملك التكرور، مما يدل على معرفته بما تنطوي عليه التسمية.

وأول ملك قادم في هذه الانتصارات ضد غانا والصوصو ملك اسمه «سندياتا»، وهو الذي بنى عاصمة جديدة في نفس السنة التي هزم فيها غانا لتوسط ملكه الكبير بدلاً من عاصمته القديمة «جارب».<sup>(٣)</sup> واختار لعاصمته الجديدة مكاناً غير بعيد من نهر النيجر، وسماها «نيامي»، في موقع يتحكم في الناحية الاقتصادية والحربية والسياسية للدولة، وتلقب هذا الملك، بـ «ماري جاطة».<sup>(٤)</sup>

---

(١) انظر القلقشندي، صبح الاعشى ج ٥ مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٢ .

انظر أيضاً العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوطة مصورة بدار الكتب، الفن: تاريخ، والرقم ٢٥٦٨، معارف عامة ٥٥١، الباب العاشر، ج ٣ .

(٢) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ١٣١٢هـ، طبعة مطبعة العاصمة، ص ٢٧ .

(٣) انظر محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان وأكابر الناس، طبعة باريز بردين بمدينة أنجي، ص ٣٨ .

(٤) انظر ابن خلدون العبر، ج ٥، ص ٤٣٣ .

وكان الملك سندياتا مؤسس دولة مالي يقود جيوشه بنفسه في المرحلة الأولى لتكوين الدولة، حتى تم له الانتصار على غانا، وبني عاصمته الجديدة، ثم توقف عن حمل السلاح وترك ذلك لقواده الذين لم يقنعوا بهذا الانتصار، وتخطوا باسمه حدود بلادهم، يحاربون ويتصرفون في كل الاتجاهات، حتى أدخلوا ضمن مملكتهم بلادا وراء السنغال لم يسبق أن هزمتها دولة غانا، كما وصلوا إلى نهر جامبيا، واندفعوا إلى مسافات بعيدة جنوب السنغال حتى حدود «تكرور». وبدأت مالي تمارس نشاطها في السودان الغربي كله، وحققت آمالها في ميادين السياسة وميادين الاقتصاد، وامتدت من جبال الأطلس غرباً إلى بلاد الهوسا شرقاً، ومن المحيط الأطلسي جنوباً حتى الصحراء الكبرى شمالاً. وحج «ماري جاطة» شكراً لله على هذا الانتصار العظيم والتوفيق الذي حاله وحالف جيشه، وأعان العلماء في ظل الدولة الجديدة على نشر العلم والإسلام.<sup>(١)</sup>

ومن هنا أصبح لملك مالي العزة والمهابة في جميع أنحاء أفريقية الغربية، مما شجع رحيل التجار إلى بلاده من جميع أنحاء العالم الإسلامي.<sup>(٢)</sup> وليس أدل على عمق الإسلام في نفس هذا الفاتح الكبير - سندياتا - من موقفه من المسلمين حين أحجم عن التقدم نحو مدينة والاتا walata المعروفة في رحلة ابن بطوطة باسم «إيولاتن»<sup>(٣)</sup>، رعاية لحق من لجأ إليها من المسلمين الذين جفلوا من قبل أمام خطر الصوصو، وكان بين هؤلاء المسلمين عدد كبير من التجار والعلماء.<sup>(٤)</sup>

---

(١) Trimingham: AHistory of Islam in W.A., op. cit., P.P. 46-65.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٦، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠.

(٣) ابن بطوطة، تحفة النظار، طبعة التحرير، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤١، ٤٤٢، ص ٢٤٣.

(٤) Bovill: op. cit., P. 87.

صبح الأعشى، ج٥، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٣.

ويقال إن «ماري جاطة» قد فتحت مدينة (جني) عاصمة النيجر، وهي عاصمة دولة جني الإسلامية المشهورة بكثرة علمائها من المسلمين، وتخضع في ذلك الوقت لدولة سنغي التي لم تكن قد قويت بعد. وكان استيلاؤه عليها في العام نفسه الذي حطم فيه إمبراطورية الصوصو. وفي عام ٦٤٨هـ / ١٢٤٠م نجح ماري جاطة في تدمير ما بقي من مدينة كومبي صالح، عاصمة دولة غانا، وهي التي أقل نجمها منذ هجرها العلماء والتجار المسلمون إلى والاتا، عندما هاجمها إمبراطور الصوصو عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م.<sup>(١)</sup>

وبعد أن رأينا كيف توسعت دولة مالي الإسلامية، وحكمت السودان الغربي، وبدأ التجار من شمالي إفريقية يتجهون إليها بثمرة، ويستقرون في عاصمتها، نود هنا أن نقرر حقيقة واضحة وهي أنه متى ما توفر الأمن واهتمت الدولة بالتجارة الخارجية كان ذلك عاملاً منشطاً لحركة التجارة وإقامة المتاجر الدائمة واختلاط الناس، سواء منهم الوافد أو السكان الأصليون.

وبضم دولة مالي لكل أقاليم غانا أصبحت دولة مالي أقوى وأغنى مركز اقتصادي في غربي إفريقية، فقد أصبحت تتحكم في تجارة المنطقة، وتضع يدها على مناجم الذهب التي كانت تعج بجماعة «وانجارا». وقد جاء في صبح الأعشى<sup>(٢)</sup> عن هذا أن في طاعة سلطانها بلاد مغارة الذهب، وهم بلاد همج وعليهم إتاوة من التبر تحمل إليه في كل سنة، ولو شاء أخذهم، ولكن ملوك

---

(١) الدكتور طرخان، دولة مالي الإسلامية، مرجع ذكره، ص ٤٢، نقلا عن كتاب آخر له بعنوان «غانة في العصور الوسطى» ص ٧٦. انظر أيضاً صبح الأعشى، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٣.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٨٧.

هذه المملكة قد جربوا أنه ما فتحت مدينة من هذه المدن وفشا فيها الإسلام ونطق بها داعي الأذان إلا قل بها الذهب ثم يتلاشى حتى يعدم ، ولذا تحاشوا حكمها مباشرة . وقد أثبت هذه الحقيقة كذلك العمري .<sup>(١)</sup>

وكما كانت عظمة وشهرة غانا وقوتها في السيطرة على هذه المنطقة الغنية ، كان الحال أيضاً بالنسبة لدولة مالي الإسلامية واثرة غانا . فقد كانت هذه المنطقة - وانجارا - سخية في إنتاج هذا المعدن النادر إلى يومنا هذا ، ولم تفت كل من كتب عن هذه المنطقة أن يعطي وصفاً دقيقاً لعملية إنتاج الذهب ومكانه وطريقة استخدامه وأوقات استخراجها ، وطريقة المقايضة فيه ، ومنهم من وصفه كأنه الحجارة والحصى .<sup>(٢)</sup>

وبجانب التحكم في تجارة الذهب كان التحكم في تجارة النحاس الأحمر الذي يجلب منه قضبان من مدينة «تكوا» الحالية إلى مدينة بنى قاعدة مالي .<sup>(٣)</sup> فيبعث منه إلى بلاد السودان الكفار فيباع وزن مثقال بثلاثي وزنه من الذهب .<sup>(٤)</sup> ومن رواية العمري يبدو لنا أن غانا ، بعد أن دخلت سياسياً في سيادة دولة مالي ، إلا أنها أصبحت تتمتع بشيء من الاستقلال الذاتي على نوع ما كما سبق الإشارة إلى ذلك من رواية للقلقشندي ، ويوضح العمري<sup>(٥)</sup> هذا ، فيقول : «وأما غانا فإنه لا يملكها (يعني ملك مالي) وكأنه مالكةا ، يتركها على

---

(١) التعريف ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧ .

(٢) انظر القلقشندي ، المصدر نفسه ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٣) المصدر نفسه والجزء ، ص ٨٣ .

(٤) المصدر نفسه ، نفس الجزء ، ص ٢٩١ ، انظر ابن بطوطة ، تحفة النظار ، طبعة التحرير ، مصدر سبق

ذكره ، ص ٤٥٣ ، العمري ، التعريف ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٧ .

(٥) التعريف ، المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

قدرة عليها لأنه بها وبما وراءها جنوباً منابت الذهب. وقد جرى أن بلاد منابت الذهب متى أخذت وفشا فيها الإسلام والأذان عدم نبات الذهب فيها. فصاحب مالي يتركها لأنه مسلم وله عليها إتاوة كبيرة مقررة تحمل في كل سنة. (١)

وبهذا تكون هذه المملكة الإسلامية قد توافرت لها مقومات الملك وأصبحت مستقرة اقتصادياً. وكانت القوافل الآتية من مراكش وبرقة ومصر تزور مالي بانتظام.

### المطلب الثاني : الإسلام في دولة مالي

إن المرابطين، كما قلنا في السابق، لم يكونوا أول من أدخل الإسلام إلى بلاد السودان الأوسط والغربي في القرن نفسه الذي ظهر فيه وهو القرن السابع الميلادي، فقد أشار «أحمد بابا» المؤرخ لدولة صنغي إلى وجود اثني عشر مسجداً في مدينة غانا (كومبي صالح) حوالي عام ٦٠هـ / ٦٧٩م<sup>(٢)</sup>. والقلقشندي أيضاً يذكر أن ملوك مالي دخلوا في الإسلام من زمن قديم،<sup>(٣)</sup> كما أن دولة أودغست الإسلامية، وهي التي كونها السوننك، أحد فروع الماندنغو، قامت مبكرةً بدور كبير في نشر الإسلام منذ القرن التاسع الميلادي. ومع أن حكام أودغست من البربر البيض من قبيلة صنهاجة، إلا أن سكانها ومؤسسيها من السوننك السودان، وتقع شمالي غربي كومبي صالح.<sup>(٤)</sup>

---

(١) العمري، التعريف، المصدر السابق، ص ٢٧.

(٢) الدكتور طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ٤٧ نقلاً عن كتابه «غانا في العصور الوسطى»، دولة مالي الإسلامية، ص ٤٧ نقلاً عن كتابه «غانا في العصور الوسطى»، ص ٥٣ وكتابه «الإسلام واللغة العربية في السودان الأوسط والغربي» ص ١٠.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥ مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٣.

(٤) الدكتور طرخان، دولة مالي الإسلامية، ص ٤٧.



ويذكر أبو الفداء<sup>(١)</sup> أنه قد أسهم في نشر الإسلام في بلاد السودان التجار المسلمون والدعاة الذين جاؤوا من وادي النيل ومصر بصفة خاصة، ومن بلاد المغرب، ونشطت العلاقات المتنوعة طوال عصور التاريخ المختلفة، بحيث لم يحدث أن انعزل قلب إفريقية تجارياً أو ثقافياً عن بقية أجزاء القارة وعن آسية وأوربة في أي فترة من فترات التاريخ، وزاد الاتصال وسهلت الرحلة والتنقل منذ استخدم الجمل في إفريقيا، مما ساعد على انتشار الإسلام واتساع رقعته.

وفي الحركة المرابطية التي كانت نتيجتها ضم غانا إليهم، لم يكتف المرابطون بالتحول الاسمي للإسلام، بل أرسلوا العلماء بين القبائل السودانية - الغربي إفريقية - لبث العقيدة الصحيحة، لأنه من المعروف أن المرابطين لم يقتصر دورهم على نشر الإسلام بين الوثنيين، بل شمل أيضاً إصلاح عقيدة المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام، ولكن لم يتشربوه تماماً، ولم يلتزموا كل أحكامه، بل جعلوه عضين، وخلطوه بعقائدهم المحلية، فأصبحوا بذلك في نظر المسلمين المرابطين غير مسلمين كما ينبغي. ومما هو معلوم أن معظم حركات الجهاد التي حفل بها تاريخ إفريقية الإسلامي قامت لتنقية العقيدة الإسلامية مما علق بها من رواسب الجاهلية وخرافات ليست من الدين في شيء، وحتى في الجزيرة العربية نفسها كانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تسعى إلى الغرض نفسه.

وبفضل حركة المرابطين نشطت الاتصالات التجارية والثقافية بين بلاد السودان والعالم الإسلامي، ولا سيما شمالي إفريقية وأسبانية الإسلامية التي انضوت في نفس الوقت تحت لواء المرابطين. كل هذا أتاح الفرصة لنشر

---

(١) أ. تقويم البلدان، باريس، ١٨٥٠م، طبعة دار الطباعة السلطاني، ص ٧٢،

الأفكار المتطورة والمدنية الإسلامية بين السود. هذا والمرابطون هم الذين أنشؤوا مدينة تنبكت على منحني نهر النيجر. وسرعان ما أصبحت مركزاً إسلامياً وثقافياً وتجارياً في بلاد السودان.<sup>(١)</sup>

ونخلص من ذلك إلى أن مالي عرفت الإسلام قبل دخول المرابطين إلى غربي إفريقية وذلك كله بفضل العلاقات التجارية القديمة بين شمالي القارة وغربيها. ولما كان غربي القارة كله شبه مجموعة واحدة فلا بد من أن يكون للتجارة التي تقف أمامها الحواجز دور رئيس في تبادل الأفكار الجديدة الصالحة.

وعندما يتطرق الباحث لدخول الإسلام إلى دولة مالي يتبادر سؤال إلى الذهن، وهو: من هو أول من أسلم من ملوك مالي؟ وهنا يمكن تمحيص الروايات التي وردت بهذا الصدد حتى يمسك برأس الخيط. ففي رواية للبكري مفادها أن بلاد مالي أجذبت في عام من الأعوام، حتى كاد الزرع والضرع أن يهلكا، مما دعا الملك أن يلجأ إلى أحد الشيوخ المسلمين لما عهد فيه من الصلاح، فصلى الشيخ مع الملك صلاة الاستسقاء حتى هطل المطر، وذلك بعد أن طلب الفقيه المسلم من الملك أن يسلم أولاً، فأسلم، وحطم الأصنام، ويقول البكري: «وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته، وأهل مملكته مشركون، فوسموا ملكهم منذ ذلك الحين بالمسلماني».<sup>(٢)</sup>

ورواية البكري لا تذكر اسماً للملك كما رأينا، أما القلقشندي<sup>(٣)</sup> فقد سماه برمندانه. وكان ابن خلدون دقيقاً حين قال بأن برمندانه هذا كان أول من

---

(١) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) البكري، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨ .

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٣ .

حج من ملوك مالي، ولم يقل أول من أسلم، وعبارته: «وتحولت الأحوال باستمرار العصور، فاستولى أهل مالي على ما وراءهم، ودخلوا في دين الإسلام منذ حين من السنين، وحج جماعة من ملوكهم، وأول من حج منهم برمندار وسمعت في ضبطه برمندانه» (١)

ففي عبارة ابن خلدون إحياء بأن الإسلام كان مبكراً في مالي وأن الملك الذي حج ربما لم يكن أول من أسلم، بدليل أن هناك رواية شفهية تفيد بأن مؤسس أسرة الترويين في حكم مالي واسمه «منسا نوفرن تراورا» قد اعتنق الإسلام، وربما كان هو نفسه أو آخر سبقه هو المعني في عبارة البكري، إذ المعروف أن اعتناق الإسلام في غربي إفريقيا كان سطحياً، وعلى الأقل في أول انتشاره.

وليس هناك ما يمنع أن يوجد ملوك أسلموا، وجاء بعدهم ملوك ظلوا على الشرك قل عددهم أو كثر، والمعروف كذلك أنه حتى من الملوك المسلمين في مالي وغيرها فضلاً عن الرعايا المسلمين من كان يمارس التقاليد الوثنية الموروثة مع إسلامهم (٢).

ومهما يكن الاختلاف حول أول من أسلم من الملوك ولكن المهم هو أن الماندنغو من أكثر شعوب غربي إفريقيا تمسكاً بالإسلام وتحمساً له، وازداد انتشاره بينهم وأصبح دين الدولة الرسمي، ولم يكتفوا بالمظهر الخارجي للإسلام، ذلك لأنهم يريدون تلك القوة الروحية التي تحرك وجودهم والتي تجعلهم يستطيعون بوساطتها أن يهزوا الحياة عند جيرانهم، وقد تمّ لهم هذا

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٢، طبعة بيروت، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٣ .

(٢) الدكتور طرخان، دولة مالي، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢ .

بصورة تكاد تكون حاسمة في عصر «منسا علا» الذي تولى الملك بعد موت أبيه «سندياتا» عام ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م، ثم في عهد سبعة ملوك تولوا حكم البلاد من بعده أشهرهم «منسا موسى» (١٣٠٧ - ١٣٣٢م) الذي تعتبر قافلة الحج التي مرت بمصر بصحبته، من أروع مظاهر ثراء هذا العاهل الإفريقي<sup>(١)</sup>. وفي أثناء إقامته في مصر هبط سعر الذهب عن ثمنه العادي لوفرة ما وجد منه، وظل منخفضاً مدة طويلة، وابتاع جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل بلاده مناهل الثقافة الإسلامية، وظل الناس في مصر يذكرون ما أحاط بتلك الزيارة كأنها من الأحداث العالمية، ويتناقلون أخبارها سنين طويلة.

ذلك هو «منسا موسى» الذي أشاد به ومجّده معظم الذين كتبوا عن تاريخ هذه الدولة العظيمة، وعلى رأس هؤلاء الكتاب، ابن بطوطة، الذي حفلت رحلته إلى غربي إفريقية بأخبار هذه الدولة، لأنه زارها ووقف على الحالة فيها، ويعد مصدراً أصيلاً وأولياً في تاريخ هذه الدولة، ثم ابن خلدون والقلقشندي. ومما قاله عنه ابن خلدون: «وكان رجلاً صالحاً، وملكاً عظيماً، له أخبار في العدل تؤثر عنه، وعظمت المملكة في أيامه إلى الغاية، وافتتح الكثير من البلاد»<sup>(٢)</sup>.

وذكر عن ابن أمير حاجب والي مصر أنه كان معه مئة حمل ذهباً أنفقها في سفرته تلك على من بطريقه إلى مصر من القبائل ثم بمصر، ثم من مصر إلى الحجاز توجهاً وعوداً حتى احتاج إلى القرض فاستدان من تجار مصر بما

---

(١) انظر المرجع نفسه ، ص ٨١ .

(٢) ابن خلدون، العبر ، ج٢ ، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٤ ، انظر القلقشندي، صبح الأعشى ج ٥ ،

مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٤ .

لهم عليه فيه المكاسب الكثيرة، بحيث يحصل إليهم بذلك بعد توجهه إلى بلاده<sup>(١)</sup>. وفي هذا دلالة عظيمة على مدى العلاقة التجارية بين مصر وغربي إفريقيا، وعلى مدى عائدات هذا العاهل من الذهب.

وفي أيام منسا موسى انتعشت التجارة والعلوم، وسرعان ما أصبحت أهم أسواق السودان الغربي، ولا سيما بعد انتقال سوق الذهب إليها، كما اجتذبت التجار من درعة وسوس وسجلماسة وفزان ومن مصر أيضاً<sup>(٢)</sup>. واستطاع قواد منسا موسى أن يفتحوا والاتا وتنبكت وأن يضموا (جوا) في أواسط النيجر. وفي عهده امتدت رقعة مملكته من بلاد التكرور غرباً إلى دندي شرقاً ومن والاتا في الصحراء إلى مرتفعات فوتاجلون جنوباً. ولم تنج من أطماعه في السودان الغربي سوى مدينة جني التجارية ومملكة موسى المستقلة<sup>(٣)</sup>.

وليس أدل على قوة العلاقات والمصالح مع الشمال الإفريقي أكثر من وجود سفراء لهذا العاهل في مدينة فاس، وليس أدل على قوة تمسكهم بالدين أكثر مما يروي ابن بطوطة<sup>(٤)</sup> حينما دخل على قاضي مالي يوم العيد فوجد أولاده في القيود فقال: «ألا ترحمهم؟ فأجابه القاضي: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن» فكانت هذه غايتهم في حفظ القرآن.

ويذكر ابن بطوطة أنه مر يوماً بشاب حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل، فقال لمن كان معه: ما فعل هذا، أقتل؟ ففهم عني الشاب

---

(١) القلقشندي، ج ٥ ص ٢٩٦ .

(٢) الدكتور زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا، مرجع سبق ذكره ص ٣٧ .

(٣) الدكتور حسن إبراهيم: انتشار الإسلام في إفريقيا، مرجع سبق ذكره ص ١٠٤ .

(٤) ابن بطوطة : تحفة النظار، كتاب التحرير، مصدر سبق ذكره ص ٤٥٠ .



وضحك. وقيل له (ابن بطوطة): إنما قيد حتى يحفظ القرآن<sup>(١)</sup>.

على أن دولة مالي لم تكتف باعتناق الإسلام والحرص على مظاهره وعلومه، وإنما أخذت تدعو له بين الوثنيين، حتى إن الدور الذي قامت به في نشر الإسلام، يعد من أهم مراحل انتشار الإسلام في إفريقية جنوبي الصحراء، واقتربت جميع فتوحها الحربية بالدعوة الإسلامية، يقول العمري: «وملك مالي في جهاد دائم وغزو، ملازم لمن جاوره من كفار السودان<sup>(٢)</sup>». وحتى إن كلمة سوننك - فرع من الماندينجو - صارت مرادفة لكلمة داعية كما سبق ذكره.

وبفضل علماء مالي استقامت أمور الإسلام في كانوا، وكان العلماء والدعاة المسلمون القادمون من مالي إلى بلاد الهوسا يحضرون معهم الكتب الإسلامية في الدين واللغة.<sup>(٣)</sup>

وليس من شك في أن وجود نحو ٤٢٠٠ عالم مسلم في القرن الثاني عشر الميلادي في جني التي يحكمها ملك من الماندينجو<sup>(٤)</sup>، يدل بوضوح على نشاط الدعوة الإسلامية في دولة مالي وجيرانها. وذلك إذا تجاوزنا التحقيق في مدى صحة هذا الرقم، وما قد يكون فيه من مبالغة، ولكن لا مندوحة لنا عن أن نقر أن هذا الرقم يعكس ضوءاً على ازدهار الدعوة الإسلامية ومدى التسامح والترحيب اللذين ظفر بهما دعاة الإسلام في تلك البلاد.<sup>(٥)</sup>

وأهل مالي أكثر زنوج إفريقية رقباً وأشدّهم ذكاءً، ويمتدح الرحالة المحدثون صناعاتهم ومهارتهم وأمانتهم ونظافة قراهم وشدة تمسكهم بالإسلام.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٥٠.

(٢) العمري، مسالك الأبصار، مصدر سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٠٧.

(٣) الدكتور طرخان، دولة مالي، ص ٥٦، ومصدره بالمر.

(٤) السعدي، تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص ١٢ - ١٣.

(٥) الدكتور طرخان، دولة مالي، المرجع السابق، ص ٥٦.

وقد ذكر ابن بطوطة أنهم يشتهرون ببسط العدل واستتباب الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان القناطير المقنطرة، إنما يتركونه بيد ثقة حتى يأخذه مستحقه، ومنها مواظبتهم على الصلاة، والتزامهم إياها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. وإذا كان يوم الجمعة ولم يكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام، ولباسهم الثياب البيض يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلّق غسله ونظفه وشهد به صلاة الجمعة. (١)

وفي عهد منسا موسى اتجهت عناية مالي لنشر الإسلام حتى غمر أكثر بلاد نيجيريا كما ذكرنا، وأصبح أهل بلاد يوربا يدعون الإسلام بدين مالي، ظلوا على ذلك حتى العهد الحاضر، ويقرر ترمنجهام<sup>(٢)</sup> أن منسا موسى قد صبغ مالي بصبغة إسلامية واضحة بما شيده بها من مساجد، وباحتفالات الباهرة في المناسبات الإسلامية المختلفة، وبرعايته للعلم والعلماء.

لقد كانت دولة مالي في عهد منسا موسى في قمته التي ما بعدها قمة، ولكن بدأ الضعف يدب في أوصالها بعد وفاة هذا العاهل العظيم. وخلفه شقيقه منسا سليمان الذي حاول رأب الصدع، ولكن بوفاته بدأ الانحدار الذي لم يمكن رأبه، إذ كان خليفته ماري جاطة الثاني مسرفاً ومستبداً. وجاء بعده ابنه موسى الثاني<sup>(٣)</sup>. وكان الأمر قد أفلت واتجهت الدولة إلى الانحدار، واضطربت أحوالها، وتفكك جيشها نتيجة للاضطراب، وأصبح أداة فوضى، ومن هنا فتح

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، كتاب التحرير، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.

(٢) Islam in W. A., op. cit., p. 70.

(٣) انظر ابن خلدون، العبر ج٢، ص ص ٢٠١ - ٢٠٢.

الباب لاستقلال الدول والإمارات التي كانت أجزاء من الدولة، وتمزقت أوصالها، وجاءتها الضربات من كل جانب. ففي الشمال هب الطوارق في حركة استقلالية واسعة شملت والاتا وتنبت ومعظم الأقاليم الشمالية. وفي الجنوب الغربي وجه التوكولور والولوف ضربات قوية إلى الدولة واستقلوا بأجزاء منها، وفي الجنوب ضمت قبائل موسي جزءاً كبيراً من أملاك الدولة المتداعية، وفي الشرق تعرضت الدولة لهجمات دولتي سنغي وكانم. على أن أكبر الضربات التي وجهت للدولة مالي كانت من سنغي التي تحررت من سلطان مالي، ثم قويت قوة عظيمة جعلتها تثار لكبريائها وتمد نفوذها إلى الدولة التي كانت يوماً ما صاحبة النفوذ فيها، وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر كان جلال مالي قد آذن بالزوال، ولم يبق لحكامها إلا الإمارة الضئيلة التي نشؤوا فيها: «كنجابا»، وقد دهمهم الاستعمار الأوربي وهم في هذه الإمارة الصغيرة. (١)

ومن تتبَّع الأحداث السابقة يبدو لنا جلياً أن أصل إسلام مالي جاء من المؤثرات الشمالية عبر الطرق التجارية. وكان دور مالي يمثل حلقة في سلسلة الدول الإسلامية التي قامت في غربي إفريقيا، إذ كانت كل دولة تعتمد في قيامها على السيطرة على هذه الطرق والإفادة منها اقتصادياً، واتخاذ الإسلام نظاماً دافعاً إلى الأمام مع الملاءمة مع تقاليدهم المحلية الموروثة. وكانت التجارة توأم الإسلام، وبواسطتها تصل الدولة إلى قماتها ولا تنحدر إلى الدرك الأسفل إلا عندما تفلت قبضتها عن هذا المصدر الحيوي الذي يمثل عصب الحياة فيها ومصدر قوتها السياسية. ورغم الاطّراد في نمو الإسلام فقد كانت هذه الدول

---

(١) الدكتور شلبي ص ص ٢٤٧-٢٤٨.

تبادل الاضطلاع بدور كبير في الحياة الإسلامية. ولم يكن سقوط إحداها يعني ضعف الإسلام، بل العكس، فإن العلة لم تكن في الإسلام، ولكن كانت العلة في الجهاز الإداري للدول، والذي تحرسه الجيوش. فمتى ما كان الملك أو الحاكم ضعيفا كان الجيش أداة تقويض بدلا من أن يكون أداة تقدم وازدهار. لذا فلا غرابة إذا رأينا غانا قد أفل نجمها وورثتها مالي، ثم نجد دولة مالي بدورها تسلم الراية إلى دولة سنغي، ثم بعد ذلك كاتم وبورنو. وكان النمو في المنطقة كلها نموا في وسائل الحكم تتخلله منافسة بين مختلف الأسر الحاكمة والغزو الأجنبي وعوارض التاريخ، وهو الشيء نفسه الذي كان يحدث في أوربة التي عاصرت هذه الحقبة من التاريخ، تطور حكومات مركزية واعتماد على الزراعة والرعي، وتوسع في استخدام المعادن من الناحية الاقتصادية. . ودور تؤولية التجارة مما دفع عجلة التطور<sup>(١)</sup>. إذن فهي سلسلة متصلة يبرز فيها دور التجارة واضحا متى ما اضمحلت القوة السياسية لدولة قامت على أعقابها دولة أخرى دونما خلل في حركة التجارة إلا لمدة يسيرة من الزمن. ويقول دافيدسون في هذا المعنى عند التعرض لسقوط غانا على يد المرابطين، يقول: إن هذا الغزو لم يؤد إلى انهيار أساليب التجارة والإدارة التي جعلت من غانا دولة قوية خلال عدة قرون. . فقد ظهرت دولة أخرى مع دولة غانا وبعدها، ولم يكن الغزو من الشمال أكثر من حالة عارضة، ثم عادت التجارة في الصحراء إلى سابق عهدها في أمن وسلام لم يهددها إلا وسطاء التجارة في الصحراء مثل قبائل الطوارق المستقلة، . . ولم تتعرض هذه التجارة لتهديد العرب أو المرابطين بالشمال الإفريقي.<sup>(٢)</sup>

---

(١) باسيل دافيدسون، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥.

(٢) المرجع والمكان نفسهما.

## المطلب الثالث : الأثر الحضاري للإسلام في دولة مالي

### أولاً - الناحية السياسية :

من الملاحظ ، لأول وهلة ، أن الإسلام في إفريقية جنوبي الصحراء ظفر بأقوى القبائل وأعظمها شأنًا<sup>(١)</sup> ، وأنه هو الذي دعم مركز الدول الإسلامية الكبرى في جميع بلاد السودان ، من المحيط الأطلسي غربا إلى مملكة الفونج الإسلامية شرقا في حوض النيل الأوسط .

لقد جاء الإسلام إلى الزنوج وهم سادة في أوطانهم ، يتمتعون بكامل الحرية والسيادة والاستقلال والقوة ، ويمارسون حكمهم وينظمون شؤونهم الخاصة ومجتمعاتهم ، فلم يكن لدعاة الإسلام من المسلمين العرب والبربر أو ناشريه من أي جنسية أخرى أدنى قسط من السيطرة ، وإن كان نفوذهم الروحي عظيما ، لكنه مقبول عن رضى واقتناع .

وقد استطاع منسا موسى أن يحرز نجاحا كبيرا في ميدان السياسة الخارجية أو العلاقات الخارجية ، فعندما توجه مع أتباعه إلى مكة لأداء فريضة الحج كان هذا دليلا يقدمه للعالم على سعة انتشار الإسلام . . وعلى قيمة الحضارة السودانية الغربية .<sup>(٢)</sup>

وزاد تطور نظم الحكم مع ازدهار دولة منسا موسى ، فكانت المدن تزدهر وتزداد رخاء بازدياد النفوذ السياسي والسيطرة التامة على طرق القوافل وبث المهابة السياسية في نفوس الأعداء .

ومما هو جدير بالملاحظة أن التجار البنادقة بالقاهرة شهدوا موكب

---

(١) كما كان الحال بالنسبة لقبيلة قريش في الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية الأولى .

(٢) باسيل دافيدسون ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .



السلطان موسى ومروره بالقاهرة، وكتبوا تقارير عنه إلى بلادهم.<sup>(١)</sup>  
ولمؤكب الحج التاريخي الذي قام به منسا موسى أكبر الأثر في أن تطبّق  
شهرة هذه الدولة الآفاق، وذلك للترف والبذخ الذي صاحب هذا المؤكب. فقد  
وصلت شهرة مالي وأخبار مؤكب حج السلطان منسا موسى ودلالته إلى  
أوربة، ومنذ ذلك الوقت ازداد التفكير الأوربي في محاولة تعرف قلب إفريقية  
والوصول إليه، وفي ذلك الوقت، وهو القرن الرابع عشر الميلادي، تأسست  
مدرسة في جزيرة ميورقة بالبحر الأبيض المتوسط للدراسة وتعليم فن الخرائط  
وإصدار الخرائط، ومن أهدافها الرئيسة التعرف على قلب إفريقية لأغراض  
تجارية، وعلى الأقل في أول أمرها<sup>(٢)</sup>. وقد ذكرنا ذلك من قبل.

ظهرت صورة منسا موسى في أغلب الخرائط التي صدرت في ذلك  
القرن، إذ عدت بلاده قلب المنطقة أو الهدف الأقصى الذي ينبغي السعي  
للوصول إليه، فمن هذه المنطقة تتدفق السلع الإفريقية، كما يتدفق الذهب.  
وأقدم خريطة ظهرت في ذلك الوقت ترجع إلى عام ٧٩٣هـ / ١٣٣٩م، أي  
بعد وفاة منسا موسى بقليل. وهي خريطة العالم التي رسمها العالم الميورقي  
«النجلينو دلكرت». وأشارت هذه الخريطة إلى قلب إفريقية، حيث أظهرت ملك  
مالي جالسا على عرشه في زيه الملكي وعلى رأسه التاج وفي يده الصولجان  
الملكي.<sup>(٣)</sup>

وتدل خريطة دلكرت على مدى الرغبة الشديدة في حب الاستطلاع  
لمعرفة بلاد منسا موسى والطرق المؤدية إليها. فقد ظهرت في الخريطة جبال

---

(١) الدكتور طرخان، مالي، مرجع سبق ذكره، ص ٨٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٧.

أطلس ويقطعها وادي السوس المؤدي إلى بلاد الزنوج.<sup>(١)</sup>

وظهرت بعد ذلك عدة خرائط تدل على أهمية وعظمة مالي وعاهلها. والذي يمكن أن نقوله، إن عظمة مالي زمن منسا موسى كانت من بين الحوافز التي أدت إلى زيادة المعروف عن قلب إفريقية تمهيدا لحركة الكشف والاستعمار الأوروبي.

وهكذا كانت مكانة مالي السياسية والاقتصادية في عالم العصور الوسطى عطاء من أعطيات الإسلام لهذه الدولة - إذ إنه لولا خروج هذا العاهل إلى العالم الخارجي في طريقه إلى الحج، لما عرف عنه عالميا مثل الذي عرف. ولولا قوة الدفع الإسلامية والركائز القوية من الحضارة الإسلامية لما استطاع أن يبلغ هذا الشأن العظيم من القوة والنفوذ السياسي، فعندما انصرف خلفه إلى العبث والخروج على القواعد الإسلامية الكريمة، كان ذلك إيذانا بزوال هذه الدولة العظيمة.. وأصبح من الصعب على منسا سليمان خليفة مغان بن منسا موسى أن يعيد السلطة إلى قوتها بعد النكسة التي وقعت خلال عهد ابن أخيه (مغان). وإذا نجح منسا سليمان<sup>(٢)</sup> في استرجاع بعض البلاد التي فقدت، لكنه فشل في استرجاع جاو عاصمة سنغي. ومنسا سليمان نفسه كان متفقا في الدين معروفا بالصلاح والتقوى، أدى فريضة الحج عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، وقد مكثته رحلته هذه من إعادة بسط نفوذ الماندنغو على أطراف

---

(١) المرجع نفسه، ص ٨٧، ومرجعه: بوفل: «تجار الذهب»، ص ٧٦-٧٧.

(٢) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٩، وما جاء فيه نقلا عن (مسالك الأبصار): «واجتمع له ما كان أخوه افتتحه من بلاد السودان وأضافه إلى يد الإسلام، وبنى به المساجد والجوامع والمنارات وأقام به الجمع والجماعات والأذان، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضى الله عنه، وتفقّه في الدين».

البلاد التي مر بها في طريقه، لكنه لم يستطع أن يعيد سلطان مالي على سنغي. وخلفه بعد ذلك ملوك ضعاف. (١)

أما من الناحية السياسية في الإدارة، فقد نجحت حكومة مالي في إدارة شؤونها وفي تنظيم دولتها المتسعة الأرجاء. وعلق بعض الكتاب العرب على نجاح حكومة مالي، كنموذج لحكومات الدول الإفريقية القومية في غربي إفريقيا، بأنه دليل واقعي على قدرة الإفريقيين السود على تنظيم شؤونهم وإدارة حكوماتهم ذات المسؤوليات الضخمة، ولعله من أبرز الدلائل على قدرة الأجهزة الإدارية المركزية والمحلية على ضبط وتنظيم الاستثمار، ووضح الأثر الشرقي الإسلامي في الإدارة وتقاليدها، كما برز في المظاهر السلطانية من مواكب وحفلات. (٢)

أما نظام القضاء في مالي، فقد كان دقيقا، كما كان محل عناية كبرى من السلطان، ويكاد يكون منقولا عن الشرق الإسلامي، ولا سيما مصر. فقد وجد القضاة السود بجانب القضاة البيض، واحتل هؤلاء جميعا مراكز سامية في المجتمع، ويعتبر القاضي مستشارا للسلطان ومعه خطيب المسجد الجامع. (٣) ويزودنا القلقشندي (٤) والعمرى (٥) بصورة جلية للتنظيم الإداري في هذه البلاد فيقولان: إنه كان بهذه المملكة الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين. وإن

---

(١) لمعرفة تفاصيل ذلك انظر المصدر السابق، ص ٢٩٧-٢٩٨ ومنسا سليمان هذا هو الذي قابله ابن بطوطة ووصفه بالبخل أولا ثم رجع وأثنى عليه بعد أن أكرم وفادته، انظر تحفة النظار، كتاب التحرير ص ٤٤٥. وكل مشاهداته كانت في عهد هذا العامل.

(٢) الدكتور طرخان، مالي، ص ١٢٨-١٢٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣١.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٥) العمرى، مسالك الأبصار ج ٢ مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٦.

السلطان لا يكتب شيئاً في الغالب، بل بكل كل أمر إلى صاحب وظيفته من هؤلاء، فيفعله. وكتابتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة.

والمتعمّن في جميع مظاهر الحياة في دولة مالي من خلال كتابات الرحالة والمؤرخين العرب يلاحظ أثر الإسلام الحضاري في تكوين هذه الدولة من قمة الهرم إلى قاعدته.

### ثانياً - الناحية الاقتصادية :

إن أهم موارد دولة مالي، كما هو واضح من هذه الدراسة، كان من التجارة، فقد نمت العلاقات التجارية عبر العصور. ويكفي دليلاً على أهمية التجارة، أن الضرائب التي كانت تحصل في سجلماسة - أهم مداخل القوافل - بلغت في أوائل القرن العاشر الميلادي نحو ٤٠٠ ألف دينار، وأن عبدالرحمن الأموي خليفة قرطبة، بعث بأسطول إلى سوتا عام ٣١٩هـ / ٩٣١م، لحماية الطرق التجارية المؤدية إلى السودان الغربي، حتى إذا تحكمت مالي في طرق القوافل الصحراوية، عملت على ازدياد حركة التبادل وحمائتها، فاستوردت السلع والمصنوعات المختلفة من بلدان البحر الأبيض المتوسط<sup>(١)</sup>، مثل السيوف الدمشقية والحرير والخيل من الشرق بكميات كبيرة، كذلك جلبت أنواع الثياب من مصر، يقول ابن بطوطة عن أهل تكدة إحدى ولايات مالي: «شغلهم التجارة، يسافرون كل عام إلى مصر، ويجلبون كل ما بها من حسان الثياب»<sup>(٢)</sup>. ومن بين المدن المالية التي اشتهرت بالتجارة أيضاً - لا سيما في تبادل الملح بالذهب - مدينة جني، التي وصفها السعدي بقوله، إنها مدينة ميمونة

---

(١) الدكتور طرخان، دولة مالي، ص ١٣٨ نقلاً عن «بوفل».

(٢) ابن بطوطة، كتاب التحرير، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٣.

مباركة ذات سعة وبركة، وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمواساة.. وهي سوق عظيمة من أسواق المسلمين، وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازة وأرباب الذهب من معدن بيط<sup>(١)</sup>، وكلا المعدنين المباركين، ما كان مثلهما في الدنيا كلها، فوجد الناس بركتها في التجارة إليها كثيرة، وجمعوا فيها من الأموال ما لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى، ومن أجل هذه المدينة المباركة يأتي الرفاق من جميع الآفاق.<sup>(٢)</sup>

ويذكر السعدي بصدد ملكها جنجي وإسلامه وحرصه على تنشيط الحركة التجارية بها وتحسين أحوالها الاقتصادية وتعميرها، أنه بعد إسلامه على أيدي العلماء، طلب منهم أن يدعوا الله تعالى بثلاث دعوات: «أن كل من هرب إليها من وطنه ضيقا وعسرا، أن يبدله الله له سعة ويسرا حتى ينسى وطنه، وأن يعمرها الله بغير أهلها، أكثر من أهلها، وأن يسلب الصبر من واردتها من التجار حتى يملوا، فيبيعوا ما معهم بناقص الثمن، فيربحوا فيها، فقرؤوا الفاتحة على هذه الدعوات، تقول الرواية، فكانت مقبولة.<sup>(٣)</sup>

ومما حتمته العلاقات التجارية بين شمالي القارة الإفريقية ودولة مالي، وجود التجار المسلمين الذين يقومون بمعاملاتهم التجارية في شكل بيئات تجارية، ومن هذه البيئات أسرة المقرّي التجارية التي اتفق معها (ماري جاطة) على توفير ما يحتاج إليه ماري جاطة من السلع الأجنبية، مقابل الحماية لهذه الأسرة حتى تعمل في مناخ آمن<sup>(٤)</sup>. وقد ذكرنا ذلك من قبل.

---

(١) يعني وانجارا.

(٢) السعدي، تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص ١١-١٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٤) طرخان، مالي، ص ١٤٤.



ووجود بيئات تجارية وتنظيم تجاري دقيق دليل ناصع على تطور هذه الدولة من الناحية الاقتصادية، ويؤكد ذلك ما جاء في أحداث رحلة منسا موسى المشهورة للحج، إذ أن هذا السلطان أنفق كل ما كان معه من مال حتى اضطر في النهاية إلى الاستدانة من التجار الذين لهم علاقات تجارية ببلاده كما ذكرنا، وسرعان ما سدد هذه الديون.<sup>(١)</sup>

وتدلنا هذه الحادثة على مدى الصلات التجارية مع البلدان الإسلامية ومصر خاصة، في النواحي الاقتصادية، إذ كانت القوافل لا تنقطع بين البلدين، واتسعت العلاقة بعد رحلة منسا موسى للحج.

### ثالثاً - الناحية الثقافية والروحية :

تظهر أهمية الموقع الجغرافي والتجاري للمدينة في تطورها التاريخي. فقد كانت مدينة تنبكت في مبدأ أمرها نقطة في طريق القوافل على النيجر، وكانت مكانا للقاء هؤلاء الذين كانوا يسافرون برا والذين يسافرون بحرا سواء من بدو الصحراء أو من الذين يقطنون جانبي نهر النيجر. إذ كانوا يتقابلون فيها لمبادلة الملح والبلح وتجارة المغرب الأخرى بالقمح وحبوب الكولا وتبر الذهب من السودان الغربي، وفي سنة ٤٩٤هـ / ١١٠٠م بدأت خيام البدو تخلي مكانها لأكواخ الحشائش، وهذه بدورها لمساكن مستديمة من اللبن كتلك الموجودة الآن هناك. وبعد قرنين أصبحت مركزا للتجارة المارة بين جنبي ووالاتا، كما أصبحت قرية الصيد «كبارا» المجاورة ميناء لها، وكان موقعها بالقرب من طريق مائي يتحكم في جزء من السودان الغربي، قد أعطى تنبكت ميزة كبيرة على الأسواق المجاورة، التي أخذت تجارتها في الوهن.<sup>(٢)</sup>

(١) انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ص ٢٧٩-٣٠٠، السعدي ص ٨.

(٢) الدكتور زاهر رياض، مرجع سبق ذكره، ص ١١٩.

وكان طبعياً أن تأتي العلاقة التجارية معها بكل من الثروة والثقافة، فتحكمت تنبكت في تجارة والاتا ثم ثقافتها، وكلتاها كانتا في يد رجال جدالة ومثقفي الصحراء، وكانوا قد جاؤوا أصلاً من أدرار في موريتانيا، ولكنهم هاجروا إلى كومي حين أصبحت سوقاً هامة. وحين احتل الصوصو كومي في بداية القرن الثالث عشر انضمت جدالة المهاجرة إلى المكان الجديد في والاتا، فأنشأوا هناك مركزاً للعلم، وحين بدأت والاتا تفقد تجارتها إلى تنبكت تبعثها جدالة. وظلوا هناك طويلاً معلمين كما كانوا تجاراً، فكانوا أول من أعطى المدينة سمتها كمركز من مراكز العلم، كما زودوها بالائمة المتعلمين بصفة منتظمة من أجل مسجدتها.<sup>(١)</sup>

وفي أيام منسا موسى استقرت التجارة والأدب في تنبكت واستفاد كلاهما من تغير الحاكم، فبدأ الساحلي<sup>(٢)</sup> في ذلك الوقت في بناء مسجد جديد وقصر للملك، وأصبحت المدينة بسرعة أهم أسواق الداخل، وذاعت شهرتها كمركز رئيس لتبر الذهب، وجاءها التجار من جميع الأنحاء، من درعة وسوس وفاس، ومن المغرب الأقصى ومن وات وغدامس وفزان وعجيلة في الصحراء. وأيضاً من مصر، وهي التي كانت تجارتها مع السودان قد تعززت منذ رحلة منسا موسى للحج، وقدم مع التجار المعلمون وعلماء الدين من بلاد كثيرة ليجتمعوا حول مشهوري علماء جدالة في جامع سنكور<sup>(٣)</sup>. واشتهرت بعد ذلك بكثرة علمائها حتى إنه عندما تدهورت دولة مالي سياسياً

---

(١) المرجع نفسه، ص ص ١١٩-١٢٠.

(٢) شاعر ومهندس أندلسي، التقى به منسا موسى في طريقه للحج، وأحضره معه لمالي، حيث قام ببناء مسجد عظيم، وأدخل الطراز الأندلسي المعماري في إفريقية الغربية.

(٣) الدكتور زاهر رياض، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٠.

بقيت هذه المدينة ورصيفاتها - مثل جني وجاو - محتفظة بمكانتها العلمية كمركز كبير للثقافة الإسلامية في قلب غربي إفريقية.

وقد اشتهرت تنبكت وجاو بصفة خاصة، بأنهما مركزا الدين والتجارة. ويذكر ليو الإفريقي، عندما زار تنبكت في القرن السادس عشر الميلادي، أي بعد تدهور مالي وزوالها كدولة كبيرة وخلال العهد الأخير من سنجي الإسلامية التي ورثت دولة مالي، يقول ليو إن تنبكت، في وقت زيارته لها، مملوءة بالعلماء والفقهاء والأئمة، وإن هؤلاء يتمتعون برواتب سخية ويعاملون باحترام وتعظيم، وأشار كذلك إلى شدة الطلب على الكتب، وهي مخطوطة، إذ كانت تجارة الكتب تدر أرباحا طائلة، بحيث فاقت الأرباح الناتجة عن العمل في أي تجارة أخرى، وهذا دليل على عظم الإقبال والتلهف على اقتناء الكتب وعلى كثرة العلماء والمتعلمين.

وانصب الاهتمام في مناهج التعليم في مالي، وكذلك في غيرها من بلاد السودان الغربي، على حفظ القرآن أولا، وقد ذكرنا تشددهم في ذلك. ويجانب ذلك هنالك الاهتمام بلغة القرآن، وهي اللغة العربية، التي اكتسبت مسحة من التقديس عند مسلمي غربي إفريقية عامة، وكانت جميع الوثائق المهمة تكتب باللغة العربية، كما كانت العربية لغة الحكومة والمراسلات الدولية ولغة التجارة، أي إنها كانت اللغة السائدة.<sup>(١)</sup>

ولم تكتف قبائل الممالك الإفريقية بدخول الإسلام، بل طبعت بطابع عربي بسبب انتشار اللغة العربية في تلك البلاد.<sup>(٢)</sup>

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٥٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٥٣ - ومرجعه ديشان، سبق ذكره.

ومن الآثار الثقافية في طريقة الكتابة يقول القلقشندي: «وكتابتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة، وقد ورد إلى السلطان الناصر كتاب من موسى بالخط المغربي». (١)

لقد تركت اللغة العربية أثرها في اللغات المحلية، ولا يزال إلى اليوم آلاف الكلمات العربية المستخدمة في بلاد غربي إفريقية في شتى مظاهر الحياة، أي إن اللغة العربية، وهي لغة عقيدة وحضارة، قامت بالدور الذي قامت به اللغة اللاتينية في أوربة الوسيطة، لكنها تفوقت على اللاتينية من حيث سعة الانتشار والبقاء بسبب مكانتها المقدسة، لأنها لغة القرآن والعقيدة الإسلامية، فلم تزل أمام اللغات المحلية كما حدث للغة اللاتينية، وبقيت كذلك حتى في عصر الاستعمار الأوربي، على الرغم من زوال السلطة للدولة الإسلامية في إفريقية الغربية. (٢)

ومما أفسح المجال لروافد الحضارة الإسلامية في مجال الثقافة تلك العلاقات الواسعة لدولة مالي بالعالم الإسلامي، إذ اتسعت صلات مالي فشملت الدول الإسلامية المهمة آنذاك، وشملت مصر التي كانت بها الخلافة العباسية حينذاك، والتي كانت تعدّ مركز الثقافة الإسلامية، وشملت المغرب، الوثيق الصلة بالمناطق التي شغلها مالي، وشملت الأندلس الإسلامية التي كانت غرناطة تمثلها في ذلك الحين.

وكانت علاقة مصر ببعض المناطق التي تكونت منها مالي علاقة قديمة تسبق قيام دولة مالي، ومن أشهر هذه المناطق منطقة تكرور التي كانت تعيش

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥ مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٨.

(٢) انظر: طرخان، مالي، ص ١٥٤.

منها جالية كبيرة في بولاق بالقاهرة حتى عرفت ببولاق التكرور، وحرفت إلى «الدكرور». وكان ضمن هذه الجالية رجل من الصلحاء اسمه الشيخ أبو محمد يوسف بن عبدالله التكروري، وقد توفي في بولاق وبُني له مسجد وقبة، وعرف مسجده باسم جامع التكروري، وكان يعاصر الخليفة العزيز الفاطمي.<sup>(١)</sup>

وفي ظل دولة مالي الإسلامية نمت هذه العلاقات نموا واسعا وشملت اتجاهات متعددة، ولعل الصلات الثقافية كانت أوسع هذه الصلات، فقد كان لطلاب مالي رواق عظيم في الأزهر عرف أيضا برواق التكاثر، ورحل كثير من علماء مصر إلى تنبكت ليعلموا بها، ورحل من تنبكت بعض العلماء ليتصلوا بعلماء مصر ويتدارسوا معهم بعض المسائل، وقد جلس بعضهم يعلم في الأزهر، ومن الصلات الثقافية كذلك اهتمام أهل مالي بالكتب الإسلامية التي تنشر في القاهرة<sup>(٢)</sup>. وسيأتي تفصيل هذا الجانب.

واستطاع ممن مكث بين ظهرائهم من البيضان أن يتقن اللغة السودانية، وقد شهدنا ذلك في رحلة ابن بطوطة، عندما روى حكاية الفقيه الذي تكلم عن الجراد وفتكه أمام السلطان، فترجم أحد البيضان ما يقوله هذا الفقيه السوداني لابن بطوطة ففهمه.<sup>(٣)</sup>

كانت علاقة مالي بالدول الإفريقية المجاورة تجارية في أساسها - كما رأينا - عمادها تبادل المنفعة، ولكن وجدت العلاقات السياسية والحربية، وأساسها مطامع مالي في التوسع الحربي على حساب جيرانها، ونشر الدين

---

(١) انظر: الدكتور عبدالرحمن زكي، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣.

(٢) الدكتور أحمد شلبي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٥.

(٣) ابن بطوطة، تحفة النظار، كتاب التحرير، ص ٤٤٨.



الإسلامي بين الوثنيين. ومن الممالك المهمة ذات العلاقات التجارية والثقافية مع مالي، مملكة جني، التي فشلت مالي في إخضاعها وضمها إلى أملاكها، إلا أنها لم تكن منعزلة عن مالي، ولا سيما أن ملوك جني كانوا من أبناء عمومة الماندنجو ملوك مالي، وكانت جني من الممالك المزدهرة تجاريا وثقافيا. (١)

ولعل أهم العلاقات التجارية والثقافية والسياسية، ما قام بين مالي ودول المغرب ومصر، فقد وفد المغاربة على مالي وجميع بلاد السودان الأوسط والغربي بأعداد ضخمة للتجارة ونشر الثقافة العربية والإسلامية. وكثيرا ما أوفد الملوك السفارات لتدعيم هذه العلاقات. (٢)

ومما هو واضح أن كل المظاهر الحضارية الإسلامية التي وفدت بدخول الدين الإسلامي إلى بلاد السودان كان أهم العوامل التي حملتها هم التجار. وأن التجارة هي عماد الاقتصاد السوداني، وهي أساس علاقاته السياسية والاقتصادية والثقافية مع الجيران، وأساس الحكم في الداخل. وهي المغنطيس الذي جذب إليه العاملين في كل حقول المعرفة، مما أدى حتى إلى الاختلاط العنصري بين الشعوب السوداء والشعوب البيضاء.

تلك كانت دولة مالي الإسلامية التي أضاءت بالإسلام في غربي إفريقيا، والتي ظلت فترة كبيرة من الزمن تحمل عبء توصيل الإسلام إلى البلاد المجاورة. ولكن حماسة الناس هناك بعد منسا موسى قد ضعفت، فقد استكانوا للراحة، ثم قامت عملية التقاتل في الداخل على كراسي الحكم. على أن السبب الحقيقي لتدهور هذه الدولة أنه لم يعد لديها هدف محدد تسعى إليه، وتتحرك باسمه في جسارة، ومن هنا كان لا بد لهذه الدولة أن

---

(١) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٦١.

(٢) الدكتور طرخان، مالي، ص ١٦٧.

تتصدع من الداخل، وأن يتخطفها الجيران، ثم تستحيل إلى إمارات صغيرة متناحرة. تلك كانت حالة الدول في الإسلام.. تقوى بالإسلام وتضعف عند الابتعاد عنه في شؤون الحياة السياسية والاجتماعية والالتزام الأخلاقي. وقد بلغ بدولة مالي الضعف حدا جعلهم يستعينون بالبرتغاليين على إخوان لهم في القرن السادس عشر الميلادي. وكانت في عهدها الأخير متزوية في إقليم كانجبابا الذي بدأت منه سيرتها إلى دولة عظمى، فها هي ذي تعود إلى حجمها الأول بعد أن تقطعت أوصالها، وابتلعها الاستعمار الفرنسي أخيرا.

أما جمهورية مالي الحديثة، فهي بعض دولة مالي الإسلامية القديمة ووارثة اسمها، ولكن المساحة الحالية أقل من المساحة التي كانت عليها دولة مالي في أوج عظمتها في القرون الوسطى. وقد استقلت هذه الجمهورية عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م، وكانت تعرف في العهد الاستعماري بـ«السودان الفرنسي». وأخذت اسم مالي بعد الاستقلال، إحياء وتمجيذاً لذكرى ذلك التاريخ القديم.

## المبحث الثالث



## دولة سنغي الإسلامية

### المطلب الأول : تطورها التاريخي

حول منتصف القرن السابع الميلادي بدأت بعض قبائل لمطة المغربية الوثنية تحرز نفوذا سياسيا على الزراع من سنغي الذين استقروا على الضفة اليسرى لنهر النيجر عند مدينة دندي. واستطاع هؤلاء البربر أن يؤسسوا أسرة حاكمة تسمى أسرة (ديا)، التي ظلت تحكم هذه البلاد حتى سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م. وقد اتخذوا «كوكيا» حاضرة لهم. ولا يعرف موقعها بالضبط، وإنما يمكن أن يقال إنها تقع في المنطقة الشمالية الغربية من حدود نيجريا الحالية. وقد قدر لشعب هذه الدويلة أن يؤدي نفس الدور الذي أداه شعب الماندنغو، وأن يؤسس دولة تشبه الدولة السابقة في كثير من مظاهر قيامها ثم توسعها ثم انحدارها؛ وتشبهها أيضا في مشاركتها في الحياة الإسلامية العامة. وقد نمت علاقات هذه البلاد التجارية مع غانا وتونس وبرقة ومصر عن طريق «تادمكة» (أي مكة الجديدة) التي تعد مركزا مهما لطرق القوافل. وكانت هذه العلاقات التجارية ذات أثر بعيد في تحول ملوك هذه البلاد إلى الإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي عن طريق شمالي إفريقية، وإن كان كثير من رعاياهم ظلوا على وثنتهم. وفي ذلك الوقت نقلت حاضرة هذه البلاد فغدت على مقربة من طرق القوافل الرئيس، إلى مدينة «جو» عند منحني نهر النيجر، وقد أصبحت من أهم مراكز التجارة في السودان الغربي، وهي تشبه مدينة غانا بالنسبة إلى البلاد الواقعة في أعالي النيجر.<sup>(١)</sup>

---

(١) انظر: الدكتور حسن إبراهيم: انتشار الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٩.



لعل دولة سنغي (أو صنغي - سغي - سونقهاي - صونغهاي - صنغاي - سنغاي...) من أطول الدول عمرا، فقد بدأت بذورها في القرون الميلادية الأولى، وعاصرت دولة غانا ودولة مالي، وانتهت غانا ومالي، وبقيت سنغي حتى سنة ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م، وينقسم تاريخها إلى قسمين فيما يتعلق بالإسلام، فقد عاشت وثنية حتى سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م، ثم اعتنق ملكها الإسلام في هذا التاريخ، وأصبحت منارة لحضارة الإسلام ومبادئه.<sup>(١)</sup>

كانت سنغي جارة لإمارة كانجبابا التي كان الماندنجو المسلمون ساداتها، وحدث احتكاك ومنافسة بين سنغي وكانجبابا، وكانت كفة سنغي أرجح آنذاك، فاستطاع ملكها زايماكوري أن يمد نفوذه إلى كانجبابا وأن يقتل أبناء السلطان جميعا. ثم دار الزمان دورته واستعادت كانجبابا مكانتها، وتطورت حتى أصبحت دولة مالي العظيمة. وعندما كان منسا موسى في طريق عودته من مكة سنة ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م رأى أن يثار من سنغي، فعرج على عاصمتها جاو، وكان ملكها قد مات حديثا وخلف ولدين صغيرين هما كولن وسليمان نار، فأخذهما منسا موسى معه إلى عاصمته. ويعلل السعدي<sup>(٢)</sup> ذلك بقوله إنه أخذهما للخدمة عنده على عاداتهم فيما يختص بأبناء الملوك الذين في طاعتهم. ويقول شلبي<sup>(٣)</sup> إن تلك العادة جارية عند سلاطين السودان كلهم، والمعتقد أنها

---

الدكتور حسن محمود: الإسلام والثقافة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٦.

الدكتور عبده بدوي: مع حركة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ١٦١.

الدكتور عبدالرحمن زكي: الإسلام في إفريقيا الغربية، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧.

(١) الدكتور شلبي، مرجع سبق ذكره، ص ١٢١.

(٢) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص ٦، انظر ص ٣ عن ذكر اسمي الولدين.

(٣) الدكتور شلبي، المرجع السابق، ص ٢٥٧.

مجرد أخذ رهينة وليس للخدمة فقط. ومهما يكن الأمر فإن نفوذ مالي قد امتد إلى سنغي. ويذكر السعدي أن منسا موسى هو أول من ملك سنغي من سلاطين مالي.<sup>(١)</sup>

وسارت عجلة الزمان في دورتها الطبيعية، فأخذ نجم دولة مالي يأذن بالافول بعد عظيمها منسا موسى، وإن كان قد تخللته ومضات سرعان ما انطفأت، فاستطاع الصبيان الأميران أن يفلتا من مالي عندما بلغا مبلغ الرجال، ولجأ كلاهما إلى عاصمة سنغي بعد تدبير وخطط وحيل سردها السعدي في الباب الثاني من تاريخ السودان<sup>(٢)</sup> وقابلهما شعبهما بالحفاوة والتكريم، وقاموا بثورة ضد الوجود المالي في سنغي. وكان من جراء ذلك طرد الجنود الماليين وإعلان الاستقلال وتأسيس دولة سنغي المستقلة من جديد، وإعلان علي كولن سلطانا لها باسم «سني علي». وقد تم ذلك حوالي سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م.<sup>(٣)</sup> لم تستكن مالي لهذا الوضع الجديد. فأخذت تحاول إعادة سيطرتها السياسية على سنغي، فدخلت الدولتان في سلسلة من الصراعات والحروب، ولكن شاء الله أن تسير دولة مالي في انحدار إلى نهايتها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، مما جعل كفة سنغي تعلو ثم تظفر على مالي، وتثبت استقلالها. وبدأت خطواتها نحو تأسيس دولة كبيرة سنة ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م بقيادة ملكها الذي عرف في التاريخ باسم (سني علي الكبير)، للتفريق بينه وبين سني علي الذي هو علي كولن، وبين هذين العاهلين مجموعة من الملوك ذكرهم السعدي يبلغون الاثني عشر ملكا، آخرهم آسكيا نوح.<sup>(٤)</sup>

---

(١) السعدي، ص ٧.

(٢) نفسه، الباب الثاني، ص ص ٦٥.

(٣) نفسه، ص ٦.

(٤) المصدر والمكان نفسهما.

كانت المعركة التي دارت سنة ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م بين مالي وسنغي هي بداية التحرر الكامل، وبذلك يعد سني علي الكبير المؤسس الحقيقي لدولة سنغي، واستولى بعد ذلك على كل المدن التجارية والثقافية الهامة حتى تكتمل لديه مقومات الدولة القوية، فكان أول هدف له مدينة تنبكت العظيمة سنة ١٤٦٨م، تلك المدينة التي تعد الصورة الحقيقية لتاريخ العلاقات التجارية والثقافية بين إفريقيا شمالي الصحراء وجنوبي الصحراء، والتاريخ لهذه المدينة يعد سجلا حقيقيا وكاملا لتاريخ تلك الثقافة. لذا كان الاستيلاء عليها يعني ضم أكبر عنصر حضاري إلى دولة سنغي. وبعد الاستيلاء عليها طرد الطوارق، وامتد سلطانه فشمّل كل الأراضي التي تحيط بمنحني النيجر، وبسط نفوذه في سهول غربي إفريقية، فشمّلها جميعا، ثم احتل مدينة جني سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م، تلك المدينة الهامة، التي لا تقل أهمية عن تنبكت، ولم يسبق لها أن خضعت لمالي، ولأهميتها الكبرى نرى أن السعدي قد أفرد لها بابا خاصا كاملا متكلما على أهميتها الاقتصادية «سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازا وأرباب الذهب من معدن بيط، وكلا المعدنين المباركين ما كان مثلهما في الدنيا كلها، فوجد الناس بركتها في التجارة إليها كثيرة، وجمعوا فيها من الأموال مالا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى. ومن أجل هذه المدينة المباركة تأتي الرفاق من جميع الآفاق...» (١)

وبعد القضاء على نفوذ جني السياسي اتجه إلى مملكة الموسي الزنجية، وكانت أيضا قد استعصت على سلطان مالي، ففتحها وضمها إلى سلطانه، وتقدم شرقا فهاجم بعض إمارات الهوسا، فخضعت له كاتسينا وجوبر وكانو

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١-١٢، الباب الخامس.

وزنفره وزاريا، وانساح غربا حيث أخضع كل بلاد الماندنجو والفولاني، وشمالا حتى مواطن الطوارق. وبهذا نقل دولته من مملكة صغيرة إلى دولة عظمى، وكان هو أول سلاطينها العظام.<sup>(١)</sup>

### المطلب الثاني : الإسلام في سنغي

إن حركة الإسلام في دولة سنغي صورة أخرى لحركة الإسلام في كل من دولتي غانا ومالي، نتيجة للعلاقات التجارية التي تربط الشمال الإفريقي ببلاد السودان، والعلاقات الداخلية بين هذه الدول الإفريقية. إذ إن طرق القوافل لا يقف تأثيرها عند حد التبادل التجاري كما قلنا، وإنما سرعان ما كان يتحول إلى ما يمكن تسميته بطريق ثقافي يتدفق عبره العلماء إلى هذا المكان من إفريقية. وهكذا لم تمر من القرن الحادي عشر الميلادي سنوات حتى كان الملوك المحليون على هذا الطريق التجاري الذي كانت تسيطر عليه دولة مالي، قد اعتنقوا الإسلام وحملوا أمانته لشعوبهم التي استقبلته هي الأخرى بحماسة لا تقل عن حماسة ملوكهم له. وقد اشتدت الحماسة للإسلام في الفترة التي نقلت فيها عاصمة الملك من كوكيا إلى جوا التي تستقر تماما عند منحني النهر. ومع أن الانتقال كان لأسباب اقتصادية تتعلق بمراكز التجارة، إلا أن الإسلام كسب عن طريق هذا التحول قلوبا جديدة ونفوسا كانت عطشى للمعرفة. ثم كان المكسب الأخير حين ضم سني علي مدينتي تنبكت وجني إليه. الأولى متفوقة في المجال الثقافي، والثانية متفوقة في المجال التجاري، وكلتاهما تمثلان الشخصية الإفريقية التجارية والثقافية في أعلى المستويات. فقد كانت جوامع تنبكت - بحق - جامعات للمسلمين الذين يرغبون في الثقافة الإسلامية في

---

(١) الدكتور شلبي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٢.

غربي القارة الإفريقية. كما كانت تحتضن كافة القوى الإسلامية التي تريد الطمأنينة في ربوعها كما حدث لجماعة من العلماء حين طردوا من والاتا، لم يجدوا أمامهم إلا تنبكت، فقد كانت جديرة بقول السعدي عنها حين قال فيها «مادنتها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء والزاهدين وملقى الفلك السيار، وسكن فيها الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلاد من أهل مصر وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتفلانة وفاس وسوس وبيط<sup>(١)</sup>».

إن الاستيلاء والاستحواذ على مدينتي تنبكت وجني كان له أهمية عظمى في تاريخ الثقافة الإسلامية في دولة سنغي، وذلك لعراقه هاتين المدينتين في مضمار الحضارة الإسلامية. فقد أسست على النيجر الأعلى، الأولى في القرن (٦هـ / ١٢م) (حوالي سنة ٤٩٤هـ / ١١٠٠م) والثانية في القرن (٥هـ / ١١م) (٨٣٥-٨٣٦هـ / ١٠٤٣-١٠٤٤م) وقدر لهما في القرون المتعاقبة أن تؤثرا تأثيرا قويا في تقدم الإسلام في السودان الغربي. فقد أسلم كنبرو ملك جني حول نهاية القرن (٦هـ / ١٢م) (أي حوالي سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، فحذا حذوه سكان المدينة، ويقال إن كنبرو لما عزم على اعتناق الإسلام جمع كل العلماء في مملكته وكان عددهم ٤٢٠٠ كما يذكر السعدي<sup>(٢)</sup> «فحصل منهم أربعة آلاف ومثني عالم»<sup>(٢)</sup>. وهذا العدد بصرف النظر عن دقته - كما سبق أن قلنا - فهو يعكس تقدم الإسلام العظيم في هذه البقعة. وبعد أن جمع السلطان هؤلاء العلماء طلب منهم أن يدعوا إليه الله كي ينصر مدينته،

---

(١) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص ٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢.



فاستجاب الله لذلك فيما يفهم من تعبير السعدي «فكانت مقبولة»<sup>(١)</sup>. وبإسلامه جعل دار السلطنة وماحولها مسجدا لله تعالى، وهو الجامع. وصارت ذات شأن عظيم كمركز للتعاليم الإسلامية، وتوافد عليها الطلبة وعلماء الدين في جموع كبيرة، مدفوعين بما كانوا يلاقونه فيها من تشجيع ورعاية<sup>(٢)</sup>.  
 أما عن دخول الإسلام في دولة سنغي القديمة بصفة عامة فيقال إنه وجد في عهد مبكر يرجع إلى سنة ٨١هـ / ٧٠٠م. ولم يذكر لنا التاريخ الذي بين أيدينا شيئا مفيداً، إلا أن أول ملك مسلم كان يسمى زاكسي، كما جاء في كتاب تاريخ السودان للسعدي، حين قال: «أول من تملك فيها من الملوك زالأعين ثم... ثم زاكنكن، هؤلاء أربعة عشر ملكا ماتوا جميعا في جاهلية وما آمن أحد منهم بالله ورسوله ﷺ، والذي أسلم منهم زاكسي، يقال له في كلامهم مسلم دم، ومعناه: أسلم طوعا بلا إكراه، وذلك في سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م<sup>(٣)</sup>. ولكن لم يرد أي ذكر عن المؤثرات التي دان لها بإسلامه في كلام السعدي. أما صاحب الفتاش فقد رد السبب في تحول مملكة سنغي إلى الإسلام إلى تأثير تجار جوا الذين أتاح لهم وجودهم على طرق القوافل التجارية بالشمال مركزا تجاريا ممتازا، وقدرة على إجراء هذا التغيير في عقائد شعوب سنغي<sup>(٤)</sup>.

ويذكر باسيل دافيدسون<sup>(٥)</sup> أن الملك الأول الذي اعتنق الإسلام سمي ضياء كوسوى سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م وأن ذلك كان قبل غزوات المرابطين.

(١) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٢) توماس آرنولد، مرجع سبق ذكره، ص ص ٣٥٦-٣٥٠.

(٣) السعدي، المصدر السابق، ص ٢، الباب الأول.

(٤) محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان وأكابر الناس، بردين، أنجي ١٩١٣م، ص ١٧.

(٥) باسيل دافيدسون، مرجع سبق ذكره، ص ٤٩٠.

ويذكر كذلك أنه قد سبق غزوات المرابطين لهذه المناطق في غربي افريقية قدوم بعض رجال المرابطين من الطلائع سواء أكانوا من التجار أم من الدعاة، ويذكر أنه قد تم العثور سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٩م في بلدة «ساني» على بعد حوالي أربعة أميال من مدينة جوا الحالية على شواهد لقبور ملكية يعود تاريخها إلى نهاية القرن (٥هـ / ١١م). وقد كتب على إحدى هذه الشواهد مايلي: «هنا جثمان الملك الذي دافع عن دين الله، ويرقد الآن في رعايته، أبو عبدالله محمد سنة ٤٩٤هـ (سنة ١١٠٠م).

ومما سبق يتضح أن تاريخ الإسلام بدولة سنغي لم يكن حديثا، ولم يدخل دفعة واحدة، فإن هناك مجموعات دخلت الإسلام قبل إسلام الملك زاكوسي وجموعا أخرى دخلت الإسلام مع الملك، ثم جاء انتشار الإسلام بصورته الواسعة إبان حركة المرابطين التي خدمت البلاد في مضمار الدعوة الإسلامية في البلاد التي اقتحموها والبلاد المجاورة لها. وإن لم يكن المرابطون قد دخلوا سنغي، إلا أن حركتهم دفعت الإسلام للتقدم حتى في خارج حدودهم، خاصة سنغي التي تدرجت في مضمار الحياة الإسلامية - كما ذكرنا - حتى أخذت مكانها كأعظم دولة في المنطقة على عهد السلطان «السنّي علي».

لقد تولى أمور هذه المملكة بعد سنّي علي عاهل آخر هو آسكيا محمد، الذي خرج من صفوف الشعب، وليس من صفوف العائلة المالكة. كان مشهورا بالتقوى، وكان ممتلئا بالحماسة لنشر الإسلام بين جيرانه، حتى إنا نراه ما يكاد يعود من مكة بعد أداء فريضة الحج التي قام بها، حتى يأخذ في إدخال الإسلام إلى قلوب الماندنجو والفلاني في الغرب وإلى قلوب الهوسا في الشرق والموسي في الجنوب والطوارق في الشمال. وقد عقد السعدي بابا طويلا عن

الحاج آسكيا محمد، ووصفه فيه بأنه: «الأسعد الأرشد، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، الذي فرج الله به عن المسلمين الكروب، وأزال به عنهم البلاء والخطوب، واجتهد بإقامة الإسلام وإصلاح أمور الأنام وصاحب العلماء...»<sup>(١)</sup>. وامتدحه أيضاً صاحب الفتاش ووصفه بأنه الإمام العادل والسلطان الفاضل.<sup>(٢)</sup>

وفي عهد آسكيا محمد حوالي سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م، أو بعدها بقليل، بدأت علاقة ليو الافريقي بسنغي، وارتبطت بآسكيا محمد. ويختلف ليو الإفريقي (حسن الوزان) عن سابقه من الجغرافيين والرحالة، إذ إن معظم المادة العلمية الخاصة بإفريقية عنده مصدرها ماشهده بعينه أو سمعه بأذنيه في بيته الأصلية. ولقد أدرك الحسن الوزان بعد رحلاته العديدة في شمالي إفريقية أهمية الدور الذي تلعبه التجارة السودانية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب الممتدة من طرابلس إلى الشرق إلى البحر المحيط في الغرب، فعزم على زيارة مصدر هذه التجارة السودانية ودراستها على الطبيعة في موطنها الأصلي. وأتيح له زيارة بلاد السودان مرتين في أوائل القرن (١٠هـ / ١٦م)، استطاع بعدهما أن يمد المعاصرين بصورة واضحة عن قلب إفريقية، بحيث أمكن التمييز - وقتذاك - بين ما هو من الحقيقة التاريخية، وبين ما هو من الأساطير الخيالية.<sup>(٣)</sup>

ولعل سر اهتمام العالم بما أورده الحسن الوزان عن بلاد السودان الغربي عامة هو أن رحلته التي جمع فيها بياناته عن هذه البلاد، وافقت ظهور دولة

---

(١) السعدي، ص ص ٦٤-٦٥.

(٢) محمود كعت، مصدر سبق ذكره، ص ١١.

(٣) الدكتور مصطفى مسعد: الحسن بن محمد الوزان، أضواء على رحلته ص ص ٤٨-٥٣.

زنجية إسلامية في قلب إفريقية، هي دولة سنغي، وازدهار هذه الدولة الإسلامية في عهد أسكيا أبوبكر الذي نجح في إخضاع كثير من الممالك السودانية، وتأسيس دولة واسعة تتحكم في مصادر التجارة السودانية مع الدعم عبر الصحراء الكبرى. وبلاد السودان، المعروفة للحسن الوزان والتي زارها بنفسه، خمس عشرة مملكة، يقع معظمها على ضفاف نهر النيجر أو قريبا منه أو قريبا من غيره من الأنهار، وهي ممالك والاتا، غينيا، مالي، تنبكت، جاجاو، جوبير، أغاديس، كانو، كاتسنا، زجزج، زنفرا، ونجارة، برنو، النوبة.<sup>(١)</sup>

ولقد كان أسكيا محمد - بحق - حاكما فريدا في تاريخ الحكام المسلمين السودانيين من حيث النزاهة والإخلاص للدين الإسلامي قولا وعملا. وقد ظهرت الحركة التوسعية في صورة قوية واضحة في عهده، فقد استكملت الدولة استعدادها العسكري الموفور، وأفادت من الخبرات السابقة، واتخذت هذه الحركة الجديدة مظهرها إسلاميا واضحا، حيث اتجه هذا الفاتح إلى مملكة موسي الزنجية. فأعلن عليها الجهاد بعد استشارة أهل العلم والورع.

بدأ أسكيا محمد بأن طلب إلى ملوك هذه الدولة الدخول في الإسلام ودفع الجزية، فلما أبوا حاربهم في ديارهم، قتل رجالهم وخرب أرضهم وسبى نساءهم. وبسط نفوذه غربا إلى بلاد الماندنجو والفلولاني وشمالا حتى مواطن الطوارق، وامتد نفوذه جنوبا بعد إخضاعه مملكة موسي الوثنية. وتجاوزت سنغي الآفاق التي وصل إليها سلاطين مالي، إذ تسرب نفوذهم إلى شمال نيجيريا، حيث خضعت له إمارات الهوسا. وكان هذا الخضوع بداية لظهور الثقافة الإسلامية في هذه الجهات، فظهرت مدن كانو وكاتسنا كمراكز للثقافة في هذا الجزء من نيجيريا.<sup>(٢)</sup>

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٨-٥٣. بتصرف.

(٢) الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٧-٢٤٨.

### المطلب الثالث : المراكشيون ونهاية دولة سنغي

في الأجيال التي تلت آسكيا محمد على دست الحكم ينقضي عهد الفاتحين المجاهدين المؤسسين ويأتي جيل من الخلفاء الذين ينقصهم هذا الإخلاص وهذه الرغبة في الجهاد، بل يجنحون إلى الراحة والإغراق في الترف والنعيم والتزاعات العائلية حول السلطة، والمؤامرات، مما جعل قوة المغرب بشمالي إفريقية تطمع في هذه الدولة، حيث تطور هذا النزاع إلى عدوان متبادل واشتباك مسلح. ورأى المنصور، سلطان مراكش الذي كان قد أبطره انتصاره على البرتغاليين عند القصر الكبير، رأى أن يحسم هذا النزاع بفتح بلاد سنغي، مستغلا ما أصابها من ضعف وتمزق.

لقد أغرى المغاربة ما كان لسنغي من ثراء نتيجة استغلال هذه الدولة للتجارة المتصلة بين شمالي إفريقية وغربيها، وهذه التجارة لا تنمو ولا تدر الربح إلا إذا هدأت الأحوال، واستتب الأمن<sup>(١)</sup>. فقد كانوا منذ عهد بعيد يتطلعون إلى مناجم الملح في تغازا وإلى السيطرة على تجارتهم مع السودان الغربي. وظل ملوك سنغي يصدون سلاطين المغرب حتى سنة ١٥٨٥م حين انقسمت البلاد على نفسها، فكانت فرصة لتحقيق تلك الأطماع. ولم تفلح جهود إسحاق الثاني وخلفائه في وقف تقدم الجيش المغربي، ووقفت حدود مملكته عند بلاد دندي، وكانت موقعة (توديبي) المعركة الفاصلة في تاريخ مملكة سنغي واندحار الجيش السوداني. ولكن هذه الموقعة لم تكن نصرا للمغاربة إلا من الناحية العسكرية. إذ إنهم لم يحققوا الأغراض التي قاتلوا من أجلها، وهي السيطرة على مناجم الذهب في غربي إفريقية، فقد اكتشفوا أن ثروة

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٥٠.



سنغي لم تكن نتيجة امتلاكهم لمناجم الذهب، وإنما كانت نتيجة لسيطرتهم على تجارته مع مواطن إنتاجه في وانجارا ويندوكو وأستي. وهي تجارة كما ذكرنا، لا تزدهر إلا في ظل الأمن الذي نجح ملوك سنغي في إقامته في غربي بلاد السودان.

وهنا نقطة جديرة بالإشارة، وهي أن هذه الحرب كانت حربا اقتصادية وليست دينية، بدليل ما يروى عن الملك المغربي قبول خمس عشرة عذراء من بين الهدايا التي قدمها له قائده في السودان، جودر باشا، ليكن عشيقات الملك، وليس هذا من الإسلام، إذ إن دولة سنغي كانت دولة مسلمة، ولا يجوز شرعا سبي المسلم للمسلمة، بل يكون الاسترقاق بين أهل الكفر وأهل الإسلام، وفي ميادين الحرب الشرعية. هذا مما يجعلنا نؤكد أن الحرب المراكشية السودانية كانت من أجل المغنم والسيطرة الاقتصادية على عائدات التجارة ومواطنها الأصلية.

وبعد النجاح العسكري فشل المغاربة في حكم البلاد وفي السيطرة السياسية، وبمجرد تمزق جيش سنغي، تقطعت أوصال المملكة وقامت الثورات في البلاد من قبل الفلاني والبمبارا والطوارق، ينهبون ويسلبون ويخربون. وكانت الفرصة المواتية للأوروبيين الذين بدؤوا يظهرون على مسرح الأحداث، ينزلون على سواحل إفريقية الغربية ويطمعون في مناجم الذهب.<sup>(١)</sup>

ولقد كان فتح السودان بأمر المنصور المراكشي الذي لم يكن جمهور التجار على رأيه، بل كانوا يعتقدون أن موارده وإن عظمت لا تعدل تجارة المغرب مع السودان، التي لا بد لها أن تقل شيئا فشيئا، وقد صدق ظن هؤلاء

---

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام، ص ١١٣.

التجار بعد وفاة المنصور حين عدلوا عن مشروع فتح بلاد السودان سنة ١٠٢٨هـ / ١٦١٨م. (١)

لم يستطع المراكشيون أن يمدوا نفوذهم إلى ما وراء المدن الرئيسية: جني وتنبت وكفوا بعد حين عن إرسال الجند أو المؤونة. وتركوا قواتهم هناك تقرر مصيرها بنفسها، فنشأت أسر محلية من باشوات تنبت تدين بالتبعية الاسمية لسلطان مراكش، وتعتمد على عنصر خليط من البربر وأهل البلاد. وقد تغلب منهم على حكم تنبت في المدة من سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠م إلى سنة ١١٦٤هـ / ١٧٥٠م مائة وثمانية وعشرون باشا. (٢)

على أن النهاية لم تكن لهؤلاء المراكشين فقط، وإنما لمملكة سنغي هي الأخرى، بحيث يمكن القول بأنها لم تصبح في عام ١١٩٤هـ / ١٧٨٠م إلا ذكرى في نفوس الإفريقيين. أما الباشوات المراكشيون فقد ظل اعترافهم بالتبعية للسلطان المراكشي حتى سنة ١٠٧١هـ / ١٦٦٠، ثم قطعت السلالات الجديدة هذه الصلة. ثم أخذ هؤلاء الباشوات ينحدرون من ضعف إلى ضعف حتى أصبح الباشوات في تنبت يدفعون الجزية لبعض الحكام الوثنيين، نتيجة لذلك استقلت عن تنبت المدن التي كانت تابعة لها من قبل، وقطعت عنها الجزية. وعاشت هذه المناطق في ضعف وتمزق استغله الاستعمار الأوربي ليمد نفوذه إلى هذه الأرجاء. (٣)

---

(١) المرجع نفسه، ص ١١٤.

(٢) الدكتور حسن محمود، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥١، ١٥١، ومرجعه فيه الذي سبق ذكره.

(٣) للوقوف على المزيد من هذا انظر، السعدي (الباب الحادي والعشرون) خاصة ص ١٣٧-٢٢١، التي فيها أخبار الحملة المراكشية ونتائجها.

## المطلب الرابع : أثر الإسلام الحضاري في دولة سنغي أولاً - الناحية السياسية والإدارية :

يذكر ترمنجهام<sup>(١)</sup> أن آسكيا محمد قد انتفع بالإسلام انتفاعا كبيرا للتمكين لسلطانه. ويقول دافيدسون<sup>(٢)</sup> إن معظم ما قام به آسكيا الحاج محمد من أعمال أنه طور النظام الإداري في سنغي بحيث دفع الدولة دفعة قوية نحو الحكم المركزي القوي. ويعطي توماس هودكير<sup>(٣)</sup> بعض التفاصيل عن هذا النظام، فيقول: إن عبقرية آسكيا محمد لم تتجل فيما قامت به من أعمال عسكرية مثلما تجلت في التنظيم الإداري الممتاز الذي وضعه هذا الرجل بتأييد الزعماء المسلمين، وبتأييد التجار كوسيلة من وسائل توحيد هذه الدولة المترامية الأطراف وربطها، وقد تضمن هذا التنظيم إنشاء نظام حكام الأقاليم، وإنشاء عدد من الوزارات المركزية للشؤون المالية وشؤون الجيش، وشؤون القضاء والشؤون الداخلية، وشؤون الزراعة والغابات، وكذلك إنشاء وزارة خاصة للشعب الأبيض، أي المغاربة والطوارق الذين كانوا يعيشون على الحدود الصحراوية للدولة.

إن كل المصادر التي بين أيدينا تكاد تجمع على أن سنغي في أوج عظمتها كانت تحظى بنظام إداري رائع، وأن آسكيا محمد أعاد تنظيم الدولة، وأن النظم الدقيقة التي وضعها شملت الناحية المالية والعسكرية والعلاقات القبلية، وكانت كلها ترمي لخلق وحدة قوية من الأجزاء المختلفة للدولة، والقضاء على السلطة القبلية، وكان عماد التنظيم الجديد هو المركزية في مجال الشؤون الرئيسية

---

(١) Islam in W.A., op. cit., p. 93.

(٢) An Introduction to the History of West Africa, op. cit., p. 50.

(٣) ممالك السودان الغربي، مرجع سبق ذكره، ص ٣١.

والتشريع واللامركزية أو الحكم المحلي في الأمور الثانوية والتنفيذية. والحج، كما هو معروف، أن من منفعه تعرف المسلمين أحوال بعضهم بعضا في كل الأمور التي تهم الإسلام والمسلمين، فقد أفاد الزعيم المسلم آسكيا محمد من حجته الشهيرة في عام ٨٩٩هـ / ١٤٩٣م، حيث اجتمع في موسم الحج بزعماء المسلمين وتأثر بما رآه في مصر من نظم في الحكم راقية، ومن ثقافة عربية مزدهرة، فاتصل بالإمام السيوطي وغيره من علماء العصر، وتلقى تقليدا من الخليفة العباسي، وعاد إلى بلده متأثرا بما رآه من روح إسلامية خالصة، وعمل على تطبيق ما تعلمه من آراء وتجارب. ويقال إنه استهدى في تنظيماته الإدارية بالنظم التي شهدتها في مصر.<sup>(١)</sup>

وليس بغريب على الرجل أن يستهدي بتعاليم الإسلام في نظم حكمه، فقد كان مسلما مخلصا وتقيا ورعا، وأمعن في إحاطة نفسه ببطانة من العلماء، يأكلون ويشربون معه ويستشيرهم في كل الأمور عن رأي القرآن والسنة حتى أصبحت هذه السياسة الإسلامية سياسة مقررة لخلفائه.

وقد أفاض كعت في الشناء عليه حين ذكر بعض مناقبه، منها: «حسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين مالا يحصى ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده، وحب العلماء والصالحين والطلبة، وكثرة الصدقات وأداء الفروض والنوافل. وكان من عقلاء الناس ودهاتهم، والتواضع للعلماء وبذل الأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين وإعانتهم على طاعة الله وعبادته. وأبطل جميع ما عليه شيء من البدع والمنكر والظلم وسفك الدماء، وأقام الدين أتم قيام، وأطلق كل مسترق ادعى الحرية، ورد كل مال غصبه إلى

---

(١) الدكتور حسن محمود: الإسلام والثقافة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥١.

مواليه، وجدد الدين وأقام القضاة والأئمة، جازاه الله عن الإسلام خيرا،  
ونصب في تنبكت قاضيا وفي بلده جنى قاضيا وفي كل بلد يستحق القاضي  
من بلاده قاضيا، من كنت إلى سيروك»<sup>(١)</sup>.

إن شعب آسكيا محمد يدين له بتعليمه إياه الحكومة المنظمة التي بها ضمن  
النجاح الذي حققه أكثر مما يدين له بهذه الدولة الكبيرة التي أعطاها إياهم.<sup>(٢)</sup>  
**ثانياً - الناحية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية :**

قلنا فيما يتعلق بالناحية الاقتصادية إن سنغي سيطرت على مصادر الثروة  
في هذه البقاع من غربي إفريقية، وهو الذهب والملح، كما سيطرت على طرق  
التجارة الرئيسة بين الشمال والجنوب بما تدره من ضرائب، وهي بهذا تعد أغنى  
من دولة مالي التي تحدثنا عن رخائها من قبل. ووراء كل هذا نجد أن هذه  
الناحية الاقتصادية كانت النواة التي تبلورت بها دولة سنغي إلى دولة إسلامية،  
والدليل على ذلك ما قلناه في مكان آخر، وهو أن مملكة سنغي قد تحولت إلى  
الإسلام بتأثير تجار «جاو» الذين أتاح لهم وجودهم على طرق التجارة إلى الشمال  
مركزا تجاريا ممتازا وقدرة على إجراء هذا التغيير في عقائد شعوب سنغي.<sup>(٣)</sup>

وفي ظل الأمن الذي نعمت به سنغي في عهودها الأولى، كانت التجارة  
ناجحة، وكانت تدر الرخاء والثراء على الحكومة والشعب جميعا، وما يدل  
على ما وصلت إليه من غنى رحلة آسكيا محمد إلى الحج سنة ٩٠٠هـ/  
١٤٩٤م، والتي نافست في أبهتها وجلالها رحلة منسا موسى.

لقد بلغت التجارة عبر الصحراء درجة عظيمة، أسمى مما بلغت في أيام

---

(١) محمود كعت، مرجع سبق ذكره، ص ٥٩.

(٢) الدكتور زاهر رياض: الممالك الإسلامية، مرجع سبق ذكره، ص ١٤١.

(٣) محمود كعت، مصدر سبق ذكره، ص ١٧.



دولة مالي، إذ كانت مملكة السنغي أكبر وأعظم، وكانت تضم مناطق ذات أجواء ومحاصيل أكثر تعددا مما كانت عليه دولة مالي، وكانت فيها نحاس وذهب، كما كانت مناجم الملح خاضعة لها. وهكذا تدفقت الأرباح على حكومة سنغي وشعبها، نابعة من المناجم وخصب الأرض أو وافده مع التجارة الصاعدة والهابطة، فلا غرو إذا سمعنا أن عاصمة سنغي كان يقطنها أغنى تجار السودان وأكثرهم قوة ونفوذا، ويغشى أسواقها أفواج كبيرة من الزنوج لشراء حاجتهم من الأقسمة خاصة، وغيرها من الضروريات والكماليات.<sup>(١)</sup>

ومن الطبيعي أن يكون في ظل هذا الانتعاش الاقتصادي انتعاش في جانب الدعوة إلى الإسلام، وذلك لكثرة الحركة التجارية وكثرة التجار من كل أنحاء العالم الإسلامي، يجوبون البلاد حاملين سلعهم ودعوتهم الإسلامية إلى الناس، ويلتقون في المدن التجارية الكبيرة، ويتبادلون الأفكار وقيمون الصلوات الجامعة، وينفقون على أعمال البر والخير، ويحظون بثقة الحكام. كل هذا النشاط يعطي الإسلام مركزا قويا واستعدادا نفسيا لمواصلة الكفاح لمحو الوثنية. وليس أدل على قوة هذه الدولة الاقتصادية أكبر من الأشياء التي فعلها الحاج آسكيا محمد في حجته إلى مكة؛ فالسعدي يذكر أنه تصدق في الحرمين بمئة ألف مثقال من الذهب، واشترى بساتين في المدينة المنورة حبسها على أهل تكرر، واشترى هدايا وسلعا بمئة ألف.

أما من الناحية الثقافية فقد كانت دولة سنغي ذات طابع تجاري وثقافي، فمثلا نجد أن مدينة تنبكت، إلى جانب شهرتها التجارية، مركز مهم من مراكز الثقافة الإسلامية في قلب إفريقية، سكن فيها الأخيار من العلماء والصالحين<sup>(٢)</sup>.

---

(١) السعدي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣.

(٢) انظر السعدي، ص ٢١.

فيشير الحسن الوزان إلى طوائف العلماء والفقهاء والقضاة وغيرهم من طلاب العلم الذين تزخر بهم مدينة تنبكت، وهؤلاء جميعا موضع رعاية الملوك وتشجيعهم. ويبدو مدى اهتمام ملوك سنغي بالحركة العلمية في تنبكت وتشجيعها في استيراد المخطوطات المتنوعة من بلاد المغرب، حيث تدفع مقابلها مبالغ تفوق ما يدفع مقابل أي سلعة أخرى، إذ لا تخلو قافلة مسافرة من المغرب إلى تنبكت من وجود هذه المخطوطات.<sup>(١)</sup>

فلم تكن المدن بهذا مراكز للتجارة فقط بل كانت مراكز للثقافة والعلم ونشر الحضارة الإسلامية بكل مظاهرها. فقد ظلت تنبكت مركزاً للثقافة والحضارة بالسودان الغربي طيلة ما يقرب من مئة عام، في الفترة التي كانت أوربة تحترق بحرب المئة عام.<sup>(٢)</sup>

ولمدينة تنبكت في إفريقية الغربية ميزتان: الأولى أنها دليل على انتشار الإسلام ناحية الجنوب، والثانية أنها كانت إحدى الحواضر الإسلامية المهمة، وكانت لها جامعة شهيرة تخرج فيها علماء ومؤرخون كان لهم فضل كبير في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية العربية. وقد ساعد أسكيا محمد وخلفاؤه على رقي هذه المدينة حتى بلغت شأواً بعيداً. فقد شيد فيها أسكيا محمد كثيراً من معاهد العلم، وجذب لها العلماء من المغرب والبلدان المجاورة، وعمل على نشر الإسلام بين الوثنيين من قبائل الهوسا والفولة والموسي، مهتدياً بنصيحة هؤلاء العلماء الذين كثروا في دولته، وظهرت في عهده مدن إسلامية شمالي نيجيريا، مثل كانوا وكاتسينا، وجذبت هذه المدن طبقات العلماء مثل أحمد بابا التنبكتي الذي عرج على كانو عند عودته من الحج، وجلس بها يعلم الناس،

---

(١) الدكتور مصطفى مسعد، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٣.

ووصل انتشار الإسلام في ظله إلى منطقة بحيرة تشاد، ولهذا يطنب السعدي، كما رأينا، ومحمود كعت التنبكتي في ذكر محاسنه وفضله، ويرقون به إلى درجة الأولياء وأصحاب الكرامات والخوارق. (١)

ويعقد السعدي بابا خاصا (الباب التاسع) من كتابه «تاريخ السودان» للكلام عن بعض العلماء والصالحين الذين سكنوا تنبكت (٢). ويعطينا كعت وصفا كاملا لمعاملة السلطان آسكيا الحاج محمد لرعيته والعلماء خاصة، فهو لا يقوم لأحد إلا العلماء والشرفاء وأولادهم، ويذكر لنا بعض الأعيان العلماء الذين اتصلوا به، ومنهم الشيخ عبدالرحمن السيوطي والشيخ محمد بن عبدالكريم المغيلي والشيخ شمهورش الجنيني والشيخ الحسني مولاي العباس أمير مكة. (٣) وسار كثير من ملوك سنغي سيرة آسكيا محمد في هذا المضمار، فشجعوا العلماء وأكرمهم، وبذلوا أقصى الجهد في خدمة الإسلام ونشره، والعناية بالكتب والمكتبات، وكان بعضهم يحفظ القرآن، ويجلس أمام الشيوخ يتلوه عليهم ويستمع إلى شرحهم وتفسيرهم. (٤)

وسياتي الكلام مفصلاً عن الناحية الثقافية في تنبكت في الفصول التالية. أما من الناحية الاجتماعية فقد كان لآسكيا محمد مواقف شهيرة. فهو أول حاكم في غربي افريقية يرغب النساء على اتباع قواعد الإسلام في ناحية الزي والاختلاط، وكان أول من حكم بحرية ابن الرجل الحر من زوجة رقيقة، وكان يعدّ قبل آسكيا محمد عبدا تبعا لأمه (٥)، وكان الناس في عهد آسكيا

---

(١) الدكتور شلبي، ص ٢٧٨.

(٢) السعدي، ص ص ٢٧-٣٧.

(٣) محمود كعت، ص ٢١.

(٤) الدكتور شلبي، ص ٢٧٨.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٦٦.

محمد أمناء شرفاء، وكان القضاة عدولاً، ولا أثر للرشوة في مملكته، وكانت الشرطة ذات أثر فعال، حتى كان الطفل يذهب إلى السوق فلا يغشه ولا يسرقه أحد، وكانت حكومته أكثر تمسكاً بالشدة من حكومة مالي. ويمكننا هنا أن نقرر أن أكثر العادات الاجتماعية التي ذكرها ابن بطوطة في وصفه لمالي، كالمحافظة على الصلاة في جماعة والتسابق عليها يوم الجمعة، واستعمال الملابس البيضاء، والعناية بحفظ القرآن، وشدة إجلال الرعية للملك، والتمسح بالتراب أمامه كل هذه العادات ظلت في دولة سنغي كما كانت في دولة مالي، إلا أنها قد انحصرت في نطاق ضيق، لأن العادات الاجتماعية الوثيقة الصلة بالإنسان والتحول عنها عسير وبطيء، وهذه العادات يرتبط أكثرها بالدين وآدابه، وقد اهتم أسكيا محمد بالذات وأكثر ممن جاءوا بعده، اهتموا بتعاليم الإسلام وسلوكه. (١)

---

(١) انظر الدكتور شليبي، ص ٢٧٧.

## المبحث الرابع





## دولة الفولاني الإسلامية

### المطلب الأول : الفولاني - دراسة تعريفية عن الأصل

لشعب الفولاني عدة أسماء يطلقها عليهم المؤرخون، منها: البوهل، الفولا، الفلان<sup>(١)</sup>، التكلور<sup>(٢)</sup>. ويذكر بارث<sup>(٣)</sup> بأن الهوسا يسمونهم الفلبي، والبرنو يسمونهم فلاتة، والعرب يسمونهم فلان، والماندنغو يسمونهم فولا. وعندما عظم أمر الفولاني وكثر عددهم سيطروا على معظم بلاد غربي إفريقيا تجاريا وثقافيا، وذلك بشجاعتهم وحماسهم للدين الإسلامي والدعوة إليه. كانوا يسكنون في إقليم فوتا تورو بالسنگال، وكانوا يشكلون في القرنين (٨ و ٩هـ / ١٤ و ١٥م) حاجزا وثيا ضد تقدم الإسلام، ولكنهم عندما اعتنقوا الدين الإسلامي في القرن السادس عشر أصبحوا متحمسين لنشره وحمل لوائه والذود عنه. وقد قاموا بحركة اجتماعية ودينية وسياسية وثقافية، هدفها نشر الإسلام، والقضاء على تجارة الرقيق، وتوحيد البلاد في ظل خلافة إسلامية، ثم العمل على نشر الثقافة الإسلامية العربية والتعليم الديني. وقد توجهوا من أجل ذلك شرقا إلى إمارات الهوسا التي أصبحت فيما بعد تعرف باسم نيجيريا، وتمخض نشاطهم في بلاد الهوسا عن الحركة الإصلاحية الكبرى التي تزعمها عثمان بن فودي في مطلع القرن (١٣هـ / ١٩م).

وتوجهوا جنوباً إلى فوتاجلون حيث أنشؤوا في القرن (١٩م) سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م تسع إمارات إسلامية في الفوتا، تديرها النخبة المثقفة التي أضحت إقطاعية محاربة يحكم كلا منها إمام منتخب لمدة سنتين دوريا بين

(١) انظر: الفوتي، تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان، العنوان، وصفحات أخرى متفرقة.

(٢) A. H. M. Kirk-Green's Travels in Nigeria, p. 95, 248.

(٣) Loc. cit.

عائلي سوري وألفا. وقد ساد مثل هذا النظام في موطنهم الأصلي في السنغال، حيث قضوا على الوثنية هناك عام ١١٩٠هـ / ١٧٧٦م كما تمكنوا من تأسيس مملكة بين النيجر والسنغال عرفت باسم مملكة ماسينا في أواخر القرن الثامن عشر، وقد اشتهر من ملوكها أحمد باري، الذي سيطر على تنبكت وجني، وبنى عاصمة جديدة عرفت باسم «حمد الله».

ويعتبر أصل الفولاني اليوم لغزا من الألغاز التاريخية لم تفك طلاسمه بعد على يقين، وقد اختلف علماء الأجناس والمؤرخون حول ذلك، فمنهم من يقول بأنهم من أصل هندي، ومن هؤلاء لوجارد<sup>(١)</sup>. ويذكر بانكر<sup>(٢)</sup> رأيا لدلافوس بأنهم من اليهود، هاجروا إلى منطقة غانا القديمة وأصبحوا حكام غانا البيض من القرن الرابع إلى القرن الثامن أو التاسع الميلادي، وبالتالي تزاوجوا من أهل المنطقة ثم طردوا أخيرا ولجؤوا إلى شعب التكرور الذين أخذوا لغتهم. ومنهم<sup>(٣)</sup> من يرى أنهم من المصريين الحاميين القدماء، ففي كليهما شكل الرأس نفسه أو الوجه عينه، وطريقتهم في تصنيف الشعر والختان. وهناك من يجعلهم من نوبة النيل الأعلى، وذهب آخرون إلى وجود علاقة بين الفينيقيين والفولانيين، والسبب كما يقول ميك<sup>(٤)</sup> هو أن الفولاني حمر الألوان، وأن الإغريق يسمون الفينيقيين بالرجال الحمر. وهناك من يرى إمكانية علاقة قديمة مع شعب فرجيني<sup>(٥)</sup>. ويعتقد بالمر<sup>(٦)</sup> بأنهم من نتاج نساء البربر وجنود الأمويين الذين قدموا إفريقية في أوائل الإسلام. ويرى البكري<sup>(٧)</sup> أنهم أحفاد

(١) A Tropical Dependency, op. cit., p.

(٢) The Serpent and the Crescent, op. cit, pp.25-26.

(٣) The Northern Tribes of Nigeria, p. 94.

(٤) Ibid, p. 95.

(٥) Loc. cit.

(٦) Loc. cit.

(٧) المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٩ وما بعدها.

عقبة بن ياسر أو نافع، وهو عربي جاء من الشرق وأقام وسط القبيلة التي تتكلم العربية، وهم التورودو أو تورودي في بلاد فوتا، فَعَلَّمَ التورودو الدين الإسلامي، وتزوج امرأة منهم أنجب منها أربعة أطفال ثم عاد إلى مصر. وقد ردد الفتوي<sup>(١)</sup> هذا الرأي. ولعبدالله بن فودي<sup>(٢)</sup> رأي كهذا. وغير هذا الذي ذكرنا كثير من الآراء<sup>(٣)</sup>، مما يدل على أن الأمر مازال في مرحلة الحدس أو التخمين.

إن كلمة الفصل في هذا الموضوع كما يرى أحد الباحثين<sup>(٤)</sup> تتلخص فيما أجمع عليه علماء الأجناس أخيراً من أن أصول هذا الشعب ترجع إلى أرومة مصرية، بدليل شبههم القريب بما وجد من صور المصريين المنقوشة على القبور منذ عهد الهكسوس. وهاجروا من صعيد مصر واتجهوا إلى الغرب عن طريق بلاد المغرب، ثم انحدروا إلى المحيط الأطلسي حيث استقر بعضهم هناك، بينما واصل بعضهم الآخر سيره حتى بلاد السنغال، وهم ينقسمون إلى قسمين: فولاني جدا، وهم الذين امتزجوا بغيرهم، وفولاني كاو، وهم الذين احتفظوا بخصائصهم القومية. ولقد بدأ شعب الفولاني يهاجر في أعداد كبيرة إلى مناطق منحنى النيجر في تاريخ مبكر، ودفعت هجراتهم السلمية ومعهم قطعانهم من الماشية، دفعت بعضهم إلى الوصول عن طريق بلاد الهوسا إلى منطقة بحيرة تشاد، بل وإلى أبعد منها، وكان ذلك في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي على الأقل. وبقي

(١) تعريف العشائر، المرجع نفسه، ص ٦.

(٢) إيداع النسخ، ص ٢، ونصه: «وأصلهم فيما نسمع من نصارى الروم وصلت إليهم جيوش الصحابة فأمن ملكهم وتزوج بنته عقبة بن عامر (هكذا) المجاهد الصحابي أمير العرب» فولد قبيلة فلان المشهورة وجددهم الرومي أبوه عيص بن إسحاق بن إبراهيم بن خليل وأمه نسمة بنت إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، والله أعلم.

(٣) انظر مثلاً: تعريف العشائر، ص ٦ وما بعدها.

(٤) انظر، د. هـ. جونز، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧، وانظر كذلك كلمة المترجم عبدالواحد الأمباري.

الكثيرون منهم على الوثنية وأعمال الرعي، يسرون على طريقة الحياة التي لا تزال قائمة حتى اليوم بين شعب البورورجي؛ أما الآخرون فقد سكنوا المدن واشتغلوا بالتجارة، وحظي العلماء والأساتذة المسلمون بينهم بمكانة التجلة والتقدير، نظراً لمعرفتهم الواسعة بثقافة الدين وقواعده، وكانوا شعباً نشطاً قوياً يدفعهم بلاشك طموح كبير في جعل كلمة الإسلام هي العليا.<sup>(١)</sup>

### المطلب الثاني : دور الفولاني في إسلام بلاد الهوسا

يوجد أول سجل لدخول جماعات قبائل الفولاني إلى بلاد الهوسا في حوالي عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م، في عهد السلطان المالي منسا موسى، حيث مارست جماعة منهم التجارة والزراعة مثل جيرانهم من الهوسا، وذلك على الرغم من أن الذين هاجروا إلى بلاد الهوسا في هذه الفترة كانوا من رعاة الماشية، واضطروا إلى دفع الجزية لأمرأء تلك المناطق.<sup>(٢)</sup>

ودخلت دولة سنغي في صراع عسكري مع جماعات الفولاني، وهزمها سني علي الثاني في موقعة جورما عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م، مما اضطرهم للتفرق في البلاد، وكثر عددهم بإمارات الهوسا بمرور الزمن، حتى أصبح لهم أحياء خاصة بهم في هذه الإمارات في القرن الثامن عشر، كما ارتفعت مكانة الفئة التي شاركت منهم في الحكم والإدارة.<sup>(٣)</sup>

وعند الغزو المراكشي لدولة سنغي، كان الفولاني قد أصبحوا قوة فنية ناشئة بغربي إفريقية، فاستطاعوا أن يؤدوا دوراً هاماً في المجال السياسي

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٨.

(٢) Croix, F.W. The Fulani of Northern Nigeria, op. cit, p. 8.

نقلا عن د. عبدالله عبدالرازق إبراهيم: الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا ص ١٣-١٤.

(٣) انظر: د. عبدالله عبدالرازق، المرجع نفسه، ص ١٤.



والثقافي للدويلات التي قامت على أنقاض دولة سنغي، واستطاعوا الحفاظ على استقلالهم وذاتيتهم، ووسعوا من أفق هجرتهم، حتى استطاعوا أن يشكلوا القوة المسيطرة على غربي إفريقية في مطلع القرن التاسع عشر.<sup>(١)</sup>

والمتبع لحركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية يلحظ أن جماعات الفولاني التي كانت تعيش في إمارات الهوسا قد قامت بدور بارز في الدعوة الإسلامية وسط الوثنيين ومقاومة استبداد أمراء الهوسا، والقضاء على حكم بعضهم، وإدخال بعض الإمارات تحت سلطة دولة سوكوتو الإسلامية التي أسسها الشيخ المجاهد عثمان بن فودي. ومن أبرز الأدلة على ذلك ما ذكره آدم عبدالله الألوري:<sup>(٢)</sup>

أولاً - وجد في مقاطعات كاشنة عدد لا يستهان به من الفولانيين، وكان يرأسهم الشيخ الفولاني عمر دلاج، وهو من أصحاب الشيخ عثمان بن فودي وتلاميذه. ولما سمع بقيام حركة الجهاد قدم إلى الشيخ عثمان بن فودي وطلب منه لواء، فعقده له، فرجع إلى بلاده ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى نصرته الحق والإسلام ومناصرة ابن فودي في جهاده، فأغضب ذلك سلطان كاشنة، فحرض عليه الغوغاء، فأساؤوا إليه كثيراً، ولكن الله نصر الشيخ عمر دلاج، فتغلب عليه وأجأه للفرار إلى مدينة (مرادي)، وجلس على عرشه، وأنشأ جيشاً قوياً لحماية الدعوة، وجرد كتيبة كبيرة لنصرة شيخه ابن فودي، فساعدت في محاصرة حصن (قالاوي) ثم فتحه.

وضم الشيخ عمر دلاج مقاطعات كاشنة جميعها إلى نفوذ وسلطان الشيخ بن فودي، وكانت إمارته هذه أول إمارة خضعت لدولة سوكوتو،

---

(١) انظر: السعدي: تاريخ السودان، ص ١٣٧ - ١٤٩؛ د. عبدالله عبدالرازق، المرجع نفسه، ص ١٦.

(٢) الإسلام في نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص ١١٧ وما بعدها.

وعاش أميرها عمر دلاج إلى عام ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م.

ثانياً - عندما شعر أمير إمارة غويير بالهزيمة أمام جيش الشيخ عثمان، أرسل إلى حلفائه مستنجداً للوقوف في وجه الفولانيين قبل أن يتفاقم أمرهم. وكان ممن تجاوب معه الملك (كادو) صاحب «زوزو» وأميرها بمقاطعة زاريا. وكان من رعايا (كادو) عالم فولاني يدعي مالم [أي المعلم] موسى، قدم إلى ابن فودي عام ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م، وأخذ منه اللواء وعاد إلى بلاده، وأعلن هناك الحرب الجهادية على كادو. وكانت النتيجة انهزام كادو وهروبه إلى أبوجا، وحل محله الشيخ العالم موسى على عرش زوزو، ليصبح أميرها تحت سيادة دولة الشيخ عثمان بن فودي الفولانية في بلاد الهوسا.

ثالثاً - كان سلطان كانو المدعو «الوالي» من جملة السلاطين الذين استنجد بهم ملك غويير، فتحرك الوالي لنصرة حليفه، وشعر به الفولانيون، فأوفدوا زعيمهم ابن صبوة إلى الشيخ عثمان بن فودي ليعقد لهم لواء الجهاد، فعقده لهم، ورجع به ابن صبوة إلى قومه للقيام بأعباء الدعوة والجهاد. وقامت بينه وبين الوالي مناوشات حربية، استعان ابن صبوة فيها بزعيم آخر من إخوانه الفولانيين، فتمكنوا من القضاء على الوالي - آخر ملوك هابي - عام ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م. وكان ذلك بداية دخول إمارة كانو في سلطان دولة الشيخ عثمان بن فودي ببلاد الهوسا.

رابعاً - نشأ في منطقة أعالي بنوي رجل فولاني يدعى مودبو آدم، تلقى العلم الشرعي في برنو، واتصل بدعوة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية، وانخرط في صفوفها، وحث جماعته وأهل بلاده على المسابقة إلى قبولها ومناصرتها، فاستجابوا له وبعثوه إلى مبايعة الشيخ عثمان، فذهب وباع ثم عاد باللواء، وأخذ في إعداد جيش كبير للدفاع عن الدعوة، وأصبح يدعو

القبائل الوثنية إلى الإسلام، وحالفه النصر ضد من تصدى له، حتى تمكن من تأسيس مدينة «يولا» سنة ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م. وأصبحت هذه البلاد تعرف بـ«أدماوا» نسبة إليه، ودخلت تحت سيادة دولة الشيخ عثمان بسوكوتو.

خامساً - عندما علم سلطان قبائل «نوفي»<sup>(١)</sup> بما كان يجري في بلاد الهوسا بين الفولانيين وملوك الهوسا، انضم إلى إخوانه الملوك، وأخذ يضطهد الفولانيين القاطنين في بلاده، فاستنجدوا بالشيخ عثمان بن فودي، فأرسل إليهم ابنه محمد بلو لإعانتهم، فتم لهم ذلك، فاستأنموا.

وقدم من سوكوتو إلى مدينة «رابا» - إحدى عواصم نوفي - العالم الفولاني «دندو»، وانضم إلى الأمير ماجيا ضد منافسه المقتول، الذي فر أنصاره إلى إلورن استعداداً للانتقام. وتمكن ماجيا من اعتلاء عرش رابا نتيجة لمساعدة هذا العالم، ممثلاً لسلطة وسيادة سوكوتو على إمارة رابا النوفية. ونقل عاصمته إلى مدينة «بدا». وتزوج مالم (معلم) دندو من سيدة من أسرة ماجيا، وأنجب منها ولدين، هما عثمان زاك ومحمد سابا، وتعاقب كلاهما على عرش إمارة بدا بعد وفاة أبيهما عام ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م.

لقد عاشت الدولة التي أسسها الفولاني بقيادة الشيخ عثمان بن فودي ببلاد الهوسا طوال القرن التاسع عشر الميلادي، وقضى عليها سياسياً وعسكرياً الاستعمار البريطاني سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م.<sup>(٢)</sup>

ولعل هذه الحركة الإسلامية كانت من أهم العوامل في سرعة انتشار الإسلام واستقراره في نيجيريا الحديثة وفي منطقة ايجيبو خاصة، على الرغم

---

(١) تسكن هذه القبائل على ضفاف نهر النيجر الشمالية في المناطق المحاذية لبلاد يوروبا على الضفة الجنوبية، وهم من بقايا قبائل النوبة الذين نزحوا من أعالي مصر وسكنوا هذه البلاد من قديم الزمان.

(٢) انظر: آرنولد: الدعوة إلى الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٢، وانظر ترجمة الشيخ عثمان في مكانها من هذا الكتاب، ص ص....

من دخول الإسلام إليها - أي ايجيبو - في وقت متأخر، وهو حوالي سنة ١٣١١هـ / ١٨٩٢م، على أن القرن العشرين ما كاد برأسه حتى كان للإسلام ركائزه القوية في هذا الجزء من العالم، وحتى أصبحت القرى تزدهم بالمساجد والمدارس. ويذكر آرنولد<sup>(١)</sup> أنه في سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م، كانت هناك بلدة بها عشرون مسجداً، وأخرى بها اثنا عشر مسجداً، وأنه يمكن أن نلاحظ سرعة انتشار الإسلام على طول ضفتي نهر النيجر في نيجيريا الجنوبية بوجه خاص. ويقرر أحد المنصرين أنه عندما غادر هذه البلاد سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م، كان هناك قليل من المسلمين بأسفل «أده»، ولكنهم الآن منتشرون في كل مكان، ماعدا أسفل «أبو» (Abo)<sup>(٢)</sup>، وعلى هذا النحو من السرعة التي نلاحظها في تقدم الإسلام، سيكون من النادر أن نجد قرية وثنية على ضفتي النيجر سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م. ولم يقف نشاط الفولاني عند الهوسا، بل تعداهم إلى شعب اليوروبا الذي يسكن بمناطق جنوبي غربي نيجيريا<sup>(٣)</sup>. وسوف نتطرق هذه الدراسة إلى هذا الجانب عند الكلام عن حركة الشيخ صالح جتنا ببلاد اليوروبا.<sup>(٤)</sup> وانبثقت بتأثير من الفولاني ببلاد الهوسا (بنيجيريا) دعوة فولانية أخرى في أقصى غربي إفريقيا، بين السنغال والنيجر، وإن اختلفت في المنهج الإصلاحي للشيخ عثمان بن فودي. فراعياها الشيخ أحمد لوبو، اتخذ المهدي شعاراً له في الدعوة التي انطلقت من ماسينا، وتطلع إلى العالم الإسلامي حوله، كما فعل الشيخ محمد أحمد المهدي في السودان وادي النيل.<sup>(٥)</sup>

(١) المرجع نفسه، ص ٣٦٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٣٦٣-٣٦٤.

(٣) انظر ص: ٥٥١ من هذا الكتاب.

(٤) انظر: الموضوع السابق من هذا الكتاب.

(٥) انظر: د. حسن إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٥.

أما في مجال الدعوة الإسلامية والثقافة الإسلامية تحت راية هذه الدولة، فقد كان أمراً عظيماً، وسيكون الكلام عنه في الفصل الخاص بالتعليم الإسلامي في بلاد الهوسا.<sup>(١)</sup>

### **المطلب الثالث : الأثر الحضاري للإسلام في دولة الفولاني الهوساوية أولاً - الناحية السياسية :**

كانت الدولة التي أنشأها الفولاني بقيادة الشيخ عثمان مترامية الأطراف، وكان من الصعب حكمها حكماً مركزياً، لذا نجده منذ البداية يعتمد على عدد من المساعدين والنواب. وقسم الدولة إلى عدة إمارات، أشرف بنفسه على إمارات سوكونتو وكاتسينا وكيببي. أما وزيره فقد تولى الإشراف على إمارات كانو وزاريا وأدماوا وجومبي وكاتاجم وهادييجا وجماري وميسو، وأشرف أمير من قبله على بوشي وآخر على موري.<sup>(٢)</sup>

واتبع الشيخ نظام الدواوين وسماها الولايات، فأنشأ عشرين ولاية لإدارة الدولة، أهمها: الخلافة العامة والوزارة والقضاء، ورد المظالم، والجهاد، وقسم للغنيمة وقسم للفيء، والكتابة، وقسم وضع الجزية، وقسم للصلاة، وقسم للصدقة، والحج، والسنة وغيرها. وحدد لكل ولاية اختصاصاتها وأسلوب عملها.<sup>(٣)</sup>

وقد تناول الشيخ عثمان بن فودي في كتابه «بيان وجوب الهجرة على العباد وبيان وجوب نصب الإمام وإقامة الجهاد»<sup>(٤)</sup> أقسام الولاية الشرعية.

---

(١) الفصل السابع، ص ص ٣٧٧-٤٦٥، وانظر: د. علي أبوبكر، سبق ذكره.

(٢) انظر: د. عبدالله عبدالرازق: الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، سبق ذكره، ص ١١٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ص ١١٣-١١٤.

(٤) انظره بتحقيق الدكتور فتحي حسن المصري، الخرطوم، ١٩٧٧م.



وكانت كل تنظيمات دولته وفق مبادئ الشريعة الإسلامية، وذلك واضح من كتاباته الكثيرة في هذا الشأن، مثل كتابه «الفرق بين ولاية أهل الإسلام وأهل الكفر»، الذي وضع فيه نظام الحكم في الدولة. ووُجِدَ تشابه بين نظام حكومة سوكوتو ونظام الحكم العباسي، مع بعض الاختلافات في الجوانب التطبيقية وفقاً لظروف البيئة المكانية.<sup>(١)</sup>

ولعل من أبرز آثار الإسلام الحضارية هنا أن الإسلام ساعد على اتحاد إمارات الهوسا في دولة واحدة، بعد أن كانت إمارات متناحرة.

**ثانياً - الناحية الاقتصادية :**

عندما استقام السلطان للقولاني ببلاد الهوسا، وجدوا في البلاد نظاماً اقتصادياً، احتفظوا بالصالح منها. فلم يغيروا كثيراً من نظم الضرائب التي سارت على وفق النظم الإسلامية المستمدة من تعاليم القرآن، فكانت الزكاة تدفع لبيت المال. وهناك ضريبة العشر، وضريبة تفرض على الماشية تسمى «جانجالي»، وضريبة الخراج على الأرض، وتسمى بلغة الهوسا «كوردين كاسا»، وضريبة الجزية التي تفرض على الوثنيين الذين يرفضون الدخول في الإسلام، وتسمى «جاندو»، وضريبة على أرباب الحرف والصناعات.

واعتمد اقتصاد دولة سوكوتو في هذه الفترة بصفة رئيسة على الزراعة والرعي إلى جانب قيام بعض الصناعات المحلية. وأسهمت الضرائب المختلفة بنصيب وافر في هذا الاقتصاد الذي انتعش أيضاً بسبب التجارة المارة عبر أراضي الدولة.<sup>(٢)</sup>

لقد ازدهرت الزراعة في دولة سوكوتو، ولاحظ هذا الازدهار في عهد الخليفة محمد بلو (١٨١٧ - ١٨٣٧م) الرحالة كلابرتون، حيث شاهد المزارع الضخمة حول

---

(١) د. عبدالله عبدالرازق، المرجع السابق، ص ١١٧.

(٢) انظر: المرجع نفسه ص ١٥٥-١٥٦.

إمارة زاريا، وشاهد الماشية والخيول منتشرة في تلك المزارع المحيطة بالمدن الكبرى.<sup>(١)</sup> واهتم محمد بلّو بإنشاء مدن الرباط لتكون مراكز دفاعية عن حدود الدولة، ولذا انتشرت المزارع حول هذه المدن. وساعدت هذه السياسة على انتشار العمران في مناطق كثيرة بين سوكونتو العاصمة ورباط ورنو الذي عاش فيه الخليفة محمد بلّو نفسه.<sup>(٢)</sup>

وأسهمت السياسة الزراعية للدولة في استقرار الفولاني، حيث استطاعوا أخذ كل ما يحتاجون إليه من أراضٍ من السكان المحليين حسب مذهب مالك الذي سمح للمؤمنين بالاستيلاء على الأراضي التي وقعت في أيديهم أثناء حركة الجهاد.<sup>(٣)</sup> وتطورت الصناعة في ظل الدولة الفولانية، فقد اعتمد الاقتصاد في الدولة - إلى جانب الزراعة والرعي - على قيام بعض الحرف والصناعات التي قامت أساساً على الإنتاج المحلي من الغلات الزراعية والمحاصيل النقدية أو على بعض المعادن المتوافرة في الدولة. وتركز هذا النشاط الصناعي في حزام عريض من المدن الصناعية امتدت من مدينة كانو جنوباً حتى الجزء الشمالي من إمارة زاريا، وكانت صناعة الملابس من أكثر الصناعات انتشاراً، وتركزت في مدن مثل كانو وكورا ورائو وتاريا وبوروم وبوكور وجاركو وروجو وييلي، وتمتد في إمارة زاريا.<sup>(٤)</sup>

---

(١) Clapperton and Others: Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa 1822-23 and 1824, London 1926, p. 343.

نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، المرجع نفسه، ص ١٦٠.

(٢) Lovejoy, Paul: Plantations in the Economy of the Sokoto Caliphate, J.A.H. XIX, 3, 1978, P. 341.

نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، المرجع نفسه، ص ١٦٠.

(٣) Azarya, Victor: Aristocrats Facing Change In The Fulbe In Guinea, Nigeria And Cameroon, London, 1978, P. 36.

نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، ص ١٦١.

(٤) Lovejoy, Paul: op. cit., p. 356 نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، ص ١٦٨.

وأدت الأسواق التي ازدهرت في ظل هذه الدولة دوراً هاماً في تنمية التجارة والثروة. وقد لاحظ الرحالة كلابرتون<sup>(١)</sup> الذي زار مدينة كانو عام ١٢٤٠هـ / ١٨٢٤م، أن سوق هذه المدينة يعدّ من أحسن أسواق إفريقيا، وله أنظمة خاصة تنظم حركة البيع والشراء وتحديد الأسعار وإيجارات الأكشاك.

### ثالثاً - الناحية الاجتماعية :

ترتب على قيام دولة الفولاني بنيجيريا أن أصبح الدين الإسلامي أساس أنظمة المجتمع المختلفة، ومنها النظام الاجتماعي، وبناء على هذا تمتع العلماء وطلاب العلم بمكانة اجتماعية عالية، وتولوا مناصب التدريس والقضاء والدعوة والإفتاء وقيادة المجالس الاستشارية والوعظ والإرشاد والإمامة وغيرها من المناصب ذات الصلة بثقافتهم الإسلامية المتميزة، وأصبحوا يشكلون مجموعة من الصفوة الإسلامية التي ربطت نفسها بالدفاع عن الدين الإسلامي والعمل على نشره. ولما كان الفولاني يشكلون غالبية طبقة العلماء، فقد ترتب على هذا انتشار لغتهم وبعض عاداتهم وتقاليدهم التي سادت مع المفهوم الإسلامي. وألف الإسلام بين فئات الشعب المختلفة، فاختلفت مظاهر التنافر بين جماعات الفولاني وجماعات الهوسا وغيرهم من فئات المجتمع الأخرى. وحلت قيم الإسلام محل العادات والتقاليد الجاهلية، التي كانت سائدة في مجتمع الهوسا قبل قيام الشيخ عثمان بن فودي بحركته الإصلاحية. وقد أشار الشيخ عثمان في كتابه: «الفرق بين ولاية أهل الإسلام وأهل الكفر» إلى الكثير من العادات الجاهلية السيئة التي كانت سائدة في بلاد الهوسا، مثل وضع التراب على الرؤوس عند التحية، وضرب الطبول والمزامير وشرب الخمر.<sup>(٢)</sup>

(١) op. cit, p.p. 253-254، نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، ص ص ١٧١-١٧٢.

(٢) انظر: د. عبدالله عبدالرازق، المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

وأشار كذلك ابنه محمد بلو<sup>(١)</sup> إلى إحدى هذه العادات السيئة التي كان يمارسها مسلمو الهوسا، وأفتى أحد العلماء، وهو الشيخ البكري، بتكفير فاعلها، لأن فيها التعظيم للنار التي كانوا يطوفون بها هم وأولادهم، وهم يقولون: «نحن وداعة الله، ثم وداعتك أيتها النار، وأنت أبونا وأمنّا».

واختفت الأعياد الجاهلية لتحل محلها الأعياد الإسلامية المعروفة: عيد الفطر وعيد الأضحى.

وسادت التقاليد الإسلامية في الزواج والطلاق والميراث<sup>(٢)</sup> والمآتم<sup>(٣)</sup> والعقيقة<sup>(٤)</sup>. ومن التقاليد التي ينفرد بها هذا المجتمع والدالة على أثر الإسلام فيه أن الزوجة لا تخاطب زوجها باسمه، بل تخاطبه بكلمة «مالم»، وهو تحريف للكلمة العربية «المعلم»<sup>(٥)</sup>.

وقضى الإسلام على كثير من الاعتقادات السائدة في المجتمع عن السحر والحسد والجن والعرافة، وكلما رسخت قدم الثقافة الإسلامية في منطقة من المناطق وجدنا أثراً ضئيلاً لهذه الممارسات، ويحاول المسلمون استبعاد أثر الجن بقراءة القرآن الكريم<sup>(٦)</sup>.

---

(١) إنفاق الميسور، سبق ذكره، ص ٥٠.

(٢) Anderson, J.N.D. Islamic law in Africa, London, 1970, p. 207.

د. عبدالله عبدالرازق، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٣) الشعبي، محمد مصطفى: نيجيريا، الدولة والمجتمع، ص ١٢٥- نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، ص ٢٠٧.

(٤) د. عبدالله عبدالرازق، المرجع نفسه، ص ٢٠٧.

(٥) انظر: د. علي أبوبكر، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٣.

(٦) St. Croix, F.: The Fulani of Northern Nigeria, Lagos, 1944, Reprinted W.de in 1981, p.p. 54-65.

نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق، ص ٢٠٩.





## **القسم الثاني**

**حركة التعليم الإسلامي في معاهد  
غربي إفريقية قبل الاستعمار**



## الفصل الرابع

أماكن التعليم الإسلامي  
في غربي إفريقيا



## المبحث الأول





## المسجد<sup>(١)</sup>

يعدّ المسجد أول معهد في تاريخ التعليم الإسلامي منذ انبثاق فجر الإسلام، وأول مسجد بني في الإسلام كان بقباء، قرب المدينة المنورة، حيث قامت به حلقات الدراسة<sup>(٢)</sup>، وتلاه قيام المسجد النبوي الشريف. واستمرت تقام في المساجد منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا على الرغم من وجود ما يعرف بالمدرسة منذ القرن الرابع الهجري. ولم يكن المسجد معهدا تعليميا فحسب، بل كان في البداية مكانا للعبادة، ودارا للقضاء وساحة تجيش منها الجيوش، ومكانا لاستقبال الضيوف الرسميين كالسفراء.<sup>(٣)</sup>

بعد مسجد قباء والمسجد النبوي بالمدينة المنورة كثرت المساجد وزاد انتشارها باتساع انتشار الإسلام، وأصبح من المتبع أن يبنى مسجد أو أكثر في كل مكان فتحه المسلمون، أو في كل قرية أو مدينة أسسوها<sup>(٤)</sup>، فلقد روى المقرئزي<sup>(٥)</sup> أن عمر لما فتح البلاد كتب إلى عماله على البصرة والكوفة ومصر أن يتخذوا مساجد للجماعة، ويتخذوا للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة.

وكانت المساجد على عهد الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين من

---

(١) انظر: المسجد: المعهد الأول للتعليم عند المسلمين، بحث للدكتور حسين أمين، نشر بمجلة كلية آداب الإسكندرية. العدد الثاني والعشرون (١٩٦٨م)، ص ١٥ وما بعدها؛ الدكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج ٤، ص ٣٣٦-٣٣٧.  
ابن هشام: السيرة النبوية، المجلد الأول، ج ٢، ص ٤٩٤؛ الدكتور شلبي: تاريخ التربية الإسلامية - رسالة دكتوراه منشورة، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة مسجد ومادة تعليم.

(٣) تاريخ التربية، المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٤) انظر: المرجع والمكان نفسيهما.

(٥) الخطط، ج ٢، ص ٢٤٦.

بعده مراكز تهذيبية وتعليمية، كان لها الأثر الكبير في نشر الوعي الديني الصحيح وبث روح المعرفة في نفوس المسلمين. وقام الصحابة رضي الله عنهم بعد الرسول ﷺ بتعليم المسلمين وتفقيهم في شؤون الدين، وكان المسلمون يتحلقون حولهم في المساجد، يتلقون عنهم العلم. وعمن عرف بهذا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، حيث كان يجلس بفناء الكعبة يعلم الناس التفسير ويجيب على أسئلتهم في أمور الدين المختلفة. وقد قصده المسلمون من كافة الأمصار ومن مختلف المذاهب الفكرية. وحتى الشعراء من أمثال عمر بن أبي ربيعة. (١)

وسار التابعون على نهج الصحابة في جعل المساجد مراكز مهمة للدراسات الفقهية وأصول الدين. وتبعهم تابعو التابعين والعلماء المسلمون في كل مصر وعصر.

ولم يبق المسجد مقتصرًا على الوعظ والإرشاد وتعليم المواضيع الدينية الفقهية البحتة، بل أخذت العلوم الأخرى التي تعرفها المسلمون نتيجة الفتوحات الإسلامية طريقها إلى المسجد، كالدراسات اللغوية والفلسفية والتاريخية. (٢)

واستمرت المساجد الإسلامية في أداء رسالتها التعليمية، وأخذت تعمل على تخريج عناصر علمية طيبة، عملت على ترسيخ وتطوير العلوم وخدمة الإنسانية. وتخرج في تلك المعاهد الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه، وكان

---

(١) الأصفهاني: الأغاني، ج١، إشراف عبدالله العلالي وآخرون، ط٣، بيروت، ص٨١.

الدكتور حسين أمين، مرجع سبق ذكره، ص١٧.

(٢) عن أحوال الحركة التعليمية الإسلامية. انظر: الدكتور محمد عبدالرحيم غنيم: مقدمة لتاريخ التعليم الجامعي في الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة من جامعة فؤاد الأول (القاهرة) سنة ١٩٥٣م، ص٨ وما بعدها.

ملازما التعليم والتعلم في مسجد المدينة حتى توفي سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م، وأخذ عنه الفقه أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م ومالك ابن أنس المتوفى سنة ١٧٩هـ / ٨١٢م.<sup>(١)</sup> واشتهر الشافعي في مسجد القسطنطينية بمصر، وتعلم أحمد بن حنبل في مساجد بغداد، وغيرهم كثير من جهابذة الفقهاء العلماء الذين تخرجوا في مساجد العالم الإسلامي المختلفة.<sup>(٢)</sup> ومن المساجد التي اشتهرت بحلقات العلم وأدت رسالتها التعليمية على أحسن وجه: المسجد النبوي الشريف، ومسجد البصرة، ومسجد الكوفة، ومسجد القسطنطينية<sup>(٣)</sup> ومسجد القيروان<sup>(٤)</sup> والمسجد الأموي بدمشق<sup>(٥)</sup>، ومسجد الزيتونة<sup>(٦)</sup> وجامع المنصور ببغداد<sup>(٧)</sup> ومسجد قرطبة<sup>(٨)</sup> ومسجد ابن طولون<sup>(٩)</sup> والأزهر الشريف<sup>(١٠)</sup> ومسجد القرويين بفاس،<sup>(١١)</sup> ومساجد غربي إفريقيا التي هي محور بحثنا.

- 
- (١) الدكتور حسين أمين، المرجع السابق، ص ٢٢.
- (٢) المرجع نفسه ص ٢٢ وما بعدها.
- (٣) ابن جبير، الرحلة، تحقيق الدكتور حسين نصار، ص ٢١، تاريخ التربية مرجع سبق ذكره، ص ١٠٩، أسماء فهمي: مبادئ التربية الإسلامية، ص ٢٦. تاريخ الإسلام السياسي، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٢.
- (٤) انظر: محمد محمد شتا: الحياة الفكرية في القيروان، منذ نشأتها حتى رحيل الفاطميين إلى مصر سنة ٣٦٢هـ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية بالأزهر سنة ١٩٧٢م.
- (٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٦٠، تاريخ التربية ص ١٠٧.
- (٦) انظر: حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، ص ١١٥، ١٢٥.
- (٧) ياقوت: معجم الأدباء، ج ٤، ص ٢٤٣، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٣٢.
- (٨) انظر: د. شليبي التربية، مرجع سبق ذكره، ص ١١١.
- (٩) المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٣٧-٤٢، الدكتور غنيمة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧.
- (١٠) السيوطي: حسن المحاضرة، ص ١٨٣. الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي: الأزهر في ألف عام، ص ١٦ وما بعدها، الخطط، المصدر السابق، ص ٤٩.
- (١١) انظر: الدكتور أحمد البهي: جامعة القرويين ودورها في حفظ ثقافة الإسلام، رسالة دكتوراه غير منشورة، الأزهر، كلية اللغة العربية، ١٩٧٣م.

أدت هذه المساجد رسالتها التعليمية والثقافية خير أداء، وكانت النواة الأولى للتعليم الجامعي في الإسلام. وكانت المكتبات الملحقة بها تضم عددا كبيرا من الكتب في مختلف العلوم والفنون التي كانت توقف في العادة على المساجد حتى لا تبددها الأيدي، وقد شاركت غربي إفريقية في هذه السمة البارزة. (١)

وكانت هذه المساجد خير أمكنة انتشرت منها بحوث العلماء والفقهاء والأدباء ومؤلفاتهم، ومعظم المصادر الإسلامية والعربية المخطوطة والمطبوعة كان المسجد مكان كتابتها ونشرها، فقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يملئ على أصحابه القرآن الكريم، وصار الناس يستسخون القرآن الكريم، فانتشرت نسخ منه في المساجد الإسلامية. وفي مسجد المدينة صنف مالك بن أنس كتابه «الموطأ»، وفي مسجد القسطنطين ألف الشافعي كتابه «الأم»، وفي مسجد البصرة كتب الخليل بن أحمد كتبه المعروفة في اللغة، ومن أشهرها كتاب «العين»، وغير ذلك مما تزخر به كتب التاريخ والتراجم.

وفي أواخر القرن الرابع الهجري بدأت المدارس الإسلامية في الظهور خاصة في منطقة نيسابور، ثم انتشرت في العراق وسورية ومصر وسائر بلاد المسلمين، وفي هذا يقول المقرئ (٢): «... وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور. فبنيت بها المدرسة البيهقية، وبنى بها أيضا الأمين بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أخوه السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أيضا المدرسة السعيدية، وبنى بها أيضا مدرسة رابعة، وأشهر ما بُني في

---

(١) الألوري: موجز تاريخ نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٠، وعن مثال مكتبات مساجد المغرب، انظر: ابن أبي دينار. مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.

(٢) الخطط، ج٤، ص ١٩٢.



القديم المدرسة النظامية ببغداد: لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء رواتب معلومة. وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك، وزير ملك شاه، وشرع في بنائها في سنة ٤٥٧هـ «فاقتدى الناس به من حيثثذ في بلاد العراق وخراسان...».

وأول مدرسة أحدثت بمصر المدرسة الناصرية<sup>(١)</sup>، بجوار الجامع العتيق بمصر، ثم المدرسة القمحية<sup>(٢)</sup> ثم السيوفية<sup>(٣)</sup>، ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين في بناء المدارس أبنائه وأمرائه، ثم حذا حذوهم من حكم مصر من بعدهم.<sup>(٤)</sup>

وكان للحركة المدرسية في المشرق صداها القوي في الجناح الأيسر من العالم الإسلامي، ولم تلبث بلاد المغرب أن شهدت حركتين مدرستين كبيرتين حمل لواءهما الحفصيون في تونس، والمرينيون في المغرب الأقصى، وإلى هاتين الدولتين يرجع الفضل في إنشاء المدارس وانتشارها في شمالي افريقية.<sup>(٥)</sup>

وأشهر هذه المدارس: المدرسة الشماعية (نسبة إلى سوق الشماعين بتونس) التي أنشئت سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م<sup>(٦)</sup>، وهي أول ما أنشئ من المدارس بتونس<sup>(٧)</sup>، والمدرسة التي أنشأها الأمير أبو عبدالله المتتصر المتوفى سنة ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م بالقرب من سوق القلعة بتونس<sup>(٨)</sup>، والمدرسة التي أنشأها أبو عمرو عثمان المتوفى سنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م. وجعل فيها مسجدا للصلاة ومأوى لسكنى

(١) نسبة إلى الناصر صلاح الدين الأيوبي.

(٢) سميت بذلك لأن الوقف الذي كان عليها ضيعة قمح بالفيوم ختت سنة ٥٦٦هـ. انظر: الخطط، ج ١٠ ص ١٩٤.

(٣) لأن سوق السيوفيين كان حيثثذ على بابها، وخطت سنة ٧٢هـ، انظر: الخطط، ج ٤، ص ١٩٦.

(٤) الخطط، ج ٤، ص ص ١٩٢-١٩٣.

(٥) انظر: الدكتور غنيمة، مرجع سبق ذكره، ص ٥٩، فقد أورد أسماء وتواريخ هذه المدارس.

(٦) ابن أبي دينار، مصدر سبق ذكره ص ص ١٢٦-١٢٧.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

الطلبة، وأوقف عليها مايكفيها من العمال والمشرفين على الصدقات.<sup>(١)</sup>  
ويعد العصر المريني بالمغرب الأقصى أزهى عصور المدارس في تلك  
الديار، فقد كان السلطان يعقوب بن عبدالحق المريني المتوفى سنة ٦٨٥هـ/  
١٢٨٦م أول من أنشأ المدارس بمراكش<sup>(٢)</sup>، وسار على سنته بنوه من بعده.  
ومن ذلك مدرسة فاس الجديدة بالحى الجديد من فاس، أقامها ابن السلطان  
يعقوب<sup>(٣)</sup>، والمدرسة الكبرى التي أنشأها حفيد السلطان يعقوب<sup>(٤)</sup>، وغير ذلك  
من المدارس الكثيرة الأخرى.<sup>(٥)</sup>

لم تختلف المدرسة عن الجامع أو المسجد، لا من حيث الشكل ولا من  
حيث المضمون، إلا أنها كانت أكمل استعدادا للدراسة المتصلة، ولسكنى  
الطلاب المنقطعين للعلم، واستخدمت لأغراض المسجد نفسها. فأقيمت فيها  
الصلاة، ومجلس القضاء. وبجانب ذلك كان غرضها الرئيس هو تدريس الفقه  
وفق واحد أو أكثر من المذاهب السنية الأربعة. وفي بعضها كان يدرس الطب  
مع الفقه والعلوم العقلية واللسانية الأخرى<sup>(٦)</sup>، بطريقة تستدعي انقطاع الطلاب  
لِلدراسة وتفرغ المدرسين للعمل، حيث كانت ترتب لهم أجور ثابتة. وقد  
استدعى ذلك بالضرورة تخصيص بناء المدرسة في غير أوقات الصلاة لطلبتها  
ومدرسيها.<sup>(٧)</sup>

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٧.

(٢) الاستقصاء، ج ٢، ص ٣٢.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وطرابلس ومدينة فاس، ص ٢٨٠.

(٤) المكان نفسه.

(٥) انظر المصدر نفسه، ص ١٨١؛ روجيه لوتورنو، فاس في عصر بني مرين، ص ١٧٥، ص ص ١٧٣-١٧٤.

(٦) الخطط، ج ٣، ص ٢١٨، أسماء فهمي، ص ٣٣.

(٧) ابن جبير، ص ١٦٨ وما بعدها.

أما الأندلس فلم يظهر فيها هذا النوع من معاهد التعليم إلا متأخراً جداً. وكانت أول مدرسة بها في غرناطة سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م، في عصر يوسف الأول، من ملوك بني الأحمر.<sup>(١)</sup>

أما غربي إفريقية فقد ظهر فيها ما يقرب من مثل هذه المدارس ببلاد الهوسا، ولكن في فترة متأخرة، حوالي نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وعرفت باسم المعاهد العلمية، وهي في مبان منفصلة عن المسجد<sup>(٢)</sup>. ولكن وردت كلمة مدرس ومدرسة في مصادر تاريخ غربي إفريقية في وقت مبكر، أي منذ القرن السادس عشر. فنلاحظ أن السعدي<sup>(٣)</sup> في ترجمته للفقير عبدالله بن الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت، استعمل كلمة مدرس حين قال: «وأما عبدالله فهو عالم فقيه مدرس»، وفي ترجمته للفقير عبدالرحمن بن القاضي محمود أقيت السالف الذكر نرى السعدي<sup>(٤)</sup> يذكر كلمة مدرسة حين قال: «وكان ذا مكاشفات، وأصحاب مدرسته يحكون عن ذلك حكايات كثيرات...».

ويبدو لنا أن كلمة «مدرسة» هنا تعني مكان الدراسة أو مجلس العلم وحلقته، سواء في المسجد أو خارجه، والدليل على ذلك قول السعدي<sup>(٥)</sup> في معرض كلامه عن عبدالرحمن الأنف الذكر «فلما صلى بالناس الظهر جلس في مدرسته قال بالله بالله لتسمعُن في هذا العام<sup>(٦)</sup> ما لم تسمعوا بمثله قط...».

---

(١) الدكتور غنيمة، مرجع سبق ذكره، ص ٦٢.

(٢) انظر الفصل الخاص بالتعليم في كاتو وكاتسينا.

(٣) تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤، ٤٧.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

(٦) يعني عام ٩٩٩هـ / ١٥٩١م، وهو عام الغزو المراكشي لدولة سنفي الإسلامية.

وأصحاب المدرسة الذين يعينهم السعدي هم الذين يتحلقون حول العالم لتلقي العلوم الدينية. وكلمة مدرس تعني العالم الذي يلقي الدروس على طلاب العلم في مختلف الأعمار، غير تلاميذ الكتاب الذين ستتكلم عنهم فيما بعد. وقد وردت إشارات كثيرة في «تاريخ السودان» بهذا المفهوم، مثل، «فتكلم الشيخ في مدرسته وقال»<sup>(١)</sup>، ومثل قوله في ترجمته للشيخ الفقيه يحيى بن عبدالرحيم «وروي أنه كان في مدرسته ذات يوم تحت الصومعة من خارج يقرأ وحوله عصاة من الطلبة...»<sup>(٢)</sup> ومثل قوله عن الفقيه عبدالرحمن بن الفقيه محمود أقيت عند ترجمته للشيخ مسربوب الزغراني، أستاذ الفقيه عبدالرحمن ابن الفقيه محمود أقيت: «وقيل إنه كان في مدرسته ذات يوم فأذن الناس بجنازة فقال من هو؟ قيل زغراني، قال: نصلي عليه لأجل الشيخ مسربوب فخرج وصلى عليه»<sup>(٣)</sup> وفي كلامه عن الفقيه مور صالح جور قال: «ثم خرج فلما جلس في المدرسة قال للطلبة...»<sup>(٤)</sup>، ومثل قوله: «وروي أن... الفقيه عبدالرحمن بن الفقيه محمود حكى هذه القصة في مدرسته في المسجد»<sup>(٥)</sup>. وهذا النص الأخير أكبر دليل على أن المدرسة تعني الحلقة الدراسية العلمية. وقد وردت كلمتا المدارس القرآنية أو كلمة مدارس في كتابات الكثير من الرحالة والمؤلفين المحدثين من شرقيين<sup>(٦)</sup> وغربيين<sup>(٧)</sup>، وهم يعنون بذلك التعليم

---

(١) السعدي، المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٧، ٥١، ٥٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٦) Trimingham, A History of Islam in. W. A. op. cit.

(٧) قدام مرجع سبق ذكره، ص ١٤٤، بوركهات: رحلات بوركهات في بلاد النوبة والسودان ص ٣٢٢.

في الكتاب والزوايا، وهو بمثابة تعليم ابتدائي، ولا نظن أنهم يعنون تلك المدارس التي تدرس فيها العلوم العقلية والعملية بجانب الدراسات الإسلامية والعربية مثلما كان سائدا في الشرق والغرب الإسلاميين.<sup>(١)</sup>

إن من أبرز خصائص انتشار الإسلام في العالم هي انتشار التعليم المسجدي كأول خطوة يقوم بها أنصار الدعوة الإسلامية. وهذا ما حدث بالفعل في تاريخ التعليم الإسلامي في غربي إفريقيا؛ ففي دولة غانا وقبل دخول المرابطين فيها وإسقاطها روى لنا البكري<sup>(٢)</sup> - كما سبق أن ذكرنا - وجود اثني عشر مسجدا في المدينة الإسلامية، فيها الفقهاء وحملة العلم. وحتى في مدينة الملك الوثنية المعروفة بالغابة يوجد مسجد لوفوده ومستشاريه من المسلمين<sup>(٣)</sup>. ووجود فقهاء وحملة علم في مثل هذه المساجد دليل واضح على قدم تاريخ التعليم الإسلامي المسجدي في هذه البلاد حتى استوى على سوقه فيما بعد القرن الرابع عشر الميلادي، وظهر الإنتاج العلمي لهؤلاء الفقهاء في مناطق متفرقة من بلدان غربي إفريقيا.

أما مادة بناء هذه المساجد فمن الحجارة وخشب السنط واللبن، لأن هذه كانت بعض مواد البناء المعروفة عندهم<sup>(٤)</sup>، وعلى الطراز المغربي من حيث الشكل والتصميم<sup>(٥)</sup> والبساطة، أو على غرار المسجد الحرام المكي المغطى

---

(١) المدارس القرآنية تقابلها كلمة (المسجد) في السودان النيلي، وهي كلمة محرفة عن المسجد، إذ غالبا ما تكون نار القرآن إلى جوار مسجد، أو يستخدم موضعها كما يستخدم له المسجد في القرية (وانظر ص: ٢٨٢ من هذا الكتاب ج: ٤).

(٢) المغرب، ص ١٧٥.

(٣) المكان نفسه.

(٤) السعدي، الصفحات: ١٧٥، ١٠٩، ١١٠، ٢١٩، ٢٧٥، الإدريسي، المغرب وأرض السودان، ص ٦، قدام، ص ص ١٦٥-١٦٦، ١٥٣.

(٥) قدام، ص ٣٢، ١٦٠، جوليان، مرجع سبق ذكره، ص ٨٣.



بالقماش مع تبييضه بالجير وتسقيفه بالطين وبنائه من الطوب كما كان يحدث في مساجد برنو<sup>(١)</sup>. وكانت المساجد التي تبنى في القرى من دون مآذن. وقد انتقل هذا الأثر من المعابد الوثنية إلى دور العبادة الإسلامية، أما في القرن الرابع عشر فقد أصبحت المآذن هرمية يعلوها مكان صغير يقف عليه المؤذن<sup>(٢)</sup>. ومن هنا أمكن القول بدخول الأسلوب المحلي السوداني في العمارة، وقد تمثل هذا الأسلوب في مآذن مساجد تنبكت، واحتفظ البعض بالأسلوب المغربي في مثذنته المضلعة العالية<sup>(٣)</sup>. وكانت المساجد في شكلها العام هرمية أيضا، وما يزال لهذا الأسلوب آثاره في غربي إفريقية لاسيما منذ عهد دولة سنغي الإسلامية<sup>(٤)</sup>.

ومن أشهر المساجد التي قامت بدور تعليمي بارز في غربي إفريقية في هذه الحقبة التاريخية: مسجد سنكري بتنبكت، والمسجد الجامع بتنبكت، والمسجد الجامع بجني، ومساجد جاو، عاصمة دولة سنغي، التي سبقت مساجد تنبكت في دورها التعليمي<sup>(٥)</sup>، ومسجد هيب Habe بكاتسينا، والذي بني على طراز مساجد سنغي وجني في الحارة المسماة بآنتارا، والمساجد الجامعة بكانو ومدن الهوسا الأخرى<sup>(٦)</sup>، والمساجد الجامعة بيرنو، مثل مساجد غسرغمو - عاصمة برنو - المشهورة، وهي: مسجد غريبايا ومسجد تالي ومسجد ايامو ومسجد ديامو. ويضم كل مسجد من هذه المساجد الأربعة البرنوية اثني عشر

---

(١) Palmer, The Bornu Sahara and Sudan, op. cit., p. 19.

ابن يونس، مرجع سبق ذكره، ص ٩١.

(٢) قداح، ص ٣٥، ١٦٠، ١٦٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٦٠، ١٦٥.

(٤) زيادية: سنغي في عهد الأسبقين، ص ص ١٦٧-١٦٨.

(٥) K.M. Paniker: A History of the Negro Empires, op. cit., p. 261.

(٦) عبدالله بن فودي: إيداع النسخ، مصدر سبق ذكره، ص ٩.

ألفا من المسلمين كل جمعة.<sup>(١)</sup>

وقد خرجت هذه المعاهد علماء أفذاذاً أناروا الطريق أمام مواطنيهم، وقاموا بدور مهم في إرساء قواعد الحضارة الإسلامية في غربي إفريقيا، وسيأتي الكلام عنهم وعن مؤلفاتهم في موضع آخر من هذا الكتاب.

وكما كان المسجد في المشرق والمغرب على السواء، مكاناً للاجتماعات العامة في الأمور الكبيرة، فقد كان كذلك في غربي إفريقيا، والدليل على ذلك الاجتماع الذي عقده كبراء مدينة تنبكت بجامع سنكري، للتشاور في أمر الغزو المراكشي لمدينتهم ودولتهم في نهاية القرن (١٠هـ / ١٦م)<sup>(٢)</sup>، ولقاء آسكيا داود (٩٥٦-٩٩٠هـ / ١٥٤٩-١٥٨٢م) مع العلماء والأعيان في المسجد الجامع بتنبكت بعد عودته من إحدى غزواته.<sup>(٣)</sup> وكذلك كان الأمر بالنسبة للمساجد الأخرى في غربي إفريقيا. ويتفاوت حجم المساجد في غربي إفريقيا بحسب المدينة أو البلدة التي يوجد بها المسجد. وحتى في المدينة الواحدة فهناك مساجد كبيرة وأخرى صغيرة. وكان طلاب المرحلة الثانية<sup>(٤)</sup> يتلقون دروسهم في المساجد الصغيرة. ففي تنبكت مثلاً كان التدريس في مسجد الونكريين من النوع الثانوي، الذي ينتقل إليه الطالب مباشرة بعد أن يكون قد أكمل تعليمه بالمرحلة الابتدائية - الكتاب - أما في مسجد سنكري أو المسجد الجامع فقد كان التعليم من النوع العالي، حيث تدرس المواد على طريقة التخصص.<sup>(٥)</sup>

(١) H. R. Palmer: "Two Sudanese Manuscripts of the 17th C.", B.S.A. S., 5 (1928-30), p. 547.

إبراهيم بن صالح بن يونس: تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كاتم/ برنو، مرجع سبق ذكره، ص ٨٣، ٩١.

(٢) تاريخ الفتاش، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٢-١٧٣.

تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٩.

(٣) تاريخ السودان، ص ١١.

(٤) سوف نتكلم على المراحل التعليمية في الفصل الخاص بالتلاميذ.

(٥) انظر: تاريخ السودان، ص ٣٣؛ سنغاي في عهد الأسقيين، ص ١٤٤.



## المبحث الثاني





## الكتاب

لقد عُرِفَ الكتابُ عند العرب منذ الجاهلية على الرغم من قلته، ثم بدأ ينتشر بانتشار الإسلام<sup>(١)</sup>. وقد قام المسلمون الأوائل من أهل الحجاز والشام والعراق ومصر بدور كبير في إيجاد هذه الكتابات حينما انتقلوا إلى البلاد المفتوحة في خراسان والمشرق والمغرب ليعلموا أولادهم القراءة، وليلقنوا أبناء المسلمين من أهل هاتيك الديار آيات كتاب الله البينات. وهكذا وجدت الكتابات بكثرة في عواصم الأمصار.<sup>(٢)</sup>

كان الطفل يرسل إلى الكتاب، والذي كان في الغالب يلاصق المسجد، وقد يكون بعيدا عنه، ونادرا مايكون في المسجد خشية عبث الأطفال بنظافة المسجد وتجنبنا للضوضاء<sup>(٣)</sup>. وكان يشرف على الكتاب معلم قارئ حافظ مثقف، يتخذ التعليم حرفة. وقد يشترك أكثر من معلم واحد في كتاب واحد إذا كان عدد الأطفال كثيرا، ولم تكن للحكومة أية رقابة على هذه الكتابات إلا

---

(١) انظر: الدكتور محمد أسعد أطلس: التربية والتعليم في الإسلام، ص ٦٥ وما بعدها؛ الدكتور شلبي: تاريخ التربية، مرجع سبق ذكره ص ٤٤ وما بعدها. والدكتور شلبي في كلامه عن الكتاب ناقش بعمق ووضوح تطور مفهوم الكتاب وفرق بين الكتاب لتعليم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي، والكتاب لتعليم القراءة والكتابة، وأن النوع الأول هو المبكر، وفيه كان الكبار يتلقون مبادئ الدين، بينما الأطفال يندسون وسط الكبار في هذه الكتابات كما كان يفعل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما. أما جمهور الأطفال فكانوا يتلقون القرآن عن آبائهم وذويهم، أو عن معلمين خصوصيين، ومن هذا نشأ ما يعرف بالكتاتيب العامة لتعليم الأطفال مبادئ الدين والكتابة والقراءة. وقد ناقش شلبي هنا من خالفوه الرأي، وأورد أدلتهم وأدله، ولعل حجته كانت قوية. انظر: الدكتور أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، ص ٧٥-٧٧، وأسماء فهمي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣-٢٤، والدكتور عبدالعزيز أمين عبدالمجيد: التربية في السودان ص ٨١-٨٢ وص ٢٨٥ وما بعدها، من هذا الكتاب حول أنواع الكتاب - الكتابات.

(٢) انظر: الدكتور أطلس، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٣) شلبي، التربية، ص ٥٣، ٥٤.

متأخراً، وعندما وجدت وظيفة المحتسب<sup>(١)</sup>. وكان الآباء يتخيرون لأبنائهم الكتاتيب التي يرونها مناسبة، ويتفقون مع معلمهم على الأجر وعلى مايجب أن يتعلمه أبنائهم<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن الكتاب في الغالب داراً متعددة الغرف كما هو الحال اليوم في دور الحضانة أو رياض الأطفال أو المدارس الابتدائية أو الأولية، وإنما هي غرفة متسعة أو ضيقة أو غرفتان على الأكثر متواضعة الأثاث تتسع لعدد الأطفال الذين يشرف عليهم المعلم أو النقيب<sup>(٣)</sup>.

وكان الطفل يذهب في العادة إلى الكتاب مبكراً، فيبدأ يومه بحفظ حزب من القرآن الكريم، وبعد أن يحفظه يبدأ بالنسخ والكتابة والتمرن على تجويد الحفظ إلى وقت الظهر، ثم يعود إلى بيته للغداء أو يتغذى في الكتاب، ثم يبدأ عمله ثانية بعد صلاة الظهر حتى فترة العصر، يقرأ ويكتب إلى حين الانصراف إلى أهله بعد العصر<sup>(٤)</sup>.

وكانت مدة بقاء الطفل في الكتاب خمسة أعوام أو ستة على الأكثر، وتكون في الغالب ابتداء من السنة الخامسة أو السادسة من عمره إلى السنة العاشرة أو الحادية عشر، يحفظ الطفل خلالها القرآن الكريم كله أو بعضه عن ظهر قلب أو رواية وإتقاناً، ويستقن فن الكتابة والخط، ويلم بمبادئ العربية

---

(١) د. شلبي، التربية، ص ٧٧-٧٨، أسماء فهمي، المرجع السابق، ص ٢٥.

(٢) الدكتور أطلس، المرجع السابق، ص ٧٨.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه. في السودان النيلي تبدأ الفترة الثانية من بعد العصر إلى جزء من الليل، ومن هنا نشأت نار القرآن إشارة إلى الدراسة الليلية على ضوء نار الحطب، وكذلك هناك فترة لكبار الطلاب تبدأ بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس وتنتهي فيها أيضاً (نار القرآن).

والحساب<sup>(١)</sup>، ويعلم رواية الشعر الخالي من العشق وأهله.<sup>(٢)</sup>

أما المنهاج المبكر الذي وضع لتعليم الأطفال فقد نص عليه الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في رسالة منه إلى أهل الأمصار حين أمرهم بتعليم أولادهم السباحة والفروسية وما حسن من الشعر.<sup>(٣)</sup>

والذي ذكرناه هو المنهاج العام ولكن اختلافا جزئيا كان يحدث تبعا لاختلاف البلدان. وقد أوضح ابن خلدون<sup>(٤)</sup> ذلك في فصل خاص من المقدمة بعنوان: «تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه»، وما جاء فيه: «وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعض الملكات، واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان، فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط مع العناية برسمه، واختلاف حملة القرآن فيه، ولا يخلطون ذلك بسواه في مجالس تعليمهم، لا من حديث، ولا من فقه ولا من شعر، ولا من كلام العرب.

«وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا الذي يراعونه في التعليم، فلا يقتصرون على القرآن، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر، والترسل، وأخذهم بقوانين العربية، وتجويد الخط. ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من هذه جميعها.

«وأما أهل إفريقية،<sup>(٥)</sup> فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في

---

(١) انظر: ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص ٣٤.

(٢) المكان نفسه، الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ٥٧.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢، ص ٩٢.

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٨-١٠٤٢.

(٥) يعني تونس.

الغالب، ومدارسه قوانين العلوم (الدينية) وتلقين بعض مسائلهما، إلا أن عنايتهم بالقرآن، واستظهار الولدان إياه، ووقوفهم مع اختلاف رواياته وقراءاته أكثر، وعنايتهم بالخط تبع لذلك.

«وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك..»

أما أهل غربي إفريقية، فقد جرت العادة أن تقتصر الدراسة عندهم على حفظ القرآن وتلاوته وتعلم القراءة والكتابة إلى جانب معرفة فروض الدين من عقائد وعبادات.<sup>(١)</sup>

ومما تجدر الإشارة إليه أن علماء المسلمين لم يغفلوا الجانب التربوي للطفل، وفي ذلك كتب ابن سينا وابن مسكويه ومحمد بن سحنون والقابسي والغزالي. ولابن سينا في هذا المجال كتاب «السياسة»، وهو يعني سياسة الرجل ولده، وسياسة المؤدب الصبية. ومما جاء فيه: «وينبغي أن يكون مؤدب الصبي عاقلاً ذا دين، بصيراً برياضة الأخلاق حاذقاً بتربية الصبيان وقوراً رزينا بعيداً من الخفة والسخف، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي..»<sup>(٢)</sup>

ولابن مسكويه كتاب «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق»، وهو يدور حول المفاهيم التربوية عند ابن سينا نفسها، حول ما ينبغي تركه وما ينبغي تعلمه، حتى يصل بنا إلى قوله «ثم لا يزال به التأديب (يعني الصبي) والسنون والتجارب حتى يتنقل في أحوال بعد أحوال، فلذلك ينبغي أن يؤخذ مادام طفلاً بما ذكرناه ونذكره. ثم يطالب بحسن محاسن الأخبار والأشعار التي تجري مجرى ما تعود به بالأدب، حتى يتأكد عنده بروايتها وحفظها والمذاكرة بها جميع

---

(١) انظر: الألوري، مرجع سبق ذكره، ص ٩٤.

(٢) ابن سينا: كتاب السياسة. ضمن مجموعة مقالات فلسفية قديمة لبعض مشاهير فلاسفة العرب المسلمين والنصارى، ص ١٢-١٣.

ماقدمنا ذكره، ويحذر النظر في الأشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق وأهله... فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جدا...»<sup>(١)</sup> ولأبي عبدالله محمد بن سحنون في هذا المجال كتاب «آداب المعلمين»، الذي قام بنشره الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ملحقاً لكتابه «التربية في الإسلام»<sup>(٢)</sup>. والملحق الثاني لهذا الكتاب هو الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، لأبي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي. وفي كتابي ابن سحنون والقابسي ما يعكس دور علماء المغرب في المساهمة الفعالة في مجال التربية الإسلامية للطفل.

وفي ضوء ما ذكرناه من تاريخ الكتاب في التعليم الإسلامي عامة سوف نحاول أن نتلمس طريقنا لمعرفة نوع الكتابات التي ظهرت في غربي إفريقيا.

يذكر صاحب الفتاش<sup>(٣)</sup> أنه كانت تنبكت «مئة وخمسون أو ثمانون مكتبة»<sup>(٤)</sup> لتعليم الصبيان القرآن. ويلاحظ أن ابن المختار<sup>(٥)</sup> يسميها أحياناً «مدارس معلمي الصبيان». وأما السعدي<sup>(٦)</sup> فقد سماها «محضراً». وقد ورد هذا اللفظ في معرض الكلام عن الفقيه أبي القاسم التواتي، أحد علماء تنبكت وأئمة مسجدها الكبير الجامع، فقال عنه: «... قد سكن في جوار المسجد الجامع من جهة القبلة ليس بينها وبين داره إلا الطريق العتيق النافذ بعدما ابتنى محضراً في قبالة المسجد لاصقاً بها وفيها يقرئ الأطفال، وبعدهما توفي خلفه فيه تلميذه السيد منصور الفزاني وبعده السيد الفاضل الصالح الخير الزاهد

(١) ابن مسكويه، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤-٣٥.

(٢) مرجع سبق ذكره.

(٣) تاريخ الفتاش، ص ١٨٠.

(٤) يلاحظ أن ابن المختار أو (كعت) يسميه مكتبا، والآخرين يسمونه كُتَّاباً، والمعنى واحد.

(٥) المكان نفسه.

(٦) تاريخ السودان، ص ٥٨.



المقرئ عالم التجويد الفقيه إبراهيم الزلفي . . .».

وواضع من النص أن كلمة «محضر» تعني الكتاب أو مدرسة تعليم وتحفيظ القرآن. وربما يتساءل المرء عما إذا كانت كلمة «محضر» قد عرفت في مكان آخر غير غربي إفريقية. والجواب هو بالإيجاب، فالدكتور عبدالعزیز أمين<sup>(١)</sup> يذكر بأن هذه التسمية معروفة في المغرب وأن التلميذ في السيد (الخلوة) يسمى عندهم «المحضري». أما في المشرق فالدليل على وجود هذه التسمية قول ابن جبير<sup>(٢)</sup>: «وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد، لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم به وبكسوتهم» وذلك عندما تكلم على مدينة دمشق.

وفي منطقة الهوسا «نيجيريا الحالية» دخل مثل هذا النوع من المعاهد التعليمية مع دخول الإسلام، وإن كنا نلاحظ أن الباحث النيجيري آدم الألوري<sup>(٣)</sup> يستخدم تعبير «المدارس القرآنية» عندما يتكلم عن التعليم في نيجيريا قائلا «أما القراءة والكتابة فكانتا تعلمان مع القرآن في المدارس القرآنية التي يرتادها أطفال المسلمين ليدرسوا كلام ربهم وليستظهروه، إلى جانب ما يضيفون إليه من معرفة فروض الدين الإسلامي من عقائد وعبادات. ثم يندمج من شاء منهم بعد ذلك في ميدان الحياة الصناعي أو التجاري، وهم الأكثرون، أو يلتحق من شاء منهم بمدارس العلوم ليتنور بالثقافة الإسلامية التي تعتمد على تفسير القرآن والحديث والفلسفة والعقائد التوحيدية والتي تقوم على قواعد النحو والصرف والشعر العربي وعلوم التقد والتاريخ والفلك والمنطق، ويقل

---

(١) مرجع سبق ذكره، ص ٨٢- الحاشية.

(٢) الرحلة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٠.

(٣) موجز تاريخ نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص ٩٤.

الذين يثابرون على التعليم حتى يصلوا إلى هذه الغاية».

ولكن الباحث النيجيري علي بن أبي بكر<sup>(١)</sup> يقسم مدارس تعليم القرآن نفسها إلى نوعين، الأول هو الذي يتعلم فيه الصبيان قراءة القرآن فقط من غير حفظ، والثاني هو الذي يحفظون فيه القرآن. ويسمى النوع الأول «الكتاتيب»<sup>(٢)</sup> وأن الطفل أو الطفلة يلتحق بالنوع الأول عندما يبلغ أو تبلغ من العمر خمس سنوات، ويطلق عليها في العرف المحلي «مدرسة اللوح»، لأن الصبيان يتعلمون فيها قراءة القرآن وهو مكتوب على الألواح. وهذا النوع من المدارس القرآنية لا حصر له.<sup>(٣)</sup> أما النوع الثاني فعدده قليل بالنسبة إلى الكتاتيب (النوع الأول)، ولا يلتحق بها الصبي في الغالب إلا إذا أتم مرحلة الكتاتيب. وتقع هذه المدارس القرآنية خارج المدن أو القرى، حيث ينون بيوتا من المواد المحلية يسكنونها بالقرب من فقيهم. والذي يتخرج فيها يمتحن في حفظ القرآن كله.<sup>(٤)</sup> أما بقية أمكنة التعليم في نيجيريا فيسميها الباحث بالمعاهد الدينية.<sup>(٥)</sup>

وأما الباحث شيخو أحمد سعيد<sup>(٦)</sup>، فيسمى «الكتاب» بالمرحلة الأولية وبالمدارس القرآنية في آن واحد، وإن لم يعط تفصيلا كبيرا لأمكنة التعليم ومعاهده الأخرى، وشملها جميعا بكلمة «المدارس». ومنذ القرن السادس عشر عرفت الأماكن الخاصة لدراسة القرآن في بلاد

---

(١) الثقافة العربية في نيجيريا - رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة ١٩٦٧م، ص ٩٤ (نشرت).

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٦.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه، ص ٩٧ وما بعدها.

(٦) حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم ١٩٧٤م، ص ص ٦٩-٧٠.

الهوسا عامة وفي كانوا خاصة، ويمكن أن نطلق عليها كُتَّابًا، ومثال لتلك الكتابيب مايناه العاهل الكانوي أبوبكر بن رمفا (٩٧٣-٩٨٠هـ / ١٥٦٥ - ١٥٧٣م) لتعليم القرآن وسماه: جورون بوجاشي<sup>(١)</sup>. وعندما قوي الإسلام واستوى على سوقه وتأسست الإمارات الإسلامية في شمالي نيجيريا في مطلع القرن التاسع عشر (١٣هـ) كثر سواد طلاب العلم، فاتسع نطاق الكتابيب في مدنها المهمة، كما اتسعت أماكن التعليم الأخرى وأهمها المعاهد العلمية التي خرجت علماء ألفوا في شتى الموضوعات الدينية والأدبية، ولا يسع الواقف على تلك المؤلفات إلا أن يعترف ببراعتهم ونبوغهم على الرغم من كون العربية هي اللغة الثانية.

وخلاصة القول إن الكتاب قد عرف باسمه ومفهومه وهدفه في غربي إفريقيا مثلما كان في المشرق والمغرب الإسلاميين.

---

(١) Palmar, Kano Chronicle, op. cit., p. 81.

## المبحث الثالث





## منازل العلماء وقصور الحكام

### المطلب الأول : منازل العلماء

إن منزل العالم امتداد لحلقته التي يعقدها في المسجد أو في أي مكان آخر. فالسعدي<sup>(١)</sup> - في ترجمته لمحمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي المعروف ببَغْيُغ (باء مفتوحة فغين معجمة ساكنة فياء مضمومة فغين مضمومة) المتوفي سنة ١٠٠٠هـ / ١٥٩٣م - يعطينا نموذجاً لعالم تنقل في تعليمه بين المسجد والمنزل وأماكن أخرى حين قال عنه «... لازم الإقراء سيما بعد موت سيدي أحمد بن سعيد، فأدرسته أنا (أحمد بابا) يقرئ<sup>(٢)</sup> من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبير دولا مختلفة، ثم يقوم لبيته ويصلي الضحى مدة، وربما مشى للقاضي في أمر الناس بعدها، أو يصلح بين الناس، ثم يقرئ في بيته وقت الزوال، ويصلي الظهر بالناس، ويدرس إلى العصر، ثم يصلحها ويخرج لموضع آخر يدرس فيه للاصفرار أو قربه. وبعد المغرب يدرس في الجامع إلى العشاء ويرجع لبيته...».

وليس بالغريب أن تتعدد أماكن التعليم في غربي إفريقيا، فقد كانت هذه السمة عامة في تاريخ التعليم الإسلامي في شتى الأقطار الإسلامية الشرقية منها والمغربية، حتى إن بعض العلماء كان يقوم بالتدريس في مكان عمله، وذلك مثل إبراهيم بن شريف البكري الأندلسي (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م)، الذي

---

(١) تاريخ السودان، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.

(٢) مكان الإقراء هنا هو المسجد.

كان يدرس في دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة<sup>(١)</sup>، بل كان منهم من أقام خيمة بين القبور للتدريس، مثل المهدي بن تومرت عندما ضايقه السلطان وأمره بالخروج من فاس<sup>(٢)</sup>. وقد عقد النعيمي<sup>(٣)</sup> فصلاً كاملاً عن الترب بدمشق كمواضع للتعليم.

وكان بعض العلماء يقوم بتدريس بعضهم بعضاً بجانب تدريس الأبناء في المنازل حسب قوة كل واحد منهم في فنه. ولا بد لمثل هذا النوع من التعليم أن يكون إما في منزل المتلقي أو المتلقي عنه. وهناك إشارات لمثل هذا النوع من التدريس، وهو أشبه بالتعليم الخصوصي، ويفهم هذا من كلام السعدي<sup>(٤)</sup> حين قال في معرض كلامه عن زيارته الثانية للفقير أبي بكر المعروف بموركيثا ببلدة قريبة من تنبكت تسمى شبل، قال: «رجعت عند الفقيه المذكور لسرد كتاب الشفا له في بيته فاستهل عليّ رمضان فيه ليلة الجمعة فشرعنا في السرد بعون الله تعالى وإرادته، وفي الشهر ختمته، فواساني بما أمكن له، تقبله الله تعالى له، ثم طلب مني أن أفسره لأولاده، فشرعنا فيه حتى اختتمناه بفضل الله تعالى وحسن عونه». بل هناك من السلاطين من يذهب إلى الشيخ في منزله لتلقي العلم، ومن أولئك السلطان أبوبكر كادي بن رمفا، السلطان الخامس والعشرون في سلسلة سلاطين كانو، والذي حكم في الفترة ٩٧٣-٩٨٠هـ/ ١٥٦٥ - ١٥٧٣م. لقد كان يذهب لدراسة الشفا في منزل شيخه.<sup>(٥)</sup>

---

(١) ابن بشكوال: الصلة، ص ٨٩. ومن الظواهر الملاحظة في تشاد أن كثيراً من التجار العلماء يقومون بتدريس الأطفال أمام دكاكينهم أثناء عملهم التجاري في دكاكينهم.

(٢) ابن أبي دينار، المونس، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٨.

(٣) الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٢٢٣، وما بعدها.

(٤) تاريخ السودان، ص ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٥) K. C. op. cit, p 81.

ومن الملاحظ في التعليم عامة أنه إذا كان في الأسرة علماء فإنهم يقومون بتدريس أقاربهم في منازلهم، وهناك نماذج كثيرة لعلماء تخرجوا على أيدي أقاربهم بجانب تلقيهم الدراسة على فقهاء آخرين، سواء في منازلهم أم في المسجد. ومن العلماء الذين تتلمذوا على أقاربهم وفي منازلهم، القاضي محمد ابن أحمد بن أبي حمد التاذختي (ت حوالي ٩٣٦هـ / ١٥٥٥م)، الذي قرأ على جده الفقيه الحاج أحمد بن عمر، وعلى خاله الفقيه الصالح علي<sup>(١)</sup>، وعبدالله بن محمد بن فودي الذي تتلمذ على أخيه الشيخ عثمان بن محمد بن فودي وغيره من الأقارب<sup>(٢)</sup>. وقد ذكر ذلك عبدالله نفسه في مؤلفه «إيداع النسخ»، وذكر أن الشيخ عثمان بن فودي أيضا تلقى تعليمه أولا على أقاربه، ابتداء من والده محمد بن فودي<sup>(٣)</sup>.

### المطلب الثاني : قصور الحكماء

لم يكن كل طالب علم يذهب إلى المسجد أو دار العلم أو غيرها من معاهد التعليم. فهناك من جعل لنفسه المعلمين الذين يقومون بتعليمه في قصره. وقد كان هذا أمراً مألوفاً في تاريخ التعليم الإسلامي في كل الأقطار الإسلامية، ولم تشذ غربي إفريقية عن هذه القاعدة، فقد رأينا الشيخ محمد بن ماني، الذي اقترن اسمه بدخول الإسلام إلى برنو في القرن الخامس الهجري (١١م) - كما سيأتي ذكره في مكانه من الكتاب - يقوم بتدريس سلاطين هذه المملكة. وقد كان من المعمرين، إذ عاش مئة وعشرين عاماً.

ومن الذين تتلمذوا عليه في قصورهم السلطان أومي جلبي

---

(١) محمد بلو: إنفاق المسور في تاريخ التكرور، ص ٥١.

(٢) إيداع النسخ، مصدر سبق ذكره، ص ١-٥، ص ٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤-٧.

(٤٩٧-٤٨٩هـ / ١٠٨٦-١٠٩٦م)، وأعجب السلطان بهذا العالم، فاستصدر مرسوما خصه فيه بامتيازات طويلة الأجل، تسرى عليه وعلى أحفاده إلى يوم البعث.<sup>(١)</sup> إذ جعل كل ما يمسه ويمس عقبه حراما على الناس أجمعين.

وقد عرف مايات (سلاطين) برنو بمثل هذه الأعمال التي تجعل من رجال العلم الديني ذوي مكانة عالية في المجتمع البرنوي، لما يقومون به من تعليم للسلاطين أو لأبنائهم. ومثال آخر لهذا ما أصدره السلطان نجالما دوكو (٥٩١-٦١٨هـ / ١١٩٤-١٢٢١م) بشأن العالم الإمام عبدالله دلي بن بكورو، الذي درس ما يرادو بن سالما بن السلطان نجالما دوكو مئة وخمسين كتابا.<sup>(٢)</sup> وعلى الرغم من أن مصدرنا<sup>(٣)</sup> الذي نستقي منه لم يصرح بمكان الدراسة إلا أننا نرجح بأنه كانت قصر السلطان.

وكان سلاطين البرنو يقيمون المساجد داخل قصورهم للتعليم والصلاة، ولا يدعون فرصة لاستجلاب مشاهير العلماء إلا استغلوها حتى يستفيد من علمهم أهل القصر، ويفيد هو في المقام الأول. وهناك نماذج لهذه الظاهرة في المخطوطات الخاصة بسلاطين البرنو، والتي نشرها بالمر في كتابه الذي ذكرنا<sup>(٤)</sup>، وفي بعض المجلات العلمية.<sup>(٥)</sup>

ومن هذه النماذج القصة التي تروى عن العالم عمر بن عثمان (ماسباراما) والسلطان البرنوي آنذاك علي بن الحاج (١٠٠٥-١٠٤٩هـ / ١٦٤٥-١٦٨٢م) وخلاصتها أن السلطان سمع بعلم هذا العالم الفذ، فأرسل

(١) Palmer, Bornu Sahara, op. cit., pp. 14-15.

(٢) Ibid, p. 19.

(٣) Bornu Sahara.

(٤) See: Palmer, B.S.O.A.S., 5 (1928-30), pp. 541-60.

(٥) Ibid, p. 546.

في طلبه من بلدة قريبة تسمى «ديف»، وجعله إماما لمسجد قصره ليصلي مع أهله ورائه، وليعلمهم أحكام الدين. وكان عدد الذين يصلون ورائه في هذا المسجد ستة وسبعين بينهم نساء القصر<sup>(١)</sup>، وذلك في العاصمة البرنوية غسرغمو. وأصدر السلطان مرسوما يجعل كل أملاك هذا العالم حراما على الناس وعقبه إلى يوم الدين.

وقد كان قصر هذا السلطان (علي بن الحاج) متدى علميا كبيرا يجتمع فيه العلماء والأئمة ليعقدوا مناقشات في حضرته تتعلق بالنقاط التي يريد إيضاحها في الشريعة الإسلامية، فكان بذلك تلميذا لعدة أساتذة، ليتمكن من علوم دينه<sup>(٢)</sup>، وأصبح في النهاية من السلاطين الصالحين الذين يصلون كل يوم مئة ركعة نفلاً دون الفريضة. ويحرص على أن يتولى هو شخصيا إطعام مئة فقير كل يوم أيضا.<sup>(٣)</sup>

وغير ماذكرنا نماذج أخرى لعلماء قاموا بإرشاد وتعليم السلاطين، وصدرت بيانات رسمية في حقهم، مما يدل على الإعجاب بهم. وفي الفصول التالية سوف نذكر بالتفصيل كل مايتعلق ببعض هذه الأماكن، وسوف تتضح بعد ذلك الصورة العامة لأماكن التعليم في غربي إفريقيا.

---

(١) Ibid, p. 546.

(٢) Palmer, The Bornu, op. cit, p. 35.

(٣) Palmer. B.S.O.A.S., op. cit., pp. 547-555.





## الفصل الخامس

حركة التعليم الإسلامي  
في معاهد تنبكت



## المبحث الأول





## تاريخ مدينة تنبكت

هناك عدة صور يكتب بها اسم تنبكت، ولكننا اعتمدنا على الاسم الذي جاء في «تاريخ السودان»<sup>(١)</sup> و«تاريخ الفتاش»<sup>(٢)</sup> و«نيل الابتهاج»<sup>(٣)</sup> وغيرها من المصادر الأصلية لتاريخ غربي إفريقية. وقد درجت بعض المصادر والمراجع الأخرى على استعمال صور أخرى لرسم هذا الاسم «ومن تلك الرسوم: تمبكتو»<sup>(٤)</sup>، «تنبكتو»<sup>(٥)</sup>، «طومبكتو»<sup>(٦)</sup>.

لقد عقد السعدي بابا كاملا<sup>(٧)</sup> عن تنبكت (بضم التاء الأولى والثانية) ونشأتها، ويكاد يكون محور الكتاب كله هو هذه المدينة العظيمة التي لم يخل مؤلف أو مقالة عن غربي إفريقية من الإشارة إليها.

وعن نشأة هذه المدينة المشهورة - كشهرة القاهرة وبغداد وقرطبة وفاس والقيروان ودمشق - قال السعدي<sup>(٨)</sup>: «.. نشأت على أيدي توارق مغشرون في أواخر القرن الخامس من الهجرة فنزلوا فيها راتعين. وفي وقت الصيف في ساحل»<sup>(٩)</sup> البحر في قرية أمظغ<sup>(١٠)</sup> ينزلون، في وقت الخريف يرتحلون ويصلون

---

(١) انظر فيه مثلاً، ص ٢٠، ٢١ «وقد درج المتخصصون المحدثون على كتابتها بالصورة التي ارتضيها، «تنبكت».

(٢) انظر فيه مثلاً، ص ١٢١.

(٣) انظر فيه مثلاً، ص ٣٢٤.

(٤) انظر: دائرة المعارف الإسلامية مادة «تمبكتو»، بقلم الفرنسي كاراده فو.

(٥) انظر: الدكتور عبدالرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غربي إفريقية، ص ١٤٨، ١٥٢. ابن

بطوطة، الرحلة، ص ٤٤٣. وضبطها هنا بضم التاء وسكون النون وضم الباء الموحدة، وسكون

الكاف وضم التاء الثانية وواو في النهاية.

(٦) انظر: قداح، ص ٧٥- حاشية.

(٧) تاريخ السودان، ص ٢٠ وما بعدها.

(٨) تاريخ السودان. ص ٢٠.

(٩) يعني ضفاف النيجر، انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة تمبكتو.

(١٠) دائرة المعارف، المكان نفسه، ويذكر كاراده فو أن اسم هذه القرية «اقتراغة».

أروان منازلًا ويبدلون وهي حدهم في العوالي، ثم اختاروا موضع هذه البلدة الطيبة...».

إذن فقد أنشأ هذه المدينة فئة من قبائل البربر وهم التوارق (أو الطوارق، التوارك) في نهاية القرن الخامس الهجري<sup>(١)</sup> (نهاية الحادي عشر الميلادي)، وهم قوم من البدو الرحل قدموا إلى هذه البلاد لرعي أغنامهم، فكانوا يصطافون على ضفاف النيجر ثم يرجعون في فصل الخريف إلى أوطانهم في أروان، ثم إنهم استقروا في موضع هذه المدينة «فجعلوها خزانة لمتاعهم وزرعهم إلى أن صار مسلكًا للسالكين في ذهابهم ورجوعهم»<sup>(٢)</sup>. ثم أخذت هذه البلدة اسم تنبكت. ومعنى هذه الكلمة في لغة توارق مغشرون تعني «العجوز»، نسبة إلى امرأة عجوز كانت تقيم في هذا المكان، فسمي المكان بها.<sup>(٣)</sup> ثم أخذ الناس يسكنون هذا المكان ويزداد عددهم وتزداد عمائرهم، حتى صار المكان سوقًا للتجارة، يلتقي فيه البائع والمشتري من أهل المناطق المجاورة، وقبل ذلك كان التسوق في بلدة والاتا التي يسميها السعدي<sup>(٤)</sup> بـ«بير». وعن هذا النمو التدريجي التجاري والثقافي يقول السعدي<sup>(٥)</sup>: «واليه يرد الرفاق من الآفاق. وسكن فيه الأخيار

---

(١) وبالتحديد سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م. انظر في هذا: History of Africa, op. cit., p. 54.

(٢) السعدي، ص ٢١.

(٣) المكان نفسه. ولجون بوري، "John Pory" رأي آخر في هذه التسمية. ففي حاشيته التي وضعها مع ترجمته لكتاب ليون الإفريقي، صفحة ٤٤٢، يقول بأن «تنبكت» تعني في لغة السنغاي التجويفة، ويقول بأنه ربما أخذت هذا الاسم من كونها بنيت في التجويفة للتلال الرملية في تلك المنطقة. أما قلاح (ص ٧٥ حاشية) فيقول بأن الاسم يرجع إلى امرأة عجوز كانت تسمى «بوكتو» من الطوارق. وتروي الأساطير بأن بوكتو كانت تقوم بحراسة البشر التي يسقون منها في هذه الجهة في فصل الجفاف. وبعد مضي مدة من الزمن أصبح المكان يدعى تنبوكتو، أي مكان بوكتو، ثم تحول الاسم في اللفظ العامي إلى تمبكتو.

(٤) تاريخ السودان، ص ٢١.

(٥) المكان نفسه.

من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل البلاد، من أهل مصر، وفزان، وغدامس، وتوات، ودرعة وتفلاته<sup>(١)</sup> وفاس، وسوس، وبيط، إلى غير ذلك. ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلا قليلا حتى استكملوا فيه وزيادة على جميع قبائل الصنهاجة بأجناسها، فكانت عمارة تنبكت خراب بير. ولم تأت العمارة إلا من المغرب لا في الديانات ولا في المعاملات، فأول الحال كانت مساكن الناس فيه زريبات الأشواك... ثم تطور الحال من البناء بالشوك إلى البناء بالقش والأخشاب، ثم أخيرا ظهرت منازل الطين وبناء الأسوار.<sup>(٢)</sup>

وواضح من نص السعدي السابق أن موقع تنبكت التجاري جعلها تحجب تدريجيا غيرها من المراكز التجارية الأخرى مثل والاتا<sup>(٣)</sup>، ولا عجب في ذلك، فقد امتازت تنبكت بأنها ملتقى طرق برية وبحرية<sup>(٤)</sup>. فالطريق البحري بين تنبكت وجني<sup>(٥)</sup> يربط طريقين بريين: من تغازا<sup>(٦)</sup> إلى تنبكت ومن جني إلى الغابة الواقعة جنوبها<sup>(٧)</sup>. وفي الفترة ١٥١٢ - ١٥١٤ م زار ليو الإفريقي<sup>(٨)</sup> (حسن الوزان) منطقة غربي إفريقية، وتكلم عن التجار التنبكتيين الذين كانوا يحملون بضائعهم في قوارب صغيرة إلى مدينة جني. ولمدينة تنبكت ميناء بحري يقوم على خدمة هذه التجارة البحرية، ويسمى هذا الميناء بـ«كابرا»<sup>(٩)</sup>.

(١) تاميلات.

(٢) تاريخ السودان، ص ٢١.

(٣) وهي مدينة مزدهرة في موريتانيا... وتقع إلى الشمال من كومبي صالح عاصمة غانة القديمة. انظر قدامح، ص ٤٠ - الحاشية. وقد أنشأها بنوحسان من موريتانيا في القرون الهجرية الأولى. وبلغه سنغي تسمى «بير»، انظر السعدي، ص ٢١.

(٤) See: E.W. Bovill, Garavans, op. cit., p. 250.

(٥) نرجئ الكلام عن هذه المدينة إلى الفصل الخاص بها.

(٦) مدينة صحراوية اشتهرت بالملح. انظر: ابن بطوطة، ص ٤٤١.

(٧) N. Levtzion, Muslims and Chiefs, op. cit., p. 5.

(٨) History and Description of Africa, Vol. 11, op. cit., p. 465.

(٩) G.F. Lyon: Anarative of Travels in Northern Africa: p. 145

ويقع على بعد حوالي اثني عشر ميلا جنوبي تنبكت<sup>(١)</sup>. والسكان المقيمون بهذا الميناء يعملون في الإشراف على قوارب البضائع والمراكب الكبيرة التي تأتي محملة من جني لتفرغ حمولتها في هذا الميناء.<sup>(٢)</sup>

وكانت أهم السلع التجارية الملح الذي يأتي من الصحراء الكبرى فيحمله تجار تنبكت إلى جني، ومن جني يحمله تجار الوانجارا إلى مناجم الذهب<sup>(٣)</sup>. ويشير السعدي<sup>(٤)</sup> إلى هذه التجارة في معرض كلامه عن تنبكت بقوله: «وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين، وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازا، وأرباب الذهب من معدن بيط، وكلا المعدنين المباركين ما كان مثلهما في الدنيا كلها».

إن نهايات الطرق البرية الصحراوية التي قامت في زمن مبكر مثل غانا وأودغست ووالاتا، كانت مربوطة بطرق برية فقط، أما تنبكت فقد كان الوصول إليها يتم عن طريق البر والماء. ونتيجة لهذه الميزة الكبرى نمت تنبكت وترعرعت بسرعة فائقة حتى فاقت والاتا كما ذكرنا. وقد تم هذا التفوق حول نهاية القرن (٨هـ / ١٤م)<sup>(٥)</sup> وذلك بدليل أن ابن بطوطة<sup>(٦)</sup> في رحلته سنة ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م رافق قافلة تجارية أخذت الطريق القديم: سجلماسة - تغازا - والاتا. وإن وصف هذا الرحالة الكبير يترك انطبعا بأن والاتا كانت في ذلك الوقت مركزا تجاريا أكثر نشاطا من تنبكت. ثم بعد ربع قرن من الزمان نجد

---

(١) Denham, op. cit., p. 179.

(٢) Loc. cit.

(٣) Levtzion, Muslims Chiefs, op. cit., p. 4.

(٤) تاريخ السودان، ص ص ١١-١٢.

(٥) Levtzion, Muslim Chiefs, op. Cit., p. 5;

Levtzion, Ancient Chanah and Mali, op. cit., p. 203.

(٦) الرحلة، ص ص ٤٤٠-٤٤١؛ وإن ابن بطوطة يسمي والاتا بـ«اللاتن»، والعمرى يسميها «أولاتن» انظر: مسالك الأبصار، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥٤.

على خريطة أ. كرسكو A. Gresques المؤرخة بسنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م، أن الطريق الصحراوي مرسوم: سجل ماسة - تغازا - تنبكت<sup>(١)</sup>. وفي مطلع القرن (١٠هـ / ١٦م) نجد أيضا أن الرحالة حسن الوزان<sup>(٢)</sup> يسلك الطريق نفسه الذي رسمه كرسكو.

وهكذا فقد حلت تنبكت محل والاتا من الناحيتين التجارية والعلمية. وينوه السعدي<sup>(٣)</sup> بظاهرة الصلة الوثيقة بين المراكز التجارية والمراكز التعليمية. فقد كان العلماء دائما في أثر التجار، فحيثما أقاموا مركزا تجاريا سرعان ما يزدهر هذا المركز من الناحية الثقافية، وكانت تنبكت كذلك عندما رحل جميع التجار والعلماء إليها من والاتا وغيرها.

وتوجد بعض الشواهد الزمنية عن هجرة العلماء من والاتا إلى تنبكت، لاسيما في النصف الأول من القرن (٩هـ / ١٥م)<sup>(٤)</sup>، من ذلك أن الفقيه العالم الحاج، جد القاضي عبدالرحمن بن أبي بكر بن الحاج، جاء هو وأخوه السيد الفقيه إبراهيم من والاتا فسكن في بنك<sup>(٥)</sup>. وتولى القضاء بتنبكت في أواخر عصر دولة مالي<sup>(٦)</sup>. ومن أهم الذين هاجروا من والاتا إلى تنبكت جد أسرة أقيت<sup>(٧)</sup>، المشهورة بالعلم والنفوذ، المسمى بـ«محمد بن عمر الصنهاجي المسوفي». جاء إليها في عهد «آكل» زعيم التوارق<sup>(٨)</sup>، ومن رواية

---

(١) Levtzion, Muslims, op. cit. p. 5.

(٢) History and Description, pp. XXXVII, Loc. cit.

(٣) تاريخ السودان، ص ٢١.

(٤) Levtzion, Ancient Ghana, op. cit. p. 203.

(٥) ضاحية من ضواحي تنبكت.

(٦) تاريخ السودان، ص ٢٧.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٨) المكان نفسه.



السعدي<sup>(١)</sup> لخبر مجيء هذا العالم إلى تنبكت يفهم بأنه كان في عداوة وحرب مع هذا الزعيم، لأنه أخرج للوسيط الذي سعى للصلح بينهما ورقة مشقوقة من أثر الطعن بالرمح والضرب بالسيف قائلاً له: «انظر ماعمل لي محمد أقيت وكيف يسكن المرء في بلدة مع عدوه الذي عمل له هذا العمل. وقال له (الوسيط): هيهات، الذي عرفته فيه قد فات، صار اليوم مسكينا ذا عيال لا يريد إلا العافية».

وخبر حكم آكل يسوقنا إلى معرفة أول من حكم هذه المدينة عندما أصبحت ذات شأن، وتطور البناء فيها وتعاقت الدول والولاطين عليها. وعن هذا يقول السعدي<sup>(٢)</sup>: «والبنيان ماثبت عمارته إلا في أواخر القرن التاسع وما تكاملت البناء في الالتصاق والالتئام إلا في أواسط القرن العاشر في مدة آسكيا داود ابن الأمير آسكيا الحاج محمد. فأول من ابتداء فيه الملك كما تقدم أهل ملي ودولتهم فيه مئة عام، وتاريخه من عام سبعة وثلاثين في القرن الثامن<sup>(٣)</sup>، ثم توارق مغشرون ودولتهم أربعون عاما، وتاريخه من عام ثلاثة وسبعين في القرن التاسع، ومدة ملكه فيه أربعة وعشرون سنة<sup>(٤)</sup>، ثم أمير المؤمنين آسكيا الحاج محمد ودولته مع عقبه مئة عام وعام واحد، وتاريخه رابع عشر من جمادى الآخرة في العام الثامن والتسعين في القرن التاسع وآخرها سابع عشر من جمادى الآخرة في العام التاسع والتسعين في القرن العاشر، ثم الشريف الهاشمي السلطان مولاي أحمد الذهبي وتاريخه انقراض دولة أهل سنغي،

---

(١) المكان نفسه.

(٢) تاريخ السودان، ص ص ٢٢-٢٣.

(٣) من عام ٧٣٧هـ إلى ٨٣٧هـ (١٣٣٦-١٤٣٣)، وزارها في هذه الفترة ابن بطوطة.

(٤) ٨٣٧هـ / ٨٧٦هـ / ١٤٣٣-١٤٧١م.

وهو السابع عشر من جمادى الآخرة، في العام التاسع والتسعين في القرن العاشر. <sup>(١)</sup> وكان ملكه من اليوم خمساً وستين سنة... <sup>(٢)</sup>

وفي النصف الأول من القرن (١٣هـ / ١٩م) (سنة ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م) استولى عليها أحمد لوبو صاحب الدعوة المهدية في منطقة ماسينا التي أصبحت حد دولته الشمالي. وفي مطلع القرن (١٤هـ) نهاية القرن (١٩م) (١٣١١هـ / ١٨٩٣م) استولى عليها الفرنسيون <sup>(٣)</sup>، ودخلت تاريخاً جديداً.

أما فيما يتعلق بصلة الأوروبيين بمدينة تنبكت، فقد كان ذلك في القرن التاسع الهجري (١٥م)، عندما أخذت هذه المدينة تتعامل تجارياً مع إيطاليا، وخاصة فلورنسة، عن طريق تونس وطرابلس. وكانت تخرج منها أربعة طرق قوافل كبيرة: أحدها إلى مصر، ويمر بجاو وكانم. والثاني إلى تونس، ويمر بهجار. والثالث يقصد مراكش ويمر بسجلماصة وتافيلات وتوات. والرابع يتجه إلى غربي إفريقية، ويمر بمالي <sup>(٤)</sup>. ووصف أحد الأوروبيين (فلورنتين) المدينة في ذلك الوقت ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م، ويستفاد من عباراته بأنها كانت من الأماكن المشهورة، وترجمة قوله عنها وعن تجارتها «... يباع فيها ملابس خشنة وأصواف غليظة وما شابه ذلك من الأقمشة المحلوجة التي تصنع في لمبارديا» <sup>(٥)</sup>.

ونلاحظ أن كاراده فو <sup>(٦)</sup> جعل الوزان (ليو الإفريقي) من الأوروبيين. ويقول

---

(١) ٨٧٣-٨٩٨هـ / ١٤٦٨-١٤٩٣م.

(٢) ٩٩٩-١١٦٤هـ / ١٥٩٠-١٧٩٠م.

(٣) محمد جمال الدين السيد: انتشار الإسلام في غربي إفريقية، ص ٧٣، قلاح ص ٧٥ حاشية.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «تنبكتو».

(٥) المكان نفسه.

(٦) المكان نفسه.

بأنه الأوربي الثاني، بعد فلورنتين السالف الذكر، الذي يتصل بتنبكت مباشرة. ولكن من المعروف أن ليو الإفريقي، ليس أوروبيا، ولكنه عربي مسلم من مدينة فاس. والصحيح أنه من أوائل العرب الذين أعطوا معلومات عن هذه المدينة للغرب. فقد زارها بعد فلورنتين ببضع سنين، فكان أكثر إعجابا بها، وقال عنها ما ترجمته: «إن المدينة عامرة بالخوانيت، وبها مسجد من الحجر والكلس بناه مهندس بارع من أهل غرناطة، وقصر رائع يقيم فيه الملك، حلي بصور كثيرة وقضبان من الذهب يزن بعضها ألف وثلاثمئة رطل»<sup>(١)</sup>. وتكلم الوزان عن المواطنين، وخاصة الغرباء، وعن غناهم وغنى السلطان.<sup>(٢)</sup>

وبعد رحلة الوزان في مطلع القرن السادس عشر، انقطعت الصلة بين تنبكت وأوربة، فكان الأوروبيون يتحدثون عنها آنثذ حديثهم عن مدينة عزيزة المال تكتنفها الأسرار، وخاب سعي الكثيرين في جلاء سرها، وقتل في سبيل ذلك الميجور «لينكه». ثم أفلح الرائد الفرنسي رينيه كاييه في رفع الحجاب عنها عام ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م<sup>(٣)</sup>، فاتضح له أنه كان واهما في تقدير شأنها. ومن ثم فضل عليها مدينة جني كثيرا<sup>(٤)</sup>. أما في تقديرنا فلا مكان لهذا الوهم لأن تنبكت في هذه الفترة اضمحلت بالفعل<sup>(٥)</sup>، بعد أن تحولت التجارة إلى اتجاه المحيط الأطلسي، فأصبحت جني من المراكز الداخلية المهمة لتجميع تجارة غربي إفريقية المتجهة إلى موانئ غربي إفريقية البحرية، ثم زار الرحالة بارث تنبكت في سنة ١٨٥٣م. وأصبحت بعد ذلك معروفة.

---

(١) History and Description of Afr., op. cit., p. 824.

(٢) Ibid, pp. 824-25.

(٣) دائرة المعارف، مادة تنبكتو.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه، مادة: جني.

## المبحث الثاني





## تاريخ معاهد تنبكت العلمية

كانت تنبكت منذ أول نشأتها مدينة إسلامية، «مادنتها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والزاهدين...»<sup>(١)</sup>، وذلك لأن طوارق مغشرون الذين أنشؤوها كانوا مسلمين. وكانت تمر عليها منذ ذلك الحين قوافل التجار المسلمين، ثم أقام فيها المسلمون من كل مكان، وتبعهم العلماء والفقهاء، وتتابع العمران إلى أن أضحت أعظم مدينة إسلامية في غربي إفريقيا، وأعرق مركز ثقافي وتجاري، وأشهر مركز تعليمي إسلامي فيها.

وبهذه المدينة العتيقة ثلاثة مساجد مهمة، كانت هي جامعاتها ومعاهدها التعليمية. وتلك المساجد المعهدة هي: الجامع الكبير، ومسجد سنكري ومسجد سيدي يحيى. وما تزال هذه المساجد الثلاثة حتى اليوم من آثار تنبكت الإسلامية<sup>(٢)</sup>. وكان دورها التعليمي مثل أدوار مساجد القاهرة الكبرى: مسجد عمرو بن العاص ومسجد أحمد بن طولون والجامع الأزهر. وسنعرض فيما يلي لأهم ما يتعلق بهذه المساجد التعليمية.

### المطلب الأول : الجامع الكبير<sup>(٣)</sup>

يعتبر هذا المسجد من أقدم مساجد تنبكت وأكبرها، ولا يعرف على وجه

---

(١) هكذا قال السعدي في: تاريخ السودان، ص ٢١.

(٢) انظر: الدكتور عبدالرحمن زكي، الإسلام والمسلمون، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٢.

(٣) عن هذه التسمية انظر: تاريخ السودان، ص ٥٦، تاريخ الفتاش، ص ١٢٢. فالسعدي يسميه تسمية ثانية، وهي: المسجد الجامع. «ويتفق معه صاحب الفتاش في هذا، وغلب عليهما استعمال التسمية الأولى ولذا رجحناها. أما نعيم قداح فقد سماه «مسجد جانكوير» وسماه الدكتور عبدالرحمن زكي بـ «مسجد جنجورير». انظر قداح، ص ١٤٢، ١٥٩، والدكتور زكي، المرجع السابق، ص ١٥٢. ويبدو أن الاسم «جانكوير» أقدم اسم أطلق على هذا المسجد الجامع.

التحديد تاريخ التشييد الأول له، بيد أن المعروف أنه كان هناك مسجد أقيم على موقعه في القرن الثالث عشر. فالسعدي، مثلاً، عندما تطرق لعمارة مدينة تنبكت ابتداء من توارق مغشرون، لم يحدد لنا تاريخاً ولو تقريبياً عن بناء أول مسجد بهذه المدينة، بل اكتفى بقوله: «ثم بنوا مسجد الجامع على حسب الإمكان ثم مسجد سنكري كذلك». (١)

وفي ضوء نص السعدي المذكور يمكننا أن نقرر بأن بناء هذا المسجد الجامع قد تم لأول مرة في مطلع القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) على وجه التقريب، لأن المسلمين جروا على عادة إنشاء المساجد الجامعة متى ما استقر بهم المقام في أي مكان ولو وسط المجتمعات الكافرة. وتلك ظاهرة بارزة في قيام المجتمعات الإسلامية صغيرة كانت أم كبيرة. وفي أي جزء من أجزاء العالم الإسلامي قاصيها ودانيها.

وتعبير السعدي «حسب الإمكان» يدل على أن بناء المسجد الجامع كان أولاً على صورة متواضعة تتناسب مع حجم السكان بالمدينة في تلك الفترة، لأن العمران في المدينة مر أيضاً بثلاثة أطوار متواضعة كما رأينا.

وفي نص آخر للسعدي يقول فيه «أما الجامع الكبير فالسلطان الحاج موسى (٧٠٧-٧٣٣هـ / ١٣٠٧-١٣٣٢م) صاحب ملي هو الذي بناها (يعني بناه) وصومعتها على خمسة صفوف والقبور لاصقة بها من خارجها في جهتي اليمين والمغرب» (٢) ويبدو لنا أن هذا هو البناء الثاني، والذي يدعونا للقول بهذا

---

(١) تاريخ السودان، ص ٢١.

(٢) المصدر نفسه، ٥٦. ويلاحظ في هذا النص وغيره أحياناً أن السعدي يستعمل ضمير المؤنث للمذكر. وربما يكون ذلك لتأثره بلغته الأولى المحلية غير العربية، ومن المألوف جداً في المجتمعات الأعجمية أن تسمع الناس يفعلون مثل السعدي، وحتى بعض المثقفين منهم.

هو أن عمارة المدينة بدأت في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وأن ولاية منسا موسى، سلطان مالي، كانت في مطلع القرن الثامن الهجري (مطلع الرابع عشر الميلادي) ويستبعد أن تظل مدينة إسلامية بدون مسجد جامع طوال هذه الفترة، وهي أكثر من قرنين.

أما تاريخ تجديد بناء هذا المسجد الجامع على يد السلطان موسى، فقد كان بعد عودته من حجته المشهورة سنة أربع وعشرين وسبعمئة بعد الهجرة (أربع وعشرين وثلاثمئة وألف من السنة الميلادية)<sup>(١)</sup>. والذي يحفزنا لهذا القول هو أن ضم هذه المدينة إلى دولة مالي الإسلامية كان بعد قدوم هذا العاهل من الحج<sup>(٢)</sup>. ومن المرجح أن الذي قام ببناء هذا المسجد هو المهندس والشاعر الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم الساحيلي، المعروف عند البعض بـ«الطويجن»، والذي قدم مع منسا موسى من المشرق عند عودته من الحج<sup>(٣)</sup>، ودليل ترجيحنا هو أن الساحيلي قام ببناء عدة عمائر في دولة مالي، منها القصر الأميري<sup>(٤)</sup>، أو دار السلطنة.

وعندما زار الرحالة العربي حسن الوزان تنبكت في مطلع القرن السادس عشر، ذكر أنه شاهد مسجداً مشيداً من الحجارة والجير<sup>(٥)</sup>، ولكنه لم يذكر إن كان هذا هو المسجد الجامع القديم المعروف بـ«جانكوير» أم هو مسجد سنكري أم مسجد سيدي يحيى. وعدم جزمنا بما يعنيه الوزان هو أن هذه المساجد الثلاثة

---

(١) المصدر نفسه، ص ٧، تاريخ الفتاش، ص ٣٢، العبر، ج ٦، ص ٤١٥.

(٢) تاريخ السودان، ص ٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨ و ص ٥٦ ج ٥٧، العبر، ج ٦، ص ٤١٥، الفتاش ص ٣٢.

Lady Lugard, op. cit., p. 125.

Davidson, The Lost Cities, op. cit., p. 92.

(٤) السعدي، ص ٨٧، والساحيلي من الذين استضافوا ابن بطوطة عندما زار مالي.

Leo Africanus, p. 824. (٥)

أمست قبل مجيء هذا الرحالة إلى تنبكت. ولكن الراجع هو أن الوزان يعني هذا المسجد الجامع، لأنه مازال من أبرز آثار تنبكت الإسلامية، وإن فاقه مسجد سنكري شهرة.

ظل هذا المسجد موضع عناية كثير من السلاطين والحكام الذين تعاقبوا على حكم تنبكت، فقد مر بعدة إصلاحات، ومن حسن إلى أحسن، شأنه في ذلك شأن كل المساجد العريقة في العالم الإسلامي، ابتداء من الحرم المكي والمدني ومساجد العراق والشام ومصر والمغرب. وكانت كل هذه المساجد منذ إنشائها حتى يومنا هذا تخضع لإصلاحات وترميمات وتوسعات تقتضيها الظروف وزيادة السكان والثروات وتطور العمران. وحرص المسلمون على اتباع السنة الغراء في جعل مساجدهم أجمل البقاع وعلى أحدث فنون المعمار. فلا عجب إذا رأينا الجامع الكبير يمر بهذه الإصلاحات.

ويذكر السعدي<sup>(١)</sup> جانباً من تلك الإصلاحات التي خضع لها هذا المسجد. ومن هذه الإصلاحات أن الفقيه القاضي العاقب ابن القاضي محمود ابن عمر بن محمد أقيت (٩١٣-٩٩١هـ / ١٥٠٧-١٥٨٣م) قام بهدم هذا المسجد وضم إليه المساحة التي كانت تشغلها القبور المجاورة، وزاد فيه زيادة كبيرة عما قبل. وكان ذلك حوالي بداية الثلث الثالث من القرن السادس عشر، وبالتحديد سنة ٩٧٦هـ / ١٥٧٠م كما يذكر السعدي<sup>(٢)</sup>، في عصر السلطان آسكيا داود (٩٥٦-٩٩٠هـ / ١٥٤٩-١٥٨٢م)، وبعد رجوع الشيخ العاقب من الحج<sup>(٣)</sup>. ولم يكن الشيخ العاقب هو وحده الذي قام بالإتفاق على بناء هذا المسجد، بل

---

(١) تاريخ السودان، ص ٥٧، ١٢١، نيل الابتهاج، ص ص ١٨٠-١٨١.

(٢) تاريخ السودان، ص ١٠٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢١.

اشترك معه علماء آخرون مثل الحاج الأمين، ولكن بعد إلحاح، ولم يتعد إنفاقه ثلاثة أيام<sup>(١)</sup>. ولا يعد هذا إلا مساهمة رمزية بالمقارنة بما أنفقه الشيخ العاقب في البناء الذي كان يكلف يوميا سبعة وستين مثقالا<sup>(٢)</sup> إلا ثلثا<sup>(٣)</sup> من الذهب، واستمر في ذلك قرابة ثلث العام<sup>(٤)</sup>. وقد كان - رحمه الله - لا يحب أن يزاحمه أحد في الإنفاق على أوجه الخير والبر. وليس هذا غريبا عنه، فقد كان من حفاظ القرآن الكريم ومن شهد له بالصلاح والتقوى.<sup>(٥)</sup>

وشارك في بناء هذا المسجد أيضا أسكيا داؤود. وتمثلت مشاركته في دفع جزء من نفقة البناء مع أربعة آلاف قطعة من الخشب حسب رواية السعدي.<sup>(٦)</sup> أما ابن المختار<sup>(٧)</sup> فيذكر أنه كانت هناك منازعة بين أسكيا داؤود والقاضي العاقب في بناء ذلك المسجد. وهي منازعة على فعل الخير، لأن أسكيا داؤود كان يصر على المساهمة. ورضي القاضي العاقب بأن يبني سهمه على موضع كانت به القبور. وجوز له ذلك شرعا. ففرح أسكيا داؤود بذلك، وفعل ما أشار عليه به القاضي العاقب. وأمد المسجد أيضا بعدد من الأرقاء لأعمال البناء، وترك للإمام أمر تقسيم اختصاصات العمل بينهم، مثل حمل الطين وقطع الخشب وغير ذلك. وجعل النسوة من الإماء يقمن بنسج حصر المسجد وفرشه.<sup>(٨)</sup>

---

(١) تاريخ الفتاش، ص ١٢٣.

(٢) المثقال من الذهب يساوي ستة غرامات.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٤) تاريخ السودان، ص ١٠٩-١٠٨.

(٥) الفتاش، ص ١٢٣، نيل الابتهاج، ص ١٨١، تاريخ السودان، ص ٥٧.

انظر ترجمته في الفصل الخاص بأشهر علماء تنبكت.

(٦) تاريخ السودان، ص ١١٠.

(٧) تاريخ الفتاش، ص ١١٠.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٠٦.



وذكر ابن صود<sup>(١)</sup> بعض الإصلاحات التي أدخلت على المسجد في الأعوام: ١٠٨٩، ١١٢١، ١١٤٩هـ / ١٦٧٨، ١٧٠٩، ١٧٣٦م. وعلى ذلك يمكن القول بأن المسجد القائم اليوم لايشتمل على أية أجزاء يمكن نسبتها إلى ما قبل عام ٩٧٩هـ / ١٥٧١م وهو التاريخ الذي أعاد فيه العاقب بناء هذا المسجد.<sup>(٢)</sup> ويشتمل المسجد من الداخل على خمسة وعشرين صفا من العمد، تمتد من شمال المسجد إلى جنوبه، وعلى ثمانية صفوف ممتدة من الشرق إلى الغرب، وأهم أجزاء المسجد مشيدة بالحجر، كالعقود، والجانب الغربي والمحراب وبعض أجزاء الكساء الخارجي. وشيد السقف من الخشب المتين. وللمسجد صحنان: أحدهما واسع والآخر صغير متصل بالمئذنة. وبأحد الصحنين عدة قبور ليس عليها نقوش تحدد تواريخها.<sup>(٣)</sup> والآن، يعتبر هذا المسجد من المعالم الأثرية لمدينة تنبكت الإسلامية.

### المطلب الثاني : مسجد سَنُكُورِي<sup>(٤)</sup>

لم يبين لنا السعدي وابن المختار تاريخا لبناء هذا المسجد. بل إن النصوص الواردة في هذا الخصوص مضطربة. فابن المختار في ترجمته للقاضي

---

(١) اسم المؤلف غير معروف، والمعروف اسم جده فقط وهو: محمد بن الأمين بن محمد بن صود. ولذلك درج الكتاب على إسناده إلى لقب الأسرة أو آخر أجداده المشهورين.

(٢) انظر: الدكتور زكي، الإسلام والمسلمون، ص ١٥٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ص ١٥٢-٥٣.

(٤) هكذا رسمه السعدي وابن المختار كما نلاحظ في النصوص التي أوردناها وسنوردها في هذا الكتاب، وهو بفتح السين وتسكين النون وضم الكاف مع فتح الراء وتسكين الياء الأخيرة، كما ذكره ابن المختار في صفحة ١٧٢ من تاريخ الفناش. أما الكتاب المحدثون فمنهم من يرسمه «سَنُكُورِي» مثل الدكتور زكي: الإسلام والمسلمون. ص ١٥٣، ومن يرسمه «سانكوري» مثل قداح، في ص ١٦٠. أما كاراده فو فقد رسمه «سَنُكُورَة»، ولعل هذا خطأ من المترجم الذي نقل مادة تنبكت إلى العربية بدائرة المعارف الإسلامية.

العاقب يقول: «وفي سنة تسع وثمانين وتسعمائة شرع في بناء مسجد سنكري»<sup>(١)</sup>.

والتأمل لهذا النص وحده يفهم أن بناء هذا المسجد قد تم على يدي القاضي العاقب، ولكن هذا المفهوم لا يستقيم مع مفهوم بعض نصوص للسعدي، جاء في أولها: «وأما مسجد سنكري فقد بناها (يعني بتها) امرأة واحدة اغلالية ذات مال كثير، .. ولكن لم نجد لبنائها تاريخا»<sup>(٢)</sup>. وثانيها يلقي ضوءا على نص حفيد كعت (ابن المختار) المذكور آنفا ويشير بصراحة إلى أن القاضي العاقب كان مجددا لبناء مسجد سنكري، ولم يكن المشيد الأول. وهو قوله: «وفي يوم الخميس ثاني عشر من المحرم سنة ست وثمانين بعد تسعمئة شرع القاضي العاقب في تجديد بناء مسجد سنكري»<sup>(٣)</sup>. وثالثها يزيد الأمر إيضاحا ويفيد بقدم مسجد سنكري وبأنه شيد بعد المسجد الجامع، وأن تكامل البناء عامة كان في أواسط القرن العاشر الهجري، في عهد السلطان داؤود، وذلك في معرض الكلام عن تطور عمارة مدينة تنبكت. وهذا النص هو: «ثم بنوا مسجد الجامع على حسب الإمكان ثم مسجد سنكري كذلك، ومن وقف في بابه يومئذ يرى من يدخل في المسجد الجامع لأجل تخلية البلد عن الحيطان؛ والبنيان ماثبت عمارته إلا في أواخر القرن التاسع في مدة أسكيا داود»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) الفتاش، ص ١٢١.

(٢) تاريخ السودان، ص ٦٢.

M. Levtzion, Ancient Ghanah and Mali, op. cit., P. 204.

يذكر هذا المصدر أن هذه المرأة ربما تكون من قبيلة الطوارق.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١١.

(٤) المصدر نفسه، ص ص ٢١-٢٢.

ونحن نطمئن إلى مضمون النصوص التي أوردها السعدي، ونقول بأن بناء هذا المسجد لأول مرة كان قبل عهد القاضي العاقب، وعلى يد امرأة ثرية كما يقول ابن المختار، ثم كان تجديده على يد القاضي العاقب في عهد السلطان داود، ومن المحتمل أن يكون تاريخ تشييده بعد عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م وقبل عام ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م. وما يحفزنا إلى ترجيح تشييده بعد عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م هو أن منسا موسى أمر الساحلي بتشيد المسجد الجامع بعد عودته من الحج، وكان تشيد مسجد سنكري بعد ذلك.<sup>(١)</sup> والسعدي في ترتيبه للأحداث وترجمته لأئمة أهم مسجدين بتبكت - المسجد الجامع وسنكري - نراه يقول في عنوان هذا الباب مانصه «ذكر أئمة المسجد الجامع ومسجد سنكري على الترتيب»<sup>(٢)</sup>. وإذا علمنا بأنه يتبع في هذا الترتيب الزمني فإننا نطمئن إلى ما وصلنا إليه بأن هذا المسجد شيد بعد حجة هذا العاهل، والتي كانت في سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م، وذلك قياساً على أن المسجد الجامع الكبير قد شيد بعد عودة السلطان من الحج مباشرة. أما احتمال تشييده قبل عام ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م فهو أن تجديده قد تم في عهد دولة سنغي وفي أيام السلطان داود، والمؤسس الحقيقي لهذه الدولة هو السلطان سني علي (٨٦٩-٨٩٨هـ / ١٤٦٤-١٤٩٢م)، الذي استولى على تبكت سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م. فإذا لا يمكن أن يكون هناك تجديد لشيء غير موجود أصلاً، والنصوص التي بين أيدينا لا تذكر تشيد هذا المسجد في عهد سلاطين سنغي بعد أن توطدت أركان الدولة.

ويذكر قداح<sup>(٣)</sup> بأن الذي صمم هذا المسجد وبنى جزءاً منه، المعماري

(١) يرى جون بوري في حاشيته لكتاب الزران، (ص ٨٤٣) بأن مسجد سنكري هو الأقدم، ولم نجد لهذا الرأي تعصيلاً من المصادر التي بين أيدينا فاستبعدناه.

(٢) تاريخ السودان، ص ٥٦.

(٣) إفريقية الغربية في ظل الإسلام. ص ١٦٠، ويلاحظ أن محمد فودي أول قضاة مدينة جني في عهد آسكيا الحاج محمد.

الإفريقي محمد فادي في القرن الخامس عشر، ثم أنفق على إتمام بنائه قضاء تنبكت والملك داؤود عاهل سنغي في القرن السادس عشر. ولكننا لم نهتد حتى الآن إلى المصدر الذي استقى منه قدام هذا الرأي المتعلق بمحمد فادي. ولم نعرف من هو محمد فادي وتاريخ حياته. ولكن رأي قدام يفيد أيضا بأن المسجد قد شيد بعد عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م.

وجاء في الفتاش<sup>(١)</sup> أن مقاييس بناء هذا المسجد كانت على غرار الكعبة الشريفة؛ وحول هذا تقول الرواية التي جاءت في الفتاش وتتعلق بالقاضي العاقب: «وأخبرني بعض الشيوخ أنه لما حج وأراد الانصراف والقفل إلى تنبكت، استأذن خدام الكعبة المشرفة أن يحد الكعبة ويكيله بقدمه طولا وعرضا فأذنوا له وكاله بالحبل طولا وعرضا. . وجاء بالحبل المكيل. فلما أراد بناء مسجد سنكري أخرج ذلك الحبل وكال تلك العرضة<sup>(٢)</sup> التي أراد بناءها فيه على الأوتاد على جهاتها الأربع. وبنى عليها وهو على مقدار الكعبة، ما زادت وما نقصت عليها بشيء».

وشيدت معظم أجزاء هذا المسجد من الحجر. وعندما مر به الرحالة الفرنسي رينيه كاييه في عام ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨ كان في حالة جيدة.<sup>(٣)</sup> أما فيما يتعلق بالاسم سنكري، فمن الملاحظ، في ضوء معلومات السعدي،<sup>(٤)</sup> أنه أطلق على حي من أحياء تنبكت، كان به المسجد الذي عرف بهذا الاسم: مسجد سنكري، ومن ذلك قوله: «... والفقيه محمد بغيغ

---

(١) ابن المختار، ص ١٢١-١٢٢.

(٢) هكذا، ربما يقصد العرصة، ولعل التحريف من الكاتب عند الإملاء.

(٣) الإسلام والمسلمون، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٣.

(٤) تاريخ السودان، ص ١١٨.

See, Levtzion, Ancient Ghanah., op. cit., p. 204.

الونكري هو الذي يفصل بين المولدين المسافرين، والمفتي الفقيه أحمد معيا هو الذي يفصل بين أهل سنكري». وكان ذلك بعد وفاة القاضي العاقب. والشاهد في هذا النص هو أن التعبير «أهل سنكري» يدل بوضوح على أن السعدي يعني بهم أهل حي سنكري. وللسعدي نصوص أخرى تقوي هذا الرأي، منها «وحدثني بعض الإخوان من أهل سنكري»<sup>(١)</sup>، ومنها ما جاء في معرض الحديث عن سيدي يحيى التادلسي، ونصه «وروي أن طلبة سنكري إذا جاؤوه»<sup>(٢)</sup> لأخذ العلم يقول: يا أهل سنكري كفاكم سيدي عبدالرحمن التميمي»<sup>(٣)</sup>. وبجانب هذا عدة إشارات أخرى في تاريخ السودان.<sup>(٤)</sup>

ويلاحظ أن ترمنجهام<sup>(٥)</sup> يحاول التقليل من أهمية هذا المسجد كمعهد أو جامعة إسلامية، فيقول ما ترجمته: «إن جامعة سنكري التي قورنت بالأزهر، لم يكن لها وجود. إن سنكري ببساطة هو الحي الذي كان يقطن فيه معظم المدرسين المدينين في منازلهم، علما بأن بعض الفقهاء درسوا هنا في المسجد». وفي ضوء ما أثبتناه من وجود مسجد سنكري كمعهد تعليمي هام، يظهر خطأ الرأي الذي ذهب إليه ترمنجهام؛ فقد كانت مساجد تنبكت هي المعاهد الإسلامية الكبرى في المدينة، مثلما كانت المساجد الكبرى في العالم الإسلامي في تلك الفترة ومنذ فجر الإسلام. وهناك نصوص وإشارات كثيرة تدل بما لا يدع مجالا للشك على أن سنكري كان مسجدا ومعهدا إسلاميا كبيرا، وحيًا من أحياء تنبكت، ومقرًا هامًا لمناقشة الأمور الخطيرة.<sup>(٦)</sup>

(١) تاريخ السودان، ص ١٦٩.

(٢) الضمير هنا راجع إلى سيدي يحيى التادلسي.

(٣) تاريخ السودان، ص ٥١.

(٤) انظر مثلا الصفحات: ٥٣، ٥٥.

(٥) A History of Islam in W.A., op. cit., p. 98.

(٦) تاريخ السودان، ص ١٦٩، وأماكن أخرى متفرقة.



ومن خلال ما ذكرناه عن هذا المسجد يبدو جليا أنه كان في مدينة تنبكت، ولكن هناك من يشك في هذا. فالدكتور زكي<sup>(١)</sup> يذكر بأن مسجد سنكري كان في مدينة جنبي، على الرغم من أن السعدي<sup>(٢)</sup>، وهو من أهم مصادرها، يذكر أنه كان في تنبكت. وربما كان خطأ الدكتور زكي في الاستنتاج، وإن لم يذكر لنا مصدره في هذا الزعم. ولكن باحثا آخر، هو الدكتور أحمد فؤاد بليغ<sup>(٣)</sup> يرى رأي الدكتور زكي نفسه، ولكنه دلنا على مرجعيه للذين استقى منهما، وهما: دائرة المعارف الإسلامية، مادة «السعدي»، ومقدمة المستشرق هوداس للنص الفرنسي لكتاب «تاريخ السودان» الصفحة الثامنة، فيذكر الدكتور بليغ أن المرجعين يفيدان بوجود مسجد سنكري بمدينة جنبي، وأن السعدي نفسه ولي إمامة هذا المسجد بعد رحيله من تنبكت إلى جنبي. والغريب أن الدكتور بليغ<sup>(٤)</sup> يعترف بأن السعدي هو مصدره الذي يعول عليه، ويعترف بإشارة السعدي في عدة مواضع إلى أن المسجد موجود في تنبكت، ولكنه يميل مع دائرة المعارف، وهي مرجع، ومقدمة هوداس، وهي مرجع أيضا، والمرجعان ليسا مما يعتد برأيهما في أمور ثبت قطعيا ورودها في المصادر الأصلية، مثل تاريخ السودان<sup>(٥)</sup> وتاريخ القتاش<sup>(٦)</sup>. والمتصفح لهذين المصدرين فقط يغنيانه عن كل تأويل أو اجتهاد.

---

(١) المراجع العربية للتاريخ الإسلامي في غرب إفريقيا، ومرجع سبق ذكره، ص ٢٧.

(٢) تاريخ السودان، ص ٢١، ٢٧ وأماكن أخرى متفرقة.

(٣) عبدالرحمن السعدي، عصره - وكتابه تاريخ السودان، مقال نشر بالمجلة التاريخية المصرية: المجلد العشرون (١٩٧٣م)، ص ١٠٣.

(٤) المكان نفسه.

(٥) السعدي، مثلا ص ٦٥، زيادة على ما سبق من نصوص للسعدي في هذا الخصوص.

(٦) ابن المختار، انظر مثلا الصفحات: ١٢١، ١٧٢، ١٧٣، والنصوص في هذه الصفحات صريحة.

### المطلب الثالث : مسجد سيدي يحيى التادلسي

شيد هذا المسجد محمد نفي، من قبيلة اجر الصنهاجية، وحاكم تنبكت من قبل سلطان التوارق آنذاك السلطان أكل<sup>(١)</sup>. ولا نعرف تاريخا محددا لإنشاء هذا المسجد، ولكن من المحتمل تشييده حوالي منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر). والذي يجعلنا نقول بهذا هو أن فترة حكم التوارق لهذه المدينة كانت أربعين عاماً، من سنة ٨٣٧هـ إلى سنة ٨٧٦هـ<sup>(٢)</sup> - (حوالي سنة ١٤٣٣م - ١٤٧١م).

وعندما اكتمل تشييد هذا المسجد عين محمد نفي صاحبه وحببيه الفقيه العالم سيدي يحيى التادلسي المتوفى ٨٦٦هـ / ١٤٦١م<sup>(٣)</sup> إماماً له<sup>(٤)</sup>. أما تجديد بناء حرم هذا المسجد فقد تم في عهد السلطان داوود وعلى يدي القاضي العاقب بن محمود أقيت. وتاريخ ابتداء ذلك هو أواخر سنة ٩٧٦هـ / ١٥٨٣م<sup>(٥)</sup>، وختمه في السنة السابعة والسبعين<sup>(٦)</sup> (١٥٨٤م)، وبعد ذلك مباشرة شرع في حمل اللبن لبناء الجامع الكبير بتنبكت، أي في سنة ٩٧٧هـ / ١٥٦٩م<sup>(٧)</sup>.

ولقد وصف الرحالة كاييه هذا المسجد حينما مر بتنبكت سنة ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م<sup>(٨)</sup>.

---

(١) السعدي، ص ٢٢، ٥٠ وكثيرا ما عرف بـ«جامع محمد نفي» انظر: المصدر نفسه، ص ٢٥٦، ٢١٥، ٢٣٩.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣، ٥٠ وترجمة هذا العالم تجددها في الفصل الخاص بعلماء تنبكت.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(٧) المكان نفسه.

(٨) الإسلام والمسلمون، ص ١٥٣.

لم تكن تنبكت تضم هذه المساجد العلمية الثلاثة المشهورة فقط، فقد ذكر لنا السعدي<sup>(١)</sup> بأنه «في سنة خمس وثمانين وتسعمئة، جدد القاضي العاقب بناء المسجد الذي في سوق تنبكت». وذكر ابن المختار<sup>(٢)</sup> ما يفيد ذلك في قوله: «ثم رجع - العاقب - لبناء مسجد سوق تنبكت، وهو آخر بنيته رضي الله عنه». وابن المختار يعني هنا بكلمة «بناء» تجديد بناء، وذلك في ضوء النص السابق للسعدي. وهناك مسجد رابع عرف بـ«مسجد خالد». وكان هذا المسجد قائما عندما دخل جودر قائد الجيش المراكشي مدينة تنبكت<sup>(٣)</sup>. ومسجد خامس هو «مسجد القصبة» الذي ولي إمامته الفقيه سعيد بن الإمام محمد كداد سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩٠م بأمر الباشا المراكشي جودر<sup>(٤)</sup>. وجامع سادس هو جامع التواتين الذي تولى إمامته في فترة ما محمود بن محمد الزغراني التنبكتي<sup>(٥)</sup>. والمسجد السابع هو «مسجد الهناء»، الذي بناه المراكشيون في تنبكت سنة ١٠٣١هـ / ١٦٢١م<sup>(٦)</sup>. ومسجد ثامن هو «كبر»<sup>(٧)</sup>. وجامع تاسع هو تندر<sup>(٨)</sup>، وغيرها من المساجد والجامع.

وهكذا نلاحظ أن القاضي العاقب وحده قام بتجديد أربعة مساجد رئيسة في مدينة تنبكت، وربما جدد أحد غيره من بعده مساجد أخرى كانت أيامه جديدة، ولكن لم تشر إليها الحوليات والمصادر.

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٠.

(٢) تاريخ الفتاش، ص ١٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(٤) تاريخ السودان، ص ١٤٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢١٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ٩١، ١٨٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ٩١.

وقد أهمل المؤرخون المحدثون ذكر هذه المساجد التي كانت منبعثة كالنجوم لتضيء شموع الحضارة الإسلامية في مدينة تنبكت خاصة، وغربي إفريقية عامة، مؤدية رسالتها كاملة بجانب تلك الأقمار الثلاثة.

كانت هذه المساجد الثلاثة التي ذكرناها معاهد تعليمية كبرى ومراكز ثقافية مهمة، مثل الأزهر ووصفائه من المساجد الكبرى الأخرى. فالمرحلة العليا من التعليم في هذه المساجد يشبه ما كان بالأزهر قديماً وما هو كائن اليوم. فما زالت حلقات الدراسة تعقد في الجامع الأزهر ويتنظم فيها طلاب معهد الدراسات الإسلامية. والمتخرج في معهد الدراسات الإسلامية يمنح شهادة الإجازة العالية (الليسانس) مثل زميله الذي يتخرج في كلية اللغة العربية أو الشريعة أو أصول الدين أو غيرها من الكليات الأخرى في جامعة الأزهر والجامعات الأخرى.

هذا النوع من التعليم المسجدي يسميه البعض بالجامعات العامة، لانعدام فكرة التخصص الدقيق بها، وهو تعليم إسلامي أصيل، وضعت بذرتة الدعوة الإسلامية، ونما تحت ظلالها وفي أحضانها. ولكنني أثرت في بحثي هذا أن أطلق على التعليم المسجدي في غربي إفريقية: «التعليم المعهدي». وفي ضوء هذا المفهوم جعلت عنوان هذا القسم من البحث «تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي إفريقية» لأن المعهد يمكن أن يكون مكاناً لتخريج علماء متوسطي الثقافة، وعلماء ذوي ثقافة عليا تعادل ثقافة حملة العالمية (الدكتوراه) اليوم، أو الأستاذية. وسنرى رجالاً علماء تخرجوا في معاهد غربي إفريقية الإسلامية، لا يقل مستواهم في التأليف والتحصيل العلمي عن حملة أعلى الشهادات اليوم. ولو عُرِفَتْ هذه الألقاب التي يحملها العلماء اليوم لكانت من نصيبهم عن جدارة واستحقاق، وفي تاريخ التعليم الإسلامي عامة الكثير من الأفاض

الذين أغنوا الفكر الإنساني، ولم يحملوا غير لقب فقيه أو شيخ أو عالم؛ أمثال فقهاء المذاهب الإسلامية الأربعة، وغيرهم ممن كانوا أصحاب مذاهب ولم يشتهروا إلا على مستوى الخاصة كالحسن البصري والطبري، وشيوخ الإسلام أمثال ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن الأثير وابن خلدون.. . شيوخ وعلماء لا يمكن حصرهم. لهم باعهم الطويل في الدراسات الفقهية الإسلامية والفلسفية والتاريخية والاجتماعية وغيرها.

ولأهمية دور معاهد غربي إفريقية الإسلامية نلاحظ أن بعض المؤرخين<sup>(١)</sup> يطلق عليها اسم الجامعات تقديرا لدورها الحضاري في هذه المنطقة، وهناك من أطلق على مدرسيها لقب «دكاترة»<sup>(٢)</sup>. وعن هؤلاء الدكاترة سوف يكون كلامنا في المبحث التالي.

---

(١) W.E.F. Ward, A History of Africa, op. cit., p. 55.

S.J. Hogben, The Muhamadan Emirates:, op. cit. P.46., P. 46, 50.

Lady Lugard, op. cit., p. 202.

R.Oliver, The Dawn of Af. Hist., op. cit., p. 34.

الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، مرجع سبق ذكره ص ٢٧١.

Leo Africanus, Vol. 111, op. cit., p. 824. (٢)





## المبحث الثالث



## أشهر علماء معاهد تنبكت

مدخل :

إن أول من أورد ذكره السعدي<sup>(١)</sup> من العلماء بتنبكت هو الفقيه الحاج جد القاضي عبدالرحمن بن أبي بكر بن الحاج. تولى القضاء بتنبكت في أواخر دولة مالي، وهو أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب من القرآن للتعليم في جامع سنكري بعد صلاة العصر وبعد صلاة العشاء. وقد كان مقدمه من والاتا مع أخيه السيد الفقيه إبراهيم. وأثر إبراهيم أن يسكن في بنك<sup>(٢)</sup> إلى أن قبر بها، وله مواقف مشهودة في صد قبائل الموسي عن هذه البلدة.<sup>(٣)</sup> ومن نسل هذا الفقيه علماء آخرون، تولوا مناصب القضاء في مناطق أخرى غير تنبكت، مثل ناحية يندبغ.<sup>(٤)</sup>

ولم نجد ما يشير إلى أن الفقيه الحاج من أسرة أقيت، بل وجدنا ما يشير إلى أنه كانت هناك بعض الأمور التي أدت إلى جفاء مؤقت بين أسرة الحاج الذين كانوا قضاة في الأقاليم، وبين الفقيه محمود بن عمر أقيت<sup>(٥)</sup>. لذا لم تضم هؤلاء إلى أسرة أقيت. وأفراد أسرة أقيت يضاف إلى اسمهم «أقيت، أو أندغمحمد»<sup>(٦)</sup>. ويذكر ابن الطيب<sup>(٧)</sup> بأن لفظ «غمحمد» من الألفاظ الدالة

---

(١) تاريخ السودان، ص ٢٧.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه. وبنك بلدة قريبة من تنبكت في جهة الجنوب كما يبدو من رواية السعدي عن هجوم قبائل موسي عليها. وقبائل موسي هذه جنوية.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ص ٢٧-٢٨.

(٧) نشر الثاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٦.

على التعظيم عند أهل غربي إفريقية.

ومن الملاحظ أن الأسماء التي ورد فيها اسم «أندمحمد» لم يرد فيها اسم أقيت على الرغم من أن الأسرة واحدة. وتفسير ذلك أن أسرة أقيت تنقسم إلى فرعين: فرع من جهة الأمهات، وفرع من جهة الآباء: وفرع «أندغمحمد» من جهة الأمهات. وهناك إشارة لأحمد بابا أوردها السعدي<sup>(١)</sup> لهذه العلاقة عندما تكلم عن الفقيه أبي عبدالله أندغمحمد، فقال: «ومنه تنسل كثير من شيوخ العلم والصلاح منهم من جهة الآباء ومنهم من جهة الأمهات».

إن العلماء الذين ينحدرون من أسرة العالم الفقيه محمد أقيت بن عمر ابن علي بن يحيى بن أكدالة بن بكري بن نيق بن لق بن يحيى بن تشت بن تنفرا بن جيراى بن أكنجر بن أنص بن أبي بكر بن عمر الصنهاجي الماسني<sup>(٢)</sup> يعدّون من أعظم العلماء في غربي إفريقية في القرون (٩ و ١٠ و ١١هـ / ١٥ و ١٦ و ١٧م). لذا سوف نولي اهتمامنا الأول في هذا البحث مبتدئين بجهد هذه الأسرة المشهورة في التاريخ باسم أسرة أقيت.

### محمد أقيت :

هاجر محمد أقيت، جد أسرة أقيت من موطنه ماسنة إلى بلدة والاتا

---

(١) تاريخ السودان، ص ٢٨٠.

(٢) إن نسب هذا الفقيه مأخوذ من مؤلف لم ينشر كاملاً بعد، وهو قاموس التراجم المسمى بـ«فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور»، كتب سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م بواسطة محمد بن عبدالله ابن أبي بكر الصديق بن عبدالله بن محمد بن الطالب على الباناتي البارتلي الوالاتي المتوفى سنة ١٢١٩هـ / ١٨٠٥م. وقد قام بنشر جزء من هذا المخطوط الأستاذ جون هنوك:

J.O. Hunwick: "A New Source for the Biography of Ahmmed Baba Al-Tunbukti (1956-1627)" B. S. O. A. S. Vol. XXV11 (1904) pp. 574-581.

وهذا النسب يعتبر أكثر اكتمالا مما أورده بعض المصادر الأخرى مثل: تاريخ السودان للسعدي،



(بير). وسبب هجرته كما يرويه السعدي<sup>(١)</sup>، حسبما سمعه من حفيد هذه الأسرة الشيخ أحمد بابا التنبكتي، هو بغض محمد أقيت للفلاتة (الفولانيين) الذين كانوا يجاورونه في السكن، فلم يشأ لأبنائه أن يتناسلوا مع هؤلاء الفولانيين.

وبعد هجرته إلى والاتا رغب في السكن بتنبكت، ولكن واجهته مشكلة خلافة قديمة مع حاكمها الاسمي من قبل الطوارق، المدعو أكل أكملول<sup>(٢)</sup>، كما ذكرناه في مكانه. فأقام في مكان خارج المدينة. حتى نجحت الوساطة في التوفيق بينهما، فدخل المدينة<sup>(٣)</sup>، وكان ذلك حوالي منتصف القرن التاسع الهجري<sup>(٤)</sup> (الخامس عشر الميلادي). وأشهر العلماء الذين انحدروا من هذه الأسرة العريقة هم:-

---

وخلاصة الأثر لابن محب الدين، ونشر المثاني للقادري، وصفوة من انتشر للأفراني، وتعريف الخلائف للحفناوي، وإنفاق الميسور لمحمد بللو، وعمدة هذه المصادر الخاصة بالتراجم هو ما حفظه أحمد بابا التنبكتي، سليل هذه الأسرة، عن حياته. في مؤلفه المشهور «كفاية المحتاج». ومن ذكره لنسبه عرفنا سلسلة نسب هذه الأسرة العلمية.

(١) تاريخ السودان، ص ٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩.

وكان الحاكم الفعلي للمدينة في هذه الفترة من حكم طوارق مغشون هو محمد نض، وهو صنهاجي من القبيلة الشنقيطية آجر. وهو الذي بنى مسجد تنبكت وجعل إمامته لصديقه يحيى التادلسي كما ذكرنا. أما أكل فقد بقي على الحال القديمة متنقلا في البراري مفوضا الأمر لمحمد نض، وهو أيضا صنهاجي آجري شنقيطي كما ذكر السعدي - في الصفحة الثانية والعشرين - وقد لاحظت أن كثيرا من المراجع الحديثة والتي ربما لم تأخذ مباشرة من السعدي وابن المختار تذكر اسم محمد نض محرفا. فتذكره بـ «محمد ناضي» ولعل ذلك نتيجة للترجمة من الفرنسية إلى العربية. ومن هؤلاء الدكتور زكي، الإسلام والمسلمون، صفحات: ١٥٣، ١٤٥. ويسمي الدكتور زكي السلطان أكل بـ «عقيل». المرجع نفسه. ص ٤٥، وواضع من هذا نقله عن مراجع غير عربية.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٢.

## ١ - أبو عبدالله آند غمحمحمد :

بدأت شمس هذه الأسرة تسطع عندما تقلد منصب القضاء الفقيه العالم أبو عبدالله آند غمحمحمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح، الذي يصفه السعدي<sup>(١)</sup> بأنه «معدن العلم والفضل والصلاح». وكان تقلده لهذا المنصب الرفيع في فترة حكم التوارق لمدينة تنبكت في أواسط القرن التاسع الهجري<sup>(٢)</sup> (١٥م) وهو جد المؤرخ أحمد بابا التنبكتي. وأول من خدم العلم بهذه المدينة من أجداد هذا المؤرخ<sup>(٣)</sup>. ومن ذرية هذا الفقيه انحدر كثير من شيوخ العلم والصلاح.

## ٢ - عمر بن أحمد :

هو والد جد أحمد بابا. وكان عالما صالحا تتلمذ على الفقيه الصالح القاضي مودب محمد الكابري<sup>(٤)</sup>. وكان حيا حول بداية الثلث الثاني من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر)، لأن شيخ الفقيه مودب الكابري أدرك علماء من تنبكت في أواخر دولة مالي<sup>(٥)</sup>.

## ٣ - المختار النحوي :

هو المختار بن عمر بن أحمد السالف الذكر. اشتهر بلقب النحوي<sup>(٦)</sup>، لتضلعه هذا الفن بجانب علمه بكل فن من فنون العلوم الإسلامية<sup>(٧)</sup>. عاصر هو ووالده، الفقيه سيدي يحيى التادلسي. وتوفي أواخر العام الثاني والعشرين بعد تسعمئة<sup>(٨)</sup> (حوالي سنة ١٥١٦م).

---

(٢) تاريخ السودان، ص ٢٨.

(٣) المكان نفسه.

(٤) كفاية المحتاج. ترجمة: أبو عبدالله آند غمحمحمد.

(٥) السعدي. ص ٢٨؛ كفاية المحتاج.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٨) المكان نفسه.

#### ٤ - عبدالرحمن بن عمر :

هو الفقيه العالم عبدالرحمن بن عمر بن أحمد، أخو الفقيه مختار النحوي. كان من الفقهاء المتخصصين في تدريس كتاب «التهذيب للبرادعي»<sup>(١)</sup>، وقد وصفه السعدي<sup>(٢)</sup> بالتقوى والحلم.

#### ٥ - أحمد برِّي :

هو أبو العباس أحمد بري بن أحمد بن آندغمحمد. كان من العلماء والأتقياء المترفعين عن أغراض الدنيا، المتواضعين لله وللناس<sup>(٣)</sup>، وتخرج على يديه جماعة كثيرة من شيوخ العلم المتأخرين من أهل سنكري<sup>(٤)</sup>.

#### ٦ - أبو عبدالله بن المختار النحوي :

هو أبو عبدالله آندغمحمد بن الفقيه المختار النحوي بن آندغمحمد، حفيد عمر بن أحمد، والد جد أحمد بابا. تقلد منصب إمام مسجد سنكري. ونعته السعدي بالورع والتواضع والثقة بالله<sup>(٥)</sup>. وله صيت في العلم بعلوم اللغة العربية ومدح الرسول عليه الصلاة والسلام<sup>(٦)</sup>. وهو ممن تخصصوا في سرد كتاب «الشفاء» للقاضي عياض في شهر رمضان بمسجد سنكري<sup>(٧)</sup>.

#### ٧ - أبو عبدالله آندغمحمد :

هو أبو عبدالله محمد بن الإمام آندغمحمد<sup>(٨)</sup> السالف الذكر، ابن الفقيه

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦، ٥٩.

(٢) تاريخ السودان، ص ٢٩.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

(٦) المكان نفسه.

(٧) المكان نفسه.

(٨) المكان نفسه.

المختار النحوي. وكان مثل والده مادحا لرسول الله ﷺ، وكان من العلماء الذين تخصصوا في سرد كتاب «الشفاء» في مسجد سنكري بعد موت أبيه، وظل على هذه الحال إلى أن وافته المنية. (١)

#### ٨ - المختار بن محمد :

هو الفقيه المختار بن محمد بن الفقيه المختار النحوي بن آند غمحم. كان مثل أسلافه مادحا للنبي عليه السلام ومحبا للمادحين. ويروى عنه أنه أنفق كثيرا على المادحين عندما زار المدينة المنورة بعد حجته. (٢) وهو الذي حمل رسالة من سيدي محمد البكري العالم المصري (ت ١٥٨٧م) إلى أسكيا نوح بن أسكيا داوود (ت ١٥٩٥م). (٣)

#### ٩ - أحمد بن آندغمحمد :

هو أبو العباس الفقيه أحمد بن آندغمحمد بن محمود بن الفقيه آندغمحمد الكبير. كان من أذكى العلماء، وله معرفة بفنون شتى من المعارف الإسلامية العربية، منها معرفته بالفقه والنحو والشعر وغيرها من الفنون. (٤)

#### ١٠ - عبدالله بن أحمد بري :

هو أبو محمد عبدالله بن الفقيه أحمد بري بن أحمد بن الفقيه آندغمحمد الكبير. وهو من ذريته من جهة الأم والأب لأن أمه أخت الفقيه أبي العباس أحمد بن آندغمحمد (٥). كان مفتيا شرعيا في زمانه، ومن علماء

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المكان نفسه.

(٣) انظر: الفتاوى، ص ١٦٧-١٦٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(٥) المكان نفسه.

اللغة، واشتهر بمعرفة علوم القرآن الكريم<sup>(١)</sup>. ومن أسباطه شيوخ الإسلام الثلاثة: الفقيه عبدالله والفقيه الحاج أحمد والفقيه محمود، أبناء الفقيه عمر بن محمد أقيت<sup>(٢)</sup>.

#### ١١- عبدالله بن عمر (٨٦٦هـ-٩٢٩هـ / ١٤٦١-١٥٢٢م)

هو الفقيه عبدالله بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي، شقيق جد أحمد بابا<sup>(٣)</sup> - أحمد بن عمر. كان من الفقهاء الحفاظ. ولم يكتف بممارسة التدريس في تنبكت، بل درس بوالاتا وتوفى بوالاتا<sup>(٤)</sup>.

#### ١٢- أحمد بن عمر (ت ٩٤٢هـ<sup>(٥)</sup> / ١٥٣٥م)

هو الفقيه أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي<sup>(٦)</sup>، أخو عبدالله السابق. وهو جد أحمد بابا. وعرف بالحاج أحمد. كان من أهل الخير والفضل والدين، محافظاً على السنة والمروءة، له قصائد شعرية في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام. واشتهر بأنه من المداومين على قراءة الشفا للقاضي عياض. وعن علمه يقول حفيده أحمد بابا<sup>(٧)</sup>: «... وكان فقيهاً نحويًا لغويًا عروضياً محصلاً بارعاً حافظاً معتنياً بتحصيل العلم ونسخ كتبه. كتب

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨؛ نيل الابتهاج، ورقة ١١٢.

(٤) المصدران والمكان نفسها.

(٥) تاريخ السودان، ص ٣٧، ٩١، النيل، ص ٦٤. على الرغم من أن السعدي ينقل عن أحمد بابا، إلا

أنني لاحظت أن السعدي ذكر تاريخ الوفاة ٩٤٣هـ وأحمد بابا يذكره ٩٤٢هـ في النيل، ولعل الخطأ

هنا من الناسخ أو لسهو الناقل.

(٦) نيل الابتهاج. ورقة ٦٤.

(٧) المكان نفسه.



بخطه عدة دواوين وجمع كثيرا من الفوائد والتأليف. ومن أبنائه العلماء الفقيه أبو حفص عمر بن الحاج أحمد: عالم نحوي، ومن الشيوخ الذين كانوا يسردون الشفا في رمضان وامتحان ومات بمراكش. <sup>(١)</sup> أدى فريضة الحج في عام ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م. ولقي بعض أعلام الفكر في المشرق الإسلامي وعلى رأس أولئك الإمام جلال الدين السيوطي وخالد الأزهرى (الوقاد) <sup>(٢)</sup>، ثم قفل راجعا إلى بلاده في زمن حملة سني علي سلطان سنغي على مدينة تنبكت سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م <sup>(٣)</sup>. وهو من العلماء الذين عم نفعهم في غربي إفريقيا لأنه دخل كانو وغيرها من المراكز الثقافية، وقام بمهمة التدريس في معاهدها <sup>(٤)</sup>، وتخرج على يديه في تنبكت جماعة من مشاهير العلماء، منهم أخوه الفقيه القاضي محمود بن عمر، الذي درس عليه المدونة وغيرها <sup>(٥)</sup>. ولم يزل دؤوبا ومجتهدا في تعليم العلم وتحصيله حتى توفي عام ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م. وأكبر دليل على مكانته العلمية ومقدرته أنه كتب عدة كتب بخطه، وترك مكتبة بها نحو سبعمئة مجلد <sup>(٦)</sup>، وتعد من أكبر المكتبات إذا قيست بتطور المكتبات منذ النصف الأول من القرن (١٠هـ / ١٦م) حتى اليوم.

### ١٣- القاضي محمود أقيت: (٨٦٨-٩٥٥هـ / ١٤٦٣-١٥٤٨م)

هو شيخ الإسلام أبو البركات الفقيه القاضي محمود بن عمر بن محمد

(١) السعدي، ص ٣١.

(٢) تاريخ السودان، ص ٣٧، النيل. ورقة ٦٤.

(٣) بالمصدرين والمكانين نفسيهما.

(٤) تاريخ السودان، ص ٣٧.

(٥) المكان نفسه، النيل، ورقة ٦٤.

(٦) النيل ورقة ٦٤، ٦٥، تاريخ السودان، ص ٣٧.

(٧) ابن الطيب، نشر الثاني مصدر سبق ذكره، ص ٢٤، السعدي، ص ٩٨، شجرة النور الزكية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٨.

أقیت<sup>(١)</sup> بن يحيى الصنهاجي التنبكتي<sup>(٢)</sup>، قال عنه أحمد بابا<sup>(٣)</sup>: «... قاضيا أبو الثناء وأبو المحاسن، عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقهها وإمامها بلا مدافع. كان من خيار عباد الله الصالحين. اشتهر علمه وصلاحه في البلاد، وسار صيته في الأقطار شرقا وغربا. وظهرت ديانتته وورعه وصلاحه وعدله في القضاء... لا يخاف في الله لومة لائم. يهابه السلاطين فمن دونهم، ويزورونه في بيته فلا يقوم لهم، ولا يلتفت إليهم ويهادونه بالهدايا والتحف... تولى القضاء عام ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م، فشدد في الأمور وسدده<sup>(٤)</sup>. وبجانب توليه منصب القضاء كان يقوم بالتدريس، واشتهر بذلك حتى كثر طلبته في حلقة تدريس الفقه، ونجب منهم جماعة كثيرة، وكان أكثر ما يدرس المدونة والرسالة ومختصر الشيخ خليل، في غربي إفريقيا. وكان طلبته يسجلون دروسه عن مختصر خليل، فأخرجوها شرحا في مجلدين. وانتشر هذا الشرح<sup>(٥)</sup>.

وحج عام ٩١٥هـ / ١٥٠٩م، ولقي في حجه جماعة من مشاهير علماء المشرق، أمثال إبراهيم المقدسي والشيخ زكريا والقلقشندي، واللقاني وغيرهم من علماء مصر<sup>(٦)</sup>. وتعلمذ عليه والد الشيخ أحمد بابا التنبكتي<sup>(٧)</sup>. والقاضي محمود من أبرز علماء هذه الأسرة في عهد آسكيا الحاج محمد عاهل سنغي، وهو والد لثلاثة من مشاهير علماء وقضاة تنبكت، وهم:

---

(١) السعدي، ص ٣٣، شجرة النور الزكية، ص ٢٧٨.

(٢) النيل، ورقة ٣٢٣.

(٣) المكان نفسه.

(٤) النيل، ورقة ٣٢٣.

(٥) المكان نفسه.

(٦) المكان نفسه.

(٧) المكان نفسه.

محمد، والعاقب، وعمر، ولهم أخٌ دونهم في الشهرة هو: عبدالله، المتوفى عام ١٠٠٦هـ / ١٥٩٧م بمراكش. والد العالم أبي زيد عبدالرحمن بن عبدالله. (١)

#### ١٤- القاضي محمد أقيت (٩٧٣هـ<sup>(٢)</sup> / ١٥٦٥م

هو القاضي محمد بن القاضي محمود أقيت. تولى القضاء بعد وفاة والده المذكور<sup>(٣)</sup>. كان عالماً جليلاً من ذوي الفهم والذكاء. ولم يكن له نظير في عصره في الفهم والدهاء ورجاحة العقل<sup>(٤)</sup> له تعليق على رجز المغيلي في المنطق. وتلمذ عليه والد أحمد بابا لاسيما تدريسه إياه البيان والمنطق. (٥)

#### ١٥- أحمد بن سعيد (٩٣١-٩٧٦هـ / ١٥٢٤-١٥٦٨م)

هو أحمد بن محمد بن سعيد، حفيد الفقيه محمود بن عمر من جهة الأم. كان من علماء الفقه المطلعين، ومن حفاظ القرآن المتقنين، ومن مدرسي تنبكت المشهورين. (٦) تلمذ على جده لأمه محمود بن عمر أقيت، وخاصة في دراسة الرسالة ومختصر خليل<sup>(٧)</sup>. وقد جلس للتدريس في عام ٩٦٠هـ (١٥٥٢م) إلى حين وفاته. وتزاحم عليه طلاب العلم وانتفعوا به. وله استدراكات في الفقه، وحاشية على مختصر خليل. ومن أشهر تلاميذه أحمد بابا التنبكتي عندما كان صغيراً. (٨)

(١) المصدر نفسه، ورقة ١١٢، السعدي، ص: ٣٤، ٢١٤.

(٢) المصدر نفسه، ورقة ٣١٧.

(٣) المكان نفسه.

(٤) السعدي، ص ٣٣.

(٥) السعدي، ص ٤٠.

(٦) النيل، ص ٦٧، السعدي، ٤٣.

(٧) المكانان نفسهما.

(٨) المكانان نفسهما.

## ١٦- القاضي العاقب بن محمود أقيت (٩١٣-٩٩١هـ / ١٥٠٧-١٥٨٣)

هو العاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت. قال عنه أحمد بابا<sup>(١)</sup> بأنه كان «مسدداً في أحكامه، صلباً في الحق ثباتاً فيه، لا تأخذه في الله لومة لائم. قوي القلب، مقداماً في الأمور العظام التي يتوقف فيها غيره، جسوراً على السلطان فمن دونه. وقع له معهم وقائع، وكانوا يخضعون له ويطاوعونه في كل ما أراد، إذا رأى ما يكره، عزل نفسه عن القضاء وسد باباً، ثم يلاطفونه حتى يرجع...» وعنه يقول السعدي<sup>(٢)</sup>: «فكان عالماً جليلاً ثاقب الذهن قوي القلب صلباً في الحق... ذا فراسة، إذا تكلم في شيء لا يخطئ كلامه، كأنه ينظر في الغيب. قد ملأ أرضه بالعدل بحيث لا يعرف له نظير في ذلك من جميع الآفاق.» وقد مر بنا جانب من إصلاحاته للمساجد عندما تكلمنا على مساجد تنبكت الشهيرة.

أدى فريضة الحج، ولقي هناك الناصر اللقاني وأبا الحسن البكري والشيخ البكري وغيرهم من هذه الطبقة، وأجازه اللقاني في جميع ما يجوز له وعنه، وأجاز العاقب بدوره أحمد بابا وكتب له الإجازة بخط يده.<sup>(٣)</sup>

## ١٧- بابكر بير (٩٣٢-٩٩١هـ / ١٥٢٥-١٥٨٣م)

هو الفقيه أبوبكر المعروف بـ بابكر بير بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت، وهو أخو الفقيه عمر بن الحاج، وهو نموذج حي للعلماء الذين يقومون بالتدريس وينفق على تلاميذه المحتاجين، لاسيما الأيتام<sup>(٤)</sup>. وقد رحل مع

(١) النيل، ص ص ١٨٠-١٨١، السعدي، ص ٤٠.

(٢) السعدي، ص ٣٤.

(٣) النيل، ص ١٨١.

(٤) السعدي، ص ٣٢، النيل، ص ٧١.

عائلته في حجته الثانية وأقام مجاورا بالمدينة المنورة<sup>(١)</sup>. وهو عم أحمد بابا، وأول من درس عليه أحمد بابا علم العربية<sup>(٢)</sup>، وعنه قال: «ما رأيت قط مثله ولا من يقرب منه في معناه»<sup>(٣)</sup> وله مؤلفات صغيرة في التصوف وغيره حسبما يقول أحمد بابا<sup>(٤)</sup>، ولكنه لم يسمها لنا.

#### ١٨- أحمد بن أحمد (٩٢٩-٩٩١هـ / ١٥٢٢-١٥٨٣)

هو الفقيه أبو العباس أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت، والد الفقيه والمؤرخ أحمد بابا التنبكتي. قال عنه ابنه أحمد بابا<sup>(٦)</sup>: «كان رحمه الله تعالى علامة فهامة ذكيا داركا محصلا مفننا»<sup>(٧)</sup> محدثا أصوليا بيانيا منطقيا، وكان رقيق القلب عظيم الجاه وافر الحرمة عند الملوك وكافة الناس، نفاعا بجاهه لا ترد له شفاعاة، يغلظ على الملوك فمن دونهم وينقادون له أعظم الانقياد ويزورونه في داره» فعندما مرض في إحدى سفراته إلى عاصمة سنغي الأولى كاع (جاو) كان يزوره ليلا السلطان آسكيا داوود فيؤانسه حتى عافاه الله من المرض. وكان السلطان يفعل ذلك تعظيما لمكانته<sup>(٨)</sup>. وقد اهتم كثيرا بجمع الكتب الثمينة حتى تكونت لديه مكتبة ضخمة فتحها لكل من يرغب في الاستعارة<sup>(٩)</sup>، وكان من تلاميذه عنه شيخ العصر، محمود بن عمر<sup>(١٠)</sup>.

(١) السعدي، ص ٣٢.

(٢) النيل، ص ٧١.

(٣) المصدر نفسه في ٧٢.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المصدر نفسه، ورقة ٦٦.

(٦) النيل، ورقة ٦٦، السعدي، ص ٤٢.

(٧) تعني كلمة (مفننا) العالم الذي يجيد أكثر من لون من المعرفة والعلوم.

(٨) السعدي، ص ٤٢، الفتاش، ص ١١٥.

(٩) السعدي، المكان نفسه.

(١٠) السعدي، ص ٤٢، النيل، ص ٦٦.



رحل إلى الحج في سنة ٩٥٦هـ / ١٥٤٩م وزار المدينة. ولقي في مصر بعض مشاهير الشيوخ أمثال: الشيخ الناصر اللقاني والشيخ يوسف الأرميوني، تلميذ السيوطي، وجمال الدين بن الشيخ زكريا، والشيخ التاجوري، والأجهوري وغيرهم من هذه الطبقة، فاستفاد منهم. وقال التنبكتي<sup>(١)</sup> إنه لقي بالحجاز جماعة من كبار العلماء منهم: بركات الخطاب<sup>(٢)</sup> وعبدالمعطي السخاوي<sup>(٣)</sup>، وأجاز بعضهم<sup>(٤)</sup>.

وعندما عاد من الأراضي المقدسة جلس للتدريس والتأليف، فآلف شرح تخميسات العشرينيات الفزارية لابن صهيب في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يكتمل هذا العمل. وآلف شرحا في منظومة المغيلي في المنطق شرحا جامعاً، وكتب حاشية على شرح التتائي<sup>(٥)</sup> على خليل نبه فيه على مواضع السهو منه، وشرح جمل الخونجي، وصغرى السنوسي والقرطبية. وكانت عادته أن يجلس في المسجد لتدريس صحيح البخاري في رجب وشعبان ورمضان، واستمر على هذه العادة لمدة خمس وعشرين سنة. وعندما مات كان يدرس صحيح مسلم. وكان شيخا لكثير من علماء تنبكت البارزين، منهم: أحمد ومحمد بغيغ وعبدالله وعبدالرحمن بن محمود أقيت وابنه أحمد بابا<sup>(٦)</sup>.

---

(١) النيل، ورقة ٦٦.

(٢) هو بركات بن محمد بن عبدالرحمن الخطاب المكي المتوفي بعد سنة ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م في سن كبيرة، ومن مؤلفاته: شرح على خليل. انظر: شجرة النور الزكية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٩.

(٣) هو أبو محمد عبدالمعطي بن أحمد بن محمد السخاوي المدني، من بيت علم وفضل، له تأليف منها تفسير القرآن الكريم، وتاريخ المدينة وشرح الشامل، توفي بعد سنة ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م. انظر: شجرة النور، ص ٢٧٢.

(٤) النيل، ورقة ٦٦.

(٥) هو أبو الحسن جمال الدين يوسف بن حسن بن مروان التتائي، يعرف بالهاروني. ولد سنة ٨٤٦هـ / ١٤٤٢م. ولم يعرف تاريخ وفاته. انظر: شجرة النور الزكية ص ٢٧٣.

(٦) النيل، ورقات ٦٦-٦٧.

وبرع في الأدب والفقه والحديث. وكفى في عزه وشرفه ما خاطبه به السيد الولي أبو عبدالله محمد البكري<sup>(١)</sup> في قصيدته المرسلة إليه حين غاب عنه بعد حجته التي التقى فيها بالبكري، ومنها<sup>(٢)</sup>:

أَحْبَبْنَا وَاللَّهِ إِنِّي عَلَى عَهْدِي	وَحَبِّي لَكُمْ حَبِي وَوُدِّي لَكُمْ وَدِّي
وَلَمْ أُنْسَ أَيَّامَ التَّدَانِي وَطَيْبَهَا	وَأَوْقَاتُنَا مَا بَيْنَ عَوْرٍ إِلَى جَدِي
وَإِنِّي عَلَى ذِكْرِي لَكُمْ وَتَوَجَّهِي	إِلَى اللَّهِ فِيمَا تَرْتَجُونَ مِنَ الرِّفْدِ
وَأَسْأَلُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مُكْرَمٍ	بِتَحْقِيقِ مَا تَبْغُونَ مِنْ وَاسِعِ الْمَدِّ
لَعَمْرٍ وَدِينٍ ثُمَّ أَوْلَادَكُمْ وَمَا	تُرُومُونَ مِنْ فَضْلِ يَفِيضُ بِلَا حَدِّ

#### ١٩- عمر محمود أقيت (ت ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م)

هو أبو حفص القاضي عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت<sup>(٣)</sup>. من العلماء الذين برعوا في علم الحديث والسير والتاريخ وأيام الناس، وبلغ الغاية القصوى في الفقه<sup>(٤)</sup>، حتى قال عنه بعض من عاصره من الشيوخ: «إنه لو كان موجودا في زمن ابن عبدالسلام بتونس لاستحق أن يكون مفتيا فيها»<sup>(٥)</sup> وهذه العبارة التي أوردها السعدي دليل على مكانة هذا الرجل العلمية، ودليل على أن علماء غربي إفريقيا كانوا لا يقلون في مستواهم الفكري عن علماء المغرب. والقاضي عمر من الذين حلت بهم كارثة تنبكت أيام الفتح المراكشي،

---

(١) لعل المعني هنا هو محمد بن محمد الكرخي البكري، الشافعي، بدرالدين أبو عبدالله المفسر الفقيه الأصولي الفرضي المتوفى بمصر سنة ١٠٠٦هـ / ١٥٩٨. وله عدة مؤلفات. انظر: معجم المؤلفين، ج ١١، ص ٢٦١.

(٢) الفتاوى، ص ص ٢٢-٣٢.

(٣) السعدي، ص ٣٤.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

وأخذ أسيرا إلى مراكش، ومات بها. (١)

٢٠- أحمد بابا التنبكتي (٩٦٢-١٠٣٦هـ / ١٥٥٥-١٦٢٧م)

إن أكمل ترجمة حياة هذا المؤرخ والعالم الكبير ماجاء في مخطوط «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور» الذي أشرنا إليه عندما تكلمنا عن نسب أسرة أقيت (٢). فهو أحمد بابا بن الحاج أحمد بن الحاج أحمد بن عمر ابن محمد أقيت. (٣)

اجتهد في بداية أمره في خدمة العلم حتى فاق جميع معاصريه، ولا يناظره في العلم إلا أشياخه الذين شهدوا له بالعلم. (٤)

إن هذا العالم يعتبر عمدة مصادرنا لتاريخ التعليم الإسلامي في غربي إفريقيا في الفترة الزمنية التي هي مجال البحث. واسمه معروف لدى كل الدارسين والمطلعين على تاريخ المغرب وغربي إفريقيا. وكان السعدي وصاحب الفتاش عالة عليه، وعنه نقلا فقرات بأكملها، وهو النبع الفياض الذي استقى منه كل الكتاب الذين عالجوا جوانب من قضايا تاريخ غربي إفريقيا.

استفاد طلبة وعلماء المغرب من وجوده بينهم عندما جاء أسيرا إلى مراكش في المحنة المشهورة؛ فقد جلس بجامع الشرفاء بمراكش للتدريس، وازدحم عليه الخلق وأعيان الطلبة، بل تتلمذ عليه قضاة مراكش. (٥)

---

(١) See: Hunwick, A New Source, op. cit., p. 574.

(٢) وقد اعتمد هنوك على أربع نسخ من مخطوط «كفاية المحتاج لمن ليس في الديباج» لأحمد بابا، لمقارنة ماورد من أسماء في فتح الشكور وفي الكفاية.

(٣) انظر بقية النسب، ص ١٩٥ من هذا البحث وفي المصادر الآتية: النيل، ورقة ٣٤١، نشر المثاني، ص ١٥١، صفوة من انتشار، ص ٥٢، السعدي، ص ٢١٨.

(٤) Hunwick, op. cit., p.574.

(٥) Ibid., p. 578، شجرة النور الزكية، ص ٢٩٨.

أخذ بتنبت العلوم الإسلامية عن أقاربه من أسرة أقيت وغيرهم<sup>(١)</sup>، وتضلع من العلوم الإسلامية، واهتم بجمع كتبها حتى بلغت مكتبته حوالي ستمئة وألف مجلد<sup>(٢)</sup>، ويروى أنه كان يقول بأن هذه المكتبة تعتبر أقل مكتبة لعالم في تنبت<sup>(٣)</sup>. ولو افترضنا المبالغة في هذا الرقم لكانت صيغته تحمل دليلا كافيا على اهتمام العلماء بالاطلاع الواسع والتعمق في الدراسة والاستعداد الفكري للقيام بمهمة أستاذ الجامعة. وكما يقول الأفراني فقد فنت كل هذه المكتبات عندما اقتيد علماء تنبت إلى الأسر في مراكش سنة ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م.<sup>(٤)</sup>

ولأحمد بابا مواقفه الشهيرة والشجاعة مع السلطان المراكشي عندما قابله بعد مجيئه من تنبت. وشاء الله أن يعود هذا العالم إلى تنبت سنة ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م<sup>(٥)</sup> ليواصل مهمة التدريس والإرشاد حتى وفاته. وخلف وراءه نتاجا كبيرا من المؤلفات التي تدل على طول باعه في التأليف والفتوى وسعة الاطلاع وحسن الاستيعاب. وقد جاوزت مؤلفاته الأربعين<sup>(٦)</sup> مؤلفا، ذكر منها صاحب «فتح الشكور» تسعة وثلاثين مؤلفا<sup>(٧)</sup>. نذكر منها هنا ماذاغت شهرته:

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وأحيانا يسمى نيل الابتهاج بالذيل على الديباج، لأنه ذيل به ديباج ابن فرحون.

---

(١) نشر المثاني، ص ١٥١، كفاية المحتاج، تراجم علماء أسرة أقيت.

(٢) الأفراني: صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، ص ٥٢.

(٣) شجرة النور الزكية، ص ٢٩٩.

W.E.F. Ward, A History of Af., op. cit., p. 70.

(٤) الأفراني، المصدر السابق، ص ٥٣، شجرة النور، ص ٢٩٩.

(٥) نشر المثاني، ص ١٥١. Hunwick, A New Source, p. 577.

(٦) إنفاق الميسور، ص ٢١٩، نشر المثاني، ص ١٥١-١٥٢.

(٧) Hunwick, A New Source, op. cit., pp. 578-80.

(٢) كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج.

(٣) الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان.

ولو كان لأحمد بابا الكتاب الأول فقط لكفاه أن يكون من عظماء كتاب التراجم في عصره.

وتكفي أحمد بابا شهادة ابن أبي دينار<sup>(١)</sup> التي نصها «والشيخ أحمد صاحب اطلاع، وهو من أكابر علماء وقته...»

وكل هؤلاء العلماء الذين ذكرناهم من أسرة أقيت. أما أشهر العلماء من غير أفراد هذه الأسرة فهم:

## ٢١- القاضي مودب محمد الكابري :

كان من أصاب الحلقات الدراسية في مسجد سنكري. وهو شيخ شيوخ تنبكت الذين عاصروهم أمثال الشيخ عبدالرحمن التميمي ويحيى التادلسي وعمر ابن محمد أقيت.<sup>(٢)</sup>

وموطن هذا الشيخ هو كابرا، ميناء تنبكت الشهير، ولم يكن العالم التنبكتي الوحيد الذي ترجع نسبته إلى بلدة كابرا، بل كان معه الكثيرون، والذين دفنوا معه في روضته فقط ثلاثون كابرياً، وكلهم من العلماء<sup>(٣)</sup>. وفي هذا دليل على أن تنبكت كانت محط أنظار العلماء والطلاب من جميع أرجاء غربي إفريقية، والعلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي المعاصر آنذاك.

وقد رثاه تلميذه الفقيه سيدي يحيى التادلسي بأبيات شعرية ذكرنا أبياتا منها في الصفحات السابقة.<sup>(٤)</sup>

---

(١) المونس، مصدر سبق ذكره، ص ٩.

(٢) السعدي، ص ٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٨. ومن العلماء المشهورين بتنبكت من أصل كابري، الفقيه صديق بن محمد تعلبي.

(٤) انظر ص ٢١٤-٤١٥ من هذا الكتاب.



## ٢٢- كاتب موسى :

من أئمة المسجد الجامع المشهورين . وهو آخر من تولى منصب الإمامة فيه من علماء المنطقة المحليين الذين يطلق عليهم السعدي<sup>(١)</sup> اسم «السودانيين» ، وهو يعني بذلك السود من أهل غربي إفريقيا . وقد كانت الإمامة منذ أن ابتدأت في المسجد الجامع بتبكت في أيدي هؤلاء السودانيين ، فكانوا أئمة في دولة مالي وجزء من دولة التوارق على تبكت<sup>(٢)</sup> . ومكث كاتب موسى في الإمامة أربعين عاما متواصلة ، ولم يتخلف ولو في صلاة واحدة ، لما حباه الله من صحة وعافية ، بين سببها عندما سئل عن ذلك .<sup>(٣)</sup>

وبجانب توليه منصب الإمامة كان يشغل منصب القاضي ، كما يفهم من قول السعدي<sup>(٤)</sup> : «ولا يقضي بين الناس إلا في رحبته «سُسُ دبي» في وراء داره من جهة المشرق ، تنصب له المنصة تحت شجرة كبيرة» .

## ٢٣- سيدي يحيى التادلسي (ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م)

وهو يحيى بن عبدالرحيم بن عبدالرحمن الثعالبي بن يحيى البكاء بن أبي الحسن علي بن عبدالله بن عبدالجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي ابن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطلال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد الحسن بن علي بن أبي طالب ، هكذا أورد نسبه السعدي .<sup>(٥)</sup>

---

(١) تاريخ السودان ، ص ٥٧ .

(٢) المكان نفسه (وسبب صحته كما قال : عدم المبيت في الهواء ودهن الجسم ليلا والاستحمام فجرا بالماء الساخن وتناول طعام الإفطار قبل الخروج إلى صلاة الصبح) .

(٣) المكان نفسه .

(٤) المكان نفسه .

(٥) تاريخ السودان ، ص ٥٠ ، ٥١ .

قدم هذا العالم إلى تنبكت في مطلع حكم الطوارق لهذه المدينة. <sup>(١)</sup> وقد كانت فترة حكم الطوارق بين عامي ٨٣٧هـ - ٨٧٦هـ / ١٤٣٣ - ١٤٧١م <sup>(٢)</sup>، وعند قدومه تلقاه بالترحاب صديقه محمد نض حاكم هذه المدينة من قبل سلطان الطوارق، فأحبه وأكرمه غاية الكرم. وأقام الحاكم محمد نض مسجدا وجعله إماما عليه، وعرف بمسجد سيدي يحيى، وقد تكلمنا عنه. وفي فترة توليه الإمامة بلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح، وانتشر ذكره في الآفاق، وامتدحه عميد أسرة أقيت القاضي محمود بأنه أفضل من دخل تنبكت من العلماء <sup>(٣)</sup>، وقال عنه أبوزيد عبدالرحمن بن محمود أقيت: «فواجب على أهل تنبكت أن يزوروا روضة سيدي يحيى للتبرك في كل يوم ولو كانت منهم على مسافة ثلاثة أيام». <sup>(٤)</sup>

كان هذا الشيخ مثالا للعالم العامل. فقد كان يعمل بالمعاملات التجارية، وديدنه في ذلك ألا يحتاج إلى الناس في شيء من أمور المعيشة <sup>(٥)</sup>، ذلك بجانب عمله إماماً ومدرساً في مسجده ومنزله <sup>(٦)</sup>. وله أبيات شعرية حسنة في رثاء شيخه مودب محمد الكابري <sup>(٧)</sup>، منها:

تذكر ففي التذكار جُلُّ الفوائد	وفي طيه ورد على خير وارد
وفي نقص هذي الأرض للحجر عبدة	من اطرافها يبدو ومن كل ماجد

(١) المكان نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٧) انظر هذه الأبيات الكاملة في: المصدر نفسه، ص ٤٩.

وبالقبض للنظار في العلم قبضة  
أطلاب عم الفقه تدرون ما الذي  
يثير هموم القلب فقد سميدع<sup>(١)</sup>  
لحسن تعليم مقرب فهمه  
محمد الأستاذ مودب ذي النهى  
فيا عجباً هل بعده من مبین  
فلولا التعزي بالنبي وصحبه  
لحق لدمع العين سحٌ على الألى  
أينكر ذو حجر زحاما لحمله  
إذا انكسر النعشان من تحت سالم  
وفي ذاك تعظيم وحسن تأدب

وفي ذاك إنذار بقرب الشدائد  
يثير هموم القلب من كل وافد  
فقيه حليم حامل للفرائد  
وفتاق تهذيب بحسن الفوائد  
رباطا صبارا أمره في التزايد  
ويا عربا هل بعده من مجالد  
وأعلام علم الدين منه وراشد  
لإفناء أشباح وإطفاء واقد  
ففي السالف الأمل قوي التكابد  
ومن أمتنا الغرا زيادة واحد  
مع الصالح الموفي بعهد المتالد

## ٢٤- مَسْرَبُوبُ الزعراني :

كان من أصدقاء الفقيه العالم محمود بن عمر أقيت، وقد اشتهر بالعلم والفضل والخير والصلاح على الرغم من أنه ينحدر من قبيلة زعران التي يصفها السعدي<sup>(٢)</sup> بأنها لا تعرف بالصلاح ولا بحسن الإسلام.

وكان من أهل الثقة العلمية عند أسرة أقيت، والدليل على ذلك أن الفقيه

(١) يلحظ أن الدكتور زيادية يسمي هذا العالم بـ «محمد سميدع» وحسب علمي أن هذا ليس صحيحاً، لأن اسم العالم الذي يرثيه التادلبي هو مودب محمد الكابري الذي ورد اسمه صراحة في الشطر «محمد الأستاذ مودب ذي النهى» أما سميدع فصفاً أطلقها الرائي على أستاذه، ومعناها اللغوي: السيد الكريم الشريف السخي الموطأ الاكتاف والشجاع الذئب، والرجل العفيف في حوائجه. انظر: مملكة سنغي لزيادية، ص ١٤٨.

انظر: ترتيب القاموس المحيط لأحمد الزاوي الطرابلسي، ج ٢، ص ٥٧٤.

(٢) تاريخ السودان، ص ٥١.

عبدالرحمن بن الفقيه محمود بن عمر أقيت تتلمذ عليه في أول الأمر حتى إنه أصبح يحترم كل زعراني. وروى السعدي<sup>(١)</sup> بأن الفقيه عبدالرحمن هذا صلى صلاة الجنازة على زعراني من أجل شيخه مسر بوب.

## ٢٥- الفقيه صديق تعلي :

وهو الفقيه صديق بن محمد تعلي الكابري الأصل والجنجوي<sup>(٢)</sup> المولد. يصفه السعدي<sup>(٣)</sup> بأنه كان فقيها عالما فاضلا خيرا صالحا.

والفقيه صديق عالم من علماء البلدان القريبة والمجاورة لمدينة تنبكت، الذين جاؤوا لينهلوا من منابع العلم في هذه المدينة العريقة. رحل إليها هذا العالم من بلدته جنج على الرغم من أنه كان صاحب مدرسة فيها، وله طلابه النجباء. والرواية التي وصلتنا حول سبب رحيله إلى تنبكت تبين لنا مدى حرصه على الاستزادة من العلم، وتوضح لنا مدى تقدم الفكر الإسلامي في مدينة تنبكت. ورواية سبب ارتحاله تقول: «إنه صور له مسألة من مسائل الفقه في مدرسته يوما واحدا. وهناك من طلبته الذي ارتحل إلى تنبكت بعدما قرأ عليه ماقرأ، ثم رجع إلى جنج. فقال: صورة هذه المسألة ليست كذلك على ما سمعت من الفقهاء في تنبكت. فقال الشيخ: وماهي؟ قال كذا وكذا، قال: ضيعنا عمرنا باطلا. فَمِنْ هذا ارتحاله رضي الله عنه.»<sup>(٤)</sup>

---

(١) تاريخ السودان، ص ٥٢.

(٢) نسبة إلى بلدة جنج القريبة من تنبكت كما يفهم من السعدي، ويبدو لنا أن الدكتور النقر قد خلط بينها وبين جنج، حين ذكر أن صديقا هذا أصله من جنج، انظر:

The Pilgrimage Tradition in W.A. op. cit., p. 126.

وتاريخ السودان، ص ٦١، وقد ذكرها السعدي في أكثر من مرة ومناسبة، والفرق عنده بين جنج وجنج واضح، تماما لا سيما في قصة الفقيه مور مع كنكي الذي رحل من جنج إلى جنج كما أثبتناه.

(٣) تاريخ السودان، ص ٦١

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٢.

وفي تنبكت تولى الفقيه صديق إمامة المسجد الجامع لمدة أربع وعشرين سنة. وخلفه في الإمامة عالم فلاني يدعى الفقيه كداد. وخلفه بعد ذلك الفقيه أحمد بن الإمام صديق تعلي بأمر القاضي العاقب بن محمود أقيت<sup>(١)</sup>. وكان الإمام أحمد آخر أئمة الجامع الكبير في دولة سنغي، وظل في الإمامة أيضا على عهد السيادة المراكشية.<sup>(٢)</sup>

وأدى الفقيه صديق فريضة الحج والتقى بجماعة من أعلام الفقهاء مثل الشيخ محمد البكري.<sup>(٣)</sup>

## ٢٦- محمد بَغِيغ<sup>(٤)</sup> (٩٣٠-١٠٠٢هـ / ١٥٢٣-١٥٩٣م)

هو ابن الفقيه القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ. تولى والده قضاء جنبي بعد وفاة قاضيها العباس كب سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥١م.<sup>(٥)</sup> ولمحمد بغيغ أخ عالم وهو أحمد بغيغ.<sup>(٦)</sup> ومحمد بغيغ من أشهر شيوخ أحمد بابا وتلميذ لوالده.<sup>(٧)</sup> كان محمد بغيغ من العلماء المتعددي التخصص، العاملين الناصحين للناس بمحبة العلم وملازمة التعليم كل العمر، ويذل الكتب النفيسة لمن يرغب فيها دون السؤال عن إرجاعها له، ودون التحقق من شخصية المستعير، وكان ذلك سببا في ضياع الكثير من مكتبته القيمة.<sup>(٨)</sup>

وكان ذلك مثار عجب الناس كما جاء على لسان السعدي<sup>(٩)</sup>. وفي

---

(١) تاريخ السودان، ص ٦٢.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٤) بيا مفتوحة فغين معجمة ساكنة فياء مضمومة فغين معجمة مضمومة، هكذا ضبطه السعدي. انظر: المصدر نفسه ص ٤٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٦) لأحمد هذا ابن من العلماء اسمه إسحاق إبراهيم، انظر: الفتاش، ص ١٨٢.

(٧) المصدر السابق، ص ٤٣، ٤٥، النيل، ورقة ١٣٥.

(٨) تاريخ السودان، ص ٤٤.

(٩) المكان نفسه.



قوله: «فكان العجب العجاب في ذلك إيثاراً لوجهه تعالى مع محبته للكتب وتحصيلها شراء ونسخاً». وكان أيضاً مثار عجب معاصريه في الصبر على إيصال الفائدة للبليد من التلاميذ بلا كلل أو ملل أو ضجر<sup>(١)</sup>. وبرنامجه الدراسي اليومي، والكتب التي درسها أحمد بابا على يديه، تدل على طاقة فائقة في حقل التعليم.<sup>(٢)</sup> فقد كان خلفاً صالحاً لسلفه الخير وأستاذه سيدي أحمد بن سعيد.<sup>(٣)</sup>

أدى فريضة الحج مع أخيه وخاله، ولقوا في طريقهم إلى الحجاز بعض أعلام الفكر المصريين أمثال الناصر اللقاني والتاجوري والشريف يوسف الأرميوني والإمام محمد البكري، وغيرهم،<sup>(٤)</sup> فأفادوا منهم وأفادوهم. وللفقيه محمد تعليقات وحواشٍ نبه فيها على ما وقع لشرح مختصر خليل وغيره من الخطأ، وتتبع ما في الشرح الكبير لللقاني من السهو.<sup>(٥)</sup> لقد كانت العلاقة بين أسرة أقيت ومحمد هذا علاقة وثيقة، وسيرته في نشر العلم والدين والعدل لا تختلف عن سيرة آل أقيت. وعندما حلت نكبة الغزو المراكشي بعلماء تنبكت عامة وأسرة أقيت خاصة كان هو النبراس الباقي في تنبكت لينير للناس طريق الحق. وقد جاءت قصته مع الغزاة في «تاريخ الفتاش»، وموقفه الشجاع مع الباشا المراكشي حين أراد منه الباشا أن يكتب شهادة ضد من أسر من الفقهاء ونفي إلى مراكش، ليتخذها حجة على إدانتهم بالمروق عليه وتعاونهم مع السلطان نوح، عاهل سنغي المناهض للاحتلال.

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٥، ٤٦.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٦-٤٧.

وأبى الشيخ محمد أن يشهد بذلك، وهو يعلم أن الإباء يعني قطع اليد كما هدده بذلك الباشا؛ أبى أن يفعل حتى ولو فصل رأسه عن جسده. وكانت النهاية أن عفا عنه الباشا إكباراً منه لنبل موقفه وورعه، وأصبح بعد ذلك محل احترام الباشا، وصاحب شفاعاة عنده لكثير من أهل تنبكت.<sup>(١)</sup>

٢٧- أسرة كعت<sup>(٢)</sup> (منذ منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي) اشتهر من هذه الأسرة خمسة أعلام علماء مؤرخين، هم: القاضي محمود كعت وأبناؤه: الفقيه إسماعيل محمود كعت ويوسف محمود كعت ومحمد الأمين محمود كعت، وحفيده ابن المختار.

وعميد هذه الأسرة المشهور هو القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت حسبما جاء في صدر كتاب «تاريخ الفتاش»، الذي اشترك في جمع مادته هؤلاء العلماء الخمسة. وكان محمود كعت من العلماء المرموقين في تنبكت. وكان مقرباً لدى السلاطين. واهتم بكتابة تاريخ بلاده كما هو واضح من الجزء الأول لكتاب «تاريخ الفتاش». وساعدته مكانته الرسمية كقاضي أن يورد أخباراً مفيدة عن كثير من الأحداث التي وقعت في صدر دولة سنغي.

أما إسماعيل ويوسف فقد جاءت أهميتهما من الأحداث التي سجلها عن دولة سنغي بعد أن توقف والدهما عن الكتابة، ثم جاء من بعدهما ابن أخت لهما وحفيد لأبيهم محمود كعت فجمع ما ترك الجد والأخوال في كتاب عرف باسم «تاريخ الفتاش...» وقد تكلمنا عن هذا كله في تقييمنا لهذا الكتاب في صدر هذا الكتاب.

---

(١) الفتاش، ص ص ١٧٥-٧٨.

(٢) الفتاش، أماكن متفرقة.

## ٢٨- عريان الرأس (ت ١٠٢٠هـ / ١٦١١م)

هو الفقيه أبو عبدالله محمد بن محمد بن علي بن موسى عريان الرأس .  
كان من عباد الله الصالحين الزاهدين الأسخياء،<sup>(١)</sup> ومن أصدقاء الفقيه أحمد  
ابن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت<sup>(٢)</sup>، والد أحمد بابا، ومن تلاميذ  
الفقيه عبدالرحمن ابن الفقيه محمود. ويسميه أهل سنكري بـ«محمد ولد أد  
علي».<sup>(٣)</sup>

## ٢٩- الأمين بن أحمد (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م)

كان هذا الفقيه من شيوخ السعدي، والدليل على ذلك قوله: «شيخنا  
الأمين بن أحمد»<sup>(٤)</sup>، وقوله: «وكنا جماعة نعرض على شيخنا الفقيه الأمين  
كتاب دلائل الخيرات»<sup>(٥)</sup>. وقد بز أقرانه ومعاصريه من علماء تنبكت في  
المعرفة، إذ كان صاحب تخصصات متعددة نوه إليها السعدي<sup>(٦)</sup> في قوله:  
«فقيه نحوي تصنيفي لغوي، له حظ في معرفة الصحابة».

## ٣٠- عبدالرحمن السعدي (١٠٠٣- ١٠٦٦هـ / ١٥٩٦- ١٦٥٥م)

ورد اسمه كاملا في صدر كتابه «تاريخ السودان»<sup>(٧)</sup>، وهو الشيخ  
عبدالرحمن بن عبدالله بن عامر السعدي. ينتمي إلى أسرة من الفقهاء في  
تنبكت حيث كان منبته. وشهد الاحتلال المراكشي لدولته سنغي ومدينته

---

(١) تاريخ السودان، ص ٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٣.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٦-٥٥، ٢٤٧.

(٧) ورد أيضا على صفحة ٢١٣ من المصدر نفسه، ولكن يلاحظ أنه في الصفحة نفسها (٢١٣) وفي  
صفحة ٢١٦ غير كلمة «السعدي» إلى «السعيد».

تنبكت، وصور لنا جانباً مهماً من تاريخ الاحتلال المراكشي لهذه البلاد. وكان لكتابه «تاريخ السودان» الفضل الأكبر في إبراز صورة الحضارة الإسلامية في غربي إفريقية عامة، ومدينتي تنبكت وجني خاصة. فهو مؤرخ دولة سنغي الإسلامية أولاً، ودولة مالي الإسلامية ثانياً. والمتصفح لهذا الكتاب يمكنه أن يدرك مدى أهمية هذا الكتاب في تاريخ التعليم والفكر الإسلاميين وحياة العلماء في غربي إفريقية. وعن أهمية كتابه يمكن الرجوع إلى مقدمة هذا الكتاب الخاصة بمصادر الكتاب.

وقد تقلد السعدي عدة مناصب إدارية في دولة باشوات مراكش بتنبكت إلى أن وُوري الثرى.<sup>(١)</sup>

#### خاتمة :

إن هؤلاء الأعلام الذين ذكرناهم، أغنوا الحياة العلمية في غربي إفريقية عامة، وفي تنبكت خاصة. وكان مستواهم العلمي والفكري لا يقل عن المستوى الذي كان سائداً آنذاك في معاهد التعليم الإسلامي المتشرة في العالم الإسلامي. وهناك رواية مشهورة تدل على رسوخ قدم تنبكت في التعليم الإسلامي، وهي أن الفقيه عبدالرحمن التميمي، الذي جاء من الحجاز بصحبة السلطان منسا موسى حين آب من حجته المشهورة، وسكن تنبكت، وجد البلد حافلاً بالفقهاء الذين يفوقونه في العلم، فرحل إلى فاس. وتفقه هناك ثم رجع إلى تنبكت مرة أخرى ليمارس التعليم.<sup>(٢)</sup>

وكان الفقيه التميمي من المشهود لهم بالكفاءة في التعليم، حتى إن الفقيه

---

(١) تاريخ السودان، ص ٢٤٥، ٢٧٦، ٢٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥١.

سيد يحيى التادلسي كان يقول لطلبته في سنكري: «يا أهل سنكري كفاكم سيدي عبدالرحمن التميمي»<sup>(١)</sup>، وفي هذا دليل على عظم مكانته العلمية. ولقد شهد الدكتور عبدالعزيز أمين عبدالمجيد<sup>(٢)</sup> بتفوق علماء تنبكت على علماء سنار في مجال معرفة العلوم الإسلامية فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر الهجريين (الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين)، وأعطى نماذج لذلك التفوق في عدة مجالات تخصصية.

---

(١) المكان نفسه.

(٢) التريية في السودان، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٨-١٥٩.





## **الفصل السادس**

**حركة التعليم الإسلامي في معاهد جني**



## المبحث الأول





## تاريخ مدينة جني

يذكر هوجبن<sup>(١)</sup> ثلاثة آراء حول الاسم جني. الرأي الأول<sup>(٢)</sup> يقول: إن جني هو أصل الكلمة «غينيا Guinea»، والثاني يقول: إن غينيا مشتقة من غانا - غانا Gana - Gana، وهو ميناء قديم على ضفاف نهر النيجر، شمال مدينة فاو كادوس، والرأي الثالث يقول: بأن غينيا هي غانا. ويرى هوجبن أن الرأي الأول هو الذي يبدو أكثر احتمالاً.

والمؤرخ الفرنسي ر. موني R. Manuy<sup>(٣)</sup> يقول بأن الأصح أن نقول «ديني». ويلاحظ أنه يستعملها بهذه الصيغة اللفظية. ولانعلم مصدره في ذكر اللفظ بهذه الصورة، لأن أهم مصادر تاريخ هذه المدينة، وهو تاريخ السودان «وتاريخ الفتاش» و«نيل الابتهاج»، تذكر الاسم كما رسمناه: «جني».

تقع جني على مسيرة مئتي ميل إلى الجنوب الغربي من تنبكت، وتقع على الضفة اليسرى لنهر بني، أحد روافد نهر النيجر، وتقوم على هضبة صخرية وسط سهل فسيح تغطيه المياه في الخريف<sup>(٤)</sup>، وقد لاحظ الوزان<sup>(٥)</sup> هذه الظاهرة، فقال إن جني تكون أشبه بالجزيرة خلال ثلاثة أشهر من السنة -

---

(١) S.J. Hogben, The Muhamadan Emirates, op. cit., p. 41.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة جني، بقلم يفر (G. Yver)، وهو من أصحاب هذا الرأي الأول. وحول هذا المعنى يقول الوزان: «هذه المملكة - يعني جني - يسميها تجارنا Cheneea، ويسميها السكان المحليون بـ Gemi، وعند البرتغاليين وغيرهم من الإفرنج تسمى Gheneaa انظر: History and Description of Af., Vol. 111, op. cit., p. 822.

(٣) دائرة المعارف، مادة جني، بقلم موني.

(٤) المرجع نفسه، مادة جني، بقلم يفر.

وهذا التحصين الطبيعي أعطى لجني الأمن وسهولة الدفاع عنها، مما جعلها مرغوبة عند العلماء

والتجار. انظر: M.W. Sharif: Islam in Africa, p. 88.

(٥) Hist, and Desc. Vol. 111, op. cit., P, 822.

يوليو وأغسطس وسبتمبر/ تموز وآب وأيلول، وذلك نسبة لفيضان نهر النيجر. يبدو أن تأسيس مدينة جني كان حوالي القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي أو قبله، وهذا بناء على ما ذكره السعدي<sup>(١)</sup> من أن هذه المدينة «ابتدأت في الكفر في أواسط القرن الثاني من الهجرة». وربما يتساءل المرء على أي دين كانت هذه المدينة قبل أن تبدأ في الكفر، فنقول إن السعدي ربما كان يقصد أن هذه المدينة قد بدأت منذ نشأتها في منتصف القرن الثاني الهجري كافرة، لأنه يذكر بعد هذا أن تاريخ دخولها في الإسلام كان في القرن السادس الهجري (١٢م). وهناك من يرجح أن تأسيس مدينة جني يرجع إلى القرن الثالث الهجري<sup>(٢)</sup>، استناداً إلى أنه في ذلك العهد أغار النونو - وهم غزاة من ماسينا الشمالية - على البوزو الذين كانوا يقطنون الناحية التي تقوم فيها جني الآن. وسرعان ما اندمج الغزاة في البوزو، ثم رأوا أن مدينة جني جينو (جني القديمة) عاصمة النونو تضيق بهم، فانتقلوا إلى هضبة صحراوية تبعد ناحية الشمال قليلاً، وابتنوا فيها مدينة جني الحالية. وكانوا في ذلك العهد وثنيين، ولكنهم بادروا إلى الإسلام.

أما تاريخ دخول الإسلام في هذه المدينة فيبدو أنه قديم، ومن رواية السعدي<sup>(٣)</sup> عن دخول ملوكها في الإسلام لأول مرة يظهر لنا صواب هذا الرأي؛ فالرواية تقول: «أسلموا عند تمام القرن السادس، والسلطان كنبر هو

---

(١) تاريخ السودان، ص ١.

(٢) دائرة المعارف: مادة جني، بقلم ج. يفر. وعن الآراء الأخرى انظر: مادة جني بقلم ر. موني. وهو يرى أن تأسيسها كان في القرن السابع الهجري، ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م، ويرى بارث أنها تأسست عام

٤٣٥هـ / ١٠٣٣-١٠٣٤م انظر: Barth, Travels, Vol. 4, p. 583.

نقلاً عن حاشية «تاريخ ووصف إفريقية» للوزان، بقلم جون بوري، ص ٨٤.

(٣) تاريخ السودان، ص ١٢.

الذي أسلم وأسلم أهلها بإسلامه. ولما عزم على الدخول في الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة فحصل منهم أربعة آلاف ومثني عالم فأسلم على أيديهم. وهذه الرواية تفيد بأنه كان هناك مجتمع إسلامي في جني كما كان الحال بالنسبة للمنطقة القديمة، وأن في هذا المجتمع الإسلامي عدد كبير من العلماء. ومجتمع هذا شأنه لا بد أن يكون عريقا في الإسلام، وأن الذي أسلم في القرن السادس الهجري هو الملك وحاشيته وبعض الرعية، أما ما عدا ذلك فقد دخلوا في الإسلام قبل القرن السادس الهجري بكثير. (١)

وعندما أسلم الملك كئبر قام بهدم القصر الملكي (دار السلطنة) وبنى مكانه جامعا لأهل جني، وشيد قصره الملكي بالقرب من هذا المسجد الجامع. (٢)

وقدم الإسلام في هذه المدينة كما ذكرنا له ما يبرره، وهو أن هذه المدينة كانت في موقع جغرافي مختار، مكنها من أن تكون مركزا تجاريا مهما للتجارة القادمة من شمالي إفريقية عبر تنبكت والتجارة القادمة من منطقة الغابات جنوبي جني. وقد تكلم السعدي عن هذه الميزة كما أثبتناه في مكانه. وتكلم قبله فالنتين فيرناندز «Valentin Fernandes» (٣) في سنة ١٥٠٦م، إذ يقول عنها ما ترجمته: «جني مدينة كبيرة، أقيمت من الصخر والحجر الجيري، يحيط بها

---

(١) انظر: الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٤.  
Trimingham: A History of Islam in W.A. op. cit., p.31.

(٢) تاريخ السودان ص ١٣.

(٣) سمع هذا المؤرخ هذا الوصف عن تجارة جني من تاجر مراكشي  
Levtzion, Muslims and Chiefs, op. cit., p. 4.

واسم كتاب فالتين نقلا عن لفترزون هو:  
Description de la Cote d'Afrique de Ceuta au Sènegal, pp. 85-87.

سور، ويفد إليها التجار الذين يزورون مناجم الذهب، وهؤلاء المتاجرون يتمون إلى جنس واحد بعينه هو الونغارا. وحين يقبل هؤلاء على جني... يجلب كل تاجر معه مئة أو مئتين أو أكثر من الحمالين ليحملوا الملح على رؤوسهم من جني إلى مناجم الذهب، وليعودوا بالذهب، والتجار الذين يتجرون مع مناجم الذهب يتعاملون بمبالغ كبيرة، وبعضهم يعقد صفقة قد تبلغ مئتين ألف مثقال، بل إن الذين يكتفون منهم بجلب الملح فحسب تبلغ صفقتهم عشرة آلاف مثقال...».

وفي مطلع القرن السادس عشر الميلادي زارها الحسن الوزان، ولاحظ ازدهارها تجاريا. وذكر أن حركة التجارة لا تتوقف حتى في شهور الفيضان الذي يجعل من جني جزيرة، ففي هذه الفترة يأخذ تجار تنبكت بضاعتهم في قوارب جيئة وذهابا، لا يحول دون عملهم الدؤوب إلا الليل.<sup>(١)</sup> وقد نما وزكا هذا الازدهار خلال القرن السابع عشر، مما حدا بالسعدي<sup>(٢)</sup> أن يقول: «وهي مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة». ويقول في موضع آخر: «وأرضها منعمة عامرة معمرة بالأسواق في أيام الأسبوع كلها»<sup>(٣)</sup>.

وكان بها سبع وسبعون ألف قرية كما قيل للسعدي<sup>(٤)</sup>، وعلى الرغم مما يبدو من المبالغة في العدد إلا أنه يوضح إعجاب السعدي بهذه المدينة، لاسيما وأنه قد عمل بها في فترة من فترات حياته.<sup>(٥)</sup>

وكما رأينا فالمدينة قبل أن يسلم ملكها كانت تعج بعلماء المسلمين، وهذا

---

(١) Leo Africanus, op. cit., Vol 111. pp. 822-823.

(٢) تاريخ السودان، ص ١١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المصدر نفسه، مثلا ص، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٧٥.

بدوره يلقي ضوءاً على مكانتها كمركز تعليمي وثقافي مهم في غربي إفريقية منذ وقت مبكر، ثم قوي مركز الإسلام رسمياً عندما أسلم الملك كنبر وأقام مسجداً في المدينة، أصبح فيما بعد من أشهر مساجدها، وأضحى مركزاً ومعهداً للدراسات الإسلامية. وعندما بدأ التاريخ المسجل لهذه المدينة على يد عبدالرحمن السعدي، عرفت أسماء كثيرة من علماء هذه المدينة كان لها دورها الفعال في مجال التعليم والقضاء والإفتاء والإمامة. وقد عقد السعدي باباً خاصاً عن هذا الموضوع.

وظلت شهرة المدينة المزدوجة بالتجارة والدين مستمرة حتى بعد الاحتلال المراكشي لها، ونافست تنبكت في هذه الناحية.

أما تاريخ الحكم في هذه المدينة فقد كان في البداية ينحصر في نطاق السكان المحليين من القبائل في جنبي، وكانوا يصدون كل من يحاول انتزاع السلطان من أيديهم، فقد حاربوا دولة مالي حروباً كثيرة، وغلبهم أهل مالي بقيادة سلطانهم ماري جاطة (ت ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م)، وأصبحت من ثم أهم أسواق قبائل الفولاني والولوف والسرركولة، وعرفت بعمل القماش<sup>(١)</sup>. واحتفظت القيادات المحلية بالسلطان الفعلي في جنبي، وفي نهاية القرن الخامس عشر غلبهم على أمرهم أيضاً سلطان سنغي سني علي، حوالي سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م، وهو الذي طوعهم وملكهم بعدما حاصرهم في تلك المدينة سبع سنين وسبعة شهور وسبعة أيام<sup>(٢)</sup>، وبعد الصلح ترك الملك المحلي في مكانه مع الاعتراف بالسيادة العليا لسنغي<sup>(٣)</sup>.

---

(١) الدكتور زكي، الإسلام والمسلمون، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٤.

(٢) تاريخ السودان، ص ١٤، وهناك رواية أخرى يرويها السعدي على لسان محمد عريان الرأس بأن الحصار استمر أربعة أعوام، انظر المصدر نفسه، ص ١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥.



وظلت جني تحت حكم سنغي إلى أن استولى عليها المراكشيون في عهد أحمد الذهبي سنة ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م<sup>(١)</sup>. وظل الحكم المراكشي قائما فيها حتى مطلع القرن (١٣هـ / ١٩م). وكان يمثل الشريف المراكشي في جني أحد الباشوات، ثم أصبح يمثله حاكم يعاونه أمين وقائد. وكان هؤلاء العمال يقومون على شؤون الإدارة المحلية التي كانت في يد زعيم من أهل البلاد ويعرف بـ«جني - كوي»<sup>(٢)</sup>. ويدفعون كل عام إتاوات ضخمة للحكم المراكشي<sup>(٣)</sup>.

وفي القرن (١٢هـ / ١٨م) أخذت قبائل البمبارة تغير على هذه المدينة، ثم ازدادت هذه الغارات شيئا فشيئا، بل إن أحد زعمائهم المدعو نجولو أفلاح في الاستيلاء على إقليم جني بأكمله ماعدا العاصمة، وذلك في النصف الثاني من القرن (١٢هـ / ١٨م)<sup>(٤)</sup>.

وفي سنة ١٢٢٤هـ / ١٨١٠م استولى عليها أحمد شيخو لوبو زعيم قبائل الفولاني، وترك الإدارة المحلية في يد زعيم من أهل البلاد تحت إشراف أحد عماله، وجعل مدينة جني مركز قيادة أمير جيشه<sup>(٥)</sup>.

وفي القرن (١٣هـ / ١٩م) حل بها ما حل بسلطنة أحمدو لوبو الفولانية، إذ استولى عليها الحاج عمر الفوتي زعيم التجانية في سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م، وظلت في حوزة خلفائه حتى سنة ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م، ثم احتلها الفرنسيون بقيادة الكولونيل ارشينار<sup>(٦)</sup>.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٨، وما بعدها؛ دائرة المعارف، مادة جني، بقلم يفر.

(٢) دائرة المعارف، مادة جني، بقلم يفر.

(٣) قدام، مرجع سبق ذكره، ص ٧٨.

(٤) دائرة المعارف، مادة بمبارة.

See: El-Nagar, op. cit., p. 51.

(٥) دائرة المعارف، مادة جني، بقلم يفر.

(٦) المرجع والمادة والكاتب نفسها.

وتحت الحكم الفرنسي لم تعد جني كما كانت من قبل، ذلك أن الأسباب التي كانت من قبل مصدر قوتها أصبحت في القرن العشرين مصدر ضعفها، وحلت محلها في المكانة التجارية مدينة مويتي، عند ملتقى نهر تبني بنهر النيجر، ويصلها سد بالأرض اليابسة. (١)

وقد احتفظت المدينة بمبانيها القديمة الجلييلة من الطراز الذي تفردت به، وهو الطراز الذي انتشر الآن وعرف بالطراز السوداني، وأعيد بناء مسجدها القديم - الذي شيد قبل القرن (١٣هـ / ١٩م) - على الطراز القديم وعلى غرار المسجد الأول. (٢)

---

(١) المرجع نفسه، مادة جني، بقلم موني.

(٢) المرجع والمادة والكاتب نفسها.



## المبحث الثاني



## أشهر معاهد جنني وعلمائها

إن أشهر معاهد جنني التعليمية هو مسجدها الجامع الذي بناه السلطان كبر عندما أشهر إسلامه في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وهناك رواية تقول بأن مصمم هذا المسجد هو المهندس المراكشي إدريس، وقد كرر قدام هذه الرواية أكثر من مرة<sup>(١)</sup>، ولا نعلم مدى صحتها، لأن بعض المعلومات التي يوردها قدام، وخاصة المعلومات التي تتعرض للتاريخ القديم لهذه المنطقة، لا تطابق ما جاء في المصادر الأصيلة، من ذلك ذكره أن «محمد نضر» الذي يسميه: «محمد نادي» خطأ، كان من المعماريين الإفريقيين، وذكره أن مسجد جنني بني في القرن (٨٨هـ / ١٤م)<sup>(٢)</sup>، بينما يذكر السعدي<sup>(٣)</sup> أنه بني في القرن (٦هـ / ١٢م)، وأشياء أخرى كثيرة لامجال لذكرها في هذا الكتاب. ويعاب عليه إهمال ذكر المصادر.

ومهما اختلفت الروايات حول من بنى مسجد جنني، ومتى كان ذلك، فالذي يهمنها كثيرا أن هذا المسجد أصبح منذ تأسيسه مركزا ومعهدا للدراسات الإسلامية، وكان مثالا مصغرا لمعاهد تنبكت.

لم تخل هذه المدينة العريقة من بعض المدارس القرآنية أو المعاهد التعليمية المنفصلة عن المسجد إلى جانب المساجد كمعاهد تعليمية، والدليل على ذلك أنه عندما دخلها الاستعمار الفرنسي كانت بها خمس عشرة مدرسة وكثير من الكتب الدينية الإسلامية.<sup>(٤)</sup>

---

(١) إفريقية الغربية في ظل الإسلام، ص ٧٩، ١٦٠.

(٢) الأمكنة نفسها.

(٣) انظر: تاريخ السودان، ص ١٦.

(٤) المرجع السابق، الأمكنة نفسها.



إن السعدي<sup>(١)</sup> يذكر لنا عددا ضخما من العلماء الذين كانوا في جني عندما أسلم ملكها كنبر، ولكنه لم يسجل لنا بعض أسماء هؤلاء العلماء، ولعل السبب في ذلك هو الفارق الزمني بين عصره وعصر هؤلاء العلماء، لأنه عاش في القرن (١١هـ / ١٦م)، وعاش هؤلاء قبله بحوالي خمسة قرون. أما عندما أصبح الزمن قريبا من زمنه فهو يعطي كثيرا من المعلومات وأسماء العلماء الذين هاجروا إلى مدينة جني منذ منتصف القرن (٩هـ / ١٥م)، ولكنه مع هذا يتعرض لسيرة نفر قليل منهم، لأن غرضه الأول كان في ذكر علماء تنبكت. نذكر في الصفحات التالية أهمهم:

#### ١ - مورمغ كنكي

إن أول من يذكر السعدي من العلماء الوافدين على جني من المناطق المجاورة هو «مورمغ كنكي»<sup>(٢)</sup>، الذي جاء إلى جني من كابرأ بعد أن تلقى تعليمه فيها، وذلك في منتصف القرن (٩هـ / ١٥م) كما يقول السعدي<sup>(٣)</sup>، ولكننا نرى أن فترة وجوده في جني كانت قبل تولي أسكيا موسى بن أسكيا الحاج محمد (٩٣٥ - ٩٣٨هـ / ١٥٢٨ - ١٥٣١م)، لأنه في فترة حكم أسكيا موسى كان في بلدة جنج التي رحل إليها كما سيأتي ذكره. والدليل على ذلك أنه خرج مع طلبته من جنج لمقابلة أسكيا موسى إثر عودته من حملته ضد أخيه عثمان، الذي كان ينازعه السلطة بعد عزل موسى لوالده أسكيا محمد<sup>(٤)</sup>. وسبب خروج مورمغ لمقابلة موسى هو طلب العفو عن قائدين من الذين كانوا

---

(١) تاريخ السودان، ص ١٤٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢.

(٣) تاريخ السودان، ص ١٦، ٨٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٤.

في صف عثمان. وأجيب الفقيه مور إلى طلبه. (١)

وفي ضوء هذا يمكننا أن نقول بأنه قدم إلى جني في الثلث الأول من القرن (١٠هـ / ١٦م)، وليس منتصف القرن (٩هـ / ١٥م) كما يقول السعدي، وربما تكون رواية السعدي أقرب إلى الصواب لو قال بمجيء هذا العالم إلى جني حول نهاية القرن (٩هـ / ١٥م)، وتأسيسا على ذكر تاريخ مبكر لقدم كنكي نراه يذكره قبل محمد الونكري.

لقد كان مورمغ من العلماء الفقهاء، وفور حلوله بهذه المدينة تقاطر عليه الطلبة للإفادة منه (٢). وكان نشطا في أداء رسالة العلم، يخرج من داره في منتصف الليل إلى مقر إلقاء دروسه في المسجد الجامع بجني، ويجلس الطلبة حوله يتلقون الدروس حتى إقامة صلاة الصبح، ثم يعودون إليه بعد الصلاة فيستمر معهم إلى وقت الزوال، ثم يعود إلى داره لأخذ قسط من الراحة ليعود لحلقة الدروس بعد صلاة الظهر، ويجلس إلى طلبته حتى صلاة العصر (٣). وكان مواظبا على هذه الحال حتى علم أن هناك من لا يرغب في وجوده بجني، فارتحل إلى بلدة كونا، ثم إلى جنج التي أكرمت وفادته، ومات بين ظهرائي أهلها معلما ومرشدا. (٤)

## ٢ - محمد سانوا الونكري (٥)

هو فودي الفقيه محمد سانوا الونكري. كان فقيها وعابدا صالحا، قدم إلى جني في أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وكان أول سكنه في

(١) المصدر نفسه، ص ٨٤-٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٤-٨٥، ١٦.

(٥) نسبة إلى ونكر في منطقة وانغارا، انظر المصدر نفسه، ص ١٦.

قرية تسمى طوراً<sup>(١)</sup>، بالقرب من جنى، ويأتى من هذه القرية إلى جنى لأداء صلاة الجمعة بمسجدها الجامع حتى تألفت قلوب سلطان جنى وأهلها معه، وعند ذلك طلب منه السلطان أن يسكن فى جنى، فقبل الطلب<sup>(٢)</sup>، وتمكن من التأثير فى السلطان بمواعظه وقوة حجته حتى حمّله على تخريب بيت الصنم الذى كان يعبدّه الوثنيون من قومه، وبنى فى هذا المكان داراً لإقامة الفقيه محمد الونكرى، وأحاطه بمظاهر التبجيل والاحترام<sup>(٣)</sup>. وأصبح بعد ذلك من أهل الشفاعة لدى السلطان على الرغم من أنه لا يخالط السلطان أبداً<sup>(٤)</sup>. وهذا دليل على مكانته ومكانة أمثاله من العلماء لدى السلطان.

لم تكن مكانته العالية فى جنى فقط، بل تعدتها إلى تنبكت. فعندما زار القاضي محمود بن عمر أقيت مدينة جنى فى<sup>(٥)</sup> مطلع القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى)، التقى بهذا العالم، فأعجب به كثيراً، ونقل هذا الإعجاب إلى مسامع أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد. وكانت النتيجة أن ولاء أسكيا محمد قضاء مدينة جنى بعد عودته من الحج<sup>(٦)</sup>، حوالى سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م.

وكان تولّى هذا الفقيه منصب القضاء فى جنى نقطة تحول كبيرة فى تاريخ القضاء الإسلامى بهذه المدينة، إذ إنه فى السابق لم يكن الشرع يطبق عند الفصل بين الناس فى خصوماتهم وقضاياهم، بل كانوا يحتكمون إلى خطيب المسجد الجامع،

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٦.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

(٦) المكان نفسه.

الذي يسعى بينهم بالصلح<sup>(١)</sup>، ولم يعرف منصب القاضي إلا عندما نصب محمد  
الونكري<sup>(٢)</sup>، ومرد ذلك كله إلى مكانة هذا الفقيه العلمية.

### ٣- محمود بغنغ

هو القاضي محمود بن أبي بكر بغنغ، والد العالمين: الفقيه محمد بغنغ  
والفقيه أحمد بغنغ<sup>(٣)</sup>. وأصله ونكري كسابقه محمد سانوا. تولى قضاء جنبي  
بعد وفاة الفقيه القاضي العباس كب الونكري<sup>(٤)</sup>، في العام التاسع والخمسين  
بعد التسعمئة الهجري (سنة ١٥٥١م) على يد أسكيا إسحاق بن أسكيا الحاج  
محمد<sup>(٥)</sup>. وعن هذا القاضي يقول السعدي<sup>(٦)</sup>: «كان فقيها عالما جليلا».

لقد كانت أسرة بغنغ عامة من الأسر العلمية المشهورة في تاريخ التعليم  
والقضاء في غربي إفريقية عامة، وتنبكت خاصة.

ويلاحظ أن العلماء من الأصل الونكري كانوا كثيرين في جنبي، مثل  
أسرة بغنغ، وأن آخر القضاة السودانيين في جنبي كان ونكريا، وهو القاضي  
محمد بنب كنات، الذي تولى القضاء بعد وفاة القاضي موزب بكر تروري<sup>(٧)</sup>،  
ثم بعد ذلك تولى منصب القضاء جماعة من أسر ذات أصل مغربي أو عربي.  
وهناك شخصيات ذكرها السعدي<sup>(٨)</sup> من علماء جنبي وقضاتها ولكنه لم  
يقف عند أكثر من ذكر من الأسماء، ومن أولئك: القاضي العباس كب،

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٣) انظر ص: ٣٥٠ من هذا الكتاب.

(٤) تولى القضاء بعد محمد سانوا.

(٥) تاريخ السودان، ص ١٩.

(٦) المكان نفسه.

(٧) المكان نفسه. هذا القاضي من أولاد سلاطين جنبي، زهد في السلطنة وتفرغ لخدمة العلم.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٩-٢٠.

والقاضي فوك، والقاضي كنجي، والقاضي تتاع، والقاضي سنقم، والقاضي  
عمر ترف، والقاضي تلماكلس، والقاضي أحمد ترف بن القاضي عمر ترف،  
والقاضي موزب بكر تروري، والقاضي محمد بنب كنات.

## **الفصل السابع**

**تاريخ حركة التعليم الإسلامي**

**في بلاد الهوسا**





## تمهيد:

يختلف الكتاب في رسم «هوسا»<sup>(١)</sup>، فمنهم من يقول «حوسا»<sup>(٢)</sup>، ومنهم من يقول «حوصا»<sup>(٣)</sup>، وغير ذلك مما يشبه هذا الرسم<sup>(٤)</sup>. وقد اعتمدنا هنا الاسم «هوسا» لاستخدامه من قبل المؤرخين من أبناء المنطقة.

أما الأسم «هوسا» من حيث معناه فهو تعريف لغوي أكثر منه عرقياً<sup>(٥)</sup>. وحتى التعريف اللغوي لا يعني وجود الوحدة اللغوية الكاملة في ذلك الوقت من القرن السادس عشر عندما تميزت دويلات الهوسا<sup>(٦)</sup>، ومن ثم ليس هناك جنس يمكن أن يسمى جنس الهوسا، كما أن لغة الهوسا متشرة على نطاق واسع في غربي إفريقيا، فهي لغة المعاملات التجارية والمالية.<sup>(٧)</sup>

وقد رأينا نشاط هذه الفئة تجارياً في بلدان غربي إفريقيا المختلفة. لم تكن بلاد الهوسا في وحدة سياسية متكاملة قبل قيام دولة الفولاني في مطلع القرن (١٣هـ / ١٩م)، بل كانت إمارات مستقلة ومتنافرة ومتحاربة في كثير من الأحيان. ويكاد المؤرخون يجمعون على وجود سبع إمارات قامت في وقت مبكر في أرض الهوسا، وهي: كانو، رانو، زاريا، دورا، غوبير كاتسينا،

---

(١) انظر: الدكتور شيخو، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣.

الدكتور علي أبوبكر، مرجع سبق ذكره، أماكن متفرقة.

(٢) انظر: إنفاق الميسور، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤.

(٣) انظر: د. حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ١١٦.

(٤) د. حسن محمود، دور العرب في نشر الحضارة، مرجع سبق ذكره، ص ٧٩.

(٥) حسن إبراهيم، المرجع السابق، ص ١١٦.

See: A. Burns, History of Nigeria, op. cit., p. 46.

Trimingham and Others, op. cit., p. 18.

Loc. cit. (٦)

(٧) حسن إبراهيم، المرجع السابق، ص ١١٦.

زنفرة<sup>(١)</sup>. وبجانب هذه الإمارات السبع تعرض المؤرخون لتاريخ إمارات أخرى أهمها إمارة كبي<sup>(٢)</sup>، وهي زعيمة الاتحاد ضد الغزو الخارجي، وصمودها في وجه آسكيا الحاج محمد وملوك البرنو دليل على ذلك.

لقد كانت هذه الإمارات وريثة إمبراطورية كبي التي قامت في بداية القرن (١٠هـ / ١٦م)<sup>(٣)</sup>. وكان ملكها يلقب بـ«كانتا». وقد استطاع كانتا الأول أن يقهر البلاد التي حوله، وأن يملك منها الأقاليم والدواني، فشمّل سلطانه كاتسينا وكانو وغوبير وزاريا، كما غزا برنو وغيرها من الأقاليم المجاورة شرقا. وبعد هزيمة دولة سنغي على يد هذه الإمبراطورية، امتد نفوذها فسيطرت على أقاليم أخرى، ولكنها تركت حكم البلاد التي قهرتها إلى قادتها، فيما عدا بعض الأجزاء مثل زنفرة ووانغارا.<sup>(٤)</sup>

وإذا أمعنا النظر في هذا الإجراء نجده ينطوي على أهمية كبرى، إذ إن زنفرة من المدن المهمة اقتصاديا بالنسبة للدولة. أما وانغارا فهي منطقة الذهب ذات الشهرة العظيمة في تاريخ غربي إفريقيا الاقتصادي. لذا كان بعد النظر السياسي والاقتصادي يقتضي الإشراف عليها مباشرة.

---

(١) انظر: حسن إبراهيم، انتشار الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ١١٦.

Bovill, Golden Trade of the Moors, p. 220.

من الملاحظ أن بعض هذه الإمارات السبع لها أسماء مرادفة مثل زاريا التي يقال لها أيضا «زكرك» وكاتسينا التي يقال لها «كشنة». وأحيانا يختلف رسم بعضها لدى بعض المؤرخين مثل «دورا» تذكر أحيانا بدون ألف، وغوبير تذكر أحيانا بالجيم «جوبير» وكانو تذكر كنو أو كنوا أو كَانُوا، وزنفرة تذكر «زامفارا»، وقد اعتمدنا هنا إما على التسميات الحديثة أو تسميات بللو في إنفاق المسور.

انظر: إنفاق المسور، ص ٤٤، ٥٠ وللترجمة أثر في اختلاف رسم بعضها.

(٢) انظر: الإنفاق، ص ٤٦. Golden Trade, p. 220.

(٣) انظر: حسن إبراهيم، انتشار الإسلام، ص ١١٧، الحضارات الإفريقية ص ٥٤، الإنفاق، ص ٤٦.

Trimingham: A History of Islam in W.A., P. 135.

Trimingham: A Hist. of Islam in W.A., p. 135. (٤)

ولما كانت إمارات الهوسا ذات أهمية اقتصادية فقد طال الصراع بينها وبين حكام سنغي وبرنو، حتى إن نهاية آل كانتا كانت على يد البرنو سنة ٩٥٢هـ / ١٥٤٥م في عهد الملك علي بن إدريس البرنوي، وتولى بعده كانتا الثاني الذي عاصر السلطان آسكيا داود، وجرت بينهما مناوشات حربية سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥٢م، انتهت بمعاهدة صلح، واستطاع الملوك الذين جاؤوا بعد كانتا الأول أن يحافظوا على هذه الإمبراطورية مدة نصف قرن، ولكن صراعهم ضد ملوك برنو وسلاطين سنغي أثر فيهم، فأخذت الإمبراطورية في الانحلال والضعف. (١)

وإذا كانت إمبراطورية كبي قد ضعفت بسبب الصراع في الشرق ضد حكام برنو، وفي الغرب ضد سلاطين سنغي، فإن هاتين الدولتين ضعفتا أيضا، فالغزو المراكشي قضى على دولة سنغي، كما لم يستطع ملوك برنو أن يحتفظوا بعظمة هذه المملكة، وهيا هذا الوضع لإمارات الهوسا أن تأخذ الزمام التجاري والثقافي والسياسي في هذه المنطقة (٢). وكان بروزها هذه المرة تحت إمارة كاتسينا، إذ أن المجرى الرئيس للحركة التجارية مع شمالي إفريقيا تحول شرقا إلى بلاد الهوسا، وقفزت إمارة كاتسينا بصفة خاصة إلى مكان الصدارة والشهرة في عالم التجارة والحضارة، وسرعان ما أخذت القيادة السياسية أيضا تحت قيادة حاكمها «جاني هادوبكي» (١٠٢٨-١٠٥٨هـ / ١٦١٨-١٦٤٨م)، فمدت نفوذها إلى رادي في الشمال وزنفرة في الغرب وبنين وجواري في الجنوب. (٣)

ولم يمتد الزمن بإمارة كاتسينا كثيرا في مركز الزعامة، فأخذ نجمها في

---

(١) الدكتور شلبي، موسوعة الحضارة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٣.

(٢) المكان نفسه، نقلا عن: Fage, W.A. P. 38.

(٣) Trimingham: A History of Islam, p.136.

الأفول، وكذلك إمارة زانفرة التي حاولت أن تترث كبي في القوة خلال القرن (١٣هـ / ١٩م)، وسارت في طريق ذلك عدة خطوات عندما سلخت الكثير من أجزاء إمبراطورية كبي واستولت على بعض أجزاء كاتسينا<sup>(١)</sup>. ولكن لم يدم ذلك طويلا فقامت في وجهها إمارة غويير في عهد سلطانها محمد بن شروم، الذي قلم أظافر زنفرة بالاستيلاء على ما أخذته من كبي، وابتلع زنفرة نفسها ومعها كثير من الإمارات الأخرى<sup>(٢)</sup>، وأضحت بذلك الإمبراطورية الهوسية الثانية بعد كبي، وخليفتها في السيادة على أرض الهوسا، وشملت فوق ذلك أراضي غير هوسية مثل اليوريا، حتى غدا اسم غويير مرادفا لاسم هوسا، وأطلق أهل اليوريا على كل هوسي اسم غوييري<sup>(٣)</sup>. ولغويير شأن آخر مع المجاهد الإسلامي المعروف عثمان بن فودي، وسنعالج ذلك فيما بعد.

ولموقع إمارات الهوسا بالقرب من دولة برنو شرقا، وقبائل التوارق (الطوارق) شمالا، كان لابد أن يترك هذا الموقع أثرا في حضارة هذه الإمارات، فإذا نظرنا مثلا إلى التنظيم السياسي، نجده يشبه ماكان قائما في برنو أو كانم قبلها، مما حدا ببعض المؤرخين<sup>(٤)</sup> لأن يقول بأنه ربما كانت هذه الدويلات فروعاً تابعة لكانم وبرنو، وشكل هذا التنظيم الذي يشير إليه هذا المؤرخ هو الشكل الإقطاعي.

أما أثر البربر فيبدو واضحا في لغة الهوسا التي قام الباحثون بتصنيفها،

---

(١) الإنفاق، ص ٤٦ (ويللو يسمي كبي: «كب» وزمفارا: «زنفرة».

(٢) إنفاق الميسور، ص ٤٧.

(٣) الألوري، الموجز، ص ٨٣.

(٤) د. هـ. جونز: شعوب ممالك السودان الأوسط، مرجع سبق ذكره، ص ٤٦.

فظهر أنها أقرب إلى لغة البربر من أي لغة أخرى من لغات غربي إفريقية<sup>(١)</sup>،  
ولكن بوصول الدماء العربية إلى هذه المنطقة منذ مطلع العصور الحديثة ظهر أثر  
اللغة العربية في لغة الهوسا بنسبة كبيرة.<sup>(٢)</sup>

وبعد هذه اللوحة العابرة والعامية عن بلاد الهوسا، اخترنا إمارتين  
هوسيتين لتكونا موضع بحثنا الخاص بالتعليم الإسلامي، وهما: كانو  
وكاتسينا، بالإضافة إلى دور دولة الفولاني الإسلامية - التي خلفت هذه  
الإمارة - في التعليم في بلاد الهوسا.

---

(١) المكان نفسه.

(٢) د. علي أبوبكر، مرجع سبق ذكره، أماكن متفرقة.





## المبحث الأول



## تاريخ حركة الإسلام والتعليم الإسلامي في معاهد كانو

لمعرفة تاريخ التعليم في كانو لابد لنا أن نعرف أولاً تاريخ الإسلام في كانو.

يقول الألوري<sup>(١)</sup>: إن فجر الإسلام قد انبثق في سماء بلاد الهوسا في أواخر القرن الأول الهجري الذي فتح فيه المسلمون العرب شمالي إفريقيا. ويذكر المؤرخون أن عقبة بن نافع الفهري، بعد أن حط الرحال بمدينة غدامس سنة ٤٦هـ / ٦٦٦م، فكر في التوغل جنوباً، وافتتح في توغله بلدة ودان، ثم مدينة فزان، ثم إقليم كوار<sup>(٢)</sup>. وكوار هذه لا تبعد كثيراً عن حدود بلاد الهوسا الشمالية؛ فلو أنه واصل ذلك الزحف جنوباً لوصل إلى نيجيريا. ويبدو أن السبب في عدم مواصلة الزحف جنوباً يرجع إلى عدم معرفة أهل كوار لمن وراءهم حينما سألهم عقبة قائلاً: «هل من ورائكم أحد؟» فلم يعلموا من وراءهم، فكر راجعاً إلى قصر حاوان الواقع في إقليم كوار<sup>(٣)</sup>. ولم تعقب هذه محاولة أخرى من العرب المسلمين، وذلك لصعوبة الوصول إلى هذه المناطق البعيدة، بل وجه العرب المسلمون اهتمامهم إلى ناحية الشمال، إلى الأندلس، تاركين انتشار الإسلام في غربي إفريقيا لتقوم به قبائل البربر المجاورة لها بعد أن تمكن الإسلام من نفوسهم، ثم سلّموا الزمام بعد ذلك للقبائل السودانية الغربي إفريقيا لتكمل المهمة، وقد تكلمنا عن هذا في مكانه.

(١) موجز تاريخ نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥.

(٢) البكري، المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٣.

(٣) المكان نفسه. ولعلهم كذبوا عليه، لأنه يصعب تصديق جهلهم بمن وراءهم، ولأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين شمالي وغربي إفريقيا.

وقد ساعد قيام الدول الإسلامية في غربي إفريقيا، مثل مالي وسنغي وكانم وبرنو على تغلغل الإسلام في هذه المناطق، كما سذكركه في مكانه. ولعدم وجود تاريخ قاطع مكتوب عن بداية دخول الإسلام إلى مناطق الهوسا نلاحظ أن المؤرخين يميلون إلى القول بأن مطلع القرن (٨هـ / ١٤م) كان بداية لدخول هذه المنطقة في الإسلام<sup>(١)</sup>، لوجود ما يثبت ذلك من التاريخ المكتوب، ولكننا نذهب مع الألوي إلى أن الإسلام قديم في هذه البلاد، وأن العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين شمالي وغربي إفريقيا عامة، لابد أن تترك أثرها في بلاد الهوسا عندما أصبحت التجارة إسلامية. أما القرن الرابع عشر، فهو الفترة التي وصلنا فيها تاريخ مسجل لدخول الإسلام في هذه المنطقة، وكان اعتناقه لافتاً للنظر، لوجود حكام أسلموا وأخذوا ينافحون عن الإسلام.

يقول التاريخ المكتوب بأنه منذ القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) بدأت بعض التيارات الإسلامية تفد إلى منطقة الهوسا من ناحية الغرب على أيدي فقهاء من مالي<sup>(٢)</sup>. وهناك تيار إسلامي ثان وفد من الشمال الإفريقي على أيدي فقهاء من المغرب، أمثال محمد بن عبدالكريم المغيلي<sup>(٣)</sup>، وتيار ثالث مصدره بلاد برنو في الشرق، ثم تيار رابع رأسه تجار تنبكت وجني الذين كانوا يترددون على أسواق كانو وكاتسينا في أواخر القرن (٩هـ / ١٥م) وأوائل (١٠هـ / ١٦م)، إبان انتعاش ممالك الهوسا، واستقرار أولئك التجار في

---

(١) Islam in Tropical Africa, op. cit., p. 304.

(٢) See: H.R. Palmer: The Kano Chronicle, op. cit., p. 70.

(٣) الألوري، الموجز، ص ٨٠؛ الإسلام وحركات الفلان الإصلاحية في غربي إفريقيا، بحث للدكتور مصطفى محمد مسعد، نشر بمجلة جامعة أم درمان الإسلامية: العدد الأول (سنة ١٩٦٨م) انظر: ص ١٢٤-١٢٥، نيل الابتهاج، ورقة ٣٠٤.

هذه البلاد، والقيام على تدريس علوم الدين الإسلامي، ونشر المذهب المالكي. (١)

وساعد على ازدياد قوة التيار الإسلامي في القرن السادس عشر خضوع إمارات الهوسا الإسلامية لدولة سنغي الإسلامية. وبعد سقوط هذه الدولة وخضوع تنبكت وجني للسلطات المراكشية اجتذب بلاط كل من كانو وكاتسينا الكثير من علماء هاتين المدينتين، حيث وجدوا الحماية والتشجيع وإكرام الوفاة والرعاية. (٢)

لقد كانت هذه الجهود تجري في نطاق ضيق، فلم تنحسر الوثنية، وظلت تطل برأسها، وحجبت كل نشاط إسلامي، لاسيما في القرنين السابع عشر والثامن عشر وحتى قيام الفولاني بثورتهم الإصلاحية المشهورة في مطلع القرن التاسع عشر. (٣)

#### أ - كانو

تعتبر كانو أهم ولايات الهوسا في الفترة الإسلامية، ويرجع تاريخها المدون إلى القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري). والحولية<sup>(٤)</sup> التي دونت تاريخ هذه المدينة تذكر أن أهل كانو ينحدرون من رجل يسمى دالا «Dala»،<sup>(٥)</sup> تصفه الحولية بأنه كان ضخم الجسم، أسود اللون، قوي البنية، ويمتحن الصيد، ويأمكنه سلخ الفيل بعصاه، وحمله على رأسه لمسافة تسعة أميال تقريبا. (٦)

(١) M.R.Waldmen: "The Fulani Jihad", J.A.H. Vol. IV (1955), p. 333.

الإسلام وحركات الفلان المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٢) الإسلام وحركات الفلان، المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

(٤) The Kano Chronicle, p. 63.

(٥) دالا اسم رجل وصخرة كما جاء في تعليق بالمر بحاشية ص ٦٣ من الحولية.

(٦) Loc. cit.



كان دالا مجهول الأصل، ولكنه جاء إلى أرض كانوا وبني منزلاً على رأس جبل يعرف بجبل دالا<sup>(١)</sup>. وهنا عاش مع زوجته وأطفاله السبعة - أربعة ذكور وثلاث إناث - أكبرهم غاراغج<sup>(٢)</sup>. وكان غاراغج هذا جد بوزامامي والد بربوشي، وربوشي من أشهر رهبانهم وزعمائهم لمهارته في الشعائر الوثنية التي ورثها عن أجداده في جبل دالا<sup>(٣)</sup>. وعن طريق هذه المهارة أصبح السيد الأعلى والزعيم الأوحـد في قومه، ولا ينزل عن جبل دالا إلا يوم العيد<sup>(٤)</sup>. وكان يقف بجانبه زعيم أقل منه، وخلفه في هذا المنصب آخرون عديدون، جاء ذكرهم في الحولية<sup>(٥)</sup>.

والصنم الذي كانوا يعبدونه يسمى تشنبروري «Toshunburai» وهو عبارة عن شجرة كبيرة تسمى شاموز «Shamuz» محاطة بسور عال لا يدخله إلا الراهب الكبير - بربوشي - ومن عداه يلاقي حتفه إذا تجرأ ودخله. والمكان المقدس لهذا الصنم يسمى «Kakua» أو «Kagua»<sup>(٦)</sup>.

وبعد فترة وفد على هذه المنطقة زعيم آخر يدعى بغودا<sup>(٧)</sup> ومعه عشيرته، وقطن بين ظهرائي أهل دالا، ثم أصبح رويداً رويداً يمتلك زمام الأمر، حتى أصبح ملكاً عليهم منذ سنة ٣٩٠هـ / ٩٩٩م إلى سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م<sup>(٨)</sup>. وبعد وفاته خلفه أبناؤه<sup>(٩)</sup>.

---

Loc. cit. (١)

Loc. cit. (٢)

Loc. cit. (٣)

(٤) يلاحظ أن الدكتور شيخو، الذي يبدو أنه قد اعتمد على المخطوطة العربية لحولية كانوا، يذكر أنه كان ينزل مرة واحدة في السنة، انظر: شيخو، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤.

Kano Ch., p. 63. (٥)

Loc. cit. (٦)

Ibid, p. 64. (٧)

Ibid, p. 65. (٨)

Ibid, p. 64. (٩)

ثم توالى الملوك من هذه الأسرة حتى مطلع القرن التاسع عشر.<sup>(١)</sup>

أما عن التاريخ المدون لدخول الإسلام في كانو فهو النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري). فالحولية تذكر أنه في عهد السلطان الحادي عشر من سلاطين كانو، المسمى علي ياجي (٧٥٠ - ٧٨٧هـ/ ١٣٤٩ - ١٣٨٥م) جاء إلى كانو وفد من الونغاارة<sup>(٢)</sup> قادما من دولة مالي الإسلامية لدعوة أهل كانو إلى الإسلام<sup>(٣)</sup>. واسم زعيم هذه الجماعة عبدالرحمن زيتي<sup>(٤)</sup>، أما بقية أعضاء الوفد المكون من أربعين عضوا فمنهم: ياكوبو، ومندولي وفاموري وبلكاسم، وكاناغي ودوكيري وشيشي وكبي ومورتوكو وليمان ياللابو وغردامس وأوتا ولوال وليمان ماداتاي، وآخرون.<sup>(٥)</sup>

وقد اكتشف أخيرا الدكتور محمد أحمد الحاج<sup>(٦)</sup> مخطوطا آخر يلقي ضوءا على أصل هؤلاء الونغاارة<sup>(٧)</sup>، واسم المخطوط الجديد: «ورقة مكتوب فيها أصل الونغاارين المنتسبين للشيخ الفقيه العالم العلامة التقي الصالح البالغ في العلم درجة القدوة وهو المسمى باسم البركة عبدالرحمن بن محمد بن إبراهيم بن محمد قتما الونغااري»<sup>(٨)</sup>. وهذا المخطوط الثاني يقول: إن الوفد

(١) Ibid, p. 65 ff.

(٢) وانغاارة هو المكان الذي اشتهر بكثرة الذهب وجودته منذ الأزمان القديمة، وربما يكون على الضفة الغربية لنهر السنغال. وكان تحت مملكة مالي الإسلامية عندما حل الوفد الونغااري بكانو. وعقد بوفل فصلا كاملا عن هذه المنطقة، ويناقش كل الآراء التي وردت حول تحديد مكان هذه المنطقة. انظر: الممالك الإسلامية في غربي إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٧-٢٦١.

(٣) Kano Ch. p.70.

Loc. cit. (٤)

Loc. cit. (٥)

(٦) هو سوداني من جمهورية السودان الحالية. عمل بكلية عبدالله بايرو بنيجيريا، كان من المهتمين بالتراث الإسلامي في غربي إفريقيا. وقد توفي.

(٧) M.A. Al-Hajj, "A Seventeenth Century Chronicle on the Origins and Missionary Activities of the Wangarawa" Kano Studies, Vol.1,4 (1968), pp. 7-16.

وتاريخ كتابة هذا المخطوط هو: ١٠٦١هـ / ١٦٥٠-١٦٥١م.

Ibid, p.9. (٨)

الونغاري المالي وصل في عهد السلطان محمد رمفا (٨٠٤ - ٨٦٧هـ / ١٤٦٣ - ١٤٩٩م)، وهو زمن وصول المغيلي إلى كانو أيضا<sup>(١)</sup>. ترجم محمد أحمد الحاج هذا المخطوط إلى الإنجليزية وعلق عليه ونشره في مجلة دراسات كانو «Kano Studies» ومعه مقدمة حول مكان وانغارة وانتشار الونغارين في غربي إفريقيا.

وفي ضوء هذا المخطوط هناك روايتان حول عدد العلماء من بين هؤلاء المهاجرين. فالرواية الأولى تقول بأنهم كانو ٣٦٣٦، وتقول الثانية بأنهم كانوا مئة وستين<sup>(٢)</sup>. ومهما يكن الاختلاف حول العدد فالذي يهمنا أن بعض علماء مالي قد قاموا بدور كبير في تاريخ الإسلام ودخوله وترسيخه ببلاد الهوسا، وأن هذه كانت اللبنة الأولى لتبادل التعليم بين بلاد الهوسا ومعاهد تنبكت وجني منذ القرن الخامس عشر الميلادي.

عندما وصل الوفد الإسلامي الونغاري إلى كانو اتصل بالسلطان ودعاه إلى مراعاة أوقات الصلاة، فاستجاب لذلك الطلب<sup>(٣)</sup>. وعين بعض أعضاء الوفد في مناصب ذات أهمية في المجتمع الإسلامي هناك.

ويقال إن ذلك كان بإشارة من الشيخ عبدالكريم المغيلي بعد أن رأى أنهم من العلماء الضليعين من العلم والمعرفة<sup>(٤)</sup>، فقد عين عبدالرحمن زيتي - رئيس الوفد - قاضيا، وعين غردامس إماما للصلاة، ولوال مؤذنا، وأوتا مشرفا على ذبح الماشية على الطريقة الشرعية، ومندولي إماما للونغارين وزعماء الشعب في كانو.<sup>(٥)</sup>

---

(١) Ibid, p. 8,9.

(٢) Ibid. p. 10

(٣) Loc. cit.

ومن هذا يبدو أن الإسلام قديم في هذه البلاد، ولكنه سطحي، وجاء هؤلاء الونغاريون وأحدثوا ثورة تصحيحية للمفاهيم الإسلامية.

(٤) Al-Hajj, Ibid, p. 11.

(٥) Kano Ch., P. 70.

طلب السلطان من كل بلدة في إمارة كانو أن تراعي أوقات الصلاة، وقد استجاب جميعهم لطلبه، وبنى مسجدا تحت الشجرة المقدسة من جهة الشرق، وأقيمت فيه الصلوات الخمس.<sup>(١)</sup>

وفي البداية واجه السلطان مؤامرات تخريبية يقودها أحد الكهنة الوثنيين - غازازاوا - ضد إقامة الصلاة في هذه الرقعة - فكان كلما أدى المسلمون الصلاة وعادوا إلى دورهم أعقبهم هذا الكاهن وشرذمته ودنسوا كل المسجد بالأوساخ والقاذورات. ولوضع حد لهذا العبث رابطت دورية مسلحة لحماية المسجد، مستعينين عليهم بالصبر والصلاة والدعاء حتى أصيب الكاهن وشياطينه من الإنس بالعمى، وطرده السلطان من منصبه ساخطا عليه، ومشيعا له بقوله: «كن كاهنا وسط العميان» كما تقول الرواية.<sup>(٢)</sup>

واستعان السلطان محمد رمفا<sup>(٣)</sup> بالونغارين في القضاء على أعدائه المناوئين مثل أهل سائنولو الوثنيين، وكان النصر حليفه، فتمكن من دك معقل مهم من معاقلهم الوثنية، وحارب قبائل كورارافا حتى أعطت الجزية عن يد وهي صاغرة.<sup>(٤)</sup>

وتوجد بعض الإشارات التي تدل على أن بعض حكام كانو كانوا من نوع فريد، فالسلطان الرابع عشر حسب ترتيب بالمر، وهو عمرو بن كانياجيجي (٨١٢ - ٨٢٤هـ / ١٤١٠ - ١٤٢١م) كان من العلماء الاتقياء. ولاعجب في ذلك إذا علمنا أنه تلميذ الشيخ دان غوردامس إبراهيم، وصديق أبي بكر الفقيه الزاهد الذي غادر كانو إلى برنو عندما ارتقى صديقه العرش هربا من صديق

---

Loc. cit. (١)

Ibid., p. 71. (٢)

Ibid., pp. 71-72. (٣)

Ibid., p. 72. (٤)

متعلق بالدنيا، وعاد بعد قضاء أحد عشر عاما في الخارج ليجد صديقه مازال في السلطة، فأخذ يعظه حتى جعله يتنازل عن الحكم ويغادر كانوا مع صديقه إلى حيث العمل من أجل الآخرة، ونشر العلم والمعرفة الإلهية. وترك عمر حكم السلطنة في يد أخيه داود بن كانياجي، السلطان الخامس عشر (٨٢٤ - ٨٤١هـ / ١٤٢١ - ١٤٣٨م)<sup>(١)</sup>. ولا نظن أن مفهوم أبي بكر للدين هو المفهوم الصحيح، فالرجل الصالح يمكن أن يكون أنفع للأمة الإسلامية إذا كان في مركز السلطة.

وفي عهد السلطان داود قدم إلى كانوا أمير عظيم من جنوبي برنو ومعه قواته العسكرية وكثير من المعلمين<sup>(٢)</sup>. وبعد مشاورات سمح السلطان لهذا الأمير بالبقاء في كانوا، ثم أكرمه بتولي السلطة في كانوا لمدة خمسة شهور، عندما خرج السلطان إلى الحرب ضد سلطنة كاتسينا بقيادة الملكة أمينة<sup>(٣)</sup>. ولا شك في أن قدوم جماعة من المعلمين مع هذا الأمير يعد نقطة مهمة في تاريخ الإسلام والتعليم الإسلامي في هذه الدولة. فلا بد من أنهم قد قاموا بواجبهم التعليمي في بلاد تحتاج إلى علمهم، وبذلك كانوا شريانا هاما من شرايين الحياة الإسلامية والتعليمية في سلطنة كانوا في حوالي منتصف القرن الخامس عشر (التاسع الهجري).

وجاء نبض آخر في عهد السلطان التاسع عشر، يعقوب بن عبدالله يورجا (٨٥٦ - ٨٦٧هـ / ١٤٥٢ - ١٤٦٣م)<sup>(٤)</sup>. ففي عهد هذا السلطان سجل لنا التاريخ المكتوب أول إشارة إلى دخول علماء الفولاني مدينة كانوا خاصة

---

Ibid., p. 74. (١)

Loc cit. (٢)

Ibid., p. 75. (٣)

Ibid., p. 76. (٤)



وبلاد الهوسا عامة. لقد دخلوا من جهة الغرب ومعهم كتب في التوحيد واللغة العربية<sup>(١)</sup>. وفي السابق كان لدى العلماء في أرض الهوسا - بالإضافة إلى القرآن - كتب في الفقه والحديث<sup>(٢)</sup>. وبمجيء هذا الوفد توفرت كتب في فروع أخرى من فروع الدراسات الإسلامية في البلاد. ومكث بعض علماء الفولاني في البلاد مرشدين ومعلمين، وهاجر بعضهم إلى برنو<sup>(٣)</sup> لينشروا المعرفة على نطاق واسع.

وتوالت المصاييح التي تنير سبيل المسلمين، ففي عهد السلطان يعقوب نفسه كان وصول أعداد كبيرة من البربر والعرب المسلمين للإقامة في كانو وكاتسينا.<sup>(٤)</sup>

وبعد وفاة السلطان يعقوب خلفه ابنه السلطان محمد رمفا (٨٦٧ - ٩٠٤هـ / ١٤٦٣ - ١٤٩٩م)، وهو السلطان العشرون، وكان من العلماء والصالحين<sup>(٥)</sup>، ولا يوجد له مثيل في العظمة منذ تأسيس كانو حتى نهايتها. وتذكر حولية كانو أنه في عهد هذا السلطان جاء الأشراف من المدينة المنورة إلى كانو بزعامة الشريف عبدالرحمن، وكانوا عشرة، استقبلهم السلطان بحفاوة بالغة، وأقاموا في كانو.<sup>(٦)</sup>

وقد لاحظت أن الرواية التي جاءت في هذه الحولية المترجمة ذكرت الاسم عبدالرحمن مرتين ثم تأتي وتقول أخيرا: إن عبدالكريم عاد إلى مصر تاركا وراءه نائبه فاري ليقوم بالمهمة ويكمل الرسالة. ولكن مراجع أخرى تشير

---

Ibid., p. 77.(١)

Loc. cit.(٢)

Loc. cit. (٣)

Loc. cit. (٤)

Loc. cit. (٥)

Loc. cit. (٦)



إلى أن هذا الشخص الذي قدم إلى كانوا في عهد محمد رمفا هو العالم المشهور محمد بن عبدالكريم بن محمد المغيلي التلمساني. ومن الذين قالوا بذلك: الدكتور شيخو<sup>(١)</sup> وبطران<sup>(٢)</sup>.

والراجع عندي أن عبدالرحمن الذي تتكلم عنه الحولية هو عبدالرحمن السيوطي المصري الذي زار غربي إفريقية في هذه الفترة، والدليل على ذلك أن مخطوطة أصل الونغيرين<sup>(٣)</sup> تذكر بأنه قد جاء في عهد الملك رمفا رجل مصري متخصص في تدريس المختصر وأعجب به زعيم الونغيرين، عبدالرحمن زيني، فأمر طلبته بنسخ الكتاب المذكور لإعجابه بمادته، وهذا المخطوط يفرق تفريقا لا لبس فيه بين هذا الشيخ المصري، والذي لم يسمه، وبين عبدالكريم المغيلي، الذي سماه باسمه، وبين عبدالرحمن زيني. ويزيد الدكتور محمد أحمد الحاج<sup>(٤)</sup> الأمر إيضاحا عندما يذكر في حاشية تحقيقه لهذا المخطوط أن لقب المغيلي هو «سيدي فاري» ومعناه «السيد الأبيض»، وبذلك يمكننا أن نقول إن السيوطي ترك وراءه نائبه المغيلي عندما غادر كانوا إلى مصر، وإن المغيلي والسيوطي حضرا إلى كانوا في عهد محمد رمفا، بجانب عبدالرحمن زيني.

---

(١) حركة اللغة، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦، وقد اعتمد الدكتور شيخو على مصادر مهمة منها رسالة دكتوراه بالإنجليزية للدكتور غوزرو بعنوان (المغيلي، حياته وأفكاره) «وصورة الرسالة موجودة كما يقول في مكتبة كلية عبدالله بايرو بكانو. واعتمد على مخطوطة بعنوان «تنبيه الإخوان على أحوال أرض السودان» للشيخ عثمان بن فودي.

(٢) A.A.Batran, "A Contribution to the Biography of Elmaghili",

J. A. H., XIV, 3 (1973), pp. 381094.

وغير هذه مراجع أخرى تذكر أن المغيلي كان في عهد محمد رمفا، لذا يبدو أن مخطوط تاريخ كانوا يذكر الاسم أحيانا عبدالرحمن وأحيانا أخرى عبدالكريم، مما يشير إلى التباس كبير، وربما كان لقدم الرواية عندما سُجِّلَتْ أثره في هذا اللبس.

(٣) Al-Hajj, op. cit., p. 13.

Ibid, p, 11. (٤)

وكان لمجيء هذه الجماعة أهمية كبرى لما لهذا الأمر من أثر عميق في نفوس المسلمين. وقد أسس عبدالرحمن وجماعته الإسلام على دعائم قوية في بلاد كانو، وكان معهم كثير من الكتب<sup>(١)</sup>، التي لم تفصح حولية كانو عن أسمائها، ولكن من الراجح أنها كانت في الشريعة والأصول واللغة وكل مايتعلق بالدراسات الإسلامية.

وأمر عبدالرحمن بإقامة مسجد جامع لأداء صلاة الجماعة<sup>(٢)</sup>، وليكون مركزا ومعهدا للدراسات الإسلامية.

لقد شهد القرن السادس عشر تدفق العلماء والكتب الإسلامية إلى كانو. ففي عهد السلطان محمد كيسوكي «Kissoki» بن عبدالله بن محمد رمفا - السلطان الثاني والعشرين - (٩١٤ - ٩٧٢ هـ / ١٥٠٩ - ١٥٦٥ م جاء إلى كانو ضمن من جاء من العلماء الشيخ تونس «Tunus» ومعه كتاب الشفا للقاضي عياض<sup>(٣)</sup> - وجاء أيضا إلى كانو العالم دان - غورون - روما «Don - Goron Duma» والشيخ عبدالسلام الذي أحضر معه المدونة بشرح سحنون، والجامع الصغير والسمرقندي.<sup>(٤)</sup>

وجاء من برنو بعض المعلمين أمثال الشيخ كرسكي والشيخ مغومي والشيخ كابي<sup>(٥)</sup>. وكان ثلاثهم إخوة. وقد ارتاح السلطان كيسوكي إلى الشيخ كرسكي فطلب منه أن يصبح قاضيا، ولكنه رفض، واقترح أن يكون في هذا المنصب أخوه مغومي. ووافق مغومي على ذلك، وبني مقرا لممارسة القضاء.<sup>(٦)</sup>

---

Kano Ch., p.77. (١)

Loc cit. (٢)

Ibid, p. 79. (٣)

Loc cit. (٤)

Loc cit. (٥)

Loc cit. (٦)

بمجيء هؤلاء الأعلام أصبحت كانوا محط أنظار من يريدون الاستزادة من العلم. فقد أصبحت مركزا إسلاميا مهما يَشُدُّ إليه أبناء المناطق المجاورة من بلاد الهوسا الرُّحالَ لتلقي العلم على أيدي هؤلاء العلماء الوافدين، فقد جاء في السنة التالية لمجيء الشيخ عبدالسلام عالم من علماء زاريا يدعى توبي، جاء لتلقي العلم على يدي الشيخ تونس، وأصبح من تلاميذه الكبار في كانوا.<sup>(١)</sup>

وازداد عدد المساجد والمراكز التعليمية عندما طلب الشيخ عبدالسلام من السلطان كيسوكي أن يبنى مسجدا جامعاً آخر، فوافق السلطان على هذا الطلب<sup>(٢)</sup>، وفي هذا دليل على احترام آراء العلماء وأخذ آرائهم بعين الاعتبار في بناء صرح الحضارة الإسلامية.

وقد كان لتعاليم هؤلاء العلماء أثرها في نفوس الأمراء؛ فهناك من الأمراء من أثر حياة العلم والدراسة على تولي السلطة. وأكبر نموذج لهذه الروح العلمية عند الأمراء ما يروى عن السلطان الثالث والعشرين: ياكوفو بن كيسوكي (٩٧٢-٩٧٣هـ / ١٥٦٥م) الذي تنحى عن السلطة وعاش بين العلماء للدراسة<sup>(٣)</sup>، وذهب ليعيش في البلد التي تحمل اسمه - ياكوفوا، وأنجب عدة أبناء، اعتلى بعضهم عرش السلطنة، مثل داود أبا سما، السلطان الرابع والعشرين<sup>(٤)</sup>، والسلطان محمد شاشيري (٩٨٠ - ٩٩٠هـ / ١٥٧٣ - ١٥٨٢م) السلطان السادس والعشرين.<sup>(٥)</sup>

فإذا كانت حياة العلم والعلماء قد جذبت إليها حتى السلاطين، فلا عجب

---

Loc cit. (١)

Loc cit. (٢)

Ibid, p. 80. (٣)

Loc. cit. (٤)

Ibid, p. 81. (٥)

إذا سمعنا بكثرة المعلمين والعلماء بكانو - من كل الجنسيات - في عهد السلطان الخامس والعشرين، أبي بكر كادي بن رمفا (٩٧٣ - ٩٨٠ هـ / ١٥٦٥ - ١٥٧٣ م)؛ فقد وفدت إلى كانو جماعات من العلماء والمعلمين من البلاد التي تقع خارج بلاد الهوسا، ومن أولئك المعلمين: المعلم شريف وتاما وغيسو ووري، جاؤوا من باغرمي كما يقول بعض الناس<sup>(١)</sup>، وكان تاما أعظمهم، وكان أينما حل يترك أثره. فعند مروره بكاتسينا في طريقه إلى كانو أقام قليلا في كاتسينا. وقد سمي المكان الذي أقام به بـ«تامام»<sup>(٢)</sup> فيما بعد. وفي كانو تزوج من امرأة تحكم إحدى مقاطعات كانو المسماة باسم هذه السيدة - غوديا.<sup>(٣)</sup>

ومن الذين جاؤوا من الغرب الشيخ أبوبكر المغربي، صاحب الرأي والمشورة في الحرب والسلام، وقد كان لرأيه السديد الأثر الكبير في انتصار كانو على كاتسينا في عهد السلطان محمد زكي.<sup>(٤)</sup>

والسلطان أبوبكر أول من قرأ الشفا بمنزل الشيخ غورودوما وماكيرسيا، أحد مشاهير علماء كانو<sup>(٥)</sup>. ولم يقف هذا السلطان عند حد تعليم نفسه وارتياذ منازل العلماء سعيا وراء التعليم والثقيف الديني، بل كان أول سلطان يجعل أبناءه الأمراء السبعة يتعلمون القرآن، ويجزل لهم العطاء من أجل ذلك، ويحرص على مداومتهم على القراءة والصلوات الخمس في أوقاتها. وقام بجانب ذلك بعمل عظيم وهو بناء مدرسة لتعليم القرآن تسمى بـ«غورون بوغاشي».<sup>(٦)</sup>

---

Loc cit. (١)

Loc cit. (٢)

Loc cit. (٣)

Loc cit. (٤)

Loc cit. (٥)

Loc cit. (٦)

هكذا أسس السلطان أبو بكر القدوة التعليمية في نفسه وفي أولاده، فأصبح للعلم قدسيته وللعالم مكانته، وليس أدل على ذلك مما يروى عن أن كاتسينا عندما اكتسحت كل أجزاء كانو، لم يمنعها من دخول المدينة إلا حرمة العلماء الذين كانوا فيها، وذلك في عهد السلطان السابع والعشرين، محمد زكي بن كيسوكي (٩٩٠ - ١٠٢٧هـ / ١٥٨٢ - ١٦١٨م).<sup>(١)</sup>

وحافظ السلاطين من بعد أبي بكر على المدرسة التي أنشأها لأبنائه، فقد جدها السلطان الخامس والثلاثون، باوا بن محمد كوكونا (١٠٧٠ - ١٠٨١هـ / ١٦٦٠ - ١٦٧٠م).<sup>(٢)</sup>

لم يكتف السلطان باوا بتجديد مدرسة أبي بكر، ولكنه هو أيضا بنى مدرسة أخرى عرفت بـ «بوغاشن كسكي» Pugachin Kaiski<sup>(٣)</sup> ومن فرط حبه للعلماء بنى لصديقه وزميل دراسته منذ الصبا، العالم علي ديكو، منزلا داخل قصره، ولا يفترق عنه أبداً إلا بعد صلاة العشاء، ولم يحظ منه بالتكريم هذا العالم وحده، بل هناك آخرون مثل الشيخ عبدالله، أحد الوافدين على مدينة كانو<sup>(٤)</sup>، فقد كان الشيخ عبدالله من أعذب الناس صوتا في ترتيل القرآن، مما كان له الأثر الطيب والوقع الحسن في نفس الشيخ علي ديكو عندما سمعه

---

Ibid, P. 82. (١)

Ibid, p. 87. (٢)

(٣) Loc. cit. (في كل البلاد التي يدخلها الإسلام يكون المسجد هو المعهد التعليمي الأول، ثم تنشأ بعد ذلك أمكنة أخرى بجانب المسجد تؤدي نفس المهمة. وعلى الرغم من وجود هذه المساجد في بلد مثل كانو، كما رأينا ذلك على ضوء المعلومات الواردة في مخطوط تاريخ كانو، وعلى الرغم من ذكر هذا المصدر لمدارس قامت لتعليم القرآن إلا أن الدكتور علي أبوبكر يرى أن المعاهد التعليمية لم تؤسس إلا في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي بكانو، مثل معهد كيرا الذي أنشئ في سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٧م). انظر: الثقافة الإسلامية في نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٦.

Ibid, p. 88. (٤)



يرتل القرآن، فعرف به صديقه السلطان باوا، الذي أعجب بدوره به أيما إعجاب، وبنى له دارا بالقرب منه، وغدا يقرأ القرآن في حضرة السلطان كل ليلة، فيدخل السرور على قلبه. وعندما توفي المؤذن السابق عين عبدالله هذا في مكانه مؤذنا. (١)

وفي فترة السنوات العشر التي حكم فيها السلطان باوا، ازداد عدد العلماء والصالحين الخيرين، وليس هذا بعجيب في عهد سلطان عالم صالح<sup>(٢)</sup>. ومن الظواهر الواضحة أن العهود التي يحكم فيها سلاطين علماء يأتي إلى بلادهم العلماء من كل البلاد الإسلامية المجاورة، للدراسة والتدريس وللوعظ والإرشاد. ولم تعدم كانوا في تاريخها الطويل أمثال باوا ومحمد رمفا وغيرهما من السلاطين العلماء؛ فقد استمر الحال على رعاية العلم والعلماء في عهد خلفائهم أمثال ياجي بن دادي، السلطان الأربعين (١١٦٦ - ١١٨٢هـ / ١٧٥٢ - ١٧٦٨م) الذي لقبته زوجته بالمعلم لافيا، وذلك لشدة حبه للعلم والعلماء؛ ففي عهده جاء كثير من الناس للإقامة في كانوا والعيش في رعايته وتحت راية عدله<sup>(٣)</sup>. وزاد الناس في عهد خلفه حتى أخذنا نسمع بمصطلح «عرب كانوا» وغيره مما يدل على تعدد الجنسيات. (٤)

ووجود العرب في كانوا أو غيرها من إمارات الهوسا يدل دلالة واضحة على مصدر مهم من مصادر تعلم اللغة العربية في هذه البلاد. فبالاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة يمكن أن يتعلم الهوسي اللغة العربية، ويتكلم بها، أو يسهل عليه تعلمها على يد الشيخ المعلم مادام يستطيع الممارسة العملية عند

---

Loc. cit. (١)

Loc. cit. (٢)

Ibid. p. 92. (٣)

Loc. cit. (٤)



التعامل مع العرب الوافدين .

وفي مطلع القرن التاسع عشر (الثالث عشر الهجري) أخذت تتضح معالم المعاهد التعليمية في كانوا أكثر من ذي قبل؛ فقد أنشأ الشيخ عمر بن مختار معهدا للتعليم الإسلامي سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٧م عندما قدم إلى كانوا، ويعرف بمعهد كيرا. (١)

قبل تأسيس هذا المعهد سبق للشيخ مختار أن سافر إلى عدة مدن في السودان وادي النيل لطلب العلم، ثم اشتغل بعد ذلك بالتصوف فابتعد عن الناس، ولما قام الشيخ عثمان بن فودي بحركته الإصلاحية، وكان يرغب في الأعوان من كل الجهات، طلب من الشيخ مختار أن يستقر بكانو ويقوم بمهمة التوعية والإرشاد والإصلاح والتقويم. (٢)

وعندما حضر إلى كانوا أقام بحارة تسمى «ادكاوا» ولكن بعد أن وضعت الحرب أوزارها، أقام في الحي الذي عرف فيما بعد بـ«كيرا» تلبية لطلب أمير كانوا. وعند إقامته في كانوا أنشأ المعهد المذكور. وكان عالما متفنا وله قدم راسخة في العلوم الإسلامية لاسيما التوحيد. وأمَّ معهده الطلاب من معظم إمارات الهوسا. (٣)

لم يكن معهد كيرا هو المعهد الوحيد الذي شيد في كانوا، بل تلتها معاهد تعليمية أخرى خاصة في النصف الأخير من القرن (١٣هـ / ١٩م)، مثل معهد النائب ومعهد مدابو ومعهد الحاج ناصر ومعهد ترومارا ومعهد أبي محمد

---

(١) علي أبوبكر، ص ١٠٦. (يذكر الدكتور علي أبوبكر أن الأستاذ الحاج ناصر كيرا هو الذي أخبره بأن مؤسس هذا المعهد من سلالة أسكيا الحاج محمد، وأن «كيرا» قرية على ضفاف النيجر بينها وبين تنبكت مسافة خمسة أميال، فأطلق الاسم كيرا على الحارة التي أقاموا فيها عندما جاؤوا إلى كانوا.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

عبدالله بن جبريل. (١)

وهناك معاهد أخرى كثيرة أقيمت في القرن (١٤هـ / ٢٠م). ولولا انتهاء  
فترتنا الزمنية، والمحددة بمطلع القرن (١٣هـ / ١٩م) لوقفنا عندها كثيرا.

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٠٧-١٠٨.



## المبحث الثاني



## تاريخ حركة التعليم الإسلامي في معاهد كاتسينا<sup>(١)</sup>

توجد حولية لتاريخ ملوك كاتسينا القدماء من ثلاث نسخ، وقد اعتمد بالمر على واحدة من هذه النسخ الثلاث، وهي النسخة الأكثر وضوحا في كتابتها كما يقول بالمر<sup>(٢)</sup>. واعتمادنا في تاريخ هذه المدينة ودخول الإسلام فيها هو ما كتبه بالمر عنها اعتمادا على الحولية التي عثر عليها في كاتسينا الحديثة سنة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م.

والى جانب ذلك الإشارات التي وردت في حولية كانوا عن تاريخ الإسلام والتعليم الإسلامي في هذه المدينة.

في ضوء الظروف المحيطة بهذه المنطقة يمكننا أن نستنتج بأن دخول الإسلام إلى هذه المدينة كان في المقام الأول نتيجة للعلاقات التجارية التي تكلمنا عنها في الفصل الأول.

أما العلاقات بين كانوا وكاتسينا من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر، فقد أخذت شكل الصراع المستمر للسيطرة على نهاية الخط التجاري عبر الصحراء، وهو أشبه بالصراع الذي دار بين جنوة والبندقية في

---

(١) أو كشنه. وفي هذا انظر: الألوري، الموجز، ص ٧٩، الدكتور علي أبوبكر، ص ١١٠، أو كاشنة. انظر: إنفاق اليسور، ص ٤٦، Bornu Sahara, op. cit. p.84. أو كشن. انظر السعدي، ص ٣٩، ٤٠، وكاتسينا هو الاسم الحديث الذي تعرف به رسميا في دولة نيجيريا الحديثة. وقد أخذ هذا الاسم في الظهور منذ أن زار الوران هذه المنطقة انظر: Leo Africanus, p. 830. وحول دراسة هذا الاسم دراسة مستفيضة انظر: H.P. Palmer, "History of Katsinna", J. A. H. Vol. XXVI, (April, 1972), pp. 216-20.

(٢) Hist. of Kat., Ibid, p. 220.



العصور الوسطى من أجل السيطرة التجارية.<sup>(١)</sup> وعلى الرغم من هذا الصراع لم تتوقف حركة هجرة العلماء إلى هاتين الدولتين كما رأينا في دراستنا لتاريخ التعليم في كانو، ولم تتوقف هجرة القبائل العربية إلى بلاد الهوسا؛ فقد لاحظت أن العرب كانوا أحيانا يرحلون من كانو إلى كاتسينا إذا ضيق عليهم الحكام الخناق بفرض الإتاوات أو غيرها.<sup>(٢)</sup>

وبحلول القرن السابع عشر كانت كانو في موضع ضعيف نسبيا، إذ تعرضت للهجوم من برنو في الشرق، ومن إمارة كبي القديمة في الغرب، بالإضافة إلى خلافات داخلية مع كاتسينا<sup>(٣)</sup>. وكان هناك صراع مع قبائل الكورورافا الوثنية من قبل ذلك<sup>(٤)</sup>، وتجدد في أواخر النصف الثاني من القرن السابع عشر، مما أدى إلى تخطيط واحتلال كل أجزاء كانو.<sup>(٥)</sup>

أما كاتسينا، فعلى الرغم من أنها تعرضت إلى غزوات دورية من جانب الكورورافا، إلا أنها كانت أكثر فلاحا في الاحتفاظ باستقلالها<sup>(٦)</sup>، ففي حوالي سنة ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م، وفي عهد السلطان الحادي والثلاثين - شيكارو بن علي حاجي الكانوي (١٠٥٩ - ١٠٦١هـ / ١٦٤٩ - ١٦٥١) - عقد صلح بين كانو وكاتسينا بعد أن تكبدت كاتسينا هزيمة كبيرة على يد كانو، وقد شهد على

---

(١) T. Hodgkin, *Nigerian Perspectives*, P. 30; *Kano Chr.*, p. 80 ff.

هذا المرجع عبارة عن مخطوطات عربية جمعها المؤلف وترجمها إلى الإنجليزية، وتتعلق بتاريخ نيجيريا قبل سنة ١٩٠٠م، وزاد على ذلك ما كتبه المسلمون والعرب منذ القرن التاسع الميلادي، وأورد أيضا بعض المخطوطات التي ترجمها بالمر إلى الإنجليزية. وجمعها في كتابه المشهور "Bornu Sahara".

(٢) *Kano Chr.*, p. 90.

(٣) *Kano Chr.*, p. 81 ff., *Nigerian Perspectives*, op. cit., p. 30.

(٤) *K. Chr.* p. 72.

(٥) *Nigerian Perspectives*, p. 30, *K.C.* p. 83.

(٦) *Nig. Persp.* Loc. cit.

هذا الصلح وأمضاه خمسة من العلماء<sup>(١)</sup>، وكان هذا الصلح موجها ضد العدو المشترك الوثني، وهو قبائل الكورورافا.<sup>(٢)</sup>

ولم تسلم كاتسينا في القرن (١٢هـ / ١٨م) من هجوم جاراتها الهوسية. مثل غوبير التي ضمت جارتها زانفرة سنة ١١٧٨هـ / ١٧٦٤م، وأقامت نفسها قوة سياسية هوسية مهيمنة.<sup>(٣)</sup>

وكما كان لكانو تاريخ مكتوب، فقد كان لكاتسينا أيضا تاريخ مكتوب، ولكن لم يكن بالوضع الذي وصلنا به تاريخ كانو. وأهم ما وصلنا من تاريخ مسجل لهذه الإمارة هو تاريخ كاتسينا الذي حصل عليه بالمر.

إن من أهم السلاطين الذين تقلدوا زمام السلطة في إمارة كاتسينا كان السلطان محمد كوارو (٧٢٠-٧٥٣هـ / ١٣٢٠ - ١٣٥٢م)، وفي عهده سمعنا بأول خبر مدون عن تاريخ دخول الإسلام إلى كاتسينا<sup>(٤)</sup>. ويرجح بالمر<sup>(٥)</sup> أن محمد كوارو أسلم على أيدي علماء الونغارا الذين قدموا من مالي وجني في عهد السلطان الكانوي علي باجي (٧٥٠-٧٨٧هـ / ١٣٤٩ - ١٣٨٥م)، ولكن كما وضحنا سابقا وفي ضوء مخطوط أصل الونغرين أن قدوم هذه الجماعة كان في عهد السلطان محمد رمفا، في القرن الخامس عشر، وعلى ذلك يكون إسلام محمد كوارو قد تم قبل وصول هذه الجماعة بحوالي القرن. وما دامت المصادر لا تجزم بذلك فيمكننا القول إن إسلام هذا السلطان تم عن طريق العلاقات التجارية الوثيقة التي كانت تربط كل أجزاء غربي إفريقية مع شمالي

---

Kano Chr., p. 86. (١)

Nig. Persp. p. 30. (٢)

Ibid. p. 30. (٣)

History of Katsinna, op. cit. p. 222. (٤)

Loc. cit. (٥)

إفريقية ووسائل الاحتكاك الأخرى. وبالمر<sup>(١)</sup> نفسه يرى أنه من المحتمل أن يكون لدخول الإسلام كاتسينا صلة بقبيلة سلباوا «Sulibawar» الفولانية، التي هي في الأصل خليط متساو من الفولاني والوانغارة. جاءت هذه القبيلة إلى كاتسينا وأقامت في إقليم شينكافي وبوقاجي شمالي المدينة.<sup>(٢)</sup>

وكانت هذه القبيلة عنصراً مهماً من العناصر السكانية التي تتكون منها المدينة قبل جهاد الفولاني في مطلع القرن (١٣هـ / ١٩م)<sup>(٣)</sup>. وهذا الذي توصل إليه بالمر هو الذي يمكن أن يقبل ويدعم ما ذهبنا إليه من أن العلاقات التجارية والهجرات السكانية قامت بدور فعال في حمل الإسلام إلى مناطق مختلفة في غربي إفريقية.

ويمكن ملاحظة أن مسجد هيب «Habe» بكاتسينا - والذي مازال يوجد جزء منه - قد بني على الطراز الجاوي (نسبة إلى جاو عاصمة سنغي) والجني في الحي المسمى أنتارا «Antara». وفي هذا دليل واضح على الأثر المعماري للبناء في دولتي مالي وسنغي.<sup>(٤)</sup>

وقد خلف محمد كوارو في السلطة شخصية مهمة أدت دوراً كبيراً في مساعدة سلفه - السلطان محمد - في نشر الإسلام بإمارة كاتسينا<sup>(٥)</sup>، وهو

---

Loc. cit. (١)

Loc. cit. (٢)

Loc. cit. (٣)

Loc. cit. (٤). (غزا أسكيا الحاج محمد هذه الدولة في سنة ١٥١٢م، مما أعطاها دفعة قوية في مجال انتشار الإسلام بين أهلها وتقوية ذلك بالتعليم الإسلامي الذي سبق أن بدأ بأثر من معاهد سنغي الإسلامية حول نهاية القرن (٩هـ / ١٥م)، عندما جاء إلى بلاد كاتسينا الفقيه مخلوف بن علي البلبالي ومحمد بن أحمد التاذختي، وعين الأخير قاضياً في كاتسينا، وحظي باحترام بالغ من الحكام والرعية. وفي هذا انظر: النيل، ص ٣٢٤، السعدي، ص ٣٩، ٤٠).

Hist. of kats., Loc cit. (٥)

السلطان إبراهيم سرا «Sura» (٧٥٤-٧٥٦هـ / ١٣٥٣-١٣٥٥م)<sup>(١)</sup>، والكلمة «سرا» دليل آخر على أثر مالي في الألقاب، لأن هذا اللقب من الألقاب المالية<sup>(٢)</sup> - نسبة إلى مالي -.

ومنذ عصر محمد كوارو ظلت كاتسينا تأخذ مكانها بين المراكز الإسلامية الهامة في غربي إفريقية عامة وفي بلاد الهوسا خاصة، وظل حكامها المسلمون يقومون بدورهم في استقبال ورعاية العلماء القادمين إلى بلاد الهوسا لنشر الوعي الإسلامي والقيام بالتدريس. ففي عهد السلطان إبراهيم ماجي (إبراهيم الثاني)، حول نهاية القرن ٩هـ (٩٠٠هـ) ١٥م (١٤٩٤م)، قدم إلى بلاد الهوسا العالم الكبير محمد بن عبدالكريم المغيلي<sup>(٣)</sup>. وفي كاتسينا أصاب المغيلي نجاحا كبيرا، وكان بذاته معهدا متحركا. جلس للتدريس والوعظ والإرشاد. وقد نصح السلطان إلى مافيه صلاح الأمة وحفظ الدين من كل الشوائب. وفي هذا الزمن

(١) Ibid, p. 220.

(٢) Loc. cit.

(٣) Loc. cit. (هناك اختلاف بين المؤرخين حول السلطان الذي كان على رأس كاتسينا في زمن زيارة المغيلي. فبالمر يستند في رأيه إلى أن إبراهيم ماجي كان معاصرا لاسكيا الحاج محمد (١٤٩٣م - ١٥٢٨م) الذي زار المغيلي في زمانه دولة سنغي بعد أن طوف بكانو وكاتسينا. وفي مؤلف يسمى «رسالة الملوك» - ذكرناه في مكانه من ملاحق هذا البحث - للسيوطي (١٤٤٦-١٥٠٥م)، فيه أن السيوطي كتب رسالة إلى محمد بن صطفو (١٤٨٧-١٤٩٣م)، سلطان أكدر (أجاديس - Agades) والسلطان إبراهيم الكاتسيني، مما جعل من المحتمل جدا أن يكون المعني هو إبراهيم ماجي، أكثر الملوك شهرة، وحكم كاتسينا أثناء قمة شهرة السيوطي في العالم الإسلامي. ويتفق مع بالمر في هذا الرأي السيد بارت، كما يشير بطران "See: Batran, op. Cit., p. 391." ويختلف مع هذين المؤرخين كل من هوجبن وكيرك - جريني، إذ يذهبان إلى أن وصول المغيلي إلى كاتسينا كان في عهد أول ملك مسلم - محمد كوارو - انظر:

The Emirates of Northern Nigeria, op. cit., pp. 161-81

ويذكر اسمث: (H. F. C. Suith: "Further Advnaturc in the Chronology of Katsinna")

أن هذا الملك هو إبراهيم سرا، ولكن طبقا لتواريخه التي وضعها فإن إبراهيم سرا أصبح ملكا في سنة ١٥٤١م، بينما المغيلي توفي حوالي سنة ١٥٠٥م، انظر Batran, op. ci., p. 392

M. A. AL-Hajj, op. cit., p. 11.

والتعليم بينما واصلت أغليتهم السير مع زعيمهم إلى كانو.<sup>(١)</sup>  
وعندما تفككت دولة سنغي الإسلامية إثر الغزو المراكشي لها في نهاية  
القرن السادس عشر، برزت إمارات الهوسا عامة وكاتسينا خاصة كملجأ لكثير  
من العلماء القادمين من معاهد تنبكت وجاو وجني، وازدهرت المدينة علميا،  
ووجد حي خاص بالطلبة<sup>(٢)</sup>. وأصبحت كاتسينا المدينة من المدن القيادية في  
غربي إفريقيا. وقد تحول معظم عناصر ازدهار سنغي إليها، فوجدت نفسها  
صاحبة شهرة وحضارة مزدهرة<sup>(٣)</sup>. ونافست أجاديس في صناعة الجلود التي  
اشتهرت بها. وأدخل هذا النوع من الصناعات أهل سنغي الوافدين على  
كاتسينا<sup>(٤)</sup>. وبمرور الزمن أصبحت كاتسينا تشتهر بالعدل وتسودها العفة  
والأخلاق الحميدة، وتكثر فيها المعاهد التعليمية. وقبل أن تجتاحها قوات  
المجاهد عثمان بن فودي كانت مركزا تجاريا مهما، إذ إن كل القوافل اتجهت  
إليها، فاحتلت مكان كانو في التجارة والعلم.<sup>(٥)</sup>

لا غرابة إذن في أن نجد بهذه المدينة بقايا من تلك المعاهد التي أسسها  
العلماء المهاجرون من شتى بقاع غربي إفريقيا وشمالها؛ فالدكتور أبوبكر<sup>(٦)</sup>  
يذكر لنا أربعة معاهد رئيسة:

الأول: معهد الحنبلين. وهو من أهم معاهد كاتسينا التي أسهمت في  
نشر العلم. وتولى عدد كبير من علماء المعهد مناصب القضاء، ويدعى الشيخ  
الذي أنشأه محمد غيغما، وأصله من مالي. كان عالما ورعا تقيا فقيها. وبعد

---

(١) Al-Hajj, Ibid, p. 10.

(٢) The Muhamadan Emirates, op. cit., p. 93.

Loc. Cit. (٣)

Loc. Cit. (٤)

Loc. cit. (٥)

(٦) الثقافة العربية في نيجيريا، ص ١١٠.



وفاته خلفه ابنه محمد زاكي الذي كان كوالده أيضا في العلم والصلاح. ثم انتقل التدريس بالمعهد بعد وفاته إلى ابنه محمد طن كند، ومنه إلى ابنه أحمد حنبلي. ولرسوخ أحمد حنبلي في العلم، بز كثيرا ممن سبقه من علماء الأسرة، حتى نسب المعهد إليه. وسار المعهد في رسالته حتى اليوم.<sup>(١)</sup>

الثاني: معهد درما، يرجع تأسيس هذا المعهد إلى ما قبل ظهور حركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية، وقد أنشأه الشيخ أبوبكر الذي كان يجمع بين علوم اللغة والدين. ومازال المعهد يؤدي رسالته العلمية حتى اليوم.<sup>(٢)</sup>

أما المعهدان الآخران فهما معهد السوق القديمة الذي أنشأه الشيخ بلادن محمد بن عثمان بن يحيى بن محمد البكري، حوالي سنة ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م، ومعهد بغوغني، الذي أسسه الحاج أبوبكر. وهو الآن أكبر معهد بكاتسينا.<sup>(٣)</sup>

ومما تجدد الإشارة إليه في ختام هذا المبحث أن ننوه إلى أنه لم تكن المعاهد التعليمية في كانو وكاتسينا فقط، بل شاركتها في هذا المجال إمارات هوسية أخرى مثل زاريا، التي عرف فيها بعض المعاهد منذ حوالي النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ومن أقدم معاهد هذه المدينة معهد حارة جوما ومعهد أم كونا. وكان نشاطهما في بادئ الأمر منحصرا في نشر مبادئ الإسلام، وإمامة المسلمين في الصلاة. حتى إذا انتشر الإسلام على نطاق واسع في أوائل القرن التاسع عشر، أخذ المعهدان يركزان نشاطهما على نشر العلم والثقافة الإسلاميين<sup>(٤)</sup>. وتكاد تنحصر إمامة الجمعة في جامع زاريا الكبير بين شيوخ المعهدين منذ ذلك الوقت، وإن كان عدد الذين تولوا الإمامة من معهد

(١) المكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١١.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه، ص ١١٢.



حارة جوما أكثر، وأكبر دليل على ذلك أن اسم جوما نفسه هو كلمة «جمعة»  
العربية. (١)

أما معهد أم كوكفا فقد أسسه الشيخ هارون بن جبريل عندما قدم إلى بلاد  
الهوسا من برنو وأقام في قرية كونا على مقربة من زاريا. ويقال إن عددا كبيرا  
من الوثنيين قد أسلم على يديه، ومن بينهم ربوا أمير زكرك. الذي تسمى  
بـ«محمد» بعد إسلامه. ومازال نسل هذا العالم يتولى شؤون هذا المعهد إلى  
الوقت الحاضر. (٢)

وغير هذين المعهدين معاهد أخرى في زاريا أنشئت بعد النصف الأول  
من القرن (١٣هـ / ١٩م)، مثل معهد والي عمر ومعهد كاكافي، ومعهد توفو  
دوكا. (٣)

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١٢-١١٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ١١٣-١١٤.

## المبحث الثالث



## أشهر علماء بلاد الهوسا

في هذا المبحث يتناول الكتاب العلماء المسلمين الذين قاموا بدور بارز في تاريخ الدعوة إلى الإسلام وتعميق مفاهيمه بالوسائل التربوية التعليمية، لاسيما علماء الفولاني<sup>(١)</sup>، الذين أصبحوا جزءا من سكان هذه المنطقة رويدا رويدا، وتولوا زمامها كقوة سياسية ودينية إصلاحية منذ مطلع القرن الثالث عشر الهجري (١٩م) حتى دخول الاستعمار البريطاني هذه البلاد في سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م. وهؤلاء العلماء هم:

### ١ - محمد الكاتسيناوي (أو الكشناوي)

يعرف هذا العالم بـ «ابن الصباغ دان مارنا»<sup>(٢)</sup>. يصفه الإمام بلو<sup>(٣)</sup> بأنه «دهليز العلم». وقد كان أستاذا للشيخ العالم محمد مسنه<sup>(٤)</sup>، الذي ستأتي ترجمته.

وتاريخ حياة الشيخ محمد مسنه معروف، لأن أحد الذين استقى منهم الباحث كنسدل «Kensdale»، أفاده بأن تاريخ وفاة دان مارنا كان سنة ١٠٦٦هـ/ ١٦٥٥م<sup>(٥)</sup>. ولما كان دان مسنه قد مات سنة ١٠٦٨هـ/ ١٦٦٧م، فإن هذا التقدير لتاريخ وفاة ابن الصباغ فيه الكثير من الصحة، وذلك في ضوء العلاقة

---

(١) انظر النبذة التي كتبناها عن الفولاني عند الكلام عن دولة الفولاني الإسلامية.

(٢) إنفاق الميسور، ص ٥٢.

A. D. H. Bivar and Hiskett. "The Arabic Literture of Nigeria to 1304", B. S. A.S., Vol. I, (1964), p. 113.

(٣) الإنفاق، المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه.

(٥) نقلا عن: Bivar and Hiskett, op. cit., p. 113.

Kensdale; "A Gatalogue of the Arabic Manuscripts Preserved in the University of Ibadon, 1955.

التعليمية التي كانت تربط بينهما<sup>(١)</sup>. وهناك بيئة تاريخية أخرى تفيد صحة هذا التاريخ، وهي أن للشيخ ابن الصباغ قصيدة تشيد بنصر ملحوظ لأحد مايات (سلاطين) برنو - الماي علي - على قبيلة الكورارفا أو قبيلة الجوكن من وادي بنو «Benu». ولو فرض أن الماي علي هو الماي علي بن الحاج/عمر، والذي حكم طبقا للحولية التي توصل إليها الباحث أورفوي «Urvoy»<sup>(٢)</sup>، والتي تحدد زمن حكم السلطان علي فيما بين عامي ١٠٦٨ و ١١٠٦هـ / ١٦٥٧ و ١٦٩٤م، فإن ابن الصباغ لا يمكن أن يكون قد عاش ليعرف عن انتشار الماي علي، ومن ثم فإن التاريخ الذي توصل إليه أرفوي غير صحيح<sup>(٣)</sup>. ولكن التاريخ الذي توصل إليه بالمر<sup>(٤)</sup> كبديل لذلك هو أن الماي علي بن الحاج عمر قد حكم في الفترة بين سنتي ١٠٥٥ و ١٠٩٦هـ / ١٦٤٥ - ١٦٨٤م، وأن الحرب ضد الكورارفا لا بد أن تكون قد وقعت في بداية عهده. وهذا التاريخ يجعل الحوادث تسير في تسلسل منطقي، ولا بد من تفضيله على ماسواه من افتراضات أخرى.<sup>(٥)</sup>

يذكر الإمام بلو<sup>(٦)</sup> أن لابن الصباغ مؤلفات، ولكنه لم يذكر لنا غير مؤلف واحد، وهو الشرح الذي وضعه على عشرينيات الفزاري، ولم يشتهر هذا الشرح. ولكن الباحثين ييفار وهسكت<sup>(٧)</sup> قد توصلا إلى مؤلفين آخرين لابن الصباغ، هما:

(أ) مزجرات الفتيان: وهي عبارة عن قصيدة فيها وصية إلى الشباب ليعملوا

(١) Ibid, p. 114.

(٢) Y. Urvoy: Histoire de L'empire du Bornu (Paris 1946) p. 85.

(٣) Bivar and Hiskett, op. cit., 114.

(٤) H. R. Palmer: History of the first Twelve Years of the Reign of Mai Idris Alooma 1571-1583, (London 1926) p. 91.

(٥) Bivar and Hiskett, p. 114.

(٦) إتفاق اليسور، ص ٥٢. Bivar and Hisk., op. cit. p. 114.

(٧) Bivar and Hisk, op. cit. p. 114.

ماينفعهم، ويث فيهم الروح الدينية. وهذه القصيدة محفوظة في مكتبة جامعة إبادان بنيجيريا، وذكرها كنسديل في القائمة التي تحتوي المخطوطات العربية في جامعة إبادان. وهناك نسخة مخطوطة أخرى في كاتسينا.

(ب) قصيدة في مدح أمير المؤمنين علي، سلطان برنو، عندما انتصر على قبائل الكورارفا. وقد ذكرت هذه القصيدة عدة مراجع<sup>(١)</sup>. أما الأصل العربي للقصيدة أو المخطوط الذي عرفت منه فلم يكشف النقاب عنه حتى الآن، وهناك من يرى احتمال وجود هذا المؤلف محفوظا في كاتسينا.<sup>(٢)</sup>

ويذكر الألوري<sup>(٣)</sup> بعض الأبيات الشعرية لابن الصباغ، ولعله قد أخذها من قصيدته الخاصة بوصيته للفتيان، ومما جاء فيها:

العلم نور الله كالإيمان      ينقصه تلعبه الصبيان  
العلم روض الله كالبستان      أشجاره كثيرة الأفنان  
أثمّاره تطيب باللسان      من ذاقه يرقى إلى الكيوان<sup>(٤)</sup>  
وعلى الرغم من إهمال المؤرخين لدوره التعليمي، إلا أن وصف بلو له بـ«دهليز العلم» يوحى بدوره الكبير في مجال التعليم، ولا نظن أن من حمل هذا اللقب كان خاملا.

---

(١) Palmer, Hist. of Kats, op. cit., pp. s 6-7.

Palmer, Bornu Sahara, op. cit., p. 246

C. K. Meek: A Sudanese Kingdom, p. 27

Hodgkin, Nigerian Perspe., op. cit., p. 132.

Bivar and Hisk, op. cit., p. 114. (٢)

(٣) موجز تاريخ نيجيريا، ص ٨٠.

(٤) الكيوان: هي الشمس.



## ٢ - محمد بن مسنه

هو أبو عبد الله محمد بن مسنه بن فوما بن محمد بن عبد الله بن نوح البرنوي الكشناوي. وقد أورد هذا النسب الباحثان بيفار وهسكت استنادا إلى ماجاء في المخطوط الذي عثرا عليه<sup>(١)</sup>. وقد نبههما المعلم مُتنكا كوماسي، عالم العربية الزاري المرموق، إلى وجود واحدة على الأقل من مؤلفات ابن مسنه. وبعد العثور على المخطوط أمكنهما التعريف بمؤلفات هذا العالم<sup>(٢)</sup>، وفي ضوء ما كتب عنه في السابق.

والمؤلف الموجود لهذا العالم هو «النفحة العنبرية»<sup>(٣)</sup>، وبافتتاحية هذا المؤلف وخاتمته معلومات عن الكاتب، ومن هذه المعلومات الاسم الكامل للكاتب حسبما ذكرناه آنفا، وتاريخ موت الكاتب الذي حدد بيوم الأحد الثاني من رجب سنة ١٠٨٧هـ / ١٨ ديسمبر / كانون الأول ١٦٦٧م بعد عمر جاوز الخمسة والسبعين عاما. وذكر أنه عاش حتى العام الخامس من عهد السلطان الكاتسيني سليمان. وهذه التواريخ لا تتمشى مباشرة مع قائمة الملوك التي أعدها بالمر<sup>(٤)</sup>، والتي جاء فيها أن السلطان الوحيد الذي يحمل هذا الاسم هو سليمان وتاريخه ٩٥٢-٩٦٥هـ / ١٥٤٥-١٥٥٧م.

ويمكن أن نستخلص من هذه الحقائق بأنه ولد حوالي سنة ١٠٠٣هـ / ١٥٩٥م<sup>(٥)</sup>. ومما ذكرته المصادر من مؤلفات ابن مسنه حتى الآن:

---

(١) Bivar and Hisk., pp. 114-115. (والمخطوط الذي اعتمدا عليه سمي (م). وهو المصدر نفسه الذي اعتمد عليه المعلم متنكا أثناء دراسته في جواندو. وقد أخذها من نسخة قديمة محفوظة هناك يرمز إليها الباحثان بـ «ج»). وقد عرفاها من قراءتهما للنسخة (م).

Loc cit. (٢)

(٣) Bivar and Hiskett, op. cit. p. 115. اتفاق الميسور، ص ٥٢

Hsitory of Katsina, op. cit., p. 224, Loc. cit. (٤)

Bivar, Loc. cit. (٥)

- ١ - النفحة العنبرية في حل ألفاظ العشرينية<sup>(١)</sup>. أكملها في أول رجب عام ١٠٤٩هـ / يوليو - أغسطس / تموز-آب ١٦٤٠م.<sup>(٢)</sup>
  - ٢ - اللطيف المنظوم وليس فيه حرف منقوط.<sup>(٣)</sup>
  - ٣ - البزوغ الشمسية في شرح العشماوية<sup>(٤)</sup>. وهو شرح لكتاب عبدالباري الرفاعي العشماوي «المقدمة العشماوية في العبادات».<sup>(٥)</sup>
  - ٤ - تزيين العصا وضرب هامات من عصي.<sup>(٦)</sup>
  - ٥ - عين الخلاص في تلاوة سورة الإخلاص.<sup>(٧)</sup>
  - ٦ - شفا ربا في تحرير فقهاء يوروبا.<sup>(٨)</sup>
  - ٧ - نزهة يسيرة على معرفة مايقبل الصرف وعدمه.<sup>(٩)</sup>
  - ٨ - فتح المرام بمثل قصيدة ابن هشام.<sup>(١٠)</sup>
- لقد كان الشيخ مسنه الكاتسني الأصل فقيها مرموقا استحق أن يكون مستشارا للسلطان في أيامه. ومازالت أسرته تحمل اسمه، وأصبح اسمه أيضا أحد الألقاب الرسمية في الدولة.<sup>(١١)</sup>

(١) Loc. cit.، إنفاق الميسور، ص ٥٢.

(٢) Loc. cit.

(٣) Loc. cit.

(٤) Gal, Supp., 11, p. 435. الإمام بلو يورد كلمة «البزوغ» مجردة من الألف واللام، انظر: إنفاق الميسور، ص ٥٢.

(٥) د. عبدالرحمن زكي، المراجع العربية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦.

(٦) Bivar, Loc. cit.، المراجع العربية، المكان نفسه.

(٧) Loc. cit.

(٨) اقتبس السلطان بلو عنوانا مشابها لهذا وسمى به أحد مؤلفاته، وهو: «أزهار الربا في أخبار يوروبا» ويمكن أن تكون إشارة إلى المؤلف نفسه. انظر: إنفاق الميسور، ص ٥٢.

Bivar and Hiskett, op. cit., p. 115.

(٩) Loc. cit.

(١٠) Loc. cit.

(١١) Loc. cit.، المراجع العربية، ص ٢٦.

### ٣ - عبدالله سك الفلاتي البغاوي

كان هذا الفقيه من العلماء البارزين في بلاد الهوسا، وليس أدل على ذلك من وصف الإمام بلو<sup>(١)</sup> له بقوله: «الشيخ الإمام العلامة، النحرير الفهامة، فريد دهره ووحيد عصره».

رحل هذا الشيخ لطلب العلم في بلاد فزان. وتلمذ على مشاهير الشيوخ في زمانه، وعلى رأسهم البكري<sup>(٢)</sup>. وعندما آب إلى وطنه بعد التزود بالعلم الغزير، تصدى للتدريس، وأخذ عنه جماعة من فضلاء الطلبة العلماء.<sup>(٣)</sup>

وله مع شيخه البكري خلاف في مسألة تتعلق بعبادة كان يفعلها الفلانيون<sup>(٤)</sup>، يرى البكري أنها موجبة للكفر، ويرى عبدالله أنها من المعاصي ماداموا يقرون بالتوحيد ويصلون ويصومون<sup>(٥)</sup>، والإمام بلو<sup>(٦)</sup> يرى أن الصواب مع الشيخ البكري. ومهما يكن الخلاف بينه وبين شيخه البكري فإن الفقيه عبدالله كان من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، وجرى على مدحهم الأنام، حتى قالوا فيه:

مدينة العلم عبدالله ذاك سكا      وفي التعدد خذ من بعده عمرا<sup>(٧)</sup>

---

(١) الإنفاق، ص ٥٠.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

(٤) عادة تقديس النار والقيام ببعض الطقوس حولها في يوم معين. انظر ذلك في الإنفاق، ص ٥٠.

(٥) المكان نفسه.

(٦) المكان نفسه.

(٧) ربما يعني عمر بن محمد الترودي، الذي ستأتي ترجمته.

#### ٤ - محمد بن محمد الفولاني الكشناوي

إن من حسن الحظ أن تكون مؤلفات هذا العالم قد عرفت في زمن ما بالقاهرة. وسبب ذلك أن الشيخ محمد مات بالقاهرة وهو في طريق عودته من الحج<sup>(١)</sup>. ويرجع الفضل الأكبر في التعريف بالشيخ محمد للمؤرخ المصري عبدالرحمن الجبرتي، الذي كتب ترجمة عن هذا الشيخ ومؤلفاته. ومعرفة الجبرتي بمحمد الفولاني كانت نتيجة لمعرفة الشيخ محمد بعلوم التنجيم التي كان من أشهر علمائها في مصر الشيخ حسن الجبرتي، والد المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي.<sup>(٢)</sup>

لقد تلقى حسن الجبرتي (الجبرتي الكبير) علوماً مختلفة من محمد الكاتسيناوي، من بينها علوم التنجيم والعددي<sup>(٣)</sup>. ولم يقوت ابنه عبدالرحمن الفرصة، فقد كان مهتماً بتدوين سير العظماء، فدفعه ذلك إلى أن يترجم لهذا العالم الذي نزل بدارهم ضيفاً ومعلماً، ومات بدارهم سنة ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م. وفي عبارات الجبرتي دليل على الإعجاب بهذا الضيف الحاج الكاتسيني الزائر.

وفد أوردنا الترجمة التي كتبها عنه عبدالرحمن الجبرتي في الملحق رقم «٨» من هذا البحث.

وهذه الترجمة تعكس لنا جلياً مكانة هذا العالم العلمية بين علماء زمانه المشاركة والمغاربة.

---

(١) الإنفاق، ص ٥١، الجبرتي: عجائب الآثار، ص ١٦٠.

(٢) Bivar and Hiskett, p. 135.

(٣) عجائب الآثار، ص ١٦٠.

وكتبت مؤلفات الشيخ محمد الموجودة أثناء مجاورته وفيما بعد ذلك .  
وقد ذكر الجبرتي<sup>(١)</sup> عناوينها ووصفها في نصه : « . . . وحج سنة ١١٤٢هـ /  
١٧٢٩م ، وجاور بمكة وابتدأ هناك بتأليف : الدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم  
في علم الطلاسم والنجوم ، وهو كتاب حافل رتبه على مقدمة وخمسة مقاصد  
وخاتمة ، وقسم المقاصد أبوابا ، وأتم تبليغه بمصر في رجب سنة ١١٤٦هـ /  
يناير ١٧٣٤م . ومن تأليفه كتاب بهجة الرفاق ، وإيضاح اللبس والإغلاق في  
علم الحروف والأوفاق ، ورتبه على مقدمة ومقصد وخاتمة ، وجعل المقدمة ثلاثة  
أبواب والمقصد خمسة أبواب ، وكل باب يشتمل على مقدمة وفصول ومباحث  
وخاتمة . وله منظومة في علم المنطق سماها : منح القدوس ، وشرحها شرحا  
عظيما سماه إزالة العبوس عن وجه منح القدوس ، وهو مجلد حافل نحو ستين  
كراسا ، وله شرح بديع على كتاب الدرر والترياق في علم الآفاق . . . ومن  
تأليفه بلوغ الأرب من كلام العرب في علم النحو ، وله غير ذلك » .  
وهذه المؤلفات التي ذكرها الجبرتي غير معروفة المكان ماعدا واحدا ، وهو  
الدر المنظوم ، موجود بالقاهرة ، في فهارس المكتبة الخديوية .<sup>(٢)</sup>  
وكما هو واضح من عبارة الجبرتي التي ختم بها قائمة مؤلفات الشيخ  
محمد : « وله غير ذلك » ، فإن الشيخ محمد كان من المكثرين . وقد وجدت  
نسخة من مؤلفات للشيخ محمد بيرلين ، تحت رقم ٢٥٩٩ ، ولم يرصدها  
الجبرتي ، وعنوانها « التحريريات الرائعة » .<sup>(٣)</sup>  
وبهذا القدر المعلوم من المؤلفات يتربع الشيخ محمد على قمة مشاهير

(١) عجائب الآثار ، ص ١٥٩-١٦٠ .

(٢) Bivar and Hiskett, p. 137.

Loc. cit. (٣)

علماء غربي إفريقية عامة وبلاد الهوسا خاصة، وأقر له بالعلم والفضل علماء الحرمين ومصر. (١)

ويبدو أن الشيخ محمد كان من أصحاب النظم أيضا، وفي الأبيات التي أوردها له الجبرتي (٢) دليل على مقدرته في قرض الشعر. والبيتان هما:

طلبت المستقر بكل أرض      فلم أر لي بأرض مستقرا  
تبعْتُ مطامعي فاستعبدتني      ولو أنني قنعت لكنت حرا

#### ٥ - هارون الزكزكي (أو الزاري)

أصله من قبيلة الفولاني، زعيمة الجهاد والإصلاح الديني في مطلع القرن التاسع عشر ببلاد الهوسا. كان من المشهود لهم بالقدم الطولى والباع الواسع في العلم والتدريس حتى وصل إلى مقام كبير، ووصف بـ«شيخ الشيوخ» (٣). وقد تخرج على يديه جماعة من كبار علماء بلاد الهوسا، أمثال الشيخ رمضان بن أحمد.

يبدو من ترتيب الإمام بلّو للشخصيات التي ترجم لها أن الشيخ هارون من علماء القرن الثامن عشر، إذ إنه لم يذكر تاريخا لوفاته أو وفاة تلاميذه أو أساتذته حتى يمكن أن يوضع تاريخ تقريبي لتاريخ حياته.

#### ٦ - عمر الترودي

هو عمر بن محمد بن أبي بكر الترودي. أصله من إمارة كبي الهوسية. يقول عنه الإمام بلّو (٤): «العالم العلامة، والنحرير الفهامة، البليغ.. كان

(١) إنفاق الميسور، ص ٥١.

(٢) عجائب الآثار، ص ١٦٠.

(٣) إنفاق الميسور، ص ٥٢.

(٤) المكان نفسه.



فقيها جليلا، عالما صدرا شهيرا، ماجدا فاضلا أصيلا، من بيت علم ودين». وهناك دليل واضح على غزارة علمه وسعة اطلاعه، وهو ماجاء على لسانه عندما كتب بعض إخوانه في الله نصحا وبيانا لما لا يعتمد عليه من الكتب. وقد ذكر له أكثر من خمسين كتابا في العلوم الإسلامية، ذكرها كلها الإمام بلو.<sup>(١)</sup>

وسببه في عدم الاعتماد فيما ذكر من كتب هو «لكون أكثر ما فيها ضعيفا وباطلا، ولكون الأحاديث والآثار التي فيها موضوعات كثيرة في أيدي الناس»<sup>(٢)</sup>. وفي هذا دليل على حسه النقدي.

وبالإضافة إلى غزارة علمه، دخوله في ميدان التأليف الذي خرج لنا منه بالمؤلفات الآتية:

أ ( ١ ) تخميس على «الكواكب الدرية» للبوصيري.

ب ( ٢ ) تخميس على «بانت سعاد» لكعب بن زهير.

ج ( ٣ ) بيان لما لا يعتمد عليه من الكتب.

## ٧ - علي جب

يرى بينفار وهسكت<sup>(٣)</sup> أنه من المحتمل أن يكون علي جب من أقرباء الشيخ عثمان بن فودي أو أحد أجداده، إذ إن عبدالله بن محمد فودي<sup>(٤)</sup>، يذكر في نسب والده الاسم «جب»، وهو الجد الخامس. ولكننا نرى أنه لو كان من أجداد عبدالله لذكر الإمام بلو<sup>(٥)</sup> ذلك صراحة عندما ترجم له، والأرجح

(١) المكان نفسه.

(٢) المكان نفسه.

(٣) op. cit., p. 140.

(٤) إبداع النسخ، ص ١.

(٥) إتفاق المسور، ص ٥٤.

عندنا هو أن هذا مجرد تشابه وتطابق في الأسماء كما يحدث في كل بلد،  
علماً بأن الاسم «جب» أو «جوب» من الأسماء المشهورة في غربي إفريقية  
عموماً، كما لمست هذا بنفسى عند زيارتي لمناطق السنغال وجامبيا.

كان الشيخ علي جب من العلماء المشهورين في بلاد الهوسا، وقد وصفه  
صاحب الإنفاق بـ«شيخ الشيوخ»<sup>(١)</sup> كان من السعاة إلى الدعوة الإسلامية مما  
حبب فيه العامة والخاصة. ومن تلاميذه المشهورين أحمد بن غار (أو غوار)،  
الأصولي المحقق والعالم المتفنن، والشيخ جبريل بن عمر،<sup>(٢)</sup> وغيرهما.  
وبجانب اشتغاله بالتدريس والدعوة قام بعمل مؤلفين هما:

أ ( شرح على البكري .

ب) شرح على لاميه الأفعال .

٨ - جبريل بن عمر

هو أشهر أستاذ للشيخ عثمان بن فودي وأخيه عبدالله بن فودي<sup>(٣)</sup>.  
وتقول المصادر الهوسية بأنه هوسي الأصل.<sup>(٤)</sup>

للشيخ جبريل أثر عميق في حياة الشيخ عثمان لأنه كان من المصلحين  
الكبار الذين نادوا بالإصلاح وغرسوه في نفوس تلاميذهم. ويعترف له تلميذه  
عثمان بالكثير من الفضائل. وعنه يقول: «ليعلم أهل بلادنا السودانية هذه،  
بعض ما أنعم الله عليهم، ليجتهدوا في شكر الله تعالى على وجود هذا الشيخ

---

(١) المكان نفسه .

(٢) المكان نفسه .

(٣) انظر: إيداع النسوخ، ص ٥، ٨. وعن الكتب التي درسها عبدالله على يديه انظر الملحق الذي نشرنا  
فيه مخطوط «إيداع النسوخ» .

(٤) Lewis, Cambridge History of Islam, op. cit., p. 367.

في هذا البلد، فيستوجبوا المزيد<sup>(١)</sup>». وقال عنه شعرا فيه اعتراف له بالفضل عليه، ومما قاله:

إن قيل في بحسن الظن ما قيلَ      فموجة أنا من أمواج جبريل<sup>(٢)</sup>

وقد ذكر الإمام بلو الكثير من فضائل هذا الشيخ، منها أنه كان ممن حمل لواء العلم في زمانه، وممن بلغ الغاية في الاشتغال بالكتاب والسنة، وحض الناس عليهما، وأنه أول من قام بهدم العادات الذميمة في غربي إفريقيا. وأكمل هذه الرسالة وتوجها عميد أسرة بلو الشيخ عثمان بن فودي. وبلغ الغاية في العبادة والخلق الحسن والغيرة على الإسلام، وغير ذلك من الفضائل التي لا تحصى، وكلها من فضائل وصفات العلماء الأتقياء. وكل كلمة من كلمات الإمام بلو تفيض بالثناء عليه والاعتراف بفضله والتواضع له. ومما جاء عنه: «ونحن بالنسبة إلى مقامه نسبة الظالع إلى الضليع، ونسبة دوي الزنبور مع نغمة الزبور، فوالله لا ندري هل نهتدي إلى سبيل السنة، وترك العوائد الذميمة، لولا تنبيه هذا الشيخ المبارك. وكل من أحيا السنة وهدم العوائد الذميمة في بلادنا السودانية هذه، فهو موجة من أمواجه»<sup>(٣)</sup>.

لم يكتف الإمام بلو بالثناء على الشيخ جبريل نثرا بل أردف ذلك بالثناء عليه شعرا. ومما قاله فيه:

شيخ الشيوخ بأرضنا جبريل      بركاته ما نالها تفصيل  
كُشِفَتْ به ظُلُمُ الضلال كأنه      في كشفها يبلادنا قنديل<sup>(٤)</sup>

---

(١) إنفاق الميسور، ص ٥٤، نقلا عن: شفاء الغليل في حل ما أشكل من كلام شيخنا جبريل، للشيخ عثمان بن فودي.

(٢) إبداع النسخ، ص ٨، إنفاق الميسور، ص ٥٥.

(٣) الإنفاق، المكان نفسه.

(٤) إنفاق الميسور، ص ٥٥.

وامتدحه أيضا تلميذه الشيخ عبدالله بن فودي، عم الإمام بلو. وما قاله  
في مدحه شعرا:

جبريل مَنْ جبر الإله لنا به      دينا حنيفا مستقيم المنهج  
شمس الضحى بزغت بغرب فانتهدت      للشرق تشرق للقريش وخزرج<sup>(١)</sup>

وقد تتلمذ على يديه الكثير من شيوخ العصر من غير أسرة الشيخ عثمان  
ابن فودي. وحج إلى بيت الله الحرام مرتين<sup>(٢)</sup>، والتقى في حجته الثانية بشيخ  
له مصري يدعى «مرتضى»، وأجازه الشيخ مرتضى جميع مروياته.<sup>(٣)</sup>

ومن الأمور المؤكدة أن الشيخ جبريل أسهم في الأدب الديني أيضا في  
ذلك العصر الذي عاش فيه، وهو أواخر القرن الثامن عشر وقيل اندلاع ثورة  
الفولاني الإصلاحية. فالشيخ عثمان في مؤلفه «نصيحة الأمة المحمدية»<sup>(٤)</sup>  
يذكر مؤلفات الشيخ جبريل في عدة مناسبات، ويتكلم وكأن مبادئ شيخه  
جبريل معروفة على نطاق واسع لدى من يخاطبهم. وهاك مثالا لكتابات الشيخ  
جبريل المعروفة لدى الكتاب، وهي شعر، وجد نصه في كتابات الشيخ عثمان،  
لاسيما في كتابه «نصيحة الأمة المحمدية» و«شفاء الغليل فيما أشكل من كلام  
شيخنا جبريل»<sup>(٥)</sup>، وقد اقتبس الإمام بلو حوالي نصف هذه القصيدة.

والقصيدة كاملة هي:

الحمد لله الذي مَنْ على      عباده بخير من قد أرسلنا  
محمد صلى عليه الله      والآل والصاحب ومن تلا

(١) المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٢) المكان نفسه.

(٣) إيداع النسخ، ص ٨.

(٤) Bivar and Hiskett, p. 141, p. 23. نقلا عن: Kensdale, Catalogue

(٥) إنفاق اليسور، ص ٥٤، Bivar and Hisk., Loc. Cit.

ما انصدع الفجر عن الظلام  
وبعد فاعلم أن ذا تبصرة  
فلا ترى منهم سوى من يدع  
مستترا بالصوم والصلاة  
فهو بحق كافر صريح  
عم عن الحديث والكتاب  
راض بحكم الجاهلية التي  
حير أفكار صغار العلم  
ما بينهم وبين أهل الشرق  
وذاك يستبين بالظواهر  
يدرك بالخبرة والتجربة  
مالم يكن يفعله إلا الذي  
فمن أتاه كافر مرتد  
والدع لليتيم والزيادة  
والأخذ بالنساء بالعصبية  
كذلك التبديل للأحكام  
كذلك التقليد للآباء  
وكل ما يأخذه التأويل  
وذاك كالزنا وشرب الخمر  
مع اعتقاد حرمة لهذه  
ثم الصلاة والسلام سرمدا

ودام دين الله بالأحكام  
للناس في السودان بل تذكرة  
إسلامه بغمة الموسع  
عن قدحه بأقبح اللعنات  
لأنه محرم مبيع  
وما له قال ذوو الألباب  
أزالها الله بوضع الشرعة  
فحكموا إسلامهم بالوهم  
تفرقة لاحت لأهل الحق  
يدركه فيه ذوو البصائر  
بأفعال تظهر للأبصرة  
كفرانه بالإجماع يحتذي  
كذلك كفرنا بواحا عد  
على نساء أربع حشاده  
مقتفيا لأهل جاهلية  
بدون تأويل من الأعلام  
في الجاهلية بلا خفاء  
فمن أتاه دينه جميل  
والقتل للنفس وبيع الحر  
فرق بذا أناسنا يامنته  
على النبي المصطفى محمدا



وآله وصحبه الكرام ما دام حكم الله في الإسلام<sup>(١)</sup>  
 وما هو واضح أن القصيدة المذكورة ذات طابع فقهي، مثل قصيدة  
 شرب الزلال للإمام الشيخ محمد بن الحاج عبدالرحمن البرناوي<sup>(٢)</sup>، ففي  
 القصيدة إيضاح لما كان يجري في غربي إفريقية آنذاك من اختلاف في مسائل  
 معينة، وفيها يظهر جليا أثره في تلميذه عثمان فيما بعد.  
 وعموما فقد كان الشيخ جبريل مصلحا كبيرا ومعلما قديرا. وقد مات  
 قبل حركة تلميذه عثمان الإصلاحية، ربما في عصر السلطان الغوييري باوا  
 «Bawa» (١١٨٢ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٦٨ - ١٧٩١ م).<sup>(٣)</sup>

#### ٩ - الشيخ عثمان بن فودي

هو ابن محمد عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح المعروف بابن  
 فودي.<sup>(٤)</sup> والد الإمام محمد بلو وأخو الشيخ عبدالله بن فودي اللذين توليا  
 السلطة السياسية بعد نجاح الثورة الإصلاحية وتفرغ الشيخ عثمان للدعوة  
 والتربية والتعليم. كان ميلاده في سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٤ م<sup>(٥)</sup> كواحد من أفراد  
 الجاليات الفولانية التي أقامت في بلاد الهوسا منذ أزمان بعيدة، وأصبحت

(١) Bivar and Hisk. pp. 141-142، إنفاق المسور، ص ٥٩.

(٢) Ibid; pp. 118-123. (انظر القصيدة في ملحق رقم ٩).

(٣) Ibid, p. 141.

(٤) إنفاق المسور، ص ٥٧. (وقد ذكر الشيخ عبدالله أن كلمة هنا شطب «فودي» (بفاء مضمومة ضمة  
 إشمام ويعد الواو دال مهملة مضمومة ويعلها ياء مهملة) معناها في لغتهم - الفولانية - الفقيه. وقد  
 أورد النسب كاملا، إيداع النسخ، ص ١. (أما الجبرتي فيذكر أن فودي معناها «الكبير»، عجائب  
 الآثار، ص ١٥٩).

A. D. H. Bivar, "The Wathigat Ahl Al-Sudan: Amanifesto of the Fulani Jihad", J. A. H.,  
 11,2 (1961, p. 255.

(٥) Loc Cit. الدكتور علي أبوبكر، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠.

F.H. EL Masri, "The life of Shehu Usuman Dan Fodio Before the Jihad", J. H. S. N.,  
 11,4 (1964), p. 435.

(وهناك من يذكر أن ميلاده كان سنة ١٧٥٥ م). انظر:

H. A. S. Johnston: The Fulani Empire of Sokoto, p. 27.



جزءاً من المجتمع الهوسي . وكانت أسرته تقيم في إمارة غويير ، الواقعة الآن على الحدود الشمالية الغربية لنيجيريا الحديثة .<sup>(١)</sup>

عاش الفولانيون بين المجتمعات الحضرية الهوسية ، ومارسوا نفوذاً قوياً على حكام الهوسا . وفي الوقت ذاته احتفظوا بروابطهم مع أجناسهم التي كانت تمارس الرعي ، واحتفظوا بمعرفتهم اللغة الفولانية<sup>(٢)</sup> . وتمكنوا عن طريق جدهم واجتهادهم ، واستغلال أوقات فراغهم بأن يشغلوا أنفسهم بأمور الدراسات الإسلامية والأدب العربي . وقد كان التعليم والتأليف يجريان في دمائهم . وقد تربع على قمة ذلك الشيخ عثمان بن فودي وأخوه الشيخ عبدالله وابنه الشيخ بلو . كان ثلاثتهم من الأئمة العظام الذين أغنوا المكتبة الإسلامية بغربي إفريقية ، وأناروا الطريق إلى بلاد الهوسا لكي تصبح أقوى قوة إسلامية في إفريقية الغربية .

وقد عنت مؤلفاتهم بالمسائل الفقهية والاجتماعية ، وكونت نهضة ملحوظة في مجال التعليم الإسلامي العربي بغربي إفريقية .

كان والد الشيخ عثمان رجلاً تقياً وعالماً ، مثل كل مسلمي شمالي إفريقية وغربيها ، فقد كان سنياً مالكيًا ، ربي أولاده على المذهب المالكي ، وعلمهم تعليماً ممتازاً ليصبحوا علماء المستقبل . وفي تلك الأيام كان التعليم في غربي إفريقية يعتمد على دراسة اللغة العربية وآدابها والفقه الإسلامي<sup>(٣)</sup> . وكما هو الحال بالنسبة لكل أبناء المسلمين فإن دراسة الشيخ عثمان بدأت بالقرآن وعلى يد والده<sup>(٤)</sup> . ثم بعد ذلك جلس إلى عدة شيوخ

(١) Bivar, Wathiqat, Loc, cit.

(٢) Loc. cit.

(٣) The Fulani Empire, op. cit. p. 436.

(٤) إيداع النسخ ، ص ٤٤ . The life of Shehu, op. cit., p. 436.

ليواصل تعليمه في فروع الدراسات الإسلامية المختلفة؛ فأخذ العشرينيات ونحوها من شيخه عثمان المعروف بـ«بندوا الكنوي»<sup>(١)</sup>، وتلقى الإعراب وجميع علوم النحو من شيخه عبدالرحمن بن حمدا، وقرأ المختصر على عمه وخاله عثمان بن الأمين بن عثمان بن حسم بن عال، وصاحبه نحو ستين، وكان ابن الأمين هذا من الأمرين بالمعروف والناهي عن المنكر.<sup>(٢)</sup>

ولم يكتف الشيخ عثمان بما تلقاه من علوم على أيدي علماء مسقط رأسه، بل هاجر في طلب العلم إلى المناطق المجاورة لأرض الهوسا، فالتقى بشيخ الشيوخ جبريل بن عمر، وصاحبه نحو ستين<sup>(٣)</sup>، وفي رواية أخرى لمدة سنة<sup>(٤)</sup>، يتعلم منه حتى بلغ معه بلاد أجاديس (أكدز)، «فرجعه الشيخ جبريل إلى أبيه وسار هو إلى الحج، لكون أبيه لم يأذن له في السير إلى الحج».<sup>(٥)</sup> وله مع هذا الشيخ خلاف مشهور حول مرتكب الكبيرة، إذ يرى الشيخ عثمان تكفير<sup>(٦)</sup> مرتكب الكبيرة، وهو خلاف ما يراه شيخه، وعلى الرغم من ذلك لم يفقد احترامه وإجلاله ووصفه بأنه بحر العلوم الزاخر، وزاره بعد مجيئه من الحج في المرة الثانية سنة ١٢٠١هـ / ١٧٨٦م، ومكث معه عدة أيام.<sup>(٧)</sup>

وبدأ الشيخ عثمان ممارسة التعليم والإرشاد حوالي سنة ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م أو سنة ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م، وهو في سن العشرين<sup>(٨)</sup>، وذلك بجانب تلقيه التعليم على يد

---

(١) الإيداع، المكان نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥.

(٣) The life of Shehu, op. cit. p. 438.

(٤) إيداع النسخ، ص ٦.

(٥) المكان نفسه.

(٦) Ibid., p. 439.

(٧) Loc. cit.

(٨) Loc. cit.

مختلف المشايخ<sup>(١)</sup>. وكان ينهج نهجا إصلاحيا شاملا في إرشاده وتعليمه. لقد أثار نهج الشيخ الإصلاحى جدلا عريضا عند كل من تصدى له بالكتابة. ولتشابه أهداف حركته بحركة محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، ذهب كثير من الكتاب والمؤرخين<sup>(٢)</sup> إلى أن الشيخ عثمان أدى فريضة

(١) Loc. cit.

(٢) ومن الذين قالوا بحجه أو تأثره بمحمد بن عبد الوهاب المذكورون أدناه:

- الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٦، (وكل كتاباته الأخرى المثبتة في مراجع البحث).

- الدكتور مصطفى مسعد، الإسلام وحركات الفلان، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٧ (ذكر حجه وتأثره بالوهابية).

- الدكتور عبد المجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان، ص ٥٥. (ذكر حجه وتأثره بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

- د. سامي منصور: نيجيريا عملاق إفريقيا التائه، ص ٢٣. (يذكر أن الدعوة الوهابية في إفريقيا تزعمها في نيجيريا عثمان بن فودي الفولاني).

- الدكتور شلبي، الموسوعة، ج ٦، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٦.

- Burns, History of Nigeria, op. cit, p. 49.

- د. عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقية الغربية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧. (وقد ذهب إلى أبعد من الحجج والتأثر بالوهابية إذ قال بأنه تلقى علومه الدينية في مكة والمدينة. وقد تبنى هذه الفكرة في كل مؤلفاته التي تعرضت للشيخ.

- دونالد ويدنر: تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، مرجع سبق ذكره، ص ١١٥، (ذكر الحجج ولكن لم يذكر التأثر بالوهابية).

- إبراهيم بن صالح بن يونس، مرجع سبق ذكره، ص ١١٠ (ذكر الحجج ونفى الأثر الوهابي).

- الدكتور بخيت، المجتمع، ج ٢، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٩.

- نعيم قلاح، مرجع سبق ذكره، ص ٨٣.

- د. طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص ١٣١ (ذكر الحجج فقط).

- F. J. Pedlar, West Africa, op. cit., p. 62.

- د. حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ١١٩.

- آرنولد، الدعوة إلى الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٠ (ولعل أغلب الكتاب قد نقلوا عنه، ولم يذكر مصدره في الزعم بحج عثمان وتأثره بالوهابية).

- أما الدكتور النقر فقد ذكر بأن عثمان لم يحج واستند في ذلك على «إيداع النسوخ» وعلى قصيدة

==

الحج وتأثر هناك في الحجاز بآراء الشيخ محمد عبد الوهاب. ولكن لم يكن لهذا الزعم سند تاريخي. أما الحقيقة الخاصة بحج الشيخ عثمان بن فودي فتكمن فيما ورد على لسان أخيه عبدالله في النص السابق «فرجعه الشيخ جبريل إلى أبيه وسار هو إلى الحج»<sup>(١)</sup>. وفي قصيدة منسوبة إلى الشيخ عثمان نفسه، ذكرها روبنسون.<sup>(٢)</sup> وجاء الدكتور النقر<sup>(٣)</sup> بالشاهد فيها مما يجزم بأن الشيخ لم يحج. والشاهد هو:

حقاً إنني أخاف والديّ في كل حق

(...) Indeed I fear my parents in every truth.

ولأنني أخاف والديّ لذا لم أذهب

And it is because I fear my parents that I did

إلى مدينة محمد الذي يفوق الكل

not go to the city of Muhammad who excels all.)

وأما قضية تأثره بالوهابية فأمر لم يقم دليل على صحته حتى الآن. ومن الأدلة على عدم تأثره بالشيخ محمد بن عبد الوهاب هو أنه لم يشر في جميع مؤلفاته إلى الوهابية ولا إلى آراء الشيخ محمد بن عبد الوهاب<sup>(٤)</sup> أو آراء

---

لعثمان بن فودي، وفيها تصريح بذلك، أوردها روبنسون في كتابه «نماذج من أدب الهوسا». C. H. Robinson, Specimens of Husa Literature (London, 1896), P. 100 See: Nagar, The pilgrimage Tradition, op. cit., p. 62.

- وأيضاً ذكر عدم حجه الدكتور علي أبوبكر (ص ٦٨) ولكنه لم يذكر مصدره. وأقدم من ذكر عدم حج الشيخ، الدكتور شريف محمد شريف (ص ٩٩)، ولكنه لم يذكر سنده في ذلك ولم يحلنا إلى مصدر أو مرجع.

(١) إيداع النسوخ، ص ٦.

(٢) Robinson, Sepeciment The pilgr. Trad., p.62 op. cit., p. 100. نقلاً عن

The Pilgr. Trad., Loc. cit. (٣)

(٤) ابن يونس، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠٠.

الإمام ابن تيمية وابن القيم، وهما من مشاهير المذهب الحنبلي، الذين تتلمذ الإمام محمد بن عبد الوهاب على مؤلفاتهم. وأن إنكاره للبدع والمحدثات، فأغلب الظن أنه تأثر فيه بمؤلفات المغيلي وابن الحاج الفاسي صاحب المدخل، وغيرهما من علماء المالكية الذين تشددوا في الأخذ بالسنة<sup>(١)</sup>. وأن الشيخ ظل متمسكا بالطريقة الصوفية القادرية، ومازال معظم تلاميذه يتمسكون بها حتى اليوم<sup>(٢)</sup>. وكان الشيخ يختم مؤلفاته بعبارات متعارف عليها في الأوساط الصوفية. وهذا التعلق بالصوفية أمر ينكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب مادام لا يستند إلى قرآن أو سنة.

ومما يدل على تمسك الشيخ عثمان بالطريقة القادرية نظمه قصيدة طويلة باللغة الفولانية - لغته الأم - في نحو أربعين بيتاً، توصل فيها بشيخه عبد القادر الجيلاني، الذي تنسب إليه الطريقة القادرية، وقد ترجمها أخوه الشيخ عبدالله بن فودي إلى اللغة العربية. ومما جاء فيها قوله:

يارب عالم باطن كالظاهر	أجب الذي يدعو بعبد القادر
بركات أحمد في بلاد الله قد	عمت وجمت عند عبد القادر
يارب يامتفضلاً لعباده	صلني بفضلك عند عبد القادر
إن المسيء لدى الأكابر يلتجي	فلجأت عند الشيخ عبد القادر
إن كنت لم أحسن فشيخي محسن	إني لمنتسب لعبد القادر
ما كنت أهلاً أن أجاب أجب لكو	ن وسيلتي درجات عبد القادر

.....

(١) المكان نفسه، د. علي أبو بكر ص ٦٩ والدكتور علي يذكر بأن الدليل على تأثره بأمثال المغيلي هو كثرة احتجاج كل من عبدالله بن فودي ومحمد بللو بفتاوي المغيلي لأسكيا الحاج محمد في نزاعهم الديني والسياسي مع الشيخ الأمين الكانمي البرناوي).

(٢) ابن يونس، المكان نفسه.



أرني بدينك غالباً في هذه البلـ ——— إبدان من درجات عبدالقادر

.....

عربت ما لأخي وشيخي عجمة متوسلين معاً بعبدالقادر<sup>(١)</sup>  
وأكد الشيخ عثمان التزامه وتأثره بالطريقة القادرية في كتابه «الورد»،  
حيث يقول فيه إنه عندما بلغ الأربعين سنة وخمسة أشهر وبضع ليالٍ جذبته نبي  
الله إليه، فوجد هناك الصحابة والأنبياء والأولياء، حيث رحبوا به، وأجلسوه  
وسطهم، ثم جاء سيده عبدالقادر الجيلاني بثوب أخضر، وقد ناداه عبدالقادر  
الجيلاني باسم إمام الأولياء، ثم قلده سبق الحق.<sup>(٢)</sup>

ويذكر عنه ابنه محمد بلّو في «إنفاق الميسور»<sup>(٣)</sup> ما نصه: «وأخبرني أنه  
حين حصل له الجذب الإلهي، ببركة الصلاة على النبي ﷺ، إذ كان يواظب  
عليها من غير ملل ولا كلل ولا فتر، أمدّه الله بفيض الأنوار، بواسطة الشيخ  
عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه، وجده الرسول ﷺ، فشاهد من عجائب  
الملكوت وحصل على غرائب الجبروت، وشاهد أفعال الأسماء والصفات والذات،  
ووقف على اللوح المحفوظ، وفك رمزه الملحوظ، وكساه الحق تعالى حلة  
الدعوة إليه، وتوجه تاج الهداية والإرشاد إليه، فنادى منادي الحضرة: يا أيها  
الناس أجيئوا داعي الله، مرات، ثم قال: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ (الذاريات: ٩)،  
ثم رده الحق تعالى إلى محل الإفاقة، ليتأتى له الإرشاد والدعوة، وربما تعاهدته

---

(١) انظر: Fodiyo, A. M.: "Tazyin Alwaraqat", Edited, With a translation and introductory study of the author's life and times, by M. Hiskett, Ibdan University Press, 1963, pp. 51-54.

(٢) انظر: الشيخ عثمان بن فودي، كتاب: «ولما بلغت في الذكر والورد» مخطوط، ص ٣-٤، نقلاً عن د. عبدالله عبدالرازق إبراهيم: الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، ص ٣٦ - الحاشية.

(٣) مرجع سبق ذكره، ص ٥٨.



أنوار الجلال فقبضته، وتفقدته أنوار الجمال فبسطته، مع أنه من أهل التمكين والمقامات، لا من أهل الأحوال والواردات...»

وللشيخ عثمان مقالة بعنوان: «ولما بلغت ستاً وثلاثين» ذكر فيها الجذب الإلهي الذي حصل له وصيغة الورد الخاص به الذي لقنه.

وعندما تطرق ابنه بلو إلى شمائله، وصفه قائلاً: «... مقطوعاً بولايته وقطبانيته... وهو شيخ علماء وقته، بل قطب الأئمة في جميع الأعصار... قطب الوقت في الحال والمقال... وكان صاحب كرامات ظاهرة ومقامات فاخرة وأسرار زاهرة وبصائر باهرة وأحوال خارقة... وإشارات نورانية ونفحات روحانية وأسرار ملكوتية ومحاضرات قدسية... وخرق له العادات، وأنطقه بالمغيبات، وأظهر على يديه العجائب والكرامات...»<sup>(١)</sup>

وقال أيضاً: «وللشيخ كرامات لا تعد ولا تحصى ولا يحملها إلا ديوان وحده، ولولا أن الحال ضيق علينا لأوردنا منها بعض ما شاهدناه بأنفسنا، ولكن إذا أذن الله لنا فسنفرد لها إن شاء الله تأليفاً مستقلاً».

وقد ألف الشيخ عثمان بن أبي بكر، المدعو غطاطو بن ليما - وزير الشيخ عثمان بن فودي - كتاباً في كرامات الشيخ عثمان من صغره إلى أن أسس الدولة الفولانية، وأسماء: «رَوْضُ الْجَنَانِ فِي ذِكْرِ كَرَامَاتِ الشَّيْخِ عَثْمَانَ»<sup>(٢)</sup>، ويقع في اثنتين وأربعين صفحة.

وكان أساتذة ومشايخ الشيخ عثمان بن فودي من رجال الصوفية، منهم

---

(١) المرجع نفسه، ص ٦٦-٦٧.

(٢) من مخطوطات مكتبة البلدية بسوكوتو - ونلفت نظر القارئ إلى أن الإشارة إلى أماكن وجود المخطوطات المتعلقة بنيجيريا، أخذناه عن الدكتور علي أبوبكر: «الثقافة العربية في نيجيريا...» رسالة دكتوراه منشورة.

الشيخ جبريل بن عمر<sup>(١)</sup> وعمه عثمان بن الأمين بن عثمان بن حم بن عال<sup>(٢)</sup>. وكذلك كان رجال دولته وأهل بيته من الصوفية.

وله عدة مؤلفات في التصوف عموماً وبصفة خاصة في الطريقة الصوفية القادرية التي ينتسب إليها، من ذلك: السلاسل القادرية للأمة الأحمدية<sup>(٣)</sup> - السلاسل الذهبية للسادات الصوفية<sup>(٤)</sup> - تبشير الأمة الأحمدية<sup>(٥)</sup> - هداية الطلاب<sup>(٦)</sup> - فتح البصائر لتحقيق وضع علوم البواطن والظواهر<sup>(٧)</sup> - أوراد الإمام الشاذلي<sup>(٨)</sup> - تطيب قلوب الأمة الأحمدية بذكر بعض القصائد القادرية. <sup>(٩)</sup>

وكذلك ألف معظم تلاميذه ورجال دولته كتباً أو مقالات في التصوف، ومثال ذلك مقالة: «رفع الاشتباه في التعلق بالله وبأهل الله»<sup>(١٠)</sup>، في خمسين صفحة، تحدث فيها مؤلفها ابنه محمد بلو عن طرق الأولياء، وقال إنها كلها على صواب، وإنها موصلة كلها إلى الله تعالى<sup>(١١)</sup>. ومقالة: «البدور الزاهية

- 
- (١) انظر، محمد بلو: إنفاق الميسور، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨.
  - (٢) انظر، عبدالله بن فودي: إبداع النسخ، مصدر سبق ذكره، ص ٤.
  - (٣) مخطوطة في أربع وعشرين صفحة، توجد في مكتبة الآثار بكودونا النيجيرية.
  - (٤) مخطوطة في أربع عشرة صفحة، في بيان إدخال المسلم في الطريقة القادرية وحياته فيها - موجودة في المكتبة النظامية بسوكوتو (نيجيريا).
  - (٥) مخطوطة في خمسين صفحة، عن مناقب الشيخ عبدالقادر الجيلاني، من مخطوطات المكتبة النظامية بسوكوتو.
  - (٦) مخطوطة، في أمور الدين والتصوف، من مخطوطات المكتبة العامة بسوكوتو.
  - (٧) مخطوطة، في التصوف، من مخطوطات المكتبة العامة بسوكوتو.
  - (٨) مخطوطة، في عشرين صفحة، من مخطوطات المكتبة العامة بسوكوتو. وفي تناوله أوراد الشاذلي وغيره من مشايخ الطرق الصوفية الأخرى، دليل على عدم تعصبه الشديد لطريقته القادرية.
  - (٩) من مخطوطات المكتبة العامة بسوكوتو.
  - (١٠) من مخطوطات مكتبة الآثار بكودونا.
  - (١١) انظر: د. علي أبوبكر: الثقافة العربية في نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٨-٢٨٩.

في السلاسل القادرية»، لمحمد بلو أيضاً<sup>(١)</sup>. ومقالة: «ميزان العرفان لمن يدعي الصلاح من الإخوان»<sup>(٢)</sup>، للشيخ والي عمر، من كبار علماء زاريا في عهده، وقد لخصها من كتاب: «تنبيه المغترين» لعبد الوهاب الشعراني<sup>(٣)</sup>. و«كتاب النصيحة»<sup>(٤)</sup> للشيخ عبدالله بن فودي، وهو أخو الشيخ عثمان. ومقالة: «بيان الأركان والشروط للطريقة الصوفية وتلقين الأسماء السبعة على طريق السادة الخلوتية»<sup>(٥)</sup>، للشيخ عبدالله بن فودي أيضاً.

ويلاحظ أن من مصادر التصوف المعتبرة عند هؤلاء القوم: كتب الغزالي والشعراني والمغيلي والسيوطي وغيرهم من متصوفة المغرب أو مصر أو الحجاز.<sup>(٦)</sup>

ومما لاشك فيه أن الالتزام بأوراد الطريقة القادرية والتوسل بعبد القادر الجيلاني دليل على قبول آراء عبد القادر الجيلاني في العقيدة، وهي آراء خطيرة جداً، ومن أبرز الأدلة على خطورتها من الناحية العقدية:

(١) مما ينسب لعبد القادر الجيلاني، وهو في الحقيقة لابن عربي:

أنا القرآن والسبعُ الثاني	وروحُ الروح لا روح الأواني
وغُصُ في بحر ذات الذات تنظر	معاني ما تبدت للعيان
وأسراري قراءةُ مبهمات	مسترة بأرواح المعاني

(١) من مخطوطات مكتبة البلدية بسوكوتو.

(٢) من مخطوطات مكتبة حفيد المؤلف الشيخ إبراهيم سركن رُواً بزاريا.

(٣) د. علي أبوبكر، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩٥.

(٤) من مخطوطات مكتبة الآثار بكدونا.

(٥) من مخطوطات الشيخ عبدالله بن فودي بسوكوتو.

(٦) انظر، د. علي أبو بكر، مرجع سبق ذكره، الباب الرابع: الإنتاج الأدبي في القرن التاسع عشر الميلادي.

فمن فهم الإشارة فليصنها      وإلا سوف يقتل بالسنان  
كحلاج المحبة إذ تبدت      له شمس الحقيقة بالتداني  
وقال أنا هو الحق الذي لا      يُغير ذاته قرُّ الزمان<sup>(١)</sup>

ونبه هنا إلى قوله: «كحلاج المحبة»، وهي عبارة تدل على أن قائل القصيدة يؤمن بعقيدة الحلاج، وكذلك أهل الطريقة القادرية لأنهم يتبنون هذه القصيدة. وكذلك توضيحه لسبب الكتمان وإلا سوف يقتل بالسنان» كما قتل الحلاج لزندقته وكفره.<sup>(٢)</sup>

(٢) وقد زكى الجيلاني أقطاب الصوفية، أمثال أبي يزيد البسطامي<sup>(٣)</sup>، وبالتالي فهو يوافقه على أقواله المخالفة للإسلام. فقال عنه ذات مرة: «بقي أبويزيد البسطامي سبع مرات، لما سمع منه من الكلام العجيب، يفتح إلى قلوبهم أبواب القرب، لا يجمعهم مع الخلق سوى الصلوات الخمس ولقب الآدمية البشرية، وصورتهم صورة الإنس، وقلوبهم مع القدر، وأسرارهم مع الملك...»<sup>(٤)</sup> هنا يخبر عبدالقادر الجيلاني عن أبي يزيد البسطامي، أنه كان يفتح أبواب القرب (من الله وبه وإليه وفيه) إلى قلوبهم، أي إلى قلوب المريدين!!<sup>(٥)</sup>

---

(١) انظر، عبدالقادر الجيلاني: فتوح الغيب، ط٢، ١٣٩٢م - ١٩٧٣م، مصطفى بابي الحلبي وأولاده، ص ٢٣٠- نقلا عن: محمود عبدالرؤوف القاسم: الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، المكتبة الإسلامية، عمان - الأردن، ط٢، ١٤١٣هـ، ص ٤٧.

(٢) انظر، القاسم، المرجع نفسه، ص ٤٨.

(٣) ومن مزاعمه قوله: «دعوت نفسي إلى الله، فجمعت عليّ، فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم! فوفت لي!».

(٤) انظر: محمد عبدالله حسين الشافعي الصطفاوي التجاني الفتح، الرباني فيما يختلف إليه المريد التجاني، ويليهِ ثلاث رسائل: «الفتوحات الربانية» و«النفحة الأقدسية»، و«السر الأبهري»، ط٣، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م، ص ٣٦٧.

(٥) القاسم، ص ١٢٩.

وزكى أمثال الحلاج، ووصفه بالحكيم المعلم.<sup>(١)</sup>

وزكى الجيلاني أحد الصوفية، وهو حسن قضيب البان الموصللي.  
وعندما سئل عن صلاته، أي بأنه لا يصلي، قال: إنه يصلي من حيث لا  
ترونها، وإني أراه إذا صلى بالموصل أو غيرها من آفاق الأرض يسجد عند  
باب الكعبة.<sup>(٢)</sup>

(٣) ومن أقوال الجيلاني: «إياك أن تقول أنا، واحذر أن تكون سواه»<sup>(٣)</sup>. وفي  
هذا الكلام من الضلال ما لا يخفي على أحد.

(٤) ويرى الجيلاني أن مشورة الكتاب والسنة ليست ملزمة.<sup>(٤)</sup>

(٥) وهو الذي يزعم أنه يقرأ القرآن كله وهو يقف على رجل واحدة في ليلة  
واحدة، ويظل لمدة أربعين يوماً بلا طعام.<sup>(٥)</sup>

(٦) ويقول تلميذه أبو السعود أن الله أعطاه حق التصرف في العالم فتركه لله  
تظرفاً.<sup>(٦)</sup>

وأخذ بعض المؤرخين<sup>(٧)</sup> في جمع البيانات التي يمكن أن تؤيد تأثر الشيخ  
غير المباشر بالوهابية، وذلك عن طريق شيوخه الذين أدوا فريضة الحج، وعلى  
رأسهم شيخه جبريل بن عمر وعمه محمد دان راج، أو عن طريق الحجاج

---

(١) المرجع والمكان نفسهما.

(٢) انظر، يوسف إسماعيل البنهاي: جامع كرامات الأولياء، جزآن في مجلدين، تحقيق ومراجعة  
إبراهيم عطوة عوض، ط ٢، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده  
بمصر، (٢/٢٤).

(٣) انظر: الجيلاني، فتوح الغيب، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٥.

(٤) انظر: الفتح الرباني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٠.

(٥) انظر: محمد أبو الهدى أفندي الرفاعي: قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر، ط ١،  
١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، بيروت، ص ٤٥٨.

(٦) انظر: الجوسقي: النفحة القدسية في السيرة الأحمدية، ضمن الفتح الرباني، سبق ذكره، ص ٧.

(٧) Johnston, The Fulani Empire, op. cit., p. 103.



القادمين من الحجاز. <sup>(١)</sup> ويبدو أن حججهم لا تثبت أمام الحقائق التاريخية. فمثلاً نجد أن الشيخ جبريل بن عمر حج في نهاية القرن الثاني عشر، نحو سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م، وذلك للمرة الثانية والأخيرة، ولم تكن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد عرفت في ذلك الوقت في الحجاز، حيث عرفت فيه عام ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م، وقد بلغت في هذا التاريخ دعوة ابن فودي ذروتها وبدأ جهاده ضد ملوك الهوسا. ولم تجد دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب ترحيباً من علماء الحجاز حتى ذلك التاريخ. ولم تستقر في الحجاز إلا بعد استيلاء الملك عبدالعزيز آل سعود - يرحمه الله - على مكة عام ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م وإنهاء حكم الأشراف على الحجاز. <sup>(٢)</sup>

بعد عودة الشيخ من عند شيخه جبريل واصل تعلمه على يد ابن خاله وابن عمه أحمد بن محمد الأمين وهاشم الزنقري وخاله وعمه الحاج محمد بن راج بن مودب بن حم بن عال، وغيرهم من الشيوخ كثير. <sup>(٣)</sup> وبعد أن قوي عوده وتسلح بالعلم والإيمان أخذ في الدعوة إلى الإصلاح وممارسة التعليم. فقد بدأ في التدريس والتبشير كما ذكرنا، ولم يمكث في مكان واحد لأداء رسالته، بل أخذ يتجول في طول بلاد الهوسا وعرضها <sup>(٤)</sup>، ومعه نفر من العلماء الذين آمنوا بأسلوبه الإصلاحية، وعلى رأسهم أخوه عبدالله <sup>(٥)</sup>. وكانوا يعلمون الناس الدين الصحيح أينما حلوا، ومن خلال هذا

---

(١) Loc. cit.

(٢) آدم عبدالله الألوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، ط ٣، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ص ١٠٠.

(٣) إيداع النسخ، ص ٦-٧.

(٤) Lewis, Cambridge History, op. cit., p. 367.

(٥) The Life of Shehu, op. cit., p. 129.



التعليم والدعوة إلى الدين الصحيح تكونت نواة قوة إصلاحية.<sup>(١)</sup> وكانت له فصول خاصة منفصلة لتدريس الطلاب المتقدمين، وهم الطلاب الذين يأمل أن يكونوا دعاة ومعلمين عندما يعودون إلى بلادهم ويظلون على ولائهم للشيخ<sup>(٢)</sup>، وذلك بجانب تعليمه المبادئ الإسلامية العامة.

ولجده ونشاطه وأثره لفت أنظار الخاصة والعامة. وتقول الروايات المحلية بأنه أصبح مؤدباً لأبناء السلطان باوا الغوييري<sup>(٣)</sup>. أما السجلات المكتوبة فتقول بخلاف ذلك، وتظهره بأنه كان مبتعداً تماماً ومحذراً أتباعه من مخالطة ملوك ذلك الزمان<sup>(٤)</sup>؛ فعندما استدعى باوا العلماء إلى مانامي في أواخر الثمانينيات من القرن الثامن عشر، حضر عثمان ولكنه وأتباعه - على خلاف العلماء الآخرين - رفضوا الصدقات الملكية<sup>(٥)</sup>. ويرى فيشر<sup>(٦)</sup> في هذا التباين بين الرواية والتقارير المكتوبة، أن الأولى مبنية للمحافظة الشعبية التي يبدو أنها توضح الاستمرارية بين الأنظمة القديمة والأنظمة الجديدة، بينما الثانية توضح وجهة النظر الدفاعية الرسمية للحركة والتي تفضل التفسير الجديد، وكلا القولين يمكن أن يكون صحيحاً بالنسبة للمراحل المختلفة لمهمة الشيخ عثمان بن فودي.

ومهما كان الأمر، فقد اشتهر أمر الشيخ على نطاق واسع، فكثير مريدوه، وصار طلبته في زمانه علماء هداة.<sup>(٧)</sup> وكان ذا نشاط وافر يدل عليه

---

(١) Ibid, p. 442.

(٢) Ibid, p. 443.

(٣) Ibid, p. 439.

(٤) Cambridge Hist, op. cit., p. 367.

(٥) The life of Shehu, op. cit. p. 440.

(٦) Camb. Hist. op. cit., p.367.

(٧) إنفاق الميسور، ص ٩٤. Ibid, p. 439.

برنامج اليوم الذي يذكره بلو<sup>(١)</sup> قائلا: «وكان يخرج في كل ليلة جمعة يعظ الناس، ويحضر مجلسه خلق كثير، لا يحصي عددهم إلا الله، ويخرج في سائر الليالي بعد العشاء لبث العلوم والإجادة بالغرائب.

وكان يخرج بعد صلاة العصر للتدريس<sup>(٢)</sup>، يفسر القرآن، ويدرس الحديث والفقه والتصوف. وله تأليف يدرسها في بعض الأحيان<sup>(٣)</sup>.

وكان يخرج إلى الآفاق والبلدان للإفادة والوعظ، ثم يرجع لمحلّه دغلاً. وأخذت تفد إليه وفود الإسلام من الشرق والغرب، وقدم عليه سائر العلماء في وقته. وكثر أتباعه من العلماء والعامة، فأيد الله به وبهم دعوة الإسلام، ونصب أهل الدنيا له العداوة من ملوك هذه البلاد<sup>(٤)</sup> عندما خشوا على سلطانهم منه، وفي مقدمتهم ملك غوبير المدعو «نافانا»<sup>(٥)</sup>.

عندما رأى «نافانا» وأتباعه ومن أيده من علماء السوء أن قيام الشرع لا يوافقهم، أجمعوا أمرهم بالكيد له ومحاربته، وهم لا يشكون أن الدولة لهم فيما يرون من ضعف أتباعه، فأخذوا في زجر الدعاة إلى الله ومنعهم من الوعظ، وأمر كل واحد أن يرجع إلى ما وجد عليه آباءه وأجداده<sup>(٦)</sup>. والذي

(١) المرجع نفسه. Cambridge Hist. op. cit., 367.

(٢) لمعرفة كل ما كان يدور في مجلسه، انظر: المصدر نفسه، ص ٦٨ - ٧٢. (وقد قسم بلو موضوعات دروس الشيخ إلى خمسة أقسام:

١ - ما فرضته الشريعة.

٢ - الحث على اتباع السنة.

٣ - رد الأوهام التي توهمها الطلبة، وهي عن التوحيد السليم.

٤ - إخماد البدع الشيطانية.

٥ - بث العلوم الشرعية وتحرير المشكلات فيها.

(٣) The life of Shehu, p. 443.

(٤) الإنفاق، ص ٩٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٦) المكان نفسه.

راعيهم هو الإنذار الذي وجهه إليهم أمير غويير وفيه ثلاثة أمور ذكرها بلو<sup>(١)</sup>، وهي: «أنه لم يرض لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ عثمان وحده، ولم يرض لأحد بالإسلام إلا وارثه من آبائه، ومن لم يرث الإسلام فليعد إلى ما وجد عليه آباءه وأجداده، وألا يتعمم أحد بعد اليوم، ولا تضرب امرأة بخمارها على جيبها». وعلق هذا الإنذار في الأسواق والأماكن العامة ليقرأه كل الناس، سعيا منه في المكيدة، ولكنه مات سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م وخلفه ابنه «ينف» الذي سار في طريق والده<sup>(٢)</sup> على الرغم من أنه كان تلميذا للشيخ عثمان إذا صحت الروايات المحلية<sup>(٣)</sup>. وقد دعا الشيخ عثمان إلى بلاطه، ودبر محاولة لاغتياله، فكشفت بتدبير من الله ونجا الشيخ وابتعد عنه.<sup>(٤)</sup>

ولم يقف «ينف» عند هذا الحد، بل شنّها حربا لاستئصال شأفة هذه الدعوة التي يرى فيها خطرا على عرشه، فغزا قرية غينا<sup>(٥)</sup> المسلمة حيث يعيش الشيخ عبدالسلام، أحد تلاميذ الشيخ عثمان الأقوياء، واستولى على القرية واستعبد أهلها<sup>(٦)</sup>، وفي الطريق صادفهم الشيخ عثمان وتمكن من تخليص أسرى المسلمين. ومنذ تلك الواقعة أضمر ينف العداة والإصرار على التخلص من الشيخ، ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون.<sup>(٧)</sup>

(١) المصدر نفسه، ص ٩٦، ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٧.

(٣) See, Bovil, Caravans, op. cit. p. 225.

Johnston, The Fulani Empire, op. cit., p. 40.

Johnston, Loc. cit. (٤)

(٥) إتفاق الميسور، ص ٩٧، Bovill, Caravans, op. cit., p. 255 (وبوفل يذكر أن اسم القرية «غمانا» ولعله خطأ النقل).

(٦) Caravans, Loc. cit.، الإتفاق، ص ٩٧.

(٧) Caravans, Loc. cit. (يذكر الدكتور زكي أن تجار الرقيق هم الذين اختطفوا المسلمين فهب الشيخ ليدافع عنهم، مما حدا بملك غويير أن يأمر أتباعه بالقبض عليه. ولم نجد لهذه الرواية أساسا في أي مصدر حسب علمنا حتى الآن). انظر: جمهورية نيجيريا الجديدة، مقال للدكتور عبدالرحمن زكي، نشر بمجلة المجلة: العدد السابع والأربعين، السنة الرابعة (١٩٦٠م)، ص ٢٦.

وبعد هذه الحادثة تعرض السلطان لقرية الشيخ نفسه، وأرسل إليه أن ينحاز بأهله لأنه يريد مهاجمة القرية، فأبى الشيخ إلا أن يهاجر بجماعته على الرغم من إظهار السلطان الندامة وطلبه من الشيخ الإقامة في قريته مع الأمان.<sup>(١)</sup>

ولكن الشيخ واصل تنفيذ فكرته وهاجر معه أنصاره إلى قرية «غد». وازداد خوف السلطان من هذا فكرر الطلب في بقاء الشيخ، ورد عليه الشيخ بأن يكونوا جميعا على دين واحد ورد ما سلب من المسلمين وما أسر منهم. فاشتات غيظا من رد الشيخ، وسول له جماعته وبعض علماء السوء بأنه على حق والشيخ على باطل، فأعلن الحرب على الشيخ وجماعته.<sup>(٢)</sup>

وعندما علم الشيخ بنية عدو الله، عقد مجلسه وشاور جماعته، وتمت مبايعته على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وبإيع هو على اتباع الكتاب والسنة<sup>(٣)</sup>. وأخذوا في أمر الدفاع بحفر الخنادق. وكان أول صدام لهم مع جند العدو في موضع يسمى غنغ، وهزم هناك جند السلطان شر هزيمة.

وتوالى الحروب منذ سنة ١٢١٧هـ / ١٨٠٢م إلى أن كسرت شوكة أعداء الدعوة في سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م، وبلغت المعارك الحربية أكثر من ست وثلاثين معركة.<sup>(٤)</sup>

وبعد أن دانت له بلاد الهوسا، اتخذ الشيخ مدينة «سوكوتو» عاصمة له، ثم قسم دولته إلى قسمين سنة ١٢٢٣هـ / ١٨٠٨م، جعل القسم الشرقي تحت

---

(١) الإنفاق، ص ١٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٨، ٩٩.

(٣) المصدر نفسه من ١٠٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠١-١٥٤، تذكرة النسيان، ص: ١٨٥، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٣،

٢٠٤، ٣٠٢.

حكم ابنه بلّو، والقسم الغربي تحت حكم أخيه عبدالله<sup>(١)</sup>، واكتفى هو بالقيادة الروحية، والعكوف على التدريس والتأليف<sup>(٢)</sup> إلى أن توفي سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٧م<sup>(٣)</sup>، وهو في قمة مجده.

وعندما توفي الشيخ بويح ابنه محمد بلّو أميرا للمؤمنين، وبقيت الإدارة مزدوجة في عهده، وظل الحال كما كان. ثم توفي محمد بلّو سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م.

وبفضل الله ثم بفضل السلاطين والدعاة اندفعت الحركة الإسلامية إلى الأمام، وانتشرت في جنوبي نيجيريا، حتى أضحت هناك اليوم ملايين المسلمين بفضل الله ثم بفضل هذه الحركة الإصلاحية الكبرى التي كان قادتها منذ البداية علماء. وحتى رؤساء الإمارات الذين عينوا لم يكونوا يدعون أنفسهم أو يدعوهم الناس أمراء، بل كانوا يدعون مؤدبين أو معلمين، لعلمهم وورعهم. فكانوا يباشرون الحكم طبقا للشريعة، ويباشرون الأمور السياسية أيضا، ويؤمنون الناس في الصلاة بجانب قيامهم بالتدريس في أوقات فراغهم. وكانوا نماذج طيبة في مكارم الأخلاق والتواضع.<sup>(٤)</sup>

وكانت هذه الحركة إعلاء لشأن الثقافة الإسلامية العربية والتعليم الإسلامي في غربي إفريقيا. فقد كان الشيخ عثمان وأخوه عبدالله وابنهم محمد بلّو من كبار المؤلفين والمفكرين، وأصدق مثال لذلك ما تركه الشيخ عثمان

---

(١) آرنولد، الدعوة، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٢. Kensdale, Field Notes, p. 53، الدكتور شلبي، الموسوعة، ج٦، ص ٢٢٩، د. حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية، ص ٢٩٠.

(٢) انظر: تذكرة النسيان، ص ١٠٧.

(٣) د. حسن محمود، المرجع السابق، ص ٢٩١، د. شلبي، المرجع السابق، ص ٢٢٩. (يذكر الدكتور زكي بان الشيخ قد اغتيل، ولم نجد مصدرا واحدا يذكر هذا الاغتيال: انظر: جمهورية نيجيريا الجديدة، مرجع سبق ذكره ص ٢٣).

(٤) انظر: علي أبوبكر. مرجع سبق ذكره، ص ١٩٢.



للمكتبة الإسلامية من كتب أهمها:

- ١ - نور الأولياء.
- ٢ - عمدة البيان في الأمور التي وجبت على الأعيان.
- ٣ - علوم المعاملة.
- ٤ - عمدة العلماء.
- ٥ - عمدة المتعبدين والمنحرفين.
- ٦ - مرآة الطلاب.
- ٧ - حصن الأفهام من جيوش الأوهام.
- ٨ - أسانيد الضعيف.
- ٩ - السلاسل الذهبية.
- ١٠ - عمدة العباد.
- ١١ - كف الطالبين عن تكفير عوام المسلمين.
- ١٢ - عمدة دعوة العباد إلى كتاب الله.
- ١٣ - أصول الولاية.
- ١٤ - ترغيب عباد الله في حفظ علوم دين الله.
- ١٥ - رجوع الشيخ السنوسي عن التشديد والتقليد.
- ١٦ - تمييز المسلمين من الكافرين.
- ١٧ - التصوف.
- ١٨ - تلخيص كتاب الحارث المحاسبي.
- ١٩ - نصيحة الأمة المحمدية.
- ٢٠ - الفصل الأول.
- ٢١ - سوق الصادقين.



٢٢- إحياء السنة وإخماد البدعة.

٢٣- شفاء الغليل في كل ما أشكل من كلام شيخنا جبريل.

٢٤- المسائل المهمة.

٢٥- الجهاد.

وهذه الكتب ذكرها محمد بلو<sup>(١)</sup> بن الشيخ عثمان وختمها بقوله:  
«... وغيرها مما نيف على مئة مؤلف، وفي القدر المذكور كفاية لمن تأمل»  
والكثير من مؤلفات الشيخ ذكرها باحثون آخرون، أمثال كنسديل<sup>(٢)</sup> ووتنج<sup>(٣)</sup>  
واسمث، فمن المؤلفات التي لم يذكرها بلو وذكرها اسمث<sup>(٤)</sup> مثلاً:

١ - سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان.

٢ - الفرق بين ولايات أهل الكفر في ولاياتهم وبيان ولايات أهل الإسلام في ولاياتهم.<sup>(٥)</sup>

٣ - نجم الإخوان يهتدون بإذن الله في عمر الزمان (هكذا).

٤ - نزهة الأزمان.

٥ - نور الألباب.

وغير هذه المؤلفات كثير نجده مبثوثاً في ثنايا الكتب التي رجعت إليها

---

(١) إنفاق المسور، ص ٢١٠.

(٢) W.E. N. Kensdale. "Field Notes on the Arabic Literature of the Western Sudan" J. H. A. S, (1955) pp. 162-68.

(٣) C. E. J. Whitting. "The Unprinted Indigenous Arabic Literature of Northern Nigeria", J. A. S. (1943-4).

(٤) H. F. C. Smith, "Source Material for the History of Western Sudan". J. H. S. N. , 1, 3 (٤) (1958), p. 245.

(٥) هذا المخطوط منشور بالعربية، ثم مترجم إلى الإنجليزية، انظر:

M. Hiskett, "Kitab Al-Farg", B. S. O. A. S., XX11, 2 (1960), pp. 558-658.

وقد ورد اسمه في قائمة كنسديل

كمصادر، أوقام باحثون بنشر عناوينها ومكانها وأرقامها. ومن الكتاب العرب الذين فعلوا ذلك الدكتور عبدالرحمن زكي، في ملحق خاص لكتابه «الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا» بعنوان: «المخطوطات العربية في نيجيريا»، ومن مؤلفات الشيخ التي ذكرها مثلاً:

١ - الأمر بموالاة المؤمنين والنهي عن موالاة الكافرين.

٢ - بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية.

٣ - اتباع السنة وترك البدع.

٤ - سوق الأمة إلى اتباع السنة.

وقد بدأ المستشرقون الغربيون الأوربيون في دراسة ونشر كثير من مؤلفات علماء غربي إفريقيا. ومن المؤلفات التي حظيت بالنشر مؤلف الشيخ عثمان «وثيقة أهل السودان»، وهي عبارة عن إعلان لجهاد الفولاني، قام بنشره بيفر<sup>(١)</sup>. والوثيقة منشورة كما هي بخطها المغربي مع التحقيق. وخطها مقروء عامة، وإن وجدت بعض الصعوبة أحياناً في القراءة من نشر المحقق، ولكن يمكن تذليلها عند المقابلة مع ترجمتها الإنجليزية.

وبجانب مؤلفاته باللغة العربية، له العديد من المؤلفات باللغة الفولانية والهوسية التي يسميها عبدالله<sup>(٢)</sup> بـ«العجمية».

وهذا الكاتب العظيم على الرغم من إخلاصه في الدعوة، لم يسلم من بعض الأقلام المغرضة التي تحاول أن تنال منه وتصفه بالتعصب والغرض. وتصف جنده بأنهم «مرتزقة»، ومن الذين حاولوا ذلك دنيس بولم<sup>(٣)</sup>.

---

(١) Wathigat Ahl Al-Sudan, op. cit., pp.235-43.

وهذا المؤلف لم يذكره بللو أو سمث.

(٢) إيداع المؤلف لم يذكره بللو أو سمث.

(٣) الحضارات الإفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ٥٤.

ولا غرابة في ذلك من مثل يولم وغيره من المستشرقين .

كان الشيخ عثمان من أشد الناس حبا للعلم والتأليف، فكان كلما ألف مؤلفا أخرجه للناس، ودرسهم إياه، ثم بعد ذلك يشتغل بتأليف آخر. وكان يحض أولاده وإخوانه وأهله على التعليم ويعيهم إذا فترت همهم<sup>(١)</sup>. ويحث شعبه المسلم بأن يقيموا الرباط في جميع الثغور، ويصلحوا المساجد، وقيموا الصلوات الخمس فيها، وأمرهم أن يجتهدوا في قراءة القرآن وتعليمه<sup>(٢)</sup>. وله موقف واضح ومشرف من تعليم المرأة، ففي مؤلفه نور الأبواب<sup>(٣)</sup> عقد فصلاً خاصاً بالأمور التي تفسد التقوى ولها آثارها الضارة في بلاد الهوسا، منها أن معظم الرجال المتعلمين يتركون زوجاتهم وبناتهم وأسراهم دون تربية أخلاقية، كالوحوش. فهو ينادي بتعليمهم ما أمر الله به، وتعليمهم الشريعة التي تخصهم، ويرى التفريط في ذلك بلاء وخيما وجريمة بشعة، ويتعجب من الذين يعاملون هذه الفئات مثلما يعاملون أثاث البيت الذي يصبح محطما بعد الاستعمال الطويل ثم يُرمى في مكان الأوساخ، ويرتفع صوته صائحا «كيف هكذا يغفلون زوجاتهم وبناتهم وأسراهم في ظلام الجهل، بينما هم يومياً يلقون بالمعرفة على تلاميذهم؟ في الحقيقة أنهم ينطلقون من موقع الأنانية، وإن كانوا مخلصين لتلاميذهم، ليس هذا إلا نفاقا»<sup>(٤)</sup>. ويلومهم على

(١) تذكرة النسيان، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٧.

(٢) M. Hiskett, Kitab Al- Farg, op. cit., p. 563.

(كتاب «الفرق» مخطوط للشيخ عثمان بن فودي، قام بنشره هسكت مع ترجمة له إلى اللغة الإنجليزية.

(٣) Hodgkin, Nigerian Perspectives, op. cit., p. 194. The Life of Shehu, op. cit., p. 440.

انظر: الورقتين ٨ و ٩ من هذا المخطوط - ويقع هذا المخطوط في أربعين صفحة، ويوجد في

مكتبة سوكتو العامة بنيجيريا.

(٤) Nigerian Perspectives, Ibid, p. 195.

هذا التصرف أكثر من مرة وينبهم إلى أن إرشاد الزوجة والبنات والأسرى واجب إيجابي، بينما إلقاء الدروس على الطلاب هو مجرد نافلة، وأن ليس هناك شك في أن يكون لأحدهما الأفضلية على الآخر، وأن الرجل المتعلم ليس مفروضاً عليه أن يرشد الطلاب إلا إذا كان هو الشخص الوحيد المؤهل في البلاد لملء هذه الوظيفة التعليمية. ويختتم توجيهه إلى المعلمين بأنهم منوطون في المقام الأول بالعناية بأفراد أسرهم.<sup>(١)</sup>

وبعد هذه اللمحة العابرة والوقفة القصيرة مع الشيخ عثمان، نقول إن الشيخ عثمان أشهر من أن يعرف به، فقد سجل له التاريخ بمئات من ذهب صفحة فاخترة من الأمجاد.

#### ١٠ - عبدالله بن محمد فودي

هو شقيق الشيخ عثمان بن فودي. وقد أورد نسبه كاملاً في مؤلفه إيداع النسخ ممن أخذت من الشيوخ. نشأ مثل أخيه عثمان في أسرة دينية أفرادها من العلماء. وتنقل بين أيدي علماء أسرته متلمذاً. وأول من درس على يديه القرآن هو والده محمد بن فودي<sup>(٢)</sup>. وتلمذ بعد والده على يد شقيقه الشيخ عثمان وهو ابن ثلاث عشرة سنة<sup>(٣)</sup>. ومن بين العلوم والمؤلفات التي تناولها بالدراسة مع الشيخ عثمان: العشرينيات، والشعراء الستة، والكتب السنوسية في علم التوحيد، وغيرها من كتب التوحيد التي وصلت إلى بلاد الهوسا، والأجرومية في علم الإعراب، وعلم التصوف، والعشماوية، ورسالة ابن أبي زيد وغيرها، وتفسير القرآن من أول الفاتحة إلى آخر القرآن مراراً، وعلم

---

(١) Loc. cit.

(٢) إيداع النسخ، مصدر سبق ذكره، ص ٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ص ٢-٣.

الحديث من كتاب العراقي وصحيح البخاري، وعلم الحساب. (١)  
وأستفاد من المؤلفات التي ألفها الشيخ عثمان كما هو واضح من قوله:  
«فما ألف كتابا من أول تواليفه إلى الآن إلا كنت أول من نقله عنه غالبا». (٢)  
وظل عبدالله تلميذا لأخيه عثمان إلى أن بلغ الخمسين عاما من العمر،  
وصحبه حضرا وسفرا، لم يفارقه في كل هذه المدة. (٣)  
وبجانب تلقيه العلم على يدي أخيه عثمان تردد على شيوخ آخرين  
أمثال (٤):

- ١ - ابن خالته محمد بن محمد، الذي درس عليه مقامات الحريري وغيرها.
- ٢ - عمه وخاله عبدالله بن محمد الحاج الحسن بن حم بن عال، درس عليه بعض كتب النحو مثل قطر الندى وشدور الذهب وشرحه بلوغ الأرب.
- ٣ - إبراهيم البرنوي، الذي درس على يديه بعض كتب العربية.
- ٤ - وعمه وابن خاله محمد ثنب بن محمد بن عبدالله، درس عليه الفريدة للسيوطي.
- ٥ - إبراهيم المندوي، درس عليه الدرر اللوامع، وعلم العروض والقوافي، والأوقاف وغيرها.
- ٦ - ابن خاله وابن عمه وابن خالته محمد بن محمد، درس عليه علم المنطق وكتبا في أصول الفقه.
- ٧ - أحمد بن بكر بن غار، درس عليه كتب علم البلاغة كالتلخيص مع

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧-١٠.



شرحه، وألفية المعاني مع شرحها، والجواهر المكنون مع شرحه، وشرح  
النقاية للسيوطي وغير ذلك.

٨ - جبريل بن عمر، درس عليه كتب أصول الفقه كالكوكب الساطع وجمع  
الجوامع مع شروحهما، بالإضافة إلى دراسته بعض مؤلفات الشيخ جبريل،  
وله قصيدة جيمية في مدح شيخه جبريل تدل على الإعجاب الشديد به.

٩ - ابن عمه وخاله المصطفى بن الحاج عثمان بن محمد، تلميذ الشيخ جبريل  
وغيره، تلقى منه دراسة الكوكب الساطع كله، وأفاده فيه بأشياء لم يفهمها  
عند الشيخ جبريل.

١٠ - وخاله وعمه الحاج محمد بن راج، سمع منه البخاري، وأجازه جميع  
مروياته.

١١ - وعمه وخاله محمد بن محمد الحاج عبدالرحمن، درس عليه علومًا عدة  
وكتباً شتى مثل ألفية الأثر للسيوطي، وأجازه جميع مروياته.

١٢ - محمد الغوري، درس عليه المختصر، وقد اشتهر بتدريس هذا الكتاب.

١٣ - محمد ثنب بن عبدالرحمن، درس عليه بقيه المختصر.

١٤ - محمود الزنقري، درس عليه علم القراءات.

١٥ - عبدالرحمن بن محمد، درس عليه بعض مسائل النحو، وأجازه جميع  
مروياته مما أخذه عن أبيه عن شيخه.

وبعد أن ذكر عبدالله هؤلاء الشيوخ الذين درس عليهم يقول: «والشيوخ  
الذين أخذت العلم عنهم لا أحصيهم الآن، ولكن هؤلاء مشاهيرهم. وكم  
عالم أو طالب علم أتانا من الشرق فاستفدت منه ما لا أحصيه. وكم عالم أو



طالب علم أتانا من الغرب فاستفدت منه مالا أحصيه (١).

وقد ذكر الشيخ عبدالله بعض شيوخه في قصيدة منها الأبيات الآتية (٢):

وع نظم شيوخ صاح أولهم أبي	معلمنا القرآن وهو مؤدبي
ومن بعده عثمان صنوي وعمدتي	سراجي في علم الشريعة مذهبي
فعلمني العشرينيات ونحوها	والإعراب والشعراء تعليمك الصبي
وفي علم توحيد وعلم تصوف	سقاني فرّوى والحساب المقربي
وفقه وتفسير وعلم الحديث مع	توالياً طراً بها نلت مأربي
أخذت مقامات الحريري من أخي	محمد بن الخالة المتحبيب

يعد الشيخ عبدالله نموذجاً حياً للمثقف والعالم، فقد كان بحراً زاخراً في فنون معارف عصره.

وما ذكره من دراسات دليل على سعة علمه، وما قام بتأليفه من كتب دليل آخر على ذلك، وما قرضه من شعر دليل على شاعريته وتفتح قريحته، ونذكر هنا بعض أبيات من شعره كنموذج لشعره الكثير:

قال عن أخيه عثمان:

عثمان من قد جاءنا في ظلمة	فأزاح عنا كل أسود دجـدجـ
ودعا إلى دين الإله ولم يخف	في ذاك لومة لائم أو فجـفـجـ (٣)
بشرى لامة أحمد ببلادنا السـ	بودان في هذا الزمان المبـهـجـ
كم سنة أحييتها وضلالة	أحمدتها جمراً ذكاً بتأجـجـ

(١) المصدر نفسه، ص ١٠.

(٢) المكان نفسه، وبقية القصيدة في المصدر نفسه، ص ١١-١٢.

(٣) فجـفـجـ: فسخر بما ليس عنده. فهو فجـفـجـ وفـجـفـجـ، والفجـفـجـ هو الذي يفخر بما ليس عنده انظر: المعجم الوسيط، طبعة مصر ١٩٦١، ج ٢، ص ٦٨١.

وظللت في أرض عوائدها عدت  
 فاستنشرت بغثانها وتنمرت  
 من راد دين الله يحو عزه  
 ولكل فرعون طغى موسى سطا  
 فابيض وجه الدين بعد محاقه  
 والسنة الغراء صبح ينجلي  
 طمست معالمها وأخلق ثوبها  
 وتفجرت للدين من بركاته  
 وفي قصيدة أخرى عن الشيخ عثمان عندما جافاه بعض علماء عصره،  
 ونصره الله وأيدته طائفة من العلماء المهتدين، فصدقوه ونصروه، قال:

طربت فأشجنتي الطيور الكواكب  
 وخوفني منها ذئاب بوارح  
 لقول النبي: لا تزال جماعة<sup>(٣)</sup>  
 ولا تخش تكذيبا وإنكار جاحد  
 وغيبة هماز وضغن مشاحن  
 وليس لما تبني يد الله هادم  
 وفرّحني منها الغيوث الروائح  
 وأمدني منها الظباء السوانح  
 على الحق منا أو يجيء المقارح<sup>(٤)</sup>  
 وهزء جهول ضل والحق صابح  
 يساعده من للعوائد راکح<sup>(٥)</sup>  
 وليس لأمر الله إن جاء ضارح<sup>(٦)</sup>

(١) السَّلْمَج: النصل الطويل الدقيق. انظر القاموس المحيط، طبعة بولاق ١٣٠١هـ، ج١، ص ١١٣.  
 (٢) هكذا، ولعلها متنفعج ليستقيم الوزن الشعري.  
 (٣) إشارة إلى الحديث الشريف «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله» متفق عليه، إنفاق الميسور، ص ٦٣.  
 (٤) قرحه بالحق: استقبله به، وقارحه: واجهه.  
 (٥) راکح: راكن ومستند، وفعله: ركح كمنع.  
 (٦) دافع.

وبين لهم أن العوائد بهرجت  
ولهو الشباب اليوم قد بار سوقه  
ومنكرُ هذا الدين قد خف وزنه  
وناصرُهُ قد صار في الناس عاليا  
وإنَّ إله العرش قد مَنَّ مِنَّةً  
وذاك بأن قد بين الدين في امرئ  
فإن نحن آويناها ننصر قوله  
وإنَّ قد أضعناه أفاد لغيرنا  
وما ضرَّ شمساً أن نفي العين ضوءها  
أطايب أرض تخرج النبت رائعا  
والقصيدة طويلة في حوالي الخمسين بيتاً<sup>(٣)</sup>. وله شعر في الحماسة، من ذلك ما قاله أثناء معاركهم الجهادية ضد أعداء الملة<sup>(٤)</sup>:

وكم من كمي جندلته سهامنا  
وكم ذي جلال ضرعته أكفنا  
ونحن على الإسلام جمع تناصروا  
فيا أمة الإسلام جدوا وجاهدوا  
فقتلاكم في جنة الخلد دائما  
وراجعكم بالعز والمال يرجعُ

وقال في إحدى الغزوات (غزوة كب)<sup>(٥)</sup>:

(١) دنح كمنع - دنوحا: ذل.

(٢) قمح البعير قموحا: رفع رأسه عن الحوض وامتنع عن الشرب.

(٣) الإنفاق، ص ص ٦٣-٦٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ص ١٢٤-١٢٥.

تذكرت والذكرى تثير لذي النوى  
أخلاي ماتوا في الجهاد وغيره  
فمن مبلّغ عني بني وإخوتي  
باني ودندا مع علي وجمعنا  
فتحنا حصونا بين كندا وكندنا  
وسالنا رغما سواها فأسلمت  
سما جيشنا جيش الفتوح فكلنا  
وليس لنا أمر يهم قلوبنا  
وفقد أحباء كرام تتابعوا  
ومن قتلوا هم في جهنم دائما  
على كل جرداء وأجرد شيطم  
قد اعتاد غارات الصباح تخاله  
فلما رأونا لانمل جهادنا  
وقوله في غزوة (الوس)<sup>(١)</sup>:

ألهفي لقلب شابه الهم والأسى  
لفقد أخلاء مضوا في جهادهم  
هم عدّتي في نصر دين محمد  
فكلهم قارٍ فقيمه وتابع  
وناصر دين الله لازم مسجد  
فسرنا وذاك الجمع يأتي وراءنا

هموما وفي الذكرى تهب صبا الهوى  
وبعدي عن شيخي فارتقني الجوى  
وأهلي وجيراني ومن معهم ثوى  
ويولل له في الفتح والعز والروى  
تزيد على عشرين بالقهر والقوى  
لظاھرھا والله يعلم ما انطوى  
حوى من فتوحات الغنائم ماحوى  
من الدين والدنيا سوى وحشة النوى  
لجنات عدن في كراد وثشوى  
ومن في جنات الخلد ليسوا على استوا  
تراه كصفراء الجراد إذا استوى  
إذا ماجرى فوق الربا طار في الهوا  
لقتلٍ وأسرى جلّهم خاف فارعوى

بليل التمام والصباح إلى المسا  
بشئى وبعض في كوار وألوسا  
فمن كان فيهم في الجهاد تنفسا  
أولي العلم قاري الضيف في الحرب أحسا  
ومجلس وعظ لايفارق مجلسا  
فلما رأوا جمع التوارك أركسا

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٥-١٣٦.

وخلفت في الأخرى أنادي: ألا ارجعوا  
وقد كنت أرجو كرمهم لمقامنا  
ومنا رجال لم يزالوا بصفنا  
قضوا نحبهم فيها كفار وحمدا  
ومنا رجال الله ينتظرونه  
ومابدلوا قولا وفعلنا كمن عدا  
وتكثير قتلنا إذا سر غيرنا  
كأنني أنادي أو أكلم أخرسا  
فخاب رجائي في لعل وفي عسى  
وهم صدقوا ما عاهدوا الله في المسا  
فقالوا جنانا والحسان وسندسا  
وكل إذا ماصيح للحرب بلهسا<sup>(١)</sup>  
وصار إذا ما صيح في البيت دنكسا  
فنحن نرى تلك الشهادة ملبسا

لم يكن الشيخ عبدالله شاعرا فحسب، بل كان أيضا ناثراً مرموقاً، وعموماً فقد كان بحراً من العلوم وفيه يقول الإمام بلو<sup>(٢)</sup>: «... العالم العلامة، النظار الفهامة، المصنف المفسر المحدث، الراوية الحافظ، المقرئ المجود، النحوي اللغوي، البياني المتفنن، الآخذ من كل فن بأوفر نصيب، الراجع من كل علم في مرعاه الخصب، الشهير الرحالة، آخر السادات الأعلام، وخاتمة النظار، ذو التحقيقات البديعة، والأبحاث الأنيقة الغريبة، المتفق على علمه وهديه، ممن قلّ سماح الزمن بمثله... له القدم الراسخة، والرحب الواسع في كل مشكل، سيف الله على ذوي البدعة، معدن الصدق والعلم، وزناد الفهم، كان آية في تحقيق العلوم، مفرط الاطلاع على المنقول في الفنون، وجامع شتات العلوم، فاضل وقته، وأعجوبة أوانه».

أما إنتاجه الفكري فكان غزيراً، وقد اهتم به الدارسون، ونشروا النذر اليسير منه، وما زال الكثير مخطوطاً ينتظر الباحثين. وقد ذكر الإمام بلو<sup>(٣)</sup> بعض مؤلفاته، منها:

---

(١) بلهس: أسرع في مشيه.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١١.

(٣) المكان نفسه.



- ١ - نظم على النقاية.
  - ٢ - نظم على مفتاح الأصول.
  - ٣ - سلالة المفتاح.
- ومن مؤلفاته التي ذكرها هـ. ف. سمث<sup>(١)</sup>:
- ١ - المسائل.
  - ٢ - ضياء الإخوان فيما لهم وعليهم من الأحكام.
  - ٣ - ضياء المجاهدين.
  - ٤ - ضياء أولي الأمر والمجاهدين في سيرة النبي والخلفاء الراشدين.
  - ٥ - تزيين الورقات بجمع بعض مالي من الأبيات.
  - ٦ - ضياء السلطان وغيره من الإخوان في أهم ما يطلب علمه في عمر الزمان.
  - ٧ - ضياء المقتدين للخلفاء الراشدين.
  - ٨ - ضياء الولايات في الأمور الدنيوية والدينية.
- ومن مؤلفاته التي ذكرها الدكتور زكي<sup>(٢)</sup>، وهي غير السابقة:
- ١ - علامات المتبعين لسنة رسول الله، ﷺ.
  - ٢ - ضياء الأنام في الحلال والحرام.
  - ٣ - ضياء السياسة وفتاوى النوازل.
  - ٤ - ضياء الأمة في أدلة الأئمة.
  - ٥ - لباب المدخل في آداب أهل الدين.
  - ٦ - اللؤلؤ المصون.

(١) Source Material, op. cit. P. 241.

(٢) الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ١١٦-١١٧.



٧ - مطية الزاد إلى المعاد.

٨ - سبيل النجاة.

١١ - الإمام محمد بلّو (١٧٨٠ - ١٨٣٧م)

هو ابن الشيخ عثمان بن فودي. ولد سنة ١١٩٥هـ / ١٧٨٠م. صحب شيخه والده تلميذا ومجاهدا حتى قامت الدولة فأصبح أحد ركنيها عندما تركها والده بينه وبين عبدالله عام ١٢٢٣هـ / ١٨٠٨م. وعندما توفي والده سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٧م بويح أميراً للمؤمنين<sup>(١)</sup>. وقد بنى بنفسه العاصمة سوكوتو في سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م.

اشتهر بلّو في حياته بالصبر والعدل والتزاهة والعطف، وكرس نفسه للدراسة وتشجيع العلم ورعايته على الرغم من مشاغله السياسية والعسكرية.<sup>(٢)</sup> وقد وصفه معلمه نيجيري بأنه كان من الطراز الذي يجاهد طوال يومه ثم يفرغ في ليله إلى الدراسة والتأليف<sup>(٣)</sup>. وتشهد مؤلفات بلّو بذلك، إذ بلغت اثنين وثمانين مؤلفا. قام بنشر عناوينها وأماكن وجودها الباحث كنسديل<sup>(٤)</sup>. والتي بين أيدينا الآن، منها:

١ - أدب المسافر.

٢ - أصول السياسة.

٣ - إفادة الإخوان.

٤ - الإنصاف في ذكر مافي مسائل الخلافة من وفاء وخلاف.

٥ - إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور.

---

(١) Kensdale. "Field Notes on the Arabic Literatures of The Western Sudan: Muhammadu Bel-lo" J. R. A. S., (1958), p. 53.

(٢) Ibid. p. 54.

(٣) Loc. cit.

(٤) Loc. cit.

- ٦ - البدر اللامع في الورد الجامع.
  - ٧ - بر الوالدين.
  - ٨ - بيان الأركان والشروط.
  - ٩ - تبشير الإخوان.
  - ١٠ - التحرير.
  - ١١ - تخميس قصيدة البردة للبوصيري.
  - ١٢ - تخميس قصيدة بانة سعاد لكعب بن زهير.
  - ١٣ - تخميس همزية البوصيري.
  - ١٤١ - الترجمان.
  - ١٥ - تمهيد العماد فيما زاد على عمدة العباد.
  - ١٦ - تنبيه الإخوان.
  - ١٧ - تنبيه الأفهام.
  - ١٨ - تنبيه أهل العقول.
  - ١٩ - تنبيه الجهول.
  - ٢٠ - تنبيه الجماعة.
  - ٢١ - تنبيه الراقد.
  - ٢٢ - تنبيه السامع.
  - ٢٣ - جمع النقول.
  - ٢٤ - الرباط والحراسة.
  - ٢٥ - شرح السور.
- والمصنف لمؤلفه «إنفاق الميسور» يلاحظ مكانة هذا الرجل العلمية. ففي ثانيا هذا الكتاب دلائل واضحة على سعة اطلاعه على الكتب الإسلامية في

جميع الفروع، وقد أصاب من كل فن بسهم وافر. ففي ردوده التي كان يكتبها نيابة عن والده الشيخ محمد الأمين الكائمي<sup>(١)</sup> يظهر لنا بلو الفقيه والمفكر الأصيل والعالم الذكي. فقد أعطي بيانا ساحرا وحجة قوية واستدلالات منطقيا. وكان الإمام بلو شاعرا فحلا كعمه عبدالله، وله قصائد رائعة تعكس لنا ثقافته الواسعة. وكانت قريحته أكثر ما تجود بالدرر من الأشعار في مناسبات الجهاد المقدس وغيره من أعمال الفلاح والصلاح. ومن ذلك قوله في غزوة فافر<sup>(٢)</sup>:

فلما التقاهم جمعنا فتضعضوا	فولّوا على أعقابهم حين كبرا
فلم يك إلا راية الدين مشرع	بنو الحرب في حافاته حين شجرا
تداعى أولو الإسلام حين تذا مروا	بكل حسام يفرق الهام مشهرا
وكل رديني وأسمر معضب	على كل جهد من نجائب بربرا
ورجلهم يحمي سهامها كأنها	ندى صاب في جو النهار وأمطرا
فغادر خيل الله للنصر هامهم	بمعترك والكف والرجل قد فرى
فخلوا لنا أزوادهم ومتاعهم	وأموالهم نفلا ورزقا ميسرا
وكانوا قديما يعرفون لقاءها	كريها بغیضا قبل غزوة فافرا
وإن سرهم ما نالنا من شهادة	فتلك المنى منا نخب المآثرا
فمن قتلوه بلغوه مراده	فطوبى له واللفظ والمسك أذفرا
وروح وريحان وجنة خلده	وورث حورا من نساء حراثرا
ومن حلل الفردوس يكسى جميعها	حريرا وديباجا وتبرا منضرا

(١) الإنفاق، ص ١٦٠ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤١-١٤٢.

ويقول في إحدى رسائله إلى الشيخ الكاظمي<sup>(١)</sup>:

رسالة ناصح يبدي اليقيننا	ألا من مبلغ عني الأمينا
به برءاء فاوف العذر فينا	تعلم أننا مما رمينا
علوا أو فسادا قاصدينا	وأنا ما تغلبنا عليهم
وبغيا - صاح - قمنا دافعينا	ولكن حين أخرجنا اعتداء
وفتئشه ولا تعجل علينا	تبين أمرنا هذا أخانا
ونصر الظالمين الفاجرينا	فدع عنك الركون إلى الأعداء
فوال أخا الصلاح المؤمنينا	لتعلم أنهم أهل اعتداء
فإن الله مخزي الكافرينا	وخالهم وظاهرهم عليهم

وشعره كثير ونثره أكثر. وعموما فقد كان أستاذا وفقها وسياسيا ومصلحا اجتماعيا، أدى دورا كبيرا في تاريخ الإسلام والثقافة الإسلامية بإفريقية الغربية في الثلث الأول من القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٨-١٨٩.



## **الفصل الثامن**

**تاريخ حركة الإسلام والتعليم الإسلامي**

**في بلاد البرنو**





## تمهيد:

تقع الأرض التي قامت عليها دولة كانم إلى الشرق من بحيرة تشاد، وهي الدولة التي عرفت فيما بعد بدولة البرنو، عندما انتقلت إلى الغرب من بحيرة تشاد، وهي أكبر دولة نشأت في منطقة المرامي بين النيجر والنيل. ولقد ضمن لها موقعها الجغرافي الممتاز مصدرا مهماً من مصادر الثراء، كما كان الحال بالنسبة لكل الدول التي قامت في نطاق السافنا جنوب الصحراء الكبرى. يقول ديفدسون<sup>(١)</sup> إن ملوك المنطقة لم يكونوا يملكون مناجم الذهب مثل غانا ومالي، ولكنهم كانوا يسيطرون على طرق القوافل المتجهة شمالاً إلى فزان والبحر الأبيض المتوسط، وشرقاً إلى حوض النيل.

وتقول الروايات: إن الطرق القديمة بين وادي النيل وهذه المنطقة شهدت كثيراً من الهاربين من الحروب والغزوات بعد انهيار كوش (مروي)، وانتصار الأحباش في أكسوم، وقدام العرب إلى مصر، وأن موجات كبيرة من المهاجرين قد وصلت دفعة تلو الأخرى إلى منطقة بحيرة تشاد، مكونة جميعها أساس دولة كانم التي بدأت مع بداية القرن الثامن الميلادي. واستمر التطور الحضاري حتى ظهر شعب الساو في الأفق لتبدأ مرحلة حضارية جديدة.<sup>(٢)</sup> وقد حدد بعض المؤرخين<sup>(٣)</sup> تاريخ وصول الساو إلى بحيرة تشاد بمدة لا تزيد على القرن العاشر الميلادي، على حين يؤيد «ايرفوي» وصولهم إلى المنطقة واستقرارهم على الشاطئ الشرقي للبحيرة بالقرن الثامن الميلادي<sup>(٤)</sup>.

---

(١) إفريقية القديمة تكتشف من جديد، ص ٥١.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المكان نفسه، ومنهم «ليوف» كما يذكر ديفدسون.

(٤) المكان نفسه.

وفي المقارنة بين القليل الذي نعرفه عن تاريخ استقرار الساو شرقي وغربي بحيرة تشاد، وتاريخ ظهور دولة كانم يبقى سؤال مهم، وهو: هل يمكن القول بأن شعوب الساو تمكنت من إنشاء دولة في هذا الماضي البعيد على حين كانت تعاني من موجات الشعوب المهاجرة إلى أرضها؟... ربما لم يتمكنوا من ذلك. ولكن بغض النظر عن هذه الشعوب المهاجرة فقد قدمت شعوب أخرى استطاعت في يوم ما أن تنشئ دولة كانم، وأثبتت أنها تستطيع أن تكون ذات تأثير حضاري بعيد ومهم في توحيد هذه الشعوب المختلفة شرقي حوض النيجر<sup>(١)</sup>. وهذه الشعوب الأخرى هي «الزغاوة».

والزغاوة شعب جمع بين المؤثرات الزنجية والحامية، وانتشروا في مستهل الفترة الواقعة بين ستي ١٨٤ و ٦٤٨هـ / ٨٠٠ و ١٢٥٠م في مساحة رحبة تمتد من بلاد دارفور حتى بحيرة تشاد.<sup>(٢)</sup>

وفي بداية القرن (٦هـ / ١٢م) تعرض الزغاوة لهجرة من الطوارق الملثمين، ومثلها من التبو (سكان هضبة تبستي) والتيدا، ولم تكن هجرة شاملة، بل كانت على شكل أرستقراطية حاكمة استطاعت أن تخضع شعب الزغاوة لسلطانها<sup>(٣)</sup>. ثم أنجبت هذه الأرستقراطية أول أسرة مالكة سيطرت على المنطقة شرقي بحيرة تشاد وأسست سلطنة كانم<sup>(٤)</sup>. وقد ادّعى ملوك هذه

---

(١) المكان نفسه.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة حوصة، د. حسن محمود: دور العرب في نشر الحضارة في غرب إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص ٧٢.

(٣) Palmer, Bornu Sahara and sudan, op. cit., p. 5.

دور العرب في نشر الحضارة، المرجع السابق، ص ٧٢-٧٣.

الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص ٦٤.

(٤) الإسلام والمسلمون، المكان نفسه.

الأسرة الانتساب إلى سيف بن ذي يزن الحميري. (١)

ويعلق القلقشندي<sup>(٢)</sup> على هذا الادعاء بقوله: «وقد وصل كتاب ملك البرنو في أواخر الدولة الظاهرية (برقوق) يذكر فيها أنه من ذرية سيف بن ذي يزن، إلا أنه لم يحقق النسب فذكر أنه من قريش؛ وهو غلط منهم فإن سيف ابن ذي يزن من أعقاب تبابعة اليمن من حمير». ويقول العمري<sup>(٣)</sup> في معرض الكلام عن كاتم بأنهم ادعوا النسب العلوي، ونصه «... من بيت قديم في الإسلام وجاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن» والدكتور حسن محمود<sup>(٤)</sup> يقول بأن النسب الحميري يؤكد لنا صحة انحدرهم من أصل ملثمي، لأن الملثمين جميعهم من صنهاجة الجنوب ويتسبون إلى الحميريين. ويرى بعض المؤرخين<sup>(٥)</sup> أن هذا الادعاء خرافة، ولهم حججهم.

ومهما يكن من أمر فإن ادعاء النسب العربي ظاهرة في تاريخ الأسر الحاكمة أو الأفراد في الشرق والغرب الإسلاميين، ومنه الصحيح وغيره.

وفي القرن الرابع عشر تعرضت كاتم إلى ألوان من الصراع الداخلي بسبب ثورات بعض القبائل وخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة، مما أضعف

---

(١) صبح الأعشى، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٠، مسالك الأبصار، ص ٤٩٠ المقرئ، الإلمام مصدر سبق ذكره، ص ٢٧.

(٢) صبح الأعشى، ج ٨ ص ١١٧. (وللوقوف على نص الرسالة التي ورد فيها ذكر ادعاء النسب إلى سيف بن ذي يزن، انظر: المكان نفسه. أما ماجاء في الرسالة وكان موقع تعليق أيضا فهو «ونحن بنو سيف بن ذي يزن والد قبيلتنا، العربي القرشي، كذا قد ضبطنا، عن شيوخنا» انظر: المكان نفسه).

(٣) التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٨.

(٤) دور العرب في نشر الحضارة، مرجع سبق ذكره، ص ٧٣. (وقد أورد بالمر تحليلا لهذه الدعوى الحميرية وأصولها وما ارتبط بها من حوادث في ضوء ما عثر عليه من مخطوطات في تنبكت وبرنو.

انظر: (The Bornu Sahara and Sudan, op. cit., pp. 78-119).

والدكتور طرخان يرى أنهم من البربر. انظر: دولة برنو الإسلامية ص ٥٩.

(٥) منهم: د. طرخان، دولة البرنو، المرجع السابق، ص ٥٨.

دولة كانم. على أن أهم شيء أثر في حياة كانم هو ذلك الزحف العاتي الذي قامت به جماعات قبائل البولالا من جهة الشمال الشرقي قبيل نهاية القرن الرابع عشر الميلادي. وقد تمكنت هذه الجماعات من احتلال «نجيمي»<sup>(١)</sup>، عاصمة الدولة، والاستيلاء على السلطة الفعلية. وفرت الأسرة السيفية إلى غربي البحيرة في عهد السلطان عمر بن إدريس<sup>(٢)</sup> (٧٩٧-٨٠١هـ / ١٣٩٤ - ١٣٩٨م)، ودخلت الدولة الكانمية في مرحلة جديدة من حياتها، إذ عرفت بعد ذلك باسم كانم - برنو، أو دولة البرنو الإسلامية. وأسست عاصمة جديدة في عهد السلطان علي جاجي - غازي - دونامي (٨٨١-٩٠٩هـ / ١٤٧٦ - ١٥٠٣م) وعرفت باسم غسرغمو<sup>(٣)</sup>، وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وظلت العاصمة السياسية لمدة ثلاثمئة سنة على الرغم من أن نجيمي قد احتلت مرة أخرى حوالي منتصف القرن السادس عشر، على يد العاهل البرنوي ماي علي الذي تمكن من إخضاع قبائل البولالا. وبسط نفوذه على شرقي البحيرة، وجمع كانم مع برنو في سلطنة موحدة.<sup>(٤)</sup>

ويعتبر علي جاجي المؤسس الحقيقي لدولة البرنو الجديدة. وتمكن من مد نفوذه إلى بعض دول الهوسا، واضطرت كانوا أن تدفع الجزية إلى برنو<sup>(٥)</sup>. ثم بلغت برنو أوج مجدها وتوسعها في القرن (١٠هـ / ١٦م)، فقد تخلصت من غزوات البولالا، ومكنت لها الأحوال الدولية المعاصرة من مواصلة سياسة التوسع، فالمغرب شهد تسرب النفوذ العثماني إلى الجزائر وتونس، وشغل

---

(١) صبح الأعشى، ج٥، ص٢٨١، Hogben, op. cit., p. 37

(٢) دور العرب، ص٧٤. Loc. cit.

(٣) المكان نفسه. Loc. pcit. p. 38

(٤) Loc. cit.

(٥) Ibid, p. 37.

المغاربة بدفع الخطر الأسباني والبرتغالي، وسقطت دولة سنغي في يد المراكشيين<sup>(١)</sup>. وترجع على عرشها في هذه الفترة أعظم ماياتها إدريس علومة (ألوما)، الذي استطاع بعد حصوله على الأسلحة النارية أن يقلم أظافر القبائل الوثنية في جنوب البلاد، ويسيطر نفوذه شمالا حتى واحة أهير ومناطق التيدا والتبو<sup>(٢)</sup>. وبعد وفاة إدريس ألوما ترك الحكم لأبنائه الثلاثة الذين حكموا واحدا تلو الآخر. وكانت الدولة تسير في عهدهم على قوة الركائز التي وضعها والدهم<sup>(٣)</sup>. وجاء من بعدهم علي بن عمر (١٠٥٥-١٠٩٧هـ / ١٦٤٥-١٦٨٥م) وكان كجده بطولة وكفاءة. وظهر الضعف في خلفائه إلى أن داهم المملكة الشيخ عثمان بن فودي نتيجة للموقف العدائي الذي وقفته منه برنو. وكادت الدولة تسقط في يد عثمان بن فودي لولا السياسة الجديدة التي انتهجها الشيخ محمد الأمين الكائمي، الذي تولى السلطة في برنو عندما استعان به سلطانها، وظل حكم برنو في أسرة الكائمي إلى أن دخل البلاد رابع بن فضل الله سنة ١٣١١هـ / ١٨٩٣م<sup>(٤)</sup>. وظل رابع في السلطة إلى أن قتله الاستعمار الفرنسي سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م. وناضل من بعده ابنه فضل الله حتى غلبه الفرنسيون، وسقطت تشاد في يدهم سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١م<sup>(٥)</sup>.

---

(١) دور العرب ص ٧٥.

(٢) المكان نفسه، Hogben, op. cit., p. 40.

(٣) د. شلبي، الموسوعة، ص ٢٩٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٩٦، ورابع هو أحد قواد الزبير باشا رحمه الجعلي السوداني وساعده الأمين. تركه الزبير على رأس قواته مع ابنه سليمان الزبير ببحر الغزال بجنوبي السودان النيلي عندما نفي إلى مصر. وفطن رابع لما يدبر له ولسليمان، فهاجر بجزء من قوات الزبير إلى الغرب حتى وصل إلى تشاد، وترك وراءه سليمان الذي وقع في الفخ الذي نصب له. انظر: د. عبده بدوي: شخصيات إفريقية. دار الوفاء للمطبوعات، القاهرة، د ت، ص ص ٢٢-٣٠.

(٥) د. شلبي، المرجع السابق، ص ٢٩٧.





## المبحث الأول



## تاريخ حركة الإسلام والتعليم الإسلامي في برنو

يبدو أن الزغاوة قد ظلوا على الوثنية حتى النصف الأول من القرن (الخامس الهجري) الحادي عشر الميلادي. فالبكري<sup>(١)</sup> يصف دولتهم بأنها مملكة وثنية، وعبارته: «وهم سودان مشركون». ولكن العمري<sup>(٢)</sup> الذي كتب عنها بعد ذلك، في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، يقول عن ملكها: «مسلم مستقل». ولكنه لم يذكر على وجه التحديد الوقت الذي أسلم فيه ملوك هذه الدولة، وحاول أن يوجد رمزا لدخول الإسلام هذه المنطقة، فجعل الاضطلاع بهذه المهمة على عاتق من سماه بـ«الهادي العثماني» حين قال: «وأول من بث الإسلام فيها الهادي العثماني، ادعى أنه من نسل ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه. وصارت بعده لليزنيين من بني ذي يزن»<sup>(٣)</sup>. ولم يكشف لنا العمري عن شخصية الهادي العثماني، ولكن يفهم من النص أنه أحد السلاطين من غير أفراد الأسرة التي حكمت بعد ذلك، والتي تدعي النسب إلى سيف بن ذي يزن، والمعروفة في التاريخ بـ«الأسرة السيفية». والمفهوم من النص أيضا أن الإسلام قد فشا في هذه البلاد قبل القرن (٨هـ / ١٤م)، لأن الأسرة التي كانت تحكم في زمن العمري هي الأسرة السيفية. وهذا القول يتفق مع ما جاء في المخطوطات العربية التي ترجمها بالمر وجمعها في كتابه المشهور:

---

(١) المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١١.

(٢) مسالك الأبصار، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٩١، (ويفسر بعض الكتاب بأن الهادي العثماني الذي ورد اسمه في هذا النص هو

الماي عثمان بن زينب (١٣٠٠م) الذي ادعى أنه من نسل عثمان بن عفان رضي الله عنه) انظر: د.

طرخان: الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقيا. مرجع سبق ذكره، ص ٦٠. 189. Bornu Sahara, p.

«The Bornu Sahara and Sudan»، وفيها دلالات واضحة على أن الإسلام عرف في هذه البلاد منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ومع مجاء على لسان العمري<sup>(١)</sup> في كتابه الآخر حين قال عن صاحب كانم؛ «من بيت قديم في الإسلام».

وقد كتب ابن سعيد المغربي بعد العمري، وما كتبه يفيد بأن الإسلام قديم في هذه البلاد، وانتشر فيها قبل القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ففي معرض الكلام عن «نجيمي» عاصمة الكانم يقول: «وفيها سلطان الكانم المشهور بالجهاد وأفعال الخير، محمد من ولد سيف بن ذي يزن. وكانت قاعدة حدود الكفرة قبل أن يسلموا. ثم أسلم منهم جده الرابع على يد فقهاء الإسلام في بلد الكانم».<sup>(٢)</sup>

وإذا افترضنا لكل جيل مدة خمسين عاما، يكون تاريخ أول من أسلم من ملوك الكانم هو حوالي القرن الحادي عشر، ويتفق هذا تماما مع ما قرره العمري.

والكلام عن إسلام دولة كانم برنو يقودنا إلى تقرير حقيقة شاهدها الحسن الوزان، وهي أن الإسلام لم يكن قد تمكن تماما من هذه المناطق، إذ جاء في البيانات التي جمعها عن مملكة برنو أثناء زيارته لها في رحلته المشهورة إلى غربي إفريقيا في مطلع القرن السادس عشر، أنه كانت في بلاد برنو قبائل كثيرة لم تنزل على الوثنية وتحيا حياة بدائية، وقال ما ترجمته: «والجبال يسكنها الرعاة، يخرجون عرايا في الصيف ما عدا الخاصة منهم، يتغطون بقطعة من

---

(١) التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٢٨.

(٢) بسط الأرض، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨.

الجلد. ولكنهم يتدثرون طوال الشتاء بالجلود. لا يعتنقون أي دين، لا مسيحية ولا إسلام ولا يهودية، أو أي ديانة أخرى، ويحيون حياة الماشية، أزواجهم وأولادهم مشايعة بينهم، وكما فهمت من تاجر أقام بين ظهرائهم لزمان طويل أنه ليس لهم أسماء معلومة أبدا، بل كل واحد منهم يكنى حسب طوله أو قصره أو سنه أو حسب أوصاف جسمانية أخرى أو ملكات.<sup>(١)</sup>

والذي يذكره الوزان ليس غريبا في البلاد التي دخلها الإسلام عن طريق الاحتكاك، وهو مظهر من مظاهر انتشار الإسلام في القارة الإفريقية. فقد نجد في مجتمع واحد المسلم بجانب الوثني. وكلما كان الإسلام سطوحيا نجد المسلمين يتمسكون ببعض العادات الوثنية، ونجد الوثنيين يمارسون بعض عادات المسلمين، وذلك كله لغياب الهيئات التبشيرية المنظمة أو الفقهاء والمتعمقين في الدراسات الإسلامية في المناطق النائية والبعيدة عن مركز الثقل الإسلامي، ومثال ذلك ما لاحظته ابن بطوطة<sup>(٢)</sup> عند أهل مالي المسلمة من أن الخدم والجواري وصغار البنات يظهرون للناس عرايا، ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأديبا، ومنها أن كثيرا منهم يأكلون الميتة والكلاب والحمير. وهناك أشياء أخرى تخللت الرحلة أبرزها أن أحد ملوك مالي كان كلما شبت فتاة جميلة تهدى إليه ليطأها دون عقد شرعي، حتى ذكره أحد الفقهاء بحرمة هذا، فقال له: «حتى للملوك؟!». فرد عليه الفقيه بأنه لا يجوز ذلك حتى للملوك، فأقلع عن هذا، علما بأنه كان مسلما ومجاهدا.

والأمثلة على الثنائية في العقيدة كثيرة تعرض لها كل من كتب عن تاريخ

---

(١) History and Description of Africa, op. cit. p. 833

(٢) تحفة النظار، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٠.



الإسلام في غربي إفريقيا وآسيا<sup>(١)</sup>. وقد تعرض أندرسون<sup>(٢)</sup> لهذه الظاهرة، فقسم كيفية دخول الإسلام إلى مثل هذه المناطق إلى ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: أن يزور التاجر المسلم أو الفقيه بلدا ما، فيبدأ بالإقامة بها، ويتصل به الناس، ودونما فهم حقيقي للإسلام يبدوون في ممارسة ما يفعله الفقيه من تعويضات ليست غريبة عليهم، ولها ما يشابهها في معتقداتهم الوثنية، ويستعينون بالأولياء والصالحين المسلمين كبديل أو إضافة إلى زياراتهم لرهبانهم الوثنيين، ويساعد هذا الامتصاص الفرعي، أن كثيرا من الوثنيين من أصحاب المذهب الحيوي الذين يؤمنون بقوة عليا لم يكن غريبا عليهم الإيمان بالله الذي تدعو إليه الديانة الإسلامية، بينما المسلمون قد عرفوا الأشياء التي في المذهب الحيوي بالجن. وبذلك أصبحت هناك نقطة التقاء، وهي الإيمان بقوة غيبية.

المرحلة الثانية: هي التي يبدأ فيها الوثنيون في أداء صلوات المسلمين وليس فقط تعويضاتهم، وقد لمس الباحث هذا الأمر بنفسه في غامبيا وساحل الذهب<sup>(٣)</sup>.

المرحلة الثالثة: وفي هذه المرحلة يعتنق الوثنيون الإسلام على الرغم من بقاء بعض مفاهيم الوثنية السابقة، لذا فليس من الغريب أن نرى الشائبة العقدية في بعض المجتمعات الإسلامية في إفريقيا أو آسيا.

وحقيقة أن ملوك كانم قد بدأ دخولهم في الإسلام منذ القرن الحادي عشر الميلادي، تؤيدها الوثائق التي جمعها بالمر من هذه البلاد. فيذكر هذا

---

(١) انظر مثلا: Meek, op. cit. pp 2-4 آرنولد، الدعوة، ص ٣٢٥ (عن الهندوكيين الذين يمارسون شعائر

إسلامية ويعهدون بأبنائهم إلى معلمين مسلمين). Muslims and Chiefs, p. 169.

(٢) G. E. V. Grunebaum (editor), Unity and Variety in Muslim Civilization, p. 263.

(٣) Palmer, The Bornu Sahara, op. cit., p. 14.

المؤرخ الباحث أن أول بلد في غربي إفريقيا دخلها الإسلام كانت بلاد برنو، وأن أول من جاء بالإسلام إلى هنا هو محمد بن ماني<sup>(١)</sup>، الذي عاش في برنو خمس سنوات في زمن الملك بولو «Bulu»، وست سنوات في عصر الملك عركي، وأربع سنوات في حكم السلطان كاداي ها وأمي، وأربع عشرة سنة في زمان حكم الماي أومي.<sup>(٢)</sup>

بعد مجيء محمد بن ماني أصبح الإسلام ديناً معروفاً على نطاق واسع وفي مركز راسخ لمدة خمسين سنة بعد ذلك في زمن الملك محمد، ثم لمدة ست وعشرين سنة في زمن الماي عثمان، ثم لمدة خمس عشرة سنة في زمن الملك عبدالله، ثم لمدة ثمانية وعشرين عاماً في زمن السلطان عبدالجليل، ثم لمدة تسعة وثلاثين عاماً في زمن الماي محمد بن محمد، ثم لمدة عشرين عاماً في زمن السلطان عثمان.<sup>(٣)</sup>

ومجيء ابن ماني إلى برنو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحركة التعليم الإسلامي في برنو؛ فقد كان داعية ومعلماً، وكانت أول صلة له بالملك بولو صلة تعليمية، قرأ على يديه السلطان بولو من سورة تبارك إلى سورة الناس، ومنحه السلطان مقابل هذه الفترة الدراسية خمسين جملاً<sup>(٤)</sup>. وقرأ على يديه السلطان عركي من سورة ياسين إلى سورة الناس، وأعطاه مقابل ذلك ستين جملاً<sup>(٥)</sup>. ودرس على يديه الماي شوبن عركي من سورة مريم إلى سورة الناس، ومنحه خمسين جملاً. وتلقى على يديه الماي عبدالجليل أومي (٤٧٩-٤٩١هـ/

---

Loc. cit. (١)

Loc. cit. (٢)

Loc. cit. (٣)

Loc. cit. (٤)

Loc. cit. (٥)

١٠٨٦-١٠٩٧م) دراسة القرآن كله، من سورة البقرة إلى سورة الناس. ودرس عليه رسالة ابن أبي زيد أكثر من مرة، فأعطاه منحة قدرها مئة جمل، ومئة قطعة من الذهب، ومئة قطعة من الفضة ومئة عبد، كل ذلك من أجل الإقراء والدراسة والإرشاد والتوجيه الذي تلقاه من معلمه.<sup>(١)</sup>

ودراسة السلطان للقرآن كله بالإضافة إلى الرسالة في الفقه، يشير إلى الاهتمام بالدراسات الإسلامية في هذه البلاد في زمان هذا السلطان المجتهد، والذي يريد أن يتعلم دينه وهو في قمة المسؤولية. وليس أدل على حبه للعلم والعلماء من هذه المثابرة، ومن هذا السخاء لمعلمه ومرشده محمد بن ماني، حيث لم يكتف بالتكريم المادي لهذا الشيخ، بل أصدر مرسوما ملكيا خاطب فيه رعيته قائلاً لهم إنه محرم عليهم مس كل من له صلة بعشيرة محمد بن ماني، لأنه تعلم منه القرآن والرسالة. وأعلن لهم أن الملك أومي والفقهاء ابن ماني قد نشرا الإسلام إلى يوم القيامة، «وأن ممتلكات محمد بن ماني حرام على السلطان وغيره إلى يوم الدين»<sup>(٢)</sup>. وقد شدد كثيرا على عدم مس عشيرة ابن ماني بضرر، وكرر ذلك أكثر من مرة.<sup>(٣)</sup>

وزيادة في الاحترام للعلماء عامة نرى الملك أومي يحرم أيضا على نفسه وعلى شعبه كل ضرر يمس عشيرة الفقهاء تورا توزان، التي كان منها معظم الفقهاء والعلماء والصلحاء، ويقول إنهم ركن دولته<sup>(٤)</sup>، اعترافا بفضلهم في مجال الدعوة الإسلامية والتعليم الإسلامي والحياة الاقتصادية.

---

Loc. cit. (١)

Ibid, p. 15 (٢)

Loc. cit. (٣)

Loc. cit. (٤)

وآثار هذا العالم وأمثاله ظاهرة في برنو، وأكبر دليل على الأثر التعليمي لهؤلاء، حتى بين النساء، ما جاء في وثيقة برنوية قام بنشرها المؤرخ هودجكن<sup>(١)</sup>. جاء في هذه الوثيقة أن والدته السلطان بيرى بن دوناما بن أومي (حوالي مطلع القرن الثاني عشر الميلادي) تدخلت في حكم قضائي، وكان الحق في جانبها. والرواية تقول إن ابن هذه السيدة قام بقتل أحد اللصوص، وسمعت والدته بذلك، فقالت له: «كيف قتلت لصاً؟»، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾<sup>(٢)</sup>. وعقاباً له على مخالفة النصوص الشرعية القرآنية، سجنته عاماً كاملاً. وامثل لأمرها شعوراً منه بالندم على هذا التفريط في جنب الله.<sup>(٣)</sup>

ولم يكن العالم محمد بن ماني وحده الذي حظي بتكريم السلاطين، بل استمر تكريم المايات للعلماء على مختلف العصور. ولم يكن ابن ماني وحده هو الذي اشتهر بالدعوة الإسلامية وبث التعليم الإسلامي في بلاد البرنو، بل جاء بعده كثيرون أشهرهم الفقيه عبدالله دكي بن بكور. اشتهر هذا الفقيه في عهد الماي أنجالما دوكو (٥٩١-٦١٨هـ / ١١٩٤-١٢٢١م).<sup>(٤)</sup> فقد قرأ هذا العالم الإمام مئة وخمسين كتاباً مع ولد السلطان دوكو المسمى مبرادو بن سالما<sup>(٥)</sup>. وقراءة هذا العدد من الكتب دليل واضح على مدى رسوخ التعليم الإسلامي في برنو، وعلى مدى استعداد التلميذ الأمير علي أن يجلس إلى العالم لتلقي هذا العدد من الكتب الدراسية؛ ومن المرجح أن هناك من أبناء

---

(١) Nigerian perspectives, op. cit. pp. 70-71.

(٢) سورة المائدة: آية ٣٨.

(٣) Nig. Perspectives, op. cit. p. 71.

(٤) Ibid, p. 17, p. 19.

(٥) Loc. cit.

الرعية من سلك مثل هذا الطريق ومن العلماء من قام بهذه المهمة. ولكن انحصرت الوثائق التي بين أيدينا في نطاق السلطات الرسمية، ولم تسلط الأضواء على القاعدة الشعبية لتبين لنا حياتها الثقافية.

شيد الملك دوكو مسجدا جميلا إكراما للشيخ عبدالله واقتناعا بتوجيهاته، وطلاه بالجير وسقفه بالطين.

وأقام الشيخ عبدالله إماما عليه<sup>(١)</sup>. وهذا المسجد يعدّ من معاهد التعليم الأولى في بلاد البرنو.

وعندما أعجب السلطان بهذا العالم، أصدر مرسوما ملكيا يقرر فيه حرمة هذا العالم وذريته وأملاكه على كل الناس إلى يوم البعث.<sup>(٢)</sup>

وفي عهد السلطان الحاج علي (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م) اشتهر فقيه ثالث هو ابن مريم، فنال رضا السلطان، مما حدا به إلى أن يصدر مرسوما سلطانيا بتكريم هذا العالم، معفيا إياه من كل الالتزامات التي تجب على عامة الناس أو خاصتهم، مثل الضرائب والاشتراك في الحرب وغيرها. ويشمل الإعفاء كل ذريته إلى يوم الجزاء.<sup>(٣)</sup>

وذاص صيت معلم رابع في عهد السلطان الحاج حمدون (١١٤٠هـ / ١٧٢٧م)، وهو المعلم محمد. ولدوره التعليمي أصدر السلطان في حقه مرسوما كسابقه. ومنحه امتيازات كثيرة.<sup>(٤)</sup>

ولم تكن هذه المراسيم ظاهرة خاصة ببلاد البرنو وحدها، بل كانت شبه عامة في بلاد غربي إفريقية الإسلامية؛ ففي دولة سنغي الإسلامية حدث مثل

---

Loc. cit. (١)

Loc. cit. (٢)

Ibid, p. 31. (٣)

Ibid, p. 44. (٤)



هذا النوع من التكريم للعلماء، وجاء هذا في وثيقة مهمة. (١)

ويتضح من وجود العلماء أمثال ابن ماني وعبدالله وابن مريم ومحمد، أن برنو كانت على مر العصور ملتقى كثير من العلماء من مختلف الجهات والجنسيات من الشمال والشرق والغرب. وتكشف لنا السجلات المدونة حقيقة تاريخية همة، وهي أن دخول العلماء إلى برنو من جهة الغرب - مالي وسنغي - تم في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، في عهد السلطان الكانوي يعقوب بن عبدالله بورجا (٨٥٦ - ٨٦٧هـ / ١٤٥٢ - ١٤٦٣م) (٢). فقد جاء في عهده كما ذكرناه في مكانه علماء فولانيون مكث بعضهم في كانو وسار البعض الآخر إلى برنو. (٣)

وهكذا غزيت برنو بعلماء من معاهد غربي إفريقية الأخرى منذ ذلك الوقت، من تنبكت وجني وجاو ووالاتا وغيرها، إذ كانت في هذه الفترة مراكز تعليمية مهمة في غربي إفريقية.

بدأ نجم برنو يسطع في سماء الحياة الإسلامية في عهد الماي إدريس علومه، أعظم مايات برنو قاطبة. وقد أمدنا الإمام أحمد بن فرتوا بتاريخ مفصل لملوك برنو وأحداث زمانهم، لاسيما عهد الماي علومه، وخاصة في الأثني عشرة سنة الأولى من حكمه (٩٧٩-٩٩١هـ / ١٥٧١-١٥٨٣م). وذلك العاهل الذي قام بإخضاع القبائل المتمردة في بلاده بفضل جيشه المسلح

---

(١) انظر: تاريخ الفنانش، ص ص ٧٢-٧٣، ونص الوثيقة على الصفحات ٧٢-٧٥، وهي شاملة جامعة... كتبها آسكيا الحاج محمد لحضرة الفقيه الصالح مور محمد هوكار، دعا فيها أهل مملكته - العامة منهم والخاصة إلى مراعاة حقوق هؤلاء الأحفاد الذين منحهم امتيازات استثنائية كثيرة، تسري عليهم وعلى عقبهم من بعدهم.

(٢) Kano Chronicle, op. cit. p. 76.

(٣) Ibid, pp. 76. 77.



بالبنادق، وطرد قبائل الساو من معاقلهم الحصينة وشتت شملهم، كما أنه أخضع الطوارق في الشمال الغربي من برنو، وعامل القبائل الوثنية بحزم وشدة.<sup>(١)</sup> وشيدت في عهده المنشآت في مختلف بلاده، ونخص بالذكر منها المسجد الذي بناه في بلده أكمو.<sup>(٢)</sup>

وبعد هذه الفترة، وفي سنة ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م تتحدث وثيقة مهمة<sup>(٣)</sup>، كتبها صالح بن المعلم إشاركو، عن تطور كبير في مجال التوسع في بناء المساجد والتعليم الإسلامي في بلاد البرنو.

وفي الوثيقة التي نحن بصددنا وصفٌ للعاصمة البرنوية غسرغمو، في عهد السلطان علي بن الحاج، في النصف الثاني من القرن السابع عشر. يقول صالح بن المعلم إشاركو: «هذا التقرير عن السلطان علي ابن الحاج وإمامه ماسبارما الذي أم أهل القصر في الصلاة. هذا الحدث آثار إعجابي، ولذا ألفت هذا المؤلف»<sup>(٤)</sup> ومعظم هذا التقرير عن ماسبارما (أو سابراما كما جاء في الوثيقة نفسها)، وعن السلطان علي بن الحاج؛ فقد أعجب المؤلف بهذا العالم فكتب قصته مع السلطان. واسم هذا العالم هو «عمر بن عثمان»<sup>(٥)</sup> فلاني الجنسية<sup>(٦)</sup>. والذي يهمنا في هذه الوثيقة هو ماتبينه من تطور الإسلام وتعمقه في المجتمع البرنوي. يذكر صالح أن بالعاصمة أربعة مساجد لإقامة صلاة الجمعة، لكل مسجد جامع منها إمام للقيام بمهمة الإمامة في صلاة الجمعة. ويحضر الصلاة في كل مسجد اثنا عشر ألفا من المصلين<sup>(٧)</sup>. ويدل هذا العدد

---

(١) جمهورية نيجيريا الجديدة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥.

(٢) المكان نفسه Bornu Sahara, p. 33.

(٣) Palamer. "Two Sudanese Manuscripts of the 17th C." B. S. O. A. S., Vol15, (1928-1930), p. 542.

(٤) Two Sudanese Manusc. Ibid, pp. 544-551.

(٥) Ibid; p. 545.

(٦) Ibid. Loc. Cit.

(٧) Ibid, p. 547.

من المصلين دلالة واضحة على مدى اتساع المساجد في هذه العاصمة واتساع المدينة نفسها وانتشار الإسلام فيها. ومما لاشك فيه أن صلاة الجمعة بهذه الكيفية تعدّ عيداً إسلامياً كبيراً. وعلى الرغم من أن المؤلف لم يذكر عدد المساجد الأخرى التي لاتقام فيها صلاة الجمعة، إلا أن الإنسان يستطيع أن يقول بأنها كثيرة. ونسبة لأن المذهب المالكي الذي يتبعه أهل البلاد يرى التقليل من عدد المساجد الجامعة بقدر الإمكان، فلا نعجب إذا كانت المساجد الجامعة قليلة نسبياً ولكن روادها كثيرون.

ويذكر صاحب هذا الوصف أن بهذه المدينة كثيراً من العلماء المعلمين والصالحين، وأن تعليم الأمير علي بن الحاج لم يكن أقل من تعليم الأئمة المتعلمين<sup>(١)</sup>. وكان يعقد في قصره مناظرات بين علماء بلاده لمناقشة الأمور التي تحتاج إلى توضيح في الشريعة والعقيدة الإسلامية، وكان يشترك هو نفسه في هذه المناقشات الجادة بشاقب فكره وبما له من قدم راسخة في الدراسات الفقهية<sup>(٢)</sup>. وكان يصلي كل يوم مئة ركعة نافلة، ويتصدق بيديه على مئة فقير من الشيوخ الهرمين والنساء العجائز، ويرى مع كل هذا أنه لم يفعل شيئاً ذا بال عند الله، لخشيته وتقواه وورعه<sup>(٣)</sup>. وكان سبياً في إسلام سلطان أهير (أير - أجاديس) عندما عرض عليه الإسلام فقبله بعد أن عرفه، وأرسل إليه السلطان علي بن الحاج أربعة من المعلمين ليفقهوه في الدين.<sup>(٤)</sup>

لم يقتصر دور سلاطين برنو على مجال التعليم ونشر الدين الإسلامي في حدود بلادهم، بل تعداه إلى مناطق أخرى مثل إقليم «دارفور»<sup>(٥)</sup>. وقد

---

Loc. cit. (١)

Ibid, pp. 551`552. (٢)

Ibid, p. 552. (٣)

Loc. cit. (٤)

(٥) إحدى مديريات السودان النيلي من جهة الغرب.

اهتم الباحث البريطاني «آركل» بالصلة الحضارية بين برنو وإقليم دارفور، وتوصل إلى أن الإسلام دخل إلى دارفور عن طريق غربي أو شمالي إفريقية، وليس عن طريق مصر أو الشرق<sup>(١)</sup>. ومن المحتمل أن يكون المذهب المالكي الذي يسود حتى الآن في دارفور قد أخذ طريقه من برنو التي تبنته منذ فترة طويلة، لاحظها العمري<sup>(٢)</sup> حين قال عن برنو: «... والعدل قائم في بلادهم، ومذهبهم مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وهم ذوو اختصار في اللباس، يابسون في الدين». فلو كان الأثر عن طريق مصر لتبنوا المذهب الشافعي أو الحنفي السائدين في مصر على الصعيدين الشعبي والرسمي، ولكننا نجد المذهب الحنفي متبعاً في كل محاكم السودان على الصعيد الرسمي فقط، أما على الصعيد الشعبي خارج المحاكم الشرعية فقد كان المتبع هو المذهب المالكي<sup>(٣)</sup>. ووصل الأمر إلى أن أقامت برنو مساجد في منطقة شمالي دارفور، المجاورة لبرنو. وقد كشف عن هذه الحقيقة بعض الباحثين، منهم آركل، الذي ألقى كثيراً من الأضواء على بعض الآثار للوجود البرنوي في دارفور. وقد تمثل هذا في وجود آثار قديمة في مكان يعرف بـ«عين فرح»<sup>(٤)</sup> بدارفور، فيذكر أنه قام بزيارتين خفيفتين إلى عين فرح، إحداهما في سنة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م والثانية في سنة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م. وفي المرة الثانية كان له السبق في اكتشاف حطام

(١) A. J. Arkell: "History of Darfur 1200-1700 A. D.".

(يذكر قداح أن الإسلام دخل إلى برنو عن طريق السودان العربي وفزان، ويبدو لنا أن الشق الأول من هذا القول لا يُطْمَأَن إليه، لأن دارفور دخلها الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي، وعرف في برنو منذ القرن الحادي عشر كما رأينا) انظر قداح، ص ٨٤.

(٢) مسالك الأبصار، ص ٤٩١.

(٣) Arkell, op. cit., p. 144. ولعل العمل بالمذهب الحنفي رسمياً أثر من آثار الفتح الإنجليزي - المصري للسودان في نهاية القرن التاسع عشر.

(٤) A. J. Arkell. "Darfur Antiquities, 1-Ain Farah", S. N. R. XIX, 2 (1936), pp. 301 ff.

من الطوب الأحمر. وهذا الحطام يعرف عند السكان المحليين بـ«بيت أم السلطان»، وهذه الآثار مكونة من قسمين. ويزعم آركل<sup>(١)</sup> أن هذا مسجد خاص. ويقول بأن من المؤكد أن لهذا الحطام صلة بالمساجد المبنية من الطوب الأحمر والقصور المبنية في غمبارو وغسرغمو من مدن برنو على يد أم السلطان الشهير بإدريس علومه وأمه، في أواخر النصف الثاني من القرن السادس عشر<sup>(٢)</sup>. والروايات المحلية في دار فور تقول بأن هذا الموقع كان آخر عاصمة لسلطان التنجور شو دور شد «Shau Der Shid»، وعرف بالمر وجه الشبه بين قصر دور شد المبني من الطوب الأحمر وتلك المباني المبنية من الطوب الأحمر في تلك العصور ببرنو، ولكنه لم يعرف بأن الأول كان متأخرا في الزمن كما يعتقد آركل<sup>(٣)</sup>. وتوصل آركل<sup>(٤)</sup>، طبقا للتاريخ المعاصر لإدريس علومه (٩٧٩-١٠١٢هـ / ١٥٧١-١٦٠٣م) إلى أن قصور الطوب الأحمر<sup>(٥)</sup> والمساجد، قد أدخلتها ملكة مرموقة في أواخر القرن السادس عشر، وهي ميرم<sup>(٦)</sup> (مريم) البلالية، أرملة السلطان علي، الذي حكم سنة واحدة (٩٥٢هـ / ١٥٤٥م). لقد نشأت هذه السيدة ابنها، الذي عرف فيما بعد بالسلطان إدريس ألوما (علومه)، ورعته طوال فترة حكم سلطانتين أخريين، حاملة في ذهنها أنه سيحكم في يوم من الأيام. واهتبلت الفرصة عندما آلت إليها الأمور هي نفسها في فترة حرجة من فترات خلو منصب السلطان، فنصبت ابنها سلطانا على البلاد، وبنت من أجله قصرا من الطوب الأحمر في غمبارو ببرنو، ومسجدا

(١) Ibid, p. 301.

(٢) Loc. cit.

(٣) Loc. cit.

(٤) Ibid, p. 301.

(٥) يقول «بوفل» إن استعمال الطوب الأحمر قد أدخل إلى غربي إفريقيا من أسبانيا سنة ١٣٢٥م.

انظر: Bovill, Caravans, op. cit., p. 73.

(٦) Loc. cit.



في بيرني غسرغمو العاصمة التي يحكم منها ابنها. (١)

وكما أدخلت بناء المساجد والقصور من الطوب الأحمر إلى برنو، فمن الطبيعي أن تكون لها الرغبة في القيام بالعمل نفسه في البلاد التي أخضعتها (٢)، ومنها غربي السودان النيلي العربي (٣). ويجانب ذلك فإن حماس ابنها إدريس للإسلام يجعل من المنطقي قيامه بنشر الإسلام في ربوع دارفور، وإنشاء المساجد (٤) التي كانت بمثابة أماكن للعبادة ومعاهد دينية لتدريس العلوم الإسلامية وترسيخ المبادئ الإسلامية.

وفوق ما ذكر من آثار برنوية في دارفور، فهناك مؤثرات ثقافية تمثلت في الكلمات المستعملة، مثل «ميرم» التي تطلق على قرىبات السلطان الحاكم (٥)، وكلمة «فاشر» التي تطلق على العاصمة (٦)، وما زالت مستعملة اسماً لعاصمة مديرية شمال دارفور الحالية. وتعني كلمة «فاشر» أصلاً، المكان الفسيح أمام قصر السلطان في برنو (٧)، وكلمة بيرني «Berni» تعني حائطاً من الطين في لغة الفور، بينما كلمة بيرني «Birni» الكانورية (٨) تعني مدينة كبيرة محاطة بحائط. (٩)

---

Loc. cit. (١)

Ibid, p. 310. (٢)

A. J. Arkell, "More About Fung Origins", S. N. R. XXV11, (1946), p. 88. (٣)

Darfur Antiquities, op. cit., p. 310. (٤)

(٥) وقد أفاد الأستاذ أحمد التجاني عمر أن الميرم تعني في دارفور «الأميرة» - وأن ذلك معروف حتى الآن. وكانت أخت السلطان علي دينار (ت ١٩١٦م) تسمى ميرم تاجبا، ثم أخذ هذا اللفظ مضمونا اجتماعيا، إذ يطلق على المرأة المتميزة في الطبخ والنظافة إلخ. بانها ميرم، ولعل هذا المضمون الاجتماعي فيه معنى المدح لمثل تلك المرأة بانها في مستوى الأميرات من حيث ما يميز المرأة في ذلك المجتمع. ولعل الإعجاب بميرم البلالية هو الذي جعل اسمها يأخذ هذا المضمون.

Fung Origins, op. 87. (٦)

Loc. cit. (٧)

(٨) اسم لقبائل كبيرة ومهمة في بورنو.

Fung Origins, op. cit., p. 89. (٩)

وهناك آثار برنوية في التنظيم الإداري، فاللقبان البرنويان: غلاديا «Gu»  
«Ladima» بمعنى حاكم الغرب، وكيفاما «Kaygama» بمعنى حاكم الجنوب. ربما  
كانت كلمتا ديا وأما اللقبان الفوريان مشتقتين منهما.<sup>(١)</sup>  
وفي مجال الاستعمال العام نجد باب الحريم المستعمل في القصر في  
دارفور عرف في برنو من قبل<sup>(٢)</sup>. والأمثلة على أثر برنو في دارفور كثيرة.<sup>(٣)</sup>

---

(١) Ibid, p. 88

(٢) Ibid, p. 89.

(٣) للمزيد من هذه الآثار من حيث الألفاظ اللغوية والعادات والثقافة، انظر:

History of Darfur, op. cit., pp. 144 ff.





## المبحث الثاني



## أشهر علماء البرنو

منذ دخول الإسلام إلى هذه البلاد في القرن الحادي عشر الميلادي، أصبحت من مراكز التعليم الإسلامي المهمة في غربي إفريقيا، واشتهر فيها كثير من العلماء الذين تقلدوا مناصب دينية همة بجانب القيام بالتدريس والتأليف. وسنقتصر في بحثنا هذا على العلماء المشهورين فقط، وذلك لكثرة علماء هذه البلاد. وفي ثنايا البحث، وفي الفصل السابق بالذات ذكرنا بعض هؤلاء العلماء أمثال ابن ماني وعبدالله وابن مريم ومحمد. وهاك غير هؤلاء من المشاهير حسب الترتيب الزمني.

### ١ - عمر بن عثمان

عاش الفقيه عمر بن عثمان في عهد السلطان الحاج علي بن الحاج عمر (١٠٥٤-١٠٩١هـ / ١٦٤٤-١٦٨٠م).<sup>(١)</sup>

كان هذا الشيخ من أصل فولاني، وهو واحد من سلسلة العلماء الكبار الذين وفدوا على بلاد الهوسا وبلاد البرنو قادمين من مناطقهم الرئيسة في فوتاتورو وماسنة في الجناح الغربي من غربي إفريقيا. وقد ترك لنا أحد المهتمين بكتابة التاريخ من أبناء برنو وثيقة مهمة تلقي ضوءاً ساطعاً على هذه الشخصية وعلى الحياة الثقافية في بلاد برنو، وقام بنشر هذه الوثيقة الباحث بالمر<sup>(٢)</sup> مع وثيقة أخرى عبارة عن «محرم» أصدره الماي علي بن إدريس في حق عالم فولاني يسمى غبدامة.<sup>(٣)</sup>

---

(١) Two Sudanese Manuscripts, op. cit., p. 545.

(٢) Ibid, pp. 544-47.

(٣) Ibid, pp. 548-51.

وفي هذه الوثيقة الأخيرة يظهر الأثر الثقافي لعلماء الفولاني في هذه البلاد. والذي يهمننا في الوثيقة الأولى هو ما جاء فيها من ترجمة لهذا العالم عمر بن عثمان.

تقول الوثيقة بأن عمر بن عثمان من مواطني بلدة «غرميل»<sup>(١)</sup>. ولم نعرف حتى الآن مكان هذه البلدة بالتحديد، ولعلها في جهات ماسنة أو السنغال. وكان الشيخ عمر من قراء القرآن ومن الراسخين في العلم به، إلى جانب تعمقه في الدراسات الإسلامية الأخرى كالتوحيد والأصول والتصوف واللغة العربية والنحو والصرف والبلاغة والبيان والمنطق والفقه.<sup>(٢)</sup>

وعندما حل عمر زائرا بهذه البلاد وسمع الناس بغزارة علمه وفضله، تقاطر عليه طلاب العلم والمعرفة من جميع أرجاء البلاد، لمقابلته وتلقي العلم على يديه وسؤاله فيما يشكل عليهم من أمور الدين، وما يختلفون فيه من مسائله<sup>(٣)</sup>. وظل الشيخ عمر مستجيبا لرغبة المتعطشين لعلمه، ومعلما مبددا لظلمات الجهل في بلاد برنو لمدة خمس عشرة سنة، ثم قام بعد ذلك برحلة علمية إلى الأزهر، ومكث به زمنا يتلقى العلوم على أساتذته المشهورين. ويعلم من هم دونه مرتبة في العلم.<sup>(٤)</sup>

وبعد قضاء مدة في ربوع الأزهر الشريف غادر مصر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وبعد الفراغ من أداء مناسك الحج والعمرة توجه إلى المدينة المنورة للزيارة، وظل بها شهرين، ثم غادرها إلى بغداد مواصلا رحلته العلمية. وفي بغداد طاب له المقام فمكث فيها ستة أشهر، يتعلم ويعلم، فأغنى

---

(١) Ibid, p. 545.

(٢) Loc. cit.

(٣) Loc. cit.

(٤) Loc. cit.

عقله وعقول الآخرين. (١)

وبعد هذه الجولة العلمية عاد إلى غسرغمو ومكث بها أسبوعا ضيفا عند صديقه زارما محمد مارجمي<sup>(٢)</sup>. ثم غادرها بطلب من زارما إلى بلدة صغيرة تبعد عن العاصمة حوالي ثلاثة أميال تسمى بـ«رفي»، وظل يلقي بها الدروس على تلاميذه<sup>(٣)</sup>. وفي هذه الأثناء لحق به أحد العلماء من العاصمة يدعى أحمد شتما. وعندما التقى به وسبرغوره وجده عالما حقا وتقيا عابدا. ودهش أحمد شتما لحكمة هذا العالم، فظل صامتا في مجلسه<sup>(٤)</sup>. وبعد رجوعه إلى مقره اتصل بزارما محمد وطلب منه السماح بأن يدعو عمر بن عثمان إلى غسرغمو. فاستجاب زارما لهذا الطلب، فقدم الشيخ عمر إلى منزل زارما. وفي هذا الوقت سمع السلطان بأخبار عمر بن عثمان وكراماته وصلاحه، فاستقدمه إليه من زارما، وعند اللقاء تجلت للسلطان حقيقة هذا الشيخ، فعينه إماما لمسجد القصر الملكي. فأصبح يصلي خلفه ومعه أهله وحاشيته الذين بلغ عددهم ستة وسبعين رجالا ونساء<sup>(٥)</sup>. وأكرمه أكثر عندما أصدر مرسوما يحرم فيه كل ماله وعشيرته على أهل مملكته. ومنحه لقب «مسبرمه»<sup>(٦)</sup>، وكان ذلك في سنة ١٦٥٨ م. وقد كتب هذا المرسوم المعروف بـ«المحرم»<sup>(٧)</sup> العالم محمد صالح بن العالم إشاركو، وكان هذا المحرم هو الثالث من نوعه الذي يمنح لأحد من أفراد أسرة عمر بن عثمان. (٨)

---

(١) Loc Cit.

(٢) ربما يكون حاكم المدينة من قبل السلطان البرنوي.

(٣) Loc. Cit.

(٤) Ibid, p. 546.

(٥) Loc. Cit.

(٦) Loc Cit.

(٧) ترجم بالمر عشرين محرما عربيا في كتابه: The Bornu Sahara and Sudan

(٨) The Bornu Sahara, pp. 33-35.



## ١ - أحمد بن فرتوا

يكاد يكون هذا العالم من جيل علماء تنبكت نفسه، وهم الذين كتب عنهم أحمد بابا التنبكتي، ولكن له تقليد مستقل في الكتابة<sup>(١)</sup>، وهو العناية بالناحية الحربية في حياة أحد سلاطين برنو، المشهور بـ«إدريس ألوما». ولقد قام المستشرق رتشموند بالمر بنشر كتاباته التي منها:

(١) تاريخ ماي إدريس وغزواته، الذي طبع في كانو سنة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م،

بعنوان: Arabic Text in Tarikh Mai Idris Wa-Ghazawatihi,

(٢) ترجمة إنجليزية لكتاب ابن فرتوا ضمن كتاب بعنوان: Sudanese Memoirs.

طبع في لاغوس سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م، والخاص بمؤلف ابن فرتوا يقع في الجزء الأول من هذا الكتاب، من صفحة ١٥ إلى صفحة ٧٢.

ومؤلف ابن فرتوا هذا عبارة عن رسالتين مهمتين، الأولى: تاريخ الاثنتي عشرة سنة الأولى من حكم إدريس ألوما سلطان برنو (٩٧٩-٩٩١هـ / ١٥٧١-١٥٨٣م)، والثانية عن حروب هذا السلطان ضد قبائل البلالة. وتعدّ هاتان الرسالتان من أهم المصادر العربية في تاريخ برنو الإسلامي<sup>(٢)</sup>، واشتهرتا على نطاق واسع، وأصبحتا من المصادر الأساسية للباحثين. ويبدو أن المخطوطات التي استخدمها بالمر مازالت موجودة ولكنها كتبت في زمن حديث نسبياً<sup>(٣)</sup>. وليس من المؤكد إن كانت النسخ القديمة التي استقوا منها مازالت محفوظة<sup>(٤)</sup>. وقام بالمر أيضاً بنشر كتاب أحمد بن فرتوا الخاص بالاثنتي عشرة سنة الأولى من حكم إدريس على صفحات مجلة الجمعية الملكية الآسيوية<sup>(٥)</sup>، وكتاب

---

(١) Biver and Hiskett, op. cit. p. 112.

(٢) الدكتور زكي، المراجع العربية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤.

(٣) Bivar and Hiskett, op. cit., p. 113.

(٤) Loc. Cit.

(٥) J. R. A. S., 19 (1862), pp. 199-259.

أحمد بن فرتوا عن سبع الحروب التي خاضها ضد البلالة. (١)  
ويبدو أن أحمد بن فرتوا كان في منصبه الرسمي عندما كتب هذه المؤلفات. فهو نفسه كان معاصرا لحملات الماي إدريس التي سجلها، أما حياته فلا يعرف عنها إلا القليل، ولكن من خلال مؤلفاته التي ذكرناها يبدو لنا أنه كان من العلماء المؤرخين الذين فطنوا لأهمية كتابة التاريخ القومي لبلادهم.

## ٢ - محمد البكري

يعد الشيخ محمد البكري من علماء برنو المشهورين على نطاق غربي إفريقيا. قال عنه الإمام (٢) «بلو ما نصه: «من علماء هذا البلد الإمام العالم العلامة المتفزن الفهامة، شيخ الشيوخ ذو الفهم والرسوم، الشيخ البكري». تلقى البكري تعليمه في اللغة العربية والبلاغة في بلدة جاندوت الواقعة شرقي بلاد الهوسا (٣). وكانت جاندوت من المدن ذات الشهرة بسكنى العلماء والطلبة. (٤)

وبعد أن نال بغيته من العلم خرج من جاندوت وهو من العلماء المتفنين وقصد بلاده (٥). وبعد ذلك أحب الاستزادة من مشاهير العلماء، فرحل إلى الفقيه الشيخ النجيب التكدادي الأنصمني (٦)، وتعلمذ عليه وأفاد منه ثم قفل راجعا إلى موطنه. وظل يمارس مهنة التدريس والإرشاد ومحاربة البدع إلى أن

---

(١) Ibid, pp. 43-123.

(٢) إنفاق الميسور، ص ٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(٤) المكان نفسه.

(٥) لم يعين لنا بلو مسقط رأس هذا الشيخ، وفي عبارات بللو الكثير من الإبهام مما يصعب معه استنتاج مسقط رأس هذا العالم. والذي يفهم من ترجمة بللو له أنه من علماء برنو.

(٦) انظر نيل الابتهاج، ص ٣٢٨، فهو من معاصري أحمد بابا، وكان في سن متقدمة عندما ترجم له. ومن مؤلفاته: شروحات لمختصر خليل، الأول في أربعة أجزاء والثاني في جزأين، ولهما ذيل عن معجزات البكري. وله تعليق على تخميس عشرينيات الفزاري لابن مهيب في مدحه الرسول ﷺ.

أخذه الله إلى جواره. (١)

والشيخ البكري من علماء القرن السابع عشر الميلادي (الحادي عشر الهجري) لأن مدرسه النجيب التكدوي كان حيا في سنة ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م عندما أكمل أحمد بابا التنبكتي كتابه «نيل الابتهاج». (٢)

ومن أشهر تلاميذ الشيخ البكري، الشيخ النجيب محمد بن سليمان الفلاتي أصلا والباغرمي موطنا<sup>(٣)</sup>، والشيخ الطاهر بن إبراهيم الفولاني<sup>(٤)</sup>، والشيخ ابن أجروم (أبو بكر الباركوم)<sup>(٥)</sup>، والشيخ عبدالله سك الفولاني البغاوي<sup>(٦)</sup>. وله مع عبدالله سك خلاف حول بعض العادات التي كان يفعلها الفولانيون في بلاد الهوسا، إذ يرى الشيخ البكري أنها توجب الكفر البواح، بينما يرى تلميذه عبدالله سك عدم ذلك، ويرى أن ذلك من المعاصي، لأنهم يقرون بالتوحيد، ولا يعتقدون الإشراك مع الله في شيء، ويصلون ويصومون<sup>(٧)</sup>. ويرى الإمام بلو أن الصواب مع الشيخ البكري بحجة أن التكفير في ظاهر الشرع يكون بأدنى من ذلك. (٨)

### ٣ - أبو بكر الباركوم

يعرف هذا الفقيه بابن أجروم<sup>(٩)</sup>. ذكره الإمام بلو بعد البكري مباشرة

---

(١) إنفاق الميسور، ص ٣٧.

(٢) ص ٣٤١، الإنفاق، ص ٤١، Bivar and Hiskett, op. cit. p.

(٣) الإنفاق، ص ٣٠ (له تأليف تدل على وفرة علمه وكثرة إحاطته وتضلعه، منها: المنهل في علم التوحيد، ونظمه على النقاية وقصائد وأشعار.

(٤) انظر ترجمته في هذا الفصل.

(٥) الإنفاق، ص ٣٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٠.

(٧) المكان نفسه.

(٨) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٩) المصدر نفسه، ص ٣٧.

كما يوحى بأنه كان تلميذا مباشرا للشيخ البكري، ونسب إليه بللو قصيدة بعنوان «شرب الزلال»، التي تحمل اسم مؤلف بتاريخ متأخر، مما يمكن أن يقال بهذا الصدد أن هناك قصيدتين بالعنوان نفسه، لأن إحداهما تنسب إلى الشيخ محمد ابن الحاج عبدالرحمن البرناوي<sup>(١)</sup>، ولربما كان هناك خلط عند الإمام بلو. ولتلمذه على يدي الشيخ البكري، يمكننا القول بأنه من علماء القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.

#### ٤ - الطاهر بن إبراهيم الفولاني

يسمى الإمام بلو هذا الشيخ بـ «أبي بكر الباركوم»، وعنه يقول: «كان نسيج وحده، وعالما بالمنقول والمعقول، صالحا تقيا بارعا، والحاصل أنه بلغ مبلغ الرجال». <sup>(٢)</sup>

نشأ الشيخ الطاهر بموضع يقال له «ذات البقر»، ورحل عنه إلى حيث يقيم الشيخ البكري، فاتخذه معلما حتى أفاد منه وعاد إلى بلده ليمارس مهمة التدريس والتوجيه<sup>(٣)</sup>. ويدل تلمذه على البكري على أنه عاش في القرن السابع عشر الميلادي.

بعد أن جلس للتدريس استقدمه السلطان البرنوي إلى حصنه، وبنى له دارا وأسكنه فيها<sup>(٤)</sup>، وولاه منصبا إداريا رفيعا في الدولة، ولكن الإمام بلو لم يذكر عن هذا المنصب أكثر من قوله «وولاه خطة»<sup>(٥)</sup>، وربما يعني بهذا القول أن الوظيفة كانت خطة القضاء أو خطة الإنشاء وديوان السجلات. ويذكر له

---

(١) Sec, Bivar and Hiskett, p. 118

(٢) الإنفاق، ص ٣٧.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

بلو<sup>(١)</sup> المصنفات الآتية:

- ١ - نظم على البكري للسنوسي ومعه شرح.
- ٢ - نظم الدرر اللوامع، ومنار الجامع. وهي قصيدة في علم التصريف.<sup>(٢)</sup>
- ٣ - قصيدة في عتاب السلطان البرنوي الذي عامله معاملة غير لائقة عندما رفض مقابله، وصد أبواب السلطان له. فأنشد قصيدة منها:  
أتركت بابا لا يحد مسافة      وأتيت بابا سده البواب  
باب يقول: فلاتلج، وتول من      بخل وكل ضم هذا الباب  
٤ - قصيدة في النصيح للسلطان من سماع أقوال الوشاة والسعاة، منها<sup>(٣)</sup>:  
إن كانورين كانوا      أهل قهر واعتلاء  
فالأراجيف لديهم      كأراجيز الشناء  
والأساطير أراجيز      بساتين الفضلاء  
يابني كانور هذا      من فنون الازدراء  
٥ - قصيدة في مدح العالمين، ابن توكوما وهاشم، من علماء برنو.

٥ - الإمام محمد بن الحاج عبدالرحمن البرناوي

يعد هذا العالم من النماذج الحية، وذلك لسعة اطلاعه وغزارة علمه. وفي قصيدته المشهورة «شرب الزلال» دليل كاف على هذه الميزة. وقد نشر هذه القصيدة كاملة وينصها العربي المستشرقان ييفار وهسكت<sup>(٤)</sup>، مع صورة النسخة المخطوطة التي اعتمدا عليها. وموضوع القصيدة هو الحلال والحرام في الشرع، وآراء الفقهاء في ذلك، ورأي ابن الحاج نفسه في ذلك. وقد وردت فيها أسماء

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٨٣٧.

(٢) هناك من يرى في هذا العنوان اسم لمؤلفين منفصلين، انظر: Bivar and Hiskett, op. cit. p. 138.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٤) The Arabic Literature of Nigeria to 1804. A Provisional Account, op. cit. pp. 118-123.



كثيرة لأعلام مصريين وأندلسيين ومغاربة، مما يعطي صورة واضحة للعلاقات الثقافية بين غربي إفريقية وبلدان شمالي إفريقية في القرن (الثاني عشر الهجري) الثامن عشر الميلادي. ومعظم هؤلاء العلماء الذين جاء ذكرهم في القصيدة كانوا مصريين اشتهروا في فترة حكم المماليك والتي تلتها، أي منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر. (١)

إن مستوى هذا العالم الثقافي لم يكن أقل كثيرا من مستوى علماء تنبكت. وكما هو واضح فإن معظم مصادره الفقهية التي اعتمد عليها يمكن الرجوع إليها في «نيل الابتهاج». (٢)

#### ٦ - الشيخ محمد الأمين بن محمد الكائني

كان الشيخ الكائني بحرا في العلوم العقلية والنقلية (٣). وفي مراسلاته الشهيرة مع الإمام بلو دليل ناصع على قوته العلمية وتضلعه. أصل والده من فزان ووالدته من عرب طرابلس. (٤)

بدأ الشيخ الكائني دراسته بتعلم القرآن في العاصمة البرنوية غسرغمو منذ صغره. وحج لأول مرة مرافقا والده الذي وافته المنية في المدينة المنورة (٥). وانتهاز الفتى فرصة وجوده بالمدينة المنورة فتتلمذ على عظماء علمائها، ولم يقف عند هذا الحد بل شد الرحال أيضا إلى الأزهر الشريف ليعب من بحره الزاخر ويتتلمذ على شيوخه (٦). ثم عرج بعد ذلك على مدينة فاس ليشبع نهمه

---

(١) Ibid., 131.

(٢) Loc. cit. انظر جزءاً من هذه القصيدة في ملحق رقم (٩).

(٣) الألواري، الموجز، ص ٦٨.

(٤) ابن يونس، ص ١٠٤، وهناك من يذكر أن والدته من كاتم. انظر: د. شلبي، الموسوعة، ص ٢٩٥.

(٥) المكان نفسه.

(٦) علي أبوبكر، ص ١١٩.



العلمي قبل أن يحط الرحال في بلاده في أواخر القرن الثامن عشر<sup>(١)</sup>. وأنشأ ببلده كرناو معهدا علميا أمّه كثير من الطلاب لشهرة مؤسسه العلمية في طول البلاد وعرضها، ولضربه في كل فن من فنون المعرفة بسهم<sup>(٢)</sup>. فقد درس إلى جانب فقه المالكية أنواعا كثيرة من العلوم كالتاريخ والاجتماع والسير وأخبار الدهاة والعمالق من علماء الأمصار والملوك وعلوم التصوف الإسلامي، التي أثرت في حياته الدينية أكثر من غيرها، كما يبدو جليا من تحلق التلاميذ حوله، وإكثاره من الخلوة، كما دلت على ذلك هيئة المخابئ التي تنسب إليه، وهي شبيهة ببيوت الخلوة الصوفية في بعض البلاد.<sup>(٣)</sup>

كان نفوذ الكائمي في سلطنة برنو لا يقل عن نفوذ الشيخ عثمان بن فودي في بلاد الهوسا. والشاهد القوي على ذلك قدرته على تكوين جيش عرمرم للوقوف أمام قوات الشيخ عثمان بن فودي وإجلائها عن العاصمة البرنوية التي استنجدت به عندما فشل سلطانها في صد القوات الفولانية الهوسية. وعندما وطد الكائمي السلطة للأسرة السيفية في بلاد برنو، ترك السلطة الفعلية للسلطين وأعار كل اهتمامه لمعهدته والتدريس والتوجيه إلى أن توفاه الله سنة ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م.<sup>(٤)</sup> وبعد وفاته خلفه ابنه الشيخ عمر الذي أعار هذا المعهد اهتمامه، ولكن هذا الاهتمام بدأ يفتر بعد سنة ١٢٦٣هـ / ١٨٤٦م، عندما تولى السلطة الفعلية كسلطان لبرنو، فانقسمت جهوده بين العرش والتدريس بالمعهد، إلى أن توفي سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨٠م.<sup>(٥)</sup>

---

(١) استغرقت رحلته العلمية حوالي خمسة عشر عاما. انظر: ابن يونس، ص ١٠٧.

(٢) علي أبوبكر، ص ١١٩.

(٣) ابن يونس، ص ١٠٧.

(٤) المكان نفسه.

(٥) المرجع نفسه، ص ١١٩-١٢٠.

## الفصل التاسع



## علماء غربي إفريقيا

### تمهيد:

يلاحظ أن كلمة «علماء» تعني العلماء المدرسين والعلماء الذين لم يتخذوا التدريس مهنة لهم، إذ كان الجميع يعملون بأجر أو تطوعا لتثقيف الناس وتعليمهم وإرشادهم، إما عن طريق الحلقات التعليمية أو الفصول الدراسية أو بتأليف الكتب ونشرها. وعلى هذا جرتْ دراستنا لكل العلماء، لأن مهمة العالم في هذه الفترة كانت التعليم في المقام الأول بجانب توليه مناصب إدارية أخرى.



## المبحث الأول





## ألقاب العلماء

### ١ - مدرس

إن كلمة «مدرس» نفسها من المترادفات التي تطلق كلقب للعلماء الذين يقومون بمهمة التدريس، وقد عرفت هذه الكلمة في الشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي وغربي إفريقية على السواء<sup>(١)</sup>. وكلمة «مدرس» تطلق على كل من يقوم بمهمة التدريس بصرف النظر عن وظيفته الأخرى أو ألقابه الأخرى، لأن هناك من العلماء من يجمعون بين معظم الألقاب العلمية والمهنية. ويعتبر محمود أقيت مثالا لذلك الجمع. فقد قال عنه السعدي<sup>(٢)</sup>: «قاضيها أبو الثناء وأبو المحاسن عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها بلا مدافع». ويلاحظ من ذلك أنه جمع بين ثمانية ألقاب.

### ٢ - فقيه

الفقه لغة هو الإدراك أو الفهم، وفي الاصطلاح التعليمي الإسلامي هو العلم بالأحكام الشرعية. ويطلق لقب الفقيه في الجملة على العالم بالأحكام الشرعية<sup>(٣)</sup>.

أما في غربي إفريقية فلم تعد كلمة فقيه قاصرة على المشتغل بالفقه فحسب، بل توسعوا في استعمالاتها، فأطلقوها على الرجل المثقف بصفة عامة. ويكاد يكون هذا اللقب مشتركا بين كل العلماء الذين ترجم لهم السعدي وأحمد بابا<sup>(٤)</sup>.

---

(١) وعن استخدام كلمة مدرس ومدرسة في غربي إفريقية، انظر ص ص ٢٧٣-٢٧٥ من هذا الكتاب.

(٢) تاريخ السودان، ص ٣٨.

(٣) تاريخ السودان، مثلا الصفحات: ١٥، ١٨، ١٩، ٢٤، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٤،

٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، إلخ. وهي كثيرة جداً كما يلاحظ في تتابع أرقام الصفحات.

(٤) نيل الابتهاج، مثلا الصفحات: ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٧، ١٣٠، ١٤٠، ١٨١، ٢٤٥، ٣٢٣، ٣٢٤.

### ٣ - المتفنن

يطلق هذا اللقب على العالم المثقف، أي الذي له إلمام بكل فن من الفنون العلمية المعروفة في زمانه وبيئته. وقد أطلق أحمد بابا هذا اللقب على والده أحمد بن أحمد بن عمر أقيت لأنه كان فقيها عالما ومحصلا ومحدثا وأصوليا وبيانيا ومنطقيا<sup>(١)</sup>، وقد استعمله الإمام بلو<sup>(٢)</sup> كثيرا.

### ٤ - المحدث

لقب يطلق على العالم المختص بدراسة علوم الحديث، ولم يكن كل دارس للحديث يسمى محدثا، إنما المحدث من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال والجرح والتعديل وأكثر من حفظ المتون وسماع الكتب الستة والمسانيد والمعاجم والأجزاء الحديثية<sup>(٣)</sup>. وقد ذكر السعدي وأحمد بابا<sup>(٤)</sup> هذا اللقب، ولكنهما لم يبينا لنا مدى انطباق وصف المحدث على العلم المذكور حسب المقاييس المتفق عليها عند علماء الحديث، وإن كنا نرجح وجود علماء محدثين حسب تلك المقاييس، ومن أمثال أولئك أحمد بن أحمد والد أحمد بابا.

### ٥ - الحافظ

يطلق على كبار علماء الحديث، وتختلف الآراء حول تحديد النصاب الذي يحفظه العالم من الأحاديث ليستحق هذا اللقب. فبعض العلماء يقول بأن لقب الحافظ يطلق على حفظ أربعمئة حديث، وقال البعض إنه متى ما زاد حفظه على عشرة آلاف حديث سمي حافظا، وقال آخرون إنه متى ما زاد على

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦٦.

(٢) إنفاق الميسور، أماكن متفرقة.

(٣) انظر: محمد جمال الدين القاسمي: قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث، إحياء تحقيق

وتعليق محمد بهجة البيطار، ص ٢ - دار إحياء الكتب العربية - الحلبي، القاهرة ١٩٦١، ص ٧٦.

(٤) تاريخ السودان والنيل، أماكن متفرقة.

ألف حديث استحق اللقب<sup>(١)</sup>. ويقول القاسمي<sup>(٢)</sup> إن الحافظ مرادف للمحدث عند السلف، وقد عُرِفَ الحافظ بأنه من اشتغل بالحديث رواية ودراية، وجمع بين رواته، واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره، وتميز في ذلك حتى عرف فيه حفظه، واشتهر فيه ضبطه، وتوسع في ذلك حتى عرف شيوخه وشيوخ شيوخه طبقة بعد طبقة، بحيث يكون ما يعرفه من كل طبقة أكثر مما يجهره. ومن العلماء من يقول إن علوم الحديث ثلاثة: أشرفها حفظ متونه، ومعرفة غريبها وفقهها، والثاني حفظ أسانيدها، ومعرفة رجالها، وتميز صحيحها من سقيمها والثالث: جمعه وكتابه وسماعه وطلب العلو فيه.<sup>(٣)</sup>

وقد جاء ذكر هذا اللقب كثيرا عند السعدي وأحمد بابا ومحمد بلو وابن المختار<sup>(٤)</sup>، ولكنهم لم يبينوا لنا عدد الأحاديث التي يحفظها أي عالم من العلماء الذين ترجموا لهم، ومدى انطباق تعريف الحافظ عليهم.

## ٦ - شيخ

إن لقب شيخ كثيرا ما يعني «مدرس». فنلاحظ أن أحمد بابا يستخدم هذا اللقب كثيرا، فيقول لمن تتلمذ عليه: «شيخنا فلان»<sup>(٥)</sup> ويقول لمن لم يتلمذ عليه: «الشيخ فلان»<sup>(٦)</sup>. وبهذا المفهوم جاءت في تاريخ الفتاش.<sup>(٧)</sup>

وكانت كلمة شيخ تعني من بين ما تعنيه وصول العالم إلى مرتبة كبرى

(١) الحفناوي، مرجع سبق ذكره ص ٩٤، وعن استعمال هذا اللقب انظر: النيل، ص ٥٦، ٦٧، ٦٤، ١١٢، ٣٠٧.

(٢) قواعد التحديث، مرجع سبق ذكره، ص ٧٦.

(٣) المكان نفسه.

(٤) النيل، مثلا: ص ٩٠، ١٨١.

(٥) ابن المختار، مثلا الصفحات: ١٦، ٢٤، ٣٣، ٩٤، ١٢٢.

(٦) تاريخ السودان، ص ٧٦، ٣٠.

(٧) الإنفاق، ص ٣٧.

من العلم. وكانت ذات مدلول كبير عندما تقترن بكلمة الإسلام لتصبح «شيخ الإسلام». ومن الذين حملوا هذا اللقب محمود بن عمر أقيت<sup>(١)</sup> ومحمد البكري<sup>(٢)</sup> وعثمان بن فودي<sup>(٣)</sup>.

ومن الملاحظ أن بلو قد استخدم هذا اللقب كثيرا، ويرجع السبب في ذلك إلى أن كلمة شيخ أصبحت أعلى لقب في دولة الفولاني الإسلامية. وعندما يقول المرء: الشيخ، فهذا يعني أنه الشيخ عثمان بن فودي، ولم يساوها إلا لقب إمام أو أمير المؤمنين. وحمل عثمان بن فودي هذا اللقب حتى أصبح صفة لكل من يسمى عثمان. وحلت كلمة شيخ محمل كلمة سلطان أو أمير أو غيرها من الألقاب التي كانت تطلق على حكام الهوسا أو البرنو. واشتهر محمد الأمين الكانمي بهذا اللقب بعد الشيخ عثمان بن فودي<sup>(٤)</sup>. وكثيرا ما ينطق هذا اللقب عند الهوسا محرفا قليلا، فهم يقولون «شيخو»<sup>(٥)</sup> أو «Shehu» ويعنون بذلك «الشيخ».

## ٧ - مالم

اشتهر هذا اللقب في بلاد كاتم برنو وبلاد الهوسا، وهو بمعنى كلمة «المعلم» أو «العالم» العربية، وتطلق على كل مترسم بزي علماء الدين<sup>(٦)</sup>. والمخطوطات المنشورة لتاريخ هذه البلاد التي ذكرناها تكثر من استعمال هذا اللقب؛ فقد جاء في «تاريخ كانو»، وفي معرض الكلام عن خروج أمير كانو عبدالله بن محمد رمفا (٩٠٤ - ٩١٤ هـ / ١٤٩٩ - ١٥٠٩ م) لمقابلة أمير

---

(١) انظر: تاريخ السودان، أماكن متفرقة.

(٢) انظر: الإنفاق، مثلا: ص ٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٤) ابن يونس، ص ١٢٠.

(٥) K. C. P. 79, 82, 86.

(٦) ابن يونس، ص ١٢٠.

برنو أن اصطحب السلطان الكانوي معه معلمين، ونصه:

“The Sarkin Kano went out to meet him together with his Mallams and humbled himself before him”

وترجمة هذا النص: «خرج ساركين كانو لمقابلة أمير برنو وبرفقته معلموه وتواضع له». وغير هذا مواضع كثيرة ذكر فيها اللقب «Mallam»<sup>(١)</sup>. وقد لازم اللقب كل العلماء الذين تعرضت لهم المخطوطات التي ترجمها بالمر والخاصة بتاريخ برنو<sup>(٢)</sup>، وورد ذكرها كثيرا في كتابات الإمام بلو<sup>(٣)</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة «مالم» عند الهوسا تختلف معانيها باختلاف الأشخاص الذين تطلق عليهم، فأحيانا تطلق على كبار العلماء، فتفيد المعنى الذي تفيد كلمة «شيخ» نفسه<sup>(٤)</sup>.

## ٨ - ألفا أو الفع

هو اختصار للكلمة العربية «الفاهم» أو «الفقيه». وهو ماعرف به رجال العلم والأدب والمتعلمون عامة في غربي إفريقيا<sup>(٥)</sup>. وأشهر من حمل لقب «الفع» هو القاضي محمود كعت الذي كان يسمى «الفع محمود كعت»<sup>(٦)</sup>. ومن حصل لقب ألفا الشيخ محمد بن أحمد الشهير بألفا هاشم الفوتي، المتوفى بالمدينة المنورة سنة ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م، وصاحب كتاب «تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان»<sup>(٧)</sup>.

(١) Ibid, p. 80, 82, 83, 86, 88, 90, 92, etc.

(٢) انظر مثلا: The Bornu Sahara, op. cit., p.: 80, 82, 83, 86, 88.

(٣) إنفاق المسور، ص ٢١، ٢٢، ٢٧، ٣٧، ٥٢، ٥٤، ٥٧، إلخ.

(٤) ابن يونس، ص ١٢٠.

(٥) انظر: د. طرخان: دولة البرنو الإسلامية، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٣.

(٦) الفتاش، ص ٤٨، ٥٤، ١٠٨، ١١١، ١١٦.

(٧) انظر: صدر هذا الكتاب، طبعة مكة، المطبعة الماجدية، سنة ١٣٥٤هـ.



## ٩ - قوني

من ألقاب العلماء في بلاد البرنو، ويلقب به كل من حفظ القرآن وأجاده وكتبه من أوله إلى آخره عن ظهر قلب، وعرض جميع مايكتبه في اللوح على المقرئ في وسط جمهور من كبار الحفاظ، ملتزماً الشكل والوقف والكلمات المقطوعة والموصولة، واضعاً كلا في موضعه. فإذا قام بهذا العمل على الوجه المطلوب وبهذه الكيفية المذكورة أطلق عليه حيثُذ لقب «قوني»<sup>(١)</sup>. ويحرم حسب التقاليد المحلية أن ينادي أحد القوني باسمه مجرداً من هذا اللقب.<sup>(٢)</sup>

## ١٠ - سيدي

أطلقت كلمة سيدي، أو سيدنا أو السيد على أصحاب الكرامات والذين يتهجون النهج الصوفي في عباداتهم. ومن أولئك الذين حملوا هذا اللقب: سيدي يحيى التادلسي،<sup>(٣)</sup> وسيدي محمد البكري،<sup>(٤)</sup> وسيدي عبدالرحمن التميمي،<sup>(٥)</sup> والسيد إبراهيم الزلفي،<sup>(٦)</sup> وسيدي أحمد البكاي،<sup>(٧)</sup> وسيدي محمود البغدادي،<sup>(٨)</sup> وسيدي عبدالله البلبالي،<sup>(٩)</sup> والسيد أبو القاسم،<sup>(١٠)</sup> وسيدي محمد بن عبدالكريم المغيلي<sup>(١١)</sup>.

---

(١) ابن يونس، ص ١٢١.

(٢) المكان نفسه.

(٣) تاريخ السودان، ص ٢٣، ٢٩، ٥٠، ٥٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢، ٥٢، ٦١.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٧) ص ٣٤٦ من هذا الكتاب.

(٨) إنفاق المسور، ص ٤١.

(٩) تاريخ السودان، ص ٥٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(١١) الفتاش، ص ٦٩.

## ١١- الأستاذ

استعمل هذا اللقب كثيرا الإمام بلّو، وبمفهوم قريب من مفهوم عصرنا الحالي في الألقاب الجامعية. فقد اقترن هذا اللقب في كتاباته باسم عمه عبدالله بن فودي<sup>(١)</sup>. ومن المعلوم أن عبدالله بن فودي يعد مثالا حيا للعالم الذي ينطبق عليه لقب أستاذ بمفهوما الجامعي. أما السعدي<sup>(٢)</sup> فقد استعملها بمعنى معلم أو مدرس، ومثال ذلك قوله عن الفقيه إبراهيم الزلفي: «وهو أستاذ والدي»<sup>(٣)</sup>.

## ١٢- الإمام

ولم تكن كلمة «الإمام» تعني الشخص الذي يتولى منصب الإمامة في الصلاة فقط، بل تعدتها وأصبحت لقبا من الألقاب الرفيعة التي تطلق على عظماء العلماء في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ومنه غربي إفريقية. فأصحاب المذاهب الأربعة عرفوا بالأئمة، وعرف بهذا اللقب كل من نهج نهجهم في الاجتهاد أمثال الغزالي وابن تيمية وغيرهما أو من قاد حركة إصلاحية دينية منذ العصر القديم حتى عصرنا الحاضر، مثل الإمام محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد أحمد المهدي والإمام محمد تومرت والإمام السنوسي والإمام محمد عبده والإمام حسن البنا وغيرهم. وأطلق هذا اللقب على القاضي محمود أقيت<sup>(٤)</sup>.

وفي القرن (١٢هـ / ١٨م) ومطلع القرن (١٣هـ / ١٩م) أخذ لقب إمام

---

(١) إنفاق المسور ص ٦٠، ٦٣.

(٢) تاريخ السودان، ص ٥٨.

(٣) تاريخ السودان، ص ٥٨.

(٤) انظر: نيل الابتهاج، ورقة ٣٢٣.

مفهوماً أوسع في غربي إفريقيا كما حدث في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي قديماً وحديثاً؛ فقد أصبحت كلمة إمام تطلق على الزعيم الديني الذي يتولى رئاسة دولة تقوم على الدين. فقد اشتهر بهذا اللقب وبهذا المفهوم الجديد عبدالقادر بن حمادي التكروري (ت ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م) الذي قام بثورة دينية في نهاية القرن الثاني عشر الهجري، ونصبه أعوانه وأنصاره حاكماً ولقبوه بـ«الإمام». وقد استمرت هذه الإمامة بفوتارو بالسنگال حتى دخول الفرنسيين هذه البلاد<sup>(١)</sup>. والرجل الثاني الذي حمل هذا اللقب السياسي والديني هو ناصر الدين، في النصف الثاني من القرن السابع عشر<sup>(٢)</sup>. وغير هذه الألقاب التي ذكرناها ألقاب أخرى مثل: «شيخ الشيوخ» والقطب والعامل وأبو المكارم وأبو الشاء، وأبو المحاسن<sup>(٣)</sup> وهذه الألقاب الأخيرة من أرفع الألقاب التي عرفت في جميع أرجاء العالم الإسلامي.

---

(١) B. O. Oloruntimehin: The Segu Tukulor Empire, p.9; The Cambridge History of Islam, op. cit., p. 366.

(٢) Philip D. Curtin: "Jihad in west Africa": J. A. H., XIII (1971), p. 14.

(٣) انظر: تاريخ السودان، ص ٥٣؛ النيل ص ٣٠٥، ٣٢٣، وأماكن أخرى.

## المبحث الثاني



## وظائف العلماء

### ١ - القضاء

إن من أكبر المناصب الإدارية التي يتولاها العالم هي وظيفة «القاضي». وهي ملازمة لقيام دولة المؤسسات الإسلامية، بل كانت أثرا مباشرا للإسلام. فعندما نشأت المراكز التعليمية في غربي إفريقيا وأقيمت فيها المساجد وكثر فيها العرب والتجار والمسلمون والفقهاء القادمون من شمالي إفريقيا، ومنذ أن ظهرت دولة مالي الإسلامية، وجد منصب قاضي القضاة في العاصمة، والقضاء في المدن المهمة<sup>(١)</sup> والمدن الصغيرة<sup>(٢)</sup>. أما قبل سيادة الإسلام فقد كان القضاء في غربي إفريقيا يتولاه الملك كسلطة عليا (قاضي قضاة) وبجانبه الرؤساء القبليون كما كان يحدث في مملكة غانة<sup>(٣)</sup> وممالك الهوسا<sup>(٤)</sup>. وكان القضاء مبنيًا على العادات والتقاليد المحلية. ففي بلاد الهوسا كانت التقاليد تقضي بالصلب حتى الموت للقاتل واللص والخائن لوطنه، والزاني تؤخذ منه غرامة معينة تعدل ثلث المهر وتسلم للزوج المتضرر، والمدين يرهن ولده عند الدائن ليستغله حتى يدفع ما عليه عاجلا أو آجلا، ويقدم الزارع لمالك الأرض من نوع ما يزرع. ويستولي الأخ الأصغر على كل الميراث، ويرث بجانب العقار الثابت والمنقول الزوجات، وليس للأبناء والأزواج حق إلا ما تسمح به نفس العم الذي هو بمنزلة الأب.<sup>(٥)</sup>

---

(١) تاريخ السودان، ص ١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨، مثل بلدة يندبغ.

(٣) قدام، ص ١١٥.

(٤) الألوري، الموجز، ص ١٣٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٣٢-١٣٣.



أما القضاء الإسلامي فقد ظهر بظهور الإسلام في غربي إفريقيا . ومن الطبيعي أن أحكامه كانت مستمدة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس على المذهب المالكي .

ويشترط في القاضي أن يكون عالما فقيها متحليا بالتزاهة والورع .<sup>(١)</sup> ولم يكن أحد يتقلد منصب القضاء إن لم يكن أهلا له خوفا من الله ، وتورعا من خطورة المسؤولية أمام الله<sup>(٢)</sup> ، وحتى لو كان أهلا لهذا المنصب فإنه كان يرفضه تورعا أيضا . وتوجد أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة في تاريخ القضاء الإسلامي عامة والقضاء في غربي إفريقيا خاصة ، لأن التقوى في كل العصور وفي كل النفوس .

فمثلا ظل منصب القاضي في تنبكت شاغرا لمدة عام ونصف العام بعد وفاة القاضي العاقب بن محمود أقيت . وظل آسكيا الحاج محمد في كل هذه المدة يطلب من الفقيه أبي حفص عمر بن محمد أن يتولاه ، فيرفض الأخير ، ولثلاث مرات متتالية<sup>(٣)</sup> ، وأخيرا واجهه آسكيا محمد بأنه لو استمر في الإباء فسوف ينصب جاهلا ويكون الذنب على أبي حفص ، ولم يسع أبا حفص أمام هذا التهديد إلا أن يذعن لطلب السلطان على مضض منه وهو يبكي خوفا من حساب الله يوم القيامة<sup>(٤)</sup> . وقد حدث الشيء نفسه عندما أراد آسكيا إسحاق أن يولي محمود بغيغ القضاء في جني .

لقد أبى محمود وأصر ولم يعفه آسكيا من المهمة ، فلم يسعه إلا أن

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣٣ .

(٢) تاريخ السودان ، ص ٤٤ .

(٣) المكان نفسه .

(٤) الفتاش ، ص ص ٨٩-٩٠ .

يجهش بالبكاء كالطفل لعظم المسؤولية ووقع ذلك في نفسه . وعندما علمت زوجته بتنصيبه قاضيا ، لامته لوما شديدا وظلت تبكي لعدة أيام خوفا على زوجها وعلى نفسها من تبعة هذا المنصب أمام الله<sup>(١)</sup> . وتكرر إباء العلماء لهذا المنصب في عهد أسكيا إسحاق عندما قدم هذا السلطان الفقيه عثمان درم ليتولى خطة القضاء على بلدة تندر، ولكن الفقيه عثمان رفض هذا المنصب ولم يقبله إلا قهرا بعد مد وجزر ومشاورات<sup>(٢)</sup> .

ورفض الفقيهان محمد بغين وأحمد بغين قضاء مدينة جني عندما طلب أسكيا داود أن يتولى أحدهما هذه الوظيفة ، واختفيا في المسجد شهورا ولم يقبلا أي شفاعاة في هذا الأمر . وكانا بذلك مثار عجب السلطان الذي أكبرهما بعد ذلك كثيرا وطلب أن يزوراه . وقبلا الطلب فأكرمهما غاية الإكرام<sup>(٣)</sup> .

ويبدو أن منصب القاضي عرف باسم «الخطيب» أيضا . يقول ابن المختار<sup>(٤)</sup> في معرض الكلام عن أسكيا إسحاق ومسألة ترشيحه محمود بغين لمنصف القضاء مانصه : «ثم رجع أسكي إسحاق إلى كاغ ، وأدركه في الطريق نعي الخطيب أحمد ترف خطيب جن قبل وصولهما لكاغ ، وهو الذي ألفاه أسكي إسحاق هناك خطيبا . . . فأمر بتقديم القاضي محمود بغين وأرسل أحد أعوانه من جيشه ليقدمه قاضيا أحب أم كره . . » ، وفي هذا النص دليل على أن منصب الخطيب هو منصب القاضي . ويذكر السعدي أن أسكيا داود ولي محمد درمي خطيبا سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م<sup>(٥)</sup> . وهناك نص صريح لابن المختار يفيد

---

(١) المصدر نفسه ، ص ص ٨٩-٩٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ص ١١٣-١١٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

(٥) تاريخ السودان ، ص ١١١ .

بأن القاضي والخطيب شيء واحد وهو: «...» وكان آسكيا يوم عزم على الخروج لملاقاة جودار وقتالهم جمع أشياخ كاغ وأعيان جيشه والقاضي الخطيب وكبراء شهوده وسألهم عن الرأي والتدبير<sup>(١)</sup>.

وكان الذي يولي منصب قاضي القضاة، أو قاضي تنبكت وجني السلطان أو الحاكم، أما قضاة الأقاليم فيوليهم قاضي القضاة (قاضي تنبكت) بعد مشاورة السلطان واتفاق أهل البلد على هذه الولاية. فعندما توفي قاضي جني، القاضي العباس كب، شاور أهل جني آسكيا إسحاق فيمن يخلفه في القضاء، فأشار إليهم آسكيا إسحاق بتولية محمود بغيغ الذي عرفه من علمه قبل أن يعرف شخصه، وذلك عندما زار السلطان مدينة جني وتحادث مع قاضيه السابق العباس كب بحضور محمود بغيغ الذي أفتى في مسألة أثارها السلطان، فأعجب به من حينها مما كان سببا في أن يشير بتوليته<sup>(٢)</sup>.

أما في عهد الباشوات المراكشين في دولة سنغي، فلعل الذي كان ينصب قضاة جني بالذات هم الباشوات، فالسعدى<sup>(٣)</sup> يقول: «وأما أول القضاة الذين تولوا على أيديهم (الباشوات) في جني فالقاضي أحمد الفلاحي ثم القاضي مودب موسى داب ثم القاضي العدل أحمد تروري...». وتمثل دور السلطان المباشر في الإشارة بتولية هذا المنصب عدة مرات، فعندما سافر القاضي الأكبر محمود أقيت إلى الحج صحبة آسكيا محمد خلف في منصب القضاء عبدالرحمن بن أبي بكر بأمر من آسكيا محمد<sup>(٤)</sup>، وعندما عاد محمود من

---

(١) تاريخ الفتاش، ص ١٤٩-١٥٠.

(٢) تاريخ السودان، ص ٩٤-٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٨، تاريخ الفتاش، ص ٨٩-٩٠ (يوجد بعض الاختلاف بين روايتي السعدى وابن المختار، وإن كانت الخلاصة واحدة).

(٤) تاريخ السودان، ص ٧٦.

الحج لم يطالب بهذا المنصب لمدة عشر سنين إلى أن تدخل الحاج آسكيا في ذلك فأمر أن يتنازل عبدالرحمن ليحل مكانه القاضي محمود.<sup>(١)</sup>

وكانت لقاضي تنبكت بالذات أهمية كبرى، فهو الذي يقوم بتولية الأئمة للمساجد الكبرى بعد استشارة الحاكم أحيانا<sup>(٢)</sup>، وبينى المساجد الجديدة أو يقوم بترميم القديم منها كما رأينا. فالقاضي العاقب - مثلا - هو الذي أشار بتولية محمد كراد بن أبي بكر الفولاني إمامة المسجد الكبير بتنبكت<sup>(٣)</sup> والقاضي محمد بن أحمد ابن القاضي عبدالرحمن هو الذي أمر بتولية محمود ابن الإمام صديق إمامة الجامع الكبير بعد وفاة أخيه الإمام أحمد، وذلك بعد استشارة الباشا جودار سنة ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م.<sup>(٤)</sup>

أما خير مثال لقيام القاضي بتولية الإمام بعد ترشيخ أهل المنطقة أن يروونه أهلا لهذا المنصب هو ماحدث في حالة تولية الفقيه أحمد إمامة الجامع الكبير بعد موت الإمام سيدي أبي القاسم التواتي بأمر القاضي محمود أقيت<sup>(٥)</sup>، وفي حالة تولية الفقيه سيدي علي الجزولي الإمامة في المسجد نفسه بعد وفاة الإمام أحمد المذكور وذلك أيضا بأمر القاضي محمود بعد اتفاق أهل المنطقة على هذا الترشيخ.<sup>(٦)</sup>

وكان للقاضي، بجانب هذه المهام، مايشبه الإشراف على الناحية التعليمية في المنطقة التي يمارس فيها عمله، ويتمثل ذلك في عنايته بتوفير

---

(١) المكان نفسه.

(٢) الفتاش، ص ٣٠٩.

(٣) تاريخ السودان، ص ١٠٩.

(٤) الفتاش، ص ٣٠٩.

(٥) تاريخ السودان، ص ٦٠.

(٦) المكان نفسه.

السكن للوافدين من الطلاب وتوزيع المواد الغذائية عليهم وإعانة معلمهم بما يمكنهم من القيام بمهام التعليم<sup>(١)</sup>. ولم يختلف الحال في بلاد الهوسا والبرنو عما كان عليه في تنبكت أو جني؛ فقد تولى منصب قاضي القضاة في مدينتي كانو وكاتسينا الشيخ المغيلي التلمساني. وترك التلمساني للقضاة وصية جامعة في أصول الاجتهاد والقياس<sup>(٢)</sup>.

لم نثر على ما يشير لوجود دار ثابتة للقضاء، ويبدو أن القاضي كان يتخذ من المسجد مكانا للقضاء، أو يتخذ داره أو أي مكان عام. وقد حدث أن كان الفقيه كاتب موسى - آخر الأئمة السودانيين في المسجد الكبير - كان يقضي على منصة تحت شجرة كبيرة بالقرب من داره<sup>(٣)</sup>.

## ٢ - الإمامة

تأتي الإمامة في المرتبة الثانية بعد القضاء. ومهمة الإمام هي إمامة المصلين في الصلاة بالمسجد الجامع، وفي صلاة الجمعة خاصة. وعندما يترقى الإمام يتولى منصب القاضي.

وتتم تولية هذا المنصب باتفاق أعيان المدينة أو البلدة - كما يحدث في منصب القاضي - وموافقة القاضي على رأس أهل المنطقة. فالسعدي نفسه عندما تولى إمامة مسجد سنكري، كان ذلك باتفاق أعيان مدينة تنبكت ومباركة القاضي آنذاك الفقيه أحمد داب<sup>(٤)</sup>.

وكانت هذه الوظائف شبه وراثية في بعض الأسر التي اشتهرت بالعلم،

---

(١) انظر: الفتاش، ص ١٨٣، وما بعدها؛ د. زيادية: مملكة سنغاي، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٢.

(٢) الألوري، الموجز، ص ١٣٣.

(٣) تاريخ السودان، ص ٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.



مثل أسرة أقيت وأسرة كعت وأسرة السعدي، لذا نلاحظ أن الإمام من هذه الأسرة أو تلك يتولى القضاء بعد موت شاغله الذي كان في منصب القضاء. ويعقد السعدي بابا كاملا عن أئمة المسجد الجامع الكبير ومسجد سنكري<sup>(١)</sup>. ويلاحظ تعيين إمام الجامع الكبير بتبكت أحيانا قاضيا على بلدة أخرى غير تبكت بعد مشاورة ولاية الأمور في البلدين. ومثال ذلك تولى سعيد، إمام الجامع الكبير بتبكت، قضاء جني بعد وفاة قاضيها الفقيه أحمد تروري<sup>(٢)</sup>، بعد مشاورة ولي الأمر بتبكت، الباشا علي بن عبدالله التلمساني، وحاكم جني يومئذ البلبالي وسلطانها السوداني جنكي أبو بكر ساكر<sup>(٣)</sup>.

### ٣- متولي الشرع

لم يذكر هذا اللقب كثيرا حتى يمكن إعطاء صورة كاملة عنه، ولم يعرف ما إذا كان الذي يتولى هذا المنصب هو القاضي أو الإمام أو موظف مختص يعمل تحت إمرة القاضي. ونميل إلى أن هذه الوظيفة كانت توكل إلى شخص عالم معين.

ويفهم من النص الوحيد الذي أورده السعدي حول هذه الوظيفة أن مهمة متولي الشرع هي حصر التركة بعد موت أي شخص له أملاك. وقد جاء ذلك على لسان السعدي في معرض الكلام عن وفاة الحاكم سيدي منصور بن الباشا محمود لنك بمدينة جني، عندما قال عنه: «... ودفن ليلتئذ في الجامع الكبير، وبت أنا وثلاثة من الشهود... عند باب داره للحراسة عليها... بعدما

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٦، وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٨.

(٣) المكان نفسه.



طلعنا جميعا على ما احتوت عليها الديار. وفي الغد ضحوة زحمتنا تركته. .  
بعد استئذان متولي الشرع<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - الكاتب

تشبه وظيفة الكاتب في عدة وجوه وظيفة كاتب الديوان التي كان لها أصولها وقواعدها لاسيما في العصر العباسي الأول عندما اقترنت باسم عبد الحميد الكاتب، أما في غربي إفريقيا عامة وفي تنبكت خاصة فقد اقترنت باسم السعدي صاحب كتاب «تاريخ السودان». لقد تولى السعدي هذه الوظيفة سنة ١٠٥٦هـ / ١٦٤٦م من قبل الباشا المراكشي آنذاك<sup>(٢)</sup>، بعد أن ظل يشغل وظيفة المبعوث المتجول لدى الحاكم في تنبكت. إنها وظيفة انحصرت في حمل قرارات السلطان إلى أقاليم دولته المختلفة، والقيام بالأمور الكتابية الخاصة بالعلاقات الداخلية<sup>(٣)</sup>. وكان يتردد كثيرا على المدن الكبيرة في الأقاليم لأداء مهمته. ولعل نشاطه وكفاءته هما اللذان جعلتا الحاكم يقيه معه كاتباً وسكرتيراً.

#### ٥ - شاهد القاضي

إن هذه الوظيفة كانت ذات صلة بالقاضي كما هو واضح من تسميتها. وشهود القاضي هم العلماء الذين يوقعون مع القاضي على الوثائق المهمة كوثائق الصلح الذي يعقد بين الجماعات السياسية المتخاصمة. ويفهم ذلك من قول السعدي<sup>(٤)</sup>: «خرج قاضي ماسنه من جني إلى تنبكت مع شاهدي قاضي

---

(١) تاريخ السودان، ص ٢٤٥.

(٢) تاريخ الفتاش، ص ٢٧٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٤، ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٧٥.

(٤) الفتاش، ص ٢٧٦.

جني فقبلهم الباشا وقبل الصلح وأجازه». ونجد هؤلاء الشهود دائما مع القاضي في محكمته، ويستشيرهم الحاكم في الأمور المهمة مع أعيان البلاد كما حدث ذلك في حادث معركة تنديي بين دولة سنغي والمغرب<sup>(١)</sup>. وهم يشبهون إلى حد كبير أعضاء محاكم اليوم، عضو اليمين والشمال.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٩-١٥٠.



## المبحث الثالث



## مكانة العلماء الاجتماعية

كانت طبقة العلماء تلي طبقة الملوك والأمراء من حيث النفوذ السياسي . وكان نفوذ العلماء يتوقف على مدى قوة تمكن الإسلام من نفوس الملوك وسياستهم الإسلامية ؛ فقد زاد نفوذ العلماء إلى حد كبير في عهد سلاطين مالي والأساكي في دولة سنغي الإسلامية . كانوا يحظون باحترام العامة والخاصة لا سيما السلطان<sup>(١)</sup> ، وكان السلاطين كثيرا ما يهابونهم . ففي دولة مالي تمتعوا بمكانة اجتماعية سامية حتى في عهدها الوثني . وتدلنا قصة إسلام أول ملوك مالي - المسلماني - على ما حظي به العلماء المسلمون والدعاة من تقدير . فعلى الرغم من وثنية الملك المالي فقد طلب استشارة الفقيه والعالم الإسلامي الذي كان يبلاده عندما أجذبت بلاده . وكانت هذه الاستشارة بداية وسببا في دخول هذا العاهل في الإسلام<sup>(٢)</sup> . وهذا سندياتا، بطل مالي الوطني، يحجم عن تعقب العلماء المسلمين الذين لجؤوا إلى والاتا فرارا من بطش قبائل الصوصو الوثنية المعادية عام ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م<sup>(٣)</sup> . وفي عهد السلطان سني علي، وعندما هدد مدينة تنبكت بالدمار، قام الحاكم الطوارقي - آكل - بترحيل العلماء إلى والاتا على ظهور الجمال، وبذلك أنقذ جزءا كبيرا منهم، ولم يفلت بعضهم من القتل<sup>(٤)</sup> .

وقد عرف محمود أقيت بالمكانة الاجتماعية الكبيرة عند السلطان في دولة

---

(١) انظر : الفتاش، ص ٥٦، تاريخ السودان، ص ١٧، Leo Africanus, op, cit., p. 825.

(٢) البكري، المغرب، ص ١٧٨ .

(٣) صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٩٣، د. طرخان: دولة مالي الإسلامية، ص ٥٥ .

(٤) تاريخ السودان، ص ٦٥ .



سنغي، ووصل ذلك إلى الحد الذي يزوره فيه السلطان في بيته<sup>(١)</sup>. وكانت لهم شفاعة نافذة عند السلاطين حتى في الأمور التي تتعلق بمن أساء للسلطان أو دخل معه في حرب. فقد توسط «جد مسرآند غمحمدا» لدى السلطان الطوارقي - أكل - ليسمح لمحمد أقيت بأن يقيم في تنبكت عندما قدم مهاجرا من ماسنة، على الرغم من أنه سبق أن ناصبه العداء المسلح<sup>(٢)</sup>. وقد كان الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت والد أحمد بابا وافر الحرمه عند الملوك أيضا.<sup>(٣)</sup>

وكان السلطان الكانوي يصحب معه العلماء في المقابلات الرسمية لاسيما مقابلة الزوار من سلاطين المناطق المجاورة، مثل برنو، كما حدث ذلك في عهد السلطان الحادي والعشرين، عبدالله (٩٠٤ - ٩١٤هـ / ١٤٩٩ - ١٥٠٩م).<sup>(٤)</sup>

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٢) تاريخ السودان، ص ٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(٤) K. C. p. 78

## المبحث الرابع



## دورهم في التوجيه

إن الدين والدولة في الإسلام شيء واحد، لذا سوف نتكلم عن دور العلماء في مجال إقامة المجتمع الإسلامي الصحيح والدولة الإسلامية.

منذ أن عرفت غربي إفريقيا الإسلام كان التجار والعلماء هم الذين يقومون بنشر الإسلام في هذه المناطق، فعلى أيديهم أسلم أهل غانا منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كما أوضحنا، وفي أواخر القرن نفسه أسلم ملك غانة، وعندما كتب الإدريسي<sup>(١)</sup> عن غانا كان ملكها مسلماً، ويدعي النسب إلى صالح بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وتابع ابن الوردي<sup>(٢)</sup> الإدريسي في ذلك. وكان دورهم بارزاً في إسلام مدينة جني كما ذكرنا.

وفي دولة مالي الإسلامية أضحي للعلماء وزن كبير في المجتمع مما ساعدهم على أداء مهمتهم الأساسية، وهي نشر التعليم والوعي. وكثر عدد الوافدين إلى مالي من العلماء من شتى بقاع العالم الإسلامي ليقوموا بهذا الدور. وكانت جحافلهم تتحرك من أقصى غربي إفريقيا إلى أقصى شرقي غربي إفريقيا، من مالي وونغارة إلى برنو شرقاً. فقد تحدث التاريخ المسجل عن مجموعة من علماء الوانغارة قدموا إلى بلاد الهوسا من مالي بغرض الدعوة إلى الإسلام في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، كما ذكرنا، ولا نخال أن هذا الوفد كان الأول والأخير من نوعه، فلربما أغفلت التواريخ

---

(١) نزهة المشتاق، ص ٦.

(٢) تاريخ ابن الوردي، ص ١٦٠.

المسجلة جهود العلماء والأفراد في مثل هذا النشاط. وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر سجل حدث آخر مهم عن دور علماء مالي في إدخال الكتب الإسلامية إلى بلاد الهوسا وبنو؛ فقد جاءت مجموعة أخرى كالتى جاءت في القرن الماضي، وقامت بدور توجيهي أيضا كما أثبتناه في غير هذا المكان.

ولم يكن العلماء يتهاونون في خرق المبادئ الإسلامية والأخلاق الإسلامية. وكان تصديهم للسلطات الجانحة أو المنحرفة يعرضهم إلى الخطر حتى الموت. وليس أدل على ذلك مما حدث لهم مع سني علي، سلطان سنغي (٨٦٩-٨٩٨هـ / ١٤٦٤-١٤٩٢م). فقد شن هذا السلطان حربا ضروسا على الطوارق، واستعاد منهم مدينة تنبكت بين عامي ٨٧٣ و٨٨٥هـ / ١٤٦٨ و١٤٨٠م، وعارضه في هذا العلماء، لأن الحرب موجهة ضد من هم معه في العقيدة، ولا يصح شرعا الحرب بين المسلمين إلا في حالات محددة عيبتها الشريعة، واتهموه بضعف الإيمان، مما ولد لديه ردود فعل عنيفة تجاههم، فاستباح دماءهم وأعمل السيف في رقابهم، وأفنى الكثيرين منهم، مما أكسبه كراهية العلماء. وعنه يقول السعدي<sup>(١)</sup>: «أما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر سني علي فإنه كان ذا قوة عظيمة.. ظلما فاسقا معتديا متسلطا سفاكا للدماء قتل من الخلق ما لا يحصره إلا الله تعالى، وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال». وقال عنه ابن المختار<sup>(٢)</sup>: «الذي سارت الرفاق بقبح سيره.. وكان فاسقا فاجرا.. وانظر في أفعاله وكفره بمقتل الفقهاء.. وفيه من سيئ الأعمال وسوء الرعاية ما لا يسع هذا المجموع حصر بعضه». ولا يكاد يذكر اسمه في الفتاش إلا مقرونا بالفجور والفسق والظلم.

---

(١) تاريخ السودان، ص ٦٥.

(٢) الفتاش، ص ص ٤٣-٤٤.

أما إذا كان السلطان ملتزماً بقواعد الإسلام وسلوكه فالعلماء أحباؤه، يبادلونه ويبادلهم الاحترام. وكان الحال هكذا مع آسكيا الحاج محمد خليفة سني علي، حتى وصفه السعدي<sup>(١)</sup> بقوله: «الأسعد الأرشد.. ففرج الله به عن المسلمين الكروب وأزال به عنهم البلاء والخطوب، واجتهد بإقامة ملة الإسلام وإصلاح أمور الأنام وصاحب العلماء واستفتاهم فيما يلزمه من أمر الحل والعقد». «وقال عنه صاحب الفتاش»<sup>(٢)</sup>: «.. ومن الله علينا بأن أظهر لنا في زماننا هذا الإمام الصالح الخليفة العادل والسلطان الغالب والمنصور الغانم الحاج محمد بن أبي بكر.. وجعل للقضاة إذا جاؤوه يأمر لهم ببسط حصير الصلاة.. ولا يقوم لأحد إلا للعالم والحجاج إذا قدموا من مكة.. ولا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم.. وجعل يسأل العلماء العاملين عن سنة رسول الله ﷺ ويمشي على أقوالهم.. حتى اتفق جميع علماء عصره على أنه خليفة..»

وكان العلماء في دولة سنغي الإسلامية دائماً يغلقون القول للسلطين إذا رأوا منهم انحرافاً في تطبيق مبدأ من المبادئ الإسلامية، أو الحياد عن السنة والخلق الإسلامي. ولهم في هذا الجانب مواقف مشهودة تدل على دورهم الكبير في تمكين الإسلام من نفوس السلطين والتزامهم المنهج السوي. ومن تلك القصص التي تحكى، ما حدث بين آسكيا الحاج محمد والقاضي محمود ابن عمر أقيت. وخلاصة ذلك أن آسكيا أرسل رسله إلى تنبكت في أمر من الأمور، فردهم القاضي محمود على أعقابهم، فعاتبه آسكيا على ذلك. ولكن

---

(١) تاريخ السودان، ص ٧٢.

(٢) الفتاش، ص ص ١٠-١١.



عندما أخبره محمود أنه سبق وأن طلب منه أسكيا النصيح والخيولة بينه والنار، طلب أسكيا محمد من محمود العفو والصلح، وأكرمه إكراما جميلا، ودعا الله أن يقبضه إليه قبل أن يقبض إليه القاضي محمود خوفا من ألا يجد من يحول بينه وبين جهنم إذا مات القاضي محمود قبله. <sup>(١)</sup>

وواجه القاضي محمود بغيغ أسكيا إسحاق بقول لو صدر عن أي فرد من الرعية غير العلماء لكان جزاؤه القتل. فعندما طلب أسكيا من الناس أن يدلوه على الظالمين، سكت كل الناس إلا محموداً الذي قال موجهها خطابه إلى السلطان: «... ماعرفنا هنا أظلم منك. أنت أبو كل ظالم وسببه ولا يغصب غاصب هنا مغصوبا إلا لك وبأمرك وبقوتك، إن كنت تقتل الظالم فابدأ بنفسك وبادر به...» <sup>(٢)</sup>. ولما سمع أسكيا ذلك القول تحير واندحش، ثم مالبت أن تنفس الصعداء وبكى وندم على قوله، ومنع قومه من أن يتصدوا لمحمود أو يؤذوه عندما رأى منهم ميلا لذلك، وقال لمحمود: «صدقت والله وأنا تائب لله وأستغفره، ثم نهض إلى منزله باكيا والدموع تقطر وتسيل من عينيه» <sup>(٣)</sup>. وكان جزاء محمود بغيغ أن عينه أسكيا إسحاق قاضيا على جني بعد موت قاضيه مباشرة وقبل أن يصل إلى عاصمته. <sup>(٤)</sup>

وفي كل عصر ومكان كان العلماء ينصحون الحكام ويرشدونهم إلى الطريق السليم. ففي عهد أسكيا داود نجد القاضي محمود كعت يقرع هذا العاهل بسيل من التورية ليدلل على انحراف أسكيا داود عن السنة والفكر الإسلامي الذي يدعو إلى التواضع واحترام المؤمنين. وتقول الرواية التي ذكرها

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ٦٠-٦١.

(٢) الفتاشر، ص ٨٩.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٠.

صاحب الفتاش<sup>(١)</sup> إن فوجا من الحجاج قدم إلى العاصمة، وكانت العادة أن يتلقاه السلطان خارج المدينة ويصافحهم ويحادثهم تبركا بهم واحتراما لهم. وحدث أن كان من أفراد الفوج أحد مماليك آسكيا، ولم يكن يعرفه آسكيا، فكاد أن يصافحه كعادته مع الحجاج، ولكن أحد حجابه نبهه إلى أصل هذا الحاج. وكانت التقاليد تقضي بعدم تقبيل السيد يد المملوك، فسحب آسكيا يده واستشار محمود كعت الذي كان معه، فقال قولا سديدا في هذا وأظهر أن يد هذا المملوك أظهر من آسكيا لأنها مست الحجر الأسود ورمت الجمرات ولمست شبك الرسول عليه الصلاة والسلام، فندم آسكيا على فعلته وخلع حاجبه الذي أشار عليه بسحب يده وانتهار المملوك. وقال قولته المشهورة: «ولولا العلماء لكنا من الهالكين»<sup>(٢)</sup>. وقام العلماء بالدور التوجيهي نفسه في بلاط دولتي البمبارا في سيغو وكا أرتا<sup>(٣)</sup>. فقد كانوا يساعدون في الفصل في النزاع الخاص بمشكلات ارتقاء العرش، ويقومون بنصح الحكام إذا رأوا منهم معادة للمسلمين<sup>(٤)</sup>. وكانت أبوابهم مفتوحة للناس لمن يريد لهم حل مشاكله أو يتعلم

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ١١١-١١٢.

(٢) الفتاش، ص ١١٣.

(٣) قامت هاتان الدولتان على أنقاض دولتي مالي وسنغي، والبمبارا فرع من فروع قبائل الماندنغو، وهم أهم مجموعة من مجموعات الشعوب المتكلمة بلغة الماندي. ودولة سيغو تقع على النيجر الأعلى. وقد أسست في القرن السابع عشر، على يد ما ماري كولوبالي (١٧١٢-١٧٥٥م). أما كا أرتا فقد أسسها خصومه في نفس القرن، اشتهر حكامها بلقب ماسي «ويقابل لقب» «مانسا» في مالي. وكانت نهاية سيغو في عام ١٨٦١م، على يد الحاج عمر الفوتي سلطان التكاورة في فوتا، وكانت نهاية كا أرتا على يد نفس الزعيم في سنة ١٨٦٠م، وفي سنة ١٨٦٠م نفسها ظهر زعيم بمباري هو ساموري التوري ليقود البمبارا جميعا، واتخذ لقب إمام وخاض بهم المعارك ضد الفرنسيين في نهاية القرن التاسع عشر (١٨٨٢-١٨٩٨م) إلى أن ظفروا به وهو يكافح، ونفوه حتى مات سنة ١٩٠٠م)، انظر: د. طرخان: دولة مالي ص ص ١٧١-١٧٥ بتصرف Lewis, The Cambridge Hist., p. 362.

(٤) Lewis, Loc. cit.

منهم ما يهيمه في مسألة ما<sup>(١)</sup>. وكانوا من التواضع بحيث يقبلون أن ينقلوا أبحاثا لتلاميذهم، كما حدث بين أحمد بابا التنبكتي وأستاذه محمد الونكري<sup>(٢)</sup>.

وعلماء هذا حالهم في رفض مناصب القضاء وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهارا، وقول كلمة الحق حتى ولو في وجه سلطان جائر، لابد أن يكون أثرهم عظيما في المجتمع الإسلامي، ودورهم كبيرا في الدعوة إلى الإسلام والتوجيه السليم.

---

(١) تاريخ السودان، ص ٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣-٤٤.

## المبحث الخامس



## دورهم في الحركات الإسلامية الإصلاحية

لم يقف دور العلماء عند التعليم والدعوة إلى الإسلام والتوجيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان، بل تعداه إلى أبعد من ذلك عندما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر باليد، وياشروا السلطة الدينية والسياسية جنبا إلى جنب حين أصبح بعضهم رؤساء لدول إسلامية في فترات مهمة من تاريخ الإسلام في غربي إفريقيا. والأمثلة الواضحة لهذا التطور هي حركات الجهاد الإصلاحية في غربي إفريقيا في القرن (١١ و ١٢ و ١٣هـ / ١٧ و ١٨ و ١٩م)، والتي كان من أبرزها:

### المطلب الأول : حركة ناصر الدين

ظلت غربي إفريقيا تخضع لمؤثرات قادمة من شمالي إفريقيا ومن الشرق الأوسط، وأهم هذه المؤثرات كانت بطون القبائل الصحراوية المختلفة. فقبل القرن الخامس عشر تمت هجرة قبائل الكنتا جنوبا، إلى منطقة تنبكت. وحصلوا تدريجيا على مركز ديني قيادي ونفوذ امتد إلى داخل غربي إفريقيا، وأسهموا في إزكاء روح الجهاد في نهاية القرن (١٢هـ / ١٨م) ومطلع القرن (١٣هـ / ١٩م).<sup>(١)</sup>

ولم يكن الكنتا وحدهم على هذا المسرح، بل سبقهم إلى إيجاد نوع من النفوذ في هذه المنطقة قبائل الزوايا الموريتانية التي كان لها الفضل بعد الله في نشر الإسلام في سنغامبيا ومناطق أخرى من غربي إفريقيا<sup>(٢)</sup>. وهذه القبائل

---

(١) R. H. Trimingham, A History of Islam in W. A., op. cit., pp. 156-60; Curtin, op. cit., p. 11.

(٢) Curtin, Loc. cit.



الموريتانية من أصل بربري، واشتهرت بالدعوة إلى الإسلام وممارسة التعليم الإسلامي، وظهر منها دعاة أقوياء خلفوا تاريخاً بطولياً كائمه في غربي إفريقيا وعلى رأسهم ناصر الدين<sup>(١)</sup>.

كان ناصر الدين من بني دايان، أحد خمسة فروع من قبائل الزوايا. كان عالماً كبيراً<sup>(٢)</sup>، ومسلماً ورعاً غيوراً، ودعاه ذلك بالألا يستكين إلى الوثنيين الذين تصدوا للمسلمين، ونتج عن ذلك صدام معهم تطور إلى حركة شاملة استعر أوارها في سنة ١٠٨٤هـ / ١٦٧٣م، ولكنها فشلت بعد فترة وجيزة لم تتجاوز خمس سنوات<sup>(٣)</sup>.

وفي هذه الفترة الوجيزة هزم ناصر الدين قبائل فوتاتورو، وهرب زعيمها إلى بلدة غادياغا - Gadiaga - فعين ناصر الدين مكانه حاكماً من الزوايا، وتقدم بجيوشه إلى قبائل الجولف حيث طرد زعيمهم «البوربا» وأقام مكانه أحد رجال الدعوة في المنطقة نفسها وهو الشيخ سوران (أو سورانغو)<sup>(٤)</sup>.

وفي سنة ١٦٧٣م تحركت القوات الإسلامية إلى كايور «Cayor». وفي كايور كسبت الحركة رجل دعوة آخر من قبائل الولوف يدعى اندياي سال<sup>(٥)</sup>، ولكن سرعان ما أخذ المرض يدب في أوصال هذه الحركة الفتية، فأصبحت تذوب لسبب بسيط، وهو الخلافات الداخلية، التي راح ضحيتها ناصر الدين نفسه في سنة ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م<sup>(٦)</sup>، وقد عُرف ناصر الدين بـ«الإمام».

(١) Ibid, pp. 13-14, H.T; Norris, Zanaga Islam, op. cit. p. 509.

(٢) Norris, Ibid, p. 509.

(٣) Norris, Ibid. p. 514; Gurtin, op. cit. p. 14

N. A. K. Klein. "Social and Economic Factors in the Muslim Revolt in sengambia"

J. A. H., X111, 3 (1973), Curtin, p. 13. 429.

Curtin. (٤)

Curtin. p. 16. (٥)

Ibid. p. 17. (٦)

واستمرت الحركة بعد الإمام ناصرالدين من ضعف إلى ضعف حتى سنة ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م. وفي هذه الفترة الوجيزة تتابع على العرش خمسة أئمة<sup>(١)</sup>. وبعد الهزيمة التي حاقّت بقوات هذه الحركة سنة ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م تمركز اللاجئون وبقايا المصلحين المؤيدين للحركة في فوتاتورو حيث أصبحوا تحت رحمة ضغوط وهجمات قبائل الوالو من الغرب والقبائل المغربية من الاستبي «Steppe»<sup>(٢)</sup>. وانتهت الحرب المقدسة بانتصار قبائل الحسنية الموريتانية على الاستبي وعودة قبائل المنطقة حكماً لفوتاتورو، ولكن لم تكن نهاية الحرب هي نهاية تعاليم ونفوذ الإمام ناصرالدين؛ فقد استمرت تقاليد الإمام ناصرالدين - على الرغم من الانتكاسة الحربية - متأججة في موريتانيا وغربي إفريقيا، واستمر مفهوم الإمامة هدفاً يسعى إليه في جنوب الصحراء عن طريق الجهاد حتى انبثق بعد فترة قصيرة في حركة جهاد مالك دودا ساي، الذي أنشأ إمامية جديدة في بندو «Bundu» حوالي تسعينيات القرن (١٧م / مطلع القرن ١٢هـ).<sup>(٣)</sup>

وقد أثارت حركة ناصرالدين كثيراً من التساؤلات، وأخذ البعض في تفسير هذه الحركة تفسيراً مادياً كعادة بعض المؤرخين الذين يجعلون المادة وراء كل حركة في التاريخ؛ فالمستشرق نورس<sup>(٤)</sup>، على الرغم من اعترافه باعتداء أمراء قبائل الولوف على مناطق نفوذ مسلمي موريتانيا، يخرج بتفسير لا نجده من الغرض عندما قال بأن ناصرالدين ربما وجه التفاته إلى الجنوب، حيث المناطق الخصبة على نهر السنغال، لأن الشمال والشرق، كما يقول، تتمركز فيهما مجموعات من بطون الحساني والزوايا الكنتيين والأروسيين، وكانوا حجر

---

Loc. cit. (١)

Ibid. p. 18. (٢)

Ibid, p. 18. (٣)

Zanaga Islam, op. cit., p 515. (٤)

عشرة أمام توسعه. ثم يضيف نورس<sup>(١)</sup> تفسيراً مادياً آخر وهو أن ناصر الدين ربما أراد السيطرة على مراكز الصمغ، وكان يهيم نحو التجارة، بالإضافة إلى نشر العقيدة، ويأتي بدليل يظنه مؤيداً لهذه الآراء حين يقول بأن ناصر الدين لم يعارض تدخين التبغ المحلي، وتابعه في ذلك فقهاء الزوايا.<sup>(٢)</sup>

إن من الصعب تصديق هذه الاتهامات، لأن الإمام ناصر الدين عرف في حياته بالالتزام الصارم للمبادئ الإسلامية، وكان يعيش عيشة تقشف وزهد حتى في النساء، على الرغم من أن زوجه كانت من ذوات الحسن والجمال. فكان يكثر من الخلوة فينسى نفسه وزوجه<sup>(٣)</sup>. ورجل هذا شأنه لا بد أن نجرده من الغرض وهوى النفس والسعي وراء عرض الحياة الدنيا.

### المطلب الثاني : حركة مالك ساي

ولد الشيخ مالك في حوالي الخمسينيات من القرن ١١هـ/ الأربعينيات من القرن ١٧م ببلدة «سويوما» في فوتاتورو<sup>(٤)</sup>. وكان والده من العلماء المسلمين، فنشأ تنشئة دينية سليمة منذ البداية. وعندما شب عن الطوق كان مهياً لأن يكون معلماً متحمساً يجوب البلاد. وعند عودته - إلى مملكة غادياغا السوننكية - في أعالي نهر فوتا - حصل على سلطة محلية، في جزء من غادياغا الجنوبية، من قبل الزعيم والحاكم لهذه المنطقة. وسرعان ما أضحت هذه المنحة نواة لدولة جديدة استمرت حوالي القرنين.<sup>(٥)</sup>

وعرفت هذه الدولة التي أسسها الشيخ مالك بـ«بندو». وكانت دولة دينية

---

Loc. cit. (١)

Loc. cit. (٢)

(٣) Ibid, p. 509. ويلاحظ أن نورس يلجأ إلى التفسير المادي على الرغم من معرفته هذه الحقائق.

Curtin, op. cit. p.18. (٤)

Loc. cit. (٥)

في المقام الأول لأن رئيسها كان عالما وإماما. وقد ساندته الفولاني في تأسيس هذه الدولة. ولم يلبث عندما قوي عوده أن انفصل عن وثنى المالنكي ومن غادياغا، وأسس حكما مستقلا استمر بعد وفاته حتى مطلع القرن التاسع عشر. وكانت وفاته في سنة ١١١٤هـ / ١٧٠٢م.<sup>(١)</sup>

### المطلب الثالث : حركة الشيخ عبدالقادر

قامت حركة الفقيه عبدالقادر في فوتاتورو المعروفة أيضا بفوتا السنغالية الواقعة في وادي نهر السنغال. وتعرف هذه المنطقة عند الجغرافيين العرب بـ«تكرور». وقامت فيها دولة إسلامية في وقت مبكر كما رأينا. وامتصتها دولة مالي حوالي القرن الرابع عشر، ثم حكمت بعد ذلك كدولة تابعة تحت أسرة الصوصو الماندونجية حتى القرن (١٠هـ / ١٦م)<sup>(٢)</sup>. ثم انتقلت القوة السياسية في المنطقة إلى قبائل الدنياكي - الجولونين - الفولانية تحت قيادة مسلتجي كولي تنجيلا<sup>(٣)</sup>. ومهد تولي كولي السلطة الطريق لصلات وثيقة بين فوتاتورو وفوتاجالون، فتبدلت هجرات قبائل الفولاني والتوكولور ومجموعات عرقية أخرى.<sup>(٤)</sup>

ومع ازدياد حركة الشعوب قويت الصلة بين المنطقتين وانتشرت الأفكار. واستمرت أسرة كولي في الحكم إلى أن أسقطها سليمان بال في ثورته المشهورة التي بدأت سنة ١١٨٣هـ / ١٧٦٩م<sup>(٥)</sup>. وعرض النبلاء على سليمان بال رئاسة الدولة، ولكنه استمر في الثورة حتى أسقطها سنة ١٣٨٩هـ / ١٧٧٥م،

---

Loc. cit.(١)

Oloruntimehin, op. cit., p. 8. (٢)

Loc. cit. (٣)

Loc. cit. (٤)

Ibid, p. 9. (٥)

واقترح قائداً آخر من العلماء لرئاسة الدولة. وكان ذلك العالم المرشح هو الشيخ عبدالقادر بن حمادي. وظل في الرئاسة إلى أن توفي سليمان بال فانتخب عبدالقادر إماماً<sup>(١)</sup> واضطلع الإمام عبدالقادر بمهمة إكمال إخضاع فوتاتورو، وأسس حكماً قوياً معتمداً على الشريعة الإسلامية أسلوباً للحكم، ولكن لم يدم حكمه طويلاً، إذ راح ضحية مؤامرات النبلاء، فمات قتيلاً في سنة ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م<sup>(٢)</sup>، في السنة نفسها التي انتصرت فيها قوات الشيخ عثمان بن فودي على قوات عدوه ينفا على الطرف الشرقي من غربي إفريقيا. وأصبح الأئمة المنتخبون بعد موت الإمام عبدالقادر، مجرد ألقاب، بينما السلطة الحقيقية في أيدي زعماء العشائر.<sup>(٣)</sup>

#### المطلب الرابع : حركة الشيخ عثمان بن فودي

لقد سبق لنا الكلام عن هذه الحركة الإسلامية الكبرى التي ظلت نتائجها حتى يومنا الحاضر، وتكلمنا عن الشيخ عثمان ودوره في تاريخ الإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقيا.<sup>(٤)</sup>

لقد خرج هؤلاء المصلحون الذين ذكرناهم من صفوف الشعب ليقوموا دولا إسلامية. وخرج علماء آخرون من صفوف الأمراء وتربعوا على عروش دول أصبحت ذات صبغة إسلامية بوجودهم على رأسها. ومن بين هؤلاء الأمير الكانوي عمر كانا جيغي (٨١٢ - ٨٢٤هـ / ١٤١٠ - ١٤٢١م).<sup>(٥)</sup>

---

(١) Loc. cit.

(٢) Loc. cit. ، (وهناك رواية أخرى تقول بأنه نحي سنة ١٨٠٦م، انظر : Klein, op. cit., p. 429.

(٣) Klein; Loc. cit.

(٤) انظر : ص ٤٣١ وما بعدها.

(٥) K. C., p. 74.



## المطلب الخامس : حركة الشيخ صالح بن محمد جنتا ببلاد اليوروبا

حينما عرف الأوروبيون بلاد نيجيريا الداخلية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، كانت المناطق المكشوفة منها وطناً لشعوب زنجية أو مغربية الأصل، اعتنقت الإسلام وأسست ممالك قوية متحضرة، ومن هذه الشعوب شعب اليوروبا «Yoruba» في جنوبي نيجيريا. ومن المرجح أن أصول مملكة اليوروبا ترجع إلى المدة التي تقع بين ستي ٦٠٠ و ١٠٠٠ م.

ويدعي شعب اليوروبا أنهم جاءوا من مكة، وربما يدل هذا على أنهم جاؤوا من الشرق. وهناك من يرى أنهم جاؤوا من صعيد مصر لتشابه عادات الدفن عندهم بعادات الدفن عند قدماء المصريين. وهناك من يرى أنهم من قبيلة نمروذ الكنعانية. ومهما يكن من أمر فإن الدراسات الجنسية قد أثبتت أنهم لم يكونوا من أصل زنجي، وإنما اختلطوا بالدماء الزنجية على نطاق واسع. أسس هذا الشعب ملكه على مساحة امتدت من مصب نهر النيجر شرقاً حتى بلاد داهومي غرباً. وكان يطلق على ملكهم اسم «الافين».

وقد شق الإسلام طريقه إليهم من الشمال على يد علماء الفولاني الذين استقروا في بلاد الهوسا. وأخذت تتكون أقليات إسلامية في وسط الوثنيين اليوروبا. وعندما اندلع جهاد الفولاني في بلاد الهوسا بقيادة الشيخ عثمان بن فودي لم يعلموا كيف يأخذون منه اللواء للقيام بالجهاد، لأنهم لم يتصلوا بدعوة ابن فودي اتصالاً مباشراً. وهياً الله لهم رجلاً من علماء الفولاني يدعى صالح بن محمد جنتا ليكون سبباً في قيام حركة جهادية إصلاحية دعوية في بلاد اليوروبا.

كان الشيخ صالح من أصدقاء الشيخ عثمان بن فودي، ومن أهل الصلاح والورع والتقوى، واشتهر بلقب «عالم» الذي كان يطلقه عليه ابن



فودي، ورأى فيه الرجل المناسب للقيام بأعباء الدعوة الإسلامية جنوب نهر النيجر، ولذا أشار عليه بالتوجه إلى تلك المناطق، فاستجاب لهذه الإشارة، فخرج إلى بلاد برغو، ثم إلى بلاد يوروبا، ونزل بعاصمتها «أيولي». ولم يكن الجو مهيأً للبقاء فيها، لأن كهنتها سبق أن أخبروا ملكها بأن سينزل في أرضه عالم سيكون بقاءه فيها سبباً لذهاب ملكه، ولذا عندما علم الملك بوجوده، احتال على إخراجهم من بلاده، وزوده بأرقاء وأموال كثيرة. وتقول رواية أخرى إن الملك حاول اغتياله، ولكن الله أنجاه، فخرج إلى مدينة إسين، ونزل بمسجد أوجالا، ومكث بها مدة، ثم خرج إلى أبومشو ثم إلى إيكوي ثم إلى كوهو، فمكث بها ثلاث سنين، ومنها انتشر صيته في الآفاق. واتصل به بعض الفولانيين من رعاة الأبقار، الذين قطنوا بجهات إلورن، وأصبحوا يزورونه ويزورهم.

وفي هذه الفترة، حدث خلاف بين ملك اليوربا وأحد قواده العسكريين، يدعى أفنجا، وهو ابن أخت الملك، فلجأ إلى بلدة إيلورن، بعد إخفاقه في سرية عرفت بسرية أويري، التي بعثه الملك إليها ليلقى بها حتفه جزاء مناوئته له. وكان من عادة يوروبا أن يتتحرروا إذا لم يحرزوا النصر في حروبهم، لأن الهزيمة عندهم عار أبدي يلحق بهم وبأسرهم، ولا يمكن غسل هذا العار إلا بالانتحار، ولذا عندما انهزم أفنجا تلك الهزيمة المنكرة، كان من المفترض أن يتتحرر حسب التقاليد اليوروبوية، ولكنه بدلاً من هذا لاذ بالفرار إلى قرية إلورن حيث يخفي مصيره عن أهل العاصمة.

وبعد الاطمئنان أصبح أفنجا يحلم باسترجاع منصبه القيادي الحربي، ويتمنى أن يؤلف جيشاً قوياً خارج المملكة ليتقم به من عدوه جده الملك، الذي عرضه للموت. ولم يزل كذلك حتى سمع بخبر العالم الشيخ صالح،

فأمل في كسب صداقته، فزاره في مكانه، وطلب منه أن ينزل مع إخوانه الفولانيين البقارة القاطنين بجواره في إلورن. فوافق هذا رغبة الفولانيين والهوساويين والبرناويين والبربر المسلمين المتشرين في أحياء صغيرة حول إلورن..

انتقل إليه الشيخ صالح عام ١٢٣٠هـ / ١٨١٤م، ووجد ترحيباً وتكريماً واحتراماً عظيماً من هؤلاء المسلمين. وقصده الناس من الجهات المختلفة، منهم علماء ربوة السنة وأهل قرية أبج من البربر، وتلمذ الجميع على يديه. وعندما طاب له المقام استقدم أهله وأولاده وأصحابه من بلاد سوكونتو وهوسا للإقامة معه. ولما كثر الناس حوله استطاع أفنجا أن يكون منهم جيشاً جراراً، وعقد له الشيخ صالح اللواء، فزحف بجنده إلى القرى التي كانت تهدد سلامته وتشن عليه الغارات، ففتحها، وأمن أهلها من الطوارق الذين كانوا يغيرون عليها من أجل السلب والنهب والاسترقاق. وعندما قويت شوكته - أي أفنجا - أخذ في شن الغارات المتواصلة على عاصمة بلاده «أويولي» لتقليم أظافر عدوه الملك، وليبقى صاحب النفوذ الوحيد في بلاد اليوروبا. وأمام هذه الغارات لم يجد أهل العاصمة مخرجاً غير الانتقال إلى مكان تكثر فيه الغابات الكثيفة التي تمنع مثل تلك الغارات ويكون قريباً من وسط بلاد اليوروبا. وأضعف هذا الموقف شوكة ملك اليوروبا.

وعندما علم المسلمون المجاورون لإلورن أن الأمن قد استتب بها، أخذوا في الهجرة إليها فراراً من ظلم ملكهم الكافر، وليعبدوا الله فيها بحرية. فانتظمت الحضارة بها، وتضاعف عدد سكانها، وشكل المسلمون الأغلبية الساحقة لسكان هذه المدينة.

ولما لم يكن لهذه القرية رئيس أو حاكم من قبل، فقد اتجهت أنظار

الناس إلى العالم الشيخ صالح ليكون حاكماً لها، ولكنه أبى واكتفى بالمشيخة ليمارس التربية والتعليم لإنشاء بلدة إسلامية يأوى إليها كل من أراد أن يعبد الله بحرية. ولذا اتفق زعيم حي الفولانيين المدعو «أولوفادي»، وزعيم حي الهوساويين التجار شبه الرحل المدعو «باكو» وزعيم حي مسلمي ربوة السنة - وهم مزيج من اليوروبا والبربر - المدعو «سولايرو»، اتفقوا على مبايعة عبدالسلام ابن الشيخ أميراً وسلطاناً على هذه البلدة اعترافاً بدور أبيه في تطور البلدة وحفظ الأمن والسلام فيها. ولم يشذ عن البيعة سوى أفنجا زعيم حي اليوروباويين الكفار. وكره هو وجماعته هذه البيعة، ولكنهم لم يجدوا بداً من التسليم لرغبة الغالبية العظمى من سكان أحياء إلورن.

وازداد نطاق هجرة المسلمين إلى إلورن من المناطق المجاورة كافة للعيش في ظل سلطان إمارة إسلامية جديدة، ومبايعة أول إمام وأمير للمؤمنين في بلاد اليوروبا.

وتوفي الشيخ صالح عام ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م، بعد ستة أعوام من نزوله بإلورن. ولم يألُ ابنه عبدالسلام ومن خلفه في الإمارة جهداً في دفع حركة الإسلام والثقافة الإسلامية العربية والتعليم الإسلامي في هذه البلاد. ومن مظاهر ذلك استقدامهم العلماء والفقهاء من بلاد هوسا ونوفى وغيرها للقيام بهذا الدور، أمثال الشيخ أبي بكر الشهير بلقبه (بوبي)، استقدمه الأمير «شتت» من سوكوتو، ونزل في إلورن حوالي عام ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م، وتصدر للتدريس بها، وأخذ عنه الكثيرون، منهم الشيخ مالك والشيخ محمود، من أبناء الأمير شتت، والشيخ محمد بيغوري الفولاني.

وتأسست المعاهد العليا لدراسة الشريعة الإسلامية واللغة العربية وآدابها، وتخرج فيها علماء عاملون، أسهموا في نشر الإسلام وحضارته في بلاد اليوروبا.

وكان من أشهر علماء هذه البلاد: الشيخ محمد النسي، عالم ربوة السنة، والشيخ محمد ينبؤ والشيخ موسى البرنوري الأنجي. ومنهم من أسهم في نشر الإسلام وعلومه في أواسط بلاد اليوروبا بجهات إبادن وإسين، أمثال الإمام عثمان أبي بكر الدندي، الذي كان أول من تولى منصب الإمام الأكبر في إبادن، وتوفي عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م، وأمثال الشيخ أبي بكر بن صاحب الكرسي، شيخ شيوخ إبادن، الذي أخذ عنه جميع أهلها، وقد قتله قطاع الطرق وهو في طريقه إلى الحج عام ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م عن نيف وثلاثين سنة من العمر. وكان من تلاميذه الشيخ هارون ابن سلطان إبادن.

وعندما استوت الحضارة الإسلامية على سوقها في هذه البلاد، أغاظ ذلك الزعيم الوثني أفنجا، فدخل في مناوشات عسكرية مع هذه الدولة الفتية النامية، واستنجد بقبائل اليوروبا الوثنية المجاورة، وانهزم جيشه وقتل هو نفسه في إحدى هذه المناوشات قبل أن تصل إليه النجدة.

وعندما علم وثنيو قومه بمصرعه تجمعوا من نحو أربعين بلدة بقيادة حليفه صاحب مدينة إيكوي، وزحفوا إلى إلورن للقضاء على المسلمين. وبعث الأمير عبدالسلام إلى سلطان سوكتو يطلب منه اللواء والمدد العسكري لصد هذا الزحف، فجاءه المطلوب من قبل الأمير خليل عبدالله من مدينة غندو.

وهكذا بدأ الجهاد الحربي في بلاد يوروبا، ودام القتال بين الفريقين سجالات طول أربعين سنة، من أيام الأمير عبدالسلام إلى أيام الأمير علي بن عالم.

وكسب المسلمون أراضي جديدة عندما فتحوا القرى والمدن المجاورة لإلورن، ودخلت أكثر بلاد يوروبا في حلف المسلمين، وحاصروا مدينة «ألوا» لمدة سبع عشرة سنة للقضاء على كفار مديتي إبادن وإيشا اللذين عسكروا فيهما لتنظيم الحرب ضد المسلمين، فدخلوها عام ١٣٠٤هـ / ١٨٨٦م، وشتوا



شمل الأعداء. وسجل هذا الانتصار شعراً الشيخ محمد ثاني بن أبي بكر (نوبي)، أحد علماء إلورن وأدبائها، في قصيدة طويلة، مما جاء فيها:

لما تحزب أهل الكفر كلهم      وأهل بادن قد بادوا على اسمهم  
وأهل أوفاف قد فاؤوا بنقضهم      عهد الأمانة في فعل وفي كلم  
قال الأمير بأن الحول ليس لنا      إلا إليك إلهي أنت ذو كرم  
أعني الأمير عليا ذاك مقصدنا      لأنه بيديه فتح مصرهم  
قد أنجز الله وعداً كان واعدنا      تفرقوا ثم خلوا جل مالهم<sup>(١)</sup>

لقد خرج هؤلاء المصلحون الذين ذكرناهم باختصار من صفوف الشعب ليقوموا دولاً إسلامية. وخرج علماء آخرون من صفوف الأمراء وتربعوا على عروش دول أصبحت ذات صبغة إسلامية بوجودهم على رأسها. ومن بين هؤلاء الأمير الكانوي عمر بن كانيا جيبي (٨١٢ - ٨٢٤هـ / ١٤١٠ - ١٤٢١م)<sup>(٢)</sup>، والشيخ سيرين إنجاي سال، الذي نجح في الوصول إلى الحكم في «كاجور» السنغالية عام ١٠٧٤هـ / ١٦٦٣م وحاول وضع البلاد في ظل الشريعة الإسلامية، وقطع شوطاً بعيداً في هذا الشأن، ولم ينجح الأعداء في القضاء على نظامه إلا بعد أن استنجدوا بأمير «سالوم»<sup>(٣)</sup>.

### المطلب السادس : حركة الشيخ حمد (أو حمدو)<sup>(٤)</sup>

إن الحركة الثانية من بين أعظم ثلاث حركات جهادية إسلامية في غربي

---

(١) انظر هذه المعلومات عن حركة الشيخ صالح جنتا في المراجع الآتية: آدم عبدالله الألوري: الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفولاني، ط ٢، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م، ص ص ١٣٢-١٣٧؛ حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ط ٢٢ ١٩٦٣م، ص ص ١٢٤-١٢٨.

(٢) انظر: Kano Chronicle, op. cit., p. 74.

(٣) انظر: عبدالقادر سيلا: المسلمون في السنغال، مرجع سبق ذكره، ص ٨٢.

(٤) يلاحظ أن أهل غربي إفريقية يقفون على الضمة عند ذكر الأعلام، وترسم الضمة واواً في الكتابة، فيصبح حمد: حمدو، وأحمد: أحمديو، ومحمد: محملو: وهكذا.

إفريقية في القرن التاسع عشر الميلادي، كانت حركة الشيخ حمد بإقليم ماسينا، الذي يقع إلى الغرب من بلاد الهوسا.

كان الشيخ حمد من أبناء قبيلة الفولاني الذين قاموا بدور فعال في حركة الشيخ عثمان بن فودي الجهادية في مراحلها الأولى. وقد عاد إلى بلاده بعد هذه المساهمة، تملأ جوانحه الروح الجهادية. وكان أول مكان يقيم فيه هو مدينة جني، ولكن مالبث أن طرد منها بتهمة ممارسة نشاط هدام، فغادر شمالاً إلى سيبيرا «Sebera»، حيث أنشأ مدرسة إسلامية، والتف حوله الرجال. فإضافة إلى عمله اليومي في التدريس والتوجيه والإرشاد ومحاربة البدع، فقد حاول اقناع أتباعه المسلمين بأن الفساد المتفشي في المجتمع لا يمكن إزالته إلا عن طريق الجهاد. ولم يحالفه النجاح المطلوب في بداية أمره، ولكن عندما وصلت كتابات الشيخ عثمان بن فودي عن جهاده إلى المنطقة، فإن الذين كانوا يتشككون في جهاد الشيخ حمد، اقتنعوا بآرائه في الجهاد، فنشطت حركته الجهادية. وفي أثناء ذلك أرسل الشيخ حمد إلى الشيخ عثمان يطلب منه أن يرسل إليه علماً من أعلام الجهاد ليرمز إلى أن الشيخ عثمان يبارك جهاد الشيخ حمد. واصطدم حمد وأتباعه بملك البمبارا في إقليم سيغو قبل وصول اللواء المطلوب من الشيخ عثمان، فأعلن الشيخ حمد الجهاد ضد ملك البمبارا، وتمكن من هزيمة الجيوش التي أرسلت لحربه.

وعندما شعر الشيخ حمد بالثقة في قدراته للوقوف بنفسه في وجه أعدائه، رفض علم الشيخ عثمان الذي وصل إليه بالفعل. واستولى على ماسينا وجني وتنبت والمناطق المجاورة. وأقام عاصمة لدولته في منطقة عرفت بـ«حمد الله». ثم بدأ في تنظيم دولته تنظيماً يعد أفضل من تنظيم شيخه عثمان ابن فودي، ولكنها كانت دولة أصغر من دولة عثمان.



وعندما توفي حمد الله عام ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م خلفه ابنه أحمدو سيكو. وعندما مات أحمدو سيكو عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٢م خلفه ابنه أحمدو أحمدو. وفي ظل حكم هذا الأخير دخلت البلاد في صراع مع قوة أخرى نامية قادمة من جهة الغرب، هي قوة الشيخ عمر الفوتي، الذي تمكن من القضاء على هذه الدولة عام ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م.<sup>(١)</sup>

### المطلب السابع : حركة الشيخ الحاج عمر تال الفوتي

ولد الحاج عمر تال بن سعيد بن المختار الفوتي السنغالي ببلدة «حلوار»<sup>(٢)</sup> أو «هلوار»<sup>(٣)</sup> - بإقليم «فوتا تورو»، وذلك سنة ١٢١٢هـ / ١٧٩٤م، أو سنة ١٢١٥هـ / ١٧٩٧م. وكان من شعب الفولاني - على أرجح الاحتمالات - على الرغم من أن بعض الباحثين وصفه بأنه من شعب التوكولور<sup>(٤)</sup>. وكان والده سعيد من العلماء المعروفين بالورع. وقد تلقى ابنه تعليمه الأولي تحت رعايته. وحفظ القرآن الكريم في سن العاشرة. وتعلم مبادئ اللغة العربية منذ صغره. ورحل إلى طلب العلم عند عدد من شيوخ فوتاتورو وموريتانيا. وتفقه في المذهب المالكي.

(١) انظر:

Omer - Cooper, J. D. and Others: The Growth of African Civilisation, I, The 19th C. to the Partition, London, 1975, p.p. 164-165.

(٢) هكذا رسمها الدكتور عمر جاه في بحثه: «تقويم جديد لجهاد الحاج عمر الفوتي وعلاقته بجهاد الشيخ عثمان بن فودي»، مجلة كلية العلوم الاجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عدد رقم ٦، سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م، ص ٢٩١. ورسالته للدكتوراه عن هذه الشخصية، وهي باللغة الإنجليزية.

(٣) هكذا رسمها الأستاذ عبدالقادر محمد سيلا في كتابه: «المسلمون في السنغال - معالم الحاضر وآفاق المستقبل»، رقم ١٢ من سلسلة كتاب الأمة، قطر، ط ٢، شوال ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، ص ٧٦.

(٤) The Growth of African Civilisation, op. cit., p. 165.

جلس الحاج عمر للتدريس والتوجيه ما بين سنتي ١٢٣٥-١٢٣٨هـ / ١٨١٩-١٨٢٢م. واشتهر أمره، وقصده طلاب العلم حتى من موريتانيا. وبدأ يهتم بالتصوف خلال هذه الفترة إثر لقائه مع الشيخ عبدالكريم الناقل الفوتاجالوني سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م<sup>(١)</sup>. وسافر مع الناقل إلى فوتاجالون (غينيا) لطلب العلم. وبعد فترة قصيرة بدأ الحاج عمر رحلته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. ووصل إلى مكة المكرمة عام ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م. واستغرقت هذه الرحلة أكثر من عام، لأنه زار خلال هذه الرحلة عدداً من بلدان غربي إفريقيا، منها: ماسنة وسوكوتو وغواندو وبورنو. ووقف في سوكوتو على معالم حقيقة جهاد الشيخ عثمان بن فودي ومنهجه الإصلاحية في بلاد الهوسا. أقام الحاج عمر بالأراضي المقدسة ثلاث سنوات أو تزيد، التقى خلالها بكبار علماء الحجاز، من أبرزهم الشيخ عبدالله سيدي محمد الغالي الحسني، الذي أخذ عنه الحاج عمر الطريقة التيجانية الصوفية المعروفة. ومر على مصر في طريق عودته من الحجاز إلى بلاده، ومكث فيها قليلاً للقاء علماء الأزهر البارزين. والتقى في بورنو بالشيخ محمد الأمين الكانمي. ونزل بسوكوتو، وذلك في طريق عودته إلى بلاده السنغالية، وتزوج بإحدى بنات السلطان محمد بلو، وقيل أخت السلطات بلو. وتزوج كذلك بامرأة سوكوتية أخرى.<sup>(٢)</sup>

ومما لاشك فيه أنه ازداد معرفة هذه المرة بحركة الإصلاح الإسلامي في بلاد الهوسا بزعامة أسرة الشيخ عثمان بن فودي، فقد مكث في سوكوتو عدة

---

(١) انظر: مؤلف الشيخ عمر الفوتي: رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم، طبع القاهرة،

١٩١١م، ص ص ١٨٠-١٨١، Omer - Cooper, J. D. and Others: The Growth of African Civilisation, op. cit., p. 165.

Ibid. (٢)

سنين<sup>(١)</sup>. وتأثر بمنهجهم في الإصلاح الديني، وهو أمر واضح في مؤلفاته التي ألفها بعد هذا، وإن كان قد عاب على آل فودي التساهل في الإصلاح. ومر ببلاد البمبارا وهو في طريقه من بلاد الهوسا إلى بلاده فوتاجالون، فانضم إليه فرع من شعب الفولاني يسمون الواسولونكة، وغيرهم. ومر بماسينا، ومكث بها قليلاً، لأن علاقته مع إمامها الشيخ أحمد كانت متوترة بسبب ما يحمله الشيخ عمر من أفكار إصلاحية. ومن هنا جدد الشيخ عمر تجواله، فذهب إلى سيغو وفوتاجالون، مبشراً بدعوته الإصلاحية. وكسب إلى جانبه الأتباع والمؤيدين، إضافة إلى أنه أوجد أعداء له. وكان وصوله إلى فوتاجالون عام ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م، وقيل بعد رحلة استغرقت نحو سبع سنين.<sup>(٢)</sup>

ومما لاشك فيه أن هذه الرحلة قد أفادته كثيراً حيث زادت مداركه ومعرفته بأجزاء مهمة من العالم الإسلامي، ووقوفه على حالة المسلمين الفكرية والسياسية والاجتماعية وما بها من سلبات، مثل فتور الوازع الديني، وتشتت القوى، وتفشى الجهل، فاعتقد أن من واجبه القيام بحركة دينية إصلاحية. ولذا، فعندما عاد إلى بلاده فوتاجالون ركز اهتمامه على تعليم الناس الدين ونشره في المناطق التي لم يصل إليها. ووفد عليه كثير من طلاب العلم للاستزادة من علمه. وعندما كثر تلاميذه وأتباعه، بشرهم عام ١٢٦٨هـ / ١٨٥١م بأنه قد أذن له في الجهاد<sup>(٣)</sup>. فأخذ في تسليح أتباعه والحث على جهاد شعب البمبارا الوثنيين والفرنسيين النصاري الذين بدأت طلائعهم تدخل تلك

---

(١) Ibid. ذكر هذا المرجع أنه مكث بسوكوتو ١٢ سنة.

(٢) انظر: سكيرج (الحاج أحمد بن الحاج العياشي): كشف الحجاب عن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، بيروت، ص ٢٦٢، ٢٦٥، ٣٣٥، نقلاً عن: د. بدري محمد فهد: الصلات الثقافية بين العرب وإفريقية من خلال الحركات الشعبية، بغداد، ص ١١١ وما بعدها.

(٣) المرجع نفسه (سكيرج)، ص ٣٣٦؛ ود. بدري، ص ١١٢.

المناطق من غربي إفريقية. وبنى قلعة حصينة في شمالي النيجر، في منطقة (دينغويراي «Dinguiray»). وهزم البمبارا الوثنيين في تومبا، واستولى على كوناكري من بلاد غينيا - وهي عاصمة غينيا الحالية - وجعل مقره العام في نيورو شمالي السنغال الأعلى سنة ١٢٧١هـ / ١٨٥٤م. وكان من نتيجة تدمير هذه المملكة الوثنية أن وصل الحاج عمر إلى حدود بلاد المسلمين في فوتوتارد وماسينا، واصطدم ببعضهم، وتطور الاصطدام إلى حرب انتهت بغزو سيفو، على الضفة اليمنى من وسط النيجر، وذلك سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م، وغزا ماسينا. واعترض سلطان ماسينا - أحمد بن أحمد - على هذا الغزو، لأنه موجه ضد مسلمين سبقت لهم مبايعته، وأنهم تحت مراكز نفوذه وسلطانه، فأعلن الحرب على الحاج عمر، وانتهت العمليات الحربية بينهما بسقوط «أحمد الله» عاصمة سلطنة ماسينا، وقتل السلطان أحمد سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م<sup>(١)</sup>. ولجأ ملك سيفو - علي بن متزو - إلى «أحمد الله»، وعندما رفض الإمام محمد بران وان - سلطان فوتا تورو - التعاون مع الحاج عمر في الجهاد ضد كفار المنطقة والنصارى الأوروبيين الذين دخلوا منطقة سنغامبيا، عدّه الحاج عمر من أهل المنكر، فأعلن بلاده بلاد منكر ينبغي الهجرة منها إلى الأرض التي استولت عليها جيوشه في بلاد بامبارا<sup>(٢)</sup>. واستطاع خلال فترة وجيزة (١٢٧٩-١٢٨١هـ / ١٨٦٢-١٨٦٤م) أن يؤسس دولة إسلامية جهادية تضم رقعة واسعة من الأرض حول مجرى نهري السنغال والنيجر<sup>(٣)</sup>. وقتل الحاج عمر أثناء حروبه الجهادية ضد مسلمي هذه المناطق عام

---

(١) W. Brown: The Caliphate of Hamdallahi, Ph. D. Wisconsin, 1969.

نقلًا عن د. عمر جاه، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩٨ د. بلدي سبق ذكره، ص ١١٢.

(٢) د. عمر جاه، المرجع نفسه، ص ٢٩٩.

(٣) د. بلدي، المرجع السابق، ص ١١٢.



١٢٨١هـ / ١٨٦٤م، بعد أن حوُصر في كهف ديغمبري.

وكان من أسباب قصر عمر هذه الدولة هو أن الحاج عمر لم يرس قواعد إدارية متينة لدولته المترامية الأطراف، فورث ابنه مشكلات إدارية كثيرة، لم يفلح في معالجتها، لاسيما أنه لم يرث من والده الأثر القوي والمكانة العالية وسط أتباعه. ولهذه الأسباب وغيرها تفتت الدولة إلى ثلاثة أقسام مستقلة إثر وفاة الحاج عمر: جزء تحت إدارة أحمد نفسه، الذي حكمه من حاضرتة سيغو، والآخران حكما على التوالي من «حمد الله» و«ميورو» بوساطة التجاني ابن سعيد - أخو عمر - ومولاهم مصطفى. وعلى الرغم من أن التجاني ومصطفى قد اعترفا بخلافة أحمد شيخو، إلا أنهما في الحقيقة تمتعا باستقلال تام. إضافة إلى هذه المشاكل فقد كان التهديد الكبير لهذه الدولة من قبل الفرنسيين الذين دخلوا السنغال وفتحوا شهيتهم للسيطرة على كل المنطقة السودانية «أي غربي إفريقية»، ونظروا إلى دولة أحمدو شيخو كعقبة كؤود في طريق تقدمهم إلى الداخل؛ ولذا دخلوا معه في صراع عسكري انتهى بالقبض عليه، ومن ثم القضاء على دولته<sup>(١)</sup> عام ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م، فهاجر أحمد بن عمر إلى شمالي نيجيريا، حيث مات هناك<sup>(٢)</sup>.

وكان من أبرز جوانب دعوة الشيخ عمر الإصلاحية الدعوة إلى تغيير جذري في النظام التعليمي عند المسلمين بغربي إفريقية، وذلك التحسين الذي يؤدي إلى تغيير أساسي في السلوك الخلقي والحياة الروحية والمادية، ويؤدي إلى الفهم الصحيح للشريعة الإسلامية. ويؤكد برنامجه في الإصلاح إيمانه بأنه

---

(١) انظر: J. D. Omer - Cooper, op. cit, p. 167.

(٢) انظر: آدم عبدالله الألوري: الإسلام في نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٧؛ د. عبده بدوي: شخصيات إفريقية، ص ص ٤٠-٤٣.

لا يمكن القيام بجهاد ناجح إلا بعد تربية النفس وتهيتها لقبول الحكم الإلهي .  
وتبنى مبدأ الهجرة من مكان المعارضة والإرهاب إلى مكان آمن لبث دعوته  
وتعاليمه ، ومبدأ الهجرة بمعنى هجران المعاصي والفساد. (١)

ويستنتج من حركة الحاج عمر الجهادية بأنها كانت السبب المباشر في  
إسلام سكان مملكة «حالونكا» في فوتا جالون ، وسكان «غابو» من الفولانيين  
الرحل ، ومعظم شعب «ولوف» وقسم كبير من قبيلة «سرير» في سنغامبيا .  
وكان جهاده سبباً رئيساً - كذلك - في تأخير تقدم التسلل الأوروبي  
سياسياً وثقافياً إلى داخل غربي إفريقيا .

وكان جهاده المصدر الذي استوحى منه كثير من المجاهدين والوطنيين  
الذين قاموا بحركات ثورية ووطنية ضد الإستعمار الفرنسي والانجليزي في  
المنطقة فيما بعد . وكان جهاده السبب في انتشار الإسلام واللغة العربية في  
غربي إفريقية بصفة عامة. (٢)

ومما نأخذه على الشيخ الحاج عمر أنه تبنى الطريقة الصوفية التيجانية ،  
ولذا وقع في الانحرافات العقدية الخطيرة التي وقع فيها شيخ هذه الطريقة  
ومؤسسها أبو العباس أحمد التجاني . ويظهر هذا الانحراف العقدي جلياً في  
كتابه «رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرحيم» ، وهو من الكتب المعتمدة  
لدى أتباع الطريقة التيجانية في شمالي وغربي إفريقيا . وقد تعرض لهذه  
الانحرافات الدكتور محمد تقي الدين الهلالي في كتابه : «الهدية الهادية إلى  
الطائفة التيجانية» ، وأثبت بما لا يدع مجالاً للشك انحراف الطريقة التيجانية ، بدءاً  
بمؤسسها وانتهاء بشيوخها أمثال علي حرازم ، صاحب كتاب : «جواهر المعاني  
من فيض أبي العباس التجاني» ، والحاج عمر الفوتي صاحب «الرماح» المشار

---

(١) انظر : كتابه : رماح حزب الرحيم ، سبق ذكره ، (١٠٩/٢) .

(٢) انظر : د . عمر جاه ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠١ .



إليه آنفاً. ولأن الدكتور الهلالي كان تجانياً لمدة تسع سنين، وله معرفة أصيلة بكل جوانب هذه الطريقة، فقد أجاد وأفاد لبيان الحق الواضح حول هذه الطريقة التي أدخلت الكثير من الشراكيات والخزعبلات على عقائد المسلمين.

### **المطلب الثامن : حركة الشيخ مابا جاجوبا الإسلامية (١٢٢٤-١٢٨٤هـ)**

قامت حركة هذا الشيخ بالسنگال في منتصف القرن التاسع عشر كرد فعل لتصاعد تعسف طائفة «تيدو». وتعني كلمة «تيدو» في لغة شعب الولوف: الخبث والوحشية والدناءة والخشونة والكفر. وكانت هذه الطائفة منتشرة في مختلف أنحاء السنگال، وتشكل «مليشيات» السلطات القائمة آنذاك، وكانت تعيش على السرقة والنهب.

ونتيجة لاستبداد وتعسف هذه الطائفة وجد المستضعفون من عامة الشعب المستهدف من قبل طائفة التيدو ضالته في الإسلام. فكانت قرى وبيوت الشيوخ العلماء المسلمين ملاذاً لهؤلاء المستضعفين الذين عرفوا بـ«بادولو»، أي المستضعفين في لغة الولوف، وتطلق كذلك على عامة الشعب. وكانت الفرصة مواتية للشيوخ لإدخال هؤلاء الناس في الإسلام وحمايتهم من الظلم.<sup>(١)</sup> وكان الشيخ مابا أحد أولئك الشيوخ العظام الذين حظوا بثقة «بادولو» وأقبلوا على الإسلام تحت يديه.

وكان الشيخ ماباجاجوبا قد التقى بالحاج عمر الفوتي سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م، واستبشر به عمر خيراً، وتوقع أن يكون له دور فعال في خدمة الإسلام ببلاده. وشاء الله أن ينجح الشيخ مابا في الدعوة الإسلامية لسعيه الحثيث والقوي في حماية «بادولو». ونجح في توحيد أقاليم «ريب» و«سالوم» و«باديو»، وأوشك أن يضم إليه إقليم «سين» لولا أن تصدت له القوى

---

(١) انظر: د. عبدالقادر سيللا: المسلمون في السنگال، مرجع سبق ذكره، ص ٦٥-٦٦.

الاستعمارية، ووضعت حداً للمد الإسلامي عام ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م، إثر هزيمة الشيخ مابا في معركة «صومب»، حيث استشهد فيها الشيخ نفسه، ولكن لم تخدم حركته بوفاته، إذ حمل لواءها أخوه ونجله من بعده.<sup>(١)</sup>

وكان من آثار هذه الحركة الإسهام في إبراز قيادات إسلامية مجاهدة، منها الإمام «فودي كبا دومبويا»، الذي استنجد في بداية أمره بالشيخ مابا عندما اعتدى بعض المعتدين عليه وعلى طلبته بمنطقة «كازامانسا» بجنوبي السنغال، وأدى التعاون بين هذين العالمين إلى نتائج مثمرة، أبرزها حماية الجماعة الإسلامية ورفع روحها المعنوية.<sup>(٢)</sup>

### **المطلب التاسع : حركة الشيخ فودي كبا دومبويا (١٢٣٤-١٣١٩هـ)**

ركز فودي كبا جل اهتمامه على جماعة «جولا» التي كانت وثنية إلى ذلك العهد. ودخل عدد كبير من هذه الجماعة في الإسلام بفضل الله ثم بجهود هذا الشيخ في الدعوة الإسلامية، ونجح في بناء أسس الثقافة الإسلامية في تلك البلاد السنغالية.

ولعل أروع بطولة سجلها في تاريخ الحركة الإسلامية في السنغال هو رفضه للمساومة حينما لجأ إليه مسلمون فارون من الاحتلال الإنجليزي إثر نزاع نشب بينهم وبين هؤلاء المحتلين الأجانب. وكان هؤلاء قد طالبوا الإمام فودي كبا بعدم حماية المسلمين، وبضرورة تسليمهم إليهم، فرفض كل مطالبهم، ولذا تعاون الإنجليز والفرنسيون وحلفاؤهم من الخونة على حربه. فخاض ضدهم معارك حربية ضارية، استشهد الإمام فودي كبا في إحداها عام ١٣١٩هـ / ١٩٠١م، بعد حياة جهادية في خدمة الإسلام والمسلمين.<sup>(٣)</sup>

---

(١) المرجع نفسه، ص ٧٩-٨٠؛ ولنا بحث مستقل ومطول عن هذه الحركة.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨١-٨٢.

## المطلب العاشر: حركة الشيخ محمد الأمين درامي (١٢٥١-١٣٠٥هـ)

ولد محمد الأمين دمبا درامي دباسي حوالي سنة ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م،<sup>(١)</sup> في أسرة من الشيوخ الساراكولي بمدينة جوندورو Gundiru أو Koundiourou، وهو مركز دراسات إسلامية مشهور، يقع على بعد نحو ثمانية أميال جنوب مدينة كايز ومديني Medine، عاصمة خاسو Khasso، بمحافظة كانياجا.<sup>(٢)</sup> انتقل في صباه مع أسرته إلى قرية سافالو بمحافظة دياخا بإقليم بوندو<sup>(٣)</sup>. وهنا بدأ دراساته القرآنية على يد والده الذي كان زعيماً دينياً ومعلماً، وعمل قاضياً في عدة مناطق بإقليم خاسو.<sup>(٤)</sup> وقطع دراسته لبعض الوقت نتيجة لوقوعه مع والدته في الأسر في قرية جامون Gamon جنوب دياخو، على حدود تندا، التي كان سكانها من أصل ماندنجي، ومعظمهم من الوثنيين. وكانوا في حرب مع بوندو. ونجح والده في فك أسرهم بعد فترة، وماتت والدته في الأسر. ومنذ ذلك الوقت امتلأ قلب محمد الأمين بالكراهية لقرية جامون. وواصل دراساته الإسلامية بمدينة باكل Bakel بعد إطلاق سراحه. ويذكر بعض الكتاب أنه التقى بالشيخ الحاج عمر الفوتي خلال إقامته بباكل.<sup>(٥)</sup> بل منهم من يذهب إلى أنه التحق بجيشه ليشارك في

---

(١) يذكر B. O. Oloruntimehin أنه يجب أن يكون قد ولد ما بين عام ١٨٣٥ و ١٨٤٠م - انظر: مقاومة غربي إفريقية للاستعمار، ص ٨٤ (تحرير مايكل كراودر - بالإنجليزية). ويذكر Boniface L. Ob-

ichere أنه ولد نحو سنة ١٨٤٠م - انظر بحثه:

The African Factor in the Establishment of French Authority in West Africa 1880-1890) in (France and Britain in Africa, p. 470).

(٢) انظر هنا: Oloruntimehin, Ibid, p. 84.

(٣) Ivan Hrbek: The Early Period of Mahamadu Lamin's Activities (in R. Willis: Studies in West African Islamic History), p. 212.

(٤) انظر هنا: Oloruntimehin, Ibid, P. 84

(٥) Ivan Hrbek: The Early Period, op. cit., p. 212.

الجهاد. (١) ويُستبعد (٢) هذا الاشتراك، لأن محمداً الأمين غادر باكل إلى مكة في منتصف الخمسينيات، وهو الوقت ذاته الذي بدأ فيه الحاج عمر جهاده العسكري ضد المبار، ولا أثر لهذا الاشتراك في رسائله أو في الروايات الشعبية المتداولة.

ذهب محمد الأمين إلى الحج وهو في سن العشرين أو الحادي والعشرين. وانتهاز فرصة وجوده بالأراضي المقدسة، فأقام لفترة يتلقى دراسات إسلامية متقدمة على أيدي شيوخ الحرمين الشريفين. (٣) وعاد إلى سيغو - عاصمة جماعة الحاج عمر الفوتي - عام ١٢٧٩هـ / ١٨٧٩م أو ١٢٨٠هـ / ١٨٨٠م. ولا يعرف إن كان قد قضى كل المدة ما بين ١٨٥٥ و ١٨٧٩م (٤) بالأراضي المقدسة أم لا. تشير بعض الروايات إلى أنه زار مصر، وحتى القسطنطينية، ولكنه شخصياً لم يشر إلى هذه الأماكن. (٥)

لا يستبعد أن يكون قد قضى وقتاً طويلاً بالحجاز، نسبة لغيابه الطويل عن بلاده في رحلته إلى الحج. ولا بد أن يكون قد سمع من الحجاج القادمين من أرجاء العالم الإسلامي المختلفة عن الأوضاع المزرية للبلدان الإسلامية الكثيرة التي وقعت في يد الاستعمار الأوروبي النصراني في ذلك الوقت؛ فامتلاً حماساً لعلاج أوضاع المسلمين عن طريق التجديد والجهاد العسكري. (٦) ويشير ويلز (٧)

---

Ibid. (١)

Ibid. (٢)

(٣) انظر: Boniface: The African Factor, op. cit., p. 471.

(٤) Oloruntimehin, op. cit., p. 85; Hrbek, op. cit., p. 212.

(٥) Harbek, Ibid.

(٦) وما يدل على وجود فكرة التجديد في ذهنه، ما أضفاه على نفسه من ألقاب عندما كان يخاطب رجال الإدارة الفرنسية، من ذلك وصفه لنفسه بأنه المجدد لنهج السنة القويم.

انظر في هذا: Ivan, Ibid, p. 220

(٧) J. R. Willis, "Jihad Fi Sabil Allah", J. A. H., VIII, 3 (1967), p. 400.



إلى احتمال تأثره بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية التجديدية في الجزيرة العربية مباشرة خلال إقامته في الحجاز، أو عن طريق التجار والحجاج الذين نقلوا فكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحي إلى غربي إفريقيا. وكلا الأمرين محتمل، وربما تأثر بالحركات الإصلاحية الإسلامية الجهادية التي سبقته في المنطقة أو عاصرتها، مثل حركة الشيخ عثمان بن فودي والحاج عمر الفوتي. ويرى شاتلر - Le Chatelier<sup>(١)</sup> - والجنرال فيدهيريبي<sup>(٢)</sup> - الحاكم السابق للسنغال من قبل الاستعمار الفرنسي - والكولونيل فري<sup>(٣)</sup> أنه تأثر بالسنوسية خلال تجواله ورحلاته في منطقة وادي. ولا توجد مصادر أخرى تؤكد هذا الزعم. ويبدو أن هذه المزاعم تنطلق من انعكاسات الخوف العام وسط الإدارة الاستعمارية الفرنسية والجمهور الفرنسي من حماس الطريقة التجانية للجهاد الإسلامي بالمنطقة.<sup>(٤)</sup>

عندما عاد محمد الأمين إلى ماسينا من حجة، رحب به حاكمها التجاني - ابن أخت الحاج عمر الفوتي - وتصادق الرجلان. وبعد قضاء زمن قصير في حمد الله - عاصمة ماسينا - واصل محمد الأمين سفره إلى سيفو - عاصمة أحمد بن الحاج عمر الفوتي - خليفة الدولة العمرية، ومكث بها إلى ربيع عام ١٨٨٥م / جمادى الآخرة ١٣٠٣هـ.<sup>(٥)</sup> وتتفق كل

---

(١) L' Islam dans L' Afrique Occidentale, p. 216.

نقلاً عن: Hrbek, op. cit., p. 213

(٢) Faidherbe, Le Senegal, pp. 447-48.

نقلاً عن: Hrbek, Ibid.

(٣) Frey, Campagne, p. 243.

نقلاً عن: Ibid وانظر كذلك ممن رجح الأثر السنوسي: Oloruntimehin, p. 85, 87، وذكر مسوغات ذلك الترجيع ص ٨٧.

(٤) Hrbek, Ibid.

(٥) Ibid, p. 228; Clarke: West Africa and Islam, p. 146; Oloruntimehin, op. cit., p. 86.

المصادر على أن السبب في طول هذا المكث هنا يرجع إلى عداء أحمد، الذي وضع مشايخ الساراكولي تحت المراقبة في قرية بالقرب من سيغو تسمى «سلام» أو «ياسلام». وعلى الرغم من أن دليل سبب العداء غير مؤكد، إلا أنه غالباً ما يكون بسبب خوف أحمدو من الأثر المتنامي للشيخ محمد الأمين، ولما ظهر عليه من الكرامات.<sup>(١)</sup> ويذكر جاتيلر<sup>(٢)</sup> أن محمد الأمين أعلن بصراحة أنه الخليفة الروحي للشيخ الحاج عمر الفوتي، وشجب علانية المظاهر المريبة لحياة أحمد الخاصة.<sup>(٣)</sup> وتقول روايات أخرى أن أحمد أراد قتل محمد الأمين منذ البداية، ولكن أقنعه طلبته بالامتناع عن هذا، ويقال إن أحمد حاول عدة مرات اغتيال محمد الأمين في السنوات التالية عندما كان الأخير يقيم بقرية سلام، ولكن فشلت جميع تلك المؤمرات. وتقول الأساطير المحلية إن هذا من كرامات وبركات الشيخ محمد الأمين.<sup>(٤)</sup> ولا نعرف كيف نجح في النجاة من الاغتيال، ولكن يبدو من المحتمل أن له طلاباً ذوي نفوذ في حاشية أحمد.<sup>(٥)</sup> وكان لما أشيع عنه من كرامات وبركات الأثر الكبير في استقطاب الأنصار، خاصة من بين قومه الساراكولي.<sup>(٦)</sup>

جاء محمد الأمين إلى مكة، وهو مملوء بالحماس لمبادئ الطريقة التجانية التي شهد بداية نشاطها على عهد الحاج عمر، وظن أنه سيجدها قد أصبحت

---

(١) P. B Clarke: West Africa and islam, p. 146.

(٢) Le Chatelier, op. cit., p. 217.

نقلاً عن: Hrbek, op. cit., p. 213

(٣) Clarke, West Africa and Islam, op. cit., p. 146.

(٤) Campagne, op. cit., pp. 256-60; Rancon, "Le Bondou, Frey, pp. 112-114.

نقلاً عن: Ivan, op cit., 214

(٥) Ivan, Ibid; Clarke, op. cit., p. 146.

(٦) Ibid., P.B. Clarke: West Africa and Islam, p. 145; Oloruntimehin, p. 85.



فتية مزدهرة، ولكن وجد العكس، وجد أن جهادها ضد الكفار كاد أن يتوقف تماماً، وأن الجهود العسكرية قد وجهت ضد أفراد أسرة الحاج عمر نفسه، وأصبح التورودبي مجرد طبقة حاكمة تنظر إلى المجموعات العرقية الأخرى على أنها مجرد رعايا خاضعة ودافعي ضرائب. وفرغت الطريقة من مضامينها الدينية. ومن البدهي أن يتقد محمد الأمين علانية هذا الحال الذي وصلت إليه الطريقة، وأن لا يقبل أحمد هذا الانتقاد من هذه الشخصية القوية المؤثرة التي اشتهرت بالورع والتقوى، وأن يسعى لحجزه عنده ليكون تحت مراقبته الدقيقة لعدة سنوات.

ليس من الغريب أن يجلب موقف أحمد هذا كراهية هذا الشيخ الساراكولي تجاهه وتجاه جماعته العمرية، خاصة أن محمد الأمين يدعي بأنه القائد الروحي والزماني للطريقة التجانية بغربي إفريقية كما ذكرنا.<sup>(١)</sup> ويبدو أنه منذ فترة إقامته الجبرية بقرية سلام، بدأ يفكر في إمكانات الانتفاضة ضد طبقات التورودبي الحاكمة، وإنشاء جماعة دينية خاصة به، واقتنع بعدم إمكانية تطبيق أو تحقيق خطته في مركز الجماعة العمرية، من دون حلفاء. ولذا انتظر فرصة مغادرة «سلام» والانتقال إلى خارج دائرة نفوذ أحمد الفوتي. واستخدم في تلك الفترة التجار الديولا الساراكولي كرسل إلى مختلف دول الساراكولي: كاميرا وجوديماخو وجوي وديافنو وبوندو. وبدأ ينتشر صيته في هذه البلاد والمناطق.<sup>(٢)</sup>

---

(١) انظر كذلك: Clarke: West Africa and Islam, p. 146

(٢) Rancon, "Le Bondou", p. 115.

نقلاً عن: Ivan Hrbek, op. cit., pp. 214-215.

وانظر كذلك: Oloruntimehin: Sengambia - Mahamadou Lamin, p. 88.

وقرر أحمد مغادرة سيفو إلى نيورو بإقليم كآرتا، واتخذها عاصمة له في نهاية عام ١٨٨٤م، ليكون قريباً من منطقة التمرد الذي قاده ضده أخوه محمد مونتجا.<sup>(١)</sup> واستغل محمد الأمين هذه الحادثة فغادر «سلام» في وقت ما أثناء ثلاثة الشهور الأولى من عام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م.

وإذا كان الأمير مدني بن أحمد الفوتي، الذي كان يكن احتراماً وتقديراً للأمين قد منحه الإذن بذلك أو غادر من تلقاء نفسه، فليس ذلك أمراً ذي بال.<sup>(٢)</sup>

قابل المستعمرون الفرنسيون نبأ خروجه من سلام بارتياح شديد، وذلك لما علموه من موقفه من أحمد الفوتي ومن التورودبي وموقفه المعلن تجاه الفرنسيين، ولذا رحبوا به عندما ظهر في قلعة باماكو الفرنسية في الأول من يونيو عام ١٨٨٥م، وأذنوا له بأن يسافر بحرية في المناطق التابعة لهم،<sup>(٣)</sup> إلى أن وصل قريته جوندورو Gundiuru في مطلع يوليو من عام ١٨٨٥م. وزار القلاع الفرنسية التي قي طريقه.<sup>(٤)</sup> ولعله أراد بهذا معرفة مواقع عدوه وقوتها. واستقبله السكان المحليون وسكان المناطق الأخرى بكل حماس، وجاءته الوفود من كثير من قرى مناطق خاسو وجادياقا وجويدماخا، حاملة إليه كثيراً من الهدايا من شخصيات مختلفة المراكز السياسية والاجتماعية والدينية. وكسب شهرة واسعة وسط جميع قطاعات الشعب لما عرف عنه من كرامات وبركات

---

(١) Olorunitmehin, Ibid, p. 87.

(٢) Rancon, op. cit., p. 115; Frey, Campagne, op. cit., p. 263.

نقلًا عن: Ivan, Ibid, p. 215، وانظر: Clarke, op. cit., p. 146

(٣) Ivan Hrbek, Ibid., p. 215; Clarke, op. cit., p. 146; Hargreaves, J. D. : West Africa Partitioned, pp. 65-66; Oloruntimehin, op. cit., p. 88.

(٤) Clarke: W. A. and Islam, Ibid., p. 146.

وسعة علم. وأبدى له سامبالا، حاكم خاسو، وإخوته، تبجيلاً حقيقياً.<sup>(١)</sup>  
ولم يبد في هذه الفترة أي شعور معادٍ للفرنسيين،<sup>(٢)</sup> ليصرف أنظارهم عن  
أهدافه الحقيقية.<sup>(٣)</sup>

مكث الأمين في جوندورو لنحو شهرين متمتعاً بتمجيده كحاج،  
وملاحظاً للتغيرات التي حدثت على الصعيد السياسي منذ مغادرته هذه البلاد  
إلى مكة قبل ثلاثين عاماً.

وإذا كان له من قبل بعض خططه الخاصة للإصلاح، فقد حان الوقت  
ليصوغ تلك الخطط على أرض الواقع، ويكسب الأنصار، وينظر في ردود فعل  
الفرنسيين تجاه خططه.

وحاول دي برايسي De Brissay، قائد مقاطعة المدينة، عدة مرات أن  
يعرف أكثر عن النوايا المستقبلية لمحمد الأمين، أثناء شهري يوليو وأغسطس/  
تموز وآب، ولكنه لم يعرف أكثر من أنه عدو لأحمد عمر الفوتي.<sup>(٤)</sup>  
وكان الأمين يتتهز كل فرصة لإعلان وفائه وإخلاصه للفرنسيين وعدائه  
لأحمد عمر الفوتي،<sup>(٥)</sup> ونواياه لاستغلال نفوذه لغرس فكرة السلام والعدالة وسط  
أتباعه ومواطنيه. ووصل به الأمر لتطمين الفرنسيين تجاه نواياه، بأن كتب في نهاية  
أغسطس من عام ١٨٨٥م/ نحو نهاية ذو القعدة ١٣٠٢هـ رسالة متواضعة إلى  
سيجناك - لسنز Seignac-Lessens، الحاكم الفرنسي للسنغال آنذاك، يكرر له

---

(١) Ivan Hrbek, Ibid., p. 215.

(٢) Clarke: West Africa and Islam, op. cit., p. 146.

(٣) Oloruntimehin, op. cit., p. 88.

(٤) A. N. S (Archives Nationale du Senegal, Dakar) 15G50, Commdt. Cercles to Commdt,

نقلًا عن: (Ivan, Ibid., p. 215) Houry to Governor, 7 sept. 1885; A. N. S. ID 81, Medine, 8 July 1885;

(٥) Hargreaves: West Africa Partitioned, op. cit., p. 66; Oloruntimehin, op cit., p. 88.

فيها الكلام عن خطته المسالمة،<sup>(١)</sup> وأعاد إلى كايز Kays عدداً من الهاربين الذين لجؤوا إلى جوندورو<sup>(٢)</sup>. واتصل بسامبالا، ملك مديني Medine، الذي كان منذ عام ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م صديقاً دائماً وحليفاً للفرنسيين ضد التوكولور. وقام سامبالا بدوره بالتأكد للفرنسيين على النوايا والميول السلمية للشيخ محمد الأمين تجاههم.<sup>(٣)</sup> بدأت الصورة تتغير في سبتمبر/ أيلول: استهل الأمين استعداداته الدبلوماسية والعسكرية بإرسال الرسل إلى مختلف بلاد الساراكولي وإلى بوندو، وبشراء كميات من البارود وتجنيد الأنصار المسلحين. أثارت هذه الأنشطة شكوك السلطات الفرنسية، التي أخذت تلح في طلب توضيح لهذا. ودهشوا عندما أجابهم بأنه نوى خوض جهاد ضد قرية جامون التي يعاديه سكانها، وطلب الإذن بالشروع في هذا الأمر، ورفض الميجور هوري - القائم بأعمال القائد الأعلى لأعالي النهر - بصراحة إذناً رسمياً للأمين، وأبدى دهشته في أن يلجأ شخص مثل الشيخ الأمين إلى تجنيد القوات وشراء السلاح والبارود في إقليم خاسو من دون إذن سامبالا - حليف الفرنسيين -. وأضاف: «إذا رغب الشيخ الأمين في بدء حرب فعليه أن يخرج من المنطقة الواقعة تحت الحماية الفرنسية».<sup>(٤)</sup>

وعندما علم الأمين بعدم رغبة الفرنسيين في التحالف معه ضد أحمد عمر الفتوي، قرر أن يتبع خطة أخرى، وهي الجهاد ضد الكفار. ولا توجد إشارة إلى الجهاد ضد أحمد الفتوي على الرغم من رأيه فيما وصلت إليه

(١) Clarke, W. A. And Islam, op. cit., p. 146; Ivan, Ibid; Hargreaves, Ibid, p. 66; Oloruntimehin, Ibid.

Ivan, Ibid. (٢)

Oloruntimehin, Ibid. (٣)

A. N. S. ID 79/21, Houry to Governor, 15 Sept. 1885 (٤)

نقلاً عن: Ivan, Ibid.

الطريقة التجانية على عهد تورودبي أحمد، ويصعب إقناع أنصاره بحربهم. لقد وقف المؤرخون كثيراً عند تصرف الأمين الغريب، إذ كيف يطلب زعيم مثله من الفرنسيين غير المسلمين أن يسمحوا له بالجهاد ضد غير المسلمين، البمبارا<sup>(١)</sup> أو البريطانيين<sup>(٢)</sup>. والذي يبدو لنا أن الأمر لا يخلو من تكتيك سياسي، فلعله يريد أن يطمئن الفرنسيون إليه فيقفوا على الحياد حتى يتمكن من تقوية مركزه ليناطحهم في الوقت المناسب. وقد كشفت الأيام عن هذه الخطة.

ولأنه كان حذراً أيضاً من الشعور العدائي لأبي بكر سعدة - إمام وحاكم بوندو - تجاه جامون، فقد كتب إليه الأمين طالباً الإذن في عبور أراضيه. وإذا كان قد سمح له إمام بوندو بذلك أم لا، ففي الأمر خلاف. وأخيراً منح الكولونيل فري - القائد الجديد لأعالي النهر - إذناً للأمين بالجهاد ضد تندا جامون، وكتب إلى المسؤولين الفرنسيين في المنطقة بأن يسمحوا له بالتحرك بحرية في أراضيهم ليدعو إلى الجهاد ويكسب الأنصار، ومنحه سيفاً كرمز لرضائه عنه<sup>(٣)</sup>. واستقبله شعب الساراكولي بحرارة في كل مكان ذهب إليه ليدعوهم فيه إلى مساندته، وحاول بعض المسؤولين الفرنسيين عرقلة أنشطته، ولكن دون جدوى، لأن غالبية الناس كانت قد اقتنعت مسبقاً بقيادته. وكانت الانتكاسة الوحيدة هو ما واجهه في إير Aere ودامقا Damga، حيث وجد معارضة من التورودبي، الذين خشوا من نتائج عدائه لأحمد الفتوي.

(١) Ivan, Ibid, pp. 216-17; Clarke: W. A. and Isl., op. cit., p. 146.

(٢) Ivan, Ibid, p. 218.

(٣) Ivan, Ibid., pp. 218-19.



وصل الأمين إلى قرية بالو Balu في نهاية العام، وأنشأ فيها قاعدته ومركز قيادته. (١)

لقد كان نجاحه مثيراً. ففي خلال ستة شهور فقط، أصبح من مجرد شيخ مغمور، جاء حديثاً إلى بلاده بعد غياب طويل دام ثلاثين عاماً، أصبح القائد الزمني المعترف به وسط معظم شعب الساراكولي ما بين فوتاتورو وكايز. وأقرب تفسير لهذه الظاهرة هو شخصيته القيادية الفذة، حيث تصفه المصادر بالذكاء وحلاوة الحديث والقدرة على كسب الانتصار.

وساعده في هذا النجاح أيضاً أوضاع الساراكولي السائدة والبائسة في المنطقة وشهرته كحاج وولي صاحب كرامات كما ذكرنا.

وعادة ما تصفه المصادر الفرنسية المعاصرة والحديثة بـ«النبى»، وأحياناً بـ«النبى المزيف»، أو «المهدي». (٢) وهي أوصاف درج الاستعمار الفرنسي وغيره بإطلاقها على قادة الحركات الإصلاحية في إفريقيا عامة، مثلما فعلوه مع الشيخ محمد بن عبدالله حسن الصومالي، الذي سموه بهذه الأوصاف وغيرها، مثل: الشيخ المجنون - The Mad Mula (٣) - أما الأمين فقد وصف نفسه بعدة أوصاف حسب المقام، منها أمير المؤمنين والمجدد وشيخ الشيوخ. (٤)

---

A. N. S. 13 G 186/68. Report of Commdt Bakel on the affairs of Mahamadu Lamine, 13 (١) Jan. pp. 217, 228... etc.

نقلاً عن: Ivan Ibid., p. 219

(٢) Rancon, "Le Bondou", pp. 107, 114, 127; Frey: Compagne; Sabtier, "Le Senegal," pp. 217, 228 ("Faux prophete"), M. Delafosse, G. Hanotaux, and A. Martines, Histoire des Colonies Francaises et de l'Expansion de la France dans le-Monde, Vol. IV, by Delafosse, P. 168: " il Seproclame Mahdi"; Frey, p. 274: "Il prend Letitre de Mahdi.."

نقلاً عن: Ivan, Ibid, 220, Note No. 49.

(٣) انظر: Jardine Douglas: The Mad Mullah of Somaliland. London, 1923, p. 39.

(٤) انظر: Clarke, p. 147.



ومما لاشك فيه أن لقب أمير المؤمنين أو شيخ الشيوخ قد أثار رد فعل مضاد في فوتاتورو، وذلك لما يحمله من إشارات إلى عدم الاعتراف بهم كزعماء طريقة أو دين أو دولة.

استغل الأمين الأوضاع السياسية بدولة بوندو للقضاء عليها وإقامة دولته الإسلامية، الإصلاحية، على أنقاضها.

ففي ١٨/١٢/١٨٨٥م / ١٢/٣/١٣٠٣هـ، توفي بوكار سعدا Bokar Saada إمام بوندو، وخلفه أخوه عمر بندا في ١٥/١/١٨٨٦م / ٣٠/٣/١٣٠٣هـ. وكان عمر شيخاً عجوزاً شبه أعمى، ومسلوب السلطة الفعلية. وكان يتشاجر مع أخيه أبي بكر سعدا وآخرين. وعاش معزولاً في بولوبين Bulebane. وعلى الرغم من أنه لاشك في حقه الشرعي في الخلافة، إلا أن هناك معارضة صامتة قامت ضده. ووقف على رأس المعارضة عثمان جاسي، الابن الأكبر لأخيه بوكار سعدا. وكان أكثر قدرة على الإدارة من غيره، وكان النائب الفعلي لوالده أثناء حياته، وأثبت جدارته ومواهبه في عدة مناسبات. ولأنه الثامن في سلسلة من يستحقون الخلافة، فالأمل مفقود في أن يتولى السلطة تحت ظروف عادية، وعليه فقد قرر أن يتبع سياسة الانتظار والمقاومة السلبية، تاركاً الإمام الجديد بلا سند، سامحاً لاتباعه بالقيام بالدعاية لصالحه. ولم يكن وحده في هذا الميدان، فكل فرع من أسرة السيبي تمنى موت بوكار ليحصلوا على درجة عالية من الاستقلال والحصول على جزء أكبر من دخل الضرائب. وكاد الانشقاق أن يكون كاملاً داخل الأسرة، فالكمل يصارع من أجل مصلحته الخاصة. ومن هذه النقطة وإلى الأمام، لم تعد بوندو عاملاً سياسياً خطيراً في منطقة السنغال الأعلى.<sup>(١)</sup>

---

(١) Faidherbe, Le Senegal, p. 416

نقلاً عن: Ivan, Ibid, pp. 221-22.

وعندما علم الساراكولي بجوديمكا وديافونو بتخطيط أحمد الفوتي لغزوهم، قبلوا بسرعة أن يكون الأمين حاكماً عليهم، وأن يكون ابنه سويو حاكماً على ديافونو، وجاء الناس بأعداد كبيرة للانضمام إلى الأمين.<sup>(١)</sup>

ظل الأمين يراقب باهتمام من قاعدته ببالو تطورات الأوضاع في بوندو. وكان معه في مطلع عام ١٨٨٦م/ نهاية ربيع الأول ١٣٠٣هـ نحو مئتي رجل مسلح، ولكنه كان في انتظار وصول تجريدات عسكرية من كل محافظات الساراكولي. وأرسل مبعوثين إلى عمر طالباً منه الإذن بعبور أراضيه للوصول إلى جامون، وذلك فور سماعه بتنصيب الفرنسيين عمر بندا إماماً في الخامس من يناير عام ١٨٨٦م. وكان جواب عمر تهريباً في البداية، ولكن عندما كرر الأمين الطلب رفض عمر الإذن، وأعلن أنه سيقابل أي محاولة للأمين في عبور أراضيه بمقاومة مسلحة؛ ويرجع سبب هذا الموقف إلى خوف عمر من أن يتحالف الأمين مع بعض خصومه والإطاحة به، وأن يحل محله. وأخذت قوات الأمين في الازدياد أثناء ذلك، إذ جاءت الانتصار من كل مكان. وبلغت قواته أكثر من ألفي مجاهد مسلح مع نهاية الشهر. وازدادت مخاوف عمر بندا من هذا الجيش الساراكولي العرمرم، فتحرك عمر من بوليبيين Bulebane إلى جابو Gabu ليكون قريباً من باكل. وطلب مساعدة ومشورة حلفائه الفرنسيين. ولم يكن قائد مقاطعة باكل في موقف يسمح له بالمساعدة الفعالة المطلوبة، ولكنه ساند الإمام في قراره بعدم السماح للأمين بالمرور عبر أراضيه، وأن الخطوة الوحيدة التي يمكنه اتخاذها هو أن يطلب من الأمين مغادرة أراضيه ومنعه من اتخاذها قاعدة لجيشه. فعل هذا في ٢٥/١/١٨٨٦م/ ٢٠/٤/١٣٠٣هـ،

---

(١) Oloruntimehin, op. cit., p. 89.

عندما زار بنفسه بالو - قاعدة الأمين، وأمره بالمغادرة فوراً، ودعا الذين جاؤوا من جوي Guoy المجاورة أن ينفضوا من حوله ويعودوا إلى قراهم.<sup>(١)</sup>

أما مجرى الأحداث في الأيام التالية، فكان على النحو التالي:

غادر الأمين وجيشه مركزهم ببالو في السادس عشر من يناير، طبقاً للأوامر الصادرة إليه من الفرنسيين، فتحرك ببطء جنوباً في اتجاه سنيودبو Senudebu. وكان هناك نشاط دبلوماسي محموم في اللحظات الأخيرة، حيث وصل إلى بالو عثمان جاسي وبصحبه أحد أبناء عمر بندا للتفاوض مع الأمين. وعبر الأمين حدود بوندو بعد يومين من هذا، وأرسل إلى عمر بندا طلباً جديداً بالإذن لعبور أراضيه في اليوم الأول من فبراير/ شباط. ووقع أول اصطدام بين الساراكولي وقوات عمر بندا بالقرب من قرية ديام ولي Diamweli. وهزمت قوات عمر وهرب الإمام إلى باكل عبر بيوليين، ومن هنا، إلى دامجا، باحثاً عن مساعدة عند البو باكر (عبدالله أبو بكر). وسقطت بيوليين في يد الأمين بعد قتال شرس، ودخل الأمين سنيودبو، دون أن يلقي أي مقاومة، وجعل مقره هذه القلعة القديمة.

كانت هذه الأيام القليلة ذات أهمية قصوى في جميع مستقبل الأمين الجهادي والإصلاحي.

بدل هذا النصر غير المتوقع كل مشاريع الأمين تبديلاً عميقاً؛ فتخلى عن

---

(١) Ivan, Ibid, p. 222، نقلاً عن: A. N. S 13 G 240/80.

ويبدو أن الأمين لم يرد الاصطدام بالفرنسيين في هذه المرحلة من خطته، فرجل في ذكائه وفطنته لابد أن يقدر عواقب عصيان أوامر الفرنسيين الذين هم في مركز قوة، ولهم حلفاء من المسلمين والوثنيين بالمنطقة، ولا يمكن أن يخوض الأمين حرباً في عدة جبهات في وقت واحد، وهو في أول مراحل جهاده المسلح.

انظر: Oloruntimehin, op. cit., p. 88.

فكرة الجهاد ضد جامون، وبدأ في تحويل بوندو إلى نواة لدولة الساراكولي<sup>(١)</sup> الإسلامية الإصلاحية، ثم الانطلاق منها لتحريرهم من الأجانب.<sup>(٢)</sup>

وهرب كثير من التورودبي من قراهم إلى فيرلو أو إلى المناطق المجاورة لباكل. وبدأ الأمين في توطين شعوب الساراكولي في هذه القرى المهجورة.<sup>(٣)</sup>

وزاده هذا الانتصار شهرة، فأخذت الناس تتدفق عليه للإسهام في الجهاد، فوصل جيشه إلى نحو خمسة آلاف مقاتل. وحاول أهل جويدماخا Guidimakha وديافوندي Diafundi أن يحثوه على بدء الحرب ضد أحمد الفوتي، ولكنه شعر بأن جيشه ليس بالقوة الكافية لهذا العمل. وفي أثناء هذا هاجمت خياله القرى المجاورة لباكل، حيث لجأ عثمان جاسي وقواته إليها.

وأكد الأمين في رسائله إلى الفرنسيين على صداقته لهم، وأشار إلى مسوغات أن يكون في مكان عمر الفوتي، ومن تلك المبررات أنه سوف يحافظ على أمن المنطقة، مما يؤدي إلى ازدهار التجارة، وفي هذا مصلحة رئيسة للفرنسيين.<sup>(٤)</sup> وشاطره في هذا المنطق بعض الضباط الفرنسيين، أمثال هوري Houry، ولكن للسياسة الفرنسية العليا السائدة مبرراتها وأسبابها في عدم مساعدة الأمين. فهي ترى أن الشيخ في مركز قوة ونفوذ، ولا يمكن السيطرة عليه مثل عمر بندا، الذي يعتمد كثيراً على قوة الفرنسيين، وكانت السياسة الفرنسية تحذر

(١) Clarke: West Africa and Islam, op. cit., p. 147.

ومن مصادره:

Mahamadou Lamine to Governor, translated: 24 Sept. 1886; text in Nyambarza, Loc. cit., pp. 141-2.

(٢) Frey: Campagne, p. 273

نقلاً عن: Ivan, Ibid, p. 225

وانظر: Boniface: The A. Factor, op. cit., p. 471. وعن مسألة الروح القومية الساراكولية

ضد الأجانب في نظرهم وخاصة التوكولور، انظر مثلاً: Oloruntimehin, op. cit., pp 85-86.

(٣) (Ivan Ibid, p. 22)، نقلاً عن: Rancon, op. cit., pp. 125-6.

(٤) نقلاً عن:

ANS 15 G 51, 20 Feb 1886 (Ivan, Ibid, p. 225): Hargreaves: West Africa Partitioned, p. 66.



من مبادرة الأمين بالعداوة. (١)

وكانت جميع حسابات الأمين الظاهرة تجاه الفرنسيين خاطئة؛ فالفرنسيون ليسوا على استعداد للسماح بقيام دولة إسلامية جديدة تقع على خطوط مواصلاتهم إلى النيجر، وكرهوا كرهاً شديداً فكرة مواجهة قوة ثالثة - إضافة إلى قوة ساموري التوري والقوتي - ذات نفوذ وقوة. ورأوا أنه من الخطورة بمكان أن يترك لتحقيق أهدافه وآماله، وأن من الضروري سحبه قبل أن يستفحل أمره. وأن صعود نجم الأمين يشكل تهديداً خطيراً لكل خططهم السياسية والاستراتيجية. (٢)

ونتيجة لهذا الموقف الفرنسي المتصلب تجاه الأمين، كان لا بد من وقوع الصدام بين الجانبين. وكان أول صدام بينهما هو تصدي الأمين لتجريدة عسكرية فرنسية وهزيمتها بالقرب من كونجيل Kungel في منتصف شهر مارس/ آذار. وبدأ هجوماً على باكل بعد أسبوعين من هذا التاريخ، وكانت باكل أقوى قلعة فرنسية بالمنطقة. وبذلك مس الأمين نقطة فرنسية حساسة، ألا وهي هبة ومقام فرنسا. ومن هذه اللحظة ولاحقاً فلا رجعة ولا حل آخر غير الاستسلام غير المشروط للفرنسيين أو هزيمته الساحقة. ومن ثم بدأت الحرب الضروس، واستمرت إلى نهاية ديسمبر من عام ١٨٨٧م، وانتهت بالهزيمة الساحقة والنهائية للشيخ الأمين وموته ببلدة انجوجو - سوكونتا، بالقرب من نهر جامبيا<sup>(٣)</sup>، بمقاطعة نياني، واحتز الجنود رأسه وقدموه إلى السلطات الفرنسية كتذكاري ودليل على موته. (٤)

---

(١) (Ivan, Ibid, p. 225)، نقلاً عن: ABS/ 15 G51/221, 2 March 1886.

(٢) (Ivan, Ibid, p. 226; Clarke: W. A. and Islam, op. cit., p. 147.

(٣) (Ivan, Ibid, p. 226; Boniface: The African Factor., op. cit., p. 472, 473.

ومصدر بونفيس هو:

Frey to Governor of Senegal, Feb. 2, 1886, and Feb. 28, 1886. ANSOM, Senegal IV/84/b.

وانظر أيضاً: Hargreaves: West Africa Partitioned op. cit., p. 66.

(٤) Clarke: West Africa and Islam, op. cit., p. 47; Boniface, op. cit., p. 473.

وقد أوردت كثير من المصادر التاريخية أحداث الحرب بين الأمين والفرنسيين. ومما ذكر بهذا الصدد، باختصار: قطع الأمين خطوط التلغراف الفرنسية، وأحرق وحاصر القرى الصديقة للفرنسيين، ليكون ذلك درساً لمن تحدّثه نفسه من الجيران بالتعاون مع الفرنسيين، وطرد قوة الكابتن خولي. وهاجمت القوات الفرنسية بقيادة الكابتن فيرات والليفتنانت رودت قرية الأمين في ١٣ مارس عام ١٨٨٦م، يوم عيد الميلاد<sup>(١)</sup>، عندما كان يقود الثورة من خارجها. وقبضوا على أسرته وأخذوها أسيرة إلى مداين Medine. وكان بينها زوجته الأثيرة موسو، التي رافقته في رحلة حجه. ولكنهم عاملوا أسرته معاملة حسنة.<sup>(٢)</sup> وكان رد فعل الأمين على هذا الاستفزاز الفرنسي أن قام في أبريل/ نيسان من العام نفسه باحتلال منطقة جوي Guay، وكثف هجماته على المراكز الفرنسية في المنطقة.<sup>(٣)</sup> وحتى الأهالي الذين استخدمهم الفرنسيون ظلوا أوفياء للأمين، وتجنسوا على الفرنسيين لصالحه، ومثال ذلك: ألفا سيقا، المترجم بمحطة باكل الفرنسية، الذي كان يعطي معلومات مضللة للفرنسيين عن تحركات الأمين. وعندما اكتشف أمره أطلقوا عليه النار في الميدان العام بياكل في السادس من أبريل عام ١٨٨٦م<sup>(٤)</sup>، ليكون عظة لغيره. وهزم فري قوات الأمين في عدة معارك.<sup>(٥)</sup> ولكن الهزيمة التي لحقت

(١) A. S. Kanya - Forstner: The Conquest of the Western Sudan, p. 145.

(وهذا المرجع هو الذي جاء فيه ذكر الهجوم يوم عيد الميلاد)

(٢) Frey, Campagne, op. cit., pp. 283-84.

(٣) ANSOM: In Senegal IV, 84, (b) Commandant Supérieur a Gouverneur, St. Louis, 18 April 1886.

نقلًا عن (د. عبدالله عبدالرزاق إبراهيم: المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقية، ص ١٣٨.

(٤) Ivan, Ibid, p. 299 (نقلًا عن: Boniface, op. cit, 473)

Hargreaves: West Africa Partitioned, op. cit., p. 66.

(٥) نقلًا عن: Duboc, Epopee, pp. 114-115 (Boniface, Ibid, p. 473)



بهم عند تامباكانو أفقدتهم الكثير من الرجال، وهرب كثيرون من الميدان. وتسبب هذا في نقص ملحوظ في قوات الأمن، فلجأ مع رجاله إلى داخل ديانا Diana بالقرب من الحدود السيرالونية. (١)

ولم تؤد هذه الهزيمة إلى سحق قواته تماماً، فكان على القائد جاليني Gallieni أن يواصل الصراع ضده إلى أن قضى عليه. (٢) واعترف الفرنسيون بعثمان جاسي بن بوباكر سعدا حاكماً على بوندو، بشرط أن ينخرط جميع قومه في التجارة مع الفرنسيين. (٣)

هكذا نلاحظ من خلال سير أحداث هذه الحركة أنها لم تدم طويلاً، لأنها جاءت في وقت بلغت فيه حمى الاستعمار قمته بمؤتمر برلين عام ١٨٨٥م، والذي قضى بحق الدول الأوروبية في استعمار إفريقيا. ولذا وقفت فرنسا بالمرصاد لهذه الحركة حتى قضت عليها. ولكنها لم تقض على الروح الإسلامية التي أججت في المنطقة، وكان ذلك سبباً من أسباب المقاومة الإسلامية العنيفة ضد الاستعمار إلى أن رحل عن المنطقة.

وهكذا كان كلما خَبَتْ نار حركة من الحركات الإسلامية بهذه المنطقة، اشتعلت نار حركة أخرى، لتعطي الإسلام دفعة أخرى قوية إلى الأمام. وسنقف على آخر مثال لهذه الظاهرة، وهي حركة أحمد بامبا.

---

(١) ANSOM, Senegal IV/85/ a. Frey, Rapport, June 22, 1886.

نقلاً عن: (Boniface, Ibid)

(٢) Boniface, Ibid, p. 473; A. S. Kanya - Forstner The Conquest of the Western Sudan, pp. 146-47.

(٣) Oloruntimehim, op. cit., pp. 96-106.

وقد اعتمد المؤلف على مصادر أصيلة في سرد تفاصيل هذه الحرب، ولعله أفضل مرجع في هذه الدراسة.

## المطلب الحادي عشر: حركة الشيخ أحمد بامبا (١٢١٧-١٣٤١هـ)

كان الشيخ أحمد بامبا ابناً لشيخ ولوفي صغير من سلف التورودبي. ولد ببلدة أمباكي السنغالية، واختار له والده اسم محمد، ثم سماه والده بعد ذلك بـ«أحمد بامبا»، تيمناً باسم شيخ درس والده على يديه العلوم الدينية.<sup>(١)</sup>

قضى أحمد بامبا معظم سني طفولته في دراسة مكثفة للقرآن الكريم والتفسير والشريعة الإسلامية. وكان والده موموار أنتسالي شيخاً معلماً، رحل من بلده أمباكي M'Backe، التي أسسها جد بامبا: أمبالا أمباكي، إلى إقليم سالوم Salum. وهنا تزوج مامور أنتسالي أخت لات دايور، حاكم كابور وقائد المقاومة الإسلامية المشهورة ضد الوجود الاستعماري في المنطقة، وأصبح مربياً لأبناء الشيخ مابا دياخو، الذي قاد مقاومة عنيفة ضد الفرنسيين لعدة سنوات. وساعد لات دايور في جهوده لجعل كابور دولة إسلامية. وكان أحمد بامبا في هذا الوقت منكباً على الدراسات القرآنية. درس على يدي أخواله، الذين كانوا علماء في الدراسات القرآنية، وحفظ القرآن في سن مبكرة، وبعده قراءات، وأعترف له المتعلمون من قضاة إقليمه بأنه عالم متقن للشعر الديني.<sup>(٢)</sup>

مات مامور أنتسالي بعد عودته إلى بلدة أمباكي نحو عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م. وكان عمر أحمد بامبا آنذاك ثلاثين عاماً، واشتهر بالعلم والصلاح والتقوى. وعرض عليه منصب القضاء والإمامة بامباكي مكان والده، ولكنه رفض هذا العرض، متعللاً بحجة أنه لم يكمل دراساته بعد، وأنه لا يرغب في

(١) Greevey, Lucy E.: Ahmad Bamba, in: Studies in West African Islamic History, Vol. I, P. 278.

(٢) Ibid، ومصدره:

Muhammad al-Mustafa An: Hayat al-Shaykh Ahmad Bamba, Vol. I (Dakar, 1960).

وانظر:

Behram, Lucy: Muslim Brotherhoods, op. cit., P. 28.

المناصب الشرفية الدنيوية. وبقي بدلاً عن ذلك عالماً ومعلماً بسيطاً. وذهب بعد هذا مباشرة إلى سانت لويس، حيث التحق بالفرقة القادرية بوساطة الحاج كامارا، مقدم القادرية في المنطقة. ولم يلب هذا رغبته للمعرفة الدينية، و لذا سافر إلى موريتانيا ليلتحق بالقادرية على يد الزعيم القادري المشهور الشيخ سديا. ثم عاد إلى بلاده بعد فترة، وأنشأ قرية سماها طيبة بإقليم باول Baol، على بعد بضعة كيلومترات من مدينة امباكي. ثم ما لبث أن اتخذ لنفسه طريقة دينية خاصة به، لا تختلف كثيراً عن القادرية، وكان ذلك في سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م<sup>(١)</sup>، عرفت بـ«المريدية».

كان بامبا مسلماً ملتزماً بمبادئ الإسلام الأساسية، وملماً بالمبادئ الأساسية لعقيدة أهل السنة والجماعة. ويجد المتبع لأشعاره وتفسيره الكثيرة أنه لم يخرج عن مبادئ الإسلام الرئيسة، ولم يكن مهرطقاً. واتخذ لنفسه ورداً من القرآن والسنة خاصاً به، متخلياً بذلك عن الورد القادري. ودرست مجموعة صغيرة من أتباعه على يديه أو على أيدي شيوخ آخرين متعلمين من أتباع فرقته، درسوا شيئاً من اللغة العربية وأهم كتب الفقه المالكي والتفسير، وأضحوا شيوخاً في المستقبل.

لقد نشأ الشيخ بامبا في وقت دخل فيه كثير من شعب الولوف في الإسلام، وكان أهم ما يحتاج إليه هذا الشعب في هذا الوقت بالذات أن يجد قادة من بين صفوفه أكثر مما هم من صفوف مشائخ التورودبي الذين حاولوا إدخال حكامه الوثنيين في الإسلام بالقوة في السنين السابقة. فالفرقة المريدية كانت جماعة ولوفية، قادها رجال من الولوف، ولذا تمكنت من أن تجتذب

---

(١) Clarke, P.B: West Africa and Islam, op. cit., P. 203.

إليها كثيراً من المسلمين الجدد من بين صفوف الشعب الولوفي، وأسهمت كذلك في إدخال الإسلام بمجتمع السيرير<sup>(١)</sup>. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد في نجاح الفرقة المريدية، بل هناك أسباب رئيسة أخرى تجدر الإشارة إليها، وهي:

أولاً - ترمز الفرق الدينية إلى معارضة السيطرة الاستعمارية. ولا ينفرد السنغال بهذه الرمزية، بل هي ظاهرة في كثير من الحركات والفرق الإسلامية بإفريقية، مثل حركة الشيخ الحاج عمر الفتوي.

ثانياً - لابد من الاعتراف بأن الانجذاب نحو الفرقة المريدية كان يمثل فرصة جديدة لتعبير العناصر الساخطة على الأوضاع من مختلف المستويات الاجتماعية داخل الولوف عن سخطهم. ولم تتبع القطاعات الاجتماعية الدنيا وحدها الفرقة المريدية لتجد مراكز جديدة، فبالإضافة إلى ذلك، انضمت بعض أفراد مجموعات النبلاء السابقين إلى هذه الفرقة ليعزروا من سلطاتهم ونفوذهم اللذين همشهما الفرنسيون.<sup>(٢)</sup>

إن السبب الثالث، وربما الأكثر أهمية فيما يختص بالانجذاب الولوفي القوي نحو الفرق الدينية الإسلامية، هو قيام هذه التنظيمات بدور البدائل أو التعزيزات للنظام التقليدي المنهار. فقد تأثر النظام الاجتماعي الولوفي بعمق بوصول المستعمرين، إذ كان للولوف نظام دولة متطور جداً، ونظام اجتماعي متصل بعقائدهم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم. فحطم مجيء الفرنسيين نمط الحياة الولوفية، وأجبروهم على البحث عن وسائل وطرق أخرى لتبديل أو تعزيز طرق حياتهم القديمة. وأدخل الفرنسيون عناصر جديدة على نمط الحياة،

---

Ibid. (١)

Ibid, p. 205. (٢)

مما أدى إلى التحدّي والتقليل من شأن القيم والعادات القديمة. ووقع الاضطراب في كل أنظمة الولوف الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية إثر تحطيم قوة الحكام الولوف.<sup>(١)</sup>

ونتيجة لهذه العوامل والأسباب وغيرها، أصبح الولوف لا يشعرون بالأمان، ومن ثم أخذوا بالبحث عنه لدى الفرق الدينية في هذه الفترة، لأن هذه الفرق أعطت البدائل عن النظام الولوفي المنهار، وذلك لما يتمتع به قادتها من ذكاء ومقدرة. فقد تمكنوا من تنظيم حياة أتباعهم<sup>(٢)</sup>، وبذلك منحوهم الأمان المنشود، وطبعوهم على نمط حياتي جديد في العمل. وكان لشخصية بامبا القوية أثرها في تحقيق الترابط والقوة المطلوبة بين الأتباع؛ فقد اشتهر بالذكاء وقوة الحجة وحيوية التحرك وسط مجتمعه لنشر الفكر الإسلامي الصحيح، والحفز على العمل الجاد والتعلم<sup>(٣)</sup>. ونسبت إليه عدة كرامات، رفعت من مكانته بين العوام<sup>(٤)</sup>. وهذه الظاهرة سائدة وسط كل زعماء الفرق الدينية بإفريقية، وهي دعاوى باطلة.

وأنشأ بامبا ما يعرف بالدارات *daras*، أي المراكز التعليمية، حيث يدرس أتباعه فيها قراءة وتلاوة القرآن الكريم وبعض مباحث الشريعة الإسلامية ومبادئ اللغة العربية.<sup>(٥)</sup>

رأى الفرنسيون في نشاطه والتفاف الناس حوله وأثره في أتباعه خطراً

---

(١) Ibid., p. 203, p. 205.

(٢) Lucy, E. Greevy: Ahmad Bamba, op. cit., pp. 283-5.

(٣) Clarke, op. cit., pp. 203-4.

(٤) Behram, Lucy: Muslim Brotherhoods, op. cit, p. 17.

(٥) Clarke, op. cit., p. 205.



على وجودهم في المستقبل إذا سارت الأمور على هذا المنوال. وزادت الإشاعات من شكوكهم حوله، ولذا سلطوا الجواسيس والخصوم القدامى لمراقبة تحركاته لمعرفة نواياه الحقيقية تجاه الفرنسيين. وعلى الرغم من أنهم لم يثبتوا عليه أي عمل مضاد لهم إلا أنهم تحايّلوا على نفه مرتين إلى خارج المنطقة. نفوه في المرة الأولى إلى الجابون عام ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م، ثم أعادوه سنة ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م، ونفوه في المرة الثانية إلى موريتانيا، عام ١٣٢١هـ / ١٩٠٣م، ثم سمحوا له بالعودة إلى بلاده عام ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م. وكانت محاولات نفه سبباً في ازدياد أتباعه، وليس تقليصاً لأعدادهم، كما كان يريد ويظن المستعمر.<sup>(١)</sup>

وأخذت الإدارة الفرنسية في تجربة شتى أنواع وأساليب المضايقات للشيخ أحمد بامبا حتى لا يزداد حجم جماعته ويقوى أثره ويهدد وجودهم. ومن تلك المضايقات الأخرى - إضافة إلى النفي - عدم السماح له بالعودة إلى قريته طيبة إثر عودته الثانية من المنفى، ولذا أقام في بلدة لوقا Louga بأقصى الشمال السنغالي. وعندما أنشأ هنا مدرسة إسلامية، أغلقتها السلطات الفرنسية عام ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م، خوفاً على أنفسهم من آثارها المستقبلية، ولشكهم في نواياه تجاههم. وأخيراً سمحوا له بالإقامة في بلدة ديوربل Diourbel بإقليم باول عام ١٣٣١هـ / ١٩١٢م. وأخذت السلطات الفرنسية منذ هذا الوقت تغير سياستها نسبياً تجاهه، مما جعل فرقته تتمدد بسرعة أكبر عبر جميع البلاد السنغالية. ويرجع سبب هذا التحول النسبي في هذه السياسة الجديدة إلى رؤيتهم بأن هذه الفرقة يمكن أن تؤدي دوراً سياسياً واقتصادياً إيجابياً هاماً بالنيابة عنهم. فانطلاقاً من سياسة الامتصاص التي اتبعها الفرنسيون، كانوا بحاجة ماسة إلى زعماء أقوياء وأصحاب مكانة عالية في قومهم ليقوموا بدور معين في نظام

---

Ibid. (١)



حكمهم اللامركزي . ووقع أحمد بامبا وفرقته في فلك هذه السياسة . وإضافة إلى هذا أصبح من الواضح أن الدارات أو المزارع الجماعية التابعة للفرقة المريدية أدوات ذات قيمة كبيرة للتوسع في رقعة الاقتصاد المعتمد على زراعة الفول السوداني . فقد قطعت هذه الفرقة شوطاً بعيداً في اعتماد أفرادها على أنفسهم اقتصادياً عندما نشطوا جداً في زراعة الفول السوداني . وأدى هذا النشاط مع غيره من أنشطتهم إلى الإسهام في تخطيط النظام الأسري الولوفي التقليدي القديم ، واقنع الإدارة الفرنسية بأهمية هذه الفرقة في تطوير البلاد اقتصادياً لمصلحتهم .

وردت تقارير إلى الإدارة الفرنسية بذاكار ، بحلول عام ١٣٣١هـ / ١٩١٢م ، من قبل موظفي هذه الإدارة ، الذين كانوا في السابق معادين للشيخ أحمد بامبا ، تفيد بأن الشيخ قد بدأ في تبني سياسة إيداء حسن النوايا تجاه الإدارة الفرنسية ، وذلك عندما ساعد في تجنيد قوات عسكرية محاربة من أهل البلاد للوقوف مع الفرنسيين في الحرب العالمية الأولى . وبناء على هذه المساعدة وغيرها من المساعدات الأخرى ، عين الشيخ أحمد بامبا مستشاراً للجنة الشؤون الإسلامية عام ١٣٣٥هـ / ١٩١٦م ، ومنح عام ١٣٣٥هـ / ١٩١٦م لقباً شرفياً ، وهو لقب "نبيل" أو "فارس" في الجيش الفرنسي ، اعترافاً بمساهمته في الحرب العالمية الأولى . وقدمت له ميدالية ذهبية في هيئة صليب ، ولكنه رفضها بحجة أنها رمز نصراني لا يليق بشيخ مسلم . ولم تكن هذه المساعدة العسكرية للفرنسيين دلالة على أنه أصبح موالياً لهم ، وهم يعرفون هذا تماماً ، وكتب إداريوهم في هذا عدة تقارير .

لم يكن في نية أحمد بامبا استخدام العنف لإزالة النظام الاستعماري الفرنسي ، لأنه يرى أنهم أقوياء ، ولذا اتبع سياسة سلمية معهم ، ومحاولاً تجنب قومه مؤثراتهم السلبية الإفسادية .

وظلت المريدية في تمدها ونموها بعد وفاة مؤسسها الشيخ بامبا عام ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م. وعندما نالت البلاد السنغالية استقلالها عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م، كان عدد أفرادها نحو نصف المليون.<sup>(١)</sup> وتقول إحصائية عام ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م أن عدد أتباعها بلغ ٤٢٣٢٧٣ فرداً. وهي ثاني أكبر الفرق أتباعاً بغربي إفريقيا - أي الثانية بعد التجانية.<sup>(٢)</sup> وتعتبر أكثر الفرق الدينية نشاطاً وقوة وأثراً بالسنغال، ولها أتباع متشرون في كثير من بلدان غربي إفريقيا غير السنغال.

إن سلسلة رجال الإصلاح والدعوة والجهاد بغربي إفريقيا لا تقف عند هذه الكوكبة التي ذكرناها، بل تتعداهم إلى غيرهم، مثل حركة الشيخ محمد الجيلاني (١١٩١-١٢٥٦هـ / ١٧٧٧-١٨٤٠م) الطوارقي ببلاد الهوسا<sup>(٣)</sup>، والشيخ أحمد ولوبو بماسينا (١٢٣٤-١٢٧٩هـ / ١٨١٨-١٨٦٢م)<sup>(٤)</sup>، وألفا مولو الفولاني بفامبيا عند نهاية القرن التاسع عشر<sup>(٥)</sup>، والشيخ حياتو بن سعيد بادماوا ببلاد الهوسا (١٢٩٦-١٣١٦هـ / ١٨٧٨-١٨٩٨م)<sup>(٦)</sup>، وجبريل جايني في جومبي ببلاد الهوسا (١٣٠٣-١٣٢٠هـ / ١٨٨٥-١٩٠٢م)<sup>(٧)</sup>، وساموري التوري بسنغامبيا في العقد الأول من القرن ١٤هـ / ثمانينيات القرن ١٩م<sup>(٨)</sup>، وغير هؤلاء ممن تركنا الإشارة إليهم على سبيل الاختصار.

(١) Ibid., p. 203.

(٢) Greevy, Lucy E.: Ahmad Bamba, op. cit., p. 278.

(٣) Clarke, op. cit., pp. 123-28.

(٤) Ibid., pp. 128-31.

(٥) Ibid., pp. 142-43.

(٦) Ibid., pp. 120-21. - وهو حفيد الشيخ عثمان بن فودي.

(٧) Ibid., pp. 121-22.

(٨) Ibid., pp. 137-40.



## المبحث السادس



## الأثر الحضاري الإسلامي للحركات الإصلاحية الإسلامية

على الرغم من سرعة اختفاء بعض هذه الحركات والسلطنات الإسلامية الجهادية الإصلاحية التي أنشأها الشيوخ العلماء المجاهدون في القرن (١٣هـ/ ١٩م) بغربي إفريقية، إلا أن هذا الجهاد قد ترك أثراً كبيراً في حياة شعوب هذه المنطقة. فمن الناحية السياسية أدخل قطاعات معتبرة تحت سلطان دول مترامية الأطراف، تذكر بأمجاد دولة غانة ومالي وسنغي الإسلامية. فجهاد الشيخ عثمان بن فودي تمخض عن قيام دولة مساحتها نحو ١٨٠.٠٠٠ ميل مربع، وتمخض جهاد الشيخ حمد بماسينا عن قيام دولة مساحتها نحو ٥٦.٠٠٠ ميل مربع، بينما تمخض جهاد الحاج عمر الفوتي عن قيام دولة مساحتها ١٥٠.٠٠٠ ميل مربع، وإلى حد كبير، وفي إطار هذه الدول، أو على الأقل في إطار دولتي الشيخ عثمان بن فودي والشيخ حمد، فإن ذلك يعني استعادة استتباب الأمن والنظام ووجود الحكومة الفعالة على منطقة واسعة، مما أدى بدوره إلى اتساع نطاق التجارة المنظمة.

وكانت سلطنة ماسينا أكثر هذه الدول تنظيماً. أما سلطنة سوكوتو، فعلى الرغم من قيامها على «كونفدرالية» رخوة، ذات استقلال ذاتي، تدين فيه بالولاء لسلطة سوكوتو، فقد استطاعت أيضاً أن تحقق قدراً من سيادة القانون والنظام. وقد أعجب المكتشفون والرحالة الأوروبيون الذين دخلوا هذه الدولة بالأمان الذي سادها. ويختلف الأمر بالنسبة لدولة الحاج عمر الفوتي، إذ توفي قبل أن يرسى دعائم نظام إداري متين، ولم يكن لابنه الذي خلفه في الحكم



كفاءة لسد الفراغ، وأدى هذا الوضع إلى فتن داخلية وإخلال بالأمن، مما مهد الطريق لتدخل الاحتلال الأجنبي الفرنسي.

ومن الناحية الدينية، أدى هذا الجهاد إلى اعتناق كثيف للإسلام من قبل الوثنيين، بينما قوى من جهة أخرى إسلام المسلمين أصلاً. ففي شمالي نيجيريا - مثلاً - فإن مناطق مثل بوشي وأدماوا دخلت لأول مرة في منطقة النفوذ الإسلامي. وفي أقصى الغرب أدّت حروب وحكم الشيخ حمد في ماسينا إلى اعتناق كثيف وراسخ للإسلام.

أما في دولة الحاج عمر الفوتي فإن الأمر قد اختلف بدرجة معينة، حيث إنه، على الرغم من تحقيق الدخول في الإسلام بشكل مكثف، رجع الناس - خاصة البمبارا - إلى ممارستهم بعض التقاليد الوثنية إثر وفاة الشيخ عمر وسقوط الدولة بعد ذلك بقليل، وذلك لأن كثيراً من الناس قد دخلوا في الإسلام رهبة لا رغبة.

ومما يعد جانباً سلبياً في حركة الحاج عمر الفوتي في ميدان الدعوة الإسلامية هو أن الحاج عمر لم يفرق بين الوثنيين والمسلمين الذين لا يتمون إلى الطريقة التجانية، فإن تعصبه لطريقته التجانية أكسبه عداء كثير من المسلمين، خاصة عداء أولئك الذين يتمون إلى الطريقة القادرية، وهذا مما يفسر لنا سبب عدم مناصرتهم له، وتعاطفهم مع الفرنسيين. وحتى دولتا سوكونو وبورنو ظلتا في حالة عداء، واستحال التعاون بينهما حتى للوقوف في وجه الاستعمار الغربي الزاحف على البلاد.

ومن الناحية الاجتماعية، كانت هذه الحركات ذات طابع ثوري، وتمكنت من إسقاط الأنظمة الأرستقراطية، ليحل محلها مجموعات جديدة كانت ضمن المجموعات ذات الحقوق المهضومة في المجتمع. ومثال ذلك أن الشعب

الفولاني بصفة خاصة، والذي كان من ضحايا الظلم الاجتماعي خلال القرون السابقة لجهادهم، أصبحوا أرسقراطية المستقبل.

ومن الناحية الثقافية، أسهمت هذه الحركات الجهادية في إحداث ثورة ثقافية كبرى. ومن جوانب هذه الثورة ما قام به زعماء الجهاد الفولاني ببلاد الهوسا من كتابات لتبرير جهادهم ضد أعدائهم المسلمين وغير المسلمين. وكان للشيخ عثمان بن فودي وابنه محمد بلو وأخيه عبدالله بن فودي القدح المعلى في هذا الجانب، وكذلك الشيخ عمر الفوتي، ولكن كان إسهامه أقل من إسهام آل فودي.



## المبحث السابع



## مواقفهم في المحن

لم تخل صفحات التاريخ من تسجيل دور ملحوظ للعلماء في مجريات الأحداث القاسية التي اجتاحت بلادهم على فترات مختلفة من التاريخ. وماداموا هم الطبقة المستنيرة فليس من الغريب أن يكونوا هدفًا لتكاثرات الأرزاء، وتتكرر عليه النصال على النصال في كل محنة.

ولم يكن العلماء يحصرون أنفسهم بين الدواة والقلم، بل شاركوا الشعب فيما يحس من حلو ومر، ودافعوا عن حقوقه التي كان أبسطها أن يجنبوه مواطن القهر والظلم.

ومن أشهر مواقفهم السياسية الجماعية تكتلهم مع أسكيا محمد إثر وفاة سني علي، الذي سمعنا رأيهم فيه على الصفحات السابقة. لقد حالوا دون تولية ابن سني علي السلطة مكان أبيه، فانتصر عليه أسكيا محمد، واجتيزت المحنة وأوقفت الفتنة، وسارت السفينة إلى بر الأمان، وترجع على عرش سنغي أعظم سلاطينها على الإطلاق. وخلاصة الأمر أنه عندما احتدم النزاع بين أسكيا محمد وأبي بكر بن سني علي أرسل العالم محمد تل الشريف إلى سني أبي بكر يدعو إلى الإسلام، وهو يومئذ ببلدة تسمى «أنفع»، ولكنه أبي وأغلظ القول للعالم الرسول وهم بقتله لولا تدارك العناية الإلهية<sup>(١)</sup>. وبعد ذلك أرسل أسكيا محمد العالم صالح جور إلى غريمه، فلم يزد ذلك إلا عتوا ونفورا<sup>(٢)</sup>. وفي المرة الثالثة جمع أسكيا محمد أهل مشورته وعلى رأسهم

---

(١) الفتاوى، ص ٥٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.



العلماء وشاورهم فيما يفعل، فكان الرأي أن يرسل إليه مرة ثالثة، وامثل أسكيا محمد للأمر وأرسل أحد العلماء للمرة الثالثة؛ وكانت النتيجة أن شمع عدوه بأنفه وطلب حسم الأمر بالمنازعة في ساحة الوغى، وأن تكون الدائرة على من يهزم. وتم له ما أراد، وطاشت سهامه وكانت الدائرة على ابن سني علي.<sup>(١)</sup> وكان العلماء يفتون في أمر الجهاد ضد المعتدين وخاصة الاعتداء من قبل القبائل الوثنية. ولم يكتفوا بالإفتاء، بل كانوا يخرجون مع الجيش لنيل شرف الجهاد. وخير مثال لذلك أنه عندما كثرت غارات قبائل موسي وأراد أسكيا الحاج محمد ملاقاتهم، وكان معه الفقيه مور صالح جور، نصح هذا العالم السلطان أسكيا محمد بأن يجعل هذه الحرب جهادا في سبيل الله، فلم يخالف أسكيا الرأي لا سيما بعد أن بين له الفقيه مور صالح كل أحكام الجهاد الإسلامي. وفي ضوء هذه الفتوى والتوضيح طلب أسكيا محمد من الفقيه المذكور أن يكون رسولا بينه وبين سلطان موسي، فقبل التكليف وأدى المهمة على أكمل وجه.<sup>(٢)</sup>

أما خير مثال للعلماء الذين ماتوا في المعارك الحربية والجهادية، فالفقيه أبو محمد عبدالله بن السيد الإمام أبي محمد عبدالجليل بن عمر البرناوي. لقد مات هذا العالم في موقعة حربية وقعت بين الطوارق وأهل مدينة كمبر من بلاد غربي إفريقيا سنة ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م<sup>(٣)</sup>. ويقول ابن الطيب<sup>(٤)</sup> عن هذا الفقيه: «هو البحر المحيط في العلوم التوحيدية والفهوم الكلامية». ويفهم من

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥٤-٥٥.

(٢) تاريخ السودان، ص ٧٢.

(٣) نشر الثاني، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٦.

هذا النص أن الشيخ عبدالله لم يكن بالرجل الهين، بل كان من أهل الحزم والعزم الذين لا يهابون مواجهة أتون الحرب والحتوف، فكان بحق رب السيف والقلم. وهناك أمثلة أخرى تدل على خطورة العلماء، أوضحها موقفهم من الاحتلال المراكشي لدولة سنغي. فعندما قدم القائد المراكشي إلى تنبكت، هادن العلماء في البداية حتى بايعوا السلطان المراكشي، ولكن عاد القائد المراكشي للمرة الثانية في سنة ١٠٠٢هـ / ١٥٩٤م وادعى طلب تجديد البيعة للسلطان في مسجد سنكري. وعندما احتشدت الجموع، سكرت الأبواب، ووقف الرماة عليها وامتطوا سطح المسجد، ووضحت النية وانكشف الغطاء عن مخطط رهيب أعدته السلطات المراكشية لاعتقال الصفوة من العلماء الذين يخشى بأسهم وأثرهم. ونفذت خطة الاعتقال وسبق أفراد أسرة أقيت العلمية وبعض الجماعات الأخرى أسارى إلى مراكش، ولم يترك حتى النساء والأطفال<sup>(١)</sup>، ومات منهم من مات في هذه المحنة في الطريق إلى المغرب<sup>(٢)</sup>. ويقول ابن المختار<sup>(٣)</sup> في هذا الحادث الأليم: «فكان من أمر الله ماكان مما لاينبغي ذكره ولا يحتمل القلب جلب ماكان هناك وسرد أقاصيص قبض القاضي عمر وإخوته، فإننا لله وإنا إليه راجعون».

لقد كان ما وقع تصفية مقصودة لجيوب المعارضة السياسية ذات الثقل في المجتمع التنبكتي خاصة ومجتمع سنغي عامة. وكانت تضحياتهم أعظم لعظم دورهم في التوجيه الديني والسياسي. وعانت تنبكت من جراء هذا معاناة شديدة إلى الحد الذي جعل صاحب الفتاش<sup>(٤)</sup> يبالغ في وصفها بعد رحيلهم

---

(١) تاريخ الفتاش، ص ١٧٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧٦.

عنها، فيقول: «ولما أجلاهم القوم وارتحلوا صارت تنبكت جسما بلا روح، وانعكست أمورها وتغير حالها وتبدلت عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها، وساد أراذلها على عظمائها، وباعوا الدين بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى، وعطلت أحكام الشريعة وأميتت السنة وأحييت البدع وما بقي فيها من يتمسك بالسنة ولا من يسير على منهج التقوى في ذلك الوقت سوى محمد بغيغ بن أحمد وحده..». ولكن لم تدم هذه المראה وهذا التشاؤم عند ابن المختار إذ نلاحظ أنه يقول في نهاية كتابه: «وغرائب تنبكت وعجائبها يومئذ لا تدخل تحت حصر ولا يحيط بها حفظ حافظ، ثم جبر الله كسر تنبكت وكثر قراؤها وأدباؤها من كوكي إلى جن، وجمع شملها وأقامها أتم قيام، وعمرها وأفاض الله البركة في برها وبحرها في أوائل دولة جيش مولانا أحمد، وأكثر الخير فيها حتى كاد الناس ينسون دولة سنغي»<sup>(١)</sup>.

ولم يختلف دور العلماء في كانوا عما كان عليه في مالي وسنغي؛ فقد كانوا هم الذين يقومون بإبرام اتفاقيات الصلح بين دولتهم والدولة المحاربة، كما حدث - مثلاً - في عهد السلطان شيكارو (١٠٥٩ - ١٠٦١هـ / ١٦٤٩ - ١٦٥١م) عندما أمضى اتفاقية الصلح مع كاتسينا ثلاثة من العلماء هم الشيخ عثمان والمعلم باوا والإمام ياندويا<sup>(٢)</sup>.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٨١.

(٢) K. C. P. 86.

## المبحث الثامن



## وسائل كسب العيش

لم يكن هناك مبدأ ثابت حول أجور العلماء الذين يقومون بالتدريس، وظل الخلاف قائماً بين العلماء حول أجر المعلم. وقد عالج الدكتور شلبي<sup>(١)</sup> هذا الموضوع بإسهاب. وعامة، فقد كان هناك من يقوم بالتدريس لوجه الله، ومنهم من يتقاضى أجراً من التلاميذ والطلاب، أو يعتمد على الهبات التي تصل إليه من الحكام.

وقد كان الحال هكذا في غربي إفريقيا. إذ كان الكثير من العلماء يعملون لوجه الله، إلا أن العادة قد جرت بأن يتلقى بعض المدرسين المحتاجين جريات وإعانات من تبرعات الأوقاف أو من الطلاب.<sup>(٢)</sup>

ويذكر ابن المختار<sup>(٣)</sup> أن معلم الصبيان، «علي تكريا»، كان يتلقى من تلاميذه جُعلاً منتظماً كل يوم أربعاء في كُتَّابه بعد صلاة الظهر. وتتفاوت قيمة هذا الجعل من تلميذ إلى آخر، فمنهم من يدفع خمس ودعات<sup>(٤)</sup>، ومنهم من يدفع عشرة. ويسمى هذا الجعل عند أهل سنغي بـ«الأربعاء»<sup>(٥)</sup>. وحصل هذا المعلم في يوم من الأيام الأربعاء على خمسة وعشرين وسبعمئة وألف ودعة من تلاميذه.<sup>(٦)</sup>

ويمنح المعلم في بلاد الهوسا أيضاً هدية معينة بما يتناسب ومقدرة كل

---

(١) التربية الإسلامية، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٣٣-٢٣٧.

(٢) قدام، ص ١٤٢.

(٣) تاريخ الفتاش، ص ١٨٠.

(٤) مفردتها ودعة، وهي العملة المستعملة في غربي إفريقيا في ذلك الوقت.

(٥) في الأصل «الأربع» ولعلها كتبت بالعامية أو خطأ من الناسخ. ولا نستبعد أنها كتبت بالعامية التي

نسربت إلى هذا المصدر وغيره من مصادر حضارة غربي إفريقيا الإسلامية.

(٦) تاريخ الفتاش، ص ١٨٠.



ولي أمر تلميذ. فلربما يكون مبلغا من المال عند نهاية كل فترة دراسية معينة، أو شيئا من الماشية<sup>(١)</sup>. وعموما فهي هدايا طوعية وليست إلزامية.<sup>(٢)</sup>

كان المعلمون يتلقون، بجانب ما يجود به آباء التلاميذ، ما يعينهم على الحياة من الحكام. وكان من الحكام من يعطي أعطيات سخية للعلماء. ويحفظ لنا ابن المختار بعض الروايات المتعلقة بهذا الجانب. ومن ذلك أن أحد سلاطين سنغي منح أحد الشيوخ العلماء مزرعة أرز ليعيش من ريعها<sup>(٣)</sup>. واشتهر آسكيا الحاج محمد بسخائه للعلماء، فبذل لهم الأعطيات النقدية والعينية.<sup>(٤)</sup> وعم كرمه حتى أهل الحرمين بالحجاز، فأقام في الحرمين الأحباس للمجاورين وطلاب العلم.<sup>(٥)</sup>

واشتهر بهذه الخصلة في العطاء من بعد آسكيا محمد، السلطان آسكيا داود، الذي كادت هداياه تشمل حتى بذل الكتب من مكتبته العامرة<sup>(٦)</sup>. وحكي عنه أنه أهدى ذات عام حصاد إحدى مزارعه البعيدة عن العاصمة إلى علماء وطلاب المكان الذي كانت فيه المزرعة<sup>(٧)</sup>. وأهدى إلى الفقيه محمود كعت ما يمكنه من تجهيز بناته الأربع وأولاده الخمسة، واشترى له نسخة من كتاب القاموس بثمانين مثقالا<sup>(٨)</sup> من الذهب، وقام بكسوة بعض تلاميذه.<sup>(٩)</sup>

---

(١) Meek, The N. T. N., op. cit., p.9.

(٢) Ibid, p. 5.

(٣) الفتاش، ص ١٣٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٧) المصدر نفسه، ص ٩٥.

(٨) مثقال الذهب يساوي ستة غرامات.

(٩) المصدر السابق، ص ١٠٨-١٠٩.

واشتهر بالسخاء للعلماء من بعد آسكيا داود، السلطان آسكيا إسحاق، حتى قال عنه صاحب الفتاش<sup>(١)</sup>: «بلغ غاية في التصدق والعطاء، وكان محبا للعلماء...».

وقد درج الحكام الإقليميون في دولة سنغي على بذل العطاء للعلماء الذين يحتكون بهم في مناطقهم، وكانت المناسبات القومية والدينية فرصة كبرى لأن يحصل فيها العلماء على مكاسب مادية تعينهم على الحياة.<sup>(٢)</sup> ووجد مثل هذا السخاء تجاه العلماء في بلاد الهوسا أيضا،<sup>(٣)</sup> وفي بلاد البرنو كما رأينا.

أما غير هذا، فقد كان بعض العلماء يجمع بين التجارة وممارسة التعليم<sup>(٤)</sup>. والمثال لذلك الفقيه يحيى التادلسي<sup>(٥)</sup>. وقد تعرضنا لهذا النوع من الجمع في الفصل الأول من هذه الدراسة.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٠.

(٣) See, M. A. Al-Hajj, op. cit., p. 11, 4; Hunwich, Source Materials, op. cit., pp. 584-585.

(٤) Meek, N. T. N., op. cit. p. 8.

(٥) تاريخ السودان، ص ٥٠.



## المبحث التاسع



## برنامج الدراسة اليومي

كانت الدروس تستمر في معاهد غربي إفريقية النهار كله لا تنقطع إلا وقت أداء الصلاة<sup>(١)</sup>. وكان بعض الأساتذة يدرسون في الليل على نور الحطب المشتعل الذي يتبرع به الطلاب<sup>(٢)</sup>. وقد أعطانا السعدي نموذجاً حياً لبرنامج تدريس يومي لعالم من علماء تنبكت، وهو الفقيه محمد بغيغ، وقال نقلاً عن أحمد بابا التنبكتي مانصه: «فأدرسته أنا - أحمد بابا - يقرئ من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبيرة دولا مختلفة، ثم يقوم لبيته ويصلي الضحى مدة، وربما مشى للقاضي في أمر الناس بعدها، أو يصلح بين الناس، ثم يقرئ في بيته وقت الزوال ويصلي الظهر بالناس ويدرس إلى العصر، ثم يصلحها ويخرج لموضع آخر يدرس للاصفرار أو قربه، وبعد المغرب يدرس في الجامع إلى العشاء ويرجع لبيته، وسمعت أنه يجيء آخر الليل على الدوام<sup>(٣)</sup>.  
ويبدو أن أسلوب الدراسة هو الذي يجعل العالم يكابد مثل هذه المشقة؛ فقد درج العلماء في ذلك الزمان على ألا يلزموا الطلاب الاشتراك جميعهم في درس واحد من فن من الفنون، بل ترى العالم يدرس عشرة من التلاميذ الألفية، فبعضهم يقرأ من أولها وبعضهم يقرأ من وسطها والبعض الآخر يقرأ من آخرها؛ ويلقي العالم لكل واحد منهم درسه من موضعه الذي هو فيه. وهكذا في بقية الفنون<sup>(٤)</sup>.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٢) قدام، ص ١٤٢.

(٣) تاريخ السودان، ص ٤٥.

(٤) انظر: الوسيط، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩١.





## المبحث العاشر



## أساليب التدريس

استمد العلماء أكثر أساليب التدريس من طرق تلقي الحديث النبوي الشريف - الرواية - وهي الطريقة السائدة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت. وأهم هذه الأساليب:

١ - أسلوب التلقين : كان يتبع هذا الأسلوب مع المبتدئين من التلاميذ. يقوم المعلم هنا بتكرار الدرس على تلاميذه إلى أن يتأكد من حفظهم. ويكون الدرس بالنسبة للمبتدئين في حفظ القرآن الكريم عادة<sup>(١)</sup>. وما زال هذا الأسلوب متبعاً عندنا في السودان العربي النيلي. وقد علمت أنه أسلوب عام في كل البلاد الإسلامية حتى اليوم.

٢ - أسلوب الكتابة : يكاد يكون هذا الأسلوب متوازيًا مع أسلوب التلقين. فهو الطريقة الثانية من طرائق حفظ القرآن. ووضفه أن يكتب التلميذ القدر المقرر من القرآن على اللوح نقلاً من مصحف أو جزء أو إملاءات من المدرس أو العريف. وقد شاع هذا الأسلوب في كل بلدان العالم الإسلامي.<sup>(٢)</sup>

٣ - أسلوب العرض : وهذا هو الأسلوب في تلقي الحديث، ويسمى: «القراءة على الشيخ» وصورته أن يقرأ الطالب على الشيخ من حفظه أو من كتاب، ويتابعه الشيخ معتمداً على حفظه أو مقابلاً على أصل الكتاب الذي يقرأ الطالب منه<sup>(٣)</sup>. وتلي هذه المرحلة مرحلة الحفظ مباشرة.<sup>(٤)</sup>

(١) انظر: رحلة ابن جبير، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١.

(٢) انظر: د. عبدالعزيز أمين، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

(٣) انظر: د. سليمان عطية: تاريخ التعليم في فلسطين في عهد سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٢٧٩.

(٤) المكان نفسه.

٤ - أسلوب الشرح : وهو قراءة الطالب على الشيخ نصا من كتاب ، فيقوم الشيخ بشرح النص والتعليق عليه بما لديه من معلومات حول الموضوع من شروح أخرى ، وأحيانا يقرأ الشيخ النص المكتوب ويقوم بشرحه لتلاميذه .

٥ - أسلوب الإملاء : وهو مستمد من طريقة السماع عند رواية الحديث ، وكثر أتباعه ، خاصة في دروس الحديث النبوي الشريف ؛ فيدون الطالب في كراسته ما يمليه عليه الشيخ ، ويحق له أن يروي ما يدونه عن شيخه ، وربما أعطي إجازة علمية بجواز الرواية<sup>(١)</sup> ويوجد أيضاً ما يشبه الإملاء غير المباشر ، ومثلما يحدث اليوم في قاعات المحاضرات بالجامعات ، بأن يتكلم المحاضر فيدون الطالب بطريقته الخاصة الفكرة التي تصدر عن الأستاذ .  
وقيد طلاب محمد أقيت بهذا الأسلوب ملاحظاته وأخرجوها في سفرين ذاع صيتهما في البلاد .<sup>(٢)</sup>

٦ - أسلوب المراسلة : وهو في الأصل من أساليب رواية الحديث ، ووصفه أن يكتب الشيخ بعض كلامه لمن حضر عنده أو لمن غاب عنه ويرسله إليه<sup>(٣)</sup> ، غير أن المدرسين تصرفوا في هذا الأسلوب حتى أصبح من أساليب التدريس الناجحة ، فمن ذلك أن يرسل الطالب إلى أستاذه البعيد عنه يستفتيه فيما أشكل عليه من مسائل العلم والأدب ، فيجيبه عنها خطياً . وقد رأينا نموذجاً لهذا الأسلوب التعليمي عند أحمد بابا ، عندما راسل الشيخ يحيى بن محمد بن محمد بن عبدالرحمن الخطاب المكي<sup>(٤)</sup> ، المتوفى بعد سنة ٩٩٣هـ / ١٥٨٤م ، وعبدالواحد بن محمد الشريف الحسيني الفلالي

(١) انظر: نيل الابتهاج، ص ٨٢، ١٨٢، عطية، المصدر نفسه .

(٢) نيل الابتهاج، ورقة ٣٢٣ .

(٣) عطية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٩ .

(٤) نيل الابتهاج، ورقة ٣٣٩ .

المراكشي، المتوفى سنة ١٠٠٣هـ / ١٥٩٥م.<sup>(١)</sup> وقد مارس هذا الأسلوب كثيرون غير أحمد بابا، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: أبا عبدالله محمد بابا بن محمد الأمين ابن حبيب الذي راسل الفقيه محمد الونكري وأفاد من هذه المراسلة.<sup>(٢)</sup>

---

(١) المصدر نفسه، ورقة ١٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٣.





## المبحث الحادي عشر



## الإجازة العلمية

كان نظام العنونة ضروريا ومتبعاً في رواية الحديث، ومازال كذلك، ولم يكن المدرس يجزئ على رواية الأحاديث دون سند، وللدقة في ذلك كان المحدثون منذ عهد مبكر يعطون طلابهم والذين يتلقون عنهم شهادة بما رويوا لهم من أحاديث، ويجوزون لهم روايتها عنهم<sup>(١)</sup>. ثم انتقل هذا من الحديث إلى سواه من العلوم الأخرى. فإذا ثابر الطالب على الاستماع لأمالي الشيخ في الأدب أو التاريخ أو غيرهما، أو لشرح يقوم به المدرس لكتاب ما، وتأكد المدرس من استفادة الطالب، كتب له شهادة على الورقة الأولى أو الأخيرة من الكتاب يقول فيها مثلاً: «أتم فلان قراءة هذا الكتاب... وأجزت له تدريسه...» ويعين الكتاب المدرس اتجاه ثقافة الطالب إن فقهاً أو أدبياً أو غيرهما، ويعين إلى حد كبير درجة هذه الثقافة، إذ تتفاوت الكتب من حيث العمق والتفاصيل تفاوتاً يجعل من اليسير أن تعرف درجة الثقافة من معرفة عنوان الكتاب أو عناوين الكتب التي قرأها الطالب ونال عليها شهادات. ويمكن أن يحصل الطالب على إجازة في موضوع ما في حين يظل طالبا بالنسبة لموضوع آخر.<sup>(٢)</sup>

وكانت هذه الإجازة في كثير من الوجوه بمنزلة نتيجة الامتحان الذي يمنح بموجبه الطالب شهادة تدل على مستواه العلمي دون تأدية امتحان معين، ووثيقة تمكن الطالب من استخدام كتب أستاذه التي درسها معه، وكذلك المحاضرات التي أخذها عنه.<sup>(٣)</sup>

---

(١) د. شلبي، التربية، ص ٢٦٣.

(٢) المكان نفسه.

(٣) وانظر: أسماء فهمي، مرجع سبق ذكره، ١٢٧.

وكان الغرض من الإجازة مزدوجاً، فهي اعتراف بحقوق المؤلف، وإقرار بكفاءة الطالب<sup>(١)</sup>. وهي لا تحمل عنوان معهد معين، وإنما شهادة شخصية من الأستاذ لتلميذه، مما يبين مركز الأستاذ في ذلك العهد<sup>(٢)</sup>، وعلى أنه كان في شخصه معهداً علمياً متحركاً.

والإجازة نوعان: كتابيه وشفهية<sup>(٣)</sup>. وهي ثلاثة ضروب<sup>(٤)</sup>:

١ - أن يقول الراوي للطالب: خذ هذا الجزء فإنه من حديثي، وأنا عالم بما فيه من العلم، فحدث به عني، أو استنسخه وقابله وحدث به عني، ويسمى هذا الضرب «مناولة». وهو أعلى مراتب الإجازة.

٢ - أن يكتب الراوي للطالب: إني فلان بن فلان. إني قد أجزت لك ما سمعه مني فلان أو ما تضمنه الجزء الفلاني، وهو شبيه بالمناولة.

٣ - أن يقول الراوي: إني قد أجزت لك بجميع ما صح عندك ويصح من حديثي.. وهذا أخفض مرتبة من الذي كتب إجازته بشيء مسمى<sup>(٥)</sup>.

ويجوز أن تكون الإجازة مقرونة بين عدة طلاب، والغالب في صيغتها: أجزت فلانا وفلانا كذا وكذا...<sup>(٦)</sup>.

ولا تكاد تخلو حياة عالم مرموق من علماء غربي إفريقيا من إجازة علمية سواء أجازها له أحد العلماء، أو أجازها هو لتلميذ أو عالم آخر. لقد منح الأخوان عبدالله بن فودي وعثمان بن فودي إجازة من شيخهما جبريل بن

(١) المكان نفسه، عبدالمجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية، في السودان، مرجع سبق ذكره، ص ٨٨.

(٢) أسماء وعبدالمجيد، المكانان نفسهما.

(٣) د. عطية، ص ٢٧٨.

(٤) د. شلي التربة، ص ٢٦٧.

(٥) المكان نفسه.

(٦) انظر: تاريخ السودان، ص ٢١٧.

عمر لجميع مروياته<sup>(١)</sup>. ومُنح الشيخ عبدالله بن فودي إجازة علمية من شيخه عبدالرحمن بن محمد<sup>(٢)</sup>، وإجازات أخرى غير هذه ذكرها الشيخ عبدالله في مؤلفه «إيداع النسخ». وأجاز الإمام الزموري الفقيه المختار النحوي بمدينة والاتا، وكان موضوع الإجازة هو كتاب الشفا للقاضي عياض<sup>(٣)</sup>. وأجاز الأستاذ أبو زكريا يحيى الخطاب المكي، أحمد بابا التنبكتي مكاتبه<sup>(٤)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن علماء غربي إفريقية وصلوا إلى مستوى إجازة علماء المشرق الإسلامي؛ فالفقيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت، والد أحمد بابا، لقي في مصر علماء أمثال الناصر اللقاني والشريف الأرميوني وجمال الدين بن زكريا والتاجوري والأجهوري وطبقتهم، وفي الحجاز جماعة أمثال الميموني واللمطي والسخاوني والفاكهي وغيرهم، فأجاز بعضهم<sup>(٥)</sup>. ثم أجاز بعد ذلك ابنه الشيخ أحمد بابا وغيره من الطلاب والعلماء<sup>(٦)</sup>.

ووجد كثير من علماء غربي إفريقية عامة وتنبكت خاصة، من رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج وطلب الزيادة في العلم. وكان هؤلاء يلتقون بالأعلام من العلماء في مصر خاصة وفي المشرق عامة، فيفيدون منهم ويحوزون منهم على الإجازة العلمية. ومثال ذلك أن الفقيه القاضي العاقب بن محمود أقيت، درس على أيدي كثير من علماء مصر وعمن أجازه منهم الشيخ الناصر اللقاني<sup>(٧)</sup>. وأجاز العاقب بدوره الشيخ أحمد بابا التنبكتي<sup>(٨)</sup>.

---

(١) إيداع النسخ، ص ٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠.

(٣) تاريخ السودان، ص ٦٥.

(٤) نيل الابتهاج، ورقة ٣٣٩، المنهل العذب، ص ٢٣٥.

(٥) نيل الابتهاج، ورقة ٦٦.

(٦) المصدر نفسه، ورقة ٦٧.

(٧) المصدر نفسه، ورقة ١٨١.

(٨) المكان نفسه.





## المبحث الثاني عشر



## التخصص العلمي

لم يكن يعرف التخصص الدقيق بمفهوم عصرنا الحاضر، ولكن وجد ميل من بعض العلماء إلى تدريس فن معين من الفنون الإسلامية، أو كتاب معين من الكتب التعليمية. وتوجد إشارات كثيرة إلى نوع معين من التخصص وردت في «إيداع النسوخ»، وهو قيام العالم بتدريس كتاب معين في كثير من الأوقات، فمحمد ثنب كان خبيرا في تدريس شرح الخراشي<sup>(١)</sup>، بينما كان جبريل بن عمر متخصصا في المقام الأول في تدريس الكوكب الساطع للسيوطي وجمع الجوامع<sup>(٢)</sup>، وأصبح محمد بن راج العمدة في تدريس البخاري، واشتهر محمد المغوري بتدريس المختصر<sup>(٣)</sup>.

ونجد في تنبكت أن عبدالله بن محمود بن عمر أقيت كان متخصصا في تدريس المختصر والرسالة، وفي ذلك يقول أحمد بابا<sup>(٤)</sup>: «... مستحضرا لمسائل الفقه ونوازله معتنيا بذلك خصوصا مختصر خليل والرسالة يستحضرها نصب عينيه لاحظاً له في غير الفقه». وكان محمود بن عمر أقيت متخصصا في تدريس المدونة والرسالة ومختصر الشيخ خليل<sup>(٥)</sup>. أما ابنه محمود بن عمر أقيت فقد كان متخصصا في البيان والمنطق<sup>(٦)</sup>. وتخصص الأمين بن أحمد في

---

(١) إيداع النسوخ، ص ٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩.

(٤) نيل الابتهاج، ورقة ١١٣.

(٥) المصدر نفسه، ورقة ٣٢٢.

(٦) المصدر نفسه، ورقة ٣١٧.

سير الصحابة<sup>(١)</sup>. وتخصص أحمد بن أحمد بن عمر أقيت في البخاري، وكان يجلس لتدريسه في رجب وشعبان ورمضان في كل عام، واستمر على هذه الحال لمدة خمسة وعشرين عاما<sup>(٢)</sup>. وكان السعدي من المتخصصين في تدريس الشفا. (٣)

---

(١) تاريخ السودان، ص ٢٤٧.

(٢) نيل الابتهاج، ورقة ٦٦.

(٣) تاريخ السودان، ص ٢٦٦.

## المبحث الثالث عشر





## لغة التدريس وأسلوب الكتابة

كانت جميع العلوم تدرس وتناقش وتستوعب باللغة العربية، وكانت اللغة العربية هي لغة الكتابة الرسمية والثقافة. وعلى الرغم من هذا وجدت بجانب ذلك طريقة الترجمة للدرس باللغة المحلية حتى لا تفوت فرصة الانتفاع بالوعظ والإرشاد لمن لا يجيدون اللسان العربي. وقد اشتهر الشيخ عثمان فودي بأنه كان يترجم دروسه إلى اللغة الهوسية أو الفولانية حتى يتيح الفرصة لطلابه الذين لا يجيدون العربية أن يخرجوا بفائدة.<sup>(١)</sup>

أما من حيث أسلوب الكتابة، فقد كان جيداً، على الرغم من قلة ما وصلنا من مؤلفات. وقد امتاز أحمد بابا التنبكتي بجزالة الأسلوب ومتانته، والتمكن من الألفاظ التي يستخدمها والتراكيب التي يصوغها والدلالات التي يقصدها.

وكان السعدي وابن المختار دون التنبكتي في جزالة الأسلوب، لأنهما أحياناً يستخدمان العبارات العامية المحلية. ويلاحظ أن بوسعهما الكتابة بأسلوب رصين خال تماماً من العامية، وليس أدل على ذلك من المقدمة التي كتبها السعدي في صدر كتابه، والتي جاء فيها: «... الحق لله المنفرد بالملك والبقاء والقدرة والثناء، المحيط بعلمه بجميع الأشياء، يعلم ما كان وما يكون، وأن لو كان كيف يكون، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، سبحانه من ملك قادر وعزيز قاهر، الذي قهر عباده بالموت والفناء، وهو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء،

---

(١) إنفاق الميسور، ص ٧٤.

والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين سيدنا ومولانا محمد خاتم الرسل والأنبياء، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين من أهل الصفوة والاعتناء، صلى الله وسلم عليهم أجمعين، صلاة وسلاما بلا انقطاع ولا انقضاء. وبعد<sup>(١)</sup>: «...» أما الأسلوب الذي كتبت به أسئلة أسكيا الحاج محمد إلى المغيلي، فقد ارتفع إلى مستوى عال من الجزالة والمتانة، على غرار أسلوب الإنشاء الذي كان معروفا في البلاد الإسلامية الأخرى.<sup>(٢)</sup>

ويلاحظ أن أسلوب الكتابة في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في بلاد الهوسا قد ارتفع إلى مستوى عال، والمتصفح لكتاب «إنفاق الميسور» يلمس هذه الحقيقة، وذلك بجانب كتابات الشيخ عثمان والشيخ عبدالله وغيرهم من المعاصرين لهم.

ويلاحظ الشيء نفسه في بلاد برنو، حيث ارتفع الأسلوب العربي، وخير مثال لذلك الرسائل التي تبودلت بين حكام برنو والبلاد الإسلامية المعاصرة وعلى رأسها مصر، وخاصة رسالة الماي عثمان بن إدريس إلى السلطان برقوق<sup>(٣)</sup>، والمحارم العربية التي أصدرها المايات، والشعر العربي الذي مازال مخطوطا في مكتبات غربي إفريقيا، ورسائل محمد الأمين الكانمي التي دافع فيها عن وجهة نظره في مقاومة حركة عثمان بن فودي.<sup>(٤)</sup>

---

(١) تاريخ السودان، ص ١.

(٢) انظر: الملاحق عن نموذج لهذه الأسئلة. ملحق رقم (٥). ص ٧٧٩.

(٣) انظر: صبح الأعشى، ج ٨، ص ٨، ص ١١٦-١١٨.

(٤) انظر: إنفاق الميسور، ص ١٥٧، وما بعدها.

## الفصل العاشر



## المبحث الأول





## سن التعليم

لقد تأثر المسلمون في غربي إفريقيا بالتقاليد الروحية الشديدة، فكان العرف السائد أن الطفولة يجب أن تتلقى تهذيباً سليماً قبل أن تتسرب إليها العادات القبيحة. وجرت العادة أن يذهب الطفل في سن الثالثة أو الرابعة<sup>(١)</sup> أو الخامسة إلى المكتب في قريته أو في قرية أخرى مجاورة إن لم يتيسر له ذلك في قريته، وعندئذ يعيش في عزلة مادية ومعنوية تساهم في تكوين شخصيته وتقوي ثقته بنفسه<sup>(٢)</sup>. وعموماً فقد كان متوسط عمر التلميذ بالكتاب حوالي الخامسة<sup>(٣)</sup> ومع هذا، فلم تكن هناك سن محددة لطلب العلم، لأن الفرصة لا تتاح لكل الناس ليبدأوا التعليم في هذه السن المبكرة، فطلب العلم عند المسلمين من المهد إلى اللحد، فالشيخ مخلوف بن علي البلبالي جلس للدراسة على كبر، وكان أساتذته من أسرة أقيت يقاربونه في السن<sup>(٤)</sup>.

---

(١) Meek, The Northern Tribes of Nigeria, op. cit., p. 8.

(٢) قداح، ص ١٤٤.

(٣) جاء في «إيداع النسوخ» (ص ٢ - ٣) أن عبدالله بن فودي أكمل دراسة القرآن على يد والده ثم انتقل بعد ذلك ليتلمذ على أخيه عثمان وهو في سن الثالثة عشرة، وبهذا يكون قد بدأ الدراسة في حوالي ست أو سبع سنين من العمر.

(٤) تاريخ السودان، ص ٣٩.



## المبحث الثاني



## مراحل التعليم

يرى الشيخ الظواهري<sup>(١)</sup> أن التعليم الإسلامي عامة ثلاث مراتب: أولها تعليم صغار المسلمين وأطفالهم في الكتاتيب، وثانيهما تعليم جمهور الناس؛ والثالث التعليم العالي في المعاهد التعليمية كالمساجد الجامعة. ولا جرم أن كل واحدة من هذه المراتب ضرورية، وتحتاج إلى مالا يحتاج إليه غيرها من الأساليب، وتخالف أختيها في الكمية والكيفية. أما الدكتور خفاجي<sup>(٢)</sup> فيقسمها أيضا إلى ثلاث مراتب، ولكنه يصفها بصورة أخرى، ولا يدخل فيها تعليم جمهور الناس الذي جعله الشيخ الظواهري مرتبة ثانية من مراتب التعليم. ويبدو أن تقسيم الدكتور خفاجي أقرب إلى حقيقة مراحل التعليم الإسلامي عامة وفي غربي إفريقيا خاصة، وإن كنا نقر أن تعليم الجمهور كان نوعا من أنواع التعليم، ولكن ليس له مرحلة معينة.

يبدأ التلميذ في المرحلة الأولى بتعلم الهجاء والقراءة والكتابة، ويحفظ ما تيسر من القرآن عن ظهر قلب، ليكون هذا الجزء المادة التي يستطيع أن يطبق التلميذ فيها عمليا ما أخذ من المعلومات النظرية في تعلمه قواعد الهجاء والكتابة، فيطالب التلميذ بكتابة هذا الجزء وقراءته، ثم ينتقل من هذا الجزء إلى غيره كتابة وقراءة وحفظا حتى يتم القرآن. وفي هذه المرحلة الأولى يكون التلميذ قد تعلم القراءة والكتابة، وتستغرق هذه المرحلة حوالي ثلاث سنين<sup>(٣)</sup>، أو حسب مقدرة الطالب العقلية، إذ ربما تستغرق أكثر من ذلك.<sup>(٤)</sup>

(١) محمد بن إبراهيم الظواهري: العلم والعلماء، ص ١٠.

(٢) الأزهر في ألف عام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧.

(٣) المكان نفسه.

(٤) انظر: Bello, Ahmadu: My Life, London 1963, p.7.



ثم ينتقل الطالب إلى المرحلة الثانية، ويظل تحت إشراف أستاذه، يعطيه دروساً في القراءة والكتابة، وموضوعات متنوعة في الدين والأدب، ويكون التلميذ في هذه السن على أبواب دور المراهقة. وكان أغلب المتعلمين يقفون عند هذا الحد ويتخرجون في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وبعضهم كان يخطو للمرحلة الثالثة، يدرسون فيها علوم الدين من فقه وتوحيد وحديث... إلخ. وفي الأحوال الاستثنائية كان بعض الأفراد يدرسون شيئاً من العلوم الرياضية.<sup>(١)</sup>

ولدينا نموذج لطالب تخطى المرحلة الأولى والمتوسطة إلى المرحلة الثالثة، وهو الشيخ عبدالله بن فودي، الذي يقول عن نفسه: «وقد تركني أبي في يده - يعني أخاه عثمان - بعد قراءة القرآن وأنا ابن ثلاث عشرة سنة. فقرأت عليه العشرينات وال... وال... إلخ».<sup>(٢)</sup>

وبعد هذه المرحلة الثالثة يبدأ الطالب في نيل الإجازات من أساتذته على قدر مجهوده الشخصي، إذ لم تكن هذه شهادة رسمية، بل الذي يفرض العالم على الناس هو علمه وكفاءته.

وذكرنا للمراحل بهذا التقسيم لا يعني أنه أمر ثابت، لأن نظام المراحل بالمعنى الفني المعروف في التعليم الحديث لم يعرف في تلك الفترة.

---

(١) انظر: إيداع النسوخ، ص ٣.

(٢) إيداع النسوخ، ص ٢-٣.

## المبحث الثالث



## أنواع تلقي العلوم

توجد حوالي أربعة أنواع لتلقي العلم، وهي: قراءة الطالب على شيخه قراءة فهم أو قراءة بحث وتحقيق أو قراءة تحقيق أو قراءة بحث، وفي هذا يقول أحمد بابا التنبكتي<sup>(١)</sup> بأنه قرأ على شيخه «الموطأ قراءة فهم، وتسهيل ابن مالك قراءة بحث وتحقيق.. وأصول السبكي بشرح المحلى ثلاث مرات قراءة تحقيق، وألفية العراقي بشرح مؤلفها.. وفرعي ابن الحاجب قراءة بحث جميعه».

---

(١) تاريخ السودان، ص٤٦، إتفاق الميسور ص ص٢١٥٢١٦.



## المبحث الرابع





## الرحلة في طلب العلم

عقد ابن خلدون<sup>(١)</sup> فصلا خاصا عن الرحلة العلمية؛ خلاصته أن الرحلة في طلب العلم مفيدة، لأن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم تارة علما وتعلما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، وأن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكما وأقوى رسوخا، والرحلة تفيد كثرة الشيوخ، وعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكة ورسوخها، وأن تعدد المشايخ يفيد تعدد الطرق، إذ إن لكل منهم طريقته في التعليم.

والمتبع لتاريخ الرحلات العلمية يدرك أنها ابتدأت منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم. وقد دعت الضرورة إلى أن تبتدئ مبكرة، فقد تفرق علماء الصحابة في الأمصار المفتوحة ليعلموا الناس شؤون الدين وليقرئوهم القرآن ويرووا لهم الأحاديث، وأقام كل واحد من هؤلاء مركزا علميا بالبلد الذي نزل به<sup>(٢)</sup>، وتميز بطابعه الخاص في إطار السنة. وكانت هناك بضعة أحاديث لم يروها عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلا نفر قليل من الصحابة. وكان للناس شغف كبير برواية الأحاديث؛ فأخذوا يسعون إلى هؤلاء الصحابة ليأخذوا عنهم هذه الأحاديث<sup>(٣)</sup>. وأشهر هؤلاء الصحابة: عبدالله بن عمر بالمدينة، وابن عباس بمكة، ومعاذ بن جبل باليمن، والأشعري بالبصرة، وابن مسعود بالكوفة، وعبدالله بن عمرو بن العاص بمصر.<sup>(٤)</sup>

---

(١) المقدمة، ص ٢٩٩-٣٠٠. انظر الملحق رقم (١) من هذا الكتاب.

(٢) انظر: د. شلبي، التربية، ص ٣١٨.

(٣) انظر: أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ٢، ط ٧، ص ٧٠-٧١.

(٤) د. شلبي، المرجع السابق، ص ٣١٨-٣١٩.

وعندما جاء جيل التابعين تمايزت حلقاته العلمية، فأصبح منهم من يميل إلى التفسير، ومنهم من هو راوية للحديث، ومنهم من يتعرض لعلم الكلام، ومنهم من تبحر في الفقه، إلخ. ومن أساطين علماء هذا الجيل: ابن المسيب بالمدينة وربيعة الرأي بقباء وعطاء بن أبي رباح بمكة والحسن البصري بالبصرة والنخعي بالكوفة ومكحول بسورية ويحيى بن كثير باليمامة وطاووس باليمن وزيد بن أبي حبيب بمصر وعطاء بن عبدالله الخراساني بخراسان.<sup>(١)</sup>

وأخذ الناس يشدون إليهم الرحال لمعرفة مآلديهم. واستمر الحال مع تابعي التابعين وأصحاب المذاهب الفقهية التي اشتهرت منها أربعة، وأصحاب الحديث أمثال البخاري ومسلم. وظل الطلاب في رحلة دائبة بين الشيوخ والأئمة لأخذ العلم منذ ذلك التاريخ إلى وقتنا الحاضر، ولم يشذ في هذا قطر إسلامي عن الآخر.

ففي غربي إفريقية، جاء كثير من الطلاب من شتى بقاع غربي إفريقية لتلقي العلم على مشايخ تنبكت وجني وكاغ وكانو وكاتسينا وغسرغمو ووالاتا، ورحلوا إلى المغرب ومصر والشام ومكة والمدينة والعراق لهذا الغرض، بجانب أداء فريضة الحج في الحجاز.

وقد اشتهر بعض علماء غربي إفريقية بأنهم كانوا «رُحَلَّة»<sup>(٢)</sup>، منهم الفقيه مخلوف بن علي البلبالي، الذي تلقى تعليمه في معاهد غربي إفريقية، في والاتا وتنبكت، ثم رحل إلى المغرب ودرس على يدي ابن غازي<sup>(٣)</sup>.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣١٩-٣٢٠.

(٢) تاريخ السودان، ص ٣٩.

(٣) المكان نفسه، وابن غازي هو: محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن غازي العثماني، المكناسي الفاسي (أبو عبدالله)، مقرئ، محدث، فقيه، مؤرخ فرضي حاسب، عروضي، نحوي. توفي سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م. مصنفاته كثيرة. انظر: معجم المؤلفين، ج ٩، ص ١٦.

وغيره، ورحل عالما ومعلما إلى كانو وكاتسينا وغيرها من بلاد غربي إفريقيا<sup>(١)</sup>. ورحل للمرة الثانية إلى المغرب - مراكش، ولم يعد إلى بلده إلا عندما مرض وأوشك على الهلاك<sup>(٢)</sup>.

ويلي البلبالي في النشاط والرحلة العلمية الفقيه محمد بن أحمد التاذختي، الذي رحل إلى تكدة للقاء المغيلي، ورحل إلى مصر ولقي هناك مشاهير مشايخها كالقلقشندي واللقانين<sup>(٣)</sup>. وعندما عاد إلى غربي إفريقيا واصل رحلته العلمية إلى كاتسينا وجعلها موطنه إلى أن تولى قضاءها<sup>(٤)</sup>.

وسار في نفس خط البلبالي والتاذختي الفقيه العاقب الأنصمني، الذي رحل إلى مصر أيضا ولقي السيوطي<sup>(٥)</sup>، والفقيه عبدالرحمن التميمي الذي رحل في طلب العلم إلى فاس من تنبكت حتى يتمكن من التدريس في تنبكت<sup>(٦)</sup>، والفقيه عبدالله سك الفلاتي الذي رحل في طلب العلم إلى أجاديس وفزان وغيرها<sup>(٧)</sup>، ومحمد الأمين الكاثي، الذي طلب العلم في الحجاز ومصر والمغرب<sup>(٨)</sup>، والشيخ عثمان بن فودي، الذي رحل مع أستاذه جبريل حتى بلغ أجاديس<sup>(٩)</sup>، وغير هؤلاء ممن يضيق المجال عن حصرهم، وسوف نتوسع في ذكر أشهرهم في فصل التبادل التعليمي.

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٩-٤٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٧) إنفاق المسور، ص ٥٠.

(٨) انظر ترجمته في ص ٥٠٣.

(٩) انظر ترجمته في ص ٤٣١؛ وإبداع النسوخ، ص ٦.



## المبحث الخامس





## أحوال التلاميذ العامة

وجد تفاوت كبير في مستوى دخول الأفراد في غربي إفريقيا كما هو الحال في كل زمان ومكان، فمن التلاميذ من يستطيع أن يتكفل ذويه بمعيشته أثناء ملازمته العلم سيما إن كان في مكان يبعد عن موطنه مما يتحتم معه البقاء في مكان يشبه ما عندنا اليوم بالداخلية (إسكان الطلاب). أما الذين يصعب على ذويهم التكفل بمعيشتهم، فقد كانت رحمة الله تحل بهم على يد الحكام وأهل اليسار.

واشتهر أساكي سنغي بحبهم لطلاب العلم والعلماء وكثرة الإنفاق عليهم. فقد كان من مناقب أسكيا الحاج محمد «حب العلماء والصالحين والطلبة وكثرة الصدقات»<sup>(١)</sup>. وقد حدث أن أهدى أسكيا داود مزرعته في إحدى بلدانه المسماة «دندك دُمد» إلى إمام وطلبة هذه البلدة<sup>(٢)</sup> - كما سبق ذكره - وكان هذا الجود والإحسان إلى طلبة العلم من مناقبه التي سجلها له التاريخ بأحرف من نور<sup>(٣)</sup>. وله قصة مع القاضي محمود كعت تدل على هذا الكرم وبذل العطاء. فقد طلب منه كعت أن يمدّه ببعض الأشياء منها أن معه أربعة من طلاب العلم، وقد تمزقت ثيابهم، ويريد من أسكيا داود أن يكسوهم، واستجاب أسكيا لهذا الطلب ومعه طلبات أخرى أكبر من هذا بكثير تخص كعت نفسه<sup>(٤)</sup>.

---

(١) الفتاش، ص ٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٨-١٠٩؛ انظر ص ٦٠٦ من هذا الكتاب.

وكان آسكيا بلمع بن آسكيا داود كأييه وجده، يهدي إلى الطلبة المال ومن يقوم بخدمتهم من الخدم.<sup>(١)</sup>

وبجانب عطاء السلاطين، أوقفت أوقاف معلومة على المعاهد التعليمية للإنفاق على الطلاب المنقطعين للعلم<sup>(٢)</sup>. وهناك من العلماء من يقوم بنفسه بالإنفاق على طلبته الفقراء حتى اشتهر بذلك. ومن هؤلاء الفقيه أبوبكر - المعروف بـ «بابكر بير» - الذي قال عنه السعدي<sup>(٣)</sup>: «العالم الزاهد المتصدق، المنفق على الأيتام والتلاميذ».

وكان لسراة المدن وتجارها ووجهائها دورهم البارز في مجال الإسهام في الإنفاق على الوافدين من الطلبة؛ فقد كانوا يرحبون بطلاب العلم، ويستضيفونهم في منازلهم<sup>(٤)</sup>. وكانت توجد في بعض المدن، مثل كاتسينا، أحياء خاصة من بينها حي للطلبة.<sup>(٥)</sup>

وكان الطلاب يشاركون في المناسبات الدينية أو الاجتماعية كالتأبين والمآتم والحفلات وغيرها بقراءة القرآن أو قراءة تخميس عشرينيات الفزاري أو غيرها، فتوزع عليهم الهدايا من قبل أصحاب المناسبات أو القائمين على أمرها كل على قدر طاقته.<sup>(٦)</sup>

وعلى كل حال لم تكن أحوال الطلبة المعيشية عامة سهلة، فقد كانوا أحيانا يضطرون إلى صحبة المعلم أينما ذهب أو يرحلون إليه<sup>(٧)</sup>، ومنهم من

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(٢) د. حسن محمود، دور العرب، مرجع سبق ذكره، ص ٨٦.

(٣) تاريخ السودان، ص ٣٢.

(٤) دور العرب، المرجع السابق، ص ٨٦.

(٥) Hogben, The Muh. Emirates, op. cit., p. 93.

(٦) انظر: الفتاش، ص ١٨٠، ١٣٠.

(٧) انظر: إبداع النسوخ، ص ٦.

يقوم بخدمة مدرسه في الفترة التي يقضيها معه تلميذا<sup>(١)</sup>، وربما يظل وفيًا ومواصلا للخدمة حتى بعد أن تنقطع الصلة العلمية.

أما من حيث عدد التلاميذ الصغار في المكتب، فلربما كانت متفاوتة، والحالة الوحيدة التي ورد فيها إحصاء لتلاميذ الكتاب، هي الرواية التي جاءت في الفتاش<sup>(٢)</sup> من أن تلاميذ مكتب المعلم «تكريا» كانوا مئة وثلاثة وعشرين تلميذا.

ومن حيث الكتب التي يدرسون منها، نجد أن من لم يستطع شراء الكتاب أو يصعب الحصول عليه، يقوم بنسخ تأليف أستاذه<sup>(٣)</sup>، أو نسخ الجزء المقرر عليه للدراسة من الكتب الأخرى.<sup>(٤)</sup>

---

(١) انظر: الفتاش، ص ١٢٩؛ تاريخ السودان، ص ٤٨.

(٢) ابن المختار، ص ١٨١.

(٣) انظر: إيداع النسخ، ص ٣.

(٤) المكان نفسه.



## المبحث السادس





## نصيب المرأة من التعليم

لم تهتم كتب التراث الإسلامي في غربي إفريقيا بتسليط الأضواء على المرأة العاملة أو التلميذة. ويلاحظ أن أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج لم يترجم إلا لامرأة واحدة، وهي أم هاني بنت محمد العبيدوسي<sup>(١)</sup>، على الرغم من أنه ترجم لأكثر من ستمئة وثلاثين عالما من علماء المشرق والمغرب وغربي إفريقيا. أما السعدي، فلم يترجم لامرأة ترجمة كاملة، إذ إن المرأة الوحيدة التي وقف عندها السعدي هي الاغلالية التي بنت مسجد سنكري<sup>(٢)</sup>، وامرأة هذا شأنها ربما كان لها نصيب من التعليم عرفت منه الحقوق والواجبات وأعمال البر الكبيرة، فقد كانت كما يذكر السعدي من اللاتي ينفقن أموالهن في أعمال البر<sup>(٣)</sup>، ولكنه لم يذكر اسمها أو تاريخ وفاتها أو شيئا من علمها وحياتها.

ولم يهتم ابن المختار أيضا بالمرأة، ولكننا من ثانيا عرضه للأحداث الجارية يمكننا أن نتلمس أن المرأة كان لها دورها في مجال التعليم والمعرفة. فقد جاء في رواية تنصيب محمود بغيغ قاضيا على جنبي أنه حمل على فرس بعد إجراء مراسيم الولاية، «فلما دخل بيته استقبلته زوجته أم ولده السيد الفقيه أحمد بغيغ وقالت له: لم رضيت القضاء؟ فقال: لم أرض بذلك وإنما أجبروني به وكلفوني، فقالت: لو اخترت الموت عليه لكان أحسن منه، ولو قلت

---

(١) نيل الابتهاج، ورقات ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) تاريخ السودان، ص ٦٢.

(٣) المكان نفسه.

اقتلوني فلا أدخل، فقال: ماقلت ذلك. فأدبرت باكية ثم لم تزل تبكي أياما رحمها الله. (١)

والمتمعن في هذا الحوار القصير الذي دار بين هذا العالم وزوجه يخرج بانطباع ونتيجة مؤداها أن هذه السيدة لم تكن جاهلة، بل كان تعرف معنى منصب القضاء وكل ماجاء في حق القاضي من آيات وأحاديث تجعل العالم التقى يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على تولي هذا المنصب. وما زال أهل الورع حتى زماننا هذا يتخرجون من تبعات تولي هذا المنصب، خشية أن تزل قدم بعد ثبوتها.

وعندما ظهر الشيخ عثمان بن فودي في بلاد الهوسا، راعه أن يجد إهمالا كبيرا في جانب تعليم المرأة، فوجه لومه وتقريعه ونصائحه إلى علماء المسلمين ليهتموا بتعليم المرأة قبل تعليم الآخرين، وقد اثبتنا هذا النداء في مكانه من البحث (٢). ويبدو أن هذا النداء قد آتى ثماره، حيث بدأت التلميذات يتظمن في الكتاتيب وحلقات الدرس. (٣)

ونجد للمرأة حظا أوفر في الظهور في مجال العلم والإفتاء والسياسة ببلاد برنوا الإسلامية؛ فالفتوى التي أصدرتها أم السلطان ييري بن دوناما (حوالي مطلع القرن الثاني عشر الميلادي) بقطع يد السارق بدلا من قتله، تحمل في مضمونها دلالة واضحة على مدى وعي المرأة البرنوية في ذلك العصر المبكر.

ولأن الشيخ عثمان بن فودي يعتبر نموذجا فريدا في مجال تعليم المرأة

---

(١) تاريخ الفتاش، ص ٩٠

(٢) انظر: ترجمتنا لعثمان بن فودي، ص ٤٣١-٤٥٣، ودعوة لتعليم المرأة جاءت في ص ٤٥٢.

(٣) Meek, The N. T. N., op. cit., p. 8.

فلإننا نرى أهمية إلقاء مزيد من الضوء على دوره في تعليم المرأة كجزء من برنامج الإصلاح.

فقد وجه الشيخ ابن فودي نداء إلى النساء مبيناً لهن أن من حقهن على الأزواج أن يعلمونهن طاعة الله قبل تعليمهن طاعة الأزواج.<sup>(١)</sup>

ودعاهن إلى حضور مجالسه التي يعقدها للإرشاد والتوجيه ومعرفة الأحكام الفقهية في شتى أمور الدين والدنيا. وخصص لهن مكاناً منفصلاً عن مكان الرجال، وذلك تجنباً لحرمة الاختلاط. وألزم العلماء المنكرين عليه حضور النساء مجالسه الحجة، وعاب عليهم تقصيرهم في تعليمهن، وبين لهم بأن تعليم المرأة من أهم الواجبات والحقوق عليهم.<sup>(٢)</sup>

وجوز للمرأة الخروج من البيت عند الضرورة الشرعية؛ ومن بين تلك الضرورات طلب علم الفرض العيني، إذا لم يجدن من أزواجهن هذا التعليم. وله كتاب نفيس في أنواع أسباب خروج النساء ورأي الشرع في ذلك، وسماه «إرشاد الإخوان إلى أحكام خروج النساء».

وشن حرباً على البدع التي سادت في مجتمعه فيما يتعلق بحقوق النساء المسلمة، مثل حقها في الإرث والصداق.<sup>(٣)</sup>

وطالب النساء بإعطاء الأزواج حقوقهم الشرعية وبين لهن ما شاب هذه

---

(١) انظر: عثمان بن فودي، نور الالباب، ص ٩-١٠ من المخطوطة. وقد نشر هذا الكتيب السيد/ مضوي الحاج، صاحب المكتبة الأهلية بوادي مدني - السودان - عام ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م، فانظر فيه ص ١٦-١٧ من الفصل الثاني: «الأمور التي عمت البلوى بها في بلاد الهوسا».

(٢) عثمان بن فودي: إرشاد أهل التفريط والإفراط إلى سواء الصراط، ورقة رقم ٣٠، مخطوطة في اثنتين وعشرين صفحة، من مخطوطات المكتبة العامة بسوكوتو.

(٣) ينظر في هذا كتاباه: «بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية»، مخطوطة في أربعين صفحة، مكتبة الآثار بكدونا، و«إحياء السنة وإخماد البدعة»، مطبوع بمطبعة المشهد الحسيني.

الحقوق من بدع محرمة. (١)

وسار على منهجه في الحث على تعليم النساء أخوه عبدالله بن فودي. (٢)

ونج عن اهتمام أسرة الشيخ عثمان بتعليم المرأة أن عرفت بعضهن بالتأليف، مثل أسماء بنت الشيخ عثمان، التي كتبت مقالتين، إحداهما باسم «تنبيه الغافلين» (٣)، تحتوي على مواعظ عما يجب فعله وما يحرم تركه. وهي في عشر صفحات. والمقالة الثانية في خصائص سور القرآن. (٤)

وعرفت بعضهن بممارسة تعليم النساء، مثل السيدة حبيبة، التي أخذت العلم مع أخيها في حلقة الشيخ عثمان بن فودي. (٥)

---

(١) انظر المصدرين نفسيهما.

(٢) انظر في هذا مقاله التي بعنوان: «جودة السعادة»، وهي من مخطوطات مكتبة الشيخ عبدالله بسوكوتو.

(٣) من مخطوطات مكتبة البلدية بسوكوتو.

(٤) من مخطوطات مكتبة البلدية بسوكوتو.

(٥) آدم عبدالله الالوري: الإسلام في نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦.

# الفصل الحادي عشر





## الكتب والمواد الدراسية الشائعة الاستعمال

يلاحظ المطلع على كتب التراث في هذه الفترة الزمنية أن الكتب التي كانت متداولة في غربي إفريقيا تكاد تكون المعروفة في البلاد الإسلامية الأخرى بعينها، لا سيما في المغرب الكبير والأندلس ومصر والسودان النيلي العربي. ويلاحظ أيضا أن الصبغة المذهبية لهذه الكتب مالكية في معظمها وذلك لسيادة المذهب المالكي في شمالي إفريقيا وغربيها في ذلك الوقت وحتى يومنا هذا. وسوف نحاول في هذا الفصل أن نلقي بعض الأضواء على هذه الكتب حتى يمكننا أن نكمل كل ما يتعلق بالتعليم على قدر المستطاع في بحث كهذا، وإليكها:

١ - الشفا : إن مؤلف هذا السفر هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى ابن عياض اليحصبي السبتي المالكي، المتوفى سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م<sup>(١)</sup>. بدأ عياض تعليمه في مسقط رأسه سبتة، وظل بها حتى صدر منها عالما فحلا، أهلته مكانته العلمية أن يتولى قضاء سبتة سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م. وكان مثالا للقاضي النزيه والعالم التقي القوي. وأقيل من هذا المنصب بسبب قوته وجراته في قول الحق وعدم محاباة ذوي السلطان، فارتحل إلى الأندلس واستقبل بحفاوة بالغة في غرناطة سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٥م، وولي قضاءها سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م<sup>(٢)</sup>. ولم يطل به المقام في الأندلس فعاد أدراجه إلى سبتة وجلس

---

(١) القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ص ١٨؛ عياض: الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، المقدمة.

(٢) المقرئ: أزهار الرياض، ج ٣، ص ١١-١٢.

للتدريس، وخاصة تدريس كتابه «الشفاء»<sup>(١)</sup>. ومالبت أن أعيد إلى قضاء سبته مرة أخرى سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م. فاشتهر أمره أكثر مما كان عليه قبلاً، وعنه قال المقرئ<sup>(٢)</sup>: «كان القاضي عياض - رحمه الله - بحر علم، وهضبة دين وعلم، أحكم قراءة كتاب الله تعالى بالسبع، وبلغ من معرفته الطول والعرض، وبرز في علم الحديث، وحمل راية الرأي، ورأس في الأصول، وحفظ أسماء الرجال، ونقب في علم النحو، وقيد اللغة وأشرف على مذاهب الفقهاء، وأنحاء العلماء وأغراض الأدباء». وله عدة مؤلفات غير الشفا منها<sup>(٣)</sup>:

- ١ - فهرسة لشيخه الذين جاوزوا المئة وسماها الغنية.
  - ٢ - إكمال العلم في شرح مسلم.
  - ٣ - مشارق الأنوار، في تفسير غريب الموطأ والبخاري ومسلم وضبط الألفاظ.
  - ٤ - التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة.
  - ٥ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.
  - ٦ - الإعلام بحدود قواعد الإسلام.
  - ٧ - الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع.
  - ٨ - العيون الستة في أخبار سبته.
  - ٩ - غنية الكاتب وبغية الطالب في الرسائل.
  - ١٠ - الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد.
- وله شعر جيد وديوان خطب رائع.

(١) ترتيب المدارك، ص ١٩؛ أزهار الرياض، ص ١٣.

(٢) أزهار الرياض في أخبار عياض، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ٧.

(٣) شجرة النور الزكية، مصدر سبق ذكره، ص ١٤١.

أما كتابه الشفا في التعريف بحقوق المصطفى، والذي نحن بصددده، فهو في الحديث النبوي الشريف<sup>(١)</sup>. وقد اشتهر أمره في غربي إفريقيا، فكانوا يتدارسون، لا سيما في رمضان. وحفلت مصادر تاريخ هذه المنطقة بذكر هذا الكتاب وجعلته العمدة في الفقه المالكي. وعمن اشتهر بسرده في رمضان بمسجد سنكري، الفقيه أبو عبدالله آندغمحمد ابن الفقيه المختار النحوي<sup>(٢)</sup> والفقيه أبو حفص عمر بن الحاج أحمد بن عمر بن الحاج بن عمر أقيت<sup>(٣)</sup>، ومن العلماء من ظل ملازما لقراءته لطلابه، أمثال الفقيه أحمد بن عمر بن محمد أقيت، جد أحمد بابا<sup>(٤)</sup>، ومنهم من نال فيه الإجازة مثل الفقيه المختار النحوي<sup>(٥)</sup> وأبي عبدالله محمد بابا بن محمد الأمين بن حبيب<sup>(٦)</sup>، ويوجد من بين علماء تنبكت أو جني من قام بتدريسه في البلدان المجاورة، ومثال ذلك أن السعدي قام بتدريسه في بلدة بينا بطلب من أهلها.<sup>(٧)</sup>

أما في بلاد الهوسا، فقد وردت أول إشارة للشفا في عهد السلطان الكانوي محمد كيسوكي (٩١٤ - ٩٧٢هـ / ١٥٠٩ - ١٥٦٥م) عندما ذكر صاحب تاريخ كانو بأن الشيخ تونس أحضر معه الشفا لأرض الهوسا من المغرب<sup>(٨)</sup>. ومنذ ذلك الحين اشتهر أمره في هذه المناطق.

وعموما فقد كان الشفا من الكتب الدراسية والثقافية الأساسية في معاهد

---

(١) جاء في «عنوان الدراية»، ص ٢٧ أن الشفا في الفقه المالكي، ولعل المقصود هنا أنه مثل الموطأ في الحديث ولكنه مرتب على الأبواب الفقهية.

(٢) تاريخ السودان، ص ٢٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢١٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

(٨) K. C, p. 79, 81.

غربي إفريقية، ومن المراجع الأساسية في الفقه المالكي. (١)

٢ - المدونة : توجد مدونتان في الفقه المالكي : مدونة ابن غانم (٢) ومدونة سحنون. أما التي ذاع صيتها وكثر تداولها في غربي إفريقية هي مدونة سحنون، وهي التي ينصرف الذهن إليها عندما يذكر الاسم «المدونة» (٣). ولا بد لنا من إيراد خلفية مختصرة عن الفقه المالكي ومحاولة التأليف فيه قبل مدونة سحنون التي كانت خلاصة لعدة محاولات، ثم إعطاء نبذة عامة عن المدونة وصاحبها. في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) اشتهر أمر الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه في جميع أرجاء العالم الإسلامي، وقد أسرع إليه الناس للأخذ عنه والعودة منه وجوانحهم مملوءة إعجابا به ويعلمه وخلقه ونقده للرجال وتحريه في الفتوى وذكائه واستنباطه الأحكام من الكتاب والسنة، وتقواه وورعه، مع ابتعاده عن ذوي السلطان، وعدم خشيته في الحق لومة لائم.

وهرع إليه فيمن هرع من علماء شمالي إفريقية للأخذ عنه: علي بن زياد (٤) والبهلول بن راشد (٥) وعبدالله بن فروخ (٦) وعبدالله بن

---

(١) انظر: المصدر السابق، ص ٤٦، ٥٥.

(٢) انظر: الكعك، مراكز الثقافة، مرجع سبق ذكره، ص ١١٩.

(٣) واشتهرت أيضا بـ«المدونة الكبرى»، انظر: بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة النجار، ص ٣٨١.

(٤) فقيه تونسي، حجج والتقى بالإمام مالك بالمدينة وآخرين من طبقة مالك، ومنهم: الإمام الثوري والليث ابن سعد. قال عنه أبوالعرب: «ولم يكن في عصره بإفريقية مثله». وتلمذ على يد البهلول بن راشد وسحنون وأسد بن الفرات. انظر: أبوالعرب القيرواني: طبقات علماء إفريقية وتونس، ص ٢٢٠.

(٥) عن ترجمته انظر: المصدر نفسه (أبوالعرب)، ص ١٢٦-١٢٩، معالم الإيمان، ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٧ وما بعدها.

قال أبوالعرب: «كان ثقة مجتهدا ورعا لا يشك في أنه مستجاب الدعوة، وكان عنده علم كثير، لقي مالكا بن أنس وسفيان الثوري وموسى بن علي بن رباح والليث بن سعد...» وسمع من هؤلاء الأعلام وعاد إلى تونس حيث سمع منه مشاهيرها أمثال سحنون وطبقته.

(٦) من شيوخ تونس، حجج ولقي مالكا والثوري وأباحيفة. وكان يكاتب مالكا، وكان ثقة في حديثه. انظر أبوالعرب، ص ١٠٧.

غانم<sup>(١)</sup> وغيرهم من العلماء كثيرون ذكرهم أبو العرب . ويقومون عند عودتهم بنشر ما أخذوه عنه من فقه وحديث، وبهذا انتشر مذهبه، وكثر المعجبون به، وزاد حجم الرحلات من إفريقية ومن الأندلس إلى المدينة للقاء هذا العالم الفذ، وأصبح له تلاميذ يرون كل ما عدا مذهب مالك ضلالاً، فهو إمام أهل المدينة معدن الإسلام ومبرقد الرسول عليه الصلاة والسلام.<sup>(٢)</sup>

وقد أدرك أحد الأذكياء من فقهاء القيروان، وهو أسد بن الفرات<sup>(٣)</sup>، هذا الميل الكلي إلى مذهب مالك عند الناس فأراد أن يوفق بين رأي مالك وأبي حنيفة، وعاد ليكتب مؤلفه المعروف بـ«المختلطة» الذي اشتهر بـ«الأسدية»<sup>(٤)</sup>. وفي هذا المؤلف شيء من المذهبين المالكي والحنفي، ولكن فقهاء القيروان رأوا أن الفقه المالكي الأصيل أعلق بنفوسهم، فلم يأخذوا من أسد إلا القليل الموافق لمذهب مالك وتركوا ما سواه.

ثم جاء القاضي سحنون بمدونته المشهورة والتي خلدت الفقه المالكي بجانب الموطأ، وحينها نبذ الناس الأسدية وراء ظهورهم وتعلقوا بالمدونة وعدّوها القانون الشامل لمدرسة مالك بن أنس الأصيلة.

والمدونة عبارة عن الآراء الفقهية التي كان يدرسها ويفتي بها الإمام، وهي تقرير لفقه المالكية استناداً إلى نص كتاب الموطأ برواية أسد بن الفرات النيسابوري على أساس المسائل التي وجهها سحنون إلى محمد بن القاسم.

---

(١) انظر: المصدر نفسه (أبوالعرب) ص ١١٦، وعنه يقول أبوالعرب: «وكان ثبناً ثقة نبيلاً، ولي القضاء... وكان عدلاً في قضائه، ولاه روح بن حاتم في سنة إحدى وسبعين ومئة... سمع من مالك... توفي سنة ١٩٠هـ».

(٢) ترتيب المدارك، ص ٧ من المقدمة بقلم المحقق.

(٣) انظر ترجمته: في طبقات علماء إفريقية، ص ١٦٣.

(٤) الإحاطة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٩.



وهي في الأصل مجموعة مسائل تبلغ نحو ست وثلاثين ألف مسألة، جمعها أسد بن الفرات - كما ذكرنا - ثم أصلح فيها سحنون مسائل ورتبها وبوبها. وقد بسط القاضي عياض هذه المسألة وفصلها تفصيلا دقيقا وافيا.<sup>(١)</sup>

وجامع المدونة هو عبدالسلام بن سعيد بن حبيب التنوخي<sup>(٢)</sup> المشهور بـ«سحنون»<sup>(٣)</sup>. وأصله من الشام، من أهل حمص. قدم أبوه سعيد مع الجند وتعلم بالقيروان حتى أصبح عالما ضليعا. وصفه أبو العرب<sup>(٤)</sup> بقوله: «كان جامعا للعلم، اجتمعت فيه خلال ما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملابس والمطعم، والسماحة».

وقد تولى القضاء سنة ٢٣٤هـ / ٨٤٩م في عهد أبي العباس محمد بن الأغلب بن زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب<sup>(٥)</sup>. وقد وضع شروطا للسلطان عندما ألحوا عليه في قبول هذا المنصب؛ ومضمون هذه الشروط هو أن تطلق يده في القضاء دون تدخل السلطان ما دام الأمر يسير وفق الكتاب والسنة، وألا يحابي أي فرد من الأمة حتى ولو كان السلطان نفسه<sup>(٦)</sup>. وله مواقف مع أصحاب الآراء المخالفة، إذ إنه كان أول من شرد أهل الأهواء من المسجد الجامع، وكانوا فيه حلقة للصفرية والإباضية<sup>(٧)</sup>. وكان ممن رحل إلى المشرق

---

(١) ترتيب المدارك، جـ ٢، ص ٤٦٥-٤٧٣.

(٢) طبقات علماء إفريقية، ص ١٨٤، ترتيب المدارك، المصدر نفسه عن ٥٨٥.

(٣) بروكلمان، جـ ٣، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٠.

(٤) طبقات علماء إفريقية، ص ١٨٤.

(٥) الخلاصة النقية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩، ترتيب المدارك، جـ ٢، ص ٥٩٥.

(٦) انظر: معالم الإيمان، مصدر سبق ذكره جـ ٢، ص ٣ جـ ٥٤.

(٧) طبقات علماء إفريقية ص ١٨٤.

سنة ١٨٨ هـ / ٨٠٣ م ولقي بعض العلماء . وتوفي بالقيروان سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م . وله تلاميذ كثيرون في المغرب والأندلس،<sup>(١)</sup> نهلوا من علمه الفياض ونقلوا عنه المدونة وأذاعوها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى أضحت مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية لا سيما المغربية.<sup>(٢)</sup>

واشتهرت المدونة في غربي إفريقية أيضا بوضعها مرجعاً أساسياً في الفقه المالكي، فتداولها العلماء والطلاب بالدراسة، وحفلت أمهات المصادر لتاريخ هذه المنطقة بذكر هذا المؤلف . ومن كان يدرسها في تنبكت الفقيه أحمد بن عمر بن محمد أقيت، ومن درسها على يديه أخوه محمود بن عمر وغيره<sup>(٣)</sup> . ودرسها الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد حفيد محمود بن عمر أقيت على بعض مشايخه<sup>(٤)</sup> . ودرسها أحمد بن سعيد للفقيهين أحمد ومحمد بغيغ وأحمد بابا<sup>(٥)</sup> . وكانت من بين الكتب التي درسها كثيرا الفقيه محمود أقيت لطلابه<sup>(٦)</sup> . وهناك إشارات أخرى كثيرة لهذه المدونة، وتناولها كثير من العلماء بالشرح والتعليق من إفريقيين وأندلسيين وغيرهم.<sup>(٧)</sup>

وتوجد عدة مخطوطات للمدونة في الإسكندرية وفاس وبريطانية<sup>(٨)</sup> . ونشرت أربعة أجزاء بالقاهرة سنة ١٣٢٤ - ١٣٢٥ م، ولها شروح كثيرة معظمها

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٤-١٨٥ .

(٢) انظر: عنوان الدراية . مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ .

(٣) نيل الابتهاج، ورقة ٦٤، تاريخ السودان، ص ٣٧ .

(٤) النيل، ورقة ٦٧، السعدي، ص ٤٣ .

(٥) السعد، ص ٤٥ .

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٨ .

(٧) انظر مثلاً: المصدر نفسه، ص ٤٥ .

(٨) بروكلمان، ج ٣، ص ٢٨٢ .

بمكتبة القرويين بفاس<sup>(١)</sup>، منها: تهذيب مسائل المدونة لأبي سعيد خلف بن القاسم، وشرح المدونة لعبيد الله بن الحسن بن الجلاب، والنوادر على المدونة لابن أبي زيد القيرواني. وشرح المدونة لمحمد بن أحمد بن رشد، وشرح المدونة لأبي عبدالله بن يونس، والشبهات على المدونة للقاضي عياض<sup>(٢)</sup>.

٣- الرسالة: وهي مختصر في فقه المالكية، ومؤلفها هو أبو محمد عبدالله (أبو عبيد) بن أبي زيد عبدالرحمن القيرواني النفزاوي<sup>(٣)</sup>، أشهر علماء المالكية في المئة الرابعة الهجرية. ولد سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م بنفزاوة التونسية. وكانت أكثر إقامته في القيروان. وتوفي ٣٨٦هـ / ٩٩٦م وقيل سنة ٣٣٨ أو ٣٩٠هـ بمدينة فاس<sup>(٤)</sup>، وقيل القيروان<sup>(٥)</sup>.

لقد برع ابن أبي زيد في علوم الشريعة. وفاق الأقران فاشتهر علمه وضربت إليه أكباد الإبل من الأفاصي للأخذ عنه<sup>(٦)</sup>، وأصبح إمام المالكية في وقته وشارح أقوال الإمام مالك، وعنه يقول النيفر<sup>(٧)</sup>: «كان واسع العلم، جيد الفهم، كثير الرواية، فصيحاً، غزير الحفظ، بصيراً بالرد على أهل الأهواء شاعراً...».

ألف الرسالة سنة سبع وعشرين وثلاثمئة، وسنه إذ ذاك سبع عشرة سنة<sup>(٨)</sup>. وكان الغرض منها أن تكون كتاباً تعليمياً للصبيان<sup>(٩)</sup>. وانتشرت في

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٢٨٢-٨٤.

(٣) النيفر: عنوان الأريب، ج١، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤.

(٤) بروكلمان، المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(٥) معالم الإيمان، ص ١٣٥، عنوان الأريب، ص ٣٤.

(٦) عنوان الأريب، ج١، ص ٣٤.

(٧) المكان نفسه.

(٨) معالم الإيمان، ص ١٣٨.

(٩) المصدر السابق، المكان نفسه.

سائر بلاد المسلمين: في العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية، وجميع بلاد إفريقية والأندلس والمغرب وغربي إفريقية<sup>(١)</sup>. وتنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بالذهب، وأول نسخة منها أرسلها مؤلفها إلى أبي بكر الأبهري، إمام المالكية ببغداد، فأظهر الفرح بها، وشاع خبرها بين الناس وأثنى عليها وعلى مؤلفها، وأمر ببيعها ليحسن بثمنها إلى الواصل بها، فبيعت بوزنها دنانير كان عددها ثلاثمئة دينار ونيف<sup>(٢)</sup>، وقيل عشرين ديناراً ذهباً<sup>(٣)</sup>، وبعثت نسخة إلى أبي بكر بن زربي بقرطبة<sup>(٤)</sup>.

كانت هذه الرسالة كتاباً تعليمياً مهماً في غربي إفريقية، وموضع عناية الأساتذة والطلاب، فكثرت الإشارات إليها في المصادر الخاصة بهذه البلاد. فيذكر السعدي<sup>(٥)</sup> بأنها كانت من أكثر الكتب التي كان يقرئها العالم الفقيه محمود أقيت. وقرأها الفقيه مخلوف البلبابي على يد الفقيه عبدالله بن عمر أقيت ببلدة والاتا<sup>(٦)</sup>، وقرأها الفقيه أحمد بابا التنبكتي على يد الفقيه محمد بغيغ<sup>(٧)</sup> والفقيه أحمد بن الحاج بن عمر أقيت على يد عبدالرحمن بن الفقيه محمود أقيت<sup>(٨)</sup>، وقرأها آسكيا داود على شيخ له<sup>(٩)</sup>. ودرسها الفقيه أحمد ابن سعيد<sup>(١٠)</sup>، وقرأها الفقيه محمود كعت على يد الفقيه حامد<sup>(١١)</sup>. وذكرها

---

(١) المصدر السابق، المكان نفسه.

(٢) عنوان الأريب، ص ٣٤.

(٣) معالم الإيمان، ص ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٤) المصدر السابق، المكان نفسه.

(٥) تاريخ السودان، ص ٣٨.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٩، نيل الابتهاج، ورقة ٣٢٤.

(٧) تاريخ السودان، ص ٤٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٩) تاريخ الفتاش، ص ٩٤.

(١٠) تاريخ الفتاش، ص ٩٤.

(١١) نيل الابتهاج، ورقة ٦٧.

الشيخ عبدالله بن فودي ضمن الكتب التي قرأها.

توجد عدة نسخ من الرسالة في مختلف مكتبات العالم مثل برلين وباريس وكمبرج والاسكوريال ونابولي والفاتيكان ومانشستر وتونس والقاهرة<sup>(١)</sup>. وحظيت باهتمام الباحثين والناشرين والمحققين، فنشرت في فاس والقاهرة وباريس - بالفرنسية - وفي لندن - مع ترجمة إنجليزية<sup>(٢)</sup>. وبلغت شروحها ثمانية وعشرين شرحا، ذكرها بروكلمان<sup>(٣)</sup>.

٤ - المختصر : توجد ثلاثة مختصرات، اثنان منها لابن الحاجب: أحدهما في الفقه المالكي ويعرف بـ«مختصر ابن الحاجب الفرعي»<sup>(٤)</sup>، والآخر في الأصول، ويعرف بـ«مختصر ابن الحاجب الأصلي»<sup>(٥)</sup>، والمختصر الثالث للشيخ خليل.

أ ( مختصر ابن الحاجب : وابن الحاجب هو عثمان بن عمر بن يونس جمال الدين المصري (٥٧٠هـ - ٦٤٦هـ / ١١٧٤ - ١٢٤٨م)، المشهور بابن الحاجب، نسبة إلى أن والده كان يعمل حاجبا للامير عزالدين موسك الصلاحي<sup>(٦)</sup>.

وقد اشتهر مختصره الفرعي في المغرب وغربي إفريقيا. أدخله

---

(١) بروكلمان، ج٣، ص٢٨٦.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه، ص ص٢٨٧-٢٨٩.

(٤) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، مصدر سبق ذكره، ص١٧ (هامش)، (وقد زاد المحقق اسما ثالثا وهو «الجامع بين الأمهات».. ويبدو أن «جامع الأمهات» كتاب في الفقه للمؤلف نفسه. وفي هذا انظر: زيدان: تاريخ آداب اللغة، ج٣، مرجع سبق ذكره، ص٥٧.

(٥) انظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، مصدر سبق ذكره، ص١٩٤.

(٦) المكان نفسه، تاريخ آداب اللغة، المرجع السابق، ص٥٦.



إلى المغرب عبدالرحمن بن سليمان البجائي<sup>(١)</sup> (ت ٧٧٣هـ / ١٣٧١م). وعني بشرحه كثير من المغاربة؛ كالقاضي ابن عبدالسلام التونسي، شيخ ابن خلدون<sup>(٢)</sup>، وابن مرزوق الحفيد وابن هارون وابن هلال. وممن عني بشرحه في غربي إفريقية الفقيه أحمد بابا التنبكتي<sup>(٣)</sup>.

وما لبث أن حجب مختصر الشيخ خليل مختصر ابن الحاجب.  
(ب) مختصر خليل: مؤلف هذا الكتاب هو الشيخ خليل بن إسحاق بن موسى بن شعيب، المعروف بـ«الجندي» ضياء الدين أبو المودة<sup>(٤)</sup>. حامل لواء مذهب مالك في زمانه بمصر<sup>(٥)</sup>. وكان مدرس المالكية بالمدرسة الشيخونية<sup>(٦)</sup>، وهي أكبر مدرسة بمصر في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). وكان يرتدي زي الجندي وهو يمارس التدريس، ويرتزق على الجندية<sup>(٧)</sup>، فاشتهر لذلك بالجندي. حج وجاور بالمدينة. ولازم التدريس إلى أن مات بالمدينة المنورة عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م<sup>(٨)</sup>. وضع شرحا لمختصر ابن الحاجب الآنف

---

(١) التعريف بابن خلدون، ص ١٧.

(٢) المكان نفسه.

(٣) ابن مريم، البستان، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٦.

(٤) نيل الابتهاج، ورقة ٨٠؛ البستان، ص ١٩٦.

(٥) النيل، المكان نفسه؛ البستان، ص ٩٧؛ حسن المحاضرة ج ١، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥.

(٦) تقع الآن بالقلعة، قرب قسم الخليفة وهي مسجد جامع الآن. وهي نسبة إلى سيف الدين شيخو العمري. انظر: الخطط المقرزية، ج ٤، ص ٢٨٣-٢٩٢، ص ١١٣-١١٥.

(٧) النيل، ورقة ٨٠.

(٨) المصدر نفسه، ورقة ٨٣.



الذكر، عرف بـ«التوضيح»<sup>(١)</sup>. ووجد هذا الشرح قبولا عند الناس، فعكفوا على تحصيله ودراسته.<sup>(٢)</sup>

أما المختصر الذي اشتهر به فهو ما وضعه في المذهب المالكي، بين فيه المشهور مجردا من الخلاف، وفيه فروع كثيرة، وعرف بمختصر خليل لأنه مختصر، وكانت مقاصده جميلة، فأقبل عليه الطلبة ليدرسوه<sup>(٣)</sup>، وطلعت شهرته وشهرة توضيحه على شهرة مختصر ابن الحاجب ومدونة سحنون، ومال الناس إليه، وفي هذا يقول أحمد بابا<sup>(٤)</sup>: «ولقد وضع الله سبحانه وتعالى القبول على مختصره وتوضيحه من زمنه إلى الآن، فعكف الناس عليهما شرقا وغربا حتى لقد آل الحال في هذه الأزمنة المتأخرة إلى الاقتصار على المختصر في هذه البلاد المغربية مراكش وفاس وغيرها، فقلّ أن ترى أحدا يعتني بابن الحاجب فضلا عن المدونة، بل قصاراهم الرسالة وخليل».

ومدح هذا المختصر كثير من علماء عصره منهم: ناصر الدين اللقاني. الذي كان يرجح رأي خليل في المسائل التي تعرض له<sup>(٥)</sup>، والشيخ ابن غازي الذي قال عنه: «إنه أفضل نفائس الأعلام وأحق مارمت بالأحداق.. عظيم الجدوى، بليغ الفحوى.. وجمع مع الاختصار شدة الضبط والتهذيب»<sup>(٦)</sup>. وكثر شراحه والمعلقون عليه حتى وضع عليه أكثر من ستين تعليقا ما بين

---

(١) نفسه، ورقة ٨١؛ حسن المحاضرة، ج١، ص ٩٥، وكان التوضيح في ست مجلدات، ومن درسه في غربي إفريقيا الفقيه أبو عبد الله محمد بابا بن محمد الأمين على يد محمد بن كري. انظر: السعدي، ص ص ٢١٧-٢١٨.

(٢) النيل، ورقة ٨٠؛ البستان، ص ٩٧.

(٣) المكانان نفسهما.

(٤) النيل، المكان نفسه.

(٥) النيل، ورقة ٨١.

(٦) المكان نفسه.

شرح وحاشية<sup>(١)</sup>. ومن شراحه في غربي إفريقية الفقيه أحمد بابا، الذي يقول عن ذلك: «وقد يسر الله لي في وضع شرح عليه، جمعت فيه لباب كلام من وقفت عليه من شراحه وهم أزيد من عشرة مع الاختصار والاعتناء بتقرير ألفاظه منظوقا ومفهوما، وتذييله على النقول بحيث لو كمل لما احتيج غالبا إلى غيره»<sup>(٢)</sup>. والذي أعاق التنبكتي عن مواصلة شرح هذا المؤلف هو المحنة التي تعرض لها عند الغزو المراكشي لبلاده وضياع نفائس كتبه، وعندما حل بمراكش دفع بهذا الشرح إلى الفقيه إبراهيم الشاوي، الذي كان من أكبر فقهاء حينذاك وأكثرهم خدمة للفقهاء، فأعجب به وصار يعتمد عليه وينقل منه في درسه ويشي عليه في مجلسه بين أصحابه<sup>(٣)</sup>. وله عدة شراح من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ذكرهم ابن مريم<sup>(٤)</sup>.

وقد لخص من مختصره أثناء حياته إلى كتاب «النكاح» وأما باقيه فقد وجد مسودة في تركته، وقام أصحابه بجمعه وضمه لما لخص، فكمل الكتاب<sup>(٥)</sup>.

ومنذ القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ظل هذا المختصر من الكتب الفقهية المهمة في معظم البلاد الإسلامية ومنها غربي إفريقية. وقد وردت عنه إشارات عديدة في مصادر غربي إفريقية. فالسعدى<sup>(٦)</sup> يذكر بان هذا

---

(١) المكان نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ورقات ٨١-٨٢.

(٣) المصدر نفسه، و٨٢.

(٤) انظر: البستان، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩-١٤٤.

(٥) النيل، ورقة ٨٢، (وأيضا له شرح على المدونة لم يكمل، وصل فيه إلى كتاب «الحج» انظر: المصدر نفسه، ورقة ٨١).

(٦) تاريخ السودان، ص ٣٨-٣٩.

المختصر كان من بين الكتب الفقهية التي كان يُدرّسها كثيراً لطلابه الفقيه محمود أقيت. وعن هذا الفقيه انتشر تدريس مختصر خليل في منطقة تنبكت<sup>(١)</sup> وتذكر مخطوطة أصل الونغيرين أن هذا المختصر قد جاء به إلى بلاد الهوسا شيخ مصري، ونرجح أن يكون هذا الشيخ هو جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المصري<sup>(٢)</sup>. ودرسه مرارا الفقيه أحمد بابا على شيخه محمد بغيغ، ونال الإجازة فيه من هذا الشيخ<sup>(٣)</sup>. وكان من بين الكتب التي درسها الشيخ عبدالله ابن فودي وأخوه عثمان بن فودي<sup>(٤)</sup>.

٥ - الموطأ: مؤلفه هو أبو عبدالله بن أنس بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، نسبة إلى قبيلة ذي أصبح اليمنية<sup>(٥)</sup>. وهو إمام أهل المدينة وأهل الحديث، وأشهر من أن يعرف به.

أما كتابه الموطأ فهو في الحديث رتب على أبواب الفقه، جمع أحاديثه الإمام مالك بتوجيه من الخليفة أبي جعفر المنصور. ويعد من أوائل الكتب التي ألقت في الحديث والفقه. وقد نشره تلاميذ مالك الذين أخذوا عنه وتفرقوا في الأمصار المختلفة، أشهرهم: محمد بن الحسن في العراق. ويحيى ابن يحيى الليثي في الأندلس وعبدالله بن وهب وعبدالرحمن بن القاسم وعبدالله بن الحكم وأشهب في مصر وأسد بن الفرات وطبقته في القيروان<sup>(٦)</sup>. ومنذ ذلك الوقت أضحى كتاب الموطأ ذا أثر كبير في الحركة العلمية

---

(١) المكان نفسه.

(٢) Al-Hajj, op. cit., p. 13.

(٣) النيل، و٨٢.

(٤) إبداع النسخ، ص ٥.

(٥) بروكلمان، ج ٣، ص ٢٧٤.

(٦) ضحى الإسلام، ج ٢، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٥.

الدينية على اختلاف العصور، وحفظ لنا جزءا هاما من السنة النبوية، واهتم به المغاربة والأندلسيون ومسلمو غربي إفريقيا لسيادة مذهب مالك في هذه البلاد حتى يومنا هذا، فتداولوه وعنوا به كثيرا تفقها ودراسة وحفظا<sup>(١)</sup> وخطا باليد. ومازال الباحثون والناشرون يعتنون به. وقد نشر في عدة طبعات، وله عدة شروح ومختصرات وتعليقات.<sup>(٢)</sup>

لقد تكرر ذكره في أمهات كتب الحضارة الإسلامية بغربي إفريقيا، ومن بين الإشارات إليه أن أحمد بابا درسه على أبيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت.<sup>(٣)</sup> ودرسه أحمد ومحمد بغيغ على يد الفقيه أحمد بن سعيد<sup>(٤)</sup>، ودرسه الفقيه أبو عبدالله محمد بابا بن محمد الأمين بن حبيب على يد الفقيه عبدالرحمن بن أحمد أقيت.<sup>(٥)</sup>

## ٦ - الألفية :

أ ( ألفية ابن مالك : هي في علم النحو . ومؤلفها هو محمد بن عبدالله ابن مالك بدرالدين الشافعي الأندلسي المتوفى سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م . كان صدرا في النحو والمعاني والبيان.<sup>(٦)</sup> جمع ابن مالك قواعد العربية في هذه الألفية التي عرفت أيضا بـ«الخلاصة»، ولكنها اشتهرت بـ«الألفية»، لأنها مكونة من ألف بيت<sup>(٧)</sup>

---

(١) انظر: ابن بشكوال، الصلة، ص ٣٥، ١٠٨ وأماكن متفرقة.

(٢) انظر: بروكلمان، ج ٣، ص ٢٧٥-٢٨٠.

(٣) نيل الإبتهاج، و ٦٦.

(٤) المصدر نفسه، و ٦٧.

(٥) تاريخ السودان، ص ٢١٨.

(٦) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ص ٩٦؛ تاريخ آداب اللغة، ج ٣، ص ١٥١.

(٧) تاريخ آداب اللغة، المكان نفسه.

من الشعر التعليمي، ومطلعها:

قال محمد هو ابن مالك      أحمد ربي الله خير مالك

وتبدأ بالكلام وما يتألف منه، وفي ذلك يقول:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم      واسم وفعل ثم حرف الكَلِم  
واحد كَلِمَةٌ والقول عم      وكَلِمَةٌ بها كلام قد يُؤَم

ما زالت هذه الألفية تدرس في العالم الإسلامي حتى في الجامعات الحديثة<sup>(١)</sup>. ونالت نصيبا كبيرا من العناية في غربي إفريقيا، فهي من الكتب الدراسية التي درسها الفقيه أحمد بابا<sup>(٢)</sup>، ومن الكتب التي كان يكثر من قراءتها أبوالمحسن عالم التكرور، محمود بن عمر أقيت<sup>(٣)</sup>. واهتم بها طلاب بلاد الهوسا أيضا<sup>(٤)</sup>. ويكفيها شهرة أنك إذ قلت «الألفية» أنصرف الذهن إليها مباشرة.

واعتنى بها الناشرون المترجمون والشرح من مسلمين ومستشرقين، وأشهر شروحها هو شرح ابن عقيل (ت ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م).<sup>(٥)</sup>

ب) ألفية السيوطي<sup>(٦)</sup>: هذه الألفية تلخيص لما في ألفية ابن مالك السابقة في ستمئة بيت مع زيادة أربعمئة بيت<sup>(٧)</sup>، فأصبحت أيضا ألف بيت، وتلاحظ هذه الزيادة في طبعة الحلبي، حيث وضعت الزيادة بين قوسين.

---

(١) كانت ضمن مقررات النحو التي درستها في كلية آداب جامعة الخرطوم - شرح ابن عقيل على الألفية.

(٢) تاريخ السودان، ص ١٤٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٤) حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، مرجع سبق ذكره، ص ٦٢.

(٥) تاريخ آداب اللغة، ج ٣، ص ١٥١.

(٦) انظر ترجمته في فصل التبادل التعليمي.

(٧) انظر: طبعة الحلبي، من دون تاريخ.



أصبحت هذه الألفية منذ القرن الرابع عشر كتابا دراسيا يعول عليه طلاب العلم في معاهد غربي إفريقيا بجانب ألفية ابن مالك، وشارك العلماء في شرحها والتعليق عليها؛ فقد قام الفقيه أبو عبدالله محمد بابا ابن محمد الأمين بشرحها. (١)

وعرفت هذه الألفية عند مؤلفها بـ«الفريدة». (٢) وعرفت بهذا الاسم أيضا في غربي إفريقيا. (٣)

## ٧ - الصحيحان :

( أ ) صحيح البخاري : هو كتاب في الحديث، اسمه «الجامع الصحيح» واشتهر بـ«صحيح البخاري» أو «البخاري». ومؤلفه هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردازبه. كان أجداده فرسا على دين المجوس. وأول من أسلم من أجداده المغيرة، أسلم على يد اليمان الجعفي والي بخارى، فكان ولاؤه له، وتنقل الولاء في أولاده. لذلك يقال في البخاري إنه محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي. ولد البخاري سنة ١٩٤هـ / ٨٠٩م. (٤) كان والده من المحدثين، ومات وهو صغير، فألحقته أمه بالكتاب، ولذكائه حفظ القرآن وهو ابن عشر، وحفظ كتب ابن المبارك ووكيع في الحديث وهو ابن ست عشرة (٥). وبعد ذلك استقل بنفسه في طلب العلم وجمع الحديث من جميع

---

(١) تاريخ السودان، ص ٢١٨.

(٢) حسن المحاضرة، ص ١٤٤.

(٣) إيداع النسخ، ص ٧.

(٤) ضحى الإسلام، ج ٢، ص ١١٠.

(٥) المكان نفسه.



الأمصار، وميزه الله بحافظة قوية ومهارة في معرفة الرجال ونقدمهم. (١).

لقد أراد لكتابه «الصحيح» أن يكون مقتصرًا على جميع الأحاديث الصحيحة المتصلة السند. (٢)

وبلغ هذا الكتاب حد التقديس في مدينة جني<sup>(٣)</sup> بغربي إفريقية ومدينة تنبكت<sup>(٤)</sup>. وكان على رأس كتب الحديث التي أولاها علماء وطلاب غربي إفريقية عنايتهم. (٥)

ونص البخاري الذي بين أيدينا الآن من تحرير شرف الدين علي بن محمد المتوفى سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٢م<sup>(٦)</sup>. وتكاد توجد مخطوطاته في كل مكتبة من مكتبات العالم<sup>(٧)</sup>. وله عدة شروح وطبعات. (٨)

ب) صحيح مسلم : مؤلفه مسلم بن الحجاج، عربي الأصل من قشير، ومسكن أهله نيسابور. قد رحل إلى كثير من الأمصار في طلب العلم وجمع الحديث<sup>(٩)</sup>، وأستفاد كثيرا من البخاري حينما استوطن البخاري نيسابور، وأخذ عنه وتعلم منه وتأثر به، وقد مات بنيسابور سنة ٢٦١هـ / ٨٧٥م. وألف كتبها أشهرها صحيحه<sup>(١٠)</sup>. ويقرن هذا

---

(١) المرجع نفسه، ص ١١١-١١٢.

(٢) نفسه، ص ١١٢.

(٣) تاريخ السودان، ص ١٥٩.

(٤) تاريخ الفتاش، ص ١٧٣.

(٥) انظر مثلا: تاريخ السودان، ص ٤٦؛ إبداع النسوخ، ص ٦؛ شيخو، ص ٦٢، The Life of Shehu, op. cit., p. 439.

(٦) بروكلمان، ج ٣، ص ١٦٥.

(٧) المكان نفسه.

(٨) المرجع نفسه، ص ١٦٥-١٧٧.

(٩) ضحى الإسلام، ج ٢، ص ١١٩.

(١٠) المكان نفسه.

الصحيح دائماً بصحيح البخاري لرفعة درجتهما والوثوق بهما. (١)  
وصل الإجلال بصحيح مسلم إلى الدرجة التي جعلت بعض  
المسلمين في غربي إفريقية يقسمون عليه كما يفعلون بالقرآن (٢). وكان  
من الكتب الدراسية المهمة في علم الحديث عند علماء غربي  
إفريقية. (٣)

٨ - السير والتاريخ : إن أهم كتاب كان يتناوله طلاب العلم في معاهد  
غربي إفريقية في مجال التاريخ هو السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق بن يسار  
الفارسي الأصل.

وهو الكتاب المشهور بـ «سيرة ابن هشام» إذ إن ابن هشام هو الذي  
اختصره وأخرجه للناس على صورته الحالية (٤)، وتداوله الناس منذ القرن  
الثالث الهجري، وظلوا يستقون منه أهم أحداث عهد الرسول عليه السلام.  
كانت السيرة النبوية من المواد الأساسية في المقررات الدراسية في معاهد  
غربي إفريقية. وكثيراً ما يذكر مؤرخو هذه المنطقة كلمة «السير» دون ربطها بابن  
إسحاق أو ابن هشام (٥)، وهم يعنون بذلك السيرة النبوية لابن إسحاق.  
وكان لمن يريد أن يكون معلماً أن يلم بالتاريخ الإسلامي العام (٦)،  
وخاصة تاريخ صدر الإسلام إلى جانب الاهتمام بتاريخ وطنه الصغير الذي  
يعيش فيه. وقد أشار السعدي إلى اهتمام أسلافه بتاريخ بلادهم، وذلك في

---

(١) المكان نفسه.

(٢) تاريخ الفتاش، ص ١٧٣.

(٣) تاريخ السودان، ص ٣٣، أحمد شيخو، مرجع سبق ذكره، ص ٦٢.

(٤) ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٣٣.

(٥) انظر: تاريخ السودان، ص ٣٤.

(٦) انظر: الإسلام واللغة العربية في إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ٧٦.

قوله: «فقد أدركنا أسلافنا المتقدمين أكثر ما يتوانسون به في مجالسهم ذكر الصحابة والصالحين رضي الله عنهم ورحمهم، ثم ذكر أشياخ بلادهم وملوكها وسيرهم وقصصهم وأدبائهم وذويهم، وهو أحلى مايروون وأشهى ما يتذكرون حتى انقضى ذلك الجيل ومضى...»<sup>(١)</sup> وعندما رأى السعدي إعراض جيله عن الاهتمام الكافي بالتاريخ قام بتدوين ما رآه مفيدا في كتابه: «تاريخ السودان»، إذ يقول: «... وأما الجيل الثاني ما كان فيهم من له الاعتناء بذلك ولا من يقتدي بطريق السلف...»<sup>(٢)</sup>

٩ - التفسير: من الكتب التي اشتهرت في تفسير القرآن بمعاهد غربي إفريقية، التفسير المشهور بـ«الجلالين»<sup>(٣)</sup>، نسبة إلى العالمين: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المصري، وجلال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن أحمد بن هاشم المحلى المصري الشافعي المتوفى سنة ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م.<sup>(٤)</sup>

ويبدو أن شيوع هذا التفسير لاختصاره وللمكانة المرموقة التي احتلها السيوطي في غربي إفريقية.<sup>(٥)</sup>

وقد وردت إشارات كثيرة للتفسير ولكن معظمها لم يقرن بكتاب معين، فقد يذكر التلميذ أنه فسر على شيخه فلان القرآن العزيز إلى سورة كذا<sup>(٦)</sup>، أو أنه أخذ التفسير على فلان من العلماء.<sup>(٧)</sup>

---

(١) تاريخ السودان، ص ١.

(٢) المكان نفسه.

(٣) انظر: شيخو، ص ٦٢.

(٤) لهذا العالم عدة تصانيف أخرى وهي في الفقه الشافعي وأصول الفقه والنحو والمنطق. انظر ترجمته في معجم المؤلفين، ج ٨، ص ٣١١.

(٥) تاريخ السودان، ص ٣٣.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(٧) إيداع النسخ، ص ٦.

١٠ - التهذيب : هو كتاب في الفقه، ومؤلفه هو أبو سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي المكنى بـ«البراذعي»<sup>(١)</sup>. والكتاب عبارة عن تهذيب للمدونة والمختلطة (الأسدية)، لذا عرف أيضا بـ«مختصر تهذيب البراذعي»<sup>(٢)</sup>. وقد تم تصنيفه سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م<sup>(٣)</sup>. ومنذ ذلك التاريخ أصبح من الكتب الفقهية المهمة التي يتدارسها الطلاب والعلماء في المغرب والأندلس، ثم انتقل إلى غربي إفريقيا، وتخصص في تدريسه العلماء. ومُنَّ اشتهر بتدريسه في تنبكت الفقيه عبدالرحمن بن الفقيه مختار النحوي، الذي يصفه السعدي<sup>(٤)</sup> بأنه: «عالم التهذيب»، والفقيه القاضي مودب محمد الكابري، الذي يروى عنه أنه لا ينسلخ شهر إلا ويختم عليه تهذيب البراذعي لكثرة طلابه.<sup>(٥)</sup>

١١ - المدخل : وهو في الكشف عن الخرافات والبدع الدخيلة على الفكر الإسلامي، والتي كان يفعلها الناس ويتساهلون فيها، وأكثرها مما ينكر. وهو كتاب حافل جامع يدل على غزارة علم مؤلفه، وهو في أربعة أجزاء.<sup>(٦)</sup> ومؤلف المدخل هو أبو عبدالله محمد بن محمد بن الحاج العبدري الفاسي المشهور بـ«ابن الحاج». وكان من أقطاب الصوفية وأعلام السنة الضليعين في زمانه. وقد زار مصر وتدارس مع أعلامها من أعيان مذهب الإمام مالك<sup>(٧)</sup>. وتوفي بالقاهرة ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م.<sup>(٨)</sup>

---

(١) عنوان الدراية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ من مقدمة المحقق؛ بروكلمان ج ٣، ص ٢٩٠؛ التعريف بابن خلدون، ص ١٩؛ كفاية المحتاج. ترجمة البراذعي.

(٢) كفاية المحتاج، المكان نفسه.

(٣) بروكلمان، المكان السابق نفسه.

(٤) تاريخ السودان، ص ٢٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٦) النبوغ المغربي، ج ١، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٨؛ عصر السلاطين الماليك ج ٣، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٨.

(٧) النبوغ المغربي، المكان نفسه.

(٨) حسن المحاضرة، ج ١، ١٩٤.

ومما يدل على أن المدخل كان معروفا في غربي إفريقيا أن الفقيه أحمد بابا درسه على يد شيخه محمد بغيغ.<sup>(١)</sup>

١٢ - الأجرومية : هي مؤلف في النحو، مقسمة إلى أبواب مثل : باب الإعراب وباب معرفة علامات الإعراب، وباب الأفعال، وباب مرفوعات الأسماء، وباب الفاعل، وباب المفعول الذي لم يسم فاعله، وباب المبتدأ والخبر... إلخ.<sup>(٢)</sup>

ومؤلف «الأجرومية» هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي المشهور بـ «ابن أجروم». وكان نحويا مقرئا. توفي بفاس عام ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م.<sup>(٣)</sup>

أشتهر أمر الأجرومية في غربي إفريقيا. فقد قام الشيخ العالم النحوي أحمد أقيت بشرحها، وتداول الناس هذا الشرح حتى فاس<sup>(٤)</sup>. وكانت من الكتب التي درسها الشيخ عبد الله بن فودي.<sup>(٥)</sup>

وللأجرومية عدة طبعات وشروح يضيق المجال عن حصرها.<sup>(٦)</sup>

١٣ - مقامات الحريري : هي في الأدب، وتشتمل على كثير من كلام العرب ولغاتها وأمثالها. ومؤلفها هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد عثمان الحريري البصري، أحد أئمة عصره في علوم اللغة. ولد بالبصرة وتوفي بها

---

(١) تاريخ السودان، ص ٤٦.

(٢) انظر: شرح ابن دحلان لمتن الأجرومية، طبعة الحلبي؛ فاس في عصر بني مرين، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٦.

(٣) النبوغ المغربي، ج ١، ص ١٤١، تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٥٦.

(٤) نشر المثاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٨.

(٥) إبداع النسخ، ص ٣.

(٦) انظر: تاريخ آداب اللغة ج ٣، ص ١٥٦-١٥٧.

سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م. (١)

تختلف الآراء حول الشخص الذي ألف الحريري من أجله هذه المقامات، والراجح أنه ألفها لشرف الدين وزير الإمام المسترشد بالله. (٢) وما يدل على الاهتمام بها في غربي إفريقية أن شارك بعض العلماء في التعليق عليها، ومن أولئك الفقيه أبو عبد الله محمد بابا بن محمد الأمين بن حبيب. (٣)

واعتنى بها المستشرقون كثيرا فنشروها في عدة طبعات وترجموها إلى عدة لغات. ولها شروح عربية أشهرها شرح الشريشي أحمد بن عبد المؤمن بن موسى المتوفى سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م. (٤)

١٤ - رجز المغيلي : وهو في المنطق (٥). ومؤلفه هو محمد بن عبد الكريم المغيلي، العالم المغربي التلمساني المشهور. وقد قام بشرح هذا الرجز الفقيه محمد بن محمود أقيت (٦)، والفقيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت (٧). ويلاحظ أن هذا الرجز كان من أهم المواد الدراسية في الفلسفة في غربي إفريقية في هذه الفترة، وعرفت هذه المادة بعدة أسماء، فأحيانا يشار إليها بـ«البيان والمنطق» (٨) أو بأحدهما أو بـ«علم الكلام والمجادلة» أو بأحدهما. (٩)

---

(١) انظر: تاريخ آداب اللغة، ج٣، ص ٤٠.

(٢) ولي الخلافة من سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م حتى سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م.

(٣) تاريخ السودان، ص ٢١٨.

(٤) تاريخ آداب اللغة ج٣، ص ص ٤٠-٤١، ونسبته إلى بلدة شريش الأندلسية؛ معجم المؤلفين ج١، ص ٣٠٤.

(٥) تاريخ السودان، ص ٤٠، ٤٦.

(٦) المكان نفسه.

(٧) المصدر نفسه، ص ٤٣.

(٨) المكان نفسه، ص ٤٥، ٢٢٢.

(٩) انظر: المصدر نفسه، ص ٢١٧.



١٥ - عقائد السنوسي : مؤلفها هو محمد بن محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي، واشتهر بـ «السنوسي» نسبة إلى قبيلة مغربية، الحسيني، نسبة للحسن بن علي رضي الله عنه. أما مؤلفاته المعروفة بـ «العقائد» فهي في التوحيد، وهي ثلاثة: العقيدة الكبرى والوسطى والصغرى.

وأول مؤلفاته هي العقيدة الكبرى، التي سماها «عقيدة أهل التوحيد». وقام بعد ذلك بوضع شرح لها، ثم ألف بعدها العقيدة الوسطى وشرحها. أما العقيدة الصغرى فقد كانت أشهرها، وعنها يقول التنبكتي<sup>(١)</sup>: «من أجل العقائد، لا تعادلها عقيدة»، وتعرف أيضا بـ «أم البراهين».

وله غير هذه العقائد الثلاث العقيدة المختصرة. وهي أصغر من العقيدة الصغرى، وتسمى أيضا بـ «صغرى الصغرى»<sup>(٢)</sup>.

وكانت هذه العقائد محور علم التوحيد في معاهد غربي إفريقية،<sup>(٣)</sup> وامتدحها الناس، ومن ذلك قول أحدهم:

فخار تلمسان عليك بكتبه      فقد فاقت التبر المخلص طافحا<sup>(٤)</sup>

وقام بعض علماء غربي إفريقية بالتعليق على بعض هذه العقائد، لا سيما الصغرى، و منهم والد أحمد بابا.<sup>(٥)</sup>

وبجانب ما ذكرناه من الكتب الشائعة في شتى فروع المعرفة، فهناك مواد وكتب أخرى كانت تدرس ووردت الإشارة إليها بصيغ مختلفة، نذكر منها على

---

(١) نيل الابتهاج، ورقة ٣٠١، ٦٦.

(٢) عن ترجمة السنوسي وكل كتبه، انظر: المصدر نفسه، الأوراق ٢٩٥-٣٠٢؛ البستان، ص ٢٤٨-٢٣٧.

(٣) انظر: تاريخ السودان، ص ٤٦؛ إيداع النسخ، ص ٣.

(٤) البستان، ص ٢٤٨.

(٥) تاريخ السودان، ص ٤٣.

سبيل المثال وباختصار شديد: الخزرجية في العروض، ومؤلفها هو أحمد بن سعود بن محمد القرطبي الخزرجي<sup>(١)</sup>، والعشرينيات (أو العشرييات أو الفازازية) للوزير أبي زيد عبدالرحمن أبي سعيد يَخْلُقَنَّ بن أحمد الفازازي الأندلسي، المتوفى بمراكش سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م<sup>(٢)</sup>. وهي مجموعة من القصائد الشعرية في مدح الرسول عليه السلام<sup>(٣)</sup>. ومن مؤلفات السيوطي البهجة المرضية في النحو<sup>(٤)</sup> وألفية الأثر في الحديث<sup>(٥)</sup> وشرح النقاية في الأصول والبيان والتصوف<sup>(٦)</sup> وألفية المعاني<sup>(٧)</sup> والكوكب الساطع في نجم جمع الجوامع، وهو في الأصول والبيان والتصوف وشرحه الكوكب الوقاد في الاعتقاد<sup>(٨)</sup> وجمع الجوامع في الفقه وجمع الجوامع في العربية<sup>(٩)</sup> والجامع الصغير من حديث البشير النذير في الحديث، ومقتضب من الكتاب الكبير، وجمع الجوامع، وقصد فيه جمع الأحاديث النبوية بأسرها، ويشمل على عشرة آلاف حديث وواحد وثلاثين حديثا<sup>(١٠)</sup>.

ومن الكتب المشهورة أيضا لغير السيوطي: القرطبية في الفقه، ليحيى القرطبي<sup>(١١)</sup>، و قطر الندى وبل الصدى في النحو لجمال الدين عبدالله بن

(١) تاريخ السودان، ص ٤٦، الزركلي؛ الأعلام، ج ١، ص ٢٤١.

(٢) تاريخ السودان، ص ٤٢، ٤٣؛ إيداع النسخ، ص ٣؛ بغية الوعاة، ج ١، ص ٣٠٤؛ نيل الابتهاج، و ١١٥، انظر طبعة الحلبي بشرح الزهري الغمراوي.

(٣) تاريخ السودان، ص ٤٢. (قام والد أحمد بابا بشرحها).

(٤) حسن المحاضرة، ص ١٤٤؛ إيداع النسخ، ص ٧.

(٥) إيداع النسخ، ص ٩.

(٦) حسن المحاضرة، ص ١٤٤؛ إيداع النسخ، ص ٨.

(٧) إيداع النسخ، ص ٨.

(٨) حسن المحاضرة، ص ١٤٤، إيداع النسخ، ص ٨.

(٩) حسن المحاضرة، ص ١٤٣، ١٤٤، تاريخ السودان، ص ٢١٨؛ إيداع النسخ، ص ٨.

(١٠) السيوطي: الجامع الصغير، تحقيق محمد محي الدين، K: C. p.81.

(١١) تاريخ السودان، ص ٤٣.

يوسف بن عبدالله المصري الإمام المشهور بابن هشام، صاحب الألفية<sup>(١)</sup> والمعيار العرب عن فتاوي إفريقية والمغرب والمشهور بـ«جامع المعيار»<sup>(٢)</sup> في الفقه، لأحمد بن يحيى بن محمد التلمساني المشهور بـ«الونشريشي» (ت ٩١٤هـ / ١٥٠٨م)<sup>(٣)</sup>، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد المشهور بـ«التسهيل» في علل النحو، لابن مالك النحوي<sup>(٤)</sup>، وتلخيص المفتاح المشهور بـ«التلخيص» في المعاني والبيان (علم البلاغة) لمحمد بن محمد بن عبدالرحمن بن عمر المعروف بـ«القزويني» (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م).<sup>(٥)</sup>

وفيما يتعلق بالقراءات القرآنية في التلاوة فقد عرفت رواية ورش<sup>(٦)</sup>. وعرف علم التجويد ودرس في غربي إفريقية.<sup>(٧)</sup> أما المدائح النبوية فقد اشتهر منها قصيدة البردة الشهيرة للإمام محمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري<sup>(٨)</sup>، والتي مطلعها:

أمن تذكر جيرانٍ بذى سلمٍ      مزجتَ دمعاً جرى من مقلّةٍ بدم  
وتعرف أيضاً بـ«الكواكب الدرية في مدح خير البرية».

وفي الشعر، ذكرت بعض المصادر أن الطلاب كانوا يدرسون شعر ابن

- (١) انظر مثلاً: إيداع النسخ، ص ٣، ٧؛ نشر المثاني، ص ١٥١؛ تاريخ آداب اللغة، ج ٣، ص ١٥٤.
- (٢) تاريخ السودان، ص ٤٦؛ الفتاش، ص ٩٣.
- (٣) الاعلام، ج ١، ص ٢٥٥، كفاية المحتاج، ترجمة أحمد بن يحيى؛ البستان ص ٥٣؛ شجرة النور الزكية، ص ٢٧٤، ٢٧٥.
- (٤) تاريخ السودان، ص ٤٦؛ كفاية المحتاج، ترجمة الونشريشي، نشر المثاني، ص ١٦٨.
- (٥) تاريخ السودان، ص ٤٥؛ إيداع النسخ، ص ٨؛ بغية الوعاة، ص ٦٦.
- (٦) تاريخ السودان، ص ٢١٨.
- (٧) المصدر نفسه، ص ٥٨.
- (٨) نسبة إلي «بوصير» إحدى قرى مصر، لأن أحد أبويه كان منها. والبردة نسبة إلى بردة الرسول عليه السلام التي توارثها الخلفاء إلى العثمانيين.

دريد<sup>(١)</sup>، وأشعار الشعراء الستة<sup>(٢)</sup> بجانب شعر المديح السالف الذكر. ويلاحظ ان المصادر تغفل كثيرا الإشارة إلى أنواع الشعر الذي كان متداولا، وتكتفي بذكر كلمة «الأشعار»<sup>(٣)</sup>، ولعل ذلك من عدم الاعتناء بالشعر كثيرا. هذا الذي ذكرناه من الكتب والمواد الدراسية يدل بوضوح على أن علماء وطلاب غربي إفريقية لا يقلون في مستواهم الثقافي عن علماء وطلاب العالم الإسلامي المعاصرين لهم.

---

(١) الفتاش، ص ١٨٢.

(٢) إيداع النسخ، ص ٣.

(٣) تاريخ السودان، ص ٣٧.



## **الفصل الثاني عشر**

**التبادل التعليمي مع البلاد الإسلامية**

**خارج غربي إفريقية وداخلها**





## المبحث الأول



## مع بلاد المغرب والصحراء

حفلت هذه الفترة التاريخية بصلات ثقافية واقتصادية<sup>(١)</sup> وسياسية واسعة بين بلاد المغرب وغربي إفريقيا. وكان طابع ثقافة غربي إفريقيا وشمالها عربيا صرفا، لم تشبهُ تأثيرات أخرى، لأن هذه الشعوب التي قطنت غربي إفريقيا لم يكن لها تقاليد ثقافية واضحة كالفرس أو الإغريق الذين أثروا في الثقافة العربية في بيئات الشرق الأدنى<sup>(٢)</sup>. وقد أضيفت الصبغة المغربية إلى الثقافة العربية في غربي إفريقيا، لأن الإسلام دخل إلى هذه المنطقة عن طريق بلاد المغرب منذ القرن الخامس الهجري<sup>(٣)</sup> (الحادي عشر) كما رأينا.

ومنذ هذا الوقت غلبت تعاليم الفقه المالكي أيضا<sup>(٤)</sup>. وتعطينا تراجم العلماء التي جاءت في مصادر تاريخ هذه المنطقة صورة حية لسيادة المذهب المالكي.

كادت معاهد الثقافة الإسلامية في غربي إفريقيا تكون مدارس مغربية بحتة، إذ وجد الأسلوب نفسه والحياة نفسها والمثل والوسائل نفسها، حتى طريقة الكتابة نفسها تأثرت بالطابع المغربي؛ فالقلم المستخدم هو المغربي<sup>(٥)</sup>، لا سيما القلم الفاسي<sup>(٦)</sup>، وقد لفت الخط المغربي نظر العمري عندما علق على خطاب السلطان منسا موسى إلى العاهل المصري في النصف الأول من القرن

---

(١) انظر الفصل الأول.

(٢) دور العرب في نشر الحضارة في غربي إفريقيا، سبق ذكره، ص ٨٠.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المرجع نفسه، ص ٨١.

(٥) المكان نفسه.

(٦) الإسلام واللغة العربية في غربي إفريقيا، سبق ذكره، ص ٧٢؛ قدام ص ١٣٩.

الرابع عشر (الثامن الهجري) قائلا: «ولقد جاء كتاب من هذا السلطان إلى الحضرة السلطانية بمصر وهو بالخط المغربي»<sup>(١)</sup>. ويقول القلقشندي<sup>(٢)</sup>: «وكتابتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة». وما زالت الطريقة المغربية في الكتابة معروفة إلى يومنا هذا، والذي ينظر في المخطوطات العربية لهذه المنطقة يلاحظ ذلك بوضوح، وكتاب «إيداع النسخ» الذي بين أيدينا خير دليل على ذلك، وأيضا رسالة الشيخ محمد الأمين الكانمي إلى أمير جومل (١٢٤١-١٢٥٩هـ / ١٨٢٥-١٨٤٣م) التي كتبت بخط مغربي قيرواني<sup>(٣)</sup>.

ومن خصائص الكتابة المغربية أن نقطة حرف الفاء توضع أسفل الحرف كما يستبدل بنقطتي حرف القاف نقطة واحدة توضع فوق الحرف لتصبح مثل الفاء الحديثة، هذا إلى جانب رسم الحروف الذي يختلف قليلا عن الرسم المعروف في بعض مقاطعه، ويقرب مما نعرفه بالخط الكوفي<sup>(٤)</sup>.

كانت الحركة العلمية والتعليمية مغربية في أرض غربي إفريقية، ولا يعني هذا القول أن هذه الحركة التعليمية لم تتأثر بالحركة التعليمية والعلمية في مصر والحجاز والشام؛ فالحركة العلمية في المغرب عريقة تضرب بجذورها إلى زمن الفتح الإسلامي لهذه البلاد. ويرجع الفضل في انتشارها إلى الله ثم إلى عقبة بن نافع الذي أسس القيروان ومسجدها الجامع<sup>(٥)</sup>، الذي أصبح معهدا دينيا ومنارة ثقافية وحضارية تطاول الزمن وتير الطريق المدلهم عبر القرون

---

(١) مسالك الأبصار، ج٢، ص ٥٠٦.

(٢) صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٩٨.

(٣) Bivar, Arabic Documents of Northern Nigeria, op. cit., pp. 329-330.

(٤) د. طرخان، الإسلام والعربية، سبق ذكره، ص ٧٢.

(٥) الواقدي، فتوح إفريقية، مصدر سبق ذكره، ص ٣؛ رياض النفوس سبق ذكره، ص ٨؛ معالم الإيمان، ج١، ص ٩.

إلى يومنا هذا الذي أصبح فيه جامعة إسلامية، وإلى حسان بن النعمان الذي أسس مدينة تونس ووزع الفقهاء في سائر البلاد لتعليم البربر أصول الإسلام وتثقيفهم، وإلى موسى بن نصير الذي أرسل المعلمين حتى السوس الأقصى وأسس مسجدي تلمسان وأغमत هيلانه<sup>(١)</sup>، وإلى إسماعيل ابن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي كان لقوة إيمانه وحرصه على الإصلاح أبعد الأثر في تقبل البربر للإسلام. وقدم إلى المغرب في عهده عشرة من علماء التابعين من قبل الخليفة عمر بن عبدالعزيز<sup>(٢)</sup>. ومن بين المساجد التي أسست على أيدي هؤلاء التابعين: مسجد الرباط الذي بناه أبو عبد الرحمن المعافري الإفريقي<sup>(٣)</sup>، وجامع الزيتونة بتونس على يد إسماعيل بن عبيد الله (تاجر الله).<sup>(٤)</sup>

كانت المساجد الأولى التي بناها المسلمون معاهد تعليمية كبرى ظلت تؤدي رسالتها حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر)، وتحفظ بعلاقتها الثقافية مع بلدان غربي إفريقية، وأشهرها جامع الزيتونة الذي انتقلت إليه الحركة العلمية من جامع عقبة.<sup>(٥)</sup>

إن أول من اختط هذا المسجد هو حسان بن النعمان الغساني، حوالي سنة ثمانين هجرية (٦٩٩م)<sup>(٦)</sup>. وانتظم التعليم فيه بصورة واضحة منذ ظهور

---

(١) د. سالم، المغرب الكبير، ج٢، ص ٢٩٢.

(٢) المكان نفسه.

(٣) الرقيق القيرواني، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧؛ أبو العرب، مصر سبق ذكره، ص ص ٨٦-٨٧؛ الخلاصة النقية، سبق ذكره، ص ١٣.

(٤) معالم الإيمان، ص ١٣٨، ١٤٨؛ الدكتور سالم، المغرب الكبير، ج٢، ص ٢٩٢.

(٥) انظر: ورقات عن الحضارة العربية، مرجع سبق ذكره، ص ٧، ١١٥.

(٦) انظر: الرقيق القيرواني، ص ٥٥ وما بعدها، رياض النفوس، ص ٣١ وما بعدها؛ فتوح إفريقية والأندلس، ص ٦٢، وما بعدها؛ دبور، ج٢، ص ١١١.



الدولة الحفصية أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر).<sup>(١)</sup>  
أما المعهد الثاني الذي طبقت شهرته الآفاق فهو جامع القرويين، الذي  
تطور إلى جامعة إسلامية حديثة، مازالت تؤدي دورها إلى اليوم.<sup>(٢)</sup>  
بني مسجد القرويين في أيام الأمير يحيى بن محمد بن إدريس بن  
إدريس الحسني<sup>(٣)</sup>، على نفقة أم القاسم فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني  
سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م.<sup>(٤)</sup>  
وأفادت معاهد المغرب العلمية كثيرا من علماء الأندلس، الذين كانوا  
يمرون بالمغرب في طريقهم إلى الحج ويطيب به من يطيب له المقام سواء لظروف  
سياسية أو لرغبة في التعليم<sup>(٥)</sup>. وقد تكاثروا حتى عرف جزء خاص من فاس  
بـ «عدوة الأندلس»<sup>(٦)</sup>. وازداد عدد الأندلسيين بالمغرب عامة بعد سقوط  
غرناطة على يد الفرنجة<sup>(٧)</sup>، ووصلوا في رحلتهم حتى تنبكت.<sup>(٨)</sup>  
لقد حرص طلاب العلم على شد الرحال إلى معاهد المغرب التعليمية  
نسبة لشهرتها. وساهم السلاطين في إرسال البعثات العلمية إلى هذه المعاهد.  
وتشير كتب التاريخ إلى أن السلطان المالي منسا موسى أرسل العالم كاتب  
موسى، إمام المسجد الجامع بتنبت، إلى فاس ليتلقى مزيدا من العلوم

---

(١) ورقات عن الحضارة العربية، ص ١٢٨.

(٢) انظر: الدكتور أحمد البهي الحفناوي: جامعة القرويين ودورها في حفظ ثقافة الإسلام، رسالة  
دكتوراه غير منشورة بمكتبة كلية اللغة العربية، الأزهر، ١٩٧٣م.

(٣) الأنيس المطرب، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ص ٧٦-٧٧.

(٥) انظر: الصلة، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥؛ المراكشي، المعجب، ص ٣٥٨.

(٦) ابن أبي زرع، ج ١، ص ٦٣.

(٧) د. حسن محمود، دور العرب، ص ٨١.

(٨) المكان نفسه.

الإسلامية<sup>(١)</sup>، أما أخوه السلطان سليمان فقد سار على طريقه في حبه لنشر العلم والمعرفة حتى جلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه<sup>(٢)</sup>، والراجع أن أول منبع فكر فيه لجلب هؤلاء العلماء هو المغرب لكثرة العلماء فيه في هذه الفترة، وفي فاس بالذات لكثرة معاهدها ومدارسها ووجود بعض الدلائل على أن فاس كانت تمتد غربي إفريقية حتى بالموظفين الذين يتولون بعض مناصب البلاط الكتابية. ومن أولئك الفاسيين الذين ذكرت المصادر توليهم وظيفة كاتب السلطان، إبراهيم الخضر الفاسي الذي قدم إلى تنبكت وتولى منصب كاتب السلطان في عهد سني علي عاهل سنغي<sup>(٣)</sup>.

وكان العلماء في حركة دائبة بين المغرب وغربي إفريقية، وبين بلدان غربي إفريقية فيما بينها. ومن هؤلاء العلماء المغاربة الذين تركوا بصمات قوية في تاريخ التعليم الإسلامي في غربي إفريقية والدعوة الإسلامية الإمام المغيلي. فهو مثال حي للتبادل التعليمي بين المغرب وغربي إفريقية مما يدعونا للوقوف عنده طويلا لتعرف شخصيته وآثاره العلمية. والشخصية العلمية الثانية التي تسترعي الانتباه في هذا المجال هي شخصية الفقيه مخلوف البلبالي. والشخصية الثالثة هي شخصية العالم العاقب الأنصمني.

#### ١ - المغيلي (ت ٩٠٩هـ / ١٥٠٤م)

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالكريم بن محمد المغيلي التلمساني<sup>(٤)</sup>. ولد في تلمسان شمالي غربي الجزائر من أسرة بربرية من قبيلة مغيلة. قضى شبابه في تعلم مبادئ القرآن حتى حفظه بسرعة، وواظب على الدرس والتحصيل

(١) تاريخ السودان، ص ٥٧.

(٢) مسالك الأبصار، ص ٤٩٤ (لم ينص صراحة على الجهة التي جلب منها علماء المالكية).

(٣) تاريخ السودان، ص ٦٨.

(٤) نيل الابتهاج، و ٣٠٤؛ شجرة النور الزكية، ص ٢٧٤.

حتى أصبح من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان ولا يشق لهم غبار، ووصف بأنه خاتمة الأئمة المحققين، العالم العلامة والقدوة الصالح.<sup>(١)</sup>

كان المغيلي من العلماء الغيورين على الإسلام، ووصلت به هذه الغيرة إلى أن يفتي بقتل يهود مدينة توات المغربية لتطاولهم على المسلمين وتعديهم على حقوقهم عندما بنوا معبدا لهم دون إذن، وقيل إنه أوصى بدفع سبعة مثاقيل ذهب عن كل رأس يهودي<sup>(٢)</sup>. وكانت النتيجة أن نفذ أمره وأوقع باليهود<sup>(٣)</sup>. وقصته مع يهود هذه المدينة مشهورة. وقد اغتالوا أحد أبنائه في غيبته خارج بلاده<sup>(٤)</sup>، انتقاماً من والده الذي أوقع بهم من قبل.

وأكثر ما يهمنى الآن هو الجانب الخاص برحلته العلمية إلى بلاد غربي إفريقية. غادر المغيلي بلدة توات إلى بلدة أهير ثم بلدة تكده - من بلاد جنوب المغرب من جهة بلاد غربي إفريقية - بعد إيقاعه باليهود في توات<sup>(٥)</sup>. واجتمع في تكده بحاكمها ومكث بين ظهرائي أهلها مدة من الزمن كان يمارس فيها التدريس والوعظ. وأفاد أهل هذه البلاد كثيراً قبل أن يغادرهم إلى بلاد غربي إفريقية المجاورة لتكده<sup>(٦)</sup>. ويذكر أنه امتحن على يد حاكم تكده وأثبت جدارة وحصافة. وبنى مسجداً في قرية اياتول شمالي شرقي أجاديس، حيث أخذ يدرس أهالي المنطقة.<sup>(٧)</sup>

---

(١) المكانان نفسهما.

(٢) الدكتور زكي، المراجع العربية، سبق ذكره، ص ٢٠.

(٣) المرجعان والمكانان أنفسهما.

(٤) النيل، ورقة ٣٠٥.

(٥) المكان نفسه.

(٦) المكان نفسه، يفهم من كلام التبكي أن أهير وتكده ليستا من بلاد غربي إفريقية وهناك من يعدهما

من بلاد غربي إفريقية، منهم السيد عبدالعزيز بطران. انظر: Batran, op. cit., p. 390

Loc. cit. (٧)

من الذين حضروا دروسه في تكده الفقيه محمد بن أحمد بن أبي محمد التاذختي<sup>(١)</sup>، المعروف بـ «أيد أحمد»<sup>(٢)</sup>، والعاقب الأنصماني<sup>(٣)</sup>.

واتجه المغيلي من تكده إلى كانو. والتقى بحاكم كانو، الذي لم يذكر أحمد بابا اسمه واكتفى بقول: «اجتمع بصاحب كانو»<sup>(٤)</sup>، ولكن الراجح أنه التقى بمحمد رمفا،<sup>(٥)</sup> الذي كان يتربع على عرش كانو في الفترة ٨٦٧ - ٩٠٤ هـ / ١٤٦٣ - ١٤٩٩ م، أو ابنه الذي حكم في الفترة ٩٠٤ - ٩١٤ هـ / ١٤٩٩ - ١٥٠٩ م لأن المغيلي رجع إلى بلاده بعد أن طوف ببلاد أخرى مثل كاتسينا وجاو، ومات بعد رجوعه إلى بلاده.

لقد استفاد حاكم كانو من المغيلي في الفترة التي قضاها ببلاده، وكتب له رسالة في أمور السلطنة يحضه فيها على اتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

واسم هذه الرسالة «تاج الدين في ما يجب على الملوك»<sup>(٦)</sup>. واستفادت منه الرعية، وأصبح قاضيها ومفتيها ومعلمها الذي ترك آثارا، وأصبح شمسا في زمانه.<sup>(٧)</sup>

غادر الشيخ المغيلي كانو إلى كاتسينا، وقام بالدور نفسه الذي قام به في البلاد التي مر بها<sup>(٨)</sup>، وله مجهودات طيبة في هذه البلاد. وقد اختلف

---

(١) نسبة إلى تاذخت، وهي بلدة بالقرب من والاتا، انظر: Batran, Ibid, p. 391.

(٢) تاريخ السودان، ص ٣٩، النيل، و ٣٠٥. (وكلمة «أيد» معناها ابن كما يذكر السعدي).

(٣) النيل، و ١٨٠، ٣٠٥.

(٤) نفسه، و ٣٠٥.

(٥) See, Al-Hajj, op. cit., P. 11, Hunwick, Source Materials for the History of Songhai, Bornu

and Husaland in the 16th C., J. H. S. N, V11, 3 (1974), p. 584.

Batran, op. cit, p. 391. (٦)

See, Loc. cit. (٧)

Loc. cit. (٨)

الباحثون في اسم العاهل الكاتسيني الذي قدم في عهده المغيلي، إذ يذهب بارث وبالم<sup>(١)</sup> إلى أنه إبراهيم ماجي، أما هوجبن وكيرك<sup>(٢)</sup> فيريان أنه محمد كوراو، ويرى بطران<sup>(٣)</sup> أنه من الممكن أن يكون إبراهيم الذي ذكر في رسالة السيوطي إلى ملوك التكرور - وهي بدون تاريخ - والذي كان معاصرا لمحمد سطفو سلطان أجاديس (٨٩٣-٨٩٩هـ / ١٤٨٧-١٤٩٣م)، وهذا احتمال قريب، أما اسمث فيذهب إلى أن المعني هو إبراهيم سرا، ولكن طبقا لتواريخه التي وضعها لحكام كاتسينا فإن إبراهيم سرا أصبح حاكما في سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١م بينما توفي السيوطي سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م.<sup>(٤)</sup>

بعد ذلك وفي سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م زار المغيلي جاو عاصمة دولة سنغي ولقي حاكمها آسكيا الحاج محمد، ولم يكتمه أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر، وألف له مؤلفا أجاب به فيه عن أمور كانت تشكل عليه.<sup>(٥)</sup>

سمع المغيلي بمقتل ابنه على يد يهود توات وهو في جاو، فانزعج لذلك الخطب الجلل، لأن فيه عداوة الدين وقتل الولد. وفي ثورة من الغضب الجامح

---

(١) Loc. cit.

(٢) The Emirates of Northern Nigeria, op. cit., pp. 161-181.

(٣) Op. cit., p. 392.

(٤) Loc. cit.

(٥) نيل الابتهاج، و: ٣٠٥؛ محمد بن عبدالكريم المغيلي: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تقديم وتحقيق الدكتور عبدالقادر زبادة، الجزائر ١٩٧٤. (هذا المؤلف عبارة عن سبعة أسئلة وجهها آسكيا الحاج محمد إلى الإمام المغيلي للإجابة عنها. ويرجع زبادة أن تاريخ المؤلف كان سنة ١٥٠٢هـ / ١٥٠٣م انظر: ص ٦ من التحقيق - وقد عثر الدكتور زبادة على مخطوطتين من هذه الأسئلة إحداها في الجزائر والأخرى في باريس). ويقول هنوك إنه قد أعد تحقيقا باللغة العربية لهذا المؤلف معتمدا على خمس مخطوطات وترجمة إنجليزية ودراسة لأفكار المغيلي، وسيصدر في سنة ١٩٧٥م انظر: Source Mat. p. 580. وتدور هذه الأسئلة حول دور العلماء في نصيح الحكام، وهل سني على مسلم أم كافر، ومن ثم ماذا يحدث لممتلكاته والأرقاء المشكوك في أمرهم، وغيرها من الأسئلة السياسية والاجتماعية. انظر نموذجا لها في الملحق رقم (٥).



طلب من أسكيا محمد أن يعتقل كل يهود توات القاطنين بمدينة جاو، ففعل السلطان ذلك، ولكنه أفرج عنهم بعد سماع رأي الفقيه القاضي محمود أقيت، الذي أقنعه بأن لا ذنب جنوه يكون سببا في أن يرسفوا في الأغلال.<sup>(١)</sup> ولم يسع المغيلي إلا أن يغادر إلى بلاده توات، ومات فيها بعد قليل من وصوله.

والمغيلي من العلماء القلائل الذين حفظت مؤلفاتهم وبقيت ذكراهم إلى يومنا هذا في غربي إفريقيا. وأصبحت كتاباته مصدرا مهماً من مصادر التاريخ الإسلامي والتعليم الإسلامي والعلوم الإسلامية الأخرى بغربي إفريقيا. وقد ساعدت اقتباسات المتأخرين من العلماء من آراء الشيخ المغيلي على حفظ أسماء مؤلفاته، ومن أولئك الذين اقتبسوا منه وأفادوا من كتبه الشيخ عثمان بن فودي وأخوه عبدالله في مؤلفيهم: «نجم الإخوان» و«ضياء السلطان»<sup>(٢)</sup>. وللشيخ المغيلي مؤلفات عدة وضع الباحثون أيديهم عليها وتناقلتها الكتب،<sup>(٣)</sup> نذكر منها ما يلقي الضوء على شخصية هذا الفقيه العلمية ومكانته، منها:

١ - تعريف فيما يجب على الملوك، ويوجد نص عربي كتبه محمد زايان بن محمد المأمون وزير كاتسينا، ونشر ببيروت سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م، وترجمه ت. هـ. بالدون بعنوان: «واجبات الأمراء». ويوجد منه بالرباط تحت الرقم ٥٢٩، ٩<sup>(٤)</sup>. ولم يذكر أحمد بابا الاسم المباشر لهذا المؤلف، بل وصفه.<sup>(٥)</sup>

٢ - مختصر مايجوز للحكام في رضاء الناس عن الحرام، وقد اقتبس من

---

(١) النيل، و ٣٠٥.

(١) الأول لعثمان والثاني لعبدالله - Bivar and Hiskett, The Arabic Lit. of N., op. cit., p. 107

(٣) من الكتب التي ذكرت جزءا من هذه المؤلفات: شجرة النور الزكية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٤.

(٤) Bivar and Hiskett, op. cit., p. 107.

(٥) النيل، و ٣٠٥.



مادته الشيخ عثمان بن فودي في كتابه تنبيه الإخوان، وكان موجهها بالاسم إلى عبدالله محمد بن يعقوب (أي محمد رمفا) سلطان كانو، ويذكر الشيخ عثمان أن هذا كتب في سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م. (١)

٣ - مؤلف فيه أجوبة لأسئلة مقدمة من أسكيا الحاج محمد، ولم يسمه أحمد بابا بأكثر من «...» وألف له تأليفا أجابه فيه عن مسائل (٢). وتوجد نسخة مخطوطة في دكاك بتاريخ ١١٢٧هـ / ١٧١٥م، بقلم أحمد بن عبدالرحمن ابن علي بن مبارك الدرعي. (٣)

٤ - تأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار. يوجد بالرباط. ومنشور بالفرنسية، مادة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م. (٤)

٥ - أحكام أهل الذمة. ذكره بروكلمان. (٥)

٦ - ورقات في عمل اليوم والليلة. نشر بالفرنسية. (٦) والمؤلفات التالية ذكرها التنبكتي (٧):

٧ - البدر المنير في علم التفسير، وتفسير سورة الفاتحة.

٨ - مصباح الأرواح في «أصول الفلاح». وقد وصفه أحمد بابا بالغرابة، وهو في كراسين؛ أرسله إلى العالمين السنوسي وابن غازي لإبداء الرأي فيه. (٨)

---

(١) Bivar and Hisk., p. 107.

(٢) النيل، و ٣٠٥.

(٣) Bivar and Hisk., p. 100.

(٤) Loc. cit.

(٥) CAL, Suppl. 11, p. 369.

(٦) Bivar and Hiskett, op. cit, p. 108.

(٧) النيل، و ٣٠٥.

(٨) المكان نفسه.

- ٩ - المغني النبل في شرح مختصر خليل.
- ١٠ - إكليل المغني.
- ١١ - شرح بيوع الأجال لابن الحاجب. وقد ذكر له ابن مريم<sup>(١)</sup> مؤلفا آخر اسمه «السييل في بيوع آجال خليل».
- ١٢ - مختصر تلخيص المفتاح للقزويني وشرحه.
- ١٣ - تأليف في المنسيات.
- ١٤ - مفتاح النظر في علم الحديث، فيه أبحاث مع النووي في تقريبه.
- ١٥ - شرح الجمل للخونجي في المنطق.
- ١٦ - المقدمة في المنطق.
- ١٧ - منح الوهاب، وهي منظومة شعرية في المنطق، عرفت بمنظومة المغيلي في المنطق أو رجز المغيلي في المنطق.
- ١٨ - شروح على المؤلفات السابقة في المنطق.
- ١٩ - تنبيه الغافلين عن الملبسين بدعوى مقامات العارفين. وهذا العنوان ربما يكون لعثمان بن فودي معرفة به لأن له صدى في مؤلف له باسم «تنبيه الغافلين وتنظيم الأخبار»<sup>(٢)</sup>.
- ٢٠ - شرح خطبة المختصر.
- ٢١ - المقدمة في العربية.
- ٢٢ - الفتح المبين.
- ٢٣ - عدة قصائد كالميمية على وزن البردة.

(١) البستان، ص ٢٥٥.

(٢) Bivar and Hisk., op. cit., p. 109.

وجاء اسم المؤلف في: Kensdale, Field Notes, op. cit, p. 167

وعلى ضوء هذه المؤلفات يبدو لنا جلياً علو كعب المغيلي في الدراسات الإسلامية والفلسفية والعربية، ولا غرو في ذلك، فقد كان نداً<sup>(١)</sup> للسيوطي وطبقته من علماء عصره، وراسل السيوطي وجادله في علم المنطق شعراً، ومما قاله مخاطباً السيوطي:

سمعت بأمر ماسمعت بمثله	وكل حديث حكمه حكم أصله
لئن صح عنهم ما ذكرت فكم هم	وكم عالم بالشرع باح بفضله
أيمكن أن المرء في العلم حجة	وينهى عن الفرقات في بعض قوله
هل المنطق المعني إلا عبارة	عن الحق أو تحقيقه حين جملة
معانيه في كل الكلام وهل ترى	دليلاً صحيحاً لا يرد لشكله
أراني هداك الله منه قضية	على غير هذا تنفه عن محله <sup>(٢)</sup>

ومن الأبيات التي رد بها السيوطي عليه قوله:

حمدت إله العرش شكراً لفضله	وأهدي صلاة للنبي وأهله
عجبت لنظم ماسمعت بمثله	أتاني عن حبر أقر بنده

وختمها بقوله:

سلام على هذا الإمام فكم له	لدي ثناء واعتراف بفضله <sup>(٣)</sup>
----------------------------	---------------------------------------

وجاء هذا الرد في اثني عشر بيتاً. ومن خلال أبيات السيوطي في الرد عليه يرى المغيلي صاحب قدح معلى وشمس ساطعة، وتكفيه شهادة عالم زمانه الإمام السيوطي واعترافه بنديّة المغيلي له.

---

(١) ويعترف السيوطي بهذه الندية في شعره الذي جادل فيه المغيلي في علم المنطق:

عجبت لنظم ماسمعت بمثله . . أتاني عن حبر أقر بنده

(٢) نيل الابتهاج، و: ٣٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

## ٢ - مخلوف البلبالي<sup>(١)</sup>

هو الفقيه مخلوف بن علي بن صالح البلبالي<sup>(٢)</sup>. وهذا الفقيه مثال حي للعالم الرحلة الذي يجوب بلاد غربي إفريقية الإسلامية وبلاد المغرب في طلب العلم والمعرفة؛ فعلى الرغم من أنه اشتغل بالعلم على كبر إلا أنه برز فيه ورحل من أجله حتى قيل فيه «الحافظ الرحلة»<sup>(٣)</sup>.

ترك البلبالي مهنة التجارة وسعى وراء العلم. وأول من تتلمذ عليه هو الشيخ عبدالله بن عمر بن محمد أقيت ببلاد والأتا<sup>(٤)</sup>. وعندما رأى منه الفقيه عبدالله نجابة ورغبة حضة على طلب العلم، فكان ذلك دافعا قويا له ليرحل إلى المغرب ويتلقى العلم على جهابذة العلماء المغاربة أمثال الشيخ ابن غازي ورصفائه<sup>(٥)</sup>، وأشتهر بعد ذلك بقوة الحافظة التي أثارت العجب. ومما يحكى عنه أنه حفظ صحيح البخاري<sup>(٦)</sup>.

وبعد أن روى ظمأه إلى المعرفة في المغرب عاد إلى غربي إفريقية ليعمل بما عنده من علم. ودخل كانو وكاتسينا وغيرهما، وقام بالتدريس فيها<sup>(٧)</sup>. والتقى في هذه البلاد بالفقيه العاقب الأنصمني وجرت بينهما أبحاث في بعض المسائل الدينية<sup>(٨)</sup>.

وبعد أن أفاد واستفاد غادر بلاد غربي إفريقية الشرقية إلى تنبكت ومارس

---

(١) نسبة إلى بلبال (أو تبلبلت) وهي واحة بالقرب من توات. انظر: N. Levtzion, Ancient Ghana and Mali, op. cit., p. 202.

(٢) النيل، و٣٢٣، تاريخ السودان، ص٣٩؛ شجرة النور الزكية، ص٢٧٨.

(٣) النيل، و٣٢٤.

(٤) المكان نفسه؛ تاريخ السودان، ص٣٩؛ شجرة النور، ٢٧٨.

(٥) النيل، و٣٢٤.

(٦) المكان نفسه.

(٧) المكان نفسه؛ تاريخ السودان، ص٣٩؛ شجرة النور، ص٢٧٨.

(٨) النيل، و١٨٠، ٣٢٤، تاريخ السودان، ص٣٩.

فيها التعليم والتوجيه جنبا إلى جنب مع مشاهير علمائها<sup>(١)</sup>. ثم تآقت نفسه إلى الرحلة الطويلة مرة أخرى فغادر تنبكت إلى مراكش ليكون بها معلما هذه المرة، ولكنه كما يروي التنبكتي<sup>(٢)</sup>، سم هناك ومرض فرجع إلى بلده، وتوفي بعد الأربعين وتسعمئة من الهجرة/ ١٥٣٣م.

لم يذكر لنا التنبكتي مؤلفات البلبالي، ولكن من الخطأ كما يقول بيفار وهيسكت<sup>(٣)</sup> أن نستنتج أنه لم يعرف له شيء. ويتوصل هذان الباحثان إلى أن محمد بن أحمد بن عبدالرحمن الياستاني يتحدث عن خلاف له مع مخلوف حول قول الياستاني في مسألة من الشعائر الدينية. وفي مؤلفه المشهور «معراج الصعود إلى نيل مجلاب السود» يقتبس أحمد بابا فقرة طويلة وينسبها إلى مخلوف البلبالي. ولما كان حدوث موت مخلوف حوالي ثلاث وثلاثين سنة قبل مولد أحمد بابا (٩٦٣هـ / ١٥٥٥م)، فلا بد أن يكون كاتب الترجمة قد حصل على اقتباسه من مصدر مكتوب. وليس معلوما حتى الآن إن كانت قطعة إنشائية تقليدية أو مادة وثائقية مثل مجموعة أحكام قانونية أو قرارات محكمة شرعية<sup>(٤)</sup>، وربما تكشف الأيام القليلة القادمة عن بعض مؤلفات هذا العالم الجليل في ضوء المؤلفات الصغرى لأحمد بابا.

### ٣- العاقب الأنصمني (ت بعد سنة ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م)

هو العاقب بن عبدالله الأنصمني المسوفي<sup>(٥)</sup>. من المعاصرين القرييين

---

(١) النيل، و: ٣٢٤؛ تاريخ السودان، ص ٢٩.

(٢) المكانان نفسهما.

(٣) The Arabic Lit., op. cit., p. 111.

(٤) Loc. cit.

(٥) النيل، و: ١٨٠، تاريخ السودان، ص ٤١، شجرة النور، ص ٢٧٨. ويلاحظ أن صاحب شجرة النور يخطئ في النقل عن أحمد بابا، فيقول: «العاقب بن عبدالله المسوفي نسبة لقرية بالسودان». وهكذا جعل «مسوفة» اسما لقرية، وهي قبيلة، وكل ذلك لأنه حذف كلمة «الأنصمني».



لمخلوف البلبالي. وما زال مكان إقامته وقرب صلته بمنطقة النيجر موضع جدل وتردد بين المصادر. فالنسخة المخطوطة لكتاب «النيل» الموجودة بالقاهرة والتي اعتمدت عليها تقول عنه: «العاقب بن عبدالله الأنصمني المسوفي من أهل أكدرس بلدة قريبة من بلاد السودان عمرها سنهائة»<sup>(١)</sup>، ويذكر الباحثان بيفار وهيسكت<sup>(٢)</sup> أن النسخة التي استخدمها كيربونيو Cherboneau قد ذكرت في عدة مواطن اسما آخر للبلدة التي ينتمي إليها العاقب، وهو تكرا، ويبدو للباحثين أن هذا الرأي ضعيف ولا قيمة له، وأن المقصود هنا هو بلدة تكدا<sup>(٣)</sup>، ويؤيد ذلك ما ذكره التنبكتي<sup>(٤)</sup> نفسه في «كفاية المحتاج» حين قال: «العاقب ابن عبدالله الأنصمني المسوفي من أهل تكدة قرية عمرها سنهائة، قرب السودان»، وقد اعتمد الإمام بلو<sup>(٥)</sup> على هذا المصدر عندما ترجم للعاقب الأنصمني. أما السعدي<sup>(٦)</sup> الذي اعتمد على النيل فقد ذكر أيضا النص الذي جاء في «الكفاية» و«الإنفاق» نفسه. وفي نسخة من «النيل» بالمتحف البريطاني حُرِّفت كلمة «الأنصمني» قليلا فأصبحت «الأنصري»<sup>(٧)</sup>. ولعل هذا التحريف من الناسخ، ولم ينص على الاسم تكدا، ونصه: «العاقب بن عبدالله الأنصري المسوفي من أهل بليدة قريبة من بلاد السودان عمرها سنهائة». وفيما يتعلق بالقليل المعروف عن النسبة «الأنصمني» فإن إمكانية صلتها

(١) النيل، ١٨٠.

(٢) Arabic Lit., op. cit., p. 111.

(٣) خاصة إذا لاحظنا أن رسم حرف الراء في المخطوط يشبه رسم الدال في الكتابة العادية مما يوقع اللبس عند النقل، وفوق هذا فلا يعلم حتى الآن بلدة بهذا الاسم في الصحراء أو غربي إفريقيا.

(٤) ترجمة العاقب الأنصمني.

(٥) إنفاق المسور، ص ٤٠.

(٦) تاريخ السودان، ص ١٤.

(٧) Arabic Lit., op. cit., p. 112.



بأنسامونز Nasamones التي ذكرها هيرودت قوية الاحتمال . وإذا كان الأمر هكذا فيمكن أن تكون أول مثال لاسم قبلي صحراوي ظل موجودا منذ القدم حتى الفترة الإسلامية<sup>(١)</sup> . وقد ذكر التنبكتي<sup>(٢)</sup> أن أنصمن قرية ولكنه لم يذكر مكانها بالتحديد، والراجح أنها قرية من قرى تكده بالصحراء المغربية .

لقد كان العاقب فقيها نبيها ذكيا ومشتغلا بالعلم . وقد ترجم له السعدي<sup>(٣)</sup> ضمن علماء تنبكت البارزين في ميدان الدراسات الإسلامية والتعليم، لأنه أقام في تنبكت وأصبح بذلك نموذجا لنا يلقي الضوء على التبادل التعليمي بين بلدان الصحراء المغربية وغربي إفريقية، فقد تتلمذ على يدي عالم المغرب محمد بن عبدالكريم المغيلي<sup>(٤)</sup> . وربما كان ذلك أثناء إقامة الأخير في عاصمة سنغي، لأن المصادر التي تيسرت لنا حتى الآن لم تفصح عن مكان لقاء العاقب بالمغيلي . وعندما أدى فريضة الحج التقى بشيخ العصر الإمام السيوطي وتتلّمذ عليه وعلى غير هذين العالمين<sup>(٥)</sup> .

لم تغفل المصادر ذكر بعض مؤلفات هذا العالم، فقد ذكر له أحمد بابا<sup>(٦)</sup> عناوين لكتابات يمكن تتبعها ودراستها، وهي :

- ١ - تعليق على قول خليل : وهو حاشية على شرح خليل لمختصره .
- ٢ - وجوب صلاة الجمعة بقرية أنصمن .
- ٣ - الجواب المجدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود (ابن عمر أقيت) .

---

(١) Loc. cit.

(٢) النيل، و ١٨٠ .

(٣) تاريخ السودان، ص ٤١ .

(٤) النيل، و ١٨٠ ؛ تاريخ السودان، ص ٤١ .

(٥) المكانان نفسهما .

(٦) النيل، و ١٨٠ .

٤ - أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير: أجاب فيها السلطان أسكيا الحاج محمد عن استفسارات أرسل بها إليه.

ويستدل من كلمة «وغيرها» التي ذكرها التنبكتي<sup>(١)</sup> في نهاية ذكره لمؤلفات العاقب أن لهذا الشيخ مؤلفات أخرى لم يشأ التنبكتي أن يذكرها، ربما خشية التطويل أو لعدم أهميتها الكبرى لديه.

إن غربي إفريقية مدينة تماما للمغرب في ثقافتها وتعلمها. فقد كانت قبلة الكثيرين من العلماء الذين أخذوا يتوافدون عليها منذ أن سطع نجم الإسلام فيها. وتذكر المصادر التاريخية الكثيرين من هؤلاء العلماء الذين أسهموا في دفع حركة التعليم والحضارة الإسلامية في غربي إفريقية<sup>(٢)</sup>. ففي بلاد الهوسا نرى أن الفقيه عبدالله سك الهوسي يرحل لتلقي العلم في فزان وأجاديس، ويلتقي بابن غانم، ويعود لبلاده ليعمل في المجال التعليمي بما حصله من علم<sup>(٣)</sup>. ويوجد علماء فزانيون جاؤوا إلى بلاد الهوسا، أمثال الشيخ رمضان ابن أحمد الفزاني الذي استوطن بلدة زنفرا (زاريا) الهوسية<sup>(٤)</sup>. وكان من العلماء أصحاب المؤلفات، ذكر بعضها بلو<sup>(٥)</sup>، منها:

١ - نظم على رواة البخاري، أي رواة الفروع عن الأصول.

٢ - الجوهرة في ذم علم النجوم.

أما علماء شنقيط (في موريتانيا الحالية) فقد كانوا أيضا على صلة دائمة

---

(١) المكانان نفساهما.

(٢) انظر: النيل، و١١٢. فقد ترجم التنبكتي لفقيه مغربي وصل إلي والاتا واسمه عبدالله بن أحمد بن سعيد بن يحيى بن معاوية بن عبدالله الزموري، المتوفى بعد سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م.

(٣) إنفاق الميسور، ص ٥٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٥) المكان نفسه.

مع غربي إفريقية منذ ظهور الإسلام على هذه الأرض، فالمسافة قريبة بين المنطقتين. وذكر لنا الشنقيطي بعض العلماء الشناقيط الذين عملوا في أقاليم غربي إفريقية، منهم: سيدي عبدالله بن أحمد دام<sup>(١)</sup>؛ فقد جال هذا العالم في كل ناحية من أنحاء غربي إفريقية<sup>(٢)</sup>، وكان ذلك في صدر القرن الثالث عشر الهجري<sup>(٣)</sup>، (١٩م)، وله قصيدة شعرية مما قاله وهو في بلاد غربي إفريقية، منها:

مِنْ آيْنِ وَأَنْئَى لِلْفَوَادِ صَدُودٌ      وفي كل أرض من بلادك رود  
إذا أنا أزمعت الصدود تلاعبت      بعقدة عزمي أعين وخذود  
فأصبحت مشغوفا بكل مليحة      بدت لي فيفيض بعضهن وسود<sup>(٤)</sup>  
وله قصيدة أخرى أنشدها عندما ترك أولادا له ببلاد غربي إفريقية وعاد إلى وطنه ليطفئ نار شوقه إلى بلده، ولكنه وجد الحنين إلى أولاده أكبر من الحنين إلى الوطن الأم، فقال:

تجلدت للتوديع والقلب جازع      وأخفيت ماكادت تُبين المدامع  
ترقرق دمع لو أطعت غروبه      ذرفن كأجرى ماتفيض الدوامع  
فيا عجباً أخشى الفراق وطالما      حرصت عليه مكرها أنا طائع  
ولست لأمر إن تعاصى بتارك      ولست لمراء في أموري أطاوع  
أصيح إذا قالوا وأتبع ما أرى      وماسيف منقاد القرينة قاطع<sup>(٥)</sup>  
ويلاحظ أن الشنقيط لم يصرح بالمكان الذي كان فيه عبدالله بغربي

(١) أحمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء وعلماء شنقيط، ص ٢٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

(٣) نفسه، ص ٣٠٠.

(٤) نفسه، ص ٢٩١.

(٥) نفسه، ص ٢٩٤.

إفريقية ولكن ذكرت في إحدى قصائد عبدالله كلمة السنغان، في قوله:  
فيرأب ما أثأته<sup>(١)</sup> أيام سالم وأيامنا في ساحه السنغان<sup>(٢)</sup>  
وكلمة جلف في قوله:

وأخرى أقمنا في قرى جلف التي أقمنا بها في ضيعة وهوان  
وكلمتا السنغان وجلف تفيدان بأنه تجول وسط شعوب سنغي والجلف  
وهما من مناطق وقبائل غربي إفريقية الواقعة جنوبي موريتانيا.

أما المهنة التي كان يمارسها هذا العالم فلم تظهر لنا من ترجمته في  
الوسيط. ولكن الراجح أنه كان من العلماء المتفرغين للتعليم فقط، وقوة شعره  
دليل على ذلك، وأيضا في صفة «سيدي» التي أطلقها عليه الشنقيطي دليل آخر  
على أنه كان من العلماء الصالحين.

وقد ترجم الشنقيطي لعالم آخر، هو المختار بن بون الحكني<sup>(٣)</sup>، ولكنه  
لم يذكر له تاريخا ولو بالتقريب. رحل هذا العالم من شنقيط إلى بلاد غربي  
إفريقية ليواصل رسالته التعليمية على الرغم من حاجة طلابه إليه. وعندما عاد  
إلى بلاده ظل يرافقه كبار تلاميذه اعترافا بفضله وبأهميته<sup>(٤)</sup>، ولا عجب في  
ذلك، فقد وصفه الشنقيطي<sup>(٥)</sup> بقوله: «تاج العلماء الذي طوق بحلي علمه كل  
عاطل، ووردت هيم الرجال زلاله فصدر عنه كلهم وهو ناهل، ولا يوجد  
عالم بعده إلا وله عليه الفضل الجزيل».

---

(١) أي ما أصابني من جراح. انظر: ترتيب القاموس المحيط، ج١، ص ٣٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٩١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٩.

(٤) نفسه، ص ٢٨٣.

(٥) نفسه، ص ٢٧٩.

له مصنفات أفاد منها الطلبة والعلماء. وكان من النحاة الضالعين<sup>(١)</sup> الذين شدت إليهم الرحال.<sup>(٢)</sup>

وعرف العلماء الودانيون<sup>(٣)</sup> أيضا في تنبكت، منهم سيدي أحمد الفزاني ابن محمد بن محمد بن يعقوب الحاجي اليعقوبي الوداني، الذي تلقى جزءا من تعليمه على يد الفقيه الحاج أحمد والد أحمد بابا التنبكتي<sup>(٤)</sup>، وهو بدوره تلقى على يديه الدراسات الفقهية سيدي أحمد بن القاسم بن سيدي أحمد بن علي بن يعقوب الوداني الحاجي.<sup>(٥)</sup>

ولسيدي أحمد بن القاسم عدة تلاميذ من شنقيط وودان كانوا في حلقة بتنبكت، وهم سيدي أبو محمد الحاج عبدالله ابن الفقيه محمد الشنقيطي، والفقيه أبو العباس سيدي أحمد بن أحمد بن الحاج الشنقيطي، والفقيه أبو العباس سيدي أحمد بن أحمد بن الحاج الشنقيطي، وسيدي محمد بن أحمد ابن أبي بكر الوداني.<sup>(٦)</sup>

ويوجد علماء تنبكتيون ارتحلوا إلى ودان، منهم سيدي إلياس الذي أقام بودان وتزوج منها، ومات ودفن بها، وأضحت قبته مزارا للمريدين.<sup>(٧)</sup> إن العلاقات الوثيقة بين تنبكت وودان قديمة جدا، إذ كانت ودان في القديم مركزا كبيرا للتعليم الإسلامي، وكان بها كثير من العلماء، كانوا من

---

(١) المكان نفسه.

(٢) نفسه، ص ٢٨٢.

(٣) نسبة إلى إقليم ودان في موريتانيا الحالية. توجد عدة روايات حول تاريخ تأسيسها: رواية محلية تقول بأن ذلك كان سنة ٥٣٥هـ / ١١٤١م، وأخرى تقول سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩. إلخ. انظر:

Sanhaja Scholars of Timbuctoo, op. cit. p. 630.

Loc. cit. (٤)

Loc. cit. (٥)

Loc. cit. (٦)

Loc. cit. (٧)



الكثرة بحيث يجد الإنسان أربعين منزلاً متلاصقة كل واحد منها به عالم. ويوجد اثنان أو ثلاثة من العلماء بينهم منزل أو منزلان وما شابه ذلك<sup>(١)</sup>. وفي الفترة التي نؤرخ لها كانت الطريق بين ودان وتنبتك سالكة، وكانت تنبتك في قمة نشاطها العلمي، وتزخر بالعلماء الذين ترجمنا لمعظمهم، وتمتد جذور هؤلاء بدورهم إلى المغرب، وإن مدينة تنبتك نفسها - كما ذكرنا - أسسها بربر المغرب الضاربون في الصحراء المغربية. وعرف علماء تنبتك المنحدرون من أصول بربرية بـ«البيضان»، وأول هؤلاء البيضان العلماء الذين تولوا الإمامة في المسجد الجامع بتنبتك هو الفقيه سيدي عبد الله البلبابي جد جدة أم والد أحمد بابا<sup>(٢)</sup>، الذي قدم من المغرب إلى تنبتك صحبة الفقيه كاتب موسى عندما عاد من مدينة فاس، ومعه أخوات له<sup>(٣)</sup>. وانتشر علماء البيضان حتى مدينة جنبي، صنو تنبتك، وحلوا محل العلماء الذين ينحدرون أصلاً من أهل البلاد القدماء في المراكز العلمية المهمة<sup>(٤)</sup> منذ نهاية حكم آسكيا الحاج محمد<sup>(٥)</sup>. ونجد في الجزء الشرقي من غربي إفريقيا أن لعلماء المغرب عامة وعلماء مدينة توات خاصة فضلاً كبيراً في إنعاش الحياة العلمية ببلاد برنو. وعرف علماء توات عند أهل برنو بـ«المرابطين» في القرن التاسع الهجري (١٥م)<sup>(٦)</sup>. فقد كتب السلطان البرنوي كدي - في الثلث الثاني من القرن التاسع الهجري - رسالة إلى هؤلاء المرابطين بتاريخ شعبان سنة ٨٤٣هـ / ١٤٤٠م جاء فيها: «من

---

(١) Ibid, p. 639.

(٢) تاريخ السودان، ص ٥٧.

(٣) المكان نفسه.

(٤) نفسه، ص ٢٠.

(٥) نفسه، ص ٥٧.

(٦) ابن يونس، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٥.



السلطان كدي بن حمشيش سلطان برنو أيده الله ونصره وحده.. أما بعد:  
فإلى المرابطين الذين مع الشيخ مختار وسيدي عمر الشيخ وإلى سائر إخوانهم  
وإلى درمقشه المقيم حاليا بتوات. السلام عليكم جميعا. وبعد: فقد عجبنا من  
أمركم، لماذا تركتم عادة كبرائكم؟ لماذا قصرتم عن التزول وإرسال البعثات إلى  
بلادنا منذ عهدكم مع كبيرنا السلطان صغير؟ فأنتم لم تعودوا إلينا منذ ذلك  
الحين، لماذا هذا؟ فإنني أقسم بالله أنه لن يصيبكم أي شيء من الأذى فيما لو  
جئتم، لا من جهتي ولا من أحد غيري، فعليكم أن تأتوا إذن كعادتكم، وكل  
من جاء من توات حاملا معه رسالة منكم لا يسأل عن شيء من الرسوم، لأن  
البلاد بلادكم كما كانت لأنها بلاد أسلافكم، والسلام.<sup>(١)</sup>

والرسالة ذات دلالة عميقة على تاريخ العلاقات الثقافية بين برنو  
والعلماء المرابطين في توات المغربية ودور ومكانة هؤلاء العلماء في الحركة  
العلمية والدعوية في هذه المناطق.<sup>(٢)</sup>

وتولى علماء مغاربة أعلى المناصب الدينية في بعض مناطق غربي  
إفريقية، منهم أبو عبد الله محمد بن وانسول السجلماسي الذي تولى القضاء في  
بلاد كوكو،<sup>(٣)</sup> عندما كانت تحت حكم السلطان المالي ماري جاطة الثاني  
(١٣٥٩هـ / ١٣٧٣م). ولقد استقى ابن خلدون معظم معلوماته عن ملوك مالي

---

(١) نفسه، ص ٢٥٦.

(٢) المكان نفسه.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٤١٧.

اختلف المؤرخون حول مكان ورسم هذه المدينة. فابن يونس (ص ١٧٠) يجعلها عاصمة لبرنو قبل  
ميدغري ويسمياها كوكو، ولم نعرف من أين له بهذا الرأي. وهناك من يرسمها كوكا أو كوكوا  
(البكري ١٨٣)، أما ابن المختار فيرسمها «كوكيا»، ويصفها بأنها دار سلطنة سلطان مالي سني على  
(الفتاش، ٤٤) ولعل كوكيا هذه هي التي يعيها ابن خلدون، لأنه كان يتكلم عن مالي، ويقول في  
الجزء الأول من تاريخه (ص ٤٣) إن ملك كوكو كان مستقلا فيما سبق ولكن استولى على ملكه فيما

من ابن وانسول هذا. وكانت المدينة عامرة بفضلاء الناس من المغاربة. (١)  
لقد زار ابن بطوطة دولة مالي في حوالي منتصف القرن (٨هـ / ١٤م)،  
والتقى فيها بعدد من مسلمي شمالي إفريقيا المقيمين هنا، منهم محمد ابن  
الفقيه الجزولي وصهره الفقيه المقرئ عبدالواحد. (٢)

بعد سلطان مالي ثم هبت على كوكو عاصفة من الاضطرابات الداخلية أدت إلى دمارها بعد أن كانت  
من الدولات التي تحدث عنها المؤرخون العرب كاليقوبي، ووصفها بأنها كانت من أعظم ممالك  
السودان، وأن كل الممالك كانت تخضع لها (البلدان، ١٥٨). ولم يخالف الإدريسي ما قاله اليقوبي  
(المغرب، ص ١١) حين قال: ثم إن ملك مدينة كوكو ملك قائم بذاته، خاطب لنفسه، وله حشم  
كثير ودخله كبير وقواد وأجناد وزى كامل وحلية حسنة. . ولهم بأس وقهر لمن جاورهم من الأمم  
المحيطة بأرضهم. ويذكر القلقشندي أيضا استقلالها (الأعشى، ج ٨، ص ٢٨٥).

وكانت علاقات الدولة الرستمية الودية بغربي إفريقيا مع هذه الدولة، لا سيما في عهد الإمام أفلح  
(المغرب الكبير، ج ٢، ص ٥٧٣). ويلاحظ أن ابن خلدون يطلق اسم كوكو على الأمة التي تقطن  
هذه المنطقة. ويعطي اسما ثانيا لكوكو، وهو كاغو (العبر، ج ٦، ص ٤١٣). والراجح أن كوكو من  
البلدان المجاورة لمالي وغانة والتكرور، وقد حدد القلقشندي مكانها وهو شرق إقليم مالي (الأعشى  
ج ٨، ص ٢٨٥). ويذكر ابن بطوطة أنه زارها بعد مالي ووصفها بأنها مدينة كبيرة على النيل  
(النيجر) من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها. . وتعامل أهلها البيع والشراء بالودع، وكذلك  
أهل مالي (الرحلة، ٤٥٢) ويقول في موضع آخر (ص ٤٤٤): «ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو  
ثم إلى كوكو» وقد ناقش كولي هذه الأسماء المختلفة لكوكو.

إن طبيعة تسرب الإسلام إلى هذه البلاد كان جزئيا (البكري، المغرب، ص ١٨٣) مما جعل روايات  
المؤرخين تتضارب حول إسلامها. فالقلقشندي قال بكفرها (الأعشى، ٥ : ٨٥) وتابعه المقرئ  
(الذهب المسبوك، ص ١١١)، وذكر كل منهما أن ملكها كان يحارب مسلمي غانا والكانم، أما  
البكري (المغرب، ص ١٨٣) فيوضح بأنها مديتان، مدينة الملك ومدينة المسلمين، وأن الملك كان  
مسلمًا ولا يكون الملك في غير المسلمين. ثم جاء بعد ذلك ابن خلدون وقال بأنها مسلمة (ج ١، ص  
١٤٣) ويدل هذا التباين في الآراء على طبيعة دخول الإسلام إلى غربي إفريقيا عامة وبلاد كوكو  
خاصة، وكل ماورد من آراء حول إسلامها يعبر عن مرحلة معينة من تاريخ الإسلام فيها كان  
الحال في غيرها من بلدان هذه المنطقة (انظر: صفحة ١٤٣ من هذا الكتاب).

ضم هذه المدينة إلى مالي السلطان المالي ساكورة (خلدون، ج ٦، ص ٤١٤، صبح الأعشى، ج ٥،  
ص ٢٩٤).

(١) العبر، ج ٦، ص ٤١٧.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ص ٤٥٢.

حظي هؤلاء الأعلام بمكانة اجتماعية كبرى وباحترام خاص لدى سلطان البلاد، حتى إن محمد بن الفقيه تزوج بنت عم السلطان المالي منسا سليمان (٧٦١هـ / ١٣٥٩م). وكانت تقوم هذه المرأة بنفسها في خدمة ضيفهم ابن بطوطة. (١)

جذبت هذه المعاملة الطيبة والمكانة الاجتماعية العالية العلماء والمعلمين حتى من الأندلس ليقوموا بالتدريس في معاهد مالي الإسلامية. ومن أولئك الأعلام: علي بن أحمد بن محمد بن عبدالله الوادي أشي (ت ٧٢٤هـ / ١٣٢٣م) والد ابن الملقن التكروري (ت ٨٠٤هـ / ١٤٠١م) صاحب كتاب طبقات الأولياء (٣). رحل هذا العالم من الأندلس ومن بلدة وادي آش إلى بلاد مالي التي اشتهرت في زمانه - مطلع القرن الرابع عشر الميلادي - باسم «بلاد التكرور»، ومارس التدريس هنا لاسيما تدريس علوم العربية (٤) التي تميز فيها، واشتهر بـ«النحوي». قدم القاهرة من بلاد التكرور وتلمذ على يديه بعض مشاهير المصريين. وفي القاهرة ولد ابنه سراج الدين عمر بن علي المشهور بـ«ابن الملقن» نسبة إلى شرف الدين عيسى المغربي الملقن لكتاب الله بالجامع الطولوني، والذي تزوج أم عمر بن علي وقام بتربيته عندما توفي والده وله من العمر عام واحد. (٥)

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٤٤.

(٢) المكان نفسه.

(٣) طبقات الأولياء ومناقب الأصفياء لابن الملقن التكروري الوادي أشي المغربي، كتاب حققه وقدم له ونشره الأستاذ عبدالله الحبوي بمجلة دعوة الحق: العدد الرابع، السنة الثالثة عشرة (أبريل ١٩٧٠م) ص ١١٠ وما بعدها. وقد اشتهر ابن الملقن بكثرة التصانيف. انظر: الضوء اللامع، ج ٢، ص ٣٧. وج ١٠٠، ١٠٥.

(٤) طبقات الأولياء، المرجع نفسه، ص ١١١.

(٥) المكان نفسه.

إن تاريخ العلاقات الثقافية بين المغرب وبلاد الصحراء وغربي إفريقيا قديم، وظل يزداد بازدياد انتشار الإسلام وتأصله في المنطقتين حتى وصل قمته فيما بعد القرن الرابع عشر الميلادي، لا سيما في القرون: الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر. وظلت أسماء بعض العلماء الأعلام المغاربة معروفة في بلاد غربي إفريقيا. وكانت فتاواهم منارات يهتدي بها طلبة العلم والعلماء في غربي إفريقيا، وحفلت بها مؤلفات علماء غربي إفريقيا وجرت بها الألسن. وقد حوت قصيدة شرب الزلال أسماء معظم هؤلاء المشاعل، بالإضافة إلى مشاهير علماء مصر والأندلس الذين عاشوا في الفترة قبل منتصف القرن الثامن عشر الميلادي.<sup>(١)</sup>

أما التبادل التعليمي بين معاهد غربي إفريقيا المختلفة فقد كان واضحاً جداً، وكان للحج دور كبير فيه، لأن حجاج الجناح الغربي من غربي إفريقيا كانوا يمرون في طريقهم إلى الحج بمدن الجناح الشرقي منها، فيلتقي العلماء بعضهم ببعض سواء في الذهاب أو المجيء، ويتبادلون ما عندهم من معارف ويتعلمون بعضهم على بعض. وكانت تنبكت قطب الرحي في مجال التعليم، إذ كانت تضرب لها أكباد الإبل من أقصى نقطة للجناح الشرقي من غربي إفريقيا والجناح الغربي سعياً وراء التعليم. وكان علماؤها يتجولون في بلاد غربي إفريقيا المختلفة. ويتولون أعلى المناصب الدينية أينما حلوا، ويحظون باحترام العامة والخاصة.

إن أهم بعثة تعليمية ذكرتها المصادر جاءت من مالي إلى بلاد الهوسا وبرنو، وهي البعثة الونغارية<sup>(٢)</sup>. ومما لا شك فيه أن هؤلاء العلماء كانوا من

---

(١) انظر: القصيدة في ملحق رقم (٩).

(٢) K. C. P. 70.

ركائز معاهد تنبكت وجني وجاو.

ومنذ ذلك الحين أخذ العلماء التنبكتيون يتوافدون على بلاد الهوسا وبرنوا، أمثال الفقيه مخلوف البلبالي ومحمد بن أحمد التاذختي<sup>(١)</sup>. ومنهم من أسس معهدا تعليميا، مثل معهد الحنبلين في كاتسينا.<sup>(٢)</sup> أما التبادل التعليمي بين برنو وبلاد الهوسا فقد كان سهلا ومتواصلا لقرب المنطقتين الواحدة من الأخرى.

وعلى الرغم من أن المصادر قد أغفلت ذكر الطلاب الذين وفدوا على تنبكت من مناطق الهوسا وبرنو، إلا أن المنطق يقتضي أن يكون بعض طلاب هذه البلاد من بين المتعلمين في تنبكت، وذلك إذا علمنا أن العالم الباغرمي الشيخ ولولو قد رحل إلى تنبكت لتلقي العلم في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي<sup>(٣)</sup>، وهو من منطقة أبعد من برنو، فلا مندوحة إذن من أن يكون القريبون أكثر ترددا على تنبكت لطلب العلم.

---

(١) انظر: ترجمتهما في هذا الفصل، السعدي، ص ٣٩.

(٢) علي أبوبكر. سبق ذكره، ص ١١٠.

(٣) إنفاق الميسور، ص ٣١.

## المبحث الثاني





# التبادل التعليمي

## مع مصر والسودان العربي والحجاز

### المطلب الأول : مع مصر

لم تكن صلة مصر بغربي إفريقية صلة ثقافية فحسب، بل كانت صلة تجارية أيضاً، وهذه الصلة الاقتصادية بين المنطقتين قديمة؛ فقد كشفت الحفريات الأثرية عن وجود قطع برونزية مصرية في ساحل الذهب (غانا الحديثة). ويؤكد هذا الكشف وجود صلة تجارية قديمة<sup>(١)</sup>. ومن المرجح وجود طريق تجاري قديم من الشرق إلى الغرب مخترقاً دارفور، وصلت عليه السلع المصرية إلى غربي إفريقية.<sup>(٢)</sup>

وازدادت الروابط التجارية بين مصر وغربي إفريقية منذ القرن الرابع عشر. وأبلغ دليل على اتصال هذه العلاقات أن طائفة من أهل كانم رحلوا إلى مصر، وأقاموا واشتركوا بنصيب كبير في تجارتها الداخلية والخارجية، ونمت ثروات بعضهم نمواً عظيماً<sup>(٣)</sup>، بحيث أصبحوا يقومون في عالم التجارة بما تقوم به البنوك الحديثة، ويقترضون السلاطين في مصر<sup>(٤)</sup>. ومثال ذلك ما يذكره

---

(١) د. سر الختم عثمان، مرجع سبق ذكره، ص ٧٥.

(٢) المكان نفسه.

(٣) المقرئزي، السلوك، ص ١٠٣، ١٣٣- ومن هؤلاء الذين نمت ثروتهم عز الدين عبدالعزيز بن منصور الكولبي الكارمي، الذي بلغت ثروته حوالي الخمسة عشر ألفاً من الدراهم، وفي رواية أخرى خمسمئة ألف. انظر: السلوك، ج ٢ ص ١٣٢-١٣٣.

(٤) انظر: د. حسن محمود، دور العرب ص ٧٦؛ التجارة الكارمية، وتجارة مصر في العصور الوسطى، بحث للدكتور صبحي لبيب، نشر بالمجلة التاريخية المصرية: المجلد الرابع، العدد الثاني (١٩٥٢م) ص ٦ ومابعدهما، د. عاشور: العصر الماليكي في مصر والشام، ص ٢٩٠.

المقريزي<sup>(١)</sup> في حوادث سنة ٧١١هـ / ١٣١١م من أن السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (مطلع القرن الرابع عشر الميلادي) اقترض من تجار الكانم مبلغا من المال لدفع قيمة جواهر ثمينة اشتراها من بعض الفرنجية.

ومما يؤكد اهتمام مصر بغربي إفريقية واتجاهها نحوها أن بعض السلاطين المصريين استخدم في بعض الدواوين الحكومية أحد الموظفين المسلمين المتحدثين بلغة التكرور، واسم هذا الموظف: القاضي جمال الدين إبراهيم. وكان يتولى هذا الموظف منصبا سياسيا كبيرا، مما أدى إلى مصرعه في حوادث سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م إثر وشاية به لدى السلطان<sup>(٢)</sup>. وأشار ابن خلدون<sup>(٣)</sup> إلى ترجمان آخر للتكرور هو الشيخ الحاج يونس، الذي كان مقيما بمصر وأمد ابن خلدون بكثير من المعلومات عن غربي إفريقية.

ومن التكاثر من خدم في الجيش المملوكي وترقى حتى وصل إلى أعلى الرتب العسكرية، مثل عنبر التكروري، الذي رقاها السلطان قايتباي في عام ٩٠١هـ / ١٤٩٥م إلى رتبة نائب مقدم الممالك، ثم صار مقدما في عام ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م.<sup>(٤)</sup>

وقد أصبح سكان غربي إفريقية المعروفين بالتكاثر جزءا مهما من المجتمع المصري، يظهرون في المناسبات العامة بين قطاعات الشعب المختلفة. ففي سنة (٨٧٧هـ / ١٤٧٢م) وفي الذكرى السنوية الأولى لوفاة الملك الظاهر المملوكي، مدت الأسمطة في الخيام للقراء والفقهاء، وفرقت الأطعمة على

---

(١) السلوك، ج٢، ص ١٠٣.

(٢) المقريزي، الخطط، ج٣، ص ١٢٢.

(٣) العبر، ج٦، ص ٢٠١.

(٤) مسالك الأبصار، ص ٤٩٤، ٥٠٥، العمري، التعريف، ص ٢٧؛ العبر ج ٥ ص ٤٣٣-٣٤؛ صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٨٦؛ الخطط، ج ٢، ص ٣٢٦؛ بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٥٠، ٣٦١.

أهل الزوايا، وأقيمت المجمعات لكافة الطبقات ومن بينهم التكاثرية.<sup>(١)</sup>  
ولم يقتصر أثر الجالية الغربي إفريقية على الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية فقط، بل تعداه إلى الناحية الثقافية والروحية تاركين بصمات قوية في حياة الشعب المصري إلى يومنا هذا.

كانت هذه الجالية ذات اعتبار في هذا الجانب منذ العصر الفاطمي<sup>(٢)</sup>. واشتهر منهم الشيخ أبو محمد يوسف بن عبدالله التكروري<sup>(٣)</sup>، الذي اعتقد بعض المصريين في صلاحه. وعندما قبض شيدت على قبره قبة وبجانبها مسجد.

وقد جدد هذا المسجد ووسع على يد الأمير محسن مقدم الممالك على عهد الدولة المملوكية الأولى عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م،<sup>(٤)</sup> وعرف بـ«جامع التكروري»<sup>(٥)</sup> وعرفت منية بولاق حتى اليوم بـ«بولاق التكروري»<sup>(٦)</sup> نسبة إلى هذا الشيخ التكروري.

والى جانب أبي محمد عرف عالم تكروري آخر هو الشيخ راشد بن عبدالله التكروري (ت ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م)، وكان من أعيان العلماء الذين التف حولهم المريدون واعتقدت فيهم العامة. وكان مقر إقامته ما يعرف الآن بـ«جامع

---

(١) المقرئزي، السلوك، ج١، ص ٤٩٦٤٨.

(٢) د. طرخان: مصر في عصر دولة الممالك الجراكسة، سبق ذكره، ص ١٥٠.

(٣) الخطط، ج٤، ص ١٣٣.

(٤) المكان نفسه.

(٥) د. طرخان، مصر في عصر الجراكسة، ص ١٥٠.

(٦) يرجع الدكتور عاشور أن النسبة إلى تجار التكرور الذين كانت ترد بضائعهم من قوص عن طريق النيل إلى ساحل بولاق التكرور، وهذا تحريف في الاسم من قبل العوام وبعض الخاصة، ومكانها الآن بالجيزة.

راشد» عند بركة الحبش. (١)

ومن أبناء التكرور الذين اشتهروا بالزهد والتقشف والتعبد الشيخ فاتح ابن عثمان التكروري (ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٣م). فقد قدم من مراکش وأقام بدمياط ولازم أحد مساجدها للتعليم والعبادة، حتى أصبح الجامع يعرف بـ«جامع فتح». وعرف بأنه من أتقياء الناس. (٢)

ومن العلماء التكايرة الذين نراهم نموذجاً حياً للتبادل التعليمي مع مصر العالم الفقيه صبيح بن عبدالله التكروري الكوتاتي الحارس. تلقى تعليمه على الشيخ النجيب والشيخ شمس الدين بن العماد وغيرهما مع ولدي سيده عندما كان في الاسترقاق. وتمكن من شراء نفسه من سيده بخمسمئة درهم جمعها من صناعة الكلوتات (٣). ثم ذهب إلى دمشق عالماً ومتعلماً حتى توفي سنة ٧٣١هـ / ١٣٣٠م عن عمر ناهز السبعين. (٤)

ومنهم الشيخ عبدالملك بن علي الكاظمي الذي تتلمذ على الشيخ النجيب، وعندما شب عن الطوق اشتغل بالتعليم في مصر ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م. (٥)

ومنهم الشيخ محمد بن أحمد بن عثمان بن عبدالله بن سليمان بن العباس الحراز العز التكروري الأصل والقرافي المدفن والمعروف بـ«العز التكروري» أو «العز الغاني» (ت ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م) (٦). حفظ العز القرآن كله

---

(١) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، مخطوط في مجلدين، رقم ٢٧٦ ع بدار الكتب المصرية، ج١، صحيفة ٥٨٢. انظر: د. سر الختم، ص ١٣٤.

(٢) الخطط، ج١، ص ٦٤٣٦٢.

(٣) الدرر الكامنة، ج٢، ص ٣٠٤. (والكلوت نوع من اللباس).

(٤) المكان نفسه.

(٥) المكان نفسه.

(٦) الضوء اللامع، ج٧، ص ٢.

وتتلمذ على بعض مشاهير الفقهاء المصريين.<sup>(١)</sup>

وقد أدى الحج دوراً كبيراً في التبادل التعليمي، حيث تقع مصر على الطريق المؤدي إلى الأراضي المقدسة ومقر الخلافة العباسية، وتعدّ كعبة ثقافية عليا يتمنى كل حاج وعالم أن يتزود منها بالعلم والمعرفة، ويفتخر بالجلوس إلى فطاحل علمائها لتلقي العلوم الإسلامية المختلفة. وكانت بلد الأزهر الشريف الذي طبقت شهرته كل العالم الإسلامي، فقصدوه من كل فج عميق لشرف التتلمذ على مشايخه الميامين.

كان من الحجاج من يمكث فترة بمصر، ثم يواصل رحلته إلى الحج ثم يعود ليمكث فترة أخرى وهو في طريقه إلى بلاده. وتتفاوت مدة بقاء كل عالم حاج بها. بل أثر بعضهم البقاء نهائياً في مصر حتى مات في حلقة العلم. ومن العلماء المشهورين الذين قضوا زمناً ما بمصر في طريقهم إلى الحج، وصرحت المصادر بأنهم تبادلوا العلم مع علماء مصر في الأزهر وتتلمذوا على علمائها: الفقيه أحمد بن عمر بن محمد أقيت<sup>(٢)</sup> والفقيه القاضي محمود بن عمر أقيت<sup>(٣)</sup> والفقيه القاضي العاقب بن محمود أقيت<sup>(٤)</sup> والفقيه أحمد بن أحمد والد أحمد بابا<sup>(٥)</sup> والفقيه محمد بنغ<sup>(٦)</sup> والفقيه محمد بن أحمد التاذختي<sup>(٧)</sup> والفقيه العاقب بن عبدالله الأنصمني<sup>(٨)</sup> والفقيه القاضي محمود

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣.

(٢) انظر: ترجمته، ص ٣٣٥ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: ترجمته، ص ٣٣٦ من هذا الكتاب.

(٤) انظر: ترجمته، ص ٣٣٩ من هذا الكتاب.

(٥) انظر: ترجمته، ص ٣٤٠ من هذا الكتاب.

(٦) انظر: ترجمته، ص ٣٥٠ من هذا الكتاب.

(٧) تاريخ السودان، ص ٣٩-٤٠.

(٨) نيل الابتهاج، و ١٨٠؛ تاريخ السودان، ص ١٤٠، وترجمته، ص ٣٣٩.



كعت<sup>(١)</sup> والفقير صديق تعلل<sup>(٢)</sup> والفقير محمد بن محمد الفولاني الكشناوي<sup>(٣)</sup>  
والفقير عمر بن عثمان الفلاني<sup>(٤)</sup> والفقير عبدالعزيز التكروري<sup>(٥)</sup> والفقير صالح  
الفلاني<sup>(٦)</sup> والشيخ محمد الأمين الكائمي<sup>(٧)</sup>.

أدى كل هؤلاء الأعلام الفريضة ونهلوا من معين مصر العلمي. وهذا  
عدد قليل إذا علمنا أن القوافل التي كانت تمر بمصر في طريقها إلى الحج فيها  
الكثير من العلماء، وإن أغفلت المصادر ذكرهم وركزت على ذكر المشاهير فقط.  
وعندما كثر عدد المقيمين بمصر والوافدين عليها من غربي إفريقيا أسس  
رواق خاص بالأزهر عرف بـ«رواق التكرور»<sup>(٨)</sup>، بالإضافة إلى مدرسة ابن  
رشيقي بالفسطاط التي أسسها أهل كانم<sup>(٩)</sup>.

لم يكن العلماء والأفراد وحدهم هم الذين عبروا الفيافي والقفار رجالاً  
وعلى كل ضامر تلبية لنداء الحج، بل نهج هذا النهج كثير من الحكام الأخيار.  
إن حج السلاطين والملوك قديم قدم الإسلام في غربي إفريقيا: وتذكر  
المصادر التاريخية أن أول من حج من ملوك مالي في القرن الحادي عشر  
الميلادي هو برمندانة<sup>(١٠)</sup>. واقتفى سنته في الحج من جاء بعده من الملوك<sup>(١١)</sup>.

---

(١) انظر: ترجمته، ص ٣٥٢ من هذا الكتاب.

(٢) انظر: ترجمته، ص ٣٤٩ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: ترجمته، ص ٧٨٨ من هذا الكتاب؛ معجم المؤلفين، ج ١١، ص ٢٥٨.

(٤) انظر: ترجمته، ص ٤٩٥ من هذا الكتاب.

(٥) النيل، و ١٣٥.

(٦) معجم المؤلفين، ج ٥، ص ١٦.

(٧) انظر: ترجمته، ص ٣٤٦.

(٨) مسالك الأبصار، ص ٤٩٢.

(٩) صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٨١؛ الخطط المقرزية، ج ٤، ص ١٩٥.

(١٠) العبر، ج ٦، ص ٤١٣؛ صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٩٣؛ الذهب المسبوك، ص ١١٠.

(١١) صبح الأعشى، المكان نفسه.

واشتهر منهم منسا علي بن ماري جاطة (٦٦٩هـ / ١٢٧٠م) الذي زار مصر وهو في طريقه إلى الحج عام ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م في عهد السلطان الظاهر بيبرس<sup>(١)</sup> والسلطان ساكوره (سيكره، ساكبوره، صاكوره) المتوفى سنة (٧٠٠هـ / ١٣٠٠م<sup>(٢)</sup>).

أما أشهر السلاطين الحجاج في القرن الثامن الهجري (١٤م) فهو السلطان المالي موسى بن أبي بكر سالم التكروري<sup>(٣)</sup>، المشهور بـ«منسا موسى»، الذي قدم إلى مصر في طريقه إلى الحج سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٣م في عهد الناصر بن قلاوون<sup>(٤)</sup>. واشترى في مصر عددا من الكتب الإسلامية لاسيما الكتب المالكية<sup>(٥)</sup>.

وفي القرن العاشر (السادس عشر) أدى فريضة الحج عاهل سنغي آسكيا محمد الذي اشتهر فيما بعد بآسكيا الحاج محمد. وذاع صيت هذه الحجة لما لصاحبها من صدقات على الناس في الأراضي المقدسة ونيله لقب خليفة على بلاده من قبل الخليفة العباسي الاسمي في مصر آنذاك<sup>(٦)</sup>. ولقي بمصر الكثير من العلماء الفقهاء مثل الجلال السيوطي، وسألهم عن أشياء فأفتوه عنها<sup>(٧)</sup>. وعني مايات برنو أيضا بأداء فريضة الحج عن طريق مصر، ومنذ القرن (٥هـ / ١١م)، منهم الماي أوم (حوالي سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م). وقد توفي

---

(١) الذهب المسبوك، ص ص ١١٠-١١١، صبح الأعشى؛ المكانان نفساهما.

(٢) صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٩٤؛ العبر ج٥، ص ص ٤٣٣-٤٣٤؛ الذهب المسبوك، ص ١١١.

(٣) الدرر الكامنة، ج٥، ص ١٥٤.

(٤) المصدر نفسه والجزء، ص ١٥٥؛ الذهب المسبوك، ص ١١٢.

(٥) المكانان نفساهما.

(٦) تاريخ السودان، ص ٧٣.

(٧) تاريخ الفتاش، ص ٦٨.

بمصر ودفن بها في عهد الخليفة الفاطمي المستعلي أحمد (٤٨٧-٤٩٥هـ / ١٠٩٤-١١٠١م)<sup>(١)</sup>، والمالي الهادي دوغمة بن أوم الذي حج أكثر من مرة وغرق في حجته الثالثة حوالي سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م، وقيل إن الفاطميين كانوا وراء ذلك خشية سطوته<sup>(٢)</sup>. ولا نظن أن الإغراق من أساليب التخلص من الأعداء السياسيين. وهكذا اشترك الرعية والراعي في أداء رحلة الحج والإفادة من لقاء مشاهير العلماء في مصر والحجاز. وظل هذا التقليد في أداء الحج حتى يومنا هذا، وإن كانت سبل المواصلات الحديثة قد جعلت منها رحلة مباشرة ويسيرة جداً.

أما الطرق التي كان يتبعها حجاج غربي إفريقية فهي: طريق عبر دارفور وكردفان إلى مدينة سنار، ثم عبر الصحراء إلى ميناء سواكن على البحر الأحمر، ثم إلى جدة عن طريق السفن الشراعية<sup>(٣)</sup>. وطريق آخر يتفرع من هذا عند سنار فيتجه إلى دنقلة محاذيا للنيل ثم إلى أرض المحس فمصر. ومن مصر إلى الحجاز. والطرق الأخرى هي الطرق التجارية نفسها التي تربط شمالي إفريقية مع غربي إفريقية ابتداء من درب الأربعين في السودان النيلي العربي حتى طريق تنبكت سجلماسة في أقصى المغرب<sup>(٤)</sup>. وأكثر الطرق التي كانت تسلك هي الطريق البري عبر فزان والطريق البحري من مواني المغرب إلى مصر<sup>(٥)</sup>.

---

(١) د. طرخان: إمبراطورية البرنو الإسلامية، سبق ذكره ص ٧٢.

(٢) The Bornu Sahara and Sudan, op. cit., pp. 91, 163, 164.

(٣) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، سبق ذكره، ص ٣٩.

(٤) انظر: الفصل الأول من الكتاب، بوركهارت، المصدر نفسه، ص ٢٨٥.

(٥) نفسه، ص ٣٢٢.

ويعارس الحجاج بجانب التعليم البيع والشراء أثناء الطريق<sup>(١)</sup> حتى يمكنهم تغطية نفقات الرحلة، وعرفوا لدى أهل المشرق عامة بـ«التكاررة»<sup>(٢)</sup>.

وفي ختام هذا المطلب نلقي بعض الأضواء على بعض العلماء المصريين الأزهرين الذين أفاد منهم وتلمذ عليهم بعض الوافدين من العلماء والطلاب والحجاج الذين قدموا إلى مصر طلبا للعلم أو طلبا للحج والعلم من جميع أرجاء غربي إفريقية، منهم:

١ - خالد الأزهري : هو خالد بن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن أحمد الجرجاوي الأزهري المصري الشافعي، يعرف بـ«الوقاد» زين الدين. كان من النحاة اللغويين. ولد بـجرجة من قرى الصعيد سنة ٨٣٨هـ / ١٤٣٤ تقريبا. وتوفي بالقاهرة سنة ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م. وله مؤلفات منها:

١ - المقدمة الأزهرية في علم العربية.

٢ - الألفاظ النحوية.

٣ - الحواشي الأزهرية في حل ألفاظ المقدمة الجزرية.

٤ - الزبدة في شرح البردة.

٥ - تمرين الطلاب في صناعة الإعراب.<sup>(٣)</sup>

وهو ممن تتلمذ عليهم الفقيه أحمد بن عمر أقيت عام ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م أثناء مروره بالحج.<sup>(٤)</sup>

٢ - السيوطي : ترجم السيوطي لنفسه في مؤلفه المشهور «حسن المحاضرة»<sup>(٥)</sup>. وهو عبدالرحمن بن الكمال بن أبي بكر بن محمد بن سابق

---

(١) المكان نفسه.

(٢) انظر: تحقيق هذا الاسم: ملحق رقم (١١) ص ٧٩٦.

(٣) معجم المؤلفين، ج ٤، ص ٩٦.

(٤) النيل، ورقة ٦٤؛ تاريخ السودان، ص ٣٧.

(٥) انظر: ص ١٤٠.

الدين بن الفخر بن عثمان بن ناظر الدين بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيرى الأسيوطى. وذكر أن جده الأعلى همام الدين كان من رجال الصوفية، وأن من دونه كانوا من أهل الوجاهة والرياسة، وأنه لا يعرف منهم من خدم العلم حق الخدمة إلا والده. وترجم له بما يناسب مقامه<sup>(١)</sup>، وسمع أن جده الأعلى كان أعجمياً، وأما نسبه بالخضيرى فقد رجح أن تكون محلة ببغداد،<sup>(٢)</sup> وذكر أنه ولد في سنة ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م، وتكلم عن تعليمه والكتب التي درسها وتاريخ بدايته التأليف والتدريس.<sup>(٣)</sup>

لقد حفظ القرآن وهو دون الثامنة، وشرع في التدريس وهو ابن سبع عشرة سنة، وتولى الإفتاء سنة ٨٧١هـ / ١٤٦٦م في الثانية والعشرين من عمره<sup>(٤)</sup>، وفي هذا دليل على نبوغه واستحقاقه لقب عالم زمانه.

اهتم الباحثون بهذه الشخصية الفريدة، وترجمت له معظم كتب<sup>(٥)</sup> التراجم العربية والإفرنجية لما له من فضل كبير في مجال الثقافة والعلم. لقد أمد السيوطى المكتبة الإسلامية العربية بمؤلفات جمة صرح بجزء منها في قوله: «وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمئة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه»<sup>(٦)</sup>. واستغرق ذكره لهذه المؤلفات أربع صفحات؛ منها ٢٣ مؤلفاً في

(١) المصدر نفسه، ص ١٨٧.

(٢) نفسه، ص ١٤٠.

(٣) نفسه، ص ص ١٤٠-١٤١.

(٤) نفسه، ص ١٤١.

(٥) مثلاً: CAL, Suppl. 11.p. 198, 307.

- محمود رزق، ص ص ٦٨٣-٥٥.

- الزركلى، ج٤، ص ص ٧٠-٧١.

- تاريخ آداب اللغة، ج٣، ص ص ٢٤٥-٥٠ الخ.

(٦) المصدر السابق، ص ١٤١.



التفسير ومتعلقاته، و ٩٥ في الحديث، و ٢١ في اللغة، و ٤٣ في الأجزاء المفردة، و ٣٥ في العلوم العربية، و ٢١ في الأصول والبيان والتصوف، و ٥٠ في التاريخ والآداب وغير ذلك. ولا يزال أكثر مؤلفاته باقيا. وقد أفاض بروكلمان في ذكر ما تبقى منها ومكان وجوده أو سنة طبعه مرتبا حسب الفنون، فبلغ ذلك ٣١٦ كتابا ورسالة<sup>(١)</sup> وقال بعض المؤرخين إنها بلغت خمسمئة، وذكر ابن إياس، تلميذ السيوطي، أنها بلغت ستمئة<sup>(٢)</sup>. وذكر محمود رزق جانبا كبيرا من هذه المؤلفات مع وصف موجز لكل مؤلف حسبما شاهده في تطوافه على المكتبات في الداخل والخارج<sup>(٣)</sup>. وقد ذكرنا جانبا من أهم مؤلفاته التي اشتهرت في التعليم الإسلامي بغربي إفريقية في الفصل العاشر من هذا الكتاب.

وعالم هذا إنتاجه وطول باعه لا بد أن يكون مقصد طالبي العلم من كل العالم الإسلامي. وقد زودتنا المصادر التاريخية بأسماء العديد من العلماء والحكام الذين التقوا بهذا العالم الجليل ليكونوا من بين تلاميذه، من بينهم الفقيه أحمد بن عمر أقيت والقاضي محمود كعت وآسكيا الحاج محمد. وكتب السيوطي رسالة إلى أمراء التكرور عموما ولسلطان كاتسينا وأجاديس خاصة<sup>(٤)</sup>. وجاءت معرفته لهذه المنطقة عن طريق الزيارة العلمية التي قام بها إلى هذه المنطقة، إذ كان من العلماء الرحالة الذين طوفوا ببلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور<sup>(٥)</sup>. وأصدق دليل على معرفته التامة ببلاد التكرور ذكره بعض أسماء الأشخاص والأمراء في الرسالة التي وجهها إليهم.

---

(١) تاريخ آداب اللغة، سبق ذكره، ص ص ٢٤٥-٥٠.

(٢) محمود رزق، سبق ذكره ص ٣٦٢.

(٣) نفسه، ص ص ٨٨-٣٦٥.

(٤) ملحق رقم - ٤ -.

(٥) حسن المحاضرة، ص ١٤١.



ويتضح من هذه الرسالة مدى البصلة التي وجدت بين مسلمي غربي إفريقيا وأعلام العلماء المصريين في تلك الفترة<sup>(١)</sup>. وتذكر بعض المصادر أن علماء من هذه المنطقة قد وجهوا إليه عدة أسئلة دينية واجتماعية أجاب عليها، وقد ترجم الباحث هنوك<sup>(٢)</sup> سبعا وخمسين سؤالاً منها، وهي الأسئلة التي وجهها إليه سنة ٨٩٩هـ / ١٤٩٣م شخص يسمى محمد بن محمد اللمتوني<sup>(٣)</sup>. وقد نشرت النسخة العربية للأسئلة والأجوبة بالقاهرة سنة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م ضمن مجموعة «الحولية» للفتاوى، الجزء الثاني<sup>(٤)</sup>.

وُجدت لأراء السيوطي الفقهية أصداً في مؤلفات بعض علماء غربي إفريقيا. فقد استشهد بها عثمان بن فودي في كتابه «الفرق»<sup>(٥)</sup>.

٣- القلقشندي<sup>(٦)</sup> - (ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م) : هو إبراهيم بن علي بن أحمد ابن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن علي القلقشندي الأصل القاهري المولد والدار، الشافعي (أبو إسحاق، أبو الفتح)، وكان متحدثاً وفقياً، وقد خرج لنفسه أربعين حديثاً<sup>(٧)</sup>. وهو غير القلقشندي صاحب «صبع الأعشى». التقى به بعض علماء غربي إفريقيا البارزين وأفادوا منه، منهم: القاضي محمود أقيت<sup>(٨)</sup>.

(١) See, Al-Hajj, op. cit., p.13.

يذكر هذا المصدر أن في عهد الملك الكانوي رمفا (ت ٩٠٤هـ / ١٤٩٩م) قدم إلى كانو شيخ مصري، وقد رجحنا أن يكون هذا الشيخ هو عبدالرحمن السيوطي.

(٢) Source Materials, op. cit., p. 584.

(٣) Loc. cit.

(٤) Loc. cit.

(٥) See, Hiskett: Kitab Al-Farg, pp. cit. op. 550 ff.

(٦) النيل، و٣١٣

(٧) معجم المؤلفين، ج١، ص ٦١.

(٨) انظر: ترجمته في فصل علماء تنبكت؛ النيل، و٣٢٣.

٤ - الشيخ زكريا : هو زين الدين أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري القاهري السنيكي الأزهري الشافعي. ولد سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م في قرية سنيكة من أعمال الشرقية. عمر طويلا ومات سنة ٩٢٦هـ / ١٥١٩م. وقد وصف بأنه خاتمة علماء العصر وأحد أفذاذ الدهر، وذائد من ذادة الحق والبيان، وقائد من قادة الدين واللسان. وكان لفرط ذكائه يحفظ عدة كتب. وله مؤلفات عدة في النحو والصرف والفقه والأصول والقراءات والبلاغة والفرائض وآداب البحث والمنطق والتفسير وشرح الحديث والفلسفة والأدب والعروض والقافية والتوحيد<sup>(١)</sup>. وعمن تتلمذ عليه من علماء غربي إفريقيا القاضي محمود أقيت التنبكتي<sup>(٢)</sup>.

٥ - إبراهيم المقدسي - (ت ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م) : هو إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن علي بن أيوب المقدسي، المصري، الشافعي (أبو إسحاق وبرهان الدين، ابن أبي شريف). ولد بالمقدس، ونشأ بها، وتوفي بالقاهرة. أفتى وصنف ونظم ونثر. وقد لقيه وتلمذ عليه القاضي محمود أقيت عندما حج<sup>(٣)</sup>. ومن مؤلفاته<sup>(٤)</sup>:

- ١ - شرح المنهاج، في أربع مجلدات.
- ٢ - شرح الحاوي.
- ٣ - كتاب في الآيات التي فيها الناسخ والمنسوخ.
- ٤ - ديوان شعر.

---

(١) عصر سلاطين المماليك، مجلد ٣، ص ٣٨٩-٣٩٦.

(٢) النيل، ٣٢٣.

(٣) النيل، ٣٢٣.

(٤) معجم المؤلفين، ج ١، ص ٨٨.

٦ - اللقانيان : لقد حمل نسبة «اللقاني» أكثر من عالم مصري. ويبدو لنا أن اثنين منهم هما المعنيان عند السعدي وأحمد بابا، وهما اللذان التقى بهما علماء غربي إفريقية للأخذ عنهما والتلمذ على أيديهما. فالأول هو محمد بن حسن ابن علي بن عبدالرحمن اللقاني المالكي (٩٣٥هـ / ١٥٢٨م)<sup>(١)</sup>، والثاني هو محمد بن حسن اللقاني المالكي (ناصرالدين أبو عبدالله) المتوفى سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م<sup>(٢)</sup>. عنهما أحمد بابا في ترجمته للقاضي محمود عندما قال: «وحج عام ٩١٥هـ فلقي السادة كلإبراهيم المقدسي والشيخ زكريا و... واللقانيين»<sup>(٣)</sup>. وتلمذ أيضا على الناصر اللقاني الفقهاء والد أحمد بابا والقاضي العاقب ومحمد بغيغ. وحصل منه القاضي العاقب على الإجازة العلمية.<sup>(٤)</sup>

كان اللقانيان من العلماء الأجلاء الذين اشتغلوا فترة طويلة بالتدريس والإفتاء والتأليف حتى غدت لهما شهرة في جميع أقطار العالم الإسلامي في ذلك الحين، لاسيما عند المغاربة.<sup>(٥)</sup>

٧ - الأجهوري - (ت ٩٥٧هـ / ١٥٤٩م) : هو أبوزيد عبدالرحمن بن علي الأجهوري<sup>(٦)</sup>، نسبة إلى أجهور من قرى الريف المصري<sup>(٧)</sup>. التقى به والد أحمد بابا عندما مر بمصر في طريقه إلى الحج سنة ٩٥٦هـ / ١٥٤٨م<sup>(٨)</sup>. كان

(١) النيل، و: ٣٠٩-٣١٠.

(٢) نفسه، ٣١٢-٣١٣.

(٣) نفسه، و: ٣٢٣. ونسبتهما إلى «لقانة» من قرى محافظة البحيرة المصرية انظر: النيل، و: ٣١٠، الأعلام، ج١، ص ٢١.

(٤) النيل، ٣١٣.

(٥) عن ترجمتهما ومؤلفاتهما انظر: النيل، ٣٠٩-١٢؛ طبقات ود ضيف الله ص ٣٧.

(٦) النيل، و: ١٣٠، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ص ٢١١؛ شجرة النور، ص ٢٨٠.

(٧) النيل، و: ١٣٠.

(٨) المكان نفسه.

من العلماء المشهورين كوالده. وقد جاء في قصيدة «شرب الزلال» اسم «الأجهوري». ولم يصرح صاحب القصيدة إن كان المعني هو الابن أو الأب أو غيرهما. ولما كان صاحب شرب الزلال من علماء القرن الثامن عشر، فلا يمكننا أن نجزم بمن كان يقصد، ولكننا نرجح أنه كان يعني أبا الحسن علي الأجهوري، شيخ المالكية بالقاهرة، وأحد شيوخ الفقه والتصوف<sup>(١)</sup>. وله مؤلفات منها: شروحه الثلاثة على مختصر خليل في فقه المالكية في اثني عشر مجلدا وغيره<sup>(٢)</sup>. وذاع صيته وقصده الناس من كل البلاد الإسلامية<sup>(٣)</sup>. وقد توفي علي الأجهوري سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٥م.<sup>(٤)</sup>

٨ - الأرميوني - (٩٥٨هـ / ١٥٥١م) : هو يوسف بن عبدالله بن سعيد الحسيني الأرميوني المصري الشافعي جمال الدين، وعرف بالشريف نسبة لاتصال نسبه بالحسين بن علي رضى الله عنه، والأرميوني نسبة إلى «أرميون»، قرية بمحافظة الغربية المصرية. كان من تلاميذ الإمام السيوطي. واشتهر من بين علماء مصر الذين يشار إليهم بالبنان ومن أصحاب المؤلفات في التفسير والحديث والتاريخ وغيرها من العلوم<sup>(٥)</sup>، مما حدا بالفقيه أحمد بن أحمد، والد المؤرخ الفقيه أحمد بابا، والفقيه محمد بغيغ وأحمد بغيغ أن يقصدوه ويفيدوا منه.<sup>(٦)</sup>

(١) نشر الثاني، سبق ذكره، ص ٢١٥.

(٢) خلاصة الأثر، ج ٣، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٨.

(٣) نفسه، ص ١٥٧.

(٤) نشر الثاني، ص ٢١٥.

(٥) الأعلام، ج ٩، ص ٣١٨.

(٦) النيل، و ٦٦؛ السعدي، ص ٤٥؛ الكفاية، ترجمة أحمد بن أحمد.

٩ - التاجوري<sup>(١)</sup> - (ت حوالي سنة ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م) : هو أبوزيد عبدالرحمن بن محمد بن الحاج أحمد المغربي الطرابلسي الشهير بـ«التاجوري»<sup>(٢)</sup>. تتلمذ على ناصر الدين وشمس الدين اللقائين وغيرهما<sup>(٣)</sup>. ويصفه التنبكتي<sup>(٤)</sup> بأنه كان علامة الزمان في علم الميقات، وأنه كان يدرس الموطأ والتهذيب والرسالة. لقيه والد أحمد بابا وشيخه محمد بغيغ بمصر في طريقهما إلى الحج، وحضر محمد بغيغ حلقة الدراسة<sup>(٥)</sup>.

١٠ - البكري - (ت ٩٩٤هـ / ١٥٨٦) : هو محمد بن محمد بن محمد ابن عبدالرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد البكري الصديقي، الشافعي، الأشعري، المصري، (أبوالكارم، شمس الدين)، فقيه، صوفي، أديب، شاعر. له مؤلفات<sup>(٦)</sup>، وهو المعني في كتب التاريخ بالبكري أو القطب البكري أو البكري الكبير أو سيدي محمد البكري<sup>(٧)</sup>. ومن علماء غربي إفريقيا الذين أفادوا منه: محمد بغيغ، عندما قضى زمنا بمصر في طريقه إلى الحج وفي العودة<sup>(٨)</sup>.

ويذكر ابن المختار<sup>(٩)</sup> مايفيد من أن بكريا آخر هو أبو عبدالله محمد

---

(١) نسبة إلى تاجورا، بلدة شرقي طرابلس الغرب بقليل. انظر: ابن غليون: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار - ص ١٣٨.

(٢) النيل، و: ٦٦.

(٣) المكان نفسه؛ شجرة النور، ص ٢٨٠.

(٤) النيل. و ٦٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٦) معجم المؤلفين، ج ١١، ص ٢٨١؛ الأعلام، ج ٧، ص ٢٨٩.

(٧) المكانان نفسهما.

(٨) تاريخ السودان، ص ٤٥؛ شجرة النور الزكية، ص ٢٨٧.

(٩) تاريخ الفتاش، ص ٣٣.



البكري خايط والد أحمد بابا بقصيدة حين غاب عنه . ويبدو لنا أن المعني هنا هو محمد بن محمد الكرخي، البكري، الشافعي (بدرالدين، أبو عبدالله، المفسر، الفقيه، الأصولي، الفرضي المتوفى سنة ١٠٠٧هـ / ١٥٩٨م، الذي من آثاره اللوامع البدرية على التحفة القدسية في اختصار الرحبية في الفرائض، ومجمع البحرين ومطلع البدرين على تفسير الجلالين - في أربع مجلدات -، وحاشية على شرح المنهاج لجلال الدين المحلي، والمنهج الأسنى في آية الكرسي والأسماء الحسنى<sup>(١)</sup>). ومن أبيات قصيدة أبي عبدالله البكري مايلي:

أحبتنا والله إني على عهدي      وحيي لكم حبي وودي لكم ودي  
ولم أنس أيام التداني وطيبها      وأوقاتنا مابين عور إلى جدي  
وإني على ذكرى لكم وتوجهي      إلى الله فيما ترتجون من الرشد  
وأسأله في كل وقت مكرم      بتحقيق ما تبغون من واسع المد  
ويذكر ابن المختار<sup>(٢)</sup> أن لمحمد البكري ابناً كتب كتاباً بخط يده يمتدح فيه  
أسكيا نوح (ت ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م). واسم هذا الابن زين العابدين الشريف  
الحسني. ويبدو لنا أن المعني هنا هو زين العابدين بن محمد بن علي البكري،  
الصديقي القاهري، الشافعي، أحد أعلام العربية والتفسير وعلوم البلاغة. وقد  
توفي سنة ١٠١٣هـ / ١٦٠٤م.<sup>(٣)</sup>

ويبدو من تاريخ العلاقات الثقافية والتعليمية بين مصر وغربي إفريقيا أن  
العصر الذهبي لهذه العلاقات كان في فترة حكم دولة المماليك في مصر (٦٤٨ -  
٩٢٢هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م). وهي الفترة التي استوى فيها الإسلام على سوقه

(١) انظر: ترجمته في معجم المؤلفين، ج١١، ص ٢٦١.

(٢) انظر: تاريخ الفتاش، ص ١٦٨.

(٣) انظر: معجم المؤلفين، ج٤، ص ١٩٧؛ خلاصة الأثر، ج٢، ص ١٩٦.



في غربي إفريقية، واتسعت فيها رسالة الأزهر العلمية، وعظمت مسؤوليته الثقافية تجاه العالم الإسلامي من أقصى مشرقه إلى أقصى مغربه. ويقرر الدكتور بدوي عبداللطيف<sup>(١)</sup> أن هذا العصر شهد انكماشين خطرين في خريطة العالم الإسلامي، أولهما نتيجة الزحف المغولي الرهيب من وسط آسيا الذي تحطمت جحافله في عين جالوت في منتصف القرن السابع الهجري، وثانيهما نتيجة لتقلص الحكم الإسلامي في الأندلس ثم وأده في القرن التاسع الهجري. وبعد هذين الحادئين أصبحت مصر الأزهر ملاذا وموئلا للعلماء من كل الأقطار الإسلامية، وأضحت سمعته تجذب المسلمين حتى من غربي إفريقية. فتجمعت في الأزهر الصفوة المستتيرة من علماء المشرق والمغرب لتؤدي رسالتها العلمية على أكمل الوجوه، في جو من الأمن والاحترام.

وظل الأزهر بعد انقضاء دولة المماليك حصنا أميناً للثقافة الإسلامية، ومؤسسة مستقلة حظيت بعناية واحترام العثمانيين.<sup>(٢)</sup> وكان له دوره المشهود إبان سطوة الاحتلال الفرنسي. واحتفظ بامتيازاته القديم كمركز للعلوم الإسلامية، وما زال يؤدي رسالته بجانب المدرسة والجامعة الحديثة في كل مجالات التخصصات الحديثة.<sup>(٣)</sup>

### **المطلب الثاني : التبادل التعليمي مع السودان العربي النيلي**

عندما ظهر الإسلام كان من الطبيعي أن يمتد من مصر إلى السودان، لأن مصر لم تلبث أن صارت مركز الإشعاع الحضاري الإسلامي، كما كانت مركزاً

---

(١) تقويم جامعة الأزهر في أربع سنوات ١٣٨٨-١٣٩٢هـ / ١٩٦٨-١٩٧٢م القاهرة، لم تذكر سنة الطبع، الناشر، دار المعارف، ص ١١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤.

(٣) نفسه، ص ١٧.

للإشعاعات الحضارية السابقة على مختلف العصور. بيد أن الامتداد الإسلامي إلى السودان اختلف في مظاهره ووسائله عما جرى عليه الحال في كثير من الأقطار الإسلامية الأخرى، إذ كان هذا الامتداد نتيجة تفاعل مستمر بين الثقافات الوطنية الموروثة في منطقة النوبة ومنطقة البجة، والثقافة العربية الإسلامية خلال العهود التي أعقبت الفتح الإسلامي لمصر.

إن المتأمل في تاريخ انتشار الإسلام في غربي إفريقيا والسودان العربي يجد الكثير من أوجه الشبه بين الأسباب والتطورات والنتائج الحضارية. فاتصال غربي إفريقية الوثيق ببلاد المغرب كان من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام وفي تطور الثقافة الإسلامية ونموها واتخاذها طابعاً خاصاً.

وكان لاتصال وادي النيل الوثيق بمصر مثل الأثر الذي تركه اتصال المغرب بغربي إفريقيا. حيث دخلت المؤثرات الإسلامية من مصر عبر بلاد النوبة وتركت في تاريخ السودان وتطور ثقافته وتاريخه التعليمي أثراً واضحاً عكسه لنا ود ضيف الله في طبقاته.

وثمة تشابه ثان هو أن القطرين تأثرا بهجرات بدوية تركت أثراً واضحاً لانتشار الإسلام في كليهما. فقد كان المثلثون من بدو المغرب أصحاب الفضل الأول في حمل الإسلام إلى غربي إفريقيا وإذاعة المؤثرات الإسلامية، ورأينا كيف وجهوا هذه الثقافة وأثروا فيها. وفي السودان العربي قامت هجرات العرب إليه من الجزيرة بدور مماثل لدور الطوارق في إسلام وتشكيل غربي إفريقيا عرقياً.<sup>(١)</sup> وهذه الهجرات هي التي حملت الإسلام إلى السودان وصبغته بالصبغة العربية الإسلامية حتى أصبح يعرف بـ«السودان العربي».

---

(١) انظر: الدكتور حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ص ٣٠٤.

عندما سادت الثقافة الإسلامية في غربي إفريقيا بصورة أوسع، وقبل أن تتمكن في السودان النيلي العربي، كان من البدهي أن تمتد ثقافة غربي إفريقيا الإسلامية إلى السودان العربي لعدم وجود حواجز طبيعية بين المنطقتين. فقد كان السودان العربي امتدادا طبيعيا لغربي إفريقيا. وكانت كل المنطقة تعرف قديما باسم «بلاد السودان». وكانت حركة الهجرات الجماعية القبلية والفردية في استمرار لا سيما في مناطق غربي إفريقيا إلى السودان العربي، وحتى أصبحت هناك مستعمرات خاصة لأهل غربي إفريقيا بالسودان العربي منذ القرن الثامن عشر، وأصبح جلهم اليوم جزءا لا يتجزأ من المجتمع السوداني العربي بعد أن أصبحوا سودانيين في كل شيء. وهناك من يذهب إلى أن أصل الفونج الذين أسسوا سلطنة سنار الإسلامية في مطلع القرن السادس عشر من برنو<sup>(١)</sup>، وهناك من يذهب إلى أن شعب الساو والزغاوة الذين يقطنون تشاد الحالية قدموا من السودان العربي<sup>(٢)</sup>، وأن شعب الكنجارة قدموا إلى دارفور من إقليم بحيرة تشاد.<sup>(٣)</sup> وإن كانت الرواية الراجعة تقول بمجيئهم من تونس.<sup>(٤)</sup>

وصحب هذا كله علاقات ثقافية تعليمية بين المنطقتين. وكان من الواضح أن الحج قام بدور رئيس فيها؛ فقد كثر عدد العابرين إلى الحجاز عن طريق السودان خاصة بعد أن أصبح معظم السودان النيلي مسلما في مطلع القرن السادس عشر.<sup>(٥)</sup> وكان من الحجاج من يتخلف في السودان في طريق العودة

---

(١) من أنصار هذا الرأي الباحث والمؤرخ البريطاني آركل. انظر: A. J. Arkell. A History of the Sudan to 1821 (London, 1955) pp. 206-7. وعبدالمجيد عابدين: تاريخ الثقافة العربية في السودان،

سبق ذكره، ص ٤٩ Trimingham, A History of Islam in W. A. op. cit., p. 104.

(٢) Trimingham, A History of Islam in W. A. op. cit., p. 104.

(٣) عبدالمجيد عابدين، المرجع السابق، ص ٤٥.

(٤) المكان نفسه.

(٥) تشييد الأذهان، ص ١٤٥ - حاشية.

إلى بلاده كسبا للرزق، وكثرت أعدادهم بمرور الزمن حتى أصبحنا نسمع بجماعات التكاثر تلاميذ في حلقات علماء السودان العربي الدراسية، ومثال ذلك أن حلقة الشيخ القدال كانت تضم جماعة منهم بجانب أبناء البلاد.<sup>(١)</sup> وأصبحت لهم مشيخات خاصة في شرقي السودان العربي، ومثال ذلك أنه في حوالي منتصف القرن الثامن عشر أنشأ التكاثر مشيخة في القلابات استمرت حتى دخل الإنجليز إلى السودان في نهاية القرن التاسع عشر.<sup>(٢)</sup> ومما لاحظته بوركهارت<sup>(٣)</sup> أن جميع الحجاج الذين يقدون إلى السودان كانوا على علم بالقراءة والكتابة، ومنهم العلماء.

### المطلب الثالث : التبادل التعليمي مع الحجاز

كانت علاقة الحجاز بغربي إفريقية روحية في الأساس الأول، وتعليمية في المقام الثاني. كان الحجاج يترددون على علماء الحرمين بعد أداء الفريضة فيأخذون عنهم ويتعلمون عليهم. ويلتقون أيضا بعلماء من جميع البلاد الإسلامية ويتبادلون معهم المعرفة ويتدارسون معهم شؤون الوطن الإسلامي وقضايا الفكرية. ويعود الحاج بعد ذلك إلى بلاده وهو مملوء حماسا إلى زيادة علمه والعمل على تعليم الناس ونشر الوعي. وهذا النوع من التبادل التعليمي بين الحجاز والبلاد الإسلامية الأخرى معروف لكل مسلم ولا يحتاج منا إلى كثير بيان.<sup>(٤)</sup>

لقد لاحظ المستشرق بوركهارت<sup>(٥)</sup> أن الحلقات الدراسية التي كانت تعقد

---

(١) طبقات ود ضيف الله، ص ١١٨

(٢) A. E. Robinson: "The Tekruri Sheikhs of Gallabat", J. A. S. XXV1, Cl, (Oct. 1926), pp. 47-9.

(٣) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢١.

(٤) انظر ترجمتنا للعلماء الذين زاروا الحجاز والتقوا بالعلماء.

(٥) J. L. Burckhardt: Travels in Arabia, Vol. 1., pp. 390-2



يومية في الحرم المكي كانت تضم جميع الجنسيات المسلمة.

كانت هناك أوقاف في مكة والمدينة يصرف من ريعها على المجاورين والعلماء الذين انقطعوا للدراسة والعبادة؛ وأسهم بعض سلاطين غربي إفريقية في زيادة هذه الأوقاف. فقد تصدق آسكيا الحاج محمد بمبلغ ضخم تسلمه منه أمير الحرمين، واشترى حدائق في المدينة وأوقفها على «أهل تكرور» كما يقول السعدي. (١)

وعرفت «المجاورة» في الأراضي المقدسة منذ زمن بعيد، وربما منذ أن فرض الحج. ومازال المسلمون يتخلفون للمجاورة بعد الحج حتى اليوم. وما هو معروف اليوم أن تشكيل المجتمع الحجازي - مكة والمدينة - يغلب عليه العنصر الوافد الذي أصبح عربيا في كل شيء. ولمجاوري غربي إفريقية بالحرمين الشريفين سمتهم البارزة في المجتمع السعودي. وأشهر من جاور ومات في القرن العاشر الهجري (١٦م) الفقيه بابكر بير (٢) ومحمد ثنبو، أستاذ الشيخ عثمان بن فودي، الذي قضى عشر سنوات في مكة مجاورا. (٣)

ولاحظ بوركهارت أن حجاج غربي إفريقية نادرا ما يلجؤون إلى التسول في كسب العيش، بل يقومون بكل الأعمال اليدوية التي تدر عليهم ما يقيم الأود ويوفر ما ينفقه في رحلة العودة إلى بلاده. (٤)

وهكذا ومن خلال صفحات هذا الفصل يتضح لنا أن غربي إفريقية كانت على صلات قوية مع البلاد الإسلامية الشرقية والمغربية، وقامت بدورها المحمود في تاريخ الحضارة الإسلامية عامة.

---

(١) تاريخ السودان، ص ٧٣.

(٢) نفسه، ص ٣٢؛ النيل، ٧١؛ شجرة النور، ص ٢٨٦.

(٣) The Life of Shehu Uthman, op. cit., p. 437.

(٤) See, Travels in Arabia, op. cit., p. 262.

## الخاتمة





لم استطع أن أبدأ موضوع هذا الكتاب قبل أن ألقى ضوءاً ساطعاً على أهم مصادره ومراجعته حتى يقف القارئ على أهم المعلومات التي تتعلق بهذه المصادر والمراجع. واقتضت طبيعة الكتاب - أيضاً - أن أتبع ذلك بتمهيد طويل ولكنه ضروري. وقد شمل هذا التمهيد التعريف بشمالي وغربي إفريقيا من حيث المكان والسكان، وشرح بعض المصطلحات التي كانت مستخدمة في فترة ما قبل السيطرة الأوروبية على القارة الإفريقية. مثل: المغرب الأقصى والأوسط والأدنى وإفريقية وبلاد السودان، ثم مجيء الإسلام إلى شمالي إفريقيا.

ولم أشأ أن أترك الكتاب دون عقد فصل خاص عن طبيعة تغلغل الإسلام في غربي إفريقيا. وإذا كنت أتحدث في الكتاب عن التعليم الإسلامي في غربي إفريقيا وعن الثقافة الإسلامية، فلا أقل من أن أعرض للإسلام والدعوة الإسلامية في غربي إفريقيا، وهو موضوع لا أظن أحداً تناوله من قبل بالعربية أو الإنجليزية على الوجه الذي تناولته به. وفي الفصل الأول جندت كل العوامل التي تضافرت لغرس ثمار حضارة إسلامية في غربي إفريقيا مبتدئاً بالتجارة والتجار لدورهم الطبيعي في حمل الإسلام إلى هذه المنطقة لا سيما تجار قبائل الصحراء الكبرى وتجار الخوارج وتجار الديولا الماندين وتجار الهوسا، ثم أعقبت ذلك بدراسة عن دور العلماء الدعاة المعلمين في إدخال الناس في الإسلام وإفهمهم إياه بطريقة أكثر تنظيماً. ثم انتقل الكتاب في هذا الفصل إلى مناقشة دور وحجم مساهمة المرابطين والسنوسية والهجرات الإسلامية في حركة الإسلام في هذا الجزء من العالم الإسلامي، ولم تغفل في هذا الفصل العوامل التي يسرت مهمة تلك العناصر السابقة. فدرسنا الدوافع وبساطة العقيدة الإسلامية، وسماحتها، مع موازنة بين روح الحضارة الإسلامية وروح الحضارة الغربية النصرانية وأثر ريادة المسلمين التجارية والجغرافية وأثر المعتقدات

الروحية الإفريقية في هذا الصدد. وجعلت هذا الفصل والذي قبله بمثابة الخلفية التاريخية التي انطلق الكتاب من أجوائها ليعرض للدراسة المباشرة التي تتناول الآثار الحضارية لتغلغل الإسلام في غربي إفريقيا.

وتمثلت هذه الآثار في محورين أساسيين؛ الأول: قيام دول إسلامية كبرى في هذه المنطقة ترعى حضارة الإسلام، والثاني: قيام حركة تعليمية وثقافية إسلامية، أسهمت في تأصيل الإسلام وحضارته في غربي إفريقيا. وتناولت فصول ومباحث المحور الأول من هذا الباب (الآثار الحضارية...) قيام دول: غانة ومالي وسنغي وال فولاني، وال أثر الحاضري للإسلام فيها. وتناولت فصول ومباحث ومطالب المحور الثاني (الحركة التعليمية).

لقد أبرزت فصول ومباحث ومطالب المحور الأول أن تلك الدول الإسلامية الكبرى التي دون أهلها صفحات ناصعة في تاريخ الحضارة الإسلامية في غربي إفريقيا، كانت الدوحة الوارفة التي ترعرعت في ظلها الحضارة الإسلامية بمظاهرها المختلفة. تلك الحضارة التي تقبلها الناس هناك بيسر لأنها لم تحمل وراءها فكرة استعمارية كما فعلت النصرانية التي فرضت نفسها تحت رماح الاستعمار.

وبين الكتاب أنه قد تم الامتزاج في هذه المنطقة بين التقاليد الإسلامية والتقاليد المحلية، بعد مرحلة انتقالية كان لابد منها في تطور المجتمعات البشرية حضارياً. وكانت النهاية ظهور تقاليد إسلامية إفريقية الشكل والطابع والروح؛ فاختلفت الآلهة القبلية والمعتقدات البدائية.

وأتاح الإسلام في هذا الصدد ميداناً جديداً لبناء دول إسلامية تميزت بالقوة والسيطرة، وليس غريباً أن نجد البعثات التنصيرية في القرن (١٣هـ/

١٩م) تتجه إلى استقلال التجارة كوسيلة لنشر النصرانية<sup>(١)</sup>، متناسية أن علاقة الإسلام بالتجارة كانت علاقة عضوية، وليس وراءها منظمات أو حكومات. وأوضح الكتاب ما اشتملت عليه الحضارة الإسلامية بغربي إفريقيا من آثار في الناحية الدستورية، حيث عرف الإفريقيون مبادئ الشورى والبيعة في الحكم، وكانت دار الشورى عندهم تسمى «المشور»، وقد تكلم ابن بطوطة<sup>(٢)</sup> طويلاً عن «المشور». وعرفوا نظام الفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية. وأسلمت نواحي الحياة الأخرى كافة، لأن للشريعة الإسلامية قوانينها في الزواج والطلاق والميراث والوصية وغيرها.

لقد شهدنا كيف جاء الإسلام بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الإفريقية بصفة عامة طابعاً حضارياً متميزاً مازال واضحاً حتى اليوم ومؤثراً في نظمهم السياسية والاجتماعية، وفي هذا المعنى يقول المستشرق ميك<sup>(٣)</sup>: «إن دخول دين محمد إلى إفريقية حدث مهم جداً وخطير بالنسبة لغربي إفريقيا. لم يستتبع كنتيجة لابد منها في تغيير عرقي أو ديني للشعب فحسب، بل جاء معه بحضارة جديدة أعطت للجنس الزنجي الشخصية الثقافية المثمرة التي يحملونها حتى اليوم، وتسيطر على حياتهم السياسية ومؤسساتهم الاجتماعية. لقد حمل الإسلام الحضارة إلى القبائل المتبربرة، وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوباً، وجعل تجارتها مع العالم الخارجي ميسورة، فقد وسع من أفق الناس ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعي أرقى، وخلع على أتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين... ولقد أدخل الإسلام القراءة

---

(١) انظر: باسيل دافيدسون: إفريقيا القديمة تكشف من جديد، ص ٤٩.

(٢) تحفة النظار، ص ص ٤٤٥-٤٤٦.

(٣) The Northern Tribes of Nigeria (London 1925), Vol. II, p.p. 1-4.

والكتابة، وحرم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر وغير ذلك من العادات الوحشية، وأتاح للزنجي الفرصة لأن يصبح مواطناً حراً في عالم حر..».

ومهما يكن من أمر فإن تلك الحضارة الإسلامية التي قضى الاستعمار على دولها التي عاصرها في غربي إفريقيا، أخذت تحيا من جديد حتى في ظل الاستعمار، وكان من بين وسائل انتشارها طبقة التجار الذين أتاح لهم الطرق الحديثة سرعة التحرك، فدخلوا الأحراش، وأفلحوا في ضم الكثيرين إلى الإسلام، ولا يزال أثرهم ملحوظاً في هذه البقاع. وللإسلام رصيد كبير في إفريقية بعد أن تمكنت شعوبها من الانفكاك من كابوس الاستعمار الذي حاول طمس معالم الحضارة الإسلامية فيها.

ولأن موضوع الكتاب الأساسي هو حركة التعليم الإسلامي في معاهد غربي إفريقية قبل الاستعمار، فقد عالج المحور الثاني من هذا الكتاب أماكن التعليم في غربي إفريقية ووصل إلى نتائج مهمة منها:

(١) أن المسجد كان المكان الرئيس والمعهد الأول الذي تخرج فيه علماء غربي إفريقية ومارسوا فيه مهم التدريس والتوجيه، وظل المسجد دون منافس منذ أن عرفت غربي إفريقية الإسلام حتى القرن التاسع عشر الميلادي، عندما ظهرت بعض المعاهد التعليمية الأخرى في بلاد الهوسا. وتمثل هذه المرحلة ما حدث في المشرق الإسلامي عندما ظهرت المدرسة بجانب المسجد كمعهد تعليمي، ولم يشتهر في غربي إفريقية سوى ما عرف بـ«المدارس القرآنية» والتي كانت بمثابة كتاتيب لتحفيظ القرآن والكتابة والقراءة، وعرفت كلمة مدرسة في غربي إفريقية ولكنها لم تخرج من معناها اللغوي، وهو مكان الدراسة.



(٢) عرف الكتاب في غربي إفريقيا منذ زمن مبكر، وقام بالدور نفسه التعليمي الذي قام به الكتاب في المشرق الإسلامي منذ فجر الإسلام. وأطلق اللفظ «محضر» أحيانا على الكتاب.

(٣) كانت منازل العلماء وقصور الحكام من الأماكن التي يمارس فيها التعليم مثلما كان معروفا في بقية أرجاء العالم الإسلامي آنذاك.

ولأن مدينة تنبكت كانت أهم وأشهر مركز ثقافي إسلامي في غربي إفريقيا طوال القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر فقد أولاها الكتاب عناية خاصة وخرج بنتائج أبرزها:

١ - إن معظم الكتاب يخطئون في رسم الاسم «تنبكت»، لذا كان لزاما علينا التثبت من الرسم الصحيح الذي لا بد أن يتبعه الكاتبون حسبما جاء في مصادر تاريخ غربي إفريقيا الموثوق بها، والتي كتبها مؤلفون معاصرون لمجد هذه المدينة، ومن المنطقة نفسها.

٢ - مرت مدينة تنبكت بعدة أطوار منذ أن كانت محطة قوافل صغيرة في مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) إلى أن أصبحت مدينة عامرة وسوقا تجارية ومركزا ثقافيا جذبت إليها كل عناصر القوة التي كانت تتمتع بها المدن التي قامت قبلها في المنطقة نفسها مثل «والاتا».

٣ - كان لموقع تنبكت على رأس عدة طرق تجارية الأثر المباشر في أن تكون المدينة الأولى في غربي إفريقيا من حيث حجم تجارتها، واتساع رقعة البنيان فيها، وجذب عناصر الحضارة الإسلامية إليها من كل الجهات.

٤ - إن من أهم معاهد تنبكت التعليمية الجامع الكبير، ومسجد سنكري، ومسجد سيدي يحيى التادلسي.

٥ - ترجيح بناء الجامع الكبير في مطلع القرن السادس الهجري (١٢م) على



وجه التقريب، وليس في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) كما ذكرت بعض المصادر، حيث استبعد الكتاب أن تظل مدينة إسلامية على مدى قرنين من دون مسجد جامع، وأن البناء الذي تم في عهد السلطان منسا موسى كان تجديدًا لأصل بناء قديم، وتبع ذلك تجديدات أخرى في عصور مختلفة.

٦ - ترجع بناء مسجد سنكري بعد سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م وقبل سنة ٨٦٩هـ /

١٤٦٤م وبعد الجامع الكبير، وأن القاضي العاقب لم يقم بأكثر من تجديده.

٧ - أطلق الاسم سنكري على أحد أحياء تنبكت ومسجد هذا الحي. وأدى

هذا المسجد دورا عظيما كمعهد تعليمي في تنبكت. وفند الكتاب الرأي

القائل بأن هذا المسجد والمعهد كانا في مدينة جني.

٨ - تشييد مسجد سيدي يحيى بتنبكت في أول الثلث الثالث من القرن التاسع

الهجري (الخامس عشر الميلادي).

٩ - قامت بجانب هذه المساجد الرئيسة الثلاثة مساجد أخرى لم تشتهر شهرتها

مثل: مسجد سوق تنبكت ومسجد خالد ومسجد القصبة وجامع التواتين

ومسجد الهناء ومسجد كبر وجامع تندرهم. وقد جدد القاضي العاقب وحده

أربعة من هذه المساجد.

١٠ - تنقسم أسرة أقيت التنبكتية إلى فرعين: فرع من جهة الأمهات وفرع من

جهة الآباء. (فرع (آندغمحمد) من جهة الأمهات).

١١ - إن من أبرز وأهم الأسر العلمية في تنبكت خاصة وغربي إفريقية عامة

أسرة أقيت التي تولى أفرادها المناصب القضائية والاستشارية، وقاموا

بأعظم دور في حركة التعليم الإسلامي في هذه المنطقة تدريسا وتأليفا.

وعرفوا في معظم العالم الإسلامي آنذاك، لا سيما في المغرب ومصر

والسودان النيلي والحجاز والعراق والشام والأندلس، وكاد أفراد هذه الأسرة العلماء أن يصلوا في مستواهم العلمي إلى مستوى معاصريهم من علماء العالم الإسلامي، أمثال: أحمد بن عمر أقيت ومحمود أقيت والعاقب بن محمود وأحمد بن أحمد والد أحمد بابا وأحمد بابا التنبكتي، الذي طغت شهرته على كل علماء غربي إفريقية في القرن السابع عشر، لشهرة مؤلفه في تراجم علماء المالكية: «نيل الابتهاج».

١٢- وفد إلى تنبكت من مدن غربي إفريقية ومن المغرب علماء أدوا دورا بارزا في الحركة التعليمية في معاهد تنبكت، أمثال: الكابري وكاتب موسى والتادلسي والزعراني وتعلي ومحمد بغيغ وغيرهم.

١٣- عرفت تنبكت علماء أسهموا بقدر كبير في دفع حركة التأليف، والذين لولا مؤلفاتهم لانتحت كثير من معالم تاريخ التعليم الإسلامي والحضارة الإسلامية في غربي إفريقية، منهم: أسرة كعت والسعدي.

لم تكن تنبكت وحدها صاحبة الشأن والقدح المعلن في مجال التعليم الإسلامي والثقافة الإسلامية، بل شاركتها في هذا مدينة جني، التي توصل البحث إلى نتائج مهمة تتعلق بها، منها:

١ [ كان تأسيس مدينة جني قبيل النصف الأول من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي).

٢ [ تم دخول شعب جني في الإسلام قبل القرن السادس الهجري وذلك بفضل شهرتها التجارية وتردد المسلمين على أسواقها. أما الذي أسلم في القرن السادس الهجري فهو الملك وحاشيته.

٣ [ كان مسجد الجامع معهدا تعليميا كبيراً تخرج فيه الكثير من مشاهير علماء جني.

٤ [ ترجع قلة ذكر أسماء علماء جني عند السعدي وابن المختار إلى اهتمامهما

بما كان يجري في تنبكت أكثر مما كان يجري في غيرها.  
[٥] لا يطمئن الكاتب إلى بعض تواريخ السعدي، من ذلك قوله: إن الفقيه مور مغ كنكي قد قدم إلى جنى في منتصف القرن التاسع الهجري، ولكن مجريات الأحداث التي ورد ذكره فيها تميل إلى أن قدومه كان في الثلث الأول من القرن العاشر الهجري.

[٦] كانت أسرة بغيغ من الأسر العلمية المشهورة في تاريخ التعليم والقضاء في غربي إفريقية عامة وتنبكت وجنى خاصة.

أما عن تاريخ التعليم الإسلامي في بلاد الهوسا فقد توصل الكتاب إلى إبراز عدة جوانب مهمة والخروج منها بنتائج منها:-

١ - انتعشت بلاد الهوسا اقتصاديا وسياسيا وثقافيا بعد أن وقعت دولة سنغي في أيدي المراكشيين في نهاية القرن السادس عشر الميلادي.

٢ - عرفت بلاد الهوسا الإسلام قبل القرن الرابع عشر بفضل العلاقات التجارية التي كانت تربط بلدان غربي إفريقية بالمغرب الإسلامي، أما أول تاريخ مدون لدخول الإسلام إلى بلاد الهوسا فهو القرن الرابع عشر. وقام بدور الرواد في هذا المجال علماء مالي الذين عرفوا بـ «الونغرين».

٣ - كانت برنو أحد الروافد التي جاء منها العلماء إلى بلاد الهوسا.

٤ - إن عبدالرحمن الذي جاء ذكره في حولية كانو، في عهد محمد رمفا، هو العالم المصري المشهور عبدالرحمن السيوطي، وليس العالم المغربي المرموق محمد بن عبدالكريم المغيلي، وذلك في ضوء المعلومات التي وردت في مخطوط «أصل الونغرين».

٥ - تعدد جنسيات العلماء الذين وفدوا إلى كانو من الأقطار المجاورة.

٦ - إن أشهر مدرسة عرفت في بلاد الهوسا لتعليم القرآن في الثلث الأخير

من القرن (١٠هـ / ١٦م) هي مدرسة «غورون بوغاشي»، وبذلك يتضح وجود أماكن أعدت خصيصاً للتعليم بجانب المسجد وليس كما يقول بعضهم إن ذلك عرف في القرن التاسع عشر.

٧ - من الظواهر الواضحة أن العهود التي حكم فيها سلاطين علماء، يأتي إلى بلادهم العلماء من كل البلاد الإسلامية المجاورة للدراسة والتدريس والوعظ والإرشاد، ومثال ذلك ما حدث في عهد كل من باوا ورمفا وياجي.

٨ - إن وجود العرب في كانوا وغيرها من مدن الهوسا يدل دلالة واضحة على مصدر مهم من مصادر تعلم اللغة العربية.

٩ - اتضح معالم المعاهد التعليمية غير المسجد في بلاد الهوسا في مطلع القرن التاسع عشر، وقيامها بدور ملحوظ في حركة الثقافة الإسلامية في هذه المنطقة منذ ذلك التاريخ إلى عصرنا الحاضر.

١٠ - ترجيح أن الحاكم الكاتسيني الذي سماه السيوطي بـ «إبراهيم» هو إبراهيم ماجي.

١١ - إسمهم معاهد كاتسينا التعليمية في دفع حركة التعليم الإسلامي في بلاد الهوسا وجذبها لبعض علماء تنبكت وجني وغيرها.

وفي الفصل الخاص بأشهر علماء بلاد الهوسا خرج البحث بعدة نتائج،

منها:

[١] وصل بعض علماء الهوسا في علمهم ومؤلفاتهم إلى مرتبة علماء العالم الإسلامي الآخرين المعاصرين، ومن أولئك الشيخ محمد بن محمد الفولاني الكشناوي الذي تتلمذ عليه الشيخ حسن الجبرتي والد عبدالرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور، والشيخ جبريل بن عمر، أستاذ الشيخ عثمان بن فودي، والشيخ عثمان بن فودي وعبدالله بن فودي ومحمد بلو.

[٢] كانت حركة الفولاني الإصلاحية في مطلع القرن التاسع عشر انقلاباً بعيد

الأثر في تاريخ الإسلام والثقافة والتعليم في بلاد الهوسا، وكادت أشعارهم تصل إلى مستوى أشعار مشاهير الشعراء العرب من حيث اللفظ والمعنى والشكل والمضمون، لا سيما عبدالله بن فودي وابن أخيه الإمام بللو. وعند البحث في تاريخ الإسلام والتعليم الإسلامي في بلاد البرنو توصلنا إلى التثبت من عدة نقاط أهمها:

(١) عرف الإسلام في دولة كانم - برنو منذ أواخر القرن (٥٥هـ / ١١م) في ضوء ما يفهم من بعض النصوص التاريخية التي أوردها العمري وابن سعيد، وما ترجمه بالمر من مخطوطات قديمة خاصة بهذه المنطقة، وإن لم تختف بعض مظاهر اللادينية حتى مطلع القرن السادس عشر كما شاهد ذلك الوزان، وكما هو ملاحظ في بعض المجتمعات الإسلامية الإفريقية الأخرى.

(٢) إن السنة التي استنها ابن ماني في تعليم الحكام والمحرم الذي منح لهذا العالم أصبح من الظواهر البارزة في تاريخ التعليم في هذه المنطقة منذ القرن الحادي عشر الميلادي حتى القرن الثامن عشر.

(٣) كانت برنو على مر العصور ملتقى كثير من العلماء من مختلف الجهات والجنسيات.

(٤) إن وجود أربعة مساجد في العاصمة البرنوية - في القرن السابع عشر - ويحضر الصلاة في كل واحد منها اثنا عشر ألفا من المصلين للدليل واضح على اتساح مساجد غسرغمو واتساع المدينة وانتشار الإسلام فيها.

(٥) لم يقتصر دور سلاطين برنو على مجال التعليم ونشر الدين الإسلامي في حدود بلادهم، بل تعداه إلى مناطق أخرى مثل إقليم دار فور في السودان وادي النيل.



(٦) كان لبرنو أثر ثقافي واضح في دار فور لاسيما في بعض الكلمات والتسميات، وأثر إداري أيضا.

(٧) كان لعلماء الفولاني دور بارز، في حركة التعليم الإسلامي في معاهد برنو.

(٨) سجل التاريخ المكتوب أعمالا عظيمة لعلماء البرنو في مجال التعليم والإرشاد والتأليف أمثال: عمر بن عثمان وابن فرتوا ومحمد البكري والباركوم والطاهر الفلاتي ومحمد بن الحاج والكائمي.

وفي الفصل الخاص بعلماء غربي إفريقية عامة توصل البحث إلى:

[١] أن معظم الألقاب التي كانت تطلق على علماء المشرق عرفت في غربي إفريقية بالمفهوم نفسه تقريبا، مثل: مدرس وفقه ومتفنن ومحدث والحافظ وشيخ وسيدي وأستاذ مع تحريف بسيط في نطق بعضها، مثل ألفا أو الفع والمالم، أي المعلم، ويبدو أن بعض الألقاب لم تعرف إلا في برنو مثل لقب «قوني».

[٢] تكاد أن تكون وظائف العلماء هي نفسها التي عرفت في المشرق الإسلامي مع زيادة - أحيانا - في بعض المترادفات مثل كلمة «خطيب» التي يبدو من استعمالها أنها كانت مرادفة لكلمة «قاضي».

[٣] كان تنصيب قاضي القضاة يتم بإشارة من السلطان، أما قضاة الأقاليم فكان الأمر فيها شورى بين الحاكم وقاضي القضاة وأهل الحل والعقد من سكان البلدة التي يشغل فيها المنصب.

[٤] كان لقاضي تنبكت بالذات أهمية كبرى، فهو الذي يقوم بتولية الأئمة للمساجد الكبرى بعد استشارة الحاكم أحيانا، ويقوم بالإشراف على بناء المساجد الجديدة، وترميم القديمة، وهو بهذا أشبه بوزير الأوقاف في عصرنا الحالي. وله ما يشبه الإشراف على الناحية التعليمية تماما كما يفعل وزير التربية والتعليم أو المعارف في عصرنا الحالي.



[٥] كانت للعلماء مكانة اجتماعية عالية ودور توجيهي خطير ومشاركة فعالة في الحركات الإصلاحية، وتناول البحث معظم هذه الحركات.

[٦] لم تختلف سبل كسب عيش العلماء عما كان في المشرق الإسلامي.

[٧] كان العالم يعاني مشقة كبرى في ممارسة مهمة التدريس كما هو واضح من برنامج دراسي يومي لعالم بارز، ومرد ذلك قيام المعلم بتدريس عدة فنون لعدة مجموعات أو أفراد من الطلبة، وطوال النهار وجزءاً من الليل.

[٨] استمد العلماء أكثر أساليب التدريس من طرق رواية الحديث الشريف، وهي الطريقة التي كانت سائدة في العالم الإسلامي آنذاك.

[٩] وصل علماء غربي إفريقية إلى مستوى علمي مكنهم من منح إجازات علمية لعلماء من المشرق الإسلامي، ولا تكاد تخلو حياة عالم مرموق من علماء غربي إفريقية من إجازة علمية سواء أجاز أو أجاز.

[١٠] لم يكن يعرف التخصص الدقيق، بمفهوم عصرنا الحاضر، ولكن وجد ميل من بعض العلماء إلى تدريس فن معين من الفنون الإسلامية أو كتاب معين من الكتب التي تدرس.

[١١] تكاد اللغة العربية تكون لغة الكتابة الرسمية والثقافة والتعليم والإرشاد. وفي مجال الدراسة. عن أحوال التلاميذ أبرز البحث بعض الجوانب المهمة، منها:

(١) كان لتوجيه القرآن والسنة وآراء الفقهاء والحكماء أثره القوي في حفز العلماء والطلاب على مواصلة الدراسة وتحمل مشاقها.

(٢) على الرغم من أن الكثيرين قد حرصوا على إلحاق أبنائهم بالدراسة في سن مبكرة إلا أن ظاهرة وجود تلاميذ من أعمار متفاوتة لم تختف من أجواء التعليم الإسلامي في غربي إفريقية كما كان الحال في الأقطار

الإسلامية الأخرى آنذاك.

(٣) لا يعني تقسيم المراحل التعليمية إلى ثلاث أن ذلك أمر ثابت؛ والراجع أن

نظام المراحل بالمعنى الفني المعروف حديثاً لم يعرف في تلك الفترة.

(٤) كانت الرحلة في طلب العلم أمراً مهماً وظاهرة ملموسة في تاريخ التعليم

الإسلامي في غربي إفريقية.

(٥) لم يقتصر التعليم على الرجال وحدهم بل وجدت المرأة مكانها بين

التلاميذ، ولكن في نطاق ضيق.

ويسير الكتاب من فصل إلى فصل مبرزاً ومحدداً معالم الحضارة

الإسلامية التي ترعرعت في معاهد غربي إفريقية الإسلامية حتى وقف على

أهم الكتب التي كانت شائعة الاستعمال في هذه المنطقة، وخرج من إلقاء

الضوء عليها بعدة نتائج أبرزها:

(١) إن هذه الكتب نفسها كانت تدرس في العالم الإسلامي المعاصر آنذاك. وفي

هذا دليل على تقارب المستويات الثقافية، وصلة غربي إفريقية القوية ببلدان

العالم الإسلامي الأخرى.

أما الفصل الأخير من هذه الدراسة والخاص بالتبادل التعليمي بين بلاد

غربي إفريقية من جهة ثم بينها وبين البلاد الإسلامية خارجها من جهة أخرى،

فقد أبرز عدة حقائق على رأسها:

(١) أن من الطبيعي أن ينحدر الماء من الهضاب إلى السفوح، والأفكار تشبه

الماء إلى حد كبير، لأنها تنساب من المراكز ذات الغزارة الثقافية إلى المراكز

الأقل غزارة، ومن هنا كانت استفادة غربي إفريقية من الحركة الثقافية

التعليمية المبكرة التي نمت في تنبكت وجني وفاق بعض علمائها أحياناً

علماء المغرب.

(٢) لقد كانت الثقافة الإسلامية والحركة التعليمية - في معظمها - بذرة مغربية في تربة غربي إفريقية، وذلك بحكم العلاقات الحضارية القديمة وتنوعها بين هذين الجزأين من العالم.

وكان العلماء في حركة دائبة بين المغرب وغربي إفريقية، وبين بلدان غربي إفريقية فيما بينها، ولع منهم عدة أعلام أمثال المغيلي والبلبالي والأنصمني.

(٣) لم يقتصر أثر الجالية الغربي إفريقية في مصر على الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية فقط، بل تعداه إلى الناحية الثقافية والروحية، وقد تركت هذه الجالية بصمات قوية في حياة الشعب المصري إلى يومنا هذا.

(٤) أدى الحج دوراً كبيراً في التبادل التعليمي بين غربي إفريقية ومصر والحجاز والسودان النيلي. وبرز في هذا المجال علماء من الجانبين أفادوا بعضهم من بعض.

والقارئ لهذا الكتاب يتبين له أن الحياة التعليمية في غربي إفريقية أثناء القرون الأربعة: الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، تشبه إلى حد ما الحياة التعليمية في البلاد الإسلامية الأخرى مع فرق ضروري عظيم هو أن غربي إفريقية كانت حديثة العهد بالإسلام إلى حد ما، في حين قطعت الشعوب الإسلامية الأخرى شوطاً طويلاً تحت راية الإسلام. وإذا كان غربي إفريقية قد تأثر بما كان سائداً في بقية البلاد الإسلامية من علوم وثقافة وصوفية وأفاد كثيراً من منتجات البلاد، فإننا لا نستطيع أن نقول - اعتماداً على ما وصل إلينا من وثائق - إنه أسهم بنصيب وافر في هذه الثقافة، ولكننا نستطيع أن نقول إنه إسمهم مهم مكننا من تلمس معالم تاريخ الحضارة الإسلامية في هذه البقعة المهمة.

وسيشعر القارئ أو الزائر لغربي إفريقيا الآن، أنه، على الرغم من توالي القرون وتبدل الظروف الاجتماعية والسياسية، ظل التعليم الديني الأهلي والرسمي منه محافظا على روحه الأصيلة، وأنه إلى جانب التعليم المدني، عامل دافع في نشر الثقافة الإسلامية العربية.

وإذا كانت الحقائق المهمة هي وحدها التي ترتبط بالموضوعية، فإن الموضوعية في تاريخ غربي إفريقيا قد اعتراها الكثير من الشطط بسبب أن الدراسات في هذا الجانب اتجهت إلى العموميات التي كثيرا ما يتقيد الباحثون فيها ببعض المفاهيم العامة. ولو أنها ركزت على الجزئيات لأمكن رؤية الأشياء أكثر وضوحا وعمقا. وأنا لنأمل أن يكون محتوى هذا الكتاب الذي هو جزئي في واقعه، قد أدى للموضوعية المنشودة في تاريخ غربي إفريقيا الحضاري وعلاقته بالعالم الإسلامي بعض الفائدة، وأضاف لبنة جديدة تفتح الطريق لمزيد من الأبحاث.

ونلفت أنظار الباحثين إلى أن ميدان الدراسات في غربي إفريقيا مازال بكرا، وأن الكثير من موضوعاته تصلح أن تكون أبحاثا جامعية من بينها: حركات الجهاد الإسلامي وتاريخ الطرق الصوفية في القرن (١٣ و ١٤هـ / ١٩ و ٢٠م) ودور قبائل الفولاني في تاريخ الدعوة الإسلامية، وأثر الإسلام الحضاري، والتنصير والاستعمار.



الملاحق





## ملحق رقم (١)

في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم

مأخوذ عن ابن خلدون: المقدمة

طبعة بيروت، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، ص ١٠٤٤ - ١٠٥٤.

«والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم، وأخلاقهم وما ينتحلونه به من المذاهب والفضائل: تارة علما وتعلما وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم. ولا يدفع عن ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم، وتعدد المشايخ، يفيد تمييز الاصطلاحات، بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها ويعلم أنحاء تعليم وطرق توصيل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات. ويصحح معارفه ويميزها عن سواء مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهم من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم، وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال».

## ملحق رقم (٢)

رسالة الماي البرنوي عثمان أو ييري بن إدريس (٧٩٥-٨٢٩هـ / ١٣٩٢ -

١٤٢٥م) إلى السلطان أبي سعيد الظاهر برقوق.

في ٧٩٤هـ / ١٣٩٢م

(عن القلقشندي: صبح الأعشى، ج٨، ص ص ١١٦ - ١١٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

الحمد لله الذي جعل الخط تراسلاً بين الأبعد، وترجماناً بين الأقارب،  
ومصافحة بين الأصحاب، ومؤنساً بين العلماء، وموحشاً بين الجهال، ولولا  
ذلك لبطلت الكلمات وفسدت الحاجات.

وصلوات الله على سيدنا المصطفى ورسولنا المرتضى، الذي أغلق الله به  
باب النبوة وختم، وجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه  
وسراجاً منيراً، ما ناحت الورق وما عقب الشروق الأصيل، ثم بعد ذلك:  
أبوبكر وعمر وعثمان وعلي، رضى الله عنهم أجمعين.

من المتوكل على الله تعالى، الملك الأجل سيف الإسلام وربيع الأيتام  
الملك المقدم، القائم بأمر الرحمن المستنصر بالله، المنصور في كل حين وأوان  
ودهر وزمان، الملك العادل الزاهد التقى النقي الأنجد الأمجد الغششم<sup>(١)</sup>،  
فخرالدين زين الإسلام، قطب الجلالة، سلالة الكرماء، كهف الصدور،  
مصباح الظلام، أبي عمرو عثمان الملك بن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم،

---

(١) الغششم: ذو الجرة والمضاء (القاموس المحيط).

كرم الله ضريحه، وأدام ذرية هذا بملكه.

إلى ملك مصر الجليل، أرض الله المباركة أم الدنيا، بسلام عليكم أعطر من المسك الأذفر، وأعذب من ماء الغمام واليم، زاد الله ملككم وسلطانكم، والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم، الذين يدرسون القرآن والعلوم، وجماعتكم وأهل طاعتكم أجمعين.

وبعد ذاك فإننا قد أرسلنا إليكم رسولنا وهو ابن عمي وأسمه إدريس بن محمد، من أجل الجائحة التي وجدناها وملوكنا، فإن الأعراب الذين يسمون جذابا وغيرهم، قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعاف الرجال، وقرابتنا من المسلمين.

ومنهم من يشركون بالله، يمارقون للدين، فغاروا على المسلمين فقتلوهم قتلا شديدا لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا، فبسبب تلك الفتنة، قد قتلوا ملكنا عمر بن إدريس الشهيد وهو أخونا ابن أبينا إدريس الحاج بن إبراهيم الحاج. ونحن بنو يوسف بن ذي يزن والد قبيلتنا، العربي القرشي، كذا ضبطناه عن شيوخنا، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها في بلد برنو كافة حتى الآن وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ويبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم، ويختمون ببعضهم.

فإن حكم مصر، قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى أسوان، فإنه قد اتخذوا متجرا، فابعثوا الرسل إلى جميع أرضكم وأمرائكم ووزرائكم وقضاتكم وحكامكم وعلمائكم وصواحب أسواقكم، ينظرون ويبحثون ويكشفون، فإذا وجدوهم فليتنزعوهم من أيديهم وليبتلوهم، فإذا تبين ذلك لكم، فأطلقوهم وردوهم إلى حريتهم وإسلامهم، فإن بعض الأعراب يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فإنهم الجاهلون كتاب الله وسنة رسولنا، فإنهم يزينون الباطل،

فاتقوا الله واخشوه ولا تخذلوهم يسترقوا ويبيعوا.

قال الله تعالى: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر».

وقال تعالى: لنبيه عليه السلام: «فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، وقال الله تعالى: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض».

وكان عليه السلام يقول: «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم، وقال: المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا إلى يوم القيامة. وقال: «المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه».

وفي الحكمة: «ومن الفرائض: الأمر بالمعروف على كل من بسطت يده في الأرض - أراد به السلاطين - وعلى من تصل يده إلى ذلك - أراد بذلك القضاة والحكام والأمراء - فإن لم يقدر فبلسانه - أراد بذلك الفقهاء والعلماء - وأن لم يقدر فبقلبه - أراد بذلك عامة المسلمين».

أطال الله بقاءكم في أرضكم، فازجروا الأعراب المفسدين عن دعرهم. قال الله تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» وقال عليه السلام: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، وقال في الحكمة: «لولا السلطان، لأكل بعضهم بعضا» وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام: يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب.

والسلام على من اتبع الهدى». ولم يؤرخ.

### ملحق رقم (٣)

رسالة المغيلي ووصيته للقضاة - جامعة لأصول الاجتهاد والقياس

مأخوذ عن آدم عبدالله الألوري: موجز تاريخ نيجيريا  
بيروت، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م، ص ص ١٣٤-١٣٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني إلى عبدالله محمد بن  
يعقوب سلطان كنو وفقه الله لما يرضاه، وأعانه على ما أولاه من أمور دينه  
ودنياه، بجاء سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

سلام عليكم ورحمة الله. أما بعد. فإنك سألتني أن أكتب لك جملة  
مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام، فاعلم، أعاننا الله  
وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، أنه لا بد من ردع المفسد  
الدينية والدينية بالمقامع الشرعية على حسب الطاقة البشرية. ولا يجوز أن  
يترك مفسد فساد مع إمكان ردعه عنه أو لعنه أو حبسه أو ربطه أو ضربه أو  
صلبه أو قتله أو نفيه أو نهب ماله أو حرق بيته أو غير ذلك من العقوبات  
الشرعية. لكل داء دواء ولكل مقام مقال وفعال بحسب ما يظهر الأحوال.  
فصن مقامات الخلافة النبوية عن الإهانة بردع العامة عن سوء الأدب بالأقوال  
والأفعال وسائر الأحوال، ولا تصبر لمن تعمد ذلك ولم يتته، لأن ردع ذلك  
ومثله حق الله تعالى ورسوله وامنع جميع أهل بلادك عن جميع أنواع الشرك  
وكشف العورة وشرب الخمر وأكل الميتة والدم وغير ذلك من المحرمات. وامنع  
كفار بلادك من أن يظهروا ذلك بين المسلمين في الأسواق والمنازل وغيرها من



المحلات، فلو لم يتركوا إظهار شرك أو شرب خمر أو فطر في رمضان، أو زنا أو غير ذلك من المنكرات وأنواع ضلالهم، لكان ذلك ذريعة لأن يفعل مثل فعلهم ضعفة العقول من العامة والنسوة والصبيان، لا سيما والغالب على أهل تلك البلاد الجهل والهوى وأصلهم كان ذلك. وقد قال العلماء: الرجوع إلى الأصل يكون بأدنى سبب، فأنهم عن ذلك وأشهر إنكاره وتوعد بالعقوبة لمن فعله، ثم بعد ذلك عاقبه بأقرب شيء يردعه ويردع مثله وإن لم يكن ردعه ومنعه من ذلك إلا بقطع يده أو رجله وصلبه أو قتله أو غير ذلك من الروادع الشرعية فافعله لأنه ظالم، والظالم أحق أن يحمل عليه. ولكن لا تفعل بالمفسد ما هو أشد في ردعه إلا إذا رأيت أنه يرجع بغيره، مثال ذلك من لم ينته من الناس من عمل الخمر إلا بنهب أموالهم أو حرق بيوتهم أو إجلائهم أو بيع الكفار منهم أو غير ذلك فافعله ولا تبال، ومن لم يستر أخته أو عبده ولم ينته إلا يبعه عليه أو يأخذه منه فافعل ولا تبال. وكذلك من يغش بمسحات ناقصات وأبى أن ينتهي عن المعاملة بها فخذها منه واجعلها في مصالح المسلمين. وأما من لم يغش بها ولا أبى أن ينتهي فمره بإصلاحها إن أراد المعاملة.

وكذلك من يتلقى ما يأتي للسوق من طعام وغيره فيشتريه قبل وصوله للسوق أو بعد وصوله ويبيعه على يده وإن لم يتتهوا إلا بنفيهم أو نهب ذلك منهم فافعل، لأن مقصد الشارع في الروادع درء المفسد وجلب المصالح بحسب الإمكان في كل زمان ومكان وليس الخبر كالعيان. ولذلك قال الإمام العادل عمر بن عبدالعزيز رحمة الله عليه: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور، فلا بد من إزالة الفساد على كل حال، وإن تعارضت مفسدتان إحداهما أكبر من الأخرى فدرء المفسدة الكبرى أولى، وهذا الذي بينا لك يكفيك إن شاء الله في تلك المناكر وغيرها؛ وإن الناس في حكم الله ورسوله

سواء، فلا تخرج من ذلك علما ولا عابدا ولا شريفا ولا أميراً، وأقم حق الله على جميع عباد الله بالتقوى لا بالهوى، ومن عارضك في شيء من ذلك فعاقبه بما فيه ردع له ولمثله، وإن لم يكن إلا بقطع يده أو رجله أو أنفه أو صلبه فافعله ولا تبال ولكن بعد ثبوت وثبت في ذلك كله، ومقابلة كل واحد بما يليق به بحسب حاله من الخير والشر والتواضع والطغيان، فتصرف في ذلك بالزيادة والنقصان حتى يعتدل الميزان وليس الخبر كالعيان والله المستعان وعليه التكلان. وفي هذا القدر كفاية لمن سبقت له العناية، وكل ما نوصيك به من أمر دينك ودنياك تعرف ذلك، وإذا نسيت شيئا منه فلا تنس أن من غير حكم الله فقد كفر، ومن تغيير حكم الله ودينه أن يكون الظالم قاضيا لأنه يحكم بالظلم وهو يقول هذا هو الشرع، ومن فعل ذلك فهو كافر لأنه صير الباطل حقا والحق باطلا. فإن كان لابد من أن يجعل بعض الظالمين حاكما فلا تجعله باسم القاضي، فإن القضاء من صفات رسول الله لا يوصف به إلا عالم تقي لا يأخذ الرشا ولا يحكم بالهوى.

الله الله الله وهذه الوصية هي أوكد جميع الوصايا. أما يكفيك أن تظلموا باسم السلطنة فتكونوا مذبذبين ترجون رحمة الله ثم تظلمون باسم الشرع حتى تكونوا كفاراً؟ والكافر لانصيب له من رحمة الله مطهر مقام الشريعة من كل خبث، لأنه مقام رسول الله لعل الله أن يغفر لك ذنوبك جميعها والسلام على من اتبع الهدى.

كتبه سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م.

#### ملحق رقم (٤)

رسالة السيوطي لأمرأى بلاد التكرور عامة ولسلطان كاتسينا خاصة

مأخوذة عن الألوي: موجز تاريخ نيجيريا

بيروت، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥، ص ١٣٧ - ١٤٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

«ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما». من الفقير عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي إلى الملك والسلطين في بلاد التكرور عموما، وإلى الملك الزاهد محمد بن صطفو صاحب أكدر وأخويه محمد وعمر وابن أختهم محمد بن عبدالرحمن وإلى الملك إبراهيم صاحب كاشنه خصوصا، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد:

فأحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد، ثم أوصيكم بتقوى الله عز وجل فإنها رأس الأمر وسنامه، وقد فاز وأفلح من كان بها اعتصامه، واحتكموا على العدل بين الرعية، والوقوف عند حدود الأحكام الشرعية، ولا يغيرن أمرؤ منكم ما آتاه الله من الملك والسلطنة وما خوله من زينة الحياة الدنيا فإنما الدنيا كلها سنة منام ولا بد أن يستيقظ من السنة. وقد بلغني عن أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعي في واقعة المحكوم عليه، ويضمه إليه ويحضره ويحول بينه وبين صاحب الحق ويحضره، ويقول هذا دخل في

ملكي أو جعل في سلطاني، ويرد ما حكم به الشارع اغتراراً بالأمانى، أفلا يخشى أحدكم من مالك الملوك أن يحل به العذاب الأكبر ويتنزل عليه سخطه في الدنيا قبل أن يقبر. إن بطش ربك لشديد. وماربك بظلام للعبيد. أيغتر أحدكم بملكه الذي هو كقطرة ويريد أن يلقي حكم الله بإقامة ناموسه الذي لا يساوي عند الله جناح ذبابة. أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض أو يدك عليكم ما بين طولها والعرض. قال النبي ﷺ: «السلطان ظل الله على الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده. وإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر. وإذا جار كان له الإصر وعلى الرعية الصبر. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ماذا قلت يا رسول الله عن السلطان الذي ذلت له الرقاب وخضعت له الأجساد ماهو؟ قال: ظل الله تعالى في أرضه فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الصبر. وعن النبي أيضاً أنه قال: صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي: سلطان ظلوم غشوم عسوف، وغال مارق في الدين.

وعنه أيضاً: مامن أحد يؤم عشرة فصاعداً إلا جاء في الأصفاد والأغلال، وفي لفظ: إلا أتى به يوم القيامة مغلولاً يده يفكه العدل أو يوبقه الجور. وقال أيضاً: من ولي عشراً فحكم بما أحبوا وكرهوا جيء به مغلولاً يده، فإن عدل ولم يرتش ولم يجر فك الله عنه، وإن حكم بغير ما أنزل الله وارتشى وجار شدت يساره إلى يمناه ثم ألقى في قعر جهنم فلم يبلغ قعرها خمسمئة سنة.

وقال أيضاً: إذا كان يوم القيامة أتى بالوالي فيوقف على جسر فيأمر الله الجسر فيتنفض انتفاضة يزول كل عظم من مكانه، فيأمر الله العظام أن ترجع إلى مكانها ثم يسأله، فإن كان مطيعاً أخذ بيده فأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان عاصياً خرق به الجسر يهوى في جهنم مقدار سبعين خريفاً.

» . . . وقال أيضاً: السلطان ظل الله في الأرض فمن غشه ضل ومن نصحه اهتدى، ولذلك بذلت لكم النصيحة وبلغتكم ماجاء عن رسول الله من أحاديث النصيحة، فأقيموا السلطنة بعدلها وأدوا الأمانة إلى أهلها.

ومما ينص عليكم بالخصوص قضية الحاج محمد الترجمان مع عبده الذي حاد عن الحق وحكم عليه القاضي محمد بن عبدالكريم بأنه باق في رقه، وأمر بأن يسلم إلى مستحقه، فأعتم بعد على الباطل وجعلتم حكم الشرع الشريف كالعاطل، فتوبوا إلى الله من هذه الموبقة، ولا يحول بين السيد وعبده إلا أن يكاتبه باختياره أو يعتقه. وقد بلغني أن محمد بن مريم أقلع عما كان عليه وتاب، ورجع إلى الله وأتاب، هذا هو الذي يعتقه في المآب. وبلغني من أهل غوبر أن منهم من إذا مرض ذبح عبدا له أو أمة، ويزعم أن ذلك يفديه من الموت فما أكفره فيما صنعه وفيما زعمه، وهذا مايسوله الشيطان ومما يزينه من العدوان ومما يؤول صاحبه إلى الكفران، فليعلم من بعد ذلك أن الله بريء منه ورسوله وليس هو يبلغ بذلك مناه وسؤله ولو أعتقه كان أقرب إلى الفداء بعيدا عن الاعتداء فمن عرض له أمر ليعرضه على حملة الشريعة، ويسأل عالما يوثق بعلمه ويجب عليه أن يطيعه. واتفقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.



## ملحق رقم (٥)

طرف من أسئلة أسكيا الحاج محمد وأجوبة المغيلي

مأخوذ عن الدكتور عبدالقادر زيادية: محمد بن عبدالكريم المغيلي  
أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي ص ص ٣٤ - ٣٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

« . . من عبدالله تعالى محمد بن عبدالكريم بن محمد المغيلي ، إلى  
الأمير الحاج أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الملقب بأسكيا ، وفقه الله تعالى ،  
ونصره نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً ميبناً بجاء سيدنا محمد ﷺ .  
سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . قولكم ، سددكم الله في هذه البلاد  
وأهلها ، فأنهم في زعمهم وظاهر أمرهم مسلمون ، ومدنيتهم بالجامع والجماعة  
والجمعة والأذان للصلوات الخمس ، وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر ،  
وأهلها عبدة أصنام ، فقام عليهم بعض أجداد هؤلاء السلاطين مع أتباعهم  
فقاتلوا أولئك الكفار وملكوا بلادهم المذكورة منهم عنوة ، وسكونها بالإسلام  
أكثر من ثلاثين سلطاناً قبل سني علي ، وكان أبو سني علي سلطان أهلها ،  
وكانت أمه من بلاد فار<sup>(١)</sup> ، وهم قوم كفار يعبدون الأصنام من الأشجار  
والأحجار ، ويتصدقون لها ، ويسألون حوائجهم عندها ، فإن أصابوا خيراً  
زعموا أن تلك الأصنام هي التي أعطتهم ، وإن لم يصيبوا ، رأوا أنها منعتهم ،

---

(١) منطقة في الجنوب الغربي من سنغي .



فلا يغزون حتى يشاوروها، وإن قدموا من سفر قصدوها ونزلوا عندها، ولتلك الأصنام سدة يخدمونها ويترجمون لها عنهم، وفيهم كهان وسحرة يقصدونهم كذلك، وكان سني علي من صغره إلى كبره كثير الإقامة عندهم حتى نشأ بينهم وتطبع بطباعهم. وقاتلهم حتى غلبهم في شركهم وعوائدهم، ثم بعد موت أبيه طلب السلطنة فقام علي سنغي وقاتلهم حتى غلبهم وتسلطن عليهم، كما كان أبوه ومن قبله من ملوك سنغي، إلا أنه لما نشأ من صغره إلى كبره بين أخواله وتطبع بطباعهم، كان من صفته أنه ينطق بالشهادتين ونحوها من ألفاظ المسلمين، ولكن لا يعرف لذلك حقيقة، إنما يقول ذلك بلسانه، وربما سمع النبي ﷺ، فقال: صلى الله عليه وسلم، ويصوم رمضان ويتصدق كثيرا من الذبائح وغيرها عند المساجد ونحوها، ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم فيعظمون بعض الأشجار والأحجار بالذبح عندهم، والصدقة والتضرع والنذر لها وطلب قضاء حوائجه، ويستعين بها وبالسحرة والكهان في الأمور كلها، أو جلها.

ومن صفته أيضا أنه ما رئي في جامع ولا مسجد هو ولا أحد من دائرته.. فلا يحفظ الفاتحة ولا غيرها، ولا يصلي صلاة مكتوبة في وقتها، ولا يقوم ويركع ويسجد فيها، إنما يترك الصلوات الخمس إلى آخر الليل أو غد وقت الضحى، ثم يجلس كهيئة جلوس ويومئ إلى السجود من جلوسه، وهو صحيح قوي لا علة به....

.. ومن صفته أيضاً أنه لا يتوقف في النساء على نكاح ولا غيره من الشروط الإسلامية، بل كلما أعجبه امرأة في جميع مملكته أخذها وأدخلها في بيته وفراشه، لا يبالي بزوجها ولا أحد، ويجمعها مع أمها، فيتلذذ من المرأة وابنتها حرة أو أمة.

ومن صفته أيضاً أنه حلل دماء المسلمين وأموالهم، فيقتل من القراء والفقهاء والنساء والصبيان.. . وفساده في الأرض بذلك ونحوه مشهور، ولم يسمع قط بمثله في الإسلام، ولم يزل على ذلك مدة عمره حتى مات.

ثم ولي بعده الأمير آسكيا، فملك البلاد ورد العباد عن الشرك والفساد، فما الحكم في سني علي وجميع أعوانه من الظلمة الذين كانوا يعملون بعمله في ذلك كله، ولا مال لهم إلا من ماله، وهل هم كفار أم لا؟ وهل تسترق أولادهم من بعدهم وتباع أمهات أولادهم أم لا؟ وهل يرد ما وجد الآن من تلك الأحوال التي نهبوا من المسلمين والتي نهبها المسلمون منهم، أو هي كالأموال التي نهبت بين المسلمين والكفار، «وهل البينة علينا أو على من وجدناه بأيديهم مستعبداً فادعى أنه حر، وأنهم استعبدوه ظلماً؟ وهل البينة علينا أو على من ادعى من خدامهم وأتباعهم فيما بيده من المال أنه ليس لسني علي وإنما هو ماله اكتسبه من جهة أخرى، ومعروف أن أعوانه وخدامه ما يملكون شيئاً مما في أيديهم؟ وهل تلك الأرض التي كانت للكفار ثم فتحها أجدادنا عنوة وحازوها واقتسموها وكانوا يرعون فيها خلفاً عن سلفهم من ذلك الزمان إلى الآن؟ وهل يجب على المسلمين والكاثنين ببلاد هذا الأمير أن يعينوه بقدر طاقتهم على ما يراه باجتهاده إذا أراد جهاد الكفار أو غيرهم من أهل الفساد وإرسال الرسل في أمر المسلمين، أو ليس عليهم شيء من ذلك؟

الجواب. والله الموفق للصواب أن سني علي وجميع أعوانه وأتباعه وأنصاره لاشك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، فجهاد الأمير آسكيا فيهم وأخذه السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد وأهمه، وأما قولك هل هم كفار أم لا؟ فلا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة.. .»

## ملحق رقم (١)

مؤلفات أحمد بابا التنبكتي - نموذج للعالم المكثر

مأخوذ عن الوالاتي : فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور.

مخطوط قام بنشره هنريك

J. C. Hunwick: "A New Source for the Biography of Ahmad Baba AL-Tumbukti (1556 - 1627)", B. S. O. A. S. Vol. XXV11 1964, pp. 578-581.

«ألفَ رحمه الله تعالى تواليف عديدة مفيدة: (١) شرح الصغرى في أربعة كراريس. (٢) المطلب والمأرب في أعظم أسماء الرب تعالى في كراسة. (٣) شرح الصدور وتنوير القلوب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من الذنوب. (٤) نشر العبير بمعاني آيات الصلاة على البشير النذير و(٥) نيل الأمل في تفضيل النية على العمل في شرح نية المؤمن أبلغ من عمله وآخر فيه سماه. (٦) غاية الأمل في تفضيل النية على العمل و(٧) المنهج المبين في شرح حديث أولياء الله المحبين و(٨) البدور المسفرة في شرح حديث الفطرة (٩) شرح مختصر خليل من الزكاة إلى أثناء النكاح في سفرين، وسماه: المقصد الكفيل بحل مقفل خليل. وحاشية عليه سماها: (١٠) من الرب الجليل في تحرير مهمات خليل، في سفرين ينقل منهما الأجهوري في شرحه على المختصر (١١) تنبيه الواقف على تحرير، وخصصت نية الحالف في كرّاسي و(١٢) إفهم السامع بمعنى قول خليل في النكاح بالمنافع و(١٣) فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق و(١٤) أنفس الأعلاق في فتح الاستغلاق من كلام

خليل في درك الصداق. و(١٥) الزند الوري في تخيير المشتري و(١٦) الكشف  
 والبيان لأصناف مجلوب السودان و(١٧) اللمع في الإشارة لحكم تبع و(١٨)  
 ترتيب جامع المعيار للونشريسي كتب منه كرايس و(١٩) أجوبة الأسئلة  
 المصرية و(٢٠) فتح الصمد الفرد في معنى محبة الله تعالى للعبد و(٢١) تعليق  
 على أوائل الألفية وآخر سماه (٢٢) النكت الوافية بشرح الألفية وآخر سماه  
 (٢٣) النكت الزكية، لم يكملها، (٢٤) غاية الإجابة في مساواة الفاعل للمبتدأ  
 في شرط الإفادة في كراس وآخر سماه (٢٥) النكت المستجادة «مسواتها في  
 شرط الإفادة و(٢٦) التحديث والتأسيس في الاجتماع بابن إدريس، يريد ألفاظه  
 في العربية، في ورقات و(٢٧) نزول الرحمة في التحدث بالنعمة (٢٨) دور  
 الوشاح لفوائد النكاح وهو مختصر كتاب الوشاح للسيوطي. و(٢٩) جلب  
 النعمة ودفع النعمة بمجانبة الولاة الظلمة و(٣٠) نيل المرام ببيان حكم الإقدام  
 على الدعاء لما فيه من الإيهم. وهو مأخوذ من مسودة تأليفه و(٣١) فتح  
 القدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حمير (٣٢) تحفة الفضلاء  
 ببعض فضائل العلماء ومختصره في عشر ورقات بغالب الثمن، سماه (٣٣) مرآة  
 التعريف في فضل العلم الشريف و(٣٤) درر السلوك بذكر الخلفاء وأفاضل  
 الملوك و(٣٥) نيل الابتهاج بتطريز الديباج و(٣٦) كفاية المحتاج لمعرفة من ليس  
 في الديباج و(٣٧) ترجمة السنوسي في ثلاثة كرايس و(٣٨) خمائل الزهر في  
 كيفية الصلاة على سيد البشر و(٣٩) الدر النضير. في ألفاظ الصلاة على النبشير  
 النذير فهذه تسعة وثلاثون تأليفا وقال صاحب الترجمة: ألقت عدة كتب تزيد  
 على أربعين تأليفا. انتهى. فأنا ما وقفت على أسماء الباقي من تواليفه.

ولما ألف بعض تواليفه وكتبه أوقف عليه كل من ينسب للعلم في مراکش  
 كالفقيه العلم المتفنن الرحلة، الحاج أبي جمعة بن مسعود بن سعيد الماغوسي،

وقاضي الجماعة بمراكش الفمهمة الدراك، أبي عبدالله الرجراجي، كبيرهم، وابن أخيه مفتي عصره الفمهمة الدراك، عبد الواحد بن أحمد بن أبي عبدالله الرجراجي وقاضي الجماعة بفاس، الشيخ المعقلي أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني، والفمهمة الدراك، السيد الفرضي المعقلي الحساني أحمد السالم، والفمهمة الناقد ذي الذهن الوقاد، أحمد، عرف بالخطاط فكلهم استحسنه إلى الغاية ورأوا أن لا مزيد عليه في الإحسان والإجادة وكتب في ذلك بما ظهر من الثناء والتقريظ.



## ملحق رقم (٧)

رسالة من إنشاء عبدالرحمن السعدي بأمر الباشا المراكشي إلى أهل كاغ.  
نموذج للكتابة الإنشائية في غربي إفريقية في القرن (١١هـ / ١٧م)

مأخوذة عن «تاريخ السودان»، ص ص ٢٨٤ - ٢٨٧.

«الحمد لله وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.  
الأبرار المكرمين، الأخيار المعظمين، الأنجاد المرعيين، الاسناد المرضيين: القائد منصور بن مبارك الدرعي وكافة من معه من القياد والكواهي والمقدمين و...،  
رعاكم الله وأنجدكم وأعانكم وسددكم، وأصلح عنه كافة أحوالكم وبلغكم من  
جميع الخيرات والمسرات بمنالكم وآمالكم، سلام تام عميم عليكم ورحمة الله  
وبركاته عن الخير والعافية ونعم الله المتوافية. كتبناه إليكم لله الحمد وله الشكر  
وعما تشوقتم إليه من معرفة أحوالنا وأخبارنا حسبما هو مسطور في كتابكم  
الكريم الذي ورد علينا صحبه مراسيلكم في مرسى كرتزفي، فأدركنا في كل ما  
تحبون لنا وتمنون من العافية الباسطة والوافرة والنعم السابغة الفاخرة من المولى  
الكريم ذي الفضل العظيم وذلك لما عزمنا على الحركة إلى ناحية الظلمة  
المفسدين أعداء الله ورسوله قبيله شفتير الذين أفسدوا طاعتنا في كيمى بجهة  
كرم وخسروها، خرجنا بالمحلة السعيدة إلى ساحل البحر في السفن وسبب  
خروجنا بأنفسنا في ذلك شيان: أحدهما الاطلاع على أمكتهم ومساكنهم في  
غايتها ونهايتها في البعد والمسافة بركائبنا وأرجلنا وحوافر خيلنا دفعا لما قد  
عسى أن يتوهمه الغبي الأحق أن طول رقدتنا لتعديتهم ومفسدتهم التي  
شملت طاعتنا وبلادنا منهم ومن غيرهم من القطاعين والمحاريين كان من



ضعفنا وعجزنا، كلا ليس الأمر كما يزعم ويتوهم الغبي الظالم، بل من صبر السلطنة وتأنىها حتى نبطش البطشة الواحدة فتمحو كل شيء أتت عليه في لحظة واحدة. والثاني من الشئئين: ضيق الحال وخلو الدار من المال، لا أخلاها الله تعالى من الخيرات والبركات، ولكنّ للدنيا طلوع ونزول وتغيرات وحول الأرزاق تغور وتغور وترقد وتنور وهذان الشئئان أخرجاني فيها، فلما انتهينا إلى موضع الطلوع إلى العوالي، وانتقلنا من بطون السفن بحفظ الله الكبير المتعالي وحملنا على ظهور الدواب بعون الله القدير الوهاب، شرعنا في اتباع أثر الأبعد الخاسر الظالم الفاجر رأس شياطين الإنس حمد بالي، نقطع أكمة وآجاما، ونشد عزمة وأحزاما، ويلفظنا أرض إلى أرض ويجذبنا رفع من خفض، حتى وصل بنا السير إلى سفح الجبل بعناية من بيده القوة والحيل، وسلطنا منها مسلكا ما سلكه أحد قبلنا لا من الأسلاف ولا من الأخلاف، فصرفنا لأربابها من مشارقها إلى مغاربها من صاحب هنبر ودعنكا وفيلي فأجابوا دعوتنا، وأنابوا لسطوتنا، حتى اتصلت الإجابة لصاحب كرو وغيره فنزلوا إلينا وحضروا لدينا مذعنين راغبين مذللين راهبين فجددوا لمولانا - نصره الله تعالى - البيعة والطاعة، وقالوا كل ما أردتم منا من الخدمة فالساعة الساعة، وتبرؤوا من جميع أعدائنا، وخلعوا من رقابهم كل عروة إلا عرى طاعتنا فطلبوا منا الأمان على مهجتهم وبلادهم، فأعطيناهم ذلك بالعهد والميثاق، فنهضوا معنا إلى لقاء ذلك الأبعد الخاسر، وأخذنا في أثره حتى قاربناه، فلما تيقن بالهلاك رمى نفسه في غارة ضيقة أضيق من سم الخياط، وعن المسلك صعب الارتقاء منفردا وحيدا تفرق عنه أصحابه وأتباعه، وتشتت عنه أهله وأشياعه، فولج عليه في ذلك الغار الأسود والنسور وجيشنا المؤيد المنصور حفاة مشاة لما توقد فيهم حيثذ من غضب النجدة والجرأة فاغرين

أشداقهم، رافعين أعناقهم، مبدّين أنيابهم ومخالبهم، حتى انتهوا به منتهى  
الغار فرمى نفسه إلى ورائها في أيدي المشركين، فلما رأى أنه ضاقت عليه  
نفسه وضاقت عليه الأرض بما رحبت بعث الرسول إلى صاحب دعنكا في  
طلب العفو منا وأنه تائب لله ولرسوله وللسلطنة فعفونا عنه...».

## ملحق رقم (٨)

### ترجمة محمد بن محمد الفولاني الكشناوي

مأخوذ عن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار.  
طبعة القاهرة ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩م، الجزء الأول، ص ١٥٩ - ١٦٠.

### بسم الله الرحمن الرحيم

«الإمام العلامة الوحيد، والبحر الخضم الفريد، روض العلوم والمعارف،  
وكنز الأسرار واللطائف، الشيخ محمد بن محمد الفلاني الكشناوي  
الدانرنكوي السوداني. كان إماما دراكًا متقنا متفتنا وله يد طولى وباع واسع في  
جميع العلوم، ومعرفة تامة بدقائق الأسرار والأنوار، تلقى العلوم والمعارف  
بيلاده عن الشيخ الإمام محمد بن سليمان بن محمد النوالي البرناوي  
الباغرمائي، والأستاذ الشيخ محمد بندو، والشيخ الكامل الشيخ هاشم<sup>(١)</sup>  
والشيخ محمد فودي<sup>(٢)</sup> ومعناه الكبير. وقال: وهو أول من حصل على يديه  
الفتح، وعليه قرأت أكثر كتب الأدب ولازمته حضرا وسفرا نحو أربع سنوات،  
فأخذ عنه الصرف والنحو حتى أتقن ذلك وصار شيخه المذكور يلقيه بسيويته،  
وكان يلقيه قبل ذلك بصاحب المقامات لحفظه لها واستحضاره لألفاظها  
استحضارا شديدا بحيث إذا ذكرت كلمة يأتي بما قبلها بالبديهة وعدم الكلفة.

---

(١) من علماء الهوسا، انظر الإنفاق، ص ٥٢، وجاء في إيداع النسخ أنه أستاذ الشيخ عثمان بن فودي  
انظر: الإيداع، ص ٦.

(٢) والد الشيخ عثمان بن فودي.

وتلقى عن الشيخ محمد بندو علم الحرف والأوراق، وعلم الحساب والمواقيت على أسلوب طريقة المغاربة، والعلوم السرية بأنواعها الحرفية والوفقيه وآلاتها الحسابية والميقاتية وحصلت له منه المنفعة التامة. قال وقرأت عليه الأصول والمعاني والبيان والمنطق وألفية العراقي وجميع عقائد السنوسي الستة. وسمع عليه البخاري وثلاثة أرباع مختصر خليل من أول البيوع إلى آخر باب السلم، ومن أول الإجارة إلى آخر الكتاب، ونحو الثلث من كتاب ملخص المقاصد وهو كتاب لابن زكري معاصر الشيخ السنوسي في ألف بيت وخمسمئة بيت في علم الكلام وأكثر تصانيفه إلى غير ذلك. قال: وسمعت منه كثيرا من الفوائد العجيبة والحكايات الغريبة والأخبار والنوادر ومعرفة الرجال ومراتبهم وطبقاتهم، ذكر ذلك في برنامج شيوخه المذكورين وكانت للمترجم همة عالية ورغبة صادقة في تحصيل العلوم المتوقف عليها تحصيل الكتب، وكان يقول عن نفسه إن مما منّ الله عليّ به أنني لم أقرأ قط من كتاب مستعار، وإنما أدنى مرتبتي إذا حاولت قراءة كتاب لم يكن موجودا عندي أن أكتب منته موسى السطور لأقيد فيه ما أردته من شروحه أو ما سمعته من تقارير الشيخ عند قراءته، وأعلاها أن أكتب شرحه وحاشيته بدليل أنه لولا علو همتي وصدق رغبتني في تحصيل العلوم لما فارقت أهلي وأنسي، وطلقت راحتني وبدلتها بغربتي ووحشتي وكربتي، مع كون حالي مع أهلي في غاية الغبطة والانتظام، فبادرت في اقتحام الأخطار لكي أدرك الأوطار (شعر):

إن الأمور إذا ما الله يسرها	أتتك من حيث لا ترجو وتحسب
وكل ما لم يقدره الإله فما	يفيد حرص الفتى فيه ولا النصب
ثق بالإله ولا تركز إلى أحد	فالله أكرم من يرجى ويرتقب

ولما استأذن شيخه في الرحلة والحج مر في رحلته بعدة ممالك، واجتمع

بملوكها وعلمائها. فممن اجتمع به في كاغ برن<sup>(١)</sup> الشيخ محمد كركك وأخذ عنه أشياء كثيرة من علوم الأسرار والرمل، وأقام هناك خمسة أشهر، وعنده قرأ كتاب الولاية للكردي وهو كتاب جليل معتبر في علم الرمل.....

وله رحلة تتضمن ما حصل له في تنقلاته، وحج سنة ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م وجاور بمكة وابتدأ هناك بتأليف "الدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم في علم الطلاسم والنجوم"، وهو كتاب جامع رتبته على مقدمة وخمسة مقاصد وخاتمة، وقسم المقاصد أبواباً، وأتم تبييضه بمصر في رجب ١١٤٦هـ/ يناير ١٧٣٤م. ومن تأليفه كتاب "بهجة الآفاق وإيضاح اللبس والأغلاق في علم الحروف والأوفاق"، رتبته على مقدمة ومقصد وخاتمة، وجعل المقدمة ثلاثة أبواب، والمقصد خمسة أبواب، وكل باب يشتمل على مقدمة وفصول ومباحث وخاتمة، وله منظومة في علم المنطق سماها "منح القدوس"، وشرحها شرحاً عظيماً سماه "إزالة العبوس عن وجه منح القدوس"، وهو مجلد حافل نحو ستين كراساً، وله شرح بديع على كتاب الدر والترياق في علم الأوفاق. ومن تأليفه "بلوغ الأرب من كلام العرب" في علم النحو، وله غير ذلك. توفي سنة ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م بمئزل المرحوم الشيخ الوالد، وجعله وصياً على تركته وكتبه، وكان يسكن أولاً بدرب الأتراك، وهو الذي أخذ عنه علم الأوفاق وعلم الكسر والبسط الحرفية والعددية. ودفنه الوالد بيستان العلماء بالمجاورين، وبنى على قبره تركيبه وكتب عليها اسمه وتاريخه. ومن كلامه:

طلبت المستقرَّ بكل أرضٍ      فلم أر لي بأرضٍ مستقرّاً  
تبعث مطامعي فاستعبدتني      ولو أني قنعت لكنت حراً

---

(١) لم يعرف قصده؛ أهى كوكو ذات المكان غير المحدد، أم كاغو الاسم الحديث لجاء عاصمة سنغي.

انظر: Bivar and Hiskett, op. cit., p. 136

## ملحق رقم (٩)

أبيات مختارة من قصيدة «شرب الزلال» للإمام محمد بن الحاج  
عبدالرحمن البرناوي المتوفى سنة ١١٦٩هـ / ١٧٥٥م، مع تخريج بعض  
الأعلام.

### مأخوذة عن :

A. D. H. Bivar and Hiskett “, The Arabic Literature of Nigeria to 1804: A Provisional Account, B. S. O. A. S., Vol. XXV, Part 1, 1962, pp. 118-23.

فأصل دين الله والعبادة	أكل الحلال فخذوا الإفاده
ولا يحل أكل لحم من ذبح	غصبا ولو طبخ هذا ما اتضح
والناصر اللقاني <sup>(١)</sup> والقرافي <sup>(٢)</sup>	فتواهما بذاك يا موافي
ولحم مكسي مثله فيما اعتزى	لمدخل ولا بن ناج <sup>(٣)</sup> جوزا
هذا إذا علم أن لا يضمنا	لربه قيمته يامعتنا
ولا يجوز أخذه شراء	وهبة صدقة وفاء
نقل هذا سيدي الأجهوري <sup>(٤)</sup>	وسيدي عثمان <sup>(٥)</sup> ، في المشهوري

(١) انظر ترجمته: صفحة ٧٤٠ من هذا الكتاب.

(٢) أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن، أبو العباس شهاب الدين الصنهاجي القرافي، من علماء المالكية. نسبته إلى قبيلة صنهاجة، وإلى القرافة المحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي بالقاهرة، وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة. له مصنفات. الأعلام، ج١، ص ٩٠. وعرف أكثر من عالم بهذا الاسم.

(٣) هو قاسم بن ناجي المتوفى سنة ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م. تعلم بالقيروان وتولى القضاء في عدة أماكن؛ من آثاره: شرح المدونة، الشافي في الفقه، شرح الرسالة. انظر: معجم المؤلفين ج٨، ص ١١٠.

(٤) انظر ص ٧٤٠ من هذا الكتاب.

(٥) انظر ص ٤٣١ من هذا الكتاب.



كلُّ حرامٍ عُلِمَتْ أربابُهُ  
أما الذي قد جُهِلَتْ أربابه  
مستهلك الطعام قد يحل  
وتركه تورع فيما ظهر  
والورع الزم لاتدعه صاح  
وهو مراتب كما قد صرحوا  
أربعة الأقوال فيه جاءت  
وشهروا جواز أخذه على  
وهل على إجرائه كالصدقة  
يجوز للغني والفقير  
صلاة من في بطنه حرام  
كذلك من صلى بثوب فيه  
وآكل من لقمة حرام  
عمله صباح أربعينا  
وكل لحم قد ربا من سُحِتِ  
وكلمما لم يتبين أصله  
وحكرة في كل شيء تحرم  
واختلفوا في حكرة الطعام  
وجوزوا في غيره بلا ضرر  
وبيع فاضل الطعام واجب

فلا يحل يا أخي أسبابه  
فجائز متسع أبوابه  
على صريح الفقه إذا الخل  
لكل مستغن عن الشبهات فر  
لأنه طريقة الفلاح  
في بابه فقف على ما وضحوا  
عن ابن رشد<sup>(١)</sup> فارغ ما أضاءت  
ظاهر فقه فخذ المستعملا  
أو هو كالفيء لدى من حققه  
أو العديم قط لدى الخبير  
لا يقبل الله فقل سلام  
من الحرام درهم يوفيه  
عن ابن عباس من الأعلام  
لم يتقبل فاحترز يقينا  
أحقُّ بالنار لخبث النبت  
هو الحلال كُله ذا محله  
إن خيرت الناس على ما يعلم  
من حيث لا ضرر للأنام  
والمنع في ضرورة قد اشتهر  
في حاجة بسعر وقت لازب

---

(١) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، الفيلسوف المسلم المشهور. انظر: معجم المؤلفين، ج٨، ص ٣١٣.

فجائز شراؤنا قوت سنة  
فليس هذا أكلاً حراماً  
الفاكهاني<sup>(١)</sup> شارح الرسالة  
وكل ما وجدته في السوق  
مالم يك الحرام فيه غالباً  
عن ابن وضاح أتى<sup>(٢)</sup> الشعبي<sup>(٣)</sup>  
إياك والتاب<sup>(٤)</sup> وأن تجربه  
أفتى به السنهوري<sup>(٥)</sup> دعه مشته  
فإن أتيت في طعام الأمرا  
قد جمع الأعيان بعضهم على

في سعة أخي على المبينة  
كلا ولا الشبهة يامن راما  
قد قال هذا فاحفظن ما قاله  
فجائز الشراء بالتحقيق  
فاترك إلا لضرر جالبا  
بذاك هذا المذهب المرضي  
أتى به الخراشي<sup>(٥)</sup> دعه ذا متبه  
أتى به اللقاني<sup>(٧)</sup> دعه فانتبه  
فأنت بالخيار فيما اشتهرا  
وليمة له وفيهم فضلا

(١) هو تاج الدين عمر بن علي بن سالم اللخمي الإسكندري المتوفى سنة ٧٣٤/١٣٣٣م، معجم المؤلفين ج٧، ص ٢٩٩.

(٢) يبدو أن المعني هو محمد بن وضاح القرطبي (أبو عبدالله)، من علماء المالكية، وله مؤلفات في الفقه المالكي والحديث، وكتاب في البدع والنهي عنها، توفي سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م. انظر ترجمته في: معجم المؤلفين ج١٢، ص ٩٤.

(٣) يوجد أكثر من عالم بهذا الاسم: عبدالرحمن (ت ٥٠٠هـ / ١١٠٦م)، علي (ت ٨٠١هـ / ١٣٩٨م)، عبدالرحمن (ت ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م)، ونرجح أن يكون المقصود هنا هو عبدالرحمن (ت ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) لأنه ممن كانت تدور عليهم الفتيا بقطره الأندلس، وكان مجتهداً وله مجموع في الأحكام، معجم المؤلفين، ج٥، ص ١٦٥، الأعلام، ج٤، ص ١٩٧.

(٤) التاب: هو التبغ.

(٥) هو محمد الخراشي (نسبة إلى قرية أبي خراش بمحافظة البحيرة)، المالكي، فقيه، نحوي، ت ١١٠١هـ / ١٦٩٠م، من آثاره: الدرر السنية على حل ألفاظ الأجرومية في النحو، والشرح الكبير على متن خليل. انظر: الجبرتي، عجائب الآثار، ج١، ص ٦٥؛ معجم المؤلفين، ج٩، ص ٢٧٨؛ بغية الوعاة، ص ٢٦٢، الأعلام، ج٣، ص ١١٨.

(٦) هو أبو النجاة سالم بن محمد السنهوري، مفتي المالكية بمصر وعالمها، توفي سنة ١٠١٥هـ / ١٦٠٦م. انظر: شجرة النور الزكية، ص ٢٨٩؛ خلاصة الأثر، ج٢، ص ٢٠٤؛ الأعلام، ج٣، ص ١١٦.

(٧) يوجد أكثر من عالم مصري بهذا الاسم. انظر ص ٧٤٠ من هذا الكتاب.

وبعضهم قلل وبعض أكثر  
وبعضهم جمع فقها ورعا  
كل له بصيرة على الهدى  
فإن علمت ذاك فالإنسان  
فلك في ذا مسلكا إذا  
قد يسر الله لنا شرب الزلال<sup>(٢)</sup>  
ثم الصلاة بعد والسلام  
أو قال هاتوا من طعام الكبرا  
وبعضهم صريح فقه قد رعى  
قد قاله القوري<sup>(١)</sup> يامن اقتدى  
فقيه نفسه له الإمكان  
لسان علم ورع من لاذا  
وتم بالحمد بتسويغ الملل  
على النبي وآله التمام

---

(١) ربما يكون أحد رواة الأحاديث الأندلسيين، المتوفى سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨م انظر:  
Bivar and Hiskett, op. cit. p. 147.

(٢) وهذا الاسم هو الذي اشتهرت به هذه القصيدة.

## ملحق رقم (١٠)

القصيدة التي نظم فيها عبدالله بن فودي شيوخه  
وما تلقاه على أيديهم من العلوم.

مأخوذة من عبدالله بن فودي : إيداع النسخ في من أخذت عنه من  
الشيوخ.

مخطوط مصور، ص ص ١٠-١٢.

معلمنا القرآن وهو مؤدبي  
سراجي في علم الشريعة مذهبي  
والإعراب والشعراء تعليمك الصبي  
سقاني فروى والحساب المقربي  
محمد ابن الخالة المتحبيب  
وذلك عبدالله عمي من أبي  
وثنب المرتي الذي من أقاربي  
مسائل من نحو أجاز بمطلبي  
إلى منطق يعلو على كل كوكب  
من أحمد غار الزاهد المتأدب  
وقدوتنا جبريل فسمي ذاك حبيب  
ولقنا التوحيد أعظم موهبي  
به المصطفى ابن الحاج في نص كوكب  
سماع البخاري الصحيح المطيب  
بما من علي في المدينة يشرب  
وعلمنا سواها قد أجاز بما حبي

وع نظم شيوخ صاح أولهم أبي  
ومن بعده عثمان صني وعمدتي  
فعلمني العشرينيات ونحوها  
وفي علم توحيد وعلم تصوف  
وفقه وتفسير وعلم الحديث مع  
شيوخي بعلم النحو والصرف خالنا  
ومج وإبراهيم برنو ومنذراً  
ومن عابد الرحمن نجل محمد  
وصاحبنا وهو الفريري مرجعي  
علوم بلاغات وشرح نقاية  
وعلم أصول الفقه شيخ شيوخنا  
أجاز لنا مروية من شيوخه  
وصاحبنا تلميذه قد أفادني  
من الحاج عمي وابن راج محمد  
وسائر كتب للحديث أجازنا  
بيوطع شيوخي نلت ألفية الأثر

## ملحق رقم (١١)

### تاريخ الاسم «تكرور» - دراسة تعريفية

كان الاسم «تكرور» يطلق على عاصمة دولة عرفت بهذا الاسم على نهر السنغال الأدنى - في فوتاتورو أو فوتا السنغالية<sup>(١)</sup> - وازدهرت هذه الدولة لفترة قصيرة.

إن أول من ذكر هذه الدولة من المؤرخين والجغرافيين المسلمين أبو عبيد البكري في القرن (٥هـ / ١١م)، ومن بعده الإدريسي في القرن (٦هـ / ١٢م) وابن سعيد والقزويني في القرن (٧هـ / ١٣م) والدمشقي في القرن (٨هـ / ١٤م). ونص البكري<sup>(٢)</sup> هو «... ويلي مدينة صنغانة ما بين الغرب والقبلة على النيل مدينة تكرور، أهلها سودان...».

ودخل الإسلام هذه الدولة في وقت مبكر نتيجة للعلاقات التجارية التي ذكرناها، وذلك منذ القرن الخامس الهجري، وأول من اشتهر من ملوكهم المسلمين هو واركعابي بن رابيس المتوفى سنة ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م.<sup>(٣)</sup> وقامت هذه الدولة بنشر الإسلام في المناطق المجاورة مثل مدينة سلى، لا سيما في عهد وارجابي<sup>(٤)</sup>. ويؤكد الإدريسي<sup>(٥)</sup> هذه الحقيقة، ويضيف إلى

---

(١) قلاح، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠. The Sequ Turkulor Empire, op. cit., p. 7.

ريمون فيرون: الصحراء - ترجمة د. جمال الدين الدناصري، ص ٨٢.

دائرة المعارف الإسلامية، مادة تكرور.

(٢) المغرب، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٢.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المكان نفسه.

(٥) نزهة المشتاق، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨.

ذلك بان مدينة سلى ذاتها كانت من أملاك ملك التكرور في الفترة التي كتب فيها. وذلك في قوله: «...» ومن جزيرة أوليل إلى مدينة سلى ستة عشر مرحلة.. وهي مدينة حاضرة وبها مجتمع السودان.. وهي من عمالة التكروري، وهو سلطان موسر وله عبيد وأجناد وله حزم وجلادة وعدل مشهور وبلاده آمنة وادعة ومواضع مستقرة. والبلد الذي هو موطنه هو مدينة تكرور. ومدينة تكرور أكبر من مدينة سلى وأكثر تجارة» ويزيد ابن سعيد الأمر تأكيداً ووضوحاً عندما يذكر إسلام التكرور ومدنهم واستقلالهم، فيقول: «...» وأول ما يلقاك على غربي النيل من مدائن التكرور مدينة قلوبوا وهي مشهورة. وكانت في زمن أبي عبيد البكري للكفار. وأما في عصرنا فما على شاطئ النيل من بلاد التكرور مدينة إلا وقد دخلها الإسلام، وجميعها لسلطان التكرور، وقاعدتها على جانبي النيل اسمها تكرور فيما عرفوا...»<sup>(١)</sup>

ويطلق الاسم تكرور على الشعب والبلاد والعاصمة كما هو واضح من النصوص السابقة ومن نص ياقوت الحموي<sup>(٢)</sup>، الذي يقول: «بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب، وأهلها أشبه الناس بالزنوج»، ونص الدمشقي<sup>(٣)</sup>: «وأما السودان فطوائف كثيرة ونبدأ منهم بمكان مساكنهم والواغلة في الجنوب، ويطلق عليهم التكرور. وليس هذا الاسم ما يعم طوائفهم وإنما يطلق على طائفة منهم يسكنون بلداً يسمى بهذا الاسم»، وغير ذلك من نصوص أخرى لآخرين.<sup>(٤)</sup>

---

(١) بسط الأرض في الطول والعرض، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤.

(٢) معجم البلدان، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨.

(٣) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٩، ١١٠؛ الفتوي: تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان، ص ٤.



وعلى الرغم من أن الإسلام قد دخل هذه البلاد في وقت مبكر، وإسلام ملكها منذ القرن الخامس الهجري، فإن ذلك لم يعن إسلام جميع الناس. فقد لاحظ القزويني<sup>(١)</sup> (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) أن أهل تكرر مسلمين وكفار، وأن الملك فيها كان للمسلمين.

وتذكر المصادر أن هذه الدولة التكرورية المستقلة أسهمت مع المرابطين في إسقاط دولة غانة الوثنية التي عاصرت دولة تكرر.<sup>(٢)</sup>

استمرت هذه الدولة مستقلة إلى أن امتصتها دولة مالي الإسلامية حوالي القرن الثامن الهجري (١٤م)<sup>(٣)</sup>. وظلت خاضعة لمالي حتى القرن العاشر الهجري (١٦م)، عندما انتقلت القوة السياسية في المنطقة إلى الفولانيين تحت أسرة سلتيجي كولي.<sup>(٤)</sup> وظل الأمر في يد هذه الأسرة إلى أن أسقطها سليمان بال في ثورته سنة ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م، وقامت دولة إمامية<sup>(٥)</sup> برئاسة عبدالقادر حمادي<sup>(٦)</sup> بعد موت بال. واستمرت الإمامية بعد الشيخ عبدالقادر، إلا أن السلطة الحقيقية ظلت في يد العشائر المحلية<sup>(٧)</sup>، إلى أن دهمها الاستعمار الفرنسي في نهاية القرن (١٩م / مطلع ١٤هـ).

لقد قطن منطقة تكرر خلال تاريخها الإسلامي الطويل مجموعتان رئيستان من البشر، تجمعهما لغة مشتركة: إحداهما زراع من البدو، ذوو بشرة فاتحة، يعرفون الآن بالفولاني، والمجموعة الأخرى حضرية ذات أصول

(١) آثار البلاد، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥.

(٢) دائرة المعارف، مادة تكرر. The Cambridge Hist. of Isl., op. cit. p. 347

(٣) The Seq. Tukulor Empire, op. cit. p. 8.

(٤) Loc. cit.

(٥) نعني بذلك أن رئيسها لقبه «الإمام».

(٦) انظر: تعريف العشائر، ص ٦.

(٧) The Seq, op. cit. pp. 9-10.

عنصرية مختلطة، ولكن العنصر الرئيس هو الزنجي، وهم سود ويسمون الآن بـ«التوكولور» أي شعب تکرور»<sup>(١)</sup>.

أصبح التحديد الجغرافي الدقيق لمنطقة تکرور يختفي رويدا رويدا بعد قيام الدول الإسلامية الكبرى في غربي إفريقيا مثل مالي وسنغي والهوسا والبرنو. فالكتاب المتأخرون بدؤوا يطلقون اللفظ «تکرور» على دولة مالي،<sup>(٢)</sup> على الرغم من أن منسا موسى (ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م) كان يأنف من ذكر لقب «ملك التکرور» لأن التکرور إقليم من أقاليمه، والأحب إليه أن يقال «صاحب مالي» لأنه الإقليم الأكبر، وهو به أشهر.<sup>(٣)</sup>

وتابع الكتاب المحليين بغربي إفريقيا رصفاءهم الآخرين من خارج المنطقة في إطلاق الاسم تکرور معهما أيضا. فالسعدي<sup>(٤)</sup> يقول عن سنغي: «... ثم أرسل السلطان مولاي أحمد الشريف الهاشمي رسوله إلى آسكيا الحاج بهدايا عجيبات وقصده في ذلك الاطلاع على حال بلاد التکرور...».

ويذكر أيضا صاحب الفتاش<sup>(٥)</sup>، أن آسكيا الحاج محمد قد نصبه مولاي العباس خليفة على أرض التکرور، وهو يعني بذلك بلاد سنغي التي كانت تشمل منطقة غانة وتکرور ومالي،<sup>(٦)</sup> وتابعهما التنبكتي<sup>(٧)</sup> في ذلك وفي مثل قوله: «أبو الشاء وأبوالمحاسن عالم التکرور وصالحها ومدرسها».

وجاء من بعد ذلك من أطلق الاسم تکرور على كل منطقة غربي

---

(١) بسط الأرض ص ٢٤. The Cambridge Hist., op. cit., p. 374.

(٢) انظر: ابن الوردي، ج ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٥.

(٣) مسالك الأبصار، ص ٤٩٤.

(٤) تاريخ السودان، ص ١٢٠.

(٥) تاريخ الفتاش، ص ١٦.

(٦) انظر: المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٧) النيل، و ٣٢٣، ١٣٥.

إفريقية، فالسلطان بللو يؤلف كتابا كاملا يسميه «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور». ويجعل باغرمي ووادي دارفور من بلاد التكرور.<sup>(١)</sup> ويسمى الباركلي والوالاتي كتابه بـ«فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور» وهو يعني أيضا كل غربي إفريقية.

وهكذا تدرج الاسم من خاص إلى عام، وأصبحت كلمة تكروري تطلق على كل وافد من منطقة غربي إفريقية حتى دارفور.

أما ما يعنيه الاسم تكرور فقد تبانت آراء المؤرخين حوله. تقول لوجارد<sup>(٢)</sup> بأن المعنى اللغوي يعني «أسود». وذهب بوركهارت<sup>(٣)</sup> مذهباً آخر حين قرر أن إطلاق هذا الاسم على الوافدين من غربي إفريقية لا يعني قدومهم من بلد بهذا الاسم، ولكنه مشتق من الفعل تكرر، أي تنقى، وبمعنى أن مشاعرهم الدينية تنقت وتطهرت بحفظ القرآن والحج، ويبدو أنه قد اشتط في هذا التفسير، ولم نجد له سنداً من المصادر الأصيلة.

والكلمة «توكولور» Tukulor تحريف بسيط لكلمة «تكرور»، وتنطق بهذا قبائل الولوف التي تقطن المجرى الأدنى لنهر الكنغو.<sup>(٤)</sup> أما في المشرق الإسلامي فقد حرفت كلمة تكرور أيضاً، فمنهم من يقول للمفرد «تكروني»، وللجمع تكارين «بدلاً من تكروري وتكاررة»<sup>(٥)</sup>، بل منهم من يقول: «دكروري» ويجمعها «دكارير».<sup>(٦)</sup>

---

(١) انظر: إنفاق الميسور، ص ٢٩.

(٢) Tropical Dependency, op. cit., p. 115.

(٣) رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢١.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، مادة تكرور.

(٥) انظر: ألفا هاشم الفتوي: تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان، مكة ١٣٥٤هـ، الناشر: المطبعة الماجدية، ص ٤.

(٦) خاصة في مصر، مثل قولهم «بولاق الدكرور».

ويُفرق الناس اليوم في غربي إفريقيا بين من هو فولاني أو فلاتي ومن هو هوساوي أو تـكـروري. أما عامتنا في المشرق فيطلقون على الكل كلمة تـكـروري. وقرنت الكثير من المؤلفات هذه الصفة بكل مَنْ هو غربي إفريقي مثل: عنبر التـكـروري وصبيح التـكـروري وفاتح التـكـروري... إلخ.

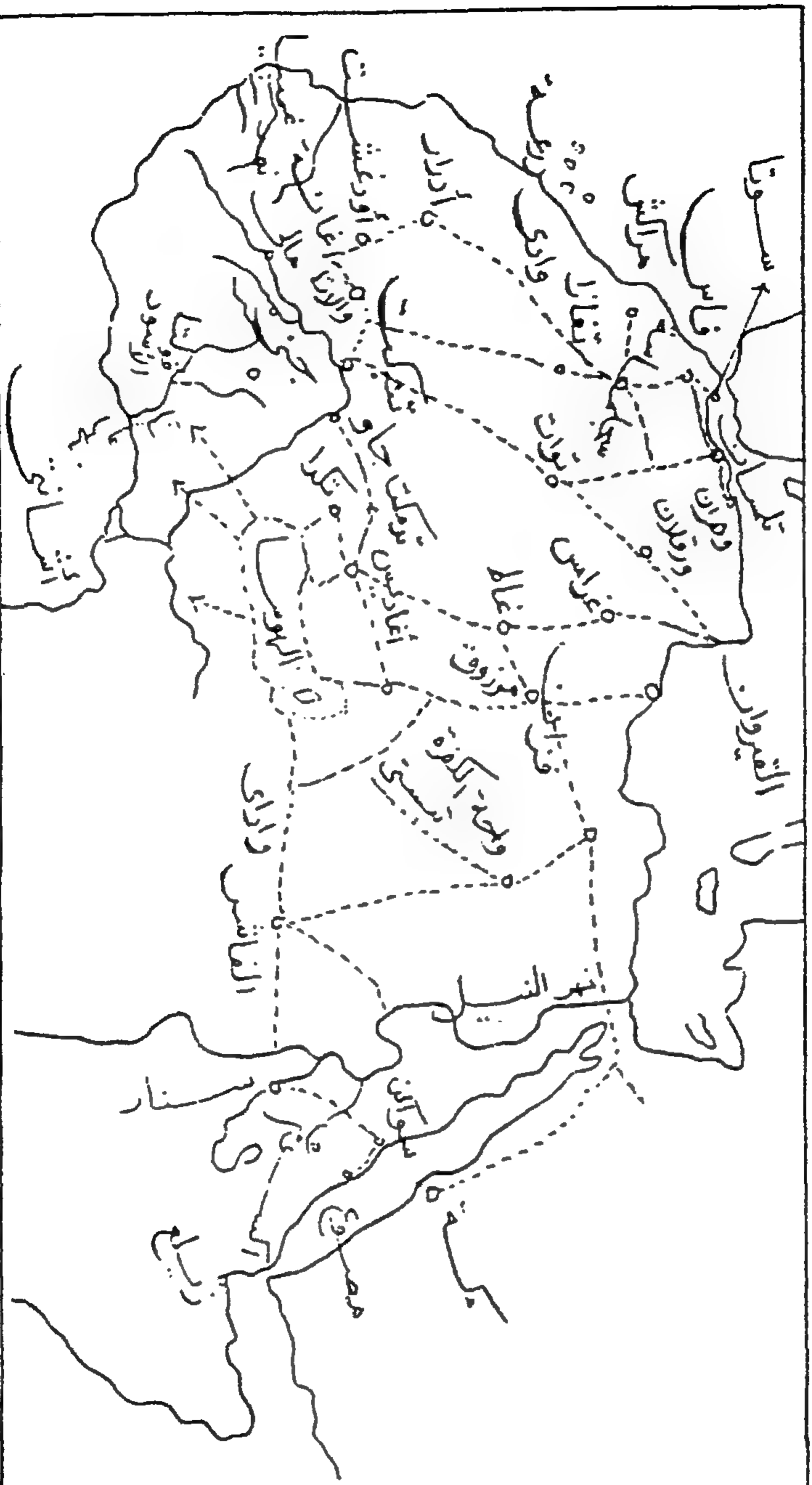


ملحق الخرائط



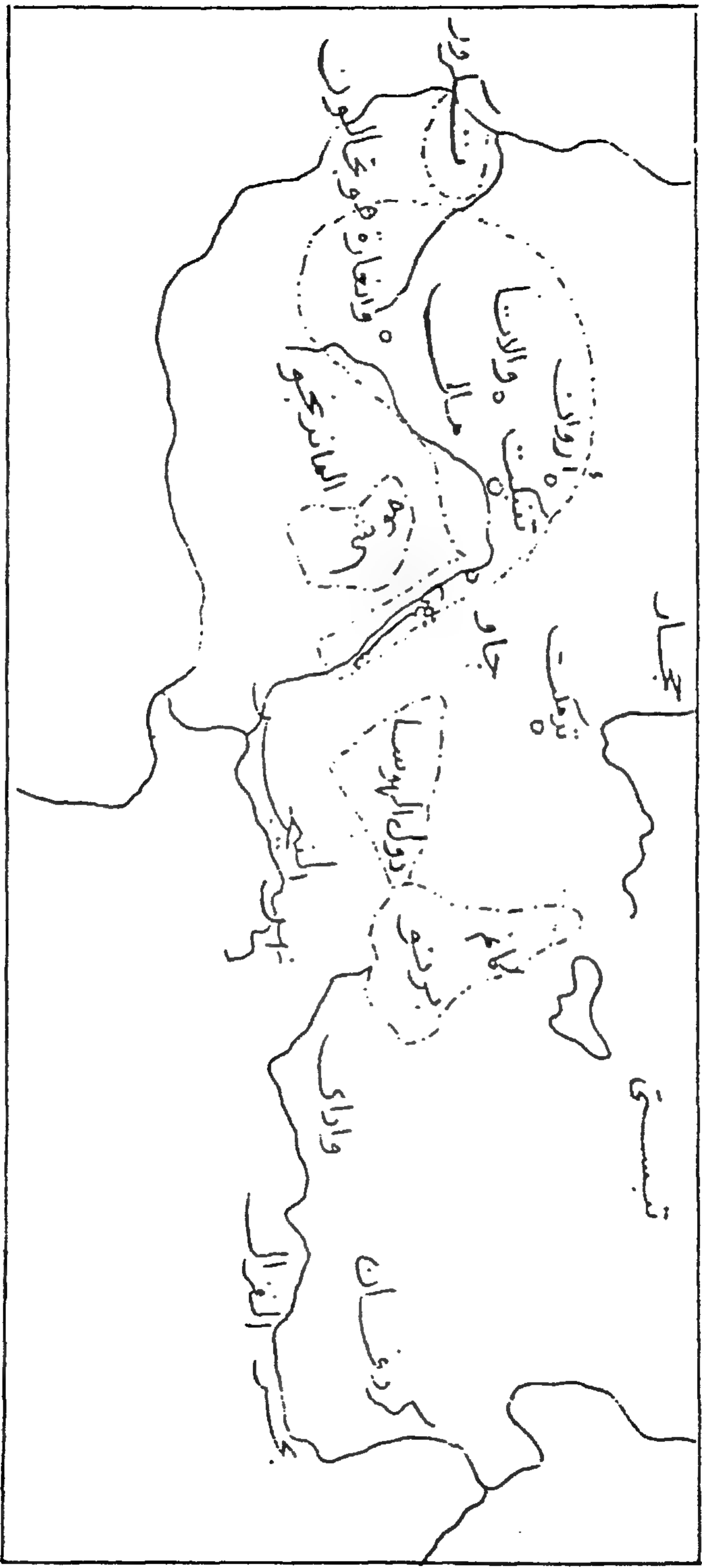
جزيرة هيوقة

خريطة رقم (١١)



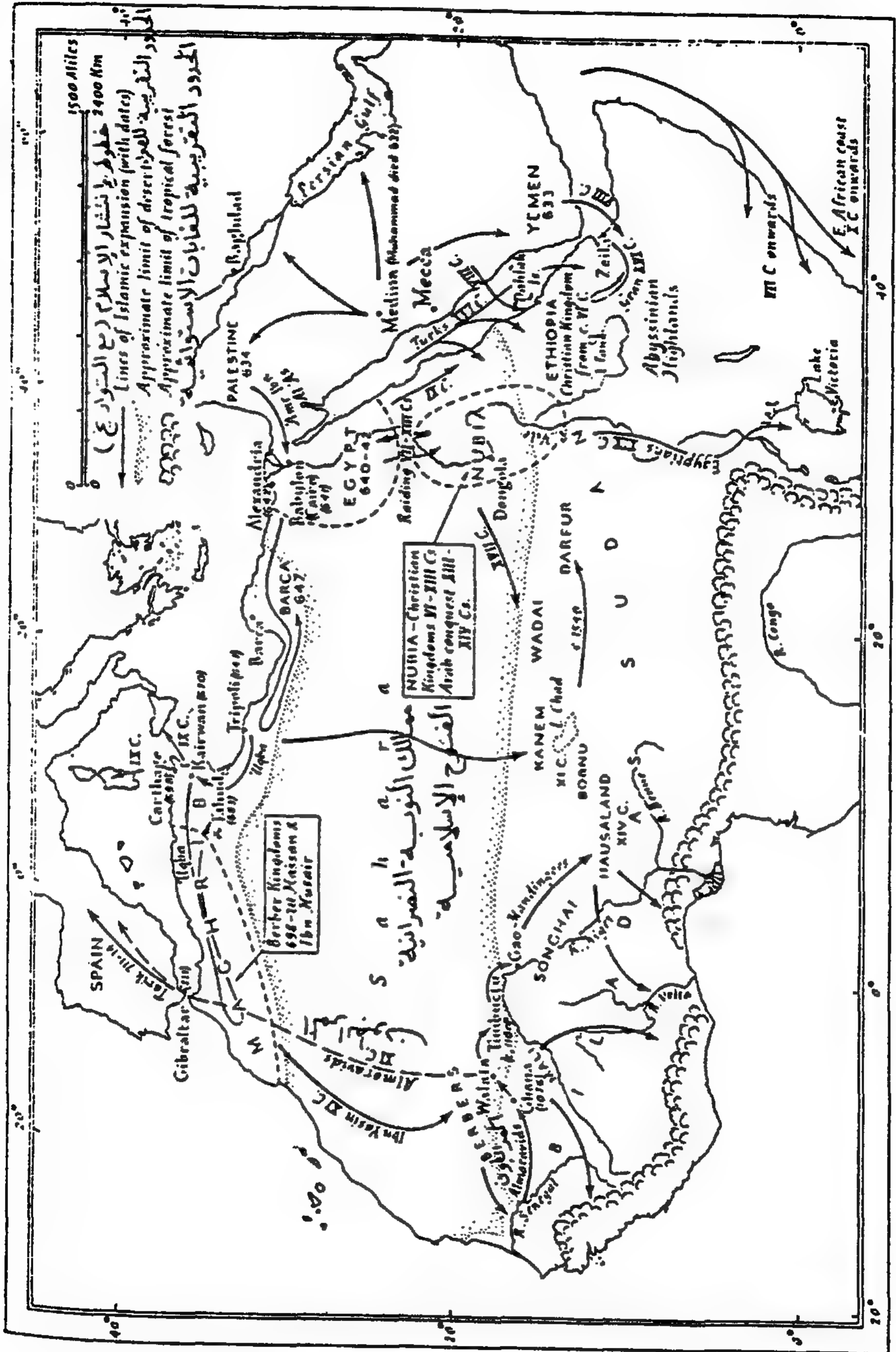
طرق القوافل الرئيسية بين بلاد مغربي إفريقيا وشمال إفريقيا

## خريطة رقم (٢)



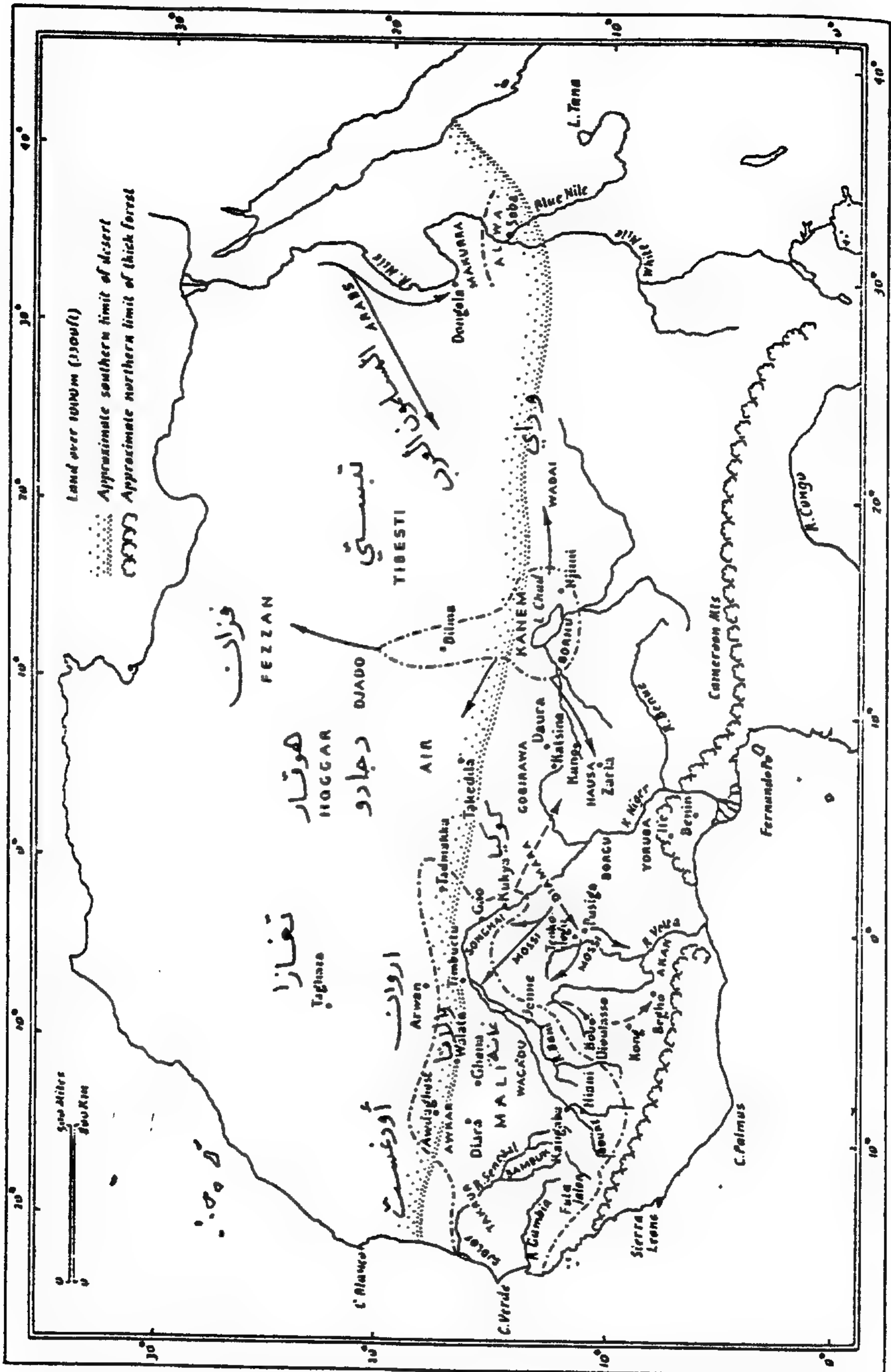
أهم دول غرب إفريقيا في القرن الثامن الهجري ١٤٠٢

خريطة رقم (٣)



نفلأ عن : Clarke: West Africa & Islam و P. 9. (تسرب الإسلام) Penetration of Islam

خريطة رقم (٤)



دول السودان (غربي إفريقيا) في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

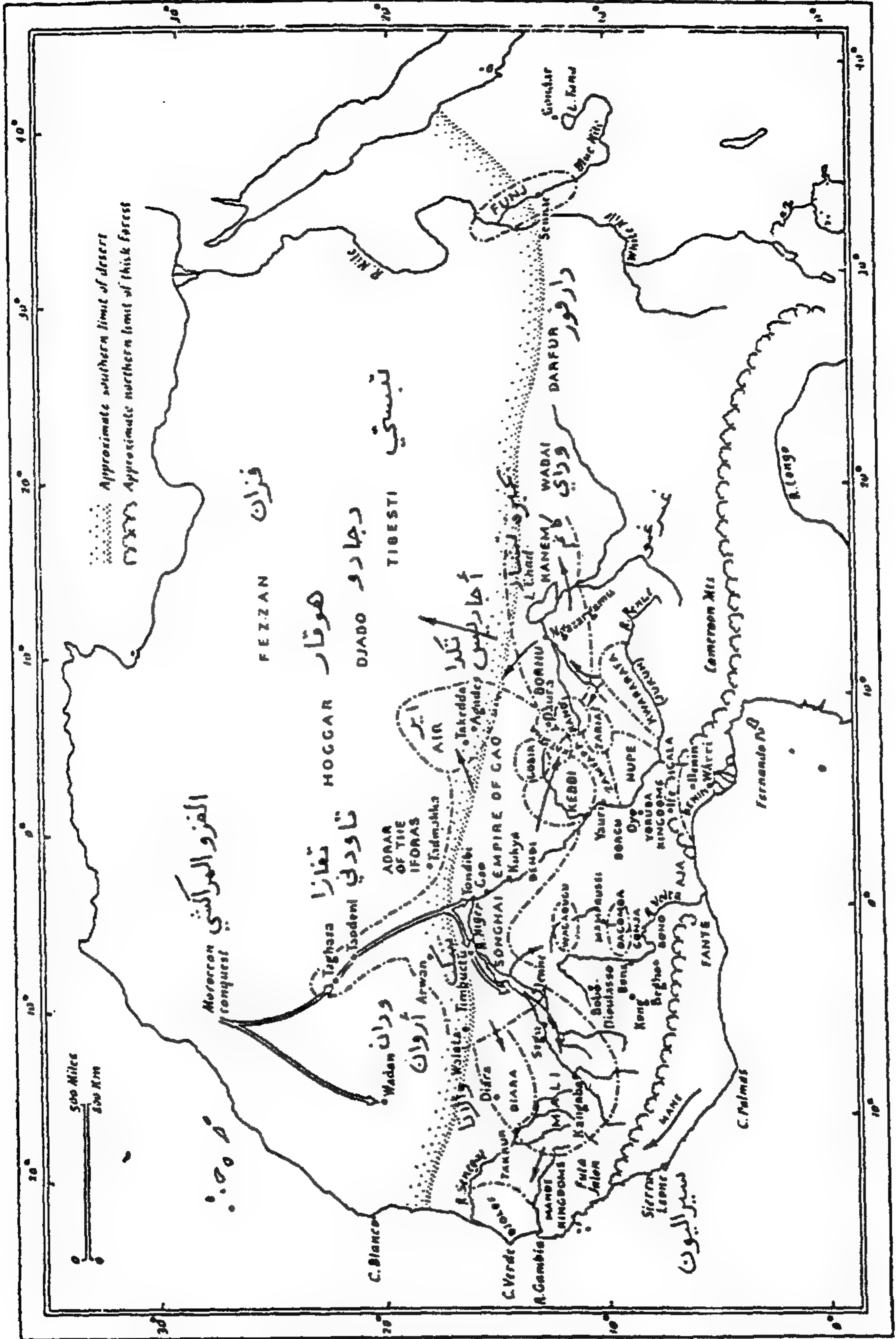
States of the Sudan in the 14th and 15th centuries

نقلًا عن : P.B. Clarke : West Africa and Islam , P. 46 .

c. 1000 - 1600: the religion of court and commerce

١٠٠٠ - ١٦٠٠ - دين الدولة والتجارة ..

## خريطة - رسم (٥)

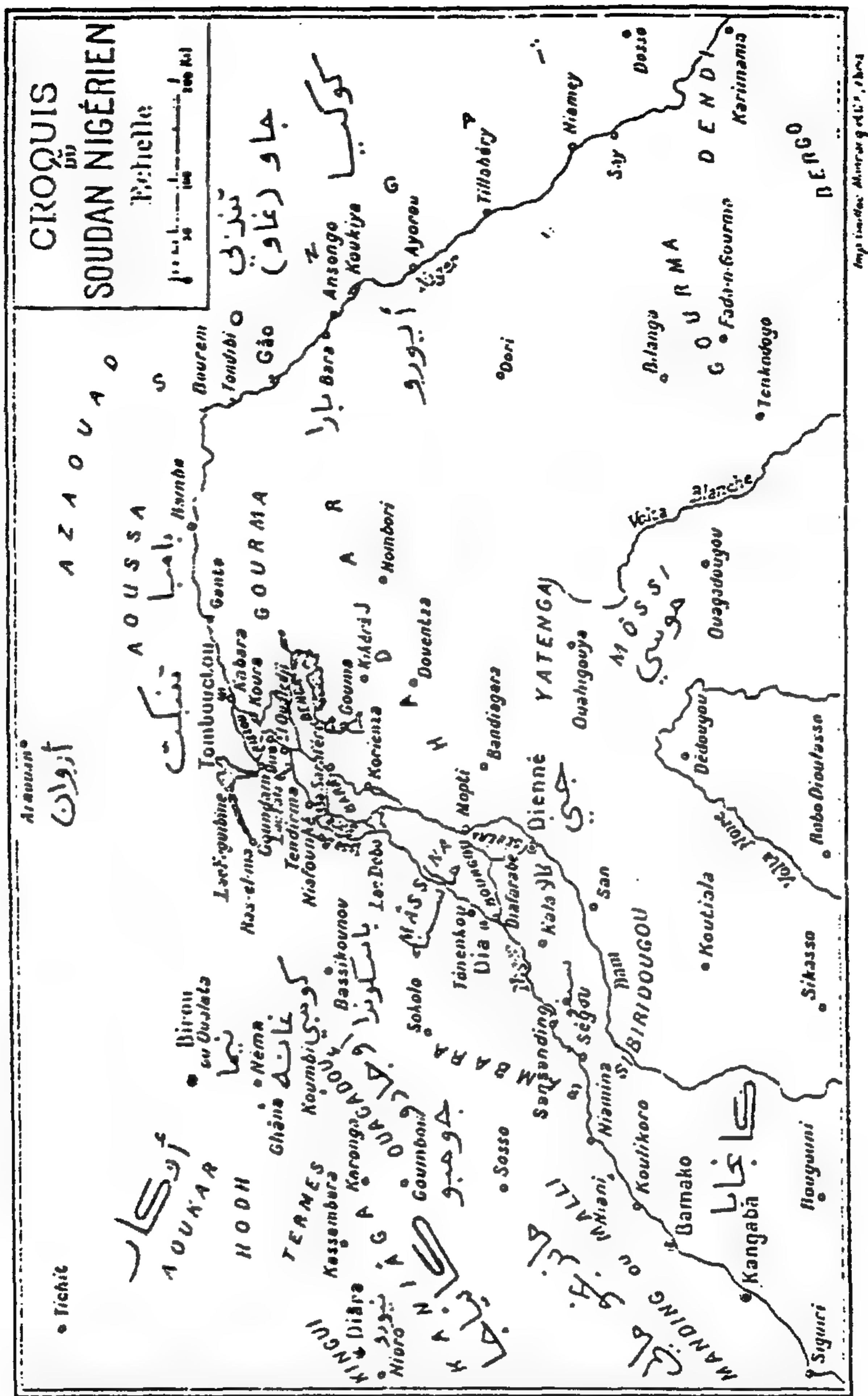


دول السودان (غربي إفريقيا) في العهد [١٦]. States of the Sudan in the 16th century.

نقل عن: Clarke: West Africa & Islam, P. 51



# خريطة رقم (٦)

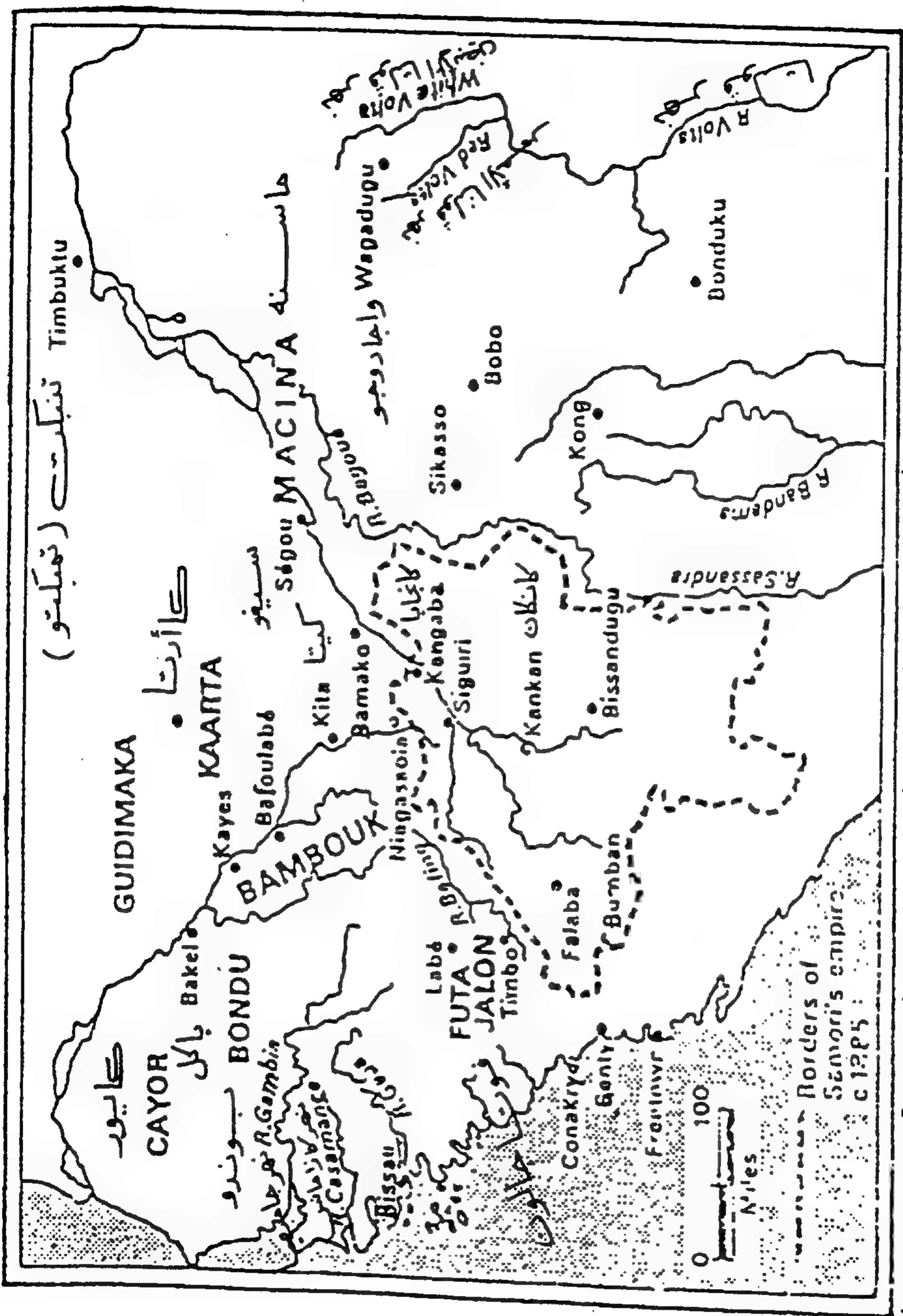


غربي إفريقيا في القرون: السابع عشر والثامن عشر  
والتاسع عشر - نقلاً عن تاريخ الفتاش، ص ٢٧٥  
من النص الفرنسي



### States of the Sudan and Guinea in the 19th century



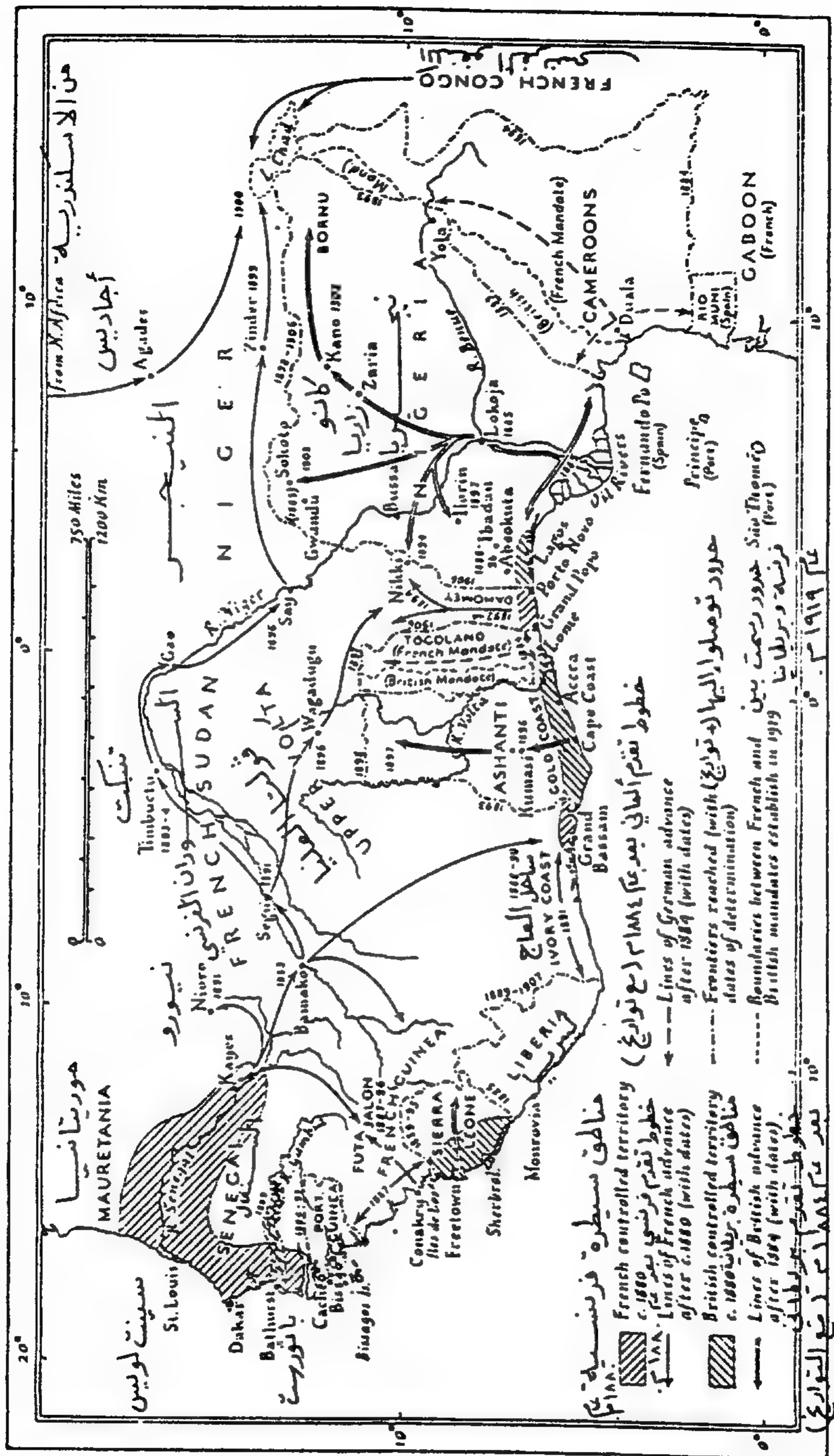


سنغامبيا والسودان الغربي (غربي إفريقيا). نقلًا عن: Hargreaves: W.A. Partitioned, P. 50.

## Senegambia and the Western Sudan

التقدم الأوروبي إلى داخل غربي إفريقيا.

نقلًا عن : Peter B. Clarke : *West Africa of Islam*, P. 186,



## European advance into West Africa



# خريطة رقم (١٠)

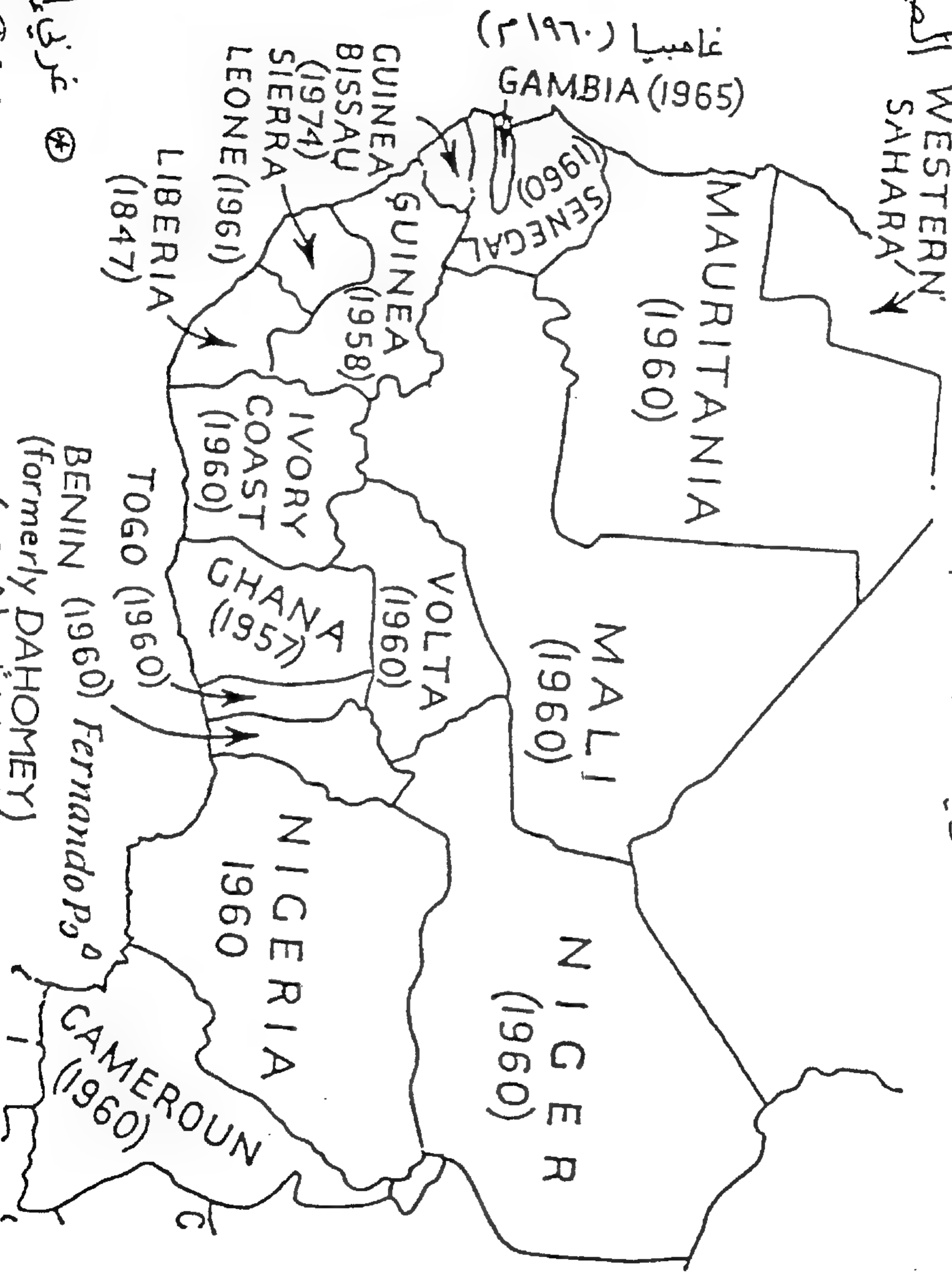
غربي إفريقيا والاسلام

الصحراء الغربية

نقلًا عن: Clarke. West Africa & Islam, P. 236

غربي إفريقيا المستقلة

\* Independent West Africa





## مصادر ومراجع<sup>(١)</sup> الكتاب

---

(١) بعض المراجع التي ذكرتها في الحواشي لم نثبتها هنا لأنها وردت مرة أو مرتين.





## أولا - المخطوطات والمصورات :

- ١ - أحمد بابا التنبكتي : (أبو العباس) (٩٦١-١٠٣٧هـ / ١٥٥٣-١٦٢٧م)  
نيل الابتهاج بتطريز الديباج . مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٣١٥ ،  
١٩٧١م تاريخ .
- ٢ - أحمد بابا التنبكتي  
كفاية المحتاج لمن ليس في الديباج ، مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية -  
جامعة الدول العربية، رقم ٧٦٥ تاريخ .
- ٣ - الدرجيني : (أبو العباس أحمد . ت. منتصف القرن السابع الهجري)  
طبقات الإباضية، جزآن - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٦١٢ تيمور  
١٢٥٦١ح .
- ٤ - عبدالله بن فودي  
إيداع النسخ في من أخذت عنه من الشيوخ . مخطوط بكلية عبدالله بايرو -  
جامعة أحمد بلو - رقم ١٣٥ .
- ٥ - العمري: (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م .  
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨  
تاريخ، معارف عامة ٥٥٩ .
- ٦ - الوسياني : (أبو الربيع سليمان بن عبدالسلام بن حسان بن عبدالله الوسياني، ت  
٤٧١هـ / ١٠٧٨م)  
مختصر تاريخ الإباضية، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩١١٣ ح .

## ثانياً - كتب عربية مطبوعة :

٧ - القرآن الكريم.

٨ - آدم متز

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبورية  
- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م.

٩ - آرنولد (السير توماس)

الدعوة إلى الإسلام، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم والدكتور عبد المجيد عابدين  
والدكتور النحراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

١٠ - إبراهيم حركات:

المغرب عبر التاريخ. دار السلمي، الدار البيضاء ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

١١ - إبراهيم العدوي : (دكتور)

المجتمع المغربي - مقوماته الإسلامية والعربية. الأنجلو المصرية، القاهرة،  
١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

١٢ - أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم التميمي)

طبقات علماء إفريقية، طبعة ابن أبي شنب، الجزائر ١٣٣٤هـ / ١٩١٥م.

١٣ - أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

تقويم البلدان، باريس ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م.

١٤ - أحمد أمين : (دكتور)

ضحى الإسلام، ج٢، ط٧. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

١٥ - أحمد بك النائب

المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، بيروت من دون تاريخ.

١٦- أحمد شليبي (دكتور)

تاريخ التربية الإسلامية. مكتبة النهضة المصرية، ط ٤، القاهرة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

١٧- أحمد شليبي (دكتور)

موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ١ - مكتبة النهضة المصرية، ط ١، القاهرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

١٨- أحمد فؤاد الأهواني (دكتور)

التربية في الإسلام، دار المعارف القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

١٩- أحمد فؤاد بليغ

عبدالرحمن السعدي، عصره - كتابه «تاريخ السودان»، مقال بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد العشرون ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

٢٠- أحمد مختار العبادي (دكتور)

الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين، مقال في مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، العدد ٢١، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

٢١- أحمد مختار عمر (دكتور)

النشاط الثقافي في ليبيا - من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، مطبوعات الجامعة الليبية - كلية التربية - ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

٢٢- الإدريسي (محمد بن عبدالعزيز الشريف - ت ٥٦٤هـ / ١١٦٨م)

المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن ١٣١٢هـ / ١٨٩٤م.

٢٣- الإدريسي

نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق - طبع حجر.

- ٢٤ - أسماء فهمي  
مبادئ التربية الإسلامية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة  
١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م.
- ٢٥ - إسماعيل رأفت  
التيان في تخطيط البلدان، مطبعة محمد محمد مطر الوراق الجمزاوي، القاهرة  
١٣٢٩هـ / ١٩١١م.
- ٢٦ - الأصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد - ت في النصف الأول من الق  
٤هـ / نحو النصف الأول من الق ١٠م).  
مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
- ٢٧ - الأفراني (سيدي محمد الصغير بن محمد بن عبدالله المراكشي)  
صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، طبعة حجرية، فاس.
- ٢٨ - ألفا هاشم الفوتي (محمد بن أحمد)  
تعريف العشائر والخلان بشعوب وقبائل الفلان، المطبعة الماجدية مكة ١٣٥٤هـ /  
١٩٣٥م.
- ٢٩ - الألوري (آدم عبدالله)  
موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.
- ٣٠ - أوليفر وفيج (رولاند أوليفر وجون فيج)  
تاريخ إفريقية، ترجمة الدكتورة عقيلة محمود رمضان - الدار القومية للطباعة  
والنشر، القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- ٣١ - الباجي (عبدالله الشيخ محمد الباجي المسعودي)  
الخلاصة النقية في أمراء إفريقية مطبعة الدولة التونسية، تونس ١٢٨٣هـ /  
١٨٦٦م.

٣٢ - البخاري (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م.

الجامع الصحيح، شرح الكرمانى

٣٣ - بدوي عبداللطيف عوض (دكتور)

تقويم جامعة الأزهر في أربع سنوات ١٣٨٨ - ١٣٩٢هـ / ١٩٦٨ - ١٩٧٢م. دار

المعارف، القاهرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

٣٤ - برنارد لويس

العرب المسلمون في إفريقية - من سلسلة فجر التاريخ الإفريقي - الدار القومية

للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت.

٣٥ - بشكوال (أبو القاسم خلف الله بن عبد الملك ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م

الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تصوير

جامعة الدول العربية، نشر وتصحيح ومراجعة السيد عزت العطار الحسيني،

١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م.

٣٦ - ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة كتاب التحرير الأعداد

١٦٦ إلى ١٦٧، القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

٣٧ - البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز - ت ٤٩٦هـ / ١١٠٢م)

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب - جزء من كتاب المسالك والممالك.

راندوم، الجزائر ١٢٧٤هـ / ١٨٥٧م.

٣٨ - البكري

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع - تحقيق مصطفى السقا، ط ١.

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٥م.

٣٩ - بل (الفريد)

دائرة المعارف الإسلامية، م ١، ج ٧٣، كتاب الشعب، مادة «تلمسان».



- ٤٠- بلو (الإمام محمد بللو بن عثمان بن فودي - ت ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م  
إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور. وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة  
١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- ٤١- بوركهارت (جون ليوس)  
رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان - ترجمة فؤاد أندراوس. مطبعة  
المعرفة، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.
- ٤٢- بوفل  
الممالك الإسلامية في غربي إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء،  
ترجمة زاهر رياض. الأنجلو المصرية، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- ٤٣- التجاني (أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد)  
رحلة التجاني، تونس ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م
- ٤٤- التونسي (خير الدين)  
أقدم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مطبعة الدولة التونسية، تونس  
١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م.
- ٤٥- التونسي (محمد بن عمر)  
تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق الدكتورين خليل عساكر  
ومصطفى مسعد. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.
- ٤٦- الجبرتي (عبدالرحمن بن حسن الجبرتي ت نحو ١٢٤٠هـ / ١٨٢٤م)  
عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مصر ١٢٩٧هـ / ١٨٩٧م.
- ٤٧- ابن جبير (محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ت ٦١٤هـ / ١٣١٧م)  
رحلة ابن جبير، تحقيق الدكتور حسين نصار. دار مصر للطباعة القاهرة  
١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م.

- ٤٨ - جواد علي (دكتور)  
تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمي العراقي، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
- ٤٩ - جورجى زيدان  
تاريخ آداب اللغة العربية - ج٣، مراجعة وتعليق الدكتور شوقي ضيف - دار  
الهلal، القاهرة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م.
- ٥٠ - جونز (هـ. د)  
شعوب ممالك السودان الأوسط (من سلسلة فجر التاريخ الإفريقي)  
٥١ - جوليان (شارل أندريه)  
تاريخ إفريقية (ترجمة طلعت عوض أباطة)، مصر ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م
- ٥٢ - جيتز (جون)  
داخل إفريقية، ج١.
- ٥٣ - ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني - ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م.  
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (تحقيق جاد الحق)، مصر سنة ١٣٨٦هـ /  
١٩٦٦م.
- ٥٤ - حسن إبراهيم حسن (دكتور)  
انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، مصر ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- ٥٥ - حسن إبراهيم حسن (دكتور)  
انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى وشرقي القارة الإفريقية  
وغربها. مصر ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م. مطبوعات معهد الدراسات العربية.
- ٥٦ - حسن إبراهيم حسن (دكتور)  
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج٤، مصر ١٣٨٧هـ /  
١٩٦٧م.

٥٧ - حسن أحمد محمود (دكتور)

الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، مصر ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

٥٨ - حسن أحمد محمود (دكتور)

المرحلة الإفريقية من تاريخ المرابطين، مقال في المجلة التاريخية المصرية،  
المجلد ١٢، ١٣٨٤-١٣٨٥هـ / ١٩٦٤-١٩٦٥م.

٥٩ - حسن أحمد محمود (دكتور)

قيام دولة المرابطين، مصر ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م.

٦٠ - حسن أحمد محمود (دكتور)

دور العرب في نشر الحضارة في غربي إفريقيا، مقال في المجلة التاريخية  
المصرية، المجلد ١٤، سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

٦١ - حسن حسني عبدالوهاب

ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، تونس ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

٦٢ - حسين أمين (دكتور)

المسجد، المعهد الأول للتعليم عند المسلمين، مقال في مجلة كلية الآداب،  
جامعة الإسكندرية، العدد ٢٢، سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

٦٣ - ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي، ت ٣٥٨هـ / ٩٦٨م).

صورة الأرض. مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.

٦٤ - حيدر خوجلي

أبو عبيد البكري - حياته وآثاره العلمية - رسالة ماجستير غير منشورة آداب  
جامعة القاهرة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

٦٥ - ابن الخطيب (الوزير الغرناطي محمد لسان الدين - ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م

الإحاطة في أخبار غرناطة، ط ١، مطبعة الموسوعات، القاهرة ١٣١٩هـ / ١٩٠١م.

٦٦ - خفاجي (الدكتور محمد عبد المنعم)

الأزهر في ألف عام، ٣ أجزاء، المطبعة المنيرية بالأزهر، القاهرة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م.

٦٧ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد - ٨٠٩هـ / ١٤٠٥م)

العبر وديوان المبتدأ والخبر - سبعة أجزاء - دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.

٦٨ - ابن خلدون

التعريف بابن خلدون، ورحلته غربا وشرقا، تحقيق محمد بن ثاويت الطنجي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٧هـ / ١٩٥١م.

٦٩ - ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م.

٧٠ - الدباغ (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله - ت ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م)

معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المطبعة العربية التونسية، تونس ٣٢٠هـ / ١٩٠٢م.

٧١ - دبوز (محمد علي)

تاريخ المغرب الكبير، ٣ أجزاء، ط ١ طبعة الحلبي، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

٧٢ - دلافوس، م

دائرة المعارف الإسلامية، م ١٠، ج ٧٣، كتاب الشعب، مادة تكرور.

٧٣ - الدمشقي (شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي طالب ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م)  
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. يطلب من مكتبة المشي، ليزج،  
١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م.

٧٤ - ديشان (هوير)  
الديانات في إفريقية السوداء، ترجمة أحمد صادق حمدي، دار الكتاب  
المصري، القاهرة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.

٧٥ - ديفدسون (بازل)  
إفريقية القديمة تكشف من جديد، ترجمة نبيل بدر وسعد زغلول، سلسلة من  
الشرق والغرب، العدد ٣٩ - الدار القومية للنشر والترجمة والطباعة، القاهرة  
١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

٧٦ - دنيس بولم  
الحضارات الإفريقية، ترجمة علي شاهين، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٣م.  
٧٧ - ابن أبي دينار (أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني - ت  
نحو ١١١٠هـ / ١٦٩٨م)

المونس في أخبار إفريقية وتونس، ط ١، طبعة الدول التونسية تونس ١٢٨٦هـ /  
١٨٦٩م.

٧٨ - ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر)  
الأعلاق النفيسة، ليدن ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

٧٩ - الرقيق القيرواني (القرن ٥ هـ / ١١ م)  
تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي. الناشر: رقيق السقطي، تونس  
١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

٨٠- روجيه لوتورنو

فاس في عصر بني مرين، ترجمة نقولا زيادة، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت - نيويورك ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

٨١- زاهر رياض

تاريخ غانة الحديث، ط ١ دار المعرفة، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م

٨٢- زبادة (الدكتور عبدالقادر)

مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

٨٣- ابن أبي زرع (علي بن محمد الفاسي - ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م)

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ج ١، تحقيق محمد الهاشمي الفيلاي. المطبعة الوطنية، الرباط ١٢٥٢هـ / ١٩٣٦م.

٨٤- الزركلي (خير الدين)

الأعلام، الطبعة الثالثة، بدون ناشر، القاهرة، د. ت.

٨٥- زكي محمد حسن (دكتور)

الرحالة المسلمون في العصور الوسطى. دار المعارف، القاهرة ١٢٦٢هـ / ١٩٤٥م.

٨٦- السخاوي (شمس الدين محمد بن عبدالسلام، ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م).

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م.

٨٧- سر الختم عثمان (دكتور)

العلاقات بين مصر والسودان في العصور الوسطى بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.



٨٨ - سعد زغلول (دكتور)

تاريخ المغرب العربي، من الفتح العربي حتى قيام الأغالبة والرستميين والأدارسة. دار المعارف، القاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

٨٩ - السعدي (عبدالرحمن بن عبدالله بن عمران بن عامر - بعد سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٥م).

تاريخ السودان، نشر هوداس وينوا، باريس ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م.

٩٠ - ابن سعيد المغربي (علي بن موسى - ت ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م)

بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق الدكتور خوان قرنبط، مطبعة كرماديس، تطوان (المغرب) ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.

٩١ - سويلم العمري (دكتور)

الإفريقيون والعرب. الأنجلو المصرية، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

٩٢ - السيد عبدالعزيز سالم (دكتور)

المغرب الإسلامي، الجزء الثاني - الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٧٦هـ / ١٩٦٦م.

٩٣ - سيكوتوري (أحمد)

إفريقية والثورة، ترجمة مجموعة من الاختصاصيين. المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

٩٤ - سيلا (عبدالقادر محمد سيلا)

المسلمون في السنغال - معالم الحاضر وآفاق المستقبل، سلسلة «كتاب الأمة»، ط ٢ قطر، شوال ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

٩٥ - ابن سينا (ت ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م)

كتاب السياسة، مع مجموعة من المقالات الفلسفية، ط ٢، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت ١٣٣٠هـ / ١٩١١م.

- ٩٦- السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر- ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)  
حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة إدارة الوطن، القاهرة،  
١٢٩٩هـ / ١٨٨٧م.
- ٩٧- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط ١. مطبعة السعادة، القاهرة  
١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م.
- ٩٨- الجامع الصغير من حديث البشير النذير، ط ١، مطبعة حجازي، القاهرة  
١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م.
- ٩٩- شريف محمد شريف (دكتور)  
توطن العناصر الإفريقية الغربية بالسودان، مقال في مجلة كلية آداب جامعة  
القاهرة، المجلد ٢٤، الجزء الثاني، ١٣٨٢هـ / مايو ١٩٦٢م.
- ١٠٠- شلبي (دكتور أحمد)  
موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج ٦، النهضة المصرية، القاهرة  
١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- ١٠١- الشَّماخي (أحمد بن سعيد بن محمد بن عبدالواحد- ت ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م)  
كتاب السير، نشر الشيخ محمد بن يوسف الباروني النفوسي، الجزائر، د. ت
- ١٠٢- الشنقيطي (أحمد بن الأمين)  
الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، المطبعة الجمالية، القاهرة ١٣٣٠هـ / ١٩١١م.
- ١٠٣- شيخو (أحمد سعيد فلادنت)  
حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا من سنة ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م إلى  
١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم - جامعة  
القاهرة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

١٠٤ - صبحي ليب (دكتور)

التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، مقال في المجلة التاريخية المصرية، المجلد الرابع، العدد الثاني، سنة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م.

١٠٥ - ابن صود (ابن محمد بن الأمين، الق ١١هـ / ١٧م)

تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان - نشر وترجمة هوداس باريس ١٣١٩هـ / ١٩٠١م.

١٠٦ - ود ضيف الله (محمد ضيف الله بن محمد الجعلي - ت ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م

الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق إبراهيم صديق، مطبعة محمود صبيح، القاهرة ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م.

١٠٧ - طرخان (الدكتور إبراهيم علي)

إمبراطورية غانا الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.

١٠٨ - دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

١٠٩ - إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

١١٠ - الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقية، مقال في مجلة كلية آداب، جامعة القاهرة، المجلد ٢٧، سنة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

١١١ - طيان

دائرة المعارف الإسلامية، م ١٢، ج ٩٦، كتاب الشعب، مادة «جهاد».

١١٢ - ابن الطيب (أبو عبد الله محمد - ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م)

نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، طبع حجر.

١١٣ - عاشور (الدكتور سعيد عبدالفتاح)

العصر المالكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة ١٣٨٥هـ /  
١٩٦٥م.

١١٤ - ابن عبدالحكم (عبدالرحمن بن عبدالله - ٢٥٧هـ / ٨٧١م)

فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق وتقديم عبدالله أنيس الطباع. دار الكتاب  
البناني، بيروت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.

١١٥ - عبدالحميد بخيت (دكتور)

المجتمع العربي والإسلامي، جزآن. دار المعارف، القاهرة ١٣٨٧هـ /  
١٩٦٧م.

١١٦ - عبدالرحمن زكي (دكتور)

الإسلام والمسلمون في غربي إفريقية. مطبعة يوسف، القاهرة، د. ت  
١١٧ - جمهورية نيجيريا الحديثة، مقال في مجلة المجلة، العدد ٤٧، السنة الرابعة،  
نوفمبر ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.

١١٨ - المراجع العربية للتاريخ الإسلامي في غربي إفريقية، بحث في مجلة الجمعية  
المصرية التاريخية، المحاضرات العامة، الموسم الثقافي ١٣٨٧-١٣٨٨هـ /  
١٩٦٧-١٩٦٨م.

١١٩ - عبدالعزيز أمين عبدالمجيد (دكتور)

التربية في السودان من أول القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر  
والأسس النفسية التي قامت عليها. وزارة المعارف العمومية، القاهرة ١٣٦٩هـ /  
١٩٤٩م.

١٢٠ - عبدالعزيز كامل (دكتور)

العروبة والحضارات الإفريقية في منظور جديد. معهد الدراسات والبحوث  
الاحصائية - مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م

١٢١ - جغرافية الإسلام في إفريقيا، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م

١٢٢ - عبدالفتاح محمد وهيب

جغرافية العرب في العصور الوسطى. معهد الدراسات الإفريقية، القاهرة  
١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.

١٢٣ - عبدالله عبدالرازق إبراهيم (الدكتور)

الإسلام والحضارة الإسلامية في نيجيريا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،  
١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

١٢٤ - عبدالله الغنيم

مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، القسم الأول، ذات السلاسل للطباعة والنشر  
والتوزيع، الكويت ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

١٢٥ - عبدالله كنون

النبوغ المغربي في الأدب العربي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة  
والنشر، بيروت ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

١٢٦ - عبدالمجيد عابدين (دكتور)

تاريخ الثقافة العربية في السودان: منذ نشأتها إلى العصر الحديث. مطبعة  
الشبكشي بالأزهر، القاهرة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م.

١٢٧ - عبده بدوي (دكتور)

مع حركة الإسلام في إفريقيا. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر والترجمة،  
القاهرة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م

- ١٢٨ - ابن العربي (علي حراز بن العربي راده المغربي الفاسي)  
جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، المطبعة  
الأزهرية، القاهرة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م.
- ١٢٩ - عصمت دندش (عصمت هانم عبداللطيف علي دندش)  
دور المرابطين في نشر الإسلام في غربي إفريقيا، رسالة ماجستير غير منشورة،  
معهد الدراسات الإفريقية القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
- ١٣٠ - علي أبو بكر (دكتور)  
الثقافة العربية في نيجيريا، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب جامعة القاهرة،  
١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.
- ١٣١ - عمر رضا كحالة  
معجم المؤلفين، مطبعة الترقى، دمشق ١٣٧٧-١٣٧٨هـ / ١٩٥٧-١٩٦١م.
- ١٣٢ - العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله، ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م)  
التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة ١٣١٢هـ / ١٨٩٤م.
- ١٣٣ - عياض (أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي - ت ٥٤٤هـ /  
١١٤٩م)  
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق الدكتور أحمد  
بكير محمود. دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.
- ١٣٤ - الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تحقيق السيد أحمد صقر.  
دار التراث، القاهرة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.
- ١٣٥ - الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد، ت ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م)  
عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، تحقيق الأستاذ  
رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.



- ١٣٦ - ابن غلبون (أبو عبدالله محمد بن خليل، ت بعد سنة ١١٣٣هـ / ١٧٢٠م)  
التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، تحقيق الأستاذ الطاهر  
أحمد الزاوي الطرابلسي. مكتبة النور، طرابلس ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
- ١٣٧ - ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، الق ٣هـ / ٩م)  
مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م.
- ١٣٨ - القاسمي (محمد جمال الدين)  
قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، تحقيق وتعليق محمد بهجة  
البيطار. دار احياء الكتب العربية - الحلبي، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.
- ١٣٩ - ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري، ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)  
عيون الأخبار، الطبعة الأولى - مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٤٧هـ /  
١٩٢٨م.
- ١٤٠ - قداح (نعيم)  
إفريقية الغربية في ظل الإسلام، وزارة الثقافة والإرشاد القومي. مديرية التأليف  
والترجمة، كوناكري ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.
- ١٤١ - القرطبي (أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري، ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م)  
جامع بيان العلم وفضله، تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان. المكتبة السلفية -  
السعودية، المدينة المنورة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- ١٤٢ - القزويني (زكريا بن محمد بن محمود، ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م)  
آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.
- ١٤٣ - القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)  
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المجلد الخامس والثاني، المطبعة الأميرية،  
القاهرة ١٣٣٤هـ / ١٩١٥م.

١٤٤ - كابوراي

دائرة المعارف الإسلامية، م ٦، ج ٤٣، كتاب الشعب مادة «بجرمي».

١٤٥ - كاردو، ب

دائرة المعارف الإسلامية، م ١٠، ج ٧٣، كتاب الشعب، مادة «تمبكتو».

١٤٦ - الكماك (الدكتور عثمان)

مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر.

مطبوعات معهد الدراسات العربية العليا، القاهرة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.

١٤٧ - الكماك

البربر، ط ١، تونس ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م.

١٤٨ - كوابونج، أ. أ.

إفريقية الشمالية في العصر القرطاجني واليوناني والروماني، سلسلة فجر

التاريخ الإفريقي. الدار القومية للطباعة والترجمة والنشر، القاهرة، د. ت

١٤٩ - لوبون (الدكتور غوستاف)

حضارة العرب، معرب، دار إحياء الكتب المصرية، القاهرة، د. ت.

١٥٠ - مكدونالد، ل. ب

دائرة المعارف الإسلامية، م ١٢، ج ٩٦، مادة «جهاد».

١٥١ - المالكي (أبو بكر عبدالله بن أبي عبدالله - ت ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م)

رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، نشر الدكتور حسين مؤنس

- مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥١م.

١٥٢ - مجهول

الاستبصار في عجائب الأمصار، لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس

الهجري، نشره وعلق عليه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد - مطبعة جامعة

الإسكندرية، الإسكندرية ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.

- ١٥٣ - المحيي (محمد أمين بن فضل الله، ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م)  
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، مكتبة خياط، بيروت، د. ت.
- ١٥٤ - محمد أسعد أطلس (دكتور)  
التربية والتعليم في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م.
- ١٥٥ - محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي  
الأدب المغربي، ط ٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.
- ١٥٦ - محمد عبدالرحيم غنيمه  
مقدمة لتاريخ التعليم الجامعي في الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب  
جامعة القاهرة (فؤاد الأول)، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م.
- ١٥٧ - محمود إسماعيل (دكتور)  
أثر الخوارج في الحياة السياسية في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع  
الهجري، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب جامعة القاهرة، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.
- ١٥٨ - محمود رزق سليم  
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المجلد الثالث، مكتبة الأدب  
بالجماميز، القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م.
- ١٥٩ - محمود عبدالرؤوف القاسم  
الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، المكتبة الإسلامية، عمان،  
الأردن، ط ٢، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- ١٦٠ - ابن المختار هذا المصدر في طبعته المنشورة منسوب إلى القاضي محمود  
كعت (ت بعد سنة ١٠٧٥هـ / ١٦٦٤م)  
تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور  
وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار. نشر هوداس ودلافوس،  
مطبعة بردين، باريس ١٣٣٢هـ / ١٩١٣م.

- ١٦١ - ابن مخلوف (محمد بن محمد )  
شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة،  
١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م.
- ١٦٢ - ابن مريم (أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد)  
البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان . نشر ابن أبي شنب، المطبعة الثعالية،  
الجزائر ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م.
- ١٦٣ - ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد، ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)  
تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق . نشره محمد عبدالقادر المازني، طبع إدارة  
الوطن، القاهرة ١٢٩٨هـ / ١٨٨٠م.
- ١٦٤ - مصطفى محمد مسعد (دكتور)  
الإسلام وحركات الفلان الإصلاحية في غرب إفريقية . مقال في مجلة جامعة  
أم درمان الإسلامية، العدد الأول، سنة ١٩٦٨م.
- ١٦٥ - المغيلي (محمد بن عبدالكريم، ت ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م)  
أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تقديم وتحقيق الأستاذ عبدالقادر زبادية، الشركة  
الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- ١٦٦ - المقدسي (شمس الدين أبي عبدالله بن أبي بكر الشامي المقدسي -  
ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م.  
أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم ط ٢، مطبعة بريل، ليدن ١٣٢٨هـ / ١٩٠٩م.
- ١٦٧ - المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)  
الخطط المقرئية، طبعة مطابع النيل، القاهرة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م.
- ١٦٨ - الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة ١٣١٣هـ /  
١٨٩٥م.

١٦٩ - الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق الدكتور جمال

الدين الشيال. مكتبة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد، القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م.

١٧٠ - ابن الملقن (عمر بن علي بن أحمد بن محمد الوادي أشي التكروري (ت

٨٠٤هـ / ١٤٠١م)

طبقات الأولياء ومناقب الأصفياء، تحقيق وتقديم الأستاذ عبدالله الجبوري، نشر

مجلة دعوة الحق، العدد الرابع، السنة الثالثة عشر، ١٣٩٠هـ / أبريل ١٩٧٠م.

١٧١ - موني (Mouny)

دائرة المعارف الإسلامية، م ١٢، ج ٩٦، كتاب الشعب، مادة «جني».

١٧٢ - النعيمي (عبدالقادر بن محمد الدمشقي، ت ٩٢٧هـ / ١٥٢١م)

الدارس في تاريخ المدارس، الجزء الثاني، نشر وتحقيق جعفر الحسني.

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق - مطبعة الترقى، دمشق ١٣٧١هـ /

١٩٥١م.

١٧٣ - النفوسي (سليمان بن الشيخ عبدالله الباروني ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م)

الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية. مطبعة الأزهار البارونية، د ت.

١٧٤ - النيفر (الشيخ محمد، ت ٧٣١هـ / ١٣٣٠م)

عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، ط ١، المطبعة

التونسية، تونس ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م.

١٧٥ - هودكير (توماس)

ممالك السودان الغربي - ترجمة عبدالواحد الأمبابي - من سلسلة فجر التاريخ

الإفريقي. الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د ت.

١٧٦ - الواقدي (محمد بن عمر ت ٢٠٧هـ / ٨٢٢م)

فتوح إفريقية، ج ١ المطبعة العمومية، تونس ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م.

١٧٧ - ابن الوردي (أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد، ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م)

تتمة المختصر في أخبار البشر. المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م.

١٧٨ - ويدنر (دونالد)

تاريخ إفريقية جنوب الصحراء - ترجمة راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، د ت.

١٧٩ - ياقوت الحموي (أبو عبدالله ياقوت الحموي - ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)

معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م.

١٨٠ - يسري عبدالفتاح الجوهري (دكتور)

شمال إفريقية - دراسة في الجغرافية التاريخية. دار الجامعات المصرية، د ت.

١٨١ - يفر، ج

دائرة المعارف الإسلامية، م ١٢، ج ٩٦، كتاب الشعب، مادة «جني».

١٨٢ - دائرة المعارف الإسلامية، م ٤، ج ٣٥، كتاب الشعب، مادة «أودغست».

١٨٣ - ابن يونس: (إبراهيم صالح بن يونس بن محمد الأول بن يونس)

تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم برنو. شعبة أبحاث السودان -

كلية الآداب جامعة الخرطوم - الخرطوم ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.



## **ABBREVIATIONS**

- 1) **ANS (Archives Nationale du Senegal).**
- 2) **B.S.O.A.S. (Bulletin Of The School Of Oriental And African Studies, London).**
- 3) **K. C. (Kano Chronicle).**
- 4) **K. S. (Kano Studies).**
- 5) **J. A. H. (Journal of African History).**
- 6) **J. A. S. (Journal of the African society).**
- 7) **J. A. S. (Journal of African Studies).**
- 8) **J. H. S. N. (Journal of the Historical Society of Nigeria).**
- 9) **J. R. A. S. (Journal of the Royal Asiatic Society).**
- 10) **S. N. R. (Sudan Notes and Records).**

## REFERENCES

- 1) AL-HAJJ, MUHAMMAD AHMAD: 'A Seventeenth Century Chronicle on the Origins and Missionary Activities of the Wangarawa, K. S, 1, 4, 1968.
- 2) AL-NAQAR, UMAR: The Pilgrimage Tradition in west Africa. Khartoum, 1972.
- 3) ..... 'Takrur - The History of a Name', J. A. H, X, 3, 1969.
- 4) ARKELL, A. J.: More about Fung Origins', S. N. R., XXVII, 1946.  
..... 'Darfur Antiquities - Ain Farah', S. N. R. XIX, 2, 1936.
- 5) BARTH,
- 6) BARROWS, D. P.: Berbers and Blacks - Impression of Morocco, Timbictu and the Sudan. London, 1927.
- 7) BATRAN, A. A.: 'A Contribution to the Biography of Shaikh Muhammed Ibn' Abd- AL-Karim Ibn Muhammad AL-Maghili, AL-Tilmsani', J. A. H., XIV, 3, 1973.
- 8) BIVAR, A. D. H.: 'Arabic Documents of Northern Nigeria'. B.S.O. A.S., XXII, 2, 1959.
- 9) ..... 'The Wathigat Ahl AL-Sudan', J.A.H, II, 2, 1961.
- 10) ....., A.D.H. and HISKETT, M.: 'The Arabic Literature of Nigeria to 1804: A Provisional Account', B.S.O.A.S., XXV, 1, 1962.
- 11) BOVILL, E.W.: Caravans of the Old Sahara, An Introduction to the History of the Western Sudan. Oxford, 1933.
- 12) BLYDEN, E.W.: Christianity, Islam and the Negro Race. Edinburgh, 1967.
- 13) BURCKHARDT, J.L.: Travels in Arabia. London, 1829.
- 14) BURNS, Sir A.: History of Nigeria, Sixth edition. London, 1963.
- 15) CHURCH, R.J.H.: West Africa, London, 1960.
- 16) CLARKE, PETER B.: West Africa and Islam - A Study of Religious Development from the 8th to the 20th Century. Edward Arnold. London (1982).
- 17) COOLEY, W.D.: The Negro Land of the Arabs, London 1841.
- 18) CURTIN, P.D.: 'Jihad in West Africa - Early phases and Inter-Relations in Mauritania and Senegal', J.A.H., XII, 1, 1971.

- 19) DAVIDSON, B.: *The Lost Cities of Africa* U.S.A., 1959.
- 20) DENHAM, Major, Clapperton, Captain, and The Late Dr. Oudney: *Narrative of Travels and Discoveries in the Northern and Central Africa, in the Years, 1822 and 1826.* London, 1826.
- 21) ELMASRI, F.H.: 'The Life of Shehu Usuman Dan Fodio Before the Jihad', J.H.S.N., II, 4, 1964.
- 22) EWAN, P.J.M.: *The Influence of the Mande.* Oxford, 1969.
- 23) FAGE, J.D.: *An Atlas of African History.* Cambr., 1958.  
.....: *An Introcuotion to the History of West Africa* Cambr., 1959.
- 24) FISHER, H.: *The Western and Central Sudan (The Cambr. History of Islam),* Cambr., 1970.
- 25) GRUNEBAUM, G.E. *Unity and Variaty in Muslim Civilization* U.S.A., 1955.
- 26) HARGREAVES, JOHN D.: *West Africa Partitioned, Volume I, The Loaded Pause, 1885-1889,* Macmillan Press LTD. London, 1974.
- 27) HERKOVITS, M.J.: *The Human Factor in Changing Africa.* New York, 1967.
- 28) HISKETT, M.,: 'Kitab AL-FARQ: A Work on the Habe Kingdoms Attributed to Uthman Dan Fodio, B.S.O.A.S., XXIII, 2, 1960.
- 29) HRBEK, IVAN: *The Early Period of Mohamadu Lamine's Activities* (in R. Willis: *Studies in West African Islamic History*).
- 30) HODGKIN, T.: *Nigerian Perspectives, An Historical Anthrology.* London, 1960.
- 31) ..... *Islam and National Movements in West Africa', J.A.H, III, 2, 1962.*
- 32) HOGBEN, S. J.: *The Muhamadan Emirates of Nigeria,* London, 1930.
- 33) HOGBEN, S. J. and Kirk- Green, A. H.: *An Introduction to the History of Islamic States of Northern Nigeria.* Ibadan, 1967.
- 34) HUNWICK, J. O.: 'A new Source for the Biography of Ahmad Baba Al-Tumbukti', B. S.O. A.S., XXVII, 1964.
- 35) HUNWICK, J. O.: 'Source Materials for the History of Songhai, Bornu and Hausaland in the Sixteenth Century', J. H. S. N., VII, 3, December, 1974.
- 36) ..... *Religion and State in the Songhay Empire, 1464 - 1591, (Islam in Tropical Africa),* oxford, 1969.
- 37) KANYA, A. S: *The Comquest of the Western Sudan- A Study in French Milidary Imperialism,* Cambridge University Press, London, 1969.



- 38) JOHNSTON, H. AS.: *The Fulani Empire of Sokoto*. Ibadan, 1967.
- 39) KENSDALE, W. E. N.: 'Field Notes on the Arabic Literatures of the Western Sudan: Muhammadu Bello', *J.R.A.S.*, 1958.
- 40) KIRK-GREEN, A.H.M.: *Barth's Travels in Nigeria*. Extracts from the *Journal of Heinrich Barth's Travels in NiGeria* London, 1962.
- 41) KLEIN, M.A.: 'Social and Economic Factors in the Muslim Revolution in Sengambia', *J.A.H.* XII, 3, 1972.
- 42) LEO- AFRICANUS (J. Leo A More): *The History and Description of Africa* (Translated and Collected by: John Pory). London, 1600.
- 43) LEVTZION, N.: 'Ibn-Hawqual, the Cheque, and Andaghost', *J.A.H.*, IX, 1968.
- 44) ..... *Muslims and Chiefs in West Africa: A Study of Islam in the Middle Volta Basin in the pre- Colonial Period* Oxford, 1968.
- 45) .....: 'A Seventeenth - Century Chronicle by Ibn AL-Mukhtar, A Critical Study of *Tarikh AL-Fatash*', *B.S.O.A.S.*, XXXIV, 3, 1971.
- 46) LEVTZION, N.: *Ancient Ghana and Mali*. London, 1973.
- 47) LEWIS, I.M.: *Islam in Tropical Africa*. Oxford, 1969.
- 48) LUGARD, L.: *A Tropical Dependency: An Outline of the Ancient History of the Western Sudan with an Account of the Modern Settlement of Northern Nigeria*. London, 1964.
- 49) LYNCH, J.R.: 'Edward W. Blyden: Pioneer West African Nationalist', *J.A.H.*, VI, 3, 1965.
- 50) LYON, G.E.: *A Narrative of Travels in Northern Africa in the years 1818- 19 and 1920 Accompanied by Geographical Notes on Sudan and of the Course of the Niger*. London, 1966.
- 51) MARGOLLOUTH, D.S.: 'Contribution to the Biography of Abd AL-Kadir of Jilan', *J.R.A.S.*, April, 1907.
- 52) MARTIN, B.G.: 'Kanem, Bornu, and the Fazzan: Notes on the Political History of the Trade Routes', *J.A.H.*, X, 1, 1969.
- 53) MEEK, C.K.: *The Northern Tribes of Nigeria. An Ethnographical Account of the Northern Provinces of Nigeria together with a report on the 1921 Decennial census*. New York, 1969.

- 54) MURDOCK, G.P.: Africa: Its Peoples and their Culture History. New York, 1959.
- 55) NORRIS, H.T.: ' Sanhaja Scholars of Timbuctoo', B.S.O.A.S. XXX, 3, 1967.
- 56) .....: ' Znaga Islam During the Seventeenth and Eighteenth Centuries', B.S. O. A. S., XXXII, 3, 1969.
- 57) OLORUNTIMEHIN, B.O.: The Segu Tukolor Empire. London, 1972.
- 58) Omer- Cooper, J.D. and other: The Growth of African Civilisation, I, The 19th C. the Partition, London, 1975.
- 59) OLIVER, R.: The Dawn of African History. Oxford, 1961.
- 60) OLORUNTIMEHIN, B. O.: Senegambia- Mahamadou lamine (in, m. Crowder: West African Resistance- The Military response to Colonial occupation), Hutchinson University Library for Africa. London, 1978.
- 61) PALMER, H.R.: ' The Kano Chronicle' , J.R.A.S., 1908.
- 61) ..... The Bornu Sahara and Sudan. London, 1936.
- 36) .....: ' Two Sudanese Manuscripts of the Seventeenth Century', B.S.O.A.S, V, 1928-30.
- 46) .....: ' History of Katsina', J.A.S., XXVI, April, 1927.
- 65) PANIKER, K.M.: The Serpent and the Crescent: A History of the Negro Empires of Western Africa. Bombay, 1963.
- 66) PEDLAR, F.J.: West Africa. London, 1951.
- 67) ROBINSON, A.E.: ' The Tekruri Sheikhs of Gallabat', J.A.S., XXVI, Cl, Oct., 1926.
- 68) RODNEY, W.: 'Jihad and Soical Revolution in Futa Djalón in the Eighteenth Century' J.H.S.N., IV, 2, June, 1968.
- 69) SHARIF, M.M.: Islam in Africa. Lahore, 1964.
- 70) SHARKAWY, M.A.M.: ' Egyptian and Foreign Elements in the Evolution of West African Cultures ', B.F.A.C.U., 1, 2, 19.
- 71) SMITH, H.F.C.: ' Source Material for the History of Western Sudan', J.H.S.N., 1,3, 1958.
- 72) STAMP
- 73) STEWART, E.K. and STEWART, C.C.: Islam and Social order in Mauritania: A case Study from the 19th. C. oxford, 1973.

- 74) TRIMINGHAM, J.S. A History of Islam in West Africa. Oxford, 1970.
- 75) .....: Islam in West Africa. Oxford, 1959.
- 76) TRIMINGHAM, J.S: The Influence of Islam upon Africa. London, 1968.
- 77) TRIMINGHAM, J.S. and Others: Islam in Africa. America, 1969.
- 78) WARD, W.E.F.: A History of Africa. London, 1960.
- 79) WILKS, 1.: 'The Northern Factor in Ashanti History: Begho and the Mande, J.A.H., II, 2, 1961.





# المحتويات

الصفحة	الموضوع
٣٦-١	مقدمة الكتاب .....
١	أ - بواعث وأهمية موضوع الكتاب .....
٥	ب - دراسة عن أهم مصادر الكتاب .....
٥١-٣٧	تمهيد: عن شمالي وغربي إفريقية .....
	القسم الأول
١١٩-٥٢	الفصل الأول: عوامل تغلغل الإسلام إلى غربي إفريقية .....
٥٧	المبحث الأول: التجارة والتجار .....
٩٧	المبحث الثاني: العلماء الدعاة المعلمون .....
١٠٥	المبحث الثالث: المرابطون .....
١١١	المبحث الرابع: الفرقة السنوسية .....
١١٧	المبحث الخامس: الهجرات الإسلامية .....
١٥٠-١٢٠	الفصل الثاني: أسباب نجاح تغلغل الإسلام في غربي إفريقية .....
١٢٥	المبحث الأول: الدوافع .....
١٢٩	المبحث الثاني: بساطة وسماحة العقيدة الإسلامية .....
١٤١	المبحث الثالث: قيادة المسلمين التجارية والجغرافية .....
١٤٩	المبحث الرابع: المعتقدات الروحية في إفريقية .....
٢٥٩-١٥١	الفصل الثالث: الآثار الحضارية لتغلغل الإسلام في غربي إفريقية ...
١٥٥	المبحث الأول: قيام دولة غانا الإسلامية .....
١٥٥	تمهيد عن المنطقة عامة .....
١٥٩	المطلب الأول: التطور التاريخي لقيام دولة غانا .....

الصفحة	الموضوع
١٧٣	المطلب الثاني: المرابطون ودولة غانا .....
١٧٩	المطلب الثالث: الأثر الحضاري للإسلام في غانا .....
١٧٩	أولاً: الناحية الثقافية .....
١٨٤	ثانياً: الناحية الاجتماعية .....
١٨٦	ثالثاً: الناحية الاقتصادية .....
١٨٨	رابعاً: الناحية السياسية .....
١٩٣	المبحث الثاني: دولة مالي الإسلامية .....
١٩٣	المطلب الأول: التطور التاريخي لقيام دولة مالي .....
٢٠٠	المطلب الثاني: الإسلام في دولة مالي .....
٢١٠	المطلب الثالث: الأثر الحضاري للإسلام في دولة مالي .....
٢١٠	أولاً: الناحية السياسية .....
٢١٤	ثانياً: الناحية الاقتصادية .....
٢١٦	ثالثاً: الناحية الثقافية والروحية .....
٢٢٥	المبحث الثالث: دولة سنغي الإسلامية .....
٢٢٥	المطلب الأول: تطورها التاريخي .....
٢٢٩	المطلب الثاني: الإسلام في سنغي .....
٢٣٥	المطلب الثالث: المراكشيون ونهاية دولة سنغي .....
٢٣٨	المطلب الرابع: أثر الإسلام الحضاري في دولة سنغي .....
٢٣٨	أولاً: الناحية السياسية والإدارية .....
٢٤٠	ثانياً: الناحية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية .....

الصفحة	الموضوع
٢٤٧	المبحث الرابع: دولة الفولاني الإسلامية .....
٢٤٧	المطلب الأول: الفولاني - دراسة تعريفية عن الأصل .....
٢٥٠	المطلب الثاني: دور الفولاني في إسلام بلاد الهوسا .....
	المطلب الثالث: الأثر الحضاري للإسلام في دولة الفولاني
٢٥٥	الهوساوية .....
٢٥٥	أولاً: الناحية السياسية .....
٢٥٦	ثانياً: الناحية الاقتصادية .....
٢٥٨	ثالثاً: الناحية الاجتماعية .....
	القسم الثاني
٢٦٠	حركة التعليم الإسلامي في معاهد غربي إفريقيا قبل الاستعمار
٢٩٥-٢٦٣	الفصل الرابع: أماكن التعليم في غربي إفريقية .....
٢٦٧	المبحث الأول: المسجد .....
٢٨١	المبحث الثاني: الكتّاب .....
٢٩١	المبحث الثالث: منازل العلماء وقصور الحكام .....
٢٩١	المطلب الأول: منازل العلماء .....
٢٩٣	المطلب الثاني: قصور الحكام .....
٣٥٥-٢٩٦	الفصل الخامس: حركة التعليم الإسلامي في معاهد مدينة تنبكت .....
٣٠١	المبحث الأول: تاريخ مدينة تنبكت .....
٣١١	المبحث الثاني: تاريخ معاهد تنبكت العلمية .....
٣١١	المطلب الأول: الجامع الكبير .....

الصفحة	الموضوع
٣١٦	المطلب الثاني: مسجد سنكري .....
٣٢٢	المطلب الثالث: مسجد سيدي يحيى التادلسي .....
٣٢٩	المبحث الثالث: أشهر علماء معاهد تنبكت .....
٣٧٦-٣٥٩	الفصل السادس: حركة التعليم الإسلامي في معاهد مدينة جني .....
٣٦١	المبحث الأول: تاريخ مدينة جني .....
٣٧١	المبحث الثاني: أشهر معاهد جني وعلمائها .....
٤٦٥-٣٧٧	الفصل السابع: حركة التعليم الإسلامي في بلاد الهوسا .....
٣٧٩	تمهيد .....
٣٨٧	المبحث الأول: تاريخ الإسلام والتعليم الإسلامي في معاهد كانو .....
٤٠٧	المبحث الثاني: تاريخ حركة الإسلام والتعليم في معاهد كاتسينا .....
٤١٧	المبحث الثالث: أشهر علماء بلاد الهوسا .....
٥٠٤-٤٦٧	الفصل الثامن: تاريخ حركة الإسلام والتعليم الإسلامي في بلاد البرنو .....
٤٦٩	تمهيد .....
٤٧٧	المبحث الأول: حركة الإسلام والتعليم الإسلامي في بلاد البرنو .....
٤٩٥	المبحث الثاني: أشهر علماء البرنو .....
٦٣٢-٥٠٧	الفصل التاسع: علماء غربي إفريقية .....
٥٠٧	تمهيد .....
٥١١	المبحث الأول: ألقاب العلماء .....
٥٢١	المبحث الثاني: وظائف العلماء .....
٥٣٣	المبحث الثالث: مكانة العلماء الاجتماعية .....

الصفحة	الموضوع
٥٣٧	المبحث الرابع: دورهم في التوجيه .....
٥٤٥	المبحث الخامس: دورهم في الحركات الإسلامية الإصلاحية .....
٥٤٥	المطلب الأول: حركة الشيخ ناصر الدين .....
٥٤٨	المطلب الثاني: حركة الشيخ مالك ساي .....
٥٤٩	المطلب الثالث: حركة الشيخ عبدالقادر .....
٥٥٠	المطلب الرابع: حركة الشيخ عثمان بن فودي .....
٥٥١	المطلب الخامس: حركة الشيخ صالح بن محمد جنتا .....
٥٥٦	المطلب السادس: حركة الشيخ حمد .....
٥٥٨	المطلب السابع: حركة الحاج عمر الفتوي .....
٥٦٤	المطلب الثامن: حركة الشيخ مابا جاخو .....
٥٦٥	المطلب التاسع: حركة الشيخ فودي كبا .....
٥٦٦	المطلب العاشر: حركة الشيخ محمد الأمين درامي .....
٥٨٣	المطلب الحادي عشر: حركة الشيخ أحمد بامبا .....
٥٩٣	المبحث السادس: الأثر الحضاري الإسلامي للحركات الإصلاحية الإسلامية .....
٥٩٩	المبحث السابع: مواقفهم في المحن .....
٦٠٥	المبحث الثامن: وسائل كسب العيش .....
٦١١	المبحث التاسع: برنامج الدراسة اليومي .....
٦١٥	المبحث العاشر: أساليب التدريس .....
٦٢١	المبحث الحادي عشر: الإجازة العلمية .....
٦٢٧	المبحث الثاني عشر: التخصص العلمي .....
٦٣١	المبحث الثالث عشر: لغة التدريس وأسلوب الكتابة .....



الصفحة	الموضوع
٦٦٤-٦٣٣	الفصل العاشر: التلاميذ
٦٣٧	المبحث الأول: سن التعليم
٦٤١	المبحث الثاني: مراحل التعليم
٦٤٥	المبحث الثالث: أنواع تلقي العلوم
٦٤٩	المبحث الرابع: الرحلة العلمية
٦٥٥	المبحث الخامس: أحوال التلاميذ العامة
٦٦١	المبحث السادس: نصيب المرأة من التعليم
٦٩٣-٦٦٧	الفصل الحادي عشر: الكتب والمواد الدراسية الشائعة الاستعمال
	الفصل الثاني عشر: التبادل التعليمي مع البلاد الإسلامية خارج غربي
٧٤٨-٦٩٩	إفريقية وداخلها
٦٩٩	المبحث الأول: مع بلاد المغرب والصحراء
٧٢٧	المبحث الثاني: التبادل التعليمي مع مصر والسودان العربي والحجاز
٧٢٧	المطلب الأول: مع مصر
٧٤٤	المطلب الثاني: مع السودان العربي النيلي
٧٤٧	المطلب الأول: مع الحجاز
٧٦٥-٧٤٩	خاتمة
٨٠١-٧٦٧	الملاحق
٨١٣-٨٠٣	ملحق الخرائط
٨٤٥-٨١٥	المصادر والمراجع
٨٥٢-٨٤٧	فهرس المحتويات



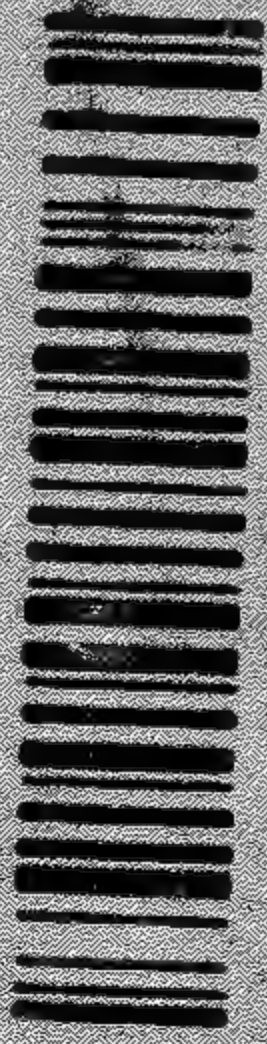








Bibliotheca Alexandrina



0338432